الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين - سطيف2

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة

مقدمة لنيل شهادة

دكتوراه العلوم

التخصص: معجمية وقضايا الدلالة

إعداد الطالب: عبد الكريم حسين

فضاءات المفردة القرآنية في الخطابين المكي والمدني

-دراسة بيانية-

المشرف: د. مسعود بودوخة

جامعة محمد لمين دباغين - سطيف2

لجنة المناقشة:

أ.د. النواري سعودي	أستاذ	جامعة محمد لمين دباغين سطيف2	رئيساً
د. مسعود بودوخة	أستاذ محاضر أ	جامعة محمد لمين دباغين سطيف2	مشرفاً ومقرراً
د. محمد بوادي	أستاذ محاضر أ	جامعة محمد لمين دباغين سطيف2	ممتحناً
د. أحمد مرغم	أستاذ محاضر أ	جامعة محمد لمين دباغين سطيف2	ممتحناً
د. محمد بن صالح	أستاذ محاضر أ	جامعة محمد بوضياف المسيلة	ممتحناً
د. بوعلام طهراوي	أستاذ محاضر أ	جامعة البويرة	ممتحناً

2016 - 2015

بسم الله الرحمان الرحيم

﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:109) .

صدق الله العظيم

أردنا أن نجعل من هذه الآية الكريمة مرتكز بحثنا، واعتماد تحليلنا، فهي تعطينا حق تبرير نقصنا، ومسوغ عجزنا عن استيفاء دلالات ألفاظ القرآن العظيم.

شكر وامتنان

أحمد الله تعالى الذي يسّر لي السبيل لأنهي هذا البحث في وقته المحدد .

وأشكر الأستاذ المشرف: الدكتور مسعود بودوخة على تفضله بالإشراف على هذا البحث، حتى وصل إلى نهايته المرجوة. وأشكر الدكتور: خليفة بوجادي الذي كان قد أشرف عليه مدة من الزمن، وأنوّه بمعاملته الرائعة التي تميّزت لتكون أقرب إلى علاقة صداقة، منها إلى علاقة مشرف بطالب. ثم تنازل عن متابعة الإشراف للأستاذ بودوخة الذي كان هو الآخر أقرب إلى الزميل منه إلى المشرف الرسمي.

وأشكر زوجتي على تحمّلها أعباء متابعة الأبناء في دراستهم، وأشكرها على صبرها - طيلة مدة إنجاز البحث - على ما بدر منّي من تقصير في بعض واجباتي العائلية تجاههم جميعاً .

وأشكر كذلك كل الذين أشاروا عليّ بفكرة، أو رأي، أو أمدّوني بمرجع يتعلق بالبحث. وأشكر بالخصوص زميلي الدكتور: أرزقي شمون الذي تفضل بمراجعة فصول هذا البحث، بالتدقيق اللغوي، وبالتنبيهات اللطيفة.

وأخيرا؛ أشكر كل من كانت له يد في إنجاز هذا البحث، ولم يتسع المجال لذكرهم.

لكل هؤلاء جزيل الشكر والعرفان.

عبد الكريم

UNIVERSITE SETIF2

UNIVERSITE SETIF2

إهـــداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى والديّ الكريمين، راجياً لهما الصحة والعافية، وطول العمر. تقديراً لهما وعرفانا .

وأهديه أيضاً إلى عائلتي الصغيرة، بدءاً بزوجتي التي طالما كانت تحثني على إنهائه، كلما رأت فيّ بعض التراجع في الإنجاز لسبب أو لآخر.

وأهديه إلى أبنائي؛ سفيان، ومحمد، وإلياس، راجياً من الله تعالى أن يوفّقهم في دراستهم.

وأهديه أيضاً إلى عائلتي الكبيرة؛ أخواتي؛ وإخوتي.

وإلى أفراد عائلة زوجتي؛ أمّها، وأبيها، وإلى أخواتها وإخوتها .

إليهم جميعاً أهدي ثمرة جهد ست سنوات.

عبدالكريم

مقدمة:

إن للبحث في القرآن الكريم متعة ومشقة؛ أما المتعة فلأنّ الباحث - وهو ينظر في النص القرآني - يجد راحته النفسية حينما يعتقد أنه اكتشف أمرا أراده المولى تعالى لعباده، أو اقترب من فكّ سر من أسرار هذا الكتاب العظيم، وأما المشقة فلأنّ البحث فيه يعتبر ضرباً من المجازفة، ونوعاً من الإبحار في يوم عاصف.

ولعل ما بات من المؤكد في أوساط المهتمين بالعلوم الدينية واللغوية، أن القرآن الكريم -كما رآه - مالك بن نبي - "ظاهرة" فريدة في التراث البشري، وذات مميزات خاصة من بين الرسالات السماوية الأخرى. ذلك لأنه كتاب شديد التعقيد من جهة، يستحيل على المرء - أيّا كان مستواه - أن يقلده في شيء منه. قال تعالى:﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾(الإسراء:88). وهو سهل التلاوة والحفظ من جهة أخرى، حتى بالنسبة إلى البسطاء من الناس والمبتدئين من طلبة العلم. قال تعالى:﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾(القمر:17).

إنّ القرآن الكريم - بهذه المواصفات -كتابٌ نسيجُ وحده، جعل العرب الفصحاء البلغاء يقفون أمامه موقف المذعِنين المدرِكين بحق قدرته الخارقة على التعبير عن المفاهيم الحياتية، وعن نواميس الكون وطبائع الأشياء، بنوع من التأكد والصرامة والدقة التي لم تعهدها الآثار السابقة له، من شعر ونثر وأضربهما.

ولا شك في أنّ عدم تفكير العرب الخُلّص في مجاراة الخطاب القرآني في أسلوبه، فضلاً عن تحديه، لا يعني عزوفهم عن البحث في أسرار هذا الخطاب المميز، الجاذب للانتباه، والكشف عن مظاهره. وخير دليل على ذلك ما تزخر به المكتبات العربية والإسلامية اليوم من مؤلفات اتخذت من لغة القرآن الكريم واسلوبه موضوعاً لها، وهي متنوعة بتنوع زوايا النظر إلى هذا الخطاب الرباني الفريد من نوعه.

لكن مهما يكن حجم هذه الدراسات التي تمحورت حول كتاب الله تعالى، على مدار القرون التي أعقبت نزول الوحي الأخير على نبيّنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، يظل الخطاب القرآني في حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة للوقوف على الجوانب التي ما تزال خفية من مظاهر إعجازه. وفي هذا السياق تحديداً يتموضع بحثنا هذا، إذ نسعى من خلاله إلى تسليط الضوء على جانب ذي وزن من النص القرآني، هو المفردة وما يتعلق بها من دلالة، وقد آثرنا أن يكون عنوانه: **فضاءات المفردة القرآنية في الخطابين المكي والمدني - دراسة بيانية.**

ولم يكن استقرارنا على هذا الموضوع من قبيل الصدفة، أو الاعتباطية، إنما لاعتبارات مختلفة، يمكن أن نذكر أهمها في ما يلي:

- ميلنا الطبيعي إلى هذا النوع من الدراسات (القرآنية) التي كثيراً ما وصفها علماؤنا القدامى بأشرف العلوم منزلة، وأعلاها مرتبة، وهم في ذلك مُحقّون لا ريب، طالما الأمر يتعلق بكلام الله تعالى.

- يقيننا من أنّ القرآن الكريم ليس كمثله كتاب، فهو كنز لا يفنى، ومعين لا ينضب، لا يقترب منه دارس جادّ، ولا باحث مخلص إلاّ واكتشف أمراً جديداً، أو ألمح إلى مظهر من مظاهر إعجازه.

- إدراكنا قلة المؤلفات التي جعلت من المفردة القرآنية موضوعاً لها، لا سيما القائمة منها على المقارنة بين الخطابين المكي والمدني. وفكرة المقارنة هذه، هي جوهر الإشكالية في بحثنا هذا، إذ تنطوي على جملة من التساؤلات، لعلّ أهمها ما يلي:

– هل مردّ اختلاف المعجم في الخطاب القرآني بين السور المكية والسور المدنية إلى مجرد التنويع في أساليب التبليغ، وفي استعراض الفصاحة والبلاغة، أم لأغراض دلالية يراد إيصالها إلى المتلقين؟

– إذا كان عبد القاهر الجرجاني قد حسم أمر الإعجاز القرآني من خلال نظرية النظم، مبيّناً أن الفضل كل الفضل فيه إنما للنحو ومعانيه، أفليس للمفردة حظ من هذا الإعجاز في الخطاب القرآني؟

– لو سلّمنا فرضاً بأنّ أعجاز القرآن الكريم، إنما في نظمه دون سواه، فما جدوى الاختلاف بين الخطابين المكي والمدني من حيث المفردة؟

– هل كان أسلوب الخطاب القرآني سيتغيّر في مكة ليصبح كأسلوب الخطاب المدني، لو أن قريشاً آمنت برسالة النبي (ص)، ولم يضطر عليه الصلاة والسلام إلى الهجرة؟

إنّ محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها هي صلب الموضوع في هذا البحث.

وإن هذا الاختلاف في الخطاب وفي أساليب التبليغ، ليس من باب التنوع اللغوي واستعراض الفصاحة والبلاغة اللسانية، إنما هذا التنوع في الأساليب والألفاظ لا بد أن يكون لغرض دلالي، ولفائدة حياتية إنسانية، علمنا ذلك الآن، أم جهلناه، حتى يفصح عنه باحثون آخرون في وقت لاحق.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، أن العرب الخلّص، أو العرب من قريش لم يجازفوا بأن يتصدوا لتحدي أسلوب القرآن أو مجاراته، علما منهم بأن المجال ليس مجال تحد على الإطلاق. وإنما الذي فعل ذلك لم يكن ممن يدركون دقائق اللغة العربية، وإلاّ ما تجرأ على الإقدام على الخوض في أمر اجتنبه أرباب البيان.

أما فيما يتعلق بمصطلح "فضاء"، فقد تبنّيناه وفضّلناه على المصطلحات الأخرى التي تشبهه، إذ لم نجرؤ على استخدام مصطلح "فلك" - مثلاً - لعدم تواتره في الدراسات القرآنية والنقدية، عموماً، فوظّفنا المصطلح المطّرد وهو "فضاء". ولم نستخدم - كذلك - مصطلح "حقل دلالي"، أو "حقل مفهومي"، حتى لا يتصل البحث بعلم الدلالة بصورة مباشرة فيضطرنا - هو أيضا - إلى التمسك بآليات هذا العلم، وعدم الحياد عنها، مما يضعنا في دائرة ضيقة من البحث والدراسة، سيّما حين يتعلق الأمر بالنص القرآني المميّز بالانفتاح وتعدد المعاني.

وقد جنحنا كذلك إلى تسمية هذه الدراسة بـ"دراسة بيانية" لعدة أسباب نلخصها فيما يلي:

- أحببنا أن يكون لهذا المصطلح لمسة قرآنية، لأن الله تعالى يقول:﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾(الرحمان:3- 4). وقال أيضاً:﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾(الشعراء:195).

- إنّ المصطلح مطّرد عند المشتغلين بالدراسات القرآنية. ولا أدل على ذلك من عناوين بعض المؤلفات، بدءاً بعائشة عبد الرحمان في كتابها "التفسير البياني"، وفاضل صالح السامرائي في كتابيْه "لمسات بيانية"، و"على طريق التفسير البياني"، وصلاح عبد الفتاح الخالدي في "إعجاز القرآن البياني ومصدره الرباني"....

- أردنا تجنب تحديد منهج خاص من المناهج المعاصرة، كي لا نكون أسرى المنهج وآلياته التي قد لا تتوافق دائماً مع النص القرآني، فتقف عائقاً في فهمه، بدلاً عن أن تكون وسيلة لتوضيحه وبيان مقاصده.

وأما عن خطة البحث فإنها تتشكل من أربعة فصول، وتحت كل فصل مباحث متباينة من حيث الحجم، نظراً لطبيعة المفردات الواردة في كل فضاء، وفي كل من الخطاب المكي والخطاب المدني.

فالفصل الأول، عنوانه: **المفردة في الدرس اللغوي**؛ وهو فصل نظري حاولنا التأصيل فيه لمفهوم المفردة اللغوية، ودلالتها، وكيف نظر إليها الباحثون، من حيث حدّها، وقيمتها المعجمية، وغيرها من تمظهراتها المتنوعة في الاستخدامات المختلفة، من وجهات نظر متباينة؛ في مختلف العلوم اللغوية؛ قديماً وحديثاً، عند العرب وعند غيرهم.

وقد قسمناه إلى عدة مباحث هي:

المبحث الأول: عنوانه المفردة اللغوية، حدّها وقيمتها.

وقد عرضنا فيه آراء العلماء قديما وحديثاً، في مسألة المفردة اللغوية، وقيمتها، واعتباراتها المختلفة من فصاحة، وبلاغة، وحقيقة، ومجاز، وترادف وغيرها من الظواهر المتعلقة بها، والتي فصّل فيها علم البلاغة، وفقه اللغة، وعلم اللغة الحديث.

المبحث الثاني: عنوانه المفردة القرآنية واعتباراتها

وعرضنا فيه للمفردة القرآنية على الخصوص، باعتبارها مدار البحث وموضوعه، ولأنها أخذت حيّزاً كبيراً من جهود العلماء والباحثين في حقل الدراسات القرآنية، قديماً وحديثاً، لكونها تتعلق بمسألة الإعجاز، التي تعتبر حجر الزاوية في كل هذه الدراسات.

أما الفصل الثاني فهو بعنوان: **فضاءات المفردة القرآنية في الخطاب المكي**، فقد حاولنا فيه الاقتراب من الدلالات المتنوعة للمفردات التي وردت في هذا الخطاب، ولم ترد في الخطاب المدني، مثل: عربي، سحر، شاعر، كاهن، بني إسرائيل، ولم ترد في الخطاب المدني، أو تلك التي وردت في الخطاب المكي، وورد مرادفها، أو نظيرها في الخطاب المدني، مثل: الرسول/ النبي، بني إسرائيل/ اليهود، بنون/ أبناء... إلخ، مع الالتفات إلى صيغها المختلفة إن وجدت، ودلالة ذلك التوظيف المميز. وفي هذا الفصل ثلاثة مباحث هي التالية:

المبحث الأول: المفردة القرآنية والفضاء العقدي

المبحث الثاني: المفردات القرآنية والفضاء المعتقداتي

المبحث الثالث: فضاء المفردات الثنائية المتشابهة (المترادفة)

المبحث الرابع: فضاء المنظومة اللفظية

وأما الفصل الثالث، فعنوانه: **فضاءات المفردة القرآنية في الخطاب المدني**، وقد خصصناه للحديث عن المفردات التي وردت في هذا الخطاب، ولم ترد في الخطاب المكي، مثل: الجهاد، القتال، جناح، حرج، محصن... إلخ. وتنضوي تحته مباحث أربعة هي التالية:

المبحث الأول: فضاء مفردات التشريع

المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية المتشابهة (المترادفة)

المبحث الثالث: فضاء المنظومة اللفظية

المبحث الرابع: فضاء مفردات التنوع الصرفي

وأخيراً، الفصل الرابع بعنوان بـ: **فضاءات المفردة القرآنية الواردة في الخطابيْن معاً؛ المكي والمدني**، وعرضنا فيه لعيّنة من المفردات التي وردت في كلا الخطابين، محاولين فهم سر هذا الاستخدام المميز لمفردات النص القرآني، بهذا التنوع والتفاوت في تناول تلك المفردات، وكذا مشتقاتها المختلفة. وقد تشكل من خمسة مباحث هي التالية:

المبحث الأول: فضاء المجال الاجتماعي.

المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية المتشابهة (المترادفة).

المبحث الثالث: فضاء الثنائيات الضدية (النظائر).

المبحث الرابع: فضاء المنظومة اللفظية المتشابهة

المبحث الخامس: فضاء التنوع الصرفي للمفردات

وختمنا البحث بذكر جملة من النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا العرض، والتي تمحورت حول كون المفردة القرآنية ذات استخدام خاص، وبُعد مميّز، في إيرادها بنوع من الاطّراد بأشكالها الصرفية المختلفة. سواء أكان ذلك التوظيف في الخطاب المكي، أم في الخطاب المدني؛ فالمعنى هو الداعي دائماً لتوظيف صيغة بدلاً من أخرى، وهو اللمحة المتفردة في توظيف مفردات القرآن الكريم، بشكل يستحيل على الإنسان الإتيان بما يشبهه. بل يعجز عن ذلك الفرق والطوائف ولو اجتمعت له.

أما من حيث المنهج المطبّق في هذا البحث، فقد كان اعتمادنا المنهج الوصفي التحليلي سبيلاً للوقوف على بعض أسرار التعبير القرآني في إيراد مفرداته، من غير أن نهمل بقية المناهج - متى كانت تسعفنا في التحليل - سيّما المنهج الإحصائي الذي وجدنا أنفسنا آخذين به، كآلية ناجعة في بعض جوانب الدراسة، لكونه قادرا على تقريب الفكرة، وضبط المسائل، وحسم الأمر في أحايين كثيرة.

أما عن عقبات البحث، فجلّها تقني، نوجزها فيما يلي:

- مسألة القراءات القرآنية - التي ليس في متناولنا منها سوى قراءتين؛ هما ورش وحفص- فقد تؤثر في بعض نتائج البحث؛ لأنّ إحصاء مفردة ما بقراءة ورش ليس هو نفسه إذا أحصيتها براوية حفص، فمادة "نشز" مثلاً، تعطينا - برواية ورش - عدداً من المفردات أقل من رواية حفص، ومثل ذلك كثير، سيما في الصيغ الصرفية. فما يورده ورش بصيغة ما، يورده حفص بصيغة مخالفة. وعند التحليل لا نستطيع القول إنّ هذه الصيغة هي الوحيدة المناسبة للمقام، ما دام هناك صيغة ثانية، وربما ثالثة للمادة نفسها، كما أشار إلى ذلك فاضل السامرائي في كتابه "الكلمة في التعبير القرآني". غير أننا اعتمدنا قراءة حفص، بسبب أن كل البرامج الحاسوبية الخاصة بالقرآن الكريم، وتلاوته، قد برمجت على قراءة حفص.

– صعوبة تصنيف المفردات في فضاء خاص موحد دائماً؛ وهو نفسه المشكل الذي يُواجه نظرية الحقول الدلالية في تصنيف مفردات الحقل الواحد، بحيث يمكن أن تكون الكلمة الواحدة عضواً في أكثر من حقل، وعليه، يجب النظر في جوانب أخرى للمفردة ،حتى يتسنى لنا تصنيفها في مجال دون آخر. لأنّ المفردة القرآنية متلوّنة ومتشعبة لدرجة

غاية في التعقيد، سيما الاستثناءات التي تهدم القاعدة وتحول دون اطّرادها في كل الخطاب القرآني. فعلى سبيل المثال يطّرد ذكر قتْل الأنبياء، وليس الرسل، إلا في آية واحدة. ويطرد ذكر اسم "الرحمان" في الخطاب المكي، ما عدا الذي في سورتيْ الرحمان، والحشر، وقد ورد هذا الاسم خمساً وأربعين 45 مرة في القرآن الكريم كله.

– قلة التلميحات في كتب التفاسير، وعلوم القرآن، في تخريج كثير من المتشابهات اللفظية؛ بل ويعتبرها بعضهم مترادفة تماماً، مما يضطرنا في كثير من الأحيان إلى الاحتكام إلى السياق القرآني وحده، وإلى اطّراداته الأسلوبية في الخطابين المكي والمدني.

– عدم تدقيق أصحاب المعاجم - أحياناً - في إيراد دلالة اللفظة في معاجم اللغة؛ من حيث الترادف، والصيغ الصرفية المتنوعة. إذ كثيراً ما يرى أصحاب هذه المعاجم الألفاظ المتشابهة مترادفة تماماً. وأحياناً نعثر على عبارة: معروف؛ ويُقصد بذلك معنى الكلمة المطلوب شرحها، وكأنها لا تحتاج إلى شرح. فحين كنا نبحث عن الفرق بين "قتال" و"قتْل"، و"مقاتلة" - على سبيل المثال - لكي نفهم سر اختيار التعبير القرآني صيغتيْ "قتْل" و"قتال" دون صيغة "مقاتلة"، لم نجد ما يسعفنا في لسان العرب، ولا في غيره، إلا قليلا في مراجع خاصة بعلوم القرآن. فكنّا مضطرين لاستنباط فضاء دلالة المفردة من توظيفها في النص القرآني ذاته، بنوع من الاطّراد الذي يكاد يكون ثابتاً في جميع الآيات التي ترد فيها تلك اللفظة.

ولكن الشيء الذي اهتدينا به في هذا التناول هو اطّراد المفردة في جميع السياقات بمعنى واحد، أو في مجال متقارب، بحيث يحكم عليها الباحث بحكم يكون أقرب إلى الصواب، ذلك لأن الاطّراد يعطيها نوعاً من الاستقرار في المعنى، والثبات عليه في مجموع آيات القرآن الكريم. وكثيراً ما كان هذا الاطّراد لتفسير القرآن مساعداً، ولدلالاته موضحاً، وحتى إن تنوعت، فإنها لا تبتعد البعد الذي يكون فيه الفارق شاسعاً، فتذهب القراءات بالمرء مذاهب شتى تبلغ أحياناً حد التناقض، والخروج عن المألوف من اللغة ومداليل اللفظة، وما اتفق عليه أصحاب اللغة.

ولقد رأينا بعض التفسيرات التي يبدو أنها غالت مغالاة كبيرة حين ذهبت إلى القول بالتفسير الباطني، فركبت مركباً صعباً جداً، حتى زعم بعضهم أن المقصود بالبقرة هي عائشة، والمقصود باللؤلؤ والمرجان هما الحسن والحسين، والمقصود بتسع وتسعين نعجة النساء، وهكذا مع بقية التخريجات التي لا تتوافق مع ما يطرد من معانى تلك الألفاظ. كما زعم بعض المعاصرين أنّ "القلم" في القرآن الركيم ورد بمعنى "التقليم"؛ أي التمييز، وأنّ "البنون" بمعنى "البنيان"، وأنّ "النساء" بمعنى "النسيئة"، و"الشهر" بمعنى "الإشهار"، وغير ذلك مما لا يستقيم مع مضمون الآيات التي وردت فيها هذه الألفاظ، ومع ما اطّرد منها في آيات أخر.

وقد استعنا في تصنيف مفردات القرآن الكريم، بالبرامج الحاسوبية الخاصة به، معتمدين أكثر من برنامج. مما ساعدتنا في هذا العمل كثيراً، ولولا هذه البرامج لأخذ منا البحث جهداً ووقتاً إضافيين، إلا أنّ التعامل معها يقتضي كثيراً من الحذر، فقد تغالطنا ونحن نبحث عن الكلمات، إذ لا تعطينا العدد الحقيقي لما نطلب، ليس إلا لأنها لا تعرف حدود الكلمة من حيث عدد حروفها، في الحالة التي تكون فيها الكلمة المطلوبة متصرفة، أو متصلة بحرف جر، أو غيره، مما اضطرنا في كثير من الأحيان أن نطلب من الحاسوب البحث عن بعض التصريفات الخاصة بالكلمة، كأن تكون نكرة أو معرفة، أو مضافة إلى ضمير ما ...إلخ.

وأما عن المراجع المعتمدة في هذا البحث، فهي كثيرة ومتنوعة، منها التراثية والحديثة، مثل كتب المعاجم اللغوية، كلسان العرب لابن منظور، ومقاييس اللغة لابن فارس، ومصنفات علوم القرآن، خاصة تلك المتعلقة بمفرداته، وعلى رأسها "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب الأصفهاني، لأنه في أكثر الأحيان يدقق في المفردات المتشابهة، وفي الصيغ الصرفية المأخوذة من مادة واحدة. كما استعنا أيضاً بكتب التفسير، مثل الكشاف للزمخشري، والتحرير والتنوير لابن عاشور، الذي اعتمدناه أكثر من غيره من التفاسير، بسبب قربه من عصرنا، فقد استوعب ما قاله السابقون، وأضاف عليه ما أمتله ظروف عصره، ولأنه - كذلك - يدقق في المسائل اللغوية كثيراً، بحيث عثرنا فيه على تخريجات لغوية مفيدة لم نجدها في غيره من المؤلفات، مع إشارته إلى القراءات القرآنية المختلفة كذلك.

واعتمدنا أيضاً مصدر الإنترنيت مرتين، حين كان ذلك لزاما علينا، ولم نجد مفراً منه، لكون المعلومات التي وجدناها فيه غير منشورة في كتب مطبوعة إلى حد كتابة هذا البحث؛ وأقصد بذلك موضوع "الكلمة وأخواتها" للشيخ أحمد الكبيسي، الذي تناول الألفاظ المترادفة، وسماها "منظومة"، مثل: منظومة هرب، فرّ، أبق، أو منظومة: جاء، أتى، حضر... إلخ. فأوضح أنّ كل كلمة ذات دلالة خاصة. أما الموضوع الثاني فقام به الباحث بسام جرار من "مركز نون للدراسات الإسلامية"، بوضع معجم الفرائد القرآنية؛ وهي الألفاظ التي وردت مرة واحدة في الخطاب القرآني، وتفوق المائة لفظة، واختار منها تلك التي لم يشتق من جذرها اللغوي سواها، ثم قدّم لها تعريفاً بحسب ما ورد في التفاسير وفي معاجم اللغة. إلاّ أنه لم يُعْطِ تفسيراً دلالياً لهذه الفرادة في الاستخدام.

أما المراجع الأخرى التي استعنا بها، فكانت بحسب مضامين المباحث، منها كتاب التعريفات للشريف الجرجاني، الذي يعتمد كثيراً المفاهيم الاصطلاحية لمدلول المفردة. وكتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، الذي حاول التدقيق في الفرق بين معاني المترادفات. وكتاب "المصطلحات القرآنية المعرّفة" للباحث المغربي الشاهد بن محمد البوشيخي، وهو معجم ضخم، يتناول تفسير المفردة الواحدة عبر مسيرتها التاريخية في كتب التفاسير المختلفة. ومن المراجع التي أفادتنا كثيراً كتاب "سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن" لعودة منيع القيسي، وهو بحث قيّم أحصى فيه الباحث كل المفردات التي وردت بأكثر من صيغة؛ من أفعال ومشتقات، ومصادر؛ محاولاً الكشف عن الفروق الدقيقة بين المتشابهات؛ مثل الفرق بين نجّى وأنجى، جاء وأجاء، التوبة والمتاب والتوب، قاسطون ومقسطون إلخ.. وكتاب "العموم الصرفي في القرآن الكريم" لرضا هادي حسّون العقيدي، وكتاب "معاني الأبنية الصرفية" لفاضل صالح السامرائي.

وأخيراً، نرجو أن يكون قد وُفّقنا من خلال هذا البحث المتواضع في إثارة جانب من مسألة المفردة القرآنية، يستحق القراءة والعناية، مع فتح نافذة للنظر في مفردات القرآن الكريم من زاويا أخرى جديرة بالبحث والدراسة.

مدخل:

لا تزال المفردة القرآنية، أو الكلمة القرآنية، أو اللفظة القرآنية، بحسب تسمياتها عند الباحثين، محطّ أنظار الباحثين والدارسين في مجال علوم اللسان، وفي مجال علوم القرآن خصوصاً، على اختلاف مشاربهم، ذلك أنّ المفردة تمثل اللبنة الأولى، والأساسية لكل لغات العالم تقريباً، ومنها تُستقَى الدلالات المختلفة التي تصنعها السياقات، بعد أن تُضبط الدلالة الأولى، أو المعنى النواة، أو المعنى المعجمي الذي هو أصل الوضع اللغوي الأول.

ونحن - في الفصول الآتية - سنحاول ما وسعنا الجهد، وما أسعفتنا الطاقة، الاقتراب من دلالات المفردة القرآنية، هذه المفردة التي تتشكل وتتمظهر بطرق شتى، وتلبس معاني جديدة لا عهد للعرب بها في بعض وجوهها، وفي طرق توجيهها، والتي تحصر في فضاء خاص يطّرد معناها فيه بشكل فريد لا يكاد يتخلف، في جل السياقات التي يرد فيها. وهذه المفردة تروح وتجيء كالكائن الحي، لكنّها لا تعرف الشيخوخة ولا الهرم ولا البلى. وقد قال ابن مسعود في صفة القرآن:« لا يُتفه ولا يتشانّ »[1]. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:« ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمِعتُه يقول "مات حتف أنفه" وما سمعتها من عربي قبله »[2].

إنّ المفردة القرآنية تتمظهر في النص القرآني بأشكال شتى، وتتخذ مسارات محددة، وتتمحور حول فضاء دلالي خاص، فهي تسير مع نظيراتها، في فلك مسطّر، وفي خط معلوم، لتؤدي دلالاتها المقصودة، تلك الدلالات التي تشهد على أنّ القرآن الكريم شاهد على عصره، وعلى ما بعد عصره. وهي - أي المفردة - تحمل سراً إعجازياً بطريقة استعمالها في القرآن الكريم، وذلك هو مضمون دراستنا في هذا البحث.

ومن هذه التمهظرات للمفردة القرآنية، تنوع الصيغ الصرفية للأصل اللغوي الواحد الذي يقول فيه أحد الباحثين« لماذا استعمل القرآن - مثلاً - أنبأ ونبّأ، ومبين ومستبين، وحبّ ومحبة... إلخ. ولم يكتف بواحدة من كل اثنتين منها؟ أليس ذلك دليلاً على أنّ كل صيغة من الصيغتين المشتقتين من أصل لغوي واحد.. ذات خصوصية في المعنى والاستعمال؟ لأنه لا يكون من كتاب (معجز) أن يستعمل صيغتين لمعنى واحد، لأن استعمال صيغتين لمعنى واحد.. نقص في التعبير يبرأ منه القرآن، إذ عند حصول الثقة بأن تؤدي المعنى أداءً تاماً.. لا يكون العدول عنها إلى غيرها حكيماً، والقرآن.. حكمة بالغة »[3]. غير أنّ هذا الكلام ينطبق كذلك على المفردات التي تبدو مترادفة، إذ ليس من الحكمة - والحال هذه إذن - أن يستعمل القرآن الكريم كلمة في معنى ما، إذا كانت كلمة أخرى أحق بهذا المعنى. أو يوظف مجموعة من المترادفات في سياقات متباينة، لاسيما إذا اطّرد معناها في كل أو جلّ الآيات التي ترد فيها تلك المفردات.

---

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ط، 1981، ص298. ومعنى تفه، قلّ وخس، والطعام التفه ما ليس له طعم. وتشان الجلد يبس وتشنّج. (ينظر، ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، د. ط، د. ت، ج13، ص481).

[2] - المرجع نفسه، ص310. والمقصود بلفظ "عربية" أنها فصيحة.

[3] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، دار البشير، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، ط1، 1996، ص7.

غير أنّ أمر المفردات ليس بمعزل عن الدلالات المحمّلة بها؛ إذ لا معنى لمفردة - كيفما كانت - إذا لم تحمل معنى مميّزاً، وتدلّ على فكرة ما، أو أمر معيّن، أو توحي بشيء، وتشير إليه، من قريب أو بعيد. لأنّ هذا الوضع هو الذي أدهش فصحاء العرب، وأمراء البيان، فالآيات القليلة بألفاظها« فاجأت المشركين من حيث لم يحتسبوا، ودفعتهم إلى أن يتنبّهوا إلى أنّ هذا الكلام فيه معانٍ تختلف عن كل ما ألفوا من المعاني، من حيث هي معاني في ذاتها، ومن حيث هي مفتتح كلام. لقد ألفوا من شعرائهم افتتاح قصائدهم بالغزل والأطلال ومن كُهانهم كلاما غامضاً لا طائل تحته. فكان هذا الافتتاح - في معانيه وأسلوبه- "ثورة" على كل تلك الافتتاحات »[1].

وفي الواقع، فإننا نجد أنّ التعبير القرآني قد تصرّف بألفاظ اللغة تصرّفاً جديداً، فأتى بمعانٍ جديدة، غير أنّ تلك المعاني ليست من قبيل معاني الشعر التي يصنعها الكذب[2]، ويلفها الخيال، ويزينها المجاز، وتطرب لها النفس، ثم لا شيء وراء ذلك في الغالب. إنما معاني القرآن تحمل دلالة الحقيقة بكل أنواعها؛ الحقيقة التاريخية، والحقيقة الواقعية، والحقيقة الغيبية، تلك الحقائق التي أعيت العرب عن فهم كنهها العميق. ثم هي - أي معاني القرآن - بعد ذلك كله، دعوة حقيقية للعمل بما ورد فيها، لا للتسلية والترف المعرفي والمباهاة النظرية.

وفي هذا الشأن يذكر مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية، في فصل المجاز القرآني، أنّ القرآن عبّر عن أفكار ومَشاهد لا عهد للعربي بها في صحرائه. يقول:« ولكن المجاز القرآني ليس دائماً ولا غالباً انعكاساً للحياة البدوية في الصحراء. فهو يستمد - على عكس ذلك - عناصره وألفاظ تشبيهاته من بيئات وجِواء ومشاهد جد مختلفة »[3].

وضرب مثالاً على ذلك بآية من سورة النور؛ ليدلّل على عدم قدرة الإنسان العربي زمن النزول أن يدرك تلك المعاني على حقيقتها كما هي في الواقع الجغرافي، فالآية تقول:﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا**﴾(النور:40)، ثم علّق عليها بقوله:« فالمجاز يترجم على عكس سابقه عن صورة لا علاقة لها بالوسط الجغرافي للقرآن، بل لا علاقة لها بالمستوى العقلي، أو المعارف البحرية في العصر الجاهلي »[4]. غير أنّ هذا لا يعني أنّ العرب لم يفهموا بتاتاً المقصود من الآية؛ أي أنهم أدركوا - على الأقل- الدلالة المعجمية لهذه الألفاظ، وأدركوا المعنى العام لسياق الآية. فليس هناك غرابة في معنى: بحر، ولجيّ، وظلمات، وسحاب، وموج، ويغشاه، وغيرها، وهي ألفاظ معروفة وترد في الشعر الجاهلي بكثرة. ألم يقل شاعرهم في معلقته:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي ؟[5]

---

[1] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية، ص26 - 27.

[2] - نقصد بلفظ الكذب، فكرة النقاد التي تقول: أحسن الشعر أكذبه. ويراد بذلك الكذب الفني.

[3] - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر - دمشق سورية، الطبعة: الرابعة، 1420 هـ - 2000م، ص294.

[4] - المرجع نفسه، ص296.

[5] - امرؤ القيس، شرح ديوان امرئ القيس، تح: حسن السندوبي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1990، ص173.

إنّ مفردات ألفاظ القرآن هي نفسها ألفاظ العرب، وبدلالاتها التي تعرفها عنها، وتستخدمها في كلامها ونظمها، فليس هناك جديد في هذا المجال، إلا ما كان من توسيع دلالة اللفظة، أو تضييقها، أو تغيير مجالها الاجتماعي والثقافي« ولا يجوز أن تكون في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد والرب ومعنى العالمين والملك واليوم والدين وهكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن. وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعد من المحال وأشنع لكان إياه »[1].

غير أنّ القرآن استخدم ألفاظ اللغة العربية بشكل يوحي بأنها ليست تلك الألفاظ التي كانت خارجة عن السياق، وكأنه بثّ فيها روحاً غريبة، وجديدة لم يستطع الناس اكتشاف كنهها، وسبر أغوارها. ولعل ذلك محلّ الإعجاز، وموطن بلاغة القرآن، وبيانه الفريد المميز.

ثم يلخّص الجرجاني نظرته إلى ذلك كلّه قائلاً:« وجملةُ ما أردتُ أن أبينَه لك: أنَّه لا بدَّ لكلِّ كلامٍ تستحسنُه، ولفظٍ تستجيدُه، من أن يكونَ لاستحسانك ذلك جهةٌ معلومةٌ وعلَّةٌ معقولةٌ وأن يكونَ لنا إلى العبارةِ عن ذاك سبيلٌ، وعلى صحةِ ما ادّعيناه من ذلك دليلٌ »[2].

ويرى في موضع آخر من كتابه أنّ الإعجاز القرآني ليس في الألفاظ الغريبة، لأنها قليلة في القرآن، وأنّ ما ورد منها إنما ورد على سبيل الاستعارة، دون أن تكون اللفظة غريبة في نفسها، مثل قوله تعالى:﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**﴾، ﴿**خَلَصُوا نَجِيًّا**﴾، ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾. والألفاظ الغريبة حقيقة قليلة كما في قوله عز وجل﴿**عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا**﴾، ﴿**ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ**﴾، ﴿**جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**﴾[3] فكأنه يقول: إنّ ألفاظ "عجل"، و"أشربوا"، و"خلصوا"، و"نجيا"، و"اصدع" و"تؤمر" لا غرابة فيها البتة، إنما الغرابة في المعنى المقصود الذي ذكر عن طريق الاستعارة والتمثيل. أما ألفاظ "قطّنا"، و"دُسر"، و"سريا" فهي التي توصف بالغريبة، لكونها تحمل أكثر من معنى، أو لكون الذين يعلمون دلالاتها أناس قلة من الشعراء والخطباء.

إذن، يمكن القول إنّه لا جديد في المفردات المعجمية القرآنية، من حيث هي ألفاظ دالة على معنى معيّن، متعارف عليه عند الجماعة اللغوية، إنما الجديد يكمن في استعمالها بطريقة خاصة، وتمظهرها بشكل غير مألوف، واختصاص بعضها بدلالة محددة، لم تكن محددة بهذا الشكل في كلام العرب. وانتقاء عيّنات خاصة بعينها، وإهمال عينات أخرى، واستخدام مفردات معينة في القرآن المكي، وأخرى في القرآن المدني، يقول صبحي الصالح:« وما نحسب باحثاً يرتاب في أنّ علماءنا القدامى قد محصوا ما يتعلق بالمكي والمدني كل التمحيص... إلا أنهم شغلوا بمتابعة جزئيات تلك المراحل أكثر مما احتفلوا بإبراز ما انطوت عليه كل مرحلة من عقائد وأحكام، وما سرى في ألفاظها وفواصلها من إيقاع، وما غلب على صورها ومشاهدها من أساليب »[4]. ومثل هذا هو الذي سنعرض له في الفصول التالية، ونحاول فهم السر وراء استخدام التعبير القرآني المميز لمفردات اللغة.

---

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص296.

[2] - المرجع نفسه، ص41.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص303 - 304.

[4] - صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط14، 1982، ص12.

الفصل الأول: المفردة في الدرس اللغوي

المبحث الأول: المفردة اللغوية، حدّها وقيمتها .

1 - مفهوم المفردة اللغوية

2 - تمظهراتها في الدرس اللغوي

المبحث الثاني: المفردة القرآنية واعتباراتها

1 - المفردة القرآنية في الدارسات اللغوية والبيانية

2 - المفردة القرآنية بين الحقيقة والمجاز

3 - المفردة القرآنية والإعجاز

المبحث الأول: المفردة اللغوية، حدّها وقيمتها .

مفهوم المفردة اللغوية وحدّها:

تناول العلماء، قديما وحديثاً، المفردة اللغوية كوحدة قائمة بذاتها في الدرس اللغوي، وعالجوها من زوايا مختلفة؛ صوتية، واشتقاقية، وصرفية، ودلالية، وقالوا في ذلك أشياء كثيرة بلغت حد المبالغة أحياناً، لاسيما في دلالتها الصوتية. ووضعوا لها، معاجم مختلفة كذلك، ابتداء من المعاجم العامة إلى المتخصصة، واعتبروا المفردة أساس البحث في علوم اللغة وفي غيرها من العلوم.

والناظر في عناوين بعض مؤلفاتهم في هذا المجال، يدرك بجلاء أهمية المفردة اللغوية، لاسيما في الدراسات القرآنية؛ مثل المؤلفات والبحوث التالية: (معجم ألفاظ القرآن الكريم) للراغب الأصفهاني، (مفردات القرآن) لعبد الحميد الفراهي، (جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز) لعبد العزيز السحيباني، (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) لفاضل للسامرائي، (صفاء الكلمة القرآنية) لعبد الفتاح لاشين، (القلب والفؤاد واللب والصدر) للحكيم الترمذي، (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري، (التعريفات) للشريف الجرجاني، (الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما في القرآن)، (نجوم الفرقان في أطراف القرآن) للمستشرق الألماني فلوجل[1]، و(جماليات المفردة القرآنية) لأحمد ياسوف ...إلخ. أما فقه اللغة، فميدانه الفسيح هو اللفظة؛ بالنظر إلى ما تضمنه من ترادف واشتراك، ودخيل، ومعرّب، وتضاد، وما تحمله أوزانها من دلالات وغيرها.

ولقد اهتم اللغويون والنحويون باللفظ الواحد؛ من قبل أن يقول الجاحظ:« المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ... وجودة السبك »[2]. ومن قبل أن يقول أيضاً:« حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة »[3]. ولقد أورد عبارة ذات دلالة هامة هي« وليس في الأرض لفظ يسقط البتة، ولا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن »[4]. ومعنى هذا الكلام أن ألفاظ اللغة جميعاً صالحة للاستخدام، ولكن الشأن في ذلك هو القدرة على إيجاد المكان المناسب لهذه اللفظة أو تلك، والعثور على السياقات الملائمة لها. ومعروف أنّ بعض الكلمات يسهل إيجاد سياقات كثيرة له، وفي ميادين عديدة، وبعضها يعسر فيه ذلك

---

[1] - قيل إنه أول تصنيف في هذا المجال في العصر الحديث. يراجع: حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، مجلد 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 2003، ، ص9.

[2] - الجاحظ، الحيوان، ج3، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 2، 1424 هـ، ص67.

[3] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د. ط، 2003، ص82.

[4] - المرجع نفسه، ج1، ص96.

إلا موضعاً واحداً، أو مجالاً محدداً لا يعدوه. وبعض هذه الألفاظ قد لا نجد له موضعاً واحداً نستخدمه فيه. وكم هي الكلمات القرآنية التي لا يستخدمها الناس في كتاباتهم وكلامهم.

ويرى ابن خلدون أنّ للفظ مزية كبرى في التأليف الأدبي، إذ يقول:« اِعلم أنّ صناعة الكلام نظما ونثرا إنّما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنّما المعاني تبع لها وهي أصل. فالصّانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنّما يحاولها في الألفاظ... وذلك أنّا قدّمنا أنّ للإسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللّسان حتّى تحصل شأن الملكات والذي في اللّسان والنطق إنّما هو الألفاظ وأمّا المعاني فهي في الضمائر »[1].

ويرى باحث آخر أنّ الكُتب المتعلقة بلغة العرب إنما تكون في ثلاثة أمور هي: كتاب المفردات، وكتاب الأساليب، وكتاب أصول التأويل. ففي الأول« يُبحث عن الألفاظ المفردة، ويُكشف عن معانيها الخاصة، حيث تتضح لها الحدود، واللوازم، وما يتصل بها، وما يفترق عنها، وما يشابهها، وما يضادّها؛ فيُحيط العلم بدلالة الألفاظ المفردة »[2]. ولعل هذا ما يتطلب البحث عنه في مفردات القرآن الكريم، ويستدعي نوعاً من الإحصاء، والمقارنة بين الألفاظ للتأكد من دلالتها المطّردة.

وفي ذلك يقول العسكري:« فمدار البلاغة على تخيّر اللفظ، وتخيّره أصعب من جمعه وتأليفه »[3]. ويقول الآمدي أيضاً« الِاسْمُ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي مَفْهُومِهِ كَثِيرُونَ أَوْ يَصِحُّ. فَالْأَوَّلُ: اسْمُ الْعَلَمِ كَزَيْدٍ وَعَمْرٍو. وَالثَّانِي: إِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ صِفَةً أَوْ هُوَ صِفَةٌ. وَالْأَوَّلُ هُوَ اسْمُ الْجِنْسِ، وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَيْنًا كَالْإِنْسَانِ وَالْفَرَسِ، أَوْ غَيْرَ عَيْنٍ كَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ. وَالصِّفَةُ كَالْقَائِمِ وَالْقَاعِدِ، وَهُوَ الِاسْمُ الْمُشْتَقُّ »[4]. وذلك باعتبار أنّ للفظ الواحد معنى معجمياً يفهمه المتكلم والسامع معاً أثناء التواصل اللغوي بينهما.

أما الشاطبي فيرى أنّ اللغة« من حيث هي ألفاظ دالة على معان نظران: أحدهما: من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مطلقة، دالة على معان مطلقة، وهي الدلالة الأصلية. والثاني: من جهة كونها ألفاظاً وعبارت مقيدة دالة على معان خادمة، وهي الدلالة التابعة »[5]. وواضح من قوله هذا، أنه يقصد بالمعاني المطلقة المعاني المعجمية، أو المعاني اللغوية للفظة وهي خارجة عن السياق. بدليل قوله بعد ذلك مباشرة:« فالجهة الأولى هي التي تشترك فيها جميع الألسنة وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين... ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإخبار عن أقوال الماضين - ممن ليسوا من أهل العربية - وحكاية كلامهم، ويتأتى في لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنهم، وهذا لا إشكال فيه »[6].

---

[1] - عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988، ج1، ص794

[2] - عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن (نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية)، تح: محمد أجمل أيوب الصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002، ص91.

[3] - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية - بيروت، 1419 هـ، د. ط. ص23.

[4] - الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج2، تح: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1997م، ص105.

[5] - الشاطبي، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1997، ج2، ص105.

[6] - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

ويرى السكاكي بنوع من التفصيل أنّ« الكلمة هي اللفظة الموضوعة للمعنى مفردة والمراد بالإفراد أنها بمجموعها وضعت لذلك المعنى دفعة واحدة ثم إذا كان معناها مستقلاً بنفسه وغير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة مثل عِلْم وجَهْل سميت اسماً وإذا اقترنت مثل عَلِم وجَهِل سميت فعلاً وإذا كان معناها لا يستقل بنفسه مثل من وعن سميت حرفاً »[1].

وبناء على هذا، يعتبر بعض الدارسين المعاصرين أنّ اللفظ المفرد هو أول ما وُضِع في اللغة« وفيه تبدو اللغة في أبسط مظاهرها. لأن دلالته هي الفكرة الواحدة البسيطة سواء أكانت دلالة مستقلة أو بطريق الاشتراك مع ألفاظ أخرى مثل الترادفات »[2]. ثم يردف قائلاً:« ونريد بـ "اللفظ المفرد" - هنا - الأسماء مطلقاً. دون الأفعال أو الحروف لأن الفعل لا يقع مفرداً وإن أمكن النطق به كذلك. لاستلزام الفعل فاعله. والحروف ليست لها دلالة مستقلة »[3]. ولعل هذا الذي جعل بعض الباحثين يحتج بقوله تعالى:﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾(البقرة:31) لإثبات ذلك.

غير أنّ اقتصار اللفظ المفرد على الأسماء، ربما صلح أكثر مع اللغة العربية، أما مع غيرها فالوضع مختلف، إذ إنّ صيغة الفعل في الفرنسية والإنجليزية هي صيغة الإطلاق (infinitif)[4] مثل الفعل "أكل" (manger)، أو(to eat)، فكلاهما لفظان مفردان لأنهما غير مقيّدين بزمن ولا ضمير؛ أي ليسا مُصَرّفيْن، وهما في هذه الحال أشبه بالاسم. أما في العربية، فإنّ حالة الإطلاق هذه مضمّن فيها شيئان هما: الزمن الماضي، وضمير الغائب المذكر الذي يمثل الفاعل، ومن ثَمّ اعتبر المطعني أنّ الفعل أكثر من مفرد. ولذلك قال تمام حسان:« فالتعريفات العربية للكلمة - برغم اعتمادها على طبيعة اللغة العربية - إما أن تخلط بين الكلمة واللفظ والقول، وإما أن تضيف إلى هذا الخلط خلطاً آخر، بأن تبني التعريف على العلاقة بين الكلمة ومعناها، أي الفكرة التي تعبّر عنها، وإما أن تزيد الطين بلّة بأن تدخل في تعريف اللغة أفكاراً منقوضة كفكرة التقدير »[5].

غير أنّ المطعني أدخل سمات أخرى على اللفظ المفرد، حتى تكون له الدلالة المستقرة، والمعنى المتعارف عليه، لكي تتسنى للمخاطبين عملية التواصل والتفاهم بهذه الألفاظ. يقول:« هذه الدلالة لا يمكن استفادتها من الاسم إلا بعد تجارب يمرّ بها الإنسان مع اللفظ نفسه، وهذه التجارب في الغالب تعتمد على المراحل الآتية:
أولاً: كثرة المشاهدة والتكرار. ثانياً: موقف الإنسان من هذا الشيء المتكرر المشاهَد. ثالثاً: اختيار الإنسان ضابطاً لهذا الشيء وإطلاقه عليه.رابعاً: اشتهار ذلك الشيء بهذا الإطلاق وارتباطه به في الذهن وجوداً »[6]. وبتعبير آخر، فإنّ معنى الكلمة المفردة لا يتقرر نظرياً، بل يقرره أفراد المجتمع، بعد فترة من الاستعمال المطّرد، في المواقف المختلفة، والمقامات والأحوال المتشابهة، لكي تفهم دلالته، وتسقر في الأذهان، وتثبت في المعجم اللغوي عند الجماعة اللغوية.

---

[1] - السكاكي، مفتاح العلوم، ج1، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط2، 1987، ص9.

[2] - عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1992، ص33.

[3] - المرجع نفسه، ص33.

[4] - كلمة (infinitif) تعني الصيغة الاسمية للفعل، لا تحمل علامة العدد ولا الضمير. ينظر، قاموس (le Petit Larousse)، ط1991، ص522.

[5] - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د. ط، 1990، ص225.

[6] - عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ص33.

أما تمام حسان فيقترح تعريفاً للكلمة يتصف بوظيفتها العربية قائلا:« إنها صيغة ذات وظيفة لغوية معيّنة في تركيب الجملة تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم، وتصلح لأن تفرد أو تحذف أو تحشى أو يُغيّر موضعها أو يُستبدل بها غيرها في السياق، وترجع في مادتها غالبا إلى أصول ثلاثة، وقد تلحق بها زوائد »[1]. ويكون - بذلك - للكلمة حريتها في الحركة داخل السياقات المختلفة، لكونها تحمل دلالة أولية قادرة بفضلها أنْ تشكّل ظلال معانٍ كثيرة، وتتمظهر بتمظهرات تجعلها دالة على المعنى النواة، وعلى المعاني الثانوية في آن واحد.

ثم ينقل الباحث نفسه رأي باحث غربي قائلاً:«ويقول فندريس: تحمل الكلمة في نفسها علامة استخدامها، والتعبير عن قيمتها الصرفية، فلها بنفسها كمال لا يدع الحاجة ماسة إلى شيء »[2]. ويرى تمام حسان أنّ الكلمات لا تدل« بنفسها على شيء، ولكن المفكر يستعملها فيصبح لها معنى، إذ يتخذها أدوات. ولكن بجانب هذه الناحية الفكرية جانباً عاطفياً للكلمات، لا يمكن التقليل من شأنه »[3]. ولا يعني هذا الكلام أنّ اللفظة خالية تماماً من المعنى، حين تكون خارج السياق، إنما تتحدد دلالتها أكثر، وتتضح خصوصيتها المعرفية من خلال استخدامها في مجالات متنوعة؛ أدبية وعلمية وفلسفية وغيرها. فلفظ "حد" على سبيل المثال، يتغيّر مفهومه بحسب المجال المعرفي الذي يرد فيه؛ فمعناه في الرياضيات مختلف عن معناه في الفلسفة، وفي الشريعة، وفي الجغرافيا، وغيرها.

ويرى محمد المبارك أن« الكلمة ليست تعريفاً للشيء ولا تحديداً لكنهه، ولا وصفاً محيطاً بجملته وأجزائه، فقد يكون اللفظ في أصل معناه أوسع من المسمّى وهو الغالب، وإنما يأتي التخصيص من الاستعمال والتواضع. فلفظ الجنين من مادة ج ن ن وهي تفيد الستر وسُمّي الجنين كذلك لأنه مستور في بطن أمه، وليس الستر هو الصفة الجامعة المانعة للجنين وإنما هي إحدى صفاته ويشاركه فيها موجودات أخرى كذلك »[4]. ويرى الباحث نفسه كذلك أنّ «الكلمة هي الوحدة اللغوية دون الحرف والصوت وإن كانت الكلمة تتكون من حروف. ذلك أن الكلمة ذات دلالة واضحة وهي في حالة الانفراد، بخلاف الحرف فليس له دلالة »[5]. وهذا تعريف النحاة لمفهوم الكلمة أو المفردة المتعارف عليه قديماً وحديثاً.

أما الباحث محمد الجوادي فيعتقد أنّ هناك "**عينات لفظية**" خاصة بكل متحدث بالعربية، ويزعم أن هذه الفكرة ترقى إلى النظرية فيقول إنها« مجموعة من المفردات اللغوية التي يستعملها هؤلاء الناس في تركيبهم للغتهم »[6]. ولكنه يعترف بعد ذلك مباشرة بأن هذا التعريف لا يزال محتاجاً إلى كثير من الصقل، ثم يضيف قائلاً:« ولا بد أن نثبت هنا أن أعظم عيناتنا اللفظية في اللغة العربية هي تلك التي شملها القرآن الكريم، بها تقوم اللغة، وبها تبقى بحفظ

---

[1] - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص232

[2] - المرجع نفسه، ص228.

[3] - نفسه، ص247.

[4] - محمد المبارك، فقه اللغة، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية، مطبعة جامعة دمشق، د. ط. د. ت، ص170.

[5] - المرجع نفسه، ص149.

[6] - محمد الجوادي، كلمات القرآن التي لا نستعملها، دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظة، دار الشروق القاهرة، ط2، 1997، ص15.

الله سبحانه وتعالى، فضلا عن أنه قمة البلاغة وقمة الرقي اللفظي »[1]. ويردف قائلاً:« البحث في العينات اللفظية سوف يتيح لنا صورة عامة "لحالة العينة اللفظية في المجتمع موضوع البحث، وهكذا تسهل علينا دراسة هذه النصوص على أساس من الواقع المعاصر لها لا المعاصر لنا »[2]. ولكن من غير القفز على الواقع الذي أنزلت فيه هذه الآيات، وإلاّ اضطُررنا إلى التعسف في تفسيرها وتأويلها.

ويحدث هذا الأمر، ويسهل أكثر بمساعدة الحاسوب في هذه المهمة الإحصائية الكبيرة. غير أنّ الاعتماد المفرط على الإحصاء، يمكن أن يقود إلى عائق منهجي يصعب تذليله، لأن« بناء "معجم" لفظي للتواتر في العمل الأدبي يفترض أن معنى الكلمات يبقى ثابتاً من موقع إلى آخر. ولا يبقى في النهاية إلا الدقة والصبر في قراءة النص. فالدقة والصبر هما اللذان يقودان إلى القوانين الداخلية للرؤية والخيال »[3]. وربما لا ينطبق هذا القول انطباقاً تاماً على الأعمال الأدبية، بسبب أنّ أصحابها بشر، أما القرآن فمختلف عنها بالضرورة، فهو خطاب من أعلى إلى أدنى، ولا يعتريه ما يعتري النصوص الأدبية من نقصان وخلل وهفوات وما إلى ذلك. ويرى بعضهم أن المنهج الإحصائي يساعد كثيراً في فهم طبيعة الألفاظ المستخدمة في الكتابات المختلفة، وهذا المنهج يقوم على إحصاء أنواع الألفاظ، من خلال حساب النسب المعبّرة عن الفعل، والألفاظ المعبّرة عن الصفات، ثم يتمّ حساب النتيجة ليعرف اقتراب النص من الطابع الأدبي أو ابتعاده عنه[4]. غير أن هذا الأمر لا ينطبق على القرآن الكريم وألفاظه، إذ ليس من شأننا أن نبيّن إن كان القرآن يميل إلى الناحية الأدبية أو العلمية في اختياره لألفاظه، لأنه - كما يقول طه حسين - ليس نثراً ولا شعراً، إنما هو قرآن. والغرض من هذه الدراسة أن نكشف طريقة استخدام القرآن لألفاظه، وكيفية توزيعها على السور والآيات، ومعرفة السر وراء هذا الاستخدام المتفاوت بين السور المكية والمدنية.

ويبدو لبعض المفكرين أنّ النص هو الفيصل في تحديد الدلالة، وهو الحَكَم في نهاية المطاف. وليس "المنهج اللفظي" الذي يوفره الإحصاء وتكنيس المفردات، سوى عامل مساعد، أو خطوة أولية سرعان ما تفقد أهميتها بعد الانتقال إلى الخطوة الموالية. وعلى الدارس أن يميز بين مستويين: مستوى مادة التحليل؛ ومستوى التحليل، لأن المفردة لها نوعان من المعنى كما يعتقد غريماس، وهو من كبار علماء المعاني:« فأما النوع الأول، فهو ما يسميه "النويّات الذرية للمعنى" semes nucléaires"، وهذا النوع يبقى ثابتاً. وأما النوع الثاني، فهو ما يسميه الناقد نفسه بـ"النويّات

---

[1] - محمد الجوادي، كلمات القرآن التي لا نستعملها، ص16.

[2] - المرجع نفسه، ص16.

[3] - عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعي، نظرية وتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 2006. ص35.

[4] - يراجع، خالد توفيق مزعل الحسناوي، الأنساق المهيمنة على السورة القرآنية، دراسة تطبيقية على السور المكية، رسالة دكتوراه من قسم اللغة العربية، جامعة الكوفة، 2012 ص48.

النصية للمعنى""semes contextuelles"، وهذا النوع هو الذي يتغيّر تبعاً لموقعه في النص »[1]. وذلك أنّ المفردة مهما يكن وضعها في السياق، فإنها لا تفقد كلياً معناها اللغوي الأصلي، دفعة واحدة وفي وقت واحد، إنما يحدث ذلك مع بعض الألفاظ التي استبدلت دلالتها بفعل أمر قوي، مقبول عند الجماعة اللغوية، من خلال التطور الطبيعي لدلالة المفردة اللغوية.

ومهما يكن أمر المفردة ودلالتها الوضعية، فإنّ الباحثين لا ينكرون أنّ لها - على الأقل- جزءاً من المعنى الثابت وهي خارجة عن كل سياق. وها هو المسدي يعلن عن ذلك قائلاً:« ويأتي رأي الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا مصوّرا بدقة عجيبة كيف أن الدلالة اللغوية في مستوى الألفاظ ليست إلا قيمة نسبية، ونسبيتها معلقة بالاصطلاح الذي ينشأ حول الأصوات فيحوّلها إلى علامات واسمة للمعاني: "ذلك أن اللفظ بنفسه لا يدل البتة، ولولا ذلك لكان للفظ حق من المعنى لا يجاوزه، بل إنما يدل بإرادة اللافظ، فكما أن اللافظ يطلقه دالاً على معنى - كالعين على الدينار- فيكون ذلك دلالته، كذلك إذا أخلاه، في إطلاقه، عن الدلالة بقي غير دالّ "»[2].

وهناك منحيان في دراسة دلالة المفردة - كما هو مقرر في علم الدلالة، واللسانيات- منحى تاريخي، وآخر تزامني« والواقع أن علم الدلالة التاريخي يدرس تغيّر المعنى من عصر إلى عصر، وأنّ علم الدلالة الوصفي يدرس تغيّر المعنى في مرحلة من مراحل تاريخ اللغة... أي أن الأول يدور حول التغيرات المعنوية، والثاني يدور حول العلاقات المعنوية. أو بعبارة أخرى يدور الأول حول المعنى المتغيّر، والثاني حول المعنى الثابت »[3].

وعليه، فاللفظة - وهي خارج السياق - لها قيمتها في ذاتها، وتحمل نواة المعنى؛ هذا المعنى الذي يجعلها لفظة متميزة عن غيرها، والسياق - إذا اعتُمد مقياساً لاستنباط المعنى المحصل - لا يستطيع تغيير المعنى النواة من اللفظة إلا بقدر ما تسمح به قواعد الخروج عن المعنى العام إلى غيره من المعاني المجازية، بشرط توفر ولو جزء قليل من الشبه بين المعنى الأولي (المعنى النواة)، والمعنى الجديد المراد تحصيله من اللفظة ذاتها[4].

ويواصل المسدي حديثه مبيّناً قيمة المفردة اللغوية قائلاً:« وحتى لكأنّ المرموز إليه هو العلامة التي يتخذها الناس دليلاً عليه، وهذا ما قاد شيخ الأدباء أبا عثمان الجاحظ إلى المداعبة الأدبية إذ يقول:"وما تُعرَف دمشق إلا بدمشق، ولا بلاد فلسطين إلا بفلسطين"،... فكأنما قال: وما تُعرَف دمشق إلا باسمها الذي هو لفظة دمشق، ولا

---

[1] - خالد توفيق مزعل الحسناوي، الأنساق المهيمنة على السورة القرآنية، ص36.

[2] - عبد السلام المسدي، ما وراء اللغة، بحث في الخلفيات المعرفية. مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، د. ط، د. ت، ص67.

[3] - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص240.

[4] - يراجع: المسدي، ما وراء اللغة، ص68 - 69.

بلاد فلسطين إلا بكلمة فلسطين »[1]. وهذا الكلام صحيح إلى حد كبير، وينطبق أكثر على العلامات التي تكون هي نفسها المرجع - كما يقول علماء الدلالة - أما تلك التي يصلح أن نعبّر عن مراجعها المختلفة والمتلونة بأكثر من اسم أو لفظ، فالأمر مختلف. إذ لا يمكن أن نعبّر عن عَلَم من الأعلام - حقيقة - إلا بالاسم الذي وُضِع له، بحيث يصعب التعبير عنه بالمجاز، إلاّ إذا اشتهر، واختص به، واستقرت دلالته في الأذهان، حتى يصير كأنه حقيقة؛ كأن تُسمّى مكة "أم القرى"، وتدعى مصر "أرض الكنانة"، وفلسطين "أرض المسرى" إلخ... أما غير هذا من الأشياء والمعاني والمشاعر، فيمكن العدول فيه عن الاسم الحقيقي إلى اسم آخر مستعار يُفهم من السياق، أو مما تعارف الناس على تكنيته، والتلميح إليه؛ كقولهم عن القلب "موطن الكتمان"، أو "موطن الأسرار"، وعن الحمّى "أم لهذم". وغير ذلك كثير.

الكلمة ومعدل استخدامها:

هناك فكرة أخرى جديرة بالتنويه، تحدد معنى المفردة اللغوية من خلال المستخدَم والمطّرد منها، حتى تكتسب دلالة قارة يُعتدّ بها عند الناطقين باللغة الواحدة، في الوضع الواحد، وفي العصر الواحد. من ذلك ما ذكره الباحث سالم شاكر مستشهداً باللساني "ميي" Meillet الذي يقول:« لا يتحدد معنى الكلمة إلا من خلال معدل استخدامها »[2]. وبذلك تكتسب المعنى الثابت، الذي يتداوله الناس عموما، والمعنى الخاص الذي يتداوله المثقفون والكتاب وغيرهم. ومن ثَمّ لا يمكن الخروج عن المعنى المتعارف عيله عند الجماعة اللغوية، حتى يتم التفاهم بسهولة بين أفرادها. وهو الأمر الذي نريد التأكد منه عن مفردات القرآن الكريم، من خلال هذا البحث.

يقول باحث آخر عن اصطلاح اللفظة:« لم يكن هذا المصطلح شائعا شيوع مصطلح الكلمة في علوم اللغة العربية. فالمعتاد أن الكلمة - لا اللفظة ولا المفردة - هي نواة هذه العلوم، منها تنطلق وإليها تعود. حتى إنها- بأقسامها الثلاثة: الاسم والفعل والحرف - تكاد تشمل جملة الميادين المنتمية إلى النحو والصرف، والبلاغة، وعلم المعاني. وربما كان شيوع الكلمة واحدا من أهم أسباب ندرة الالتباس بينها وبين اللفظة، ولاسيما في الشروح المعجمية القديمة. إذ يرد المصطلحان في "لسان العرب" مترادفين في أكثر من اشتقاق:« لَفَظ بالشيء يلفِظ لفظا: تكلم [...]. والكلمة: اللفظة، حجازية، وجمعها كلم. قال أبو منصور، والكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة حروف ذات معنى »[3].

---

[1] - المسدي، ما وراء اللغة، ص59.

[2] - سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة.تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د. ط)، (د. ت)، ص31.

[3] - علي نجيب إبراهيم، جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، دار كنعان للدراسات والنشر والتوزيع دمشق، ط1، 2002، ص13.

UNIVERSITE SETIF2

وللكلمات، دلالة اجتماعية متعارف عليها ومحددة عند الجماعة اللغوية الواحدة، بحيث نجد« أنّ لبعض الكلمات دلالة اجتماعية خاصة، لأنها تدخل في تحديد العلاقات التي ينبني عليها المجتمع، والكلمات الآتية مثلاً من هذا النوع: أب، أم، مولود، رئيس، مرؤوس، قائد، مقود، موظف، صديق، مدرس، طالب، أقارب، أعداء، زملاء... إذا أخذت أية كلمة من كلماتها صحّ أن تستخدم هذه الكلمة للدلالة على أي شخص تستخدم من أجله، فكل الناس أب أو أمّ أو مولود أو رئيس أو مرؤوس أو قائد أو مقود وهلمّ جرّاً »[1]. وفي الواقع إنّ الأمر أكثر من ذلك، فقد يكون المرء أباً وابناً وأخاً وخالاً وعمّاً، إضافة إلى أن يكون رئيساً، أو قائداً أو طالباً، أو موظفاً، أو غير ذلك في الوقت ذاته. وكل الناس تقريباً يحمل أكثر من صفة واحدة من هذه الصفات، ويُعرف بأكثر من حالة. كأن يقال: الخليفة الراشد الثاني أبو حفص عمر ابن الخطاب الفاروق، إذ عُرّف بكونه خليفة، وراشداً، وثانياً، وفاروقاً، إضافة إلى اسمه الشخصي "عمر"، وكنيته "أبو حفص".

وحتى إن كانت الدلالة جديدة على اللفظة، بفعل التطور الاجتماعي، أوالثقافي، فإنّ لها موضعاً في المعجم. من ذلك أنّ معنى كلمة "تصويت" بالمفهوم السياسي، والمتعلق بالانتخابات على الخصوص، لا نجده في المعاجم القديمة، بينما في المعاجم المعاصرة، فهو مصطلح له حضوره الثابت[2].

إنّ الكلمات أو المفردات تعيش في كنف المجتمع، وتتلون وتتشكل من كل ما يجري فيه من مظاهر وظواهر؛ فقد يصيب اللفظة الواحدة تغيّر وتحوّل في دلالتها، ومسارها بفعل تطور أحوال المجتمع، ولذلك فمعناها مرهون بواقعها الذي استعملت فيه، وفي طور من أطوار اللغة ومسيرتها[3].

ولأنّ الكلمة المفردة ذات قيمة خاصة، فإنّها تجد مكانها الواسع في الدرسيْن اللغوي والنقدي، وتمثل حجر الزاوية في مجال علم الإحصاء الذي أصبح له وجود مؤثر في الدراسات التي تقوم على حصر المعجم المفرداتي لأثر أدبي ما، سيّما في المقاربات الموضوعاتية، وذلك لتحديد الفضاء المعرفي، والمجال الدلالي لكاتب ما، أو لشاعر معين. ومسألة الإحصاء يحتاج إليها كثير من الدراسات الأدبية والأسلوبية، وكذلك في مجال القرآن الكريم وعلومه.

ومهما يكن من أمر« فإن الكلمة المفردة قد قَبِلها علماء اللغة على أنها موضوع من الموضوعات الرئيسية لعلم اللغة، وعلى أنها محل اهتمام ما يعرف بعلم المفردات vocabulary. وكما يتضح من معاجمنا الضخمة، فإن أهم المشاكل المرتبطة بالمفردات هي ما يتصل بالدلالة المفردة لكل كلمة »[4]. ومهما يكن حدّ المفردة، وشحناتها، وتلويناتها، وتمظهراتها، فهي كلمة منفصلة بذاتها، تحمل دلالة أوّلية، أو معنى نواة، يفرّقها عن غيرها من المفردات اللغوية الأخرى.

---

[1] - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص202.

[2] - يراجع، المعجم الوسيط، مادة (صات)، ص527.

[3] - يراجع، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص243.

[4] - أحمد مختار عمر، أسس علم اللغة، عالم الكتب، ط 8، 1998، ص55.

والمعاني الثانوية، والمجازية، أو الدلالة التابعة -كما يسميها الآمدي - التي تحملها المفردة فيما بعد، إنما تكون بالعودة إلى المعنى الأصلي، واعتماداً عليه. إذ لا يجوز أن نُخرِج الكلمة المفردة من معناها الموضوع لها في أصل اللغة، إلى معنى آخر دون احترام قواعد الخروج إلى المعاني المجازية الجديدة. أي لا يجوز أن نُلبس الكلمة معنى غريباً لا يتصل بالمعنى الأولي بدلالة ما، أو لا يمتّ له بصلة واحدة على الأقل. غير أنّ« المشكل هو تخصيص العلاقة بين هذا المعنى (معنى نواة) والمعاني الخاصة المذكورة في المعجم. ويبدو أن تعدد المعاني يرجع إلى أنّ القاموسي يورد كثيراً من المعلومات السياقية التي ليست جزءاً من معنى المفردة. فالمعجم الذهني لا يحتوي إلا على تصور واحد أو تصورين للكلمة، ولا يتعلق الأمر بالاختيار بين عدد كبير من المفاهيم، وإنما يتعلق بمفهوم نواة يكيّف في الخطاب الذي يظهر فيه»[1]. وعبارة« القاموسي يورد كثيراً من المعلومات السياقية التي ليست جزءاً من معنى المفردة » تدل دلالة كافية على أن للمفردة معنى أولياً، ثابتاً ومعلوماً.

لكن هذا الأمر يتعلق بالدلالة الجديدة التي تكتسيها المفردة بفعل تقدّم المجتمعات، وتطور العلوم، وتشعبها وتخصصاتها، فتحتل موضعاً من المعنى في ساحة المعجم، لأن المفردة تعيش في كنف المجتمع كما قرّر سوسير ذلك، وهي ليست بهذا الجمود الذي يقيّدها، فلا تستطيع أن تعبّر إلا عمّا عبّر عنه الإنسان الأول. ولكونها - بفعل الاستخدام المتكرر عند الجماعة اللغوية - صارت تحمل معاني جديدة تطّرد بمفهوم خاص، وذلك مثلما حدث لبعض المفردات بمجيء الإسلام، حين أضاف إليها معاني أخرى، حتى صارت تلك المعاني الجديدة هي المعوّل عليها في الاستخدام العام والخاص، وتُرك المعنى الأصلي لها.

إن مثل هذا العمل يشبه استخدام الألفاظ باعتبارها مفاهيم اصطلاحية، بحيث« يمتاز التعبير الاصطلاحي بالثبات التركيبي والدلالي (في حقبة زمنية بعينها)، كما يمتاز بمفارقة المعنى الحرفي المعجمي إلى معنى مغاير أُصطُلح عليه، وكذلك بأهمية مكوناته التركيبية، وعدم إمكان الاستغناء عن أي كلمة من كلماته أو استبدالها بكلمة أخرى»[2]. وهو الأمر الذي نلحظه في مفردات القرآن، فهي محمّلة بدلالات جديدة ثابتة، لم يعهدها العرب من قبل، وهي ألفاظ شاهدة على عصر التنزيل، بما يحمله من زخم ثقافي واجتماعي، وشاهدة - أيضاً - على ما بعد عصر التنزيل، بما تحمله من إيحاءات تفسح لها مجال القراءة الواسع لِفُهوم أخرى تظهر مع مرور الزمن، دون أن تلغي الفهم الأول لها. وذلك سر من أسرار المفردة القرآنية.

وقد يتحدد مدلول الكلمة من شكلها وصيغتها فقط، حتى وهي خارج السياق« فالفرق بين "محمد" و"يقوم" يتضح بمجرد النظر إليهما، ولو كان ذلك خارج السياق. وسيبدو أنّ "محمداً" اسم علم، وهذه وظيفته التي يؤديها في النحو، وأنّ "يقوم" فعل مضارع، وتلك هي وظيفته أيضاً »[3]. وتكون الممارسة اللغوية بعد ذاك على قدر

---

[1] - عبد القادر الفاسي الفهري، تعريب اللغة وتعريب الثقافة، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، سلسلة اللسانيات، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، عدد 6، 1985، ص265.

[2] - محمد محمد داود، جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية، (دراسة دلالية ومعجم)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص10.

[3] - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص200.

طاقة المستخدِم، أو المتكلم بهذه اللغة، وذلك ما سمّاه تشومسكي بالكفاءة، في مقابل الملَكَة. ومعنى ذلك أنّ مستخدم اللغة لا يستطيع أن يوظف لفظ "محمد" في مكان لفظ "يقوم"، والعكس صحيح، لأنّ كِلا اللفظين قد استقرّا على دلالة معروفة لا يمكن العدول عنها دون أن يتأثر نظام اللغة. ولذلك« يلزم أن تقوم المناسبة المعجمية بين الألفاظ في السياق. ومن هنا وجدنا البيانيين يستعملون عبارات مثل: إسناد الفعل إلى من هو له، أو إلى غير من هو له »[1]. غير أنّ هذا الأمر يتعلق بما يسمى بالمجاز اللغوي أو المجاز العقلي، لكن إذا حدث ذلك في الخطاب اللغوي الاجتماعي، كان الأمر من باب الخطأ، أو اللحن، أو العدول، أو غيره.

وقد ذكر الجاحظ بعضاً من هذا القبيل في كتابه البيان والتبيين في باب اللحن. من ذلك قول أحدهم: افتحوا سيوفكم، بدلاً من سلّوا سيوفكم، أو قول غيره: اِجلسْ على اسْتِ الأرض. فردّ عليه صاحبه: ما كنت أحسب أن للأرض اِسْتاً[2]. وواضح هنا أن الخطأ كامن في إسناد فعل أو صفة، أو غيرهما إلى ما لم يُسند إليه في الوضع اللغوي. فالسيوف لا تُفتح، والأرض لا اسْتَ لها. إنما السيوف تُسلّ من أغمادها، أي تُخرج. وللأرض وجه، أو ثرى، أو ظهر.

وقياساً على هذا، نقول إنّ للمفردة، أو الكلمة الواحدة دلالتها الاجتماعية والتواضعية المحددة، لا يمكن لمستعمل اللغة أن يتجاوزها كيف يشاء، إنما هو ملزم - متى تقرر معناها عند الجماعة اللغوية - باتّباع ذلك المعنى في كلامه، وإلا كان خارجاً عن سنن الجماعة في كلامها، وعُدّ استعماله الخاص ضرباً من الجهل بقوانين اللغة، أو اعتداءً عليها.

2 - تمظهرات المفردة في الدرس اللغوي:

مما لا شك فيه، إذن، أنّ المفردة اللغوية بوصفها وحدة البحث الأساس في اللغة، ومن دونها لا يستقيم كلام مهما تكن العلامات اللغوية الأخرى. لهذا، فإنّ القائل بعدم وجود معنى مستقل للكلمة، إنما العمدة هو السياق، الذي يعتبر الفيصل في حلّ مسألة المعنى، إنّما يبدو كلامه بعيداً عن الصواب، بل وفيه من المغالاة ما فيه. والدليل على ذلك أننا كثيراً ما نعترض على استخدام لفظة، بشكلها العام دون اعتبار لسياقها، لأنها ببساطة تأخذ الشكل نفسه والاستخدام ذاته حيثما وردت في الكلام أو الخطاب. من ذلك أن فعل "يتوجب"، وفعل "يستوجب" لا يَحمِلان أبداً مفهوم "الوجوب" بحسب ما ورد في معجم لسان العرب، ولذلك لا وجود لسياق يفرض أو يوجب استعمال هذين الفعلين في معنى "وجب"، أو"أوجب". لأن معنى يتوجّب مأخوذ من التوجّب؛ أي أكل وجبة بعد أخرى، ومعنى استوجب هو استحقّ[3]. ولا يشفع السياق في استخدام اللفظين السابقين في المعاني التي يصنعها الفعل "وجب"، والتي يدل عليها بفعل دلالته المعجمية الأصلية المتعارف عليها، والتي تُستخدم بهذا المفهوم عند

---

[1] - تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2007، ص207.

[2] - يراجع، الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 145 - 146.

[3] - يراجع، ابن منظور، لسان العرب، ج1، دار صادر - بيروت، ط3 ، 1994، مادة وجب، ص793 وما بعدها.

المشتغلين بحقل الدراسات اللغوية المختلفة. وما فعله الناس للفعل "توجّب"، والفعل "استوجب" إنما هو من باب التعميم، أو من باب التوسع في الاستخدام.

وإننا واجدون علماً قائماً بذاته يدرس المفردة يسمّى علم المفردات، أو علم الألفاظ الذي يدرس الألفاظ المفردة في لغة واحدة، أو في عدة لغات، ويهتم باشتقاق الألفاظ وأبنيتها ودلالتها المعنوية والإعرابية، والتعابير الاصطلاحية، والمترادفات، وتعدد المعاني[1]. وهذا العلم يوضح الاستخدام الحقيقي للمفردة - كما يفعل فقه اللغة - صوتاً، وتصريفا، ودلالة، وخطأً، وصواباً.

وبناء على ذلك، تدرس المفردة منفردة، كما تدرس داخل السياق، ويُنظر إليها من جوانب عدة. وقد عالجها القدامى من حيث الفصاحة والبلاغة، ومن حيث الاستعمال والإهمال، وغير ذلك. فيرى عبد القاهر الجرجاني أنّ اللفظة الواحدة وهي منفردة ومنعزلة عن السياق، لا توصف بأنها فصيحة أو بليغة، إنما المزية في كل ذلك للنظم. يقول:« الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنّ الألفاظ تثبُتُ لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى تلك التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر »[2]

ولكن هذا الأمر لا ينطبق على القرآن - طبعاً - بحال من الأحوال، مهما كثر استخدام اللفظة الواحدة في سياقات مختلفة ومتعددة. ثم يضرب المؤلف أمثلة على ذلك، ومن بينها لفظ "شيء" الذي يكون مقبولاً حسناً في موضع، وضعيفاً مستكرهاً في موضع آخر[3]. وإذا نظرنا في القرآن الكريم وجدنا هذا اللفظ يتكرر كثيراً؛ مفرداً وجمعاً، وفي كل مرة لا يكون إلا حسناً فصيحاً، بليغاً جميلا، دالاّ على المقصود أيّما دلالة. فقد ورد بصيغة المفرد مائتين ومرتين اثنتين،(202) كقوله تعالى في الآيات التالية:﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾(البقرة:29). ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**﴾(البقرة: 113). ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**﴾(البقرة:155).﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾(البقرة:178).﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ**﴾ (البقرة:255).﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾(البروج:9).﴿**مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾(عبس:18).﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا**﴾(النبأ:29).﴿**إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾(الطلاق:3)

---

[1] - يراجع، علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، جامعة الملك سعود، ط2، 1991، ص3.

[2] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص38.

[3] - المرجع نفسه، ص39.

والملاحظ في هذه الآيات أنّ السياقات التي وردت فيها مفردة "شيء" مختلفة؛ من سياق تشريعي، إلى غيبي، إلى اجتماعي... وفي كل مرة تحتفظ بفصاحتها، وبلاغتها، وبيانها. وإن كان التأويل - من الناحية الإجرائية - أمراً صعباً؛ إذ لماذا لم يستخدم هذا اللفظ بصيغة الجمع "أشياء" في هذه الآيات، أو في بعضها على الأقل؟

ونجد الجرجاني يكرر - مرة أخرى - فكرته تلك بقوله:« فلو كانت الكلمة إذا حسُنتْ حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفت بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن »[1]. إلاّ أنّ هذا القول غير مسلّم به في كل الأحوال، إذ نجد ألفاظاً لا تحسن في أنفسها من حيث هي ألفاظ مفردة؛ كالحيزبون، والدردبيس، والشنعوف، والخنشليل[2] وغيرها، بل ولا نكاد نجد لها استخداماً في الشعر ولا النثر على سواء، إلا استخداماً في موضع المزح والفكاهة والتندر. غير أنّه معروف عند البلاغيين أنّ بعض الكلمات لا تصلح أن تكون شعرية، وذكروا من ذلك ألفاظاً مثل: فقط، جداً، أيضاً[3]. ومع ذلك، فإنْ وُجد كاتب أو شاعر لهما مقدرة خاصة على استخدام مثل هذه الألفاظ، ألفيناها جميلة في موضعها، وملائمة ومتجانسة في نظمها، كقول المقنع الكندي:

فإنّ الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمّي لمختلف جداً[4]
إذا أكلوا لحمي وفرّتُ لحومهم وإنْ هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا

وانتقاء الألفاظ في الحياة الاجتماعية، وفي الحياة الدينية، أمر ذو بال، يدخل في باب الأدب وحسن الذوق. فمن ذلك - مثلاً - أنّ القرآن الكريم ينبّه المسلمين على ترك لفظة بعينها، والاستعاضة عنها بلفظة أخرى لغرض تأدّبي. قال تعالى:﴿**أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾(البقرة:104). إن الله عز وجل ينهى المؤمنين عن استعمال لفظة "**راعنا**"، ويطلب منهم استبدالها بلفظة "**انظرنا**" في خطابهم للنبي (ص)، من غير اعتبار للسياق الذي قد ترد فيه. والسبب في هذا الاستبدال - فيما يرويه الواحدي - أنّ يهود المدينة كانوا ينادون النبي (ص) بهذه اللفظة، ويقصدون بها أذيته والانتقاص من شأنه، وهي مأخوذة من الرعونة. ويقال إنّ العرب كانوا يتكلمون بها، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنبي(ص) أعجبهم ذلك، لأنها تعني بلغتهم السبّ القبيح. وقالوا كنا نسبّ محمداً سراً، فالآن أَعْلِنُوا ذلك لأنه من كلام العرب، فنزلت هذه الآية[5]. وواضح، هنا، أنّ المنهي عنه هو كلمة واحدة لا غير، مهما يكن السياق الذي ترد فيه، لكونها تحمل في نفسها معنًى نابياً، جارحاً. والقرآن نفسه ينهى عن كل الألفاظ التي تنم عن السوء بشكل عام، كما جاء في قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى**

---

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص39 - 40.

[2] - الحيزبون: المرأة الشهمة الذكية. والدردبيس: الشيخ الكبير. والشنعوف: الجبل العالي، أو قمته. والخنشليل: السيف.

[3] - يراجع: علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، مصر، ط 17، 1967، ص9.

[4] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج17، تح: إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، ط3، 2008، ص81.

[5] - يراجع الواقدي، أسباب النزول، دار الميمان للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2005، ص139.

UNIVERSITE SETIF2

أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾(الحجرات:11).

ومثل هذا التحري في اختيار اللفظ المناسب نصح به النبي (ص) حين قال:« لا يقولنّ أحدكم خبُثتْ نفسي، ولكن ليقُلْ لَقِستْ نفسي »[1]. ومعنى "خبثت" و"لقست" واحد، كما جاء في لسان العرب، ولكنه (ص) كره لفظ "خبثت" هروباً من لفظ "الخبث"، و"الخبيث"[2]. لأنّ لهذين اللفظين دلالة أخرى في الشرع، تطّرد عند استعمالها؛ في ميدان الطهارة، وميدان المال الحرام. وتوحي بما ينفر منه المرء. والخبيث اسم للشيطان كذلك. وقال النبي (ص) أيضاً:« ليشربنّ أناس من أمتي الخمر يسمّونا بغير اسمها »[3]. وفي هذا دليل على إمكانية تغيير تسمية الأشياء لسبب أو لآخر، وإن كان المقصود بهذه التسميات واحداً وثابتاً في كل الأحوال، وإنْ تغيّرت التسمية.

وقد يعترض معترض قائلاً إن الألفاظ قد يحدث لها تطور دلالي ما، فتتوسع لتشمل دلالات أخرى. وهذا كلام صحيح ولكنه ليس مطلقاً، ويحتاج إلى دليل، لأن دلالة اللفظة المعجمية لا تتطور بمعزل عن قواعد اللغة، وسنن الجماعة اللغوية في تغيير دلالات ألفاظها التي تتحدث بها، وتتناقلها جيلاً عن جيل.

وتتمظهر اللفظة اللغوية؛ في القديم والحديث، من خلال الاعتبارات التالية:

أ - **فصاحة المفردة وبلاغتها**: لعل هذا الموضوع قد أخذ حيّزاً لا بأس من الدراسات اللغوية والنقدية عند القدامى، واستمر البحث فيه حتى العصر الحديث، فقد اعتنى به الدارسون كثيراً، لاسيما البلاغيون، ووضعوا لمفهوم الفصاحة مقاييس خاصة، تقرّبهم إلى مقصدهم« وقد أجهد العلماء أنفسهم في بيان مقاييس الجمال في الكلمة، فاشترطوا أن تكون خالية من: تنافر الكلمة، ومن مخالفة أوضاع اللغة، ومن الغرابة »[4]. وساير الباحثون المحدثون هذه الفكرة المنقولة عن القدامى، وربما زادوا على ذلك بعض الأمور مما أنتجه البحوث اللسانية الغربية. وقد وقع الاختلاف والتباين في مفهوم الفصاحة والبلاغة عند البلاغيين وفقهاء اللغة.

يروي الجاحظ أنّ أهل مكة قالوا لمحمد بن المناذر الشاعر:« ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثر موافقة له... فأنتم تسمّون القِدر بُرمة وتجمعون البرمة على بِرام، ونحن نقول قِدر ونجمعها على قدور. وقال تعالى:﴿**وجفان الجواب وقدور راسيات**﴾. وأنتم تسمّون البيت إذا كان فوق البيت عُليّة وتجمعون هذا الاسم على علاليّ، ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف. وقال الله تبارك وتعالى:﴿**غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ**﴾، وقال:﴿**وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾. وأنتم

---

[1] - مختصر صحيح مسلم، تح: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط6، 1987، ص385.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج6، مادة لقس، ص 208. ومقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979،كتاب الميم، ج5، ص261.

[3] - أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ - 2001 م، ص534

[4] - عبد الفتاح لاشين، صفاء المفردة القرآنية، دار المريخ للنشر، الرياض، ط3، 1983. ص2.

تسمّون الطلع الكافور والإغريض، ونحن نسميه: الطلع. وقال الله تبارك وتعالى:﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ . فعدّ عشر كلمات لم أحفظ منها إلا هذا »[1]. وواضح من هذا الخبر أنّ صاحبه يحتج بالقرآن الكريم ليؤكد وجهة نظره، غير أنّ هذا الرأي ليس وجيهاً، لأنه اعتمد الانتقائية، كما أنه أغفل استخدام القرآن لفظة الكافور، ولو لمرة واحدة في قوله تعالى:﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾(الإنسان:5). فالقرآن استخدم لفظة الطلع لما كانت هي الأنسب في المقام الأصلح، واستخدم لفظة الكافور كذلك للغرض نفسه. وهذا هو الأمر الذي أشار إليه الجاحظ سابقاً في قيمة الألفاظ.

ونجد ابن سنان الخفاجي، يُفصّل في مفهوم الفصاحة، فيقول:« إن الفصاحة.. نعت للألفلاظ إذا وجدت على شروط، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ... وتلك الشروط تنقسم قسمين: فالأول يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها.. والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض »[2]. ثم حدد عناصر فصاحة الكلمة في عدم تنافر أصواتها؛ أي ضرورة تباعد مخارجها، وحسن وقعها، وعدم غرابتها ووحشيتها، وألا تكون من ألفاظ العامة، أي الألفاظ المبتذلة. وضرب أمثلة كثيرة من الشعر، وناقشها مناقشة مستفيضة أيضاً[3].

غير أنّ فصاحة المفردات في العربية، مسألة فيها ما يلاحظ عليها، إذ نجد أنّ القرآن الكريم يعرض عن مفردات تُعدّ عند الكتاب والنقاد فصيحة؛ من ذلك لفظ "أجلْ" الذي بمعنى "نعم". يقول ابن منظور في ذلك: « أجلْ: بمعنى نعم... قال الأخفش: إلا أنه أحسن من نعم في التصديق، ونعم أحسن منه في الاستفهام، فإذا قال: أنتَ سوف تذهب قلتَ: أجلْ، وكان أحسن من نعم، وإذا قال أتذهب؟ قلتَ: نعم، وكان أحسن من أجلْ. وأجلْ: تصديق لخبر يخبرك به صاحبك... وأما نعم فهو جواب المستفهِم »[4].

انتقى التعبير القرآني - على سبيل المثال - من حروف الجواب؛ نعم، وبلى، وكَلاّ، وإي[5]، وترك الحروف "أجلْ" و"إنّ"، و"جلل"، و"جيْرِ". وحرف "إيْ" عند النحاة« مثل (نعم) غير أنها لا تقع إلا قبل القَسَم، فتكون تصديقاً للمخبر، ووعداً للطالب، وإعلاماً للمستفهم »[6]. أما "نعم" و"بلى" فقد وردتا في بضع آيات بنسبة متقاربة، أما "كلاّ" فقد كثر استخدامها – وردت أربعاً وثلاثين 34 مرة - في الخطاب المكي تحديداً، وذلك تماشياً مع عادة العرب في كلامها. واختار القرآن أيضاً من أدوات النداء - مثلاً - حرفاً واحداً فقط؛ "يا"، وأعرض عن بقية الأحرف؛ الهمزة، وأي، وأيا. وغير ذلك من العيّنات اللفظية التي انتقاها التعبير القرآني على حساب عيّنات أخرى، لسرّ ما، ولإعجاز باهر.

---

[1] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص19.

[2] - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982، ص63.

[3] - يراجع: المرجع نفسه، ص64 وما بعدها.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج11، مادة (أجل)، ص12.

[5] - هذا الحرف ورد في آية واحدة فقط هي﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾(يونس:53).

[6] - فاضل السامرائي، معاني النحو، ج4، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ط ت، د ط، ص237.

ولا يختلف الأمر عند الدارسين المعاصرين؛ من الشرق والغرب على السواء، في نظرتهم إلى المفردة اللغوية باعتبارها علامة سيميائية دالة« إنّ الإشارة جزء من تبادل اجتماعي منظّم، ولا تقبل باعتبارها إشارة خارج ذلك التبادل، بل تصبح مادة مصطنعة »[1]. وهذا التبادل الاجتماعي المنظم للعلامات اللغوية يتأكد أكثر بمعدّل استخدام اللفظة، في مختلف السياقات، حتى يقال عنها: إنها تعني هذا أو ذاك.

ومثل هذا الكلام يقودنا إلى فكرة منبع المعنى؛ أي من أين تنبع دلالة النص أو دلالة الخطاب؟ أمِنْ المكتوب والمنطوق مباشرة أم من تأويل القارئ؟ وهل صحيح أنّ المفردات لا يكمن معناها في علاقاتها بالمفردات الأخرى داخل المنظومة اللغوية، إنما يكمن في السياق الاجتماعي لاستخدامها ؟[2].

يقول باحث أوروبي معاصر في السيميائيات:« وقد يقودنا تفحص منظورات السيميائية إلى الإدراك، أنّ المعلومات، أو المعاني، لا "يحتويها" العالم أو الكتب أو الحواسيب، أو وسائل الاتصال السمعية البصرية. المعنى لا "يُنقل" إلينا، نحن نولّده، مستندين إلى شيفرات واصطلاحات لا نعيها عادة. وإنّ وعي هذه الشفرات هو في حد ذاته مشوّق ويزيد من قدراتنا العقلية »[3]. ولكن، ليس بفضل قراءتنا وحدها، نولّد المعنى الكلّي للخطاب، إنما نولّد جزءاً منه فحسب، والجزء الآخر يكون متضمناً في الخطاب نفسه، وفي ألفاظه المفردة، والمركبة، وهو مقصد القائل ذاته.

إنّ اللفظة الواحدة، مهما يكن وضعها، أو انتماؤها، فهي تحمل دلالة قارة إلى حد كبير. أو تحمل« معنى قليلاً »[4] يُمكّن الجماعة اللغوية من التعبير بها، والتفاهم عن طريقها، ومن ثَمّ معرفة كيفية ووقت استخدامها. ولا أدلّ أدلّ على ذلك من بعض الألفاظ التي يتحاشى الناس التلفظ بها، لسبب أو لآخر، منها الألفاظ ذات الإيحاء العنصري، مثل لفظة "negro" التي ينبّه عليها قاموس أوكسفورد بإيراد أيقونة دالة على الخطر، والحذر عند استخدامها. ومن ذلك الألفاظ التي تنبو عن التصريح بها، حياءً أو تطيّراً، مثل ألفاظ الجنس، وما يتعلق بعالم الجن. فهذه الألفاظ لا يكاد المرء يجد لها سياقاً مناسباً للتلفظ بها كما يلفظها بعض العامة، إذ لا يقدر المرء على النطق بها كما يلفظها بعض الشباب والمراهقين فيما بينهم، ولا يمكن التصريح بها في جل السياقات، إنما يجنح المرء - عند الحديث عنها - إلى طريق التكنية، والتلميح، بشتى ألفاظ اللغة وأساليبها التي تقرّب المفهوم، وتلبي الحاجة. والسبب في

---

[1] - دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، مركز الدراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص40.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص42 - 43.

3 - المرجع نفسه، ص43.

[4] - أف. آر. بالمر، علم الدلالة، ترجمة، مجيد الماشطة، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1985، ص40.

ذلك أنها تحمل دلالة نفسية اجتماعية عند الجماعة اللغوية، ينبو عنها الذوق العام، وتخدش الحياء مهما يكن سياقها الذي ترد فيه. ولا يستطيع السياق أن يهذّبها بحال من الأحوال، لأن مثل هذه الألفاظ يعتبر مبتذلاً عند الجماعة اللغوية، أو ينتمي إلى المحظور اللغوي.

ويرى باحث معاصر أنّ المفردة لا تكفي دلالتها المعجمية وحدها لتكون فصيحة وبليغة، وأنّ أصحاب هذا الرأي مبالغون في ذلك، وليس السياق وحده - أيضاً- هو الذي يعطيها تلك المزية، وهذه مبالغة أخرى، إنما تجتمع في ذلك ثلاثة أمور هي: الدلالة المعجمية، والصيغة الصرفية، والسياق[1].

والمفردة - قبل هذا وذاك - تأخذ دلالتها من المجتمع، ومن استخدام الجماعة اللغوية لها بالطريقة التي تناسبها، في كل زمان ومكان. فلو أخذنا لفظة "أرهب"، أو"إرهاب" لوجدنا دلالتها في الاستخدام القرآني مختلفة عنها في الاستخدام المعاصر، وذلك بسبب ما حُمّلت في وقتنا الحاضر من معانٍ نفسية وسياسية لم تكن فيها في الماضي. يقول الله تعالى:﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾(الأنفال:60)، ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾(البقرة:40)، ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾(النحل:51)، ﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾(الأعراف:116)، ﴿**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**﴾(القصص:32). إنّ الرهبة وما يشتق منها في الاستعمال التراثي تأخذ مفهوم الخشية؛ خشية الله، والخوف من أمر خاص، أو تأخذ مفهوم إخافة العدو في حالة الحرب. أما في الاستعمال المعاصر فهي رديفة مفهوم الاعتداء على الغير، والخروج على القانون والأعراف العامة، وإخافة المواطنين قصد ابتزازهم، أو غير ذلك. ومثل هذا يقال عن كثير من الكلمات التي غيّر الواقع كثيراً أو قليلاً من دلالاتها اللغوية الأولى.

وباختصار، فإنّ« اللفظة تعني فيما تعنيه المفردة الدالة على معنى. وهي العنصر البنائي التالي للصوت والمقطع في سلسلة الكلام، وتُعدّ قِسْماً أساسياً من أقسام الكلام في اللغات كافة، ولا يشترط لها ملازمة صيغة معيّنة، فقد تكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً دالاً على معنى »[2]. ولعل هذا التقسم، وهذا التعريف هما المعوّل عليهما في جلّ الدراسات اللغوية القديمة والمعاصرة، لسهولة فهم مدلول اللفظة أو المفردة والتعامل معها إجرائياً.

---

[1] - يراجع، عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، دار البشير عمان، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996. ص328.

[2] - خالد توفيق مزعل الحسناوي، الأنساق الأسلوبية المهيمنة على السور المكية، دراسة تطبيقية على السور المكية، رسالة دكتوراه من قسم اللغة العربية، جامعة الكوفة، 2012. ص78.

ب - **المفردة والترادف**: إنّ في كلام كثير من القدامى ما يدل على أنّ هناك فروقاً دقيقة بين الألفاظ المتقاربة في المعنى (المترادفات)؛ من ذلك قول ربعي بن عامر لقائد الفرس:« إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني »[1]. وقالت امرأة لزوجها: إنك جميل، فرد عليها: كيف تقولين ذلك وما فيّ عمود الجمال ولا رداؤه ولا برنسه. إن عموده الطول ورداءه البياض وبرنسه سواد الشعر وأنا قصير أسود أشمط، ولكن قولي إنك مليح[2]. وفي هذه الأمثلة ما يدل صراحة على أنّ الترادف التام غير وارد في اللغة الواحدة، إلاّ أن يكون فرق في دلالة اللفظين مهما دقّ، ومهما لطف واستتر. لكن ليس بمقدور كل إنسان أن يدرك تلك الفوارق الدقيقة، ولو كان من أهل اللغة؛ أنّ هناك دائماً عوام، وخواص في فهم حال الدنيا، وكذلك الأمر في فهم حال اللغة. ومنه ما كان يعرف قديماً بالغريب في اللغة، وغريب القرآن، والحديث، الأمر الذي يتطلب شرحاً وتفسيراً له.

أما القائلون بالترادف، فنجد من اللغويين ابن خالويه، والفيروزآبادي، وغيرهما، ومن علماء التفسير الفخر الرازي، ومن علماء الأصول الآمدي الذي فنّد آراء وحجج القائلين بعدم الترادف، إذ يقول:« الدليل على وقوع الترادف ما نقل عن العرب من قولهم (الصهلب والشوذب) من أسماء الطويل، والبحتر والبهتر، من أسماء القصير... إلى غير ذلك، ولا دليل على امتناع ذلك حتى يتبع ما يقوله من يتعسف في هذا الباب في بيان اختلاف المدلولات، لكنه ربما خفي بعض الألفاظ المترادفة ظهر البعض، فيجعل الأشهر بياناً للأخفى وهو الحد اللفظي »[3].

يقول ابن الأثير في كتابه المثل السائر عن قيمة المفردة:« فمدار البلاغة على تخيّر اللفظ، وتخيره أصعب من جمعه وتأليفه »[4]. ويشرح الأمر أكثر حين يعرض لقيمة اللفظة المفردة التي يجعلها كاللآلئ التي تُختار قبل نظمها في سلك أو عقد؛ فيقول:« ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد وعِدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرّق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دقّ فهمه، وجلّ نظره. فمن ذلك قوله تعالى:﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾(الأحزاب:4) وقوله تعالى:﴿**رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾(آل عمران:35). فاستعمل "الجوف" في الأولى، و"البطن" في الثانية، ولم يستعمل "الجوف" موضع "البطن" ولا "البطن" موضع "الجوف". واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضاً. فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل»[5]. وإذا كانت

---

[1] - محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1998، ص5.

[2] - الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، ط1: 1420هـ، ص305.

[3] - الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص43.

[4] - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ، د ت. ص32.

[5] - المرجع نفسه، ص164.

اللفظتان متفقتان ففي عدد الحروف، وفي وزنهما كما يقول المؤلف، فإنهما مختلفتان في الأصوات، ومختلفتان - بعد ذلك - في الدلالة بالضرورة، ولا يمكن أن تكونا متفقتين في الدلالة تمام الموافقة؛ وبمعنى آخر ليست اللفظتان مترافتين.

ويقول أبو هلال العسكري:« ويعطف الشيء على الشيء وإن كانا يرجعان إلى شيء واحد إذا كان في أحدهما خلاف للآخر، فأما إذا أُريد بالثاني ما أُريد بالأول فعطف أحدهما على الآخر خطأ؛ لا تقول: جاءني زيد، وأبو عبد الله، إذا كان زيد هو أبو عبد الله »[1]. ثم استشهد بقول الشاعر:

أمرتُك الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ به فقد تركتُكَ ذا مال وذا نشَب

وعلّق عليه قائلاً:« وذلك أن المال إذا لم يقيّد فإنما يعني به الصامت.. والنشب، ما ينشب ويثبت من العقارات»[2].

ومعنى قوله هذا أنّ عطف لفظين- بهذا الشكل - يُحدث فارقاً دلالياً بين المعطوفين، مهما دقّ ذلك الفرق. غير أنّ هذا الأمر غير مسلّم به، وليس على إطلاقه، فقد يُعطَف المتشابهان والمتماثلان في أكثر من موضع، وفي أكثر من مناسبة؛ مثل قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ (البروج:10)[3]. بل يعطف أحياناً اللفظة على نفسها كقوله عز وجلّ:﴿**أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾(الحشر:18). فقد عطف عبارة "اتقوا الله على نفسها، بعد أن عطفها في المرة الأولى على "ولتنظر نفس". قد يقول قائل: ليس هذا بعطف لفظي، أو تكرار فقط، إنما هناك فرق في الدلالة بين "اتقوا الله" الأولى وبين الثانية، ولكن المعنى المعجمي للفظة "اتقوا"، ولفظة "الله" يبقى واحداً في الحالين، فلا فرق بينهما.

غير أنّ السيوطي يضيف أمراً آخر في مسألة الترادف؛ هو المطلق والمقيّد في دلالة اللفظة فيقول:« المائدة لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام لأن المائدة من مادني يَميدُني إذا أعطاك وإلا فاسمُها خِوَان. والكأْسُ لا تكون كأْساً حتى يكونَ فيها شرابٌ وإلا فهو قَدح أو كوب... والسَّجْل: لا يكون سَجلاً إلا أن يكون دَلْواً فيها ماء »[4].

إذن الألفاظ التي تبدو مترادفة، إنما تختلف دلالتها حين تخلف أوضاعها في الواقع؛ فالمائدة - بحسب هذا الرأي - هي خوان عليه طعام، والكأس قدح فيه شراب، والسجل دلو فيها ماء. والظاهر، هنا، أننا شرحنا الكلمة بأخرى على أنها هي، مما يدل على أنهما متشابهتان، أو مترادفتان، مع إضافة الشيء الذي بها تغيّر لفظها (الدال) إلى آخر.

---

[1] - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة ، القاهرة، د. ط، 1998، ص22.

[2] - المرجع نفسه، ص22 – 23.

3 - يرى ابن عاشور فرقاً بين "عذاب جهنم" و"عذاب الحريق" من غير أن يحدد ذلك الفرق، فقد اكتفى بالقول:« مع ما بين عذاب جهنم وعذاب الحريق من اختلاف في المدلول وإن كان مآل المدلولين واحداً. وهذا ضرب من المغايرة يحسن عطف التأكيد ». التحرير والتنوير، ج30، ص246. وكم من قائل مثل هذا الكلام عندما يعجز عن تحديد موطن الإعجاز، أو نقطة الفرق بين المتشابهات.

4 - السيوطي، المزهر، ج1، في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1998م، ص348.

أما المحدثون من علماء اللغة« فيميلون إلى هذا الرأي مسلّمين بتواجد الترادف التام مكتفين باشتراك ألفاظه في "المعاني العامة" دون النظر إلى "المعاني الفارقة" معتدّين في ذلك بالفهم العادي لدى متوسطي الناس. وعلى ذلك "فالمتساهلون" يكتفون بتقارب الألفاظ في معانيها العامة، ويحكمون عليها بالترادف. و"المدققون" في المعاني الخاصة ينكرون الترادف بينها، فالخلاف بينهما أشبه ما يكون بالخلاف الشكلي »[1]. ويؤكد باحث معاصر هذا المعنى قائلاً:« واقتبست بعضا من أقوال من يؤيد الترادف مثل ابن السّكّيت، وأقوال من يؤيد الفروق مثل أبي هلال العسكري وأبي منصور الثعالبي، وكانت هناك إضاءات للتنظير بالعودة إلى النص القرآني للبرهنة على دقة الفروق، وتوصلت إلى إمكانية وجود الترادف في اللغة، ونفيه من السياق القرآني »[2].

يقول تمام حسان:« للألفاظ المفردة أصولها الاشتقاقية وطرق صياغتها من هذه الأصول على صور معينة ولها معانيها المفردة التي تنسب إليها في المعاجم ولها أجراسها التي تولّد في النفوس قبولها أو نفوراً منها وقد يكون للفظين قدر من الاتفاق في المعنى قد يصل إلى حد الترادف أو التداخل فإذا تداخل المعنى كان من المفيد رصد الفرق بين اللفظين وتخليص كل معنى منهما من معنى الآخر »[3].

ونجده يعارض فكرة الترادف قائلاً:« وإذا شارك اللفظ اللفظ في معناه نشأ عن هذه المشاركة سؤال مهم عن مقدار هذه المشاركة فإذا ادّعينا أن هذه المشاركة تامة ورد علينا الاعتراض بأن في ذلك إسرافاً في استعمال الألفاظ وقد سبق أن نسبنا إلى اللغة لجوءاً إلى الاقتصاد في استعمال موسائلها المتاحة، وليس من الاقتصاد في شيء أن نورد على المعنى الواحد ألفاظاً متعددة نحن أحوج ما نكون إليها لندل على معان أخرى لا حدود لها تعرض لنا كل لحظة في كل يوم. أما إذا أقررنا بأن حدود المشاركة لا تتعدى التداخل ولا تصل إلى التطابق وبأن لكل من اللفظين منطقة من المعنى لا يشاركه فيها اللفظ الآخر فقد أصبح علينا أن نرصد منطقة الاختلاف في المعنى بين اللفظين »[4]. ولاسيما إذا كان توظيف هذه المترادفات بنوع من الاطّراد في فضاءات معينة، وفي مجالات خاصة.

ويقول باحث آخر مؤكداً هذه الفكرة:« فالمترادفات إنما تُحسب مترادفات إذا ما أريد بها الدلالة الإجمالية للمعنى، وهذا ما يقنع به أنصاف المتعلمين، والعام من المتكلمين وغيرهم ممن يكتفي من مُخاطِبه بإيصال خلاصة كلامه، ومجمل أفكاره، أما من عَلِم من اللغة علماً... وسبر هذه الكلمات، واستخرج ما بينها من فروق وخصائص، فليست هذه الكلمات من المترادفات »[5]. ولاسيما في القرآن الكريم، حين تستخدم في فضاء خاص، وبجانب

---

1 - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، مقدمة المحقق، ص7.

2 - أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي - دمشق، ط 2، 1999، ص8.

3 - تمام حسان، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط1، 1993، ص317.

4 - المرجع نفسه، ص319.

5 - عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة القرآنية، دار المريخ للنشر، الرياض، د. ط، 1983.ص63.

كلمات أخرى باطّراد، وحين تستخدم مثل هذه الكلمات في الآيات المكية، وتستخدم مرادفاتها في الآيات المدنية، وباطّراد أيضاً.

ويبدو أنّ مسألة الترادف التام غير مسلّم بها عند كثيرين إذ:« ليس المقصود بالترادف هنا التطابق التام أو الترادف التام أو المطلق (absolute synonymy) إذ إنّ علماء اللغة المحدثين ينكرون وجوده، لكنهم يرون أنصاف الترادف أو أشباه الترادف (near-synonymy)، ويقصد به التقارب الدلالي بين الألفاظ، لأنه لا تطابق بين لفظين أو أكثر في كل الملامح الدلالية »[1]. وسواء في ذلك أكانت اللفظة منفردة خارج السياق، أم كانت في ثناياه.

غير أنّ الألفاظ "المترادفة" يُحتاج إليها عند الشرح اللغوي للنصوص، وفي تفسير القرآن خصوصاً، وعند البحث عن دلالتها في السياق إذا كانت غامضة لبعض الناس، من الطلبة والدارسين. لأننا لا نستطيع عند الشرح والتفسير إلا أن نستخدم اللغة أيضاً، أي أنّ اللغة تصبح هي الوسيلة والهدف في آن، ومن ثمّ يصعب أمر التفسير.

وفي هذا السياق يقول سالم شاكر:« عندما تنقرض لفظة ما فإن الوحدات الباقية تأخذ في الامتداد. أما عندما تظهر لفظة جديدة وذلك بواسطة التوليد أو الاقتراض فإن مدلول هذه الوحدة الجديدة ينبني على حساب مدلول الوحدات السابقة الوجود والتي تفقد آنذاك جزءاً من دلالتها: وهكذا تستخدم الوحدة الجديدة في المواضع والسياقات التي كانت تستخدم فيها الوحدات السابقة الوجود. عندما يتغير معنى وحدة من وحدات النظام فإننا نلاحظ عادة أن هذا التغير ليس معزولا، فهو جزء من سلسلة من التغيرات أو أنه يستشير رد فعل مسلسلا لدى مقومات النظام الأخرى »[2]. فمن ذلك انقراض كلمات كانت تستخدم باطّراد في الخطاب اليومي عند العرب قديماً من مثل: "عمت صباحاً"، و"أبيت اللعن"، و"البحيرة"، و"الوصلية"، و"السائبة"... فلم تعد تستخدم عند الناس، لأن القرآن استبدلها بغيرها، بل لأنه ألغى بعضها إلغاءً تاماً لعدم الحاجة إليها، أو لأن فيها خطأ ما، أو لفساد في التصور والسلوك.

إن اللفظة إذا تضمنت تمييزاً دقيقاً لشيء ما، وتحددت دلالتها مقارنة بشبيهاتها، فإنها ترتقي من مجرد كلمة، إلى مصاف العلامة. ومن ثمّ تكون الكلمة ذات دلالة غامضة حتى يفسرها السياق، أما العلامة فتمتاز بالوضوح والدقة. يرى اللغوي التشيكي كرامسكي (Kramsky) بأن الكلمة بوصفها وحدة معجمية معزولة عن السياق لها صفة العلامة الكامنة، والتي تتحول إلى علامة حقيقية في السياق. ويرى أن الكلمات المعجمية لها درجات مختلفة من

[1] - عصام الدين عبد السلام محمد إبراهيم أبو زلال، التعبير عن المحظور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم، القاهرة 2001 ص134.

[2] - سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص18.

العلامية، ويتوقف ذلك على وجود فئات الأشياء، فكلّما زادت هذه الفئات أصبحت الكلمات التي تسميها أكثر شبهاً بالعلامة، لأن هذا يعني زيادة في التمييز وبالتالي في مقاربة الكلمة للعلامة في الوضوح[1]. فكلمة حيوان تحمل ما لا يحصى من المعاني ومن الأشياء التي تصدق عليها هذه الكلمة؛ مثل: حصان، قط، خروف، جمل، أسد، نمر، كلب... وكلما ميّزنا الكلمة بميزة ما تحددت أكثر فأكثر، حتى تصل إلى درجة العَلَم. فاسم العَلَم - كما هو معروف في النحو - ما دل على شيء واحد بعينه لا يشاركه آخر فيه، بحسب الوضع، بلا قرينة[2]، مثل: محمد (ص)، خديجة، عائشة (ض)، مكة، القدس... إلخ. فهذه الكلمات صارت علامات على أصحابها، يتميزون بها عن غيرهم من البشر. وهذا المعنى يذكره المناطقة بالعبارة التالية: إذا زاد المفهوم نقص الماصدق، وإذا نقص المفهوم زاد الماصدق.

بل هناك من الكلمات ما لا يتصل بعقيدة، ولا بعادات الناس، ولكن القرآن آثر غيرها من الكلمات الدالة على نفس المعنى تقريباً، ومن مثل هذه الكلمات الملغاة من الاستخدام القرآني: نجاح، اجتهاد، تربية، شباب، عقل[3]، جيل، نقاش، قياس، تحضر، تمدن، نية، عديم، جريء، نسيم، قصير، سفير، رقيق، رئيس... إلخ. واستخدم بدلاً منها ما يلي: فوز، جهاد، ألباب (نهى)، فتية، قرن (قرون)، جدال، ملك... إلخ. وهذه الألفاظ تعتبر مترادفة من جانب، لكونها قد تؤدي - على العموم - المعنى الذي تؤديه المفردة الأخرى، غير أنّ الناس باختلاف مشاربهم يستخدمون مفردة بدلاً من أخرى، لاعتبارات متباينة.

3 - **المفردة واعتبار السياق:** تفطّن القدامى منذ القرن الأول لقيمة السياق في إنتاج المدلالة. وأشاروا إليه بمصطلح المقام، أو بالنظم، فيما بعد. ويضرب ابن الأثير مثالاً يدلل به على صدق دعواه في قيمة السياق بقوله:«... جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر، فجاءت في القرآن جزلة متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة... أما الآية فهي قوله تعالى:﴿**فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾(الأحزاب:53). وأما بيت الشعر فهو قول المتنبي:

تلذّ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذّ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة، إلا أن لفظة "تؤذي" قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن، فحطّت من قدر البيت، لضعف تركيبها، وحسن موقعا في تركيب الآية »[4]. ولكن الكاتب لم يفسر لنا بوضوح وجه ضعف هذه

---

[1] - يراجع: كريم زكي حسام الدين، التحليل الدلالي، إجراءاته ومناهجه، ج1، www.kotobarabia.com ص61.

[2] - يراجع: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، منشورات المكتبة العصرية، ج1، صيدا، بيروت. ط28، 1993، ص109.

[3] - المقصود من ذلك عدم ورود لفظة "العقل" بصيغة المصدر، أما بصيغة الفعل فوردت بكثرة؛ مضارعاً في 48 آية، وماضياً مرة واحدة فقط، في الآية 75 من سورة البقرة.

[4] - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص167.

الكلمة في التركيب الشعري؛ أهو نحوي أم صرفي، أم دلالي، أم موضوعاتي؟ ولم يوضح وجه حسنها في النسق القرآني، ثم هل تصح هذه المقارنة بهذا الشكل؟ إنّ دعوى ابن الأثير في كون اللفظة حسنة أو قبيحة، فيها بعض التعميم، إذ لا يمكن الحكم على لفظة "يؤذي" المذكورة بأنها حسنة أو ركيكة، لأنها مستعملة بكثرة عند الناطقين باللغة العربية. إلا إذا كانت محمّلة بشحنة نفسية، وسلبية متعارف عليها عند جميع الناطقين بها، وفي كل استعمالاتها، مثلما هو الشأن مع بعض الكلمات التي استقرت عند فقهاء اللغة بأنها مبتذلة.

وللسياق شأن كبير في علم الدلالة الحديث، بل له نظرية كاملة؛ هي النظرية السياقية، والسياق يعني شيئين: السياق اللغوي، وسياق المقام. حتى أن بعض علماء اللغة في الغرب صرّح بأنه: ليس هناك كلمات، إنما هناك استعمالات للكلمة فحسب[1]. والمقام« (situation) (أي المعطيات الخارجية والنفسية إلخ..) بإمكانه كذلك أن يؤدي دورا هاما أثناء تأويل المعنى المراد من خلال وحدة لغوية بعينها. وهذا يصدق خاصة عندما نكون بإزاء الاشتراك اللفظي (polysémie)، أي بإزاء كلمات تتوفر على عدة معان فتأويلها آنذاك يتوقف على المقام »[2]. وهذا كلام وجيه، لأنه في الواقع لا وجود لكلمة خارج سياقها اللغوي، أو سياق المقام، فالمتكلم لا يتكلم بمفردات منفصلة، إنما بوضعها في سياقات خاصة، ومتنوعة في كل مرة يريد إيصال فكرته إلى المتلقي.

إلاّ أن السياق لا يتحكم دوماً في دلالة المفردة اللغوية؛ لأنها تحمل في طياتها ما يجعلها مستقلة إلى حد بعيد بمعنى أولي، أو معنى نواة يكون هو الأساس في تكوين الدلالة. يقول سالم شاكر:« أخيرا نخلص إلى أن النظرية السياقية طريقة خصبة وصارمة، بيد أنها لا تقوى بمفردها على الإحاطة الشاملة بدلالة أية صيغة لغوية »[3].

4 - **المفردة والمجال الدلالي**: مفاد الفكرة هو تمظهر ألفاظ اللغة بانضوائها تحت راية عامة، وفي فضاء جامع لدلالتها العامة. وقد فطن لذلك علماء اللغة العرب حين صنّفوا معاجم خاصة، مثل معاجم الإبل، والمطر، والحيوان، واللبن وغيرها. وفي الدرس اللغوي الحديث، هناك نظرية الحقول الدلالية، التي تصنّف ألفاظ اللغة داخل مجموعات تربطها علاقة معنوية خاصة، تمثل ما يشبه العائلات اللغوية؛ فهناك حقل الأفعال، وحقل الأسماء، وحقل الصفات، وحقل الحيوان، وحقل الآلات، وحقل المهن... إلخ.

يقول إبراهيم أنيس في مقدمة كتاب "الزينة في الأسماء العربية الإسلامية"، لمؤلفه أبو حاتم الرازي:« ولعل أحدث الاتجاهات في دراسة الدلالة أن يعمد الدارس إلى مجموعة من الألفاظ التي تنتمي إلى مجال واحد، ثم يدرسها ليبيّن منها ما نمت دلالته، وما انكمشت فيه تلك الدلالة، بل وما اختفت فيه هذه الدلالة على مر الأيام »[4].

---

[1] - من بين الذين رأوا هذا الرأي فيجنشتاين ومارتيني. ينظر، سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص31.

[2] - سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص7.

[3] - المرجع نفسه، ص34.

[4] - أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي، الزينة في الأسماء العربية الإسلامية، مركز البحوث والدراسات اليمني، صنعاء، ط1، 1994، ص8.

ومع ذلك، فإنّ نظرية الحقول الدلالية لم تسلم هي أيضاً من النقد؛ لأنّ« المعايير التي تسمح بافتراض وجود حقل دلالي ما ليست معايير لسانية ذلك أن الاهتداء إلى الحقول الدلالية إنما تم بفضل عملية تصورية (غير صورية) أو باللجوء إلى العلوم المجاورة »[1].

غير أنّ التصنيف يساعد الباحث في معرفة علاقة القرابة المعنوية بين الألفاظ من نفس العائلة، فلا يذهب به التأويل بعيداً؛ حين يتعلّق الأمر بتأويل النصوص الراقية، سيما آيات القرآن الكريم؛ لأنّ ألفاظ النص القرآني مدوّنة مغلقة، على عكس ألفاظ لغة من اللغات فهي مدون مفتوحة. لذلك فقد حدث لبعض الباحثين أن أخرجوا دلالة بعض أسماء الحيوان الواردة في القرآن إلى معانٍ تبدو بعيدة عن معناها الحقيقي، بسبب إغفالهم حقلها الدلالي.

هـ - **المفردة اللغوية بين الحقيقة والمجاز**: معلوم عند كل دارسي اللغة والبلاغة على الخصوص، أنّ للفظ الواحد معنى حقيقياً، وآخر مجازياً؛ أو بعبارة أخرى: قد يخرج اللفظ عن معناه الحقيقي إلى آخر مجازي، وقد يكون المجاز أكثر من الحقيقة كما يقرر ذلك ابن جني. وقد انقسم الدارسون فريقين إزاء هذه المسألة؛ وبخاصة إزاء دلالة ألفاظ القرآن.

أما عن مفهوم الحقيقة في معاني الألفاظ اللغوية ودلالاتها، فقد ميّز الدارسون بين عدة أنواع من الحقيقة لألفاظ اللغة، وهي كالتالي:

1 - **الحقيقة اللغوية الأصل**: وهي دلالة اللفظ فيما وُضِع له في أصل اللغة، مثل: إنسان، فرس، ماء، وغيرها« ولا جزء له يدل على شيء أصلاً كلفظ الإنسان، فإنّ (إن) من قولنا: إنسان، وإن دلّت على الشرطية فليست إذ ذاك جزءاً من لفظ الإنسان، وحيث كانت جزءاً من لفظ الإنسان لم تكن شرطية، لأن دلالات الألفاظ ليست لذواتها، بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته، ونعلم أنّ المتكلم حيث جعل (إن) شرطية لم يقصد جعلها غير شرطية[2].

ومعنى قول الآمدي، أنّ الألفاظ وضعت لها معانيها بحسب عدد حروفها، لا تخرج عن ذلك، ولا داعي لتجزئة الكلمة واستخراج معانٍ من بعض أجزائها، وإن حصل ذلك فإنما نكون بإزاء كلمة أخرى تماماً. فلو أخذنا كلمة (كفران) وقلنا: إنها مركبة من (كف) و(ران)، وعرفنا مفهوم كل من هاتين الكلمتين معجمياً، وفي حالة انفرادهما، لأدركنا للتوّ أنهما مختلفتان عن بعضهما، ولا تؤديان نفس المعنى إذا ركبتا في مصدر (كفران). بل الأصل أن يقال: إنّ هذه الكلمة ليست مركبة من الجزأين المذكورين.

[1] - سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص42.

[2] - الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام،ج1، تح، عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق. د. ط، د. ت، ص14.

2 - **الحقيقة الشرعية**: وهي اللفظ الذي استخدمته الشريعة الإسلامية في معنى لم تضعه العرب له. مثل: الصلاة التي تعني - لغة - الدعاء، ولكن شرعاً هي الصلوات المعروفة التي تؤدى بقراءة القرآن وركوع وسجود...إلخ[1]. ومنه كذلك لفظ "الكافر" التي تعني في اللغة الساتر، والنهر العظيم، والبعيد من الأرض عن الناس، والسحاب المظلم[2]، ولكن الشرع أطلقها خصوصاً على كل من ينكر وجود الله ووحدانيته. فإذا استخدم أحدهم مثل هذه الألفاظ في معانيها اللغوية الأصل، يكون - في هذه الحال - قد تجوّز في ذلك، فصار استخدامه ذاك مجازاً، بدلاً من أن يكون حقيقة. من ذلك استخدام النبي (ص) لفظ "الصلاة" في معنى الدعاء، الذي ورد في قوله لمن سأله عن برّ والديه بعد موتهما:« الصلاة عليهما، والاستغفار لهما »[3]. فالصلاة - هنا - بمعنى الدعاء، وقد وردت مجازاً وليس حقيقة؛ أي ليس الصلاة المعروفة شرعاً. وكلمة "الكافر" التي وردت في شعر مفدي زكريا، إنما هي من هذا القبيل. يقول الشاعر:

ويا لجّة يستحمّ فيها الجمال ويسبح في موجها الكافرِ[4]

فدلالة كلمة "الكافر" في هذا البيت، قصد بها معنى الستر، والغطاء. وهو المعنى اللغوي الأصلي لهذه الكلمة.

3 - **الحقيقة العرفية**: وهي اللفظة المنقولة عن معناها اللغوي إلى غيره، عند الجماعة اللغوية. وهو ما يسمى في علم الدلالة بتضييق الدلالة، أو تخصيصها. مثل: لفظ الدابة الذي يعني في أصل اللغة كل ما يدبّ على الأرض من حيوان وإنسان، ثم خصص وأطلق على الحيوان خاصة. ومثل لفظ السبت« فإنه في اللغة الدهر ثم خُص في الاستعمال لغة بآخر أيام الأسبوع وهو فرد من أفراد الدهر »[5]. وغير ذلك كثير في ألفاظ اللغة، ويحدث في كل لغات العالم بناء على قوانين التطور اللغوي، والتغير الدلالي.

وقد يحدث للفظ أن تنتقل دلالته من حيز إلى آخر، أو من مجال إلى غيره، لسبب معروف أو مجهول، من ذلك لفظ "الغائط" الذي يعني لغة« المتّسع من الأرض مع طمأنينة، وجمعه أغواط، وغوطٌ، وغيطان، وغيطات »[6]، ثم استخدم في معنى آخر بعيد عن المعنى اللغوي الأصل، هذا المعنى الجديد هو الفضلات المستقذرة التي يطرحها الإنسان. ولا يفهم عند إطلاق هذه اللفظة غير هذا المعنى[7]. ففي قوله تعالى:﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾(النساء:43). لا يمكن فهم كلمة "الغائط" بمعناها اللغوي الأصل؛ أي المطمئن من الأرض، لأنّ العُرف العام قد حدد معنى هذه الكلمة في مفهوم آخر هو الفضلات البشرية. وليس في الآية ما يدل على إيراد المعنى الأصلي لهذه الكلمة، لا من السياق، ولا من غيره.

---

[1] - محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، توزيع دار ابن حزم، ص34.

[2] - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة كفر، ج5، ص147.

[3] - محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ص37.

[4] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص20.

[5] - السيوطي، المزهر، ج1، ص252.

[6] - ابن منظور، لسان العرب، مادة "غوط"، ج7 ص364.

[7] - يراجع: الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص28.

وقد جمع الآمدي أنواع الحقيقة الخاصة بالألفاظ فقال:« وإنْ شئتَ أن تجد الحقيقة في كل ما يعم هذه الاعتبارات؛ قلت: الحقيقة هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أولاً في الاصطلاح الذي به التخاطب »[1]. ويبدو أنّ هذا التعريف مقبول، لأنه أدخل في الحسبان عنصر التخاطب الذي هو من أهم عناصر اللغة والتواصل. فلا يجوز أن نهدر هذه القرينة لنُخرج دلالة لفظ ما من معناه المتعارف عليه عند الجماعة اللغوية، إلى معنى آخر بالتعسف أو بالتأويل من غير سند قوي، من لغة أو سياق، أو مقام.

ولعل المعنى المعوّل عليه في فهم دلالة الكلمة الواحدة هو المعنى الاجتماعي، وهو« الغرض الأسمى الذي يسعى إليه علم الدلالة الوصفي. وهذا المعنى هو الذي أطلقنا عليه في هذا البحث اسم المعنى الدلالي. وذلك لا يكون إلا في طور معيّن من أطوار اللغة. إنّ تحليل المعنى يتطلب أنْ ندخل في اعتبارنا أربعة عناصر. تلك هي(1) المتكلم، (2) السامع، (3) الرمز، (4) المقصود »[2]. ويبدو أنّ الباحث ينظر إلى الكلمة في بُعدها الوظيفي التواصلي، أو بعدها التداولي كما يعرف في الدراسات اللغوية المعاصرة. والمعنى الاجتماعي هذا، لا يبعد أن يكون مشابهاً للمعنى الشرعي، لكون المعنى الشرعي متصلاً - أيضاً- بالحياة الاجتماعية في كل الأحوال.

6 - **المفردة والمتلقي:**

كان شأن المتلقي شبه ملغى في الدراسات القديمة[3]، إنما كان الأمر منصباً على القائل، وعلى النص بوجه خاص. غير أننا نجد بعض الإشارات هنا وهناك تهتم بالمتلقي. من ذلك ما أورده المسدي لفيلسوف قرطبة الذي يقول: إن« دلالة العلامة ليست عند صاحبها الذي هو المتلفظ بها، وإنما هي عند من نتحدث إليه بها، ونلقي نحوه بصورها صوتا وأداء، ولعمري إنه التفرد الخالص حتى لكأننا محمولون على القول بأن العلامة هي الدال على دلالات الآخرين مما نفترض أنه مطابق لنظام الدلالات التي عندنا »[4]. ومعنى ذلك أنّ للمتلقي دوراً هاماً في تفسير معاني النص، وتأويل كلماته، بحسب ما انطبع في ذهنه من دلالات هامشية، أو جانبية، أو مجازية، أو تابعة للملفوظ، والمنطوق[5]. وهذا الاختلاف في النظر إلى الكلمات المكوّنة للنص؛ مهما يكن النص، هو الذي جعل الجرجاني يساير الذي عاب على ناقد، لم يفطن إلى قيمة تكرار لفظ "السيف" في قول الشاعر:

---

[1] - الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص47.

2 - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص243.

[3] - نعني بهذا الكلام بشكل أوضح، أن الدراسات التراثية لم تفرد بحوثاً خاصة بالمتلقي كما نعرفها في الدراسات المعاصرة.

[4] - المسدي، ما وراء اللغة، ص67، 68.

[5] - يراجع في ذلك، علي مهدي زيتون، الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011، ص178 وما بعدها.

فيقول:« إذا حدّثْتَ عن اسم مضاف ثم أردتَ أن تذكر المضاف إليه، فإن البلاغة تقتضي أن تذكره باسمه الظاهر ولا تضمره، وتفسير هذا أنّ الذي هو الحسن والجميل أن تقول: جاءني غلام زيد وزيد، ويقبح أن تقول: جاءني غلام زيد وهو »[1]. نلاحظ، إذن، كيف خالف الجرجاني رأي ذلك الناقد في هذه المسألة، وما ذلك إلا لما رآه الجرجاني حسناً، ورآه غيره غير ذلك؛ مع أنّ النص واحد والمفردات هي نفسها، ولكنه التأويل والقراءة الخاصة. غير أنّ هذا الكلام ينطبق أكثر على النص الإبداعي الأدبي؛ النثري أو الشعري. أما النص القرآني فأمره مختلف شيئاً ما.

ومهما يكن شأن المتلقي، فإن اللفظة باعتبارها اللبنة الأساسية في تكوين العبارات والجمل والنصوص، والتي كانت، ولا تزال محط أنظار العلماء والباحثين منذ القديم في فهم النصوص المختلفة[2]، لها دلالتها الخاصة التي ينطلق منها في تأويل المعنى، ولا أدل على ذلك مما كان يُسمّى بالغريب؛ غريب القرآن وغريب الحديث النبوي. فإذا أخذنا بعض الألفاظ مثل: "قِطّنا" الوارد في قوله تعالى:﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا**[3] **قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**﴾(ص:16)، لعجزنا عن فهم المراد من الآية، مع وجود السياق الذي - من المفروض- يكون عونا لنا في فهم ذلك، ولتطلّب الأمر - أولاً وأخيراً - فهم مدلول لفظ "قِط" لغوياً، أي المعنى المعجمي لهذه اللفظة، خارج السياق، وكما يعرفها أهل اللغة. ولا يمكن للمتلقي تأويل ذلك من دون الرجوع إلى المعنى المعجمي، مهما اجتهد في التأويل.

ومن هذا القبيل ما حدث بين نافع بن الأزرق وابن عباس، فيما عُرف بسؤالات ابن الأزرق، وهي استفهام عن كلمات خاصة وردت في القرآن الكريم. وكان ابن عباس يردّ عليه شارحا إياها، مستشهداً بالشعر العربي. فقد كان ابن الأزرق يبحث عن معرفة العرب لمدلول تلك الألفاظ القرآنية من عدمها؛ بمعنى أنه كان يريد التأكد من الاستخدام العربي لتلك الألفاظ بالمعنى الشائع عندهم، دون اعتبار السياق الذي وردت فيه. وكان ابن عباس يدرك مغزى السؤال، فكان يغرف من الشعر العربي الأصيل، لكونه المصدر الذي لا يرقى إليه الشك في صحة ما يقول.

يقول أحد الباحثين:« لا تقف المفردة الأدبية في حياد المعجم، فإن غزت موضوعها واستوعبته تملّكته، فكانت آية في الجمال، وإن خسرت معركتها اقتربت من الفوضى والهذيان، وصارت إلى زوال وابتذال »[4]، وعليه فإنّ« الكلمة في الفكر الأسلوبي التقليدي لا تعرف إلا ذاتها أي سياقها هي، وموضوعها هي، وتعبيريتها المباشرة

---

[1] - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص426 - 427.

[2] - يراجع: أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص5.

[3] - معنى القط، هو النصيب من العذاب، والجزاء، وكتاب المحاسبة. ينظر: لسان العرب، ج7، مادة قطط، ص382. ويراجع تفسير ابن عاشور،ج23، ص225، وتفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، د. ت، د. ط، ص12890.

[4] - أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص26.

ولغتها الواحدة الوحيدة، أما الكلمة الأخرى الموجودة خارج سياقها، فلا تعرفها إلا بوصفها كلمة محايدة من كلمات اللغة، إلا كلمة لا تخصّ أحدا، إلا مجرد إمكانية كلامية »[1].

ولئن كان للسياق دور في تحديد دلالة اللفظة، فإنه لا يستطيع أن يطوّعها كيف يشاء، بل العكس هو الصحيح، فمتى كانت اللفظة في ذاتها طيّعة، قبلت سياقات مختلفة، وإلا فإنها ترفض السياقات الجديدة، ولا تنصاع لها بسهولة. ولذلك نجد أنفسنا نضحك، أو نبتسم، من الذي لا يعرف اللغة جيداً - مهما كانت اللغة المقصود تعلمّها - حين يستعمل لفظة ما في غير سياقها المعهود، إذ هناك عبارات لا تقبل الخروج عن النهج المتواضع عليه، ولا يشفع لها السياق في شيء إن استخدمت في غير ما تعارف عليه أصحاب اللغة. ولا يستطيع المجاز، هو أيضاً، أن يُخرج الكلمة من معناها المتعارف عليه إلى معنى آخر إلا بشروط التجوز:« فلا يصح التجوز إلا بنسبة بين مدلولي الحقيقة والمجاز، وتلك النسبة متنوعة... فإذا قوي التعلق بين محلي الحقيقة والمجاز فهو المجاز الظاهر الواضح، وإذا ضعف التعلق بينهما إلى حدّ لم تستعمل العرب مثله، ولا نظيره في المجاز فهو مجاز التعقيد، فلا يحمل على شيء من الكتاب والسنة، ولا ينطق به فصيح »[2].

وهذا كلام معقول ومقبول، فإن حدث مثل ذلك عند بعض الشعراء، أوبعض المتصوفة، فإنه لا يلزم جماعة الناطقين باللغة، إنما يلزم أصحابه فقط. ذلك أنّ الكلام البيّن يفترض أن يفهمه على ظاهره كثير من الناس، الذين يعرفون مبادئ اللغة التي يُخاطَبون بها. ولذلك أخبر الله تعالى الناس، في أكثر من موضع بأنه أنزل القرآن بلسان مبين، وتبياناً لكل شيء.

[1] – أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص26.

[2] - العز بن عبد السلام، مجاز القرآن، تح: مصطفى محمد حسين الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1999، د. ط. ص43.

المبحث الثاني: المفردة القرآنية واعتباراتها

المفردة القرآنية في الدراسات اللغوية والبيانية:

لقد نالت المفردة القرآنية حيزاً واسعاً من الدراسات اللغوية؛ البلاغية، والبيانية. وفيما يلي، نعرض لهذه لمفردة وما يتصل بها من تمظهرات، ونذكر آراء الباحثين من القدامى والمحدثين، لاسيما البحوث المتعلقة بعلوم القرآن وإعجازه.

ونودّ أن نبدأ هذا المبحث بتساؤل هو: كيف تتمظهر المفردة اللغوية في القرآن الكريم ؟ وبعابرة أخرى نقول: أتثبتُ دلالة المفردة القرآنية في كل سياقاتها من القرآن الكريم؟ أم تتغيّر دلالتها في كل سياق جديد؟ أم أنها تتغيّر في بعض الأحيان فحسب ؟

إن للباحثين في هذا المجال آراء متنوعة، تدل على ثراء دلالة المفردة القرآنية، واتساع أبعادها، وقد عثرنا على تسميات كثيرة لها، مثل: صفاء الكلمة القرآنية، والكلمة القرآنية جامعة، والهندسة اللفظية، وجماليات المفردة القرآنية. وكل باحث يرى فيها ما لا يراه غيره، بالزيادة أحياناً، وبالتأويل أحيانا أخرى، ولكنهم يلتقون في محاولة فهم سر المفردة القرآنية، وتبيان موطن إعجازها.

يقول السامرائي في مقدمة كتابه بلاغة الكلمة في التعبير القرآني:« هذا كتاب يبحث في المفردة في القرآن الكريم. والمقصود بـ(المفردة) هو الكلمة الواحدة كما هو معلوم. إن موضوع المفردة في القرآن موضوع واسع متشعب الأطراف متعدد المناحي »[1]. ولا ريب في ذلك، سيّما إذا تعذّر علينا فهم المقصود من طريقة استخدام هذه الكلمة بالشكل الذي استُخْدِمتْ فيه، حتى وإن فهمنا المجال الذي يطّرد استخدامها فيه.

لقد وضع العلماء والباحثون في مجال الدراسات القرآنية معاجم خاصة بمفردات القرآن الكريم، بحسب الحقول الدلالية الواردة فيه؛ فوجدنا منها معاجم غريب القرآن، معاجم حروف المعاني،« ثم ألف عدة معاجم تخصصية أخرى منها: معجم ألفاظ الإنسان في القرآن، ومعجم ألفاظ الحيوان في القرآن، ومعجم ألفاظ الزمان في القرآن، ومعجم ألفاظ الكون الواردة في القرآن، ومعجم ألفاظ المصنوعات في القرآن، ومعجم ألفاظ المكان في القرآن، ومعجم ألفاظ القبائل والأمم والشعوب في القرآن، ومعجم ألفاظ الأخلاق في القرآن، ومعجم الألفاظ التجارية والمالية في القرآن »[2]. ومعجم أفراد القرآن؛ أي المفردات التي وردت مرة واحدة في القرآن كله. وهو بحث أورده على شبكة الأنترنيت موقع نون للدراسات القرآنية؛ لصاحبه بسام جرار.

---

[1] - فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار الفجر للنشر والتوزيع، بغداد، ط 1، 2008، ص5.

[2] - أحمد حسن الخميسي، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب - دمشق العدد 93 و94 - مارس وجوان 2004، ص23.

يفيد هذا الكلام أنّ المفردة - إذا كانت في حقل دلالي واحد - تدل على المعنى العام الذي تدل عليه سائر أخواتها التي هي من نفس الحقل. وليس من السهل أن تُغيَّر دلالة مفردة من هذه المفردات، ولا أن تخرج إلى مفهوم آخر، بفعل السياق أو غيره، إلى دلالة مخالفة بشكل صريح للدلالة التي يحملها حقل هذه المفردات مجتمعة.

والكلمة القرآنية في بعض أوجهها تتسم - في السياق القرآني - بنوع من الاطّراد الدلالي الذي قلّما تخرج عنه، وفي ذلك يقول الرافعي:« لا جرم أنّ المعنى الواحد يُعبّر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر إنْ أُريد شرط الفصاحة؛ لأنّ لكل لفظ صوتاً ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تساق له الجملة »[1]. ويردف في الصفحة نفسها:« ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه فصح هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه... لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فترف[2] به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى في الدلالة اللغوية أو البيانية، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة »[3].

ويقول باحث معاصر في هذا المفهوم:« وغاية هذه الدراسة أن تبرز أننا محتاجون إلى استقراء من نوع آخر يهتم بالبحث في الاطرادات الأسلوبية في القرآن... بيان ذلك أنّ القرآن يحرص في بعض مخاطباته وأساليبه على أن تطّرد معانيه على نسق دلالي وتركيبي واحد لا يكاد يختلف مهما تباعدت الآيات والسور، ومهما تباعدت تلك المعاني والأساليب زمانا ومكاناً »[4]. ويوضح آخر المسألة أكثر عند حديثه عن التفسير الموضوعي للقرآن فيقول: «أنْ يتتبع الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها وكثير من الكلمات القرآنية المتكررة أصبحت مصطلحات قرآنية »[5]. وهذا هو الأمر الذي نحاول أن نتتبعه في مفردات القرآن الكريم، لنخرج بحصيلة تكون قريبة من الدلالات الثابتة لهذه المفردات القرآنية، معتمدين في ذلك على إحصاء المفردات التي من نفس الصيغة الصرفية، وتلك التي من نفس المادة المعجمية.

ومن يلقي نظرة على التأليف في مجال غريب القرآن، يجد أن التركيز يقتصر على المفردة بعينها، ونادراً ما يتم النظر إلى السياق الذي وردت فيه. وهذا اعتراف ضمني من الدارسين القدامى بأنّ للفظة مدلولاً شبه ثابت، لا تخرج

---

[1] - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة رحاب، الجزائر، د.ط، د.ت، ص226.

[2] - معنى ترفّ، من رَفَّ لونُه يَرِفُّ، بِالْكَسْرِ، رَفّاً ورَفِيفاً: بَرَقَ وتَلأْلأَ. (لسان العرب، ج9، ص124).

[3] - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص226.

[4] - محمد إقبال العروي، اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني (رصد واستدراك)، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 1996، ص11.

[5] - مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط6، 2009، ص23.

عنه إلا لضرورة يقتضيها المقام، وملابسات الموضوع، والسياق، والخطاب عامة، ويجب أن يسمح أصحاب اللغة أنفسهم، بهذا الاستعمال الجديد، حين يصير متعارفاً عليه بينهم. ومن ثم لا يمكن بحال القبول بأن تُفسَّر كلمة "بقرة" - على سبيل المثال - في قوله تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾(البقرة: 67) بأنها "عائشة" رضي الله عنها، ولا أن يكون معنى "اللؤلؤ والمرجان" الحسن والحسين رضي الله عنهما في قوله تعالى:﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾(الرحمان:22)، ولا أن يكون لفظ "نعجة" دالاً على "المرأة" في قوله سبحانه:﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾(ص:23). إلى غير ذلك من هذه التخريجات البعيدة عن مدلول هذه الألفاظ المعروفة في اللغة، والمتداولة في الاستعمال.

وهذا الراغب الأصفهاني يقول في كتابه مفردات ألفاظ القرآن:« إن أول ما يُحتاج أن يُشتَغَل به من علوم القرآن، العلومُ اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيقُ الألفاظ المفردة فتحصيلُ معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه... وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علمٍ من علوم الشرع، فألفاظ القرآن: هي لبّ كلام العرب وزبدتُه وواسطته وكرائمُه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمِهم، وإليها مَفزعُ الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم...»[1].

ولا يختلف الباحثون المحدثون في هذا الأمر كذلك؛ إذ يقول أحدهم في كتابه "الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم":« ولكن غالبية العرب أدركت تميّز طبيعة القرآن وانفراده بكون معجزته هي الكلمة التي يعرفون مدلولها، ويأخذون ويعطون بمفهومها، وأن الإعجاز سر مضمر فيها، تتهدى إليه العقول، وتتعرف عليه البصائر »[2]. ويؤكد باحث آخر على قيمة المفردة في الدراسة القرآنية قائلاً:« هذه الدراسة مقصورة على "مفردات القرآن" أي الكلمات التي استعملها القرآن في بناء الجملة، والنظر في لغة القرآن بهذا الاعتبار هو الخطوة الأولى في الكشف عن أسرار الإعجاز البلاغي اللغوي، وإلى هذا أشار كثير من أهل العلم قديماً وحديثاً كالجاحظ والإمام الخطّابي، وابن عطية »[3]. إنّ قول الكاتب بأنّ الإعجاز سر مضمر في الكلمة التي تعرف العرب معناها، يعني في بعض جوانبه أنّ القرآن تصرف بطريقة خاصة في مدلول هذه الألفاظ، ولم يغيّر معناها الأصلي تغييراً تاماً، إلا في بعضها حيث خصها

---

1 - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، ج1، ص4.

2 - محمد كريم الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، جمعية الدعوة الإسلامية، دار الكتب الوطنية بنغازي، 2006. ص19.

3 - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، مناهج تطبيقية في توظيف اللغة - مكتبة وهبة القاهرة، ط1، 1996، ص5 - 6.

بمفهوم شرعي جديد. إنما تصرف في الاستخدام، فخصص لفظة لمفهوم دون غيره، وقصر لفظة أخرى على أفعال الخالق وصفاته، وألفاظ أخرى على أفعال العباد وصفاتهم.

ومن ذلك أنّ القرآن الكريم لم يستعمل لفظ (عمل) ومشتقاته منسوباً إلى ذات الله العليا، إنما استخدم لفظ (فعل) ومشتقاته، فالله تعالى يفعل ولا يعمل، وهو فاعل وفعّال، وليس عاملاً أو غيره. قال تعالى:﴿**لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾(الأنبياء:17). وقال:﴿**وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ المَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾ (البروج: 14- 16). وقال عز من قائل:﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ**﴾(الفيل:01). وكأنّ معنى لفظ (عمل) لا يصلح بحال أن يُنسب إلى ذات الله، ولا وجود ليساق يسوّغ استخدام هذا اللفظ، لأنه يحمل في ذاته دلالة لا تتفق مع أفعال الله تعالى، ولا يستطيع السياق - مهما يكن نوعه - أن يطوّع هذا اللفظ ليتلاءم مع المعاني والأفعال الربانية. ومن ثَمّ« فالقرآن له ألفاظه المنتقاة من بحر ألفاظ اللغة العربية، وله من معاني هذه الألفاظ أتمّها وأكملها. ووجه كون اعتماد اللغة المجرّد في التفسير من أسباب شذوذ القول أنّ الكلمة يحكمها سياقها، وإن كانت الكلمة المجردة عن سياقها قابلة للمعنى المذكور، ولها تعلّق بيّن باللغة »[1].

إنّ استعمال القرآن مفردات اللغة بصيغ مختلفة، يكاد يكون كالاستخدام الاصطلاحي، لا يمكن استبدال مصطلح بآخر دون أن يحدث خلل في المعنى، أو غموض في الدلالة. فكل لفظة قرآنية مطّردة المعنى، صارت مصطلحاً يحمل دلالة قارة في السياقات التي ترد فيها، وهذا الأمر يُسهّل معرفة المعاني والدلالات القرآنية، ويحصرها في حقول وفضاءات تساعد القارئ والباحث والمفسر في إدراك المقاصد القرآنية، دون أن تذهب به القراءات المتنوعة مذاهب شتى، قد تبلغ حد التناقض، ومجانبة المقصود.

يقول باحث آخر في هذا المعنى:« وكان القرآن دقيقاً في اختيار ألفاظه، وانتقاء كلماته، فإذا اختار اللفظ معرفة كان لسبب، وإذا انتقاه نكرة كان لغرض، كذلك إذا كان اللفظ مفرداً، كان ذلك لمقتضى يطلبه، وإذا كان مجموعاً كان ذلك لحال يناسبه، وقد يختار الكلمة، ويهمل مرادفها، الذي يشترك معها في بعض الدلالة... وهكذا لكل مقام مقال في التعبير القرآني »[2]. وهذا أمر لا شك فيه، غير أنّ المزية تكمن في سر هذا الاستخدام، وفي بلاغة هذا الانتقاء الذي يؤدي إلى فضاء الإعجاز القرآني.

---

[1] - عبد الرحمان بن صالح بن سليمان الدهش، الأقوال الشاذة في التفسير، نشأتها، أسبابها، وآثارها، سلسلة إصدرات الحكمة، بريطانيا، مانشيستر، ط1، 2004، ص116.

[2] - عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة القرآنية، دار المريخ للنشر، الرياض، ص23.

وبناء على هذا، لا يمكن، ولا يجوز أن نضيف إلى أسماء الله الحسنى - مثلاً - اسماً آخر، غير الأسماء التي تسمى بها جلّ وعلا، والتي ورد ذكرها في الحديث النبوي. فلا يقال عنه تعالى، المهندس الأكبر، أو المبدع الأول، أو المخطط، ولا حتى اسم "الفرد" الذي قال فيه الأزهري« ولم أجده في صفات الله تعالى التي وردت في السنة... ولا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه النبي (ص) »[1]، ولا غيرها. إذ« أن أسماء الله تعالى من الأمور الغيبية التي لا يمكن لنا معرفة شيء منها إلا عن طريق الرسل الذين يطلعهم الله على ما يشاء من الغيب ثم هم يبلغونه للناس فلا يجوز القياس فيها أو الإجتهاد لأن هذا الباب ليس من أبواب الاجتهاد »[2]. ولا يشفع في ذلك أيّ سياق مهما يكن نوعه، علماً بأنّ هذه الصفات ليست بعيدة عن أفعال الله؛ فهو الذي أبدع هذا الكون، وقد سمّى نفسه بما يشبه ذلك فقال سبحانه:﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾(البقرة:117).

إنّ مجال التصرف - إذا - في الكلمة المفردة، لا يتعدى ما كان يفعله ناظمو الشعر في الجاهلية، في إخراج الكلمة من معناها الحقيقي الصرف، إلى معنى مجازي تقبل به العقول، وترتاح له النفوس، ويستسيغه خيال الناس. ويحدث كل ذلك عن طريق نوع من المشابهة والمقاربة بين المعنيْين القديم والجديد، لا عن طريق طفرة دلالية غير معروفة ولا مفهومة ولا معلّلة، إلا فيما قلّ من الألفاظ، كما هو الشأن في بعض الأمثال العربية، كقولهم:« كان ذلك زمن الفطحل » الذي قال فيه ابن منظور« فَحْطَل: اسْمٌ؛ قَالَ:

تباعَد مِنِّي فَحْطَل، إذ سأَلته ... أَمِينَ، فَزاد اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدا

وَهَذِهِ تَرْجَمَةٌ وَجَدْتُهَا فِي الْمُحْكَمِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، ورأَيت هَذَا الْبَيْتُ فِي الصِّحَاحِ: تَبَاعَدَ مِنِّي فَطْحَل، وَاللَّهُ أَعلم»[3]. أو قولهم:« لا يعلم قرطعبة ولا قذعملة »[4]... إلخ.

وقد فطن الخطابي لمثل هذا التميّز في الاستخدام القرآني لألفاظه، ونبّه عليه في معرض الرد على مسيلمة الكذاب، حين أراد معارضة أسلوب القرآن الكريم، فاستخدم لفظ "فَعَل" في غير موضعه، وقال:« ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحُبلى ». قال الخطابي:« وإنما تستعمل هذه اللفظة في العقوبات ونحوها كقوله:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، وكقوله سبحانه:﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ وكقوله:﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ وكقول القائل: فعل الله بفلان وفعل، إذا دعا عليه، وإنما وجه الكلام أن يقول: ألم تر إلى ربك كيف لطف بالحبلى،

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج3، مادة (فرد)، ص331.

[2] - أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، تح: عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. العدد 112 - السنة 33 - 1991. ص159.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص518.

[4] - يراجع، الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، ج2، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، لبنان، د.ط، ص270.

وكيف أنعم عليها أو نحواً من هذا الكلام »[1]. ومعنى هذا الكلام أنّ للقرآن الكريم عادات خاصة في استخدام الألفاظ، كما قرر ذلك ابن عاشور، للدلالة على معان خاصة ومحددة، إذ نجد بعض الكلمات يرد بجانب كلمات معينة، ملازماً لها، في جلّ المواضع التي تجيء فيها من القرآن، حتى كأنها تعبّر عن أشياء تنمّ عن هذا الإعجاز حين تأتي بهذا الشكل.

وذهب الحكيم الترمذي إلى رأي قريب من هذا الرأي، في كتابه "بيان الفرق بين القلب والصدر والفؤاد واللب"، حين جعل كل لفظة من هذه الألفاظ مرتبطة بأمر خاص ومتعلقة به، ترد متصلة به دوماً في سياق الآيات. فالصدر مرتبط بنور الإسلام، والقلب بنور الإيمان، والفؤاد بنور المعرفة، واللب بنور التوحيد[2]. وقد تتبع الآيات التي وردت فيها هذه الألفاظ مقترنة بما اطّرد من الألفاظ المذكورة. غير أنّ تخريجه لذلك كله لم يكن موحَّداً، بل كان في بعض الأحيان نوعاً من التفسير الصوفي الانطباعي، وليس الشرح اللغوي البياني العلمي.

والأمر الذي لفت انتباه القدامى، أيضاً، في ألفاظ القرآن هو ما سُمّي بالوجوه والنظائر، أو الأشباه والنظائر « وهم يذكرون في تلك الكتب اللفظ الذي معناه واحد في مواضع كثيرة؛ فيجعلون الوجوه نوعاً لأقسام، والنظائر نوعاً آخر، كالأمثال، وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن؛ حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل؛ ولا يوجد ذلك في كلام البشر »[3]. ويقول باحث معاصر في هذه الظاهرة اللغوية، بعد استقراء هذه المادة في مراجعها:« الوجوهُ: المعاني المختلفةُ لِلَّفظةِ القرآنيةِ في مواضعِها من القرآنِ. والنَّظَائِرُ: المواضعُ القرآنيةُ المتعدِّدَةُ للوجهِ الواحدِ التي اتفقَ فيها معنى اللَّفظِ، فيكون معنى اللَّفظ في هذه الآية نظيرَ (أي: شبيه ومثيل) معنى اللَّفظ في الآيةِ الأخرى »[4]. مع تصريحه بأنّ بعض الألفاظ لا يكون له نظائر في آيات أخر، إنما يرد مرة واحدة لا غير، مثلما فعل بلفظ "الحسنى"، حيث أورد تخريج مقاتل بن سليمان (ت:150هـ)، الذي جعل الوجه الأول له هو الجنة، كما في قوله تعالى:﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى**﴾[يونس:26]؛ ﴿**وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾[النجم :31]، ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾[الرحمن:60]. والوجه الثاني هو البنون كما في قوله جل وعلا:﴿**لَهُمُ الْحُسْنَى**﴾[النحل:62]. والوجه الثالث هو الخيرَ، كما في براءة:﴿**إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى**﴾[التوبة:107]. ومثله ﴿**إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ**

---

[1] - الرماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني، ثلاث رسائل في الإعجاز، في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق وتعليق، محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976، ص69.

[2] - ينظر، أبو عبد الله محمد علي بن الحكيم الترمذي، بيان الفرق بين القلب والصدر والفؤاد واللب، تح، أحمد عبد الرحيم السايح، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، د ط. د ت، مقدمة المحقق، ص3.

[3] - الزركشي، بدر الدين بن محمد عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ج1، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية بيروت، لبنان. ط1، 1957 م، ص102.

[4] - مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، التفسير اللغوي للقرآن، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1432 هـ، ص94.

إِحْسَاناً وَتَوْفِيقًا﴾[النساء:62][1]. وعلّق على ذلك بقوله:« وإنه لم يذكر في الوجه الثاني نظيراً للآيةِ، وهذا يعني أنَّه لا يلزمُ أن يكونَ في كلِّ وجهٍ من الوجوهِ نظائرُ من الآيات »[2].

غير أن ألفاظ الوجوه والنظائر يجب أن تؤخذ بنوع من التحفظ، أو بمزيد من التدقيق. فللفظ "الحسنى" السابق الذكر - مثلاً - أوضاع خاصة، بحسب نوع التصريف، فإذا ورد بصيغة الصفة المشبهة؛ أي حُسنى على وزن فُعلى، التي هي مؤنث أحسن، على وزن أفعل، وورد مفرداً غير مضاف إلى شيء آخر، فيقصد به الجنة باطّراد في جلّ الآيات التي ورد فيها. ما عدا في قوله تعالى:﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾(التوبة:107)، فهي: الخصلة {الحُسنى} أو الإرادة الحسنة، وهي الصلاة كما فسّرها الزمخشري، وهي الخير كما فسرها ابن عاشور. وهذه اللفظة هي نقل لأقوال المنافقين الذين أقسموا على أنهم أرادوا الحسنى ببنائهم مسجداً صار فيما بعد يُعرف بمسجد الضرار. وكأنهم بقولهم هذا واستعمالهم لفظة "الحسنى"، أرادوا تقليد لغة القرآن، تمويهاً وخداعاً للناس. أما إذا كانت هذه المفردة بصيغة أخرى مثل: الحسنة، أو الإحسان، فالأمر مختلف.

- الثابت والمتغير في دلالة ألفاظ القرآن الكريم:

من المعروف أن اللغة تشتغل على مفهوم الثابت والمتغيّر في التعبير عن مختلف الأوضاع، وفي شتى الميادين، وأن القرآن الكريم لفت الانتباه إلى أنه منزّل بلسان عربي مبين، وقد تكرر ذلك في عشر آيات، كلها في القرآن المكي. وما دام نزوله بلغة العرب، فإن أسلوبه كذلك يخضع لقوانين هذه اللغة،« فالتنصيص في القرآن، مراراً وتكراراً، على كونه "نزل بلسان عربي مبين" ليس معناه فقط أن كلماته عربية بل معناه أن "العربية جزء ماهيته"، كما يقول الأصوليون، بمعنى أن اللغة العربية، كأساليب في التعبير وكمخزون ثقافي، مكوّن من مكوّنات ماهيته فهو قد نزل ليس فقط بكلمات عربية بل أيضاً حسب معهود العرب. ولو لم يكن حسب معهودهم لَماَ أمكن أن يفهموه »[3]. أي أنّ الألفاظ ودلالتها، والأساليب وطريقتها، والتراكيب اللغوية ومحتواها، هي من معهود العرب في كلامها، في الأغلب الأعم، إلاّ ما كان نوعا من التصرّف الدلالي الذي لا يخرج عن النسق المعهود في كلامهم، وهو الجانب الذي يرتكز عليه إعجاز القرآن الكريم.

وسؤالنا هو: ما هي الألفاظ التي استخدمها القرآن الكريم في خطابه، وبقي محتفظاً بدلالتها الوضعية القديمة؟ وما هي الألفاظ التي استخدمها في خطابه، وغيّر دلالتها العرفية إلى دلالة أخرى جديدة تخص المنظور الإسلامي للحياة والناس ؟ لأنه في ضوء ذلك يمكن الاقتراب من المفهوم القرآني لدلالة تلك الألفاظ، لاسيّما إذا اطّردت في استخداماتها، وكانت دلالتها مهيمنة على النسق القرآني في جل آياته. ذلك أنّ هناك نوعاً من هذه الألفاظ يُعرف

[1] - يراجع: مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، التفسير اللغوي للقرآن، ص93.

[2] - المرجع نفسه، ص94.

[3] - محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط2، 2007، ص195

بالوجوه والنظائر، وهو علم« يتتبع ظهور اللفظ الواحد بمعان مختلفة في القرآن الكريم، ويتخذ من سياقات هذا النوع من الألفاظ، أمثلة لهذه المعاني المختلفة المسماة بوجوه اللفظ وتعدّ اللفظة في أحد سياقاتها نظيرة لها في السياقات الأخرى التي ترد فيها »[1].

غير أنّ المشترك اللفظي قد يكون جزءاً من الوجوه اللفظية، لكن الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ليست هي المشترك وحده، بل إن الاستعمال القرآني الخاص بها، هو الذي« أدخلها في سياقات فكرية واجتماعية، مختلفة عما كانت عليه من قبل، وبذلك حملت بألوان وظلال جديدة وسعت نطاقات معانيها، أوضيّقتها، أو غيّرتها، فأصبحت بذلك من ألفاظ الوجوه، لا مما سماه اللغويون بالمشترك »[2]. وزيادة على هذا، نقول إنّ من ظلال هذه الوجوه والنظائر في المفردة القرآنية، أنْ جعل لها القرآن حيّزاً خاصاً، وفضاء مميزاً لا تخرج عنه في دلالتها العامة، وجعل لبعض الألفاظ فضاءين مختلفين باختلاف نوع السور؛ مكية أو مدنية، مثلما نجد في لفظ "الصوم"، ولفظ "الصيام"، فالأول يعني به الصمت أو "الإمساك عن الكلام"، وقد ورد هذا اللفظ في العهد المكي، والثاني يعني "الإمساك عن المفطرات"، وقد ورد في العهد المدني، ليدل به على الشعيرة الرابعة من قواعد الإسلام. ويبدو أنّ لفظ الصوم نظير لفظ الصيام في اشتقاق الكلمة، وفي دلالتها اللغوية العامة في أصل الوضع.

ويقول باحث آخر:« ولما كانت دلالات الألفاظ في اللغة العربية متعددة ومختلفة غالباً، كان لا بد لكل من المفسر والمجتهد من الإحاطة بعلم دلالات الألفاظ، لأن هذا العلم هو البوابة التي من خلالها يفهم الفقيه والمفسر كتاب الله عز وجل، كما أنه يعينهما على بيان المراد من النصوص القرآنية »[3]. لأنه مهما قيل عن اللغة وأساليبها وتراكيبها، فإنّ المفردة تبقى هي العنصر الأساس في تشكيل قضايا اللغة كلها؛ من صرف ونحو وبلاغة ومجاز. وما التراكيب اللغوية المتنوعة ودلالتها إلا بناء من هذه المفردات لاغير.

لا شك، إذن، في أنّ القرآن قد استخدم ألفاظ اللغة العربية - التي يعرف الناس دلالتها ويستخدمونها بتلك المفاهيم المتفق عليها في حياتهم ومخاطباتهم المتنوعة - بطريقة لم يعهدوها، ليس في معناها المعجمي العام، بل في توظيفها الدلالي الخاص« والموازنة بين الكلمات أو المفردات اللغوية... تسفر عن روائع ودقائق الإعجاز القرآني البلاغي اللغوي، وتدل دلالة قاطعة لا يرقى إليها الشك في أنّ القرآن الحكيم استعمل اللغة استعمالاً أمثل لا نظير له في كلام البشر مهما أتوا من الفصاحة والبلاغة وسموّ البيان »[4]. ومن ذلك الفرق الواضح بين الاستخدام القرآني

---

[1] - سلوى محمد العوا، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998، ص14.

[2] - المرجع نفسه، ص15.

[3] - عماد الدين محمد الرشيد، أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، دار الشهاب، دمشق 1999، ص3.

[4] - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص7.

للألفاظ العربية، وبين الاستخدام البشري. فبينما تشيع عند الكُتّاب والشعراء والباحثين ألفاظ معيّنة، تطّرد في القرآن كلمات أخر، للدلالة على مثل تلك المعاني التي يعبّر عنها هؤلاء. فالقرآن يستخدم لفظ "الفوز" ولفظ "السكينة"، والناس يفضّلون لفظيّ "النجاح" و"الشجاعة"[1].

ويمكن ملاحظة ذلك في كلمات كثيرة تشيع عند الناس، وترد في القرآن كلمات أخرى للتعبير عن مثل تلك المعاني، ومن هذه الكلمات في التعبير البشري ما يلي: هيّا. شاب وشباب، جداّ. سيان. صبيان، طفلة. فوضى. بسيط، سهل. نجاح. عامة، عموما. وبالمقابل فإنّ الشائعة في التعبير القرآني هي: تعال، وأقبل. فتى، وفتية، وفتيان. كثير. متشابه. طفل، غلام، أولاد. فساد. يسير. الفوز. كافة. غير أنّ بعضها الآخر يستخدم في الكلام البشري وفي التعبير القرآني على السواء، مثل: أبناء، رجل، امرأة، إنسان، وجد، أتى، خير، شر...إلخ.

وقد لاحظ الباحث بسام جرار أنّ أكثر من ربع الألفاظ التي وردت في القرآن مرة واحدة، لا يستخدمها الناس في كلامهم، بل والمثقفون أيضاً. وإنّ نسبة كبيرة من هذه الألفاظ غير مستخدمة ومعناها غير معروف.

ويمكن الإشارة، هنا، إلى بعض الألفاظ الكثيرة الاستخدام في كلام الناس على اختلاف مشاربهم، لكنها منعدمة تماماً في القرآن الكريم؛ مثل الكلمات المذكورة آنفاً: جدّاً، فقط، قَط، أيضاً، سيّان، جيّد، رائع، بتاتاً، وغيرها كثير؛ وإن كان معظمها قليل الاستخدام في الشعر أيضاً، كما لاحظ النقاد والبلاغيون ذلك. أما عدم ورود مثل هذه الألفاظ في القرآن فأمر غير واضح بجلاء، ولم نعثر على رأي صريح للباحثين في ذلك، فيما تسنى لنا من المراجع التي طالعناها. ولعل الأمر يرجع إلى نقص الحمولة الدلالية لهذه المفردات، أو أنّ مرادفاتها ونظيراتها أفضل منها في تأدية المعاني المتوخاة من الخطاب، أو لغرض إعجازي غير محدد بدقة إلى حد الآن.

- الثنائيات اللفظية:

يقول باحث معاصر:« ثَمّ نمط من الأنساق اللفظية المهيمنة جاء في بعض السور المكية متجسداً بنظام من الثنائيات اللفظية المتلازمة على امتداد السورة، وهذه الثنائيات تربط بينها علاقات متنوعة، كالتقابل والتنافر، أو التنافي، والتكامل، أي أن كل واحدة تكمل الأخرى في إتمام المعنى، والتقارب في المعنى، والانتماء إلى حقل دلالي واحد، وغير ذلك من العلاقات التي تربط بينها »[2]. غير أنّ الباحث لم يورد أمثلة واضحة على ما يقول، إنما ذكر السور والآيات التي فيها هذه الثنائيات، وهي "الضحى"، و"طه"، و"الأعلى"، من دون تحديد، هذه الثنائيات

[1] - يراجع: عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص7.

[2] - خالد توفيق مزعل الحسناوي، الأنساق المهيمنة على السور القرآنية، دراسة تطبيقية على السور المكية، رسالة دكتوراه، مخطوط من قسم اللغة العربية، جامعة الكوفة، 2012، ص80.

اللفظية، ولا تعيين لها على وجه الدقة، ما عدا سورة "الضحى" التي استخرج منها الثنائيات المقصودة بتفكيك الآيات إلى مكوّناتها اللفظية، ووضعها في تقابلات كالتالي:

والضحى..... والليل إذا سجى
ما ودعك..... وما قلى
الآخرة..... الأولى
يعطيك..... فترضى[1]

وهكذا فعل مع بقية الآيات الأخرى من السورة. والناظر في كلام الباحث، يستشف أنّ المقصود من هذه الثنائيات هو مجاورة بعض الألفاظ لِأخرى، قصد توضيح المعنى، وتأكيده، ووضع تلك الألفاظ في مجال معيّن يساعد على فهم المغزى من ذلك التجاور. فقد ذكر أن سورة "الضحى" وسورة "الأعلى " قد هيمنت عليهما هذه الثنائيات من أول السورة إلى آخرها، أما في سورة "طه" فلم تتمّ هذه الهيمنة إلا من الآية 63 إلى الآية 81.

غير أنّ هذا العمل لا يغيّر من دلالة اللفظة شيئاً، ولو جاورت اللفظة لفظة أخرى، بشكل مهيمن - كما زعم الباحث - إلا أن يكون لذلك دلالة وقصدٌ غير الناحية التقنية هذه. فلفظة "الآخرة" تبقى بالمفهوم ذاته، و"الأولى" التي تعني الدنيا تبقى بهذا المفهوم كذلك. إنما السؤال هو: لماذا عبّر عن الدنيا بلفظ الأولى، وعبّر عن الأخرى بلفظ الآخرة ؟ إنّ المطّرد في القرآن الكريم أن يذكر الحياة الدنيا بعدة ألفاظ مثل: الدنيا، والحياة الدنيا، والأولى. أما الحياة الأخرى، فلا يستخدم للدلالة عليها إلا لفظ "الآخرة" منفرداً، والذي ورد أكثر من مائة مرة، من غير لفظ "الحياة"؛ أي لا يقول "الحياة الآخرة"، مع كونها حياة هي أيضاً، وإن كانت أبدية. إنما استخدم عبارة "الدار الآخرة" في مواضع كثيرة كقوله تعالى:﴿**وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(الأحزاب:29). علماً بأنه وردت بلفظ "الدار" وحده في مواضع أخرى من الخطاب القرآني[2].

ومع ذلك، فقد ورد لفظ "الدار" منفرداً بدلالة أخرى غير الآخرة، وذلك في سورة واحدة مدنية في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**﴾(الحشر:9). فقد قُصِد بلفظ "الدار" المدينة المنوّرة[3]. ولهذه الظاهرة نظائرها في القرآن، ذكرها ابن فارس في كتابه "أفراد ألفاظ القرآن"، وأعادها السيوطي في "الإتقان". ومفادها أنّ القرآن يورد ألفاظاً معيّنة بمعان مطّرة في كل المواضع التي تأتي فيها، ما عدا موضعاً واحداً ترد فيه بمعنى مخالف.

إنّ هذا الصنيع مع ألفاظ القرآن الكريم، يدل - مرة أخرى - على أنّ هناك هندسة لفظية دقيقة مقصودة، تستدعي دلالات محددة، وترمز هذه العلامات اللغوية إلى فضاءات قارة تحيل على معانٍ ذات أبعاد فنية وموضوعية

---

[1] - خالد توفيق مزعل الحسناوي، الأنساق المهيمنة على السور القرآنية، ص238.

[2] - كما في السور التالية: الأنعام: 135، الرعد: 22/ 24/ 25/ 42، القصص:37، ص:46، غافر:52.

[3] - يراجع الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص90.

تنبئ بعجز الإنسان العادي عن الإحاطة بها، وبعدم مقدرته على مجاراة هذا النسق الأسلوبي من التعبير عن المقاصد المتنوعة.

- المفردة القرآنية والصيغ الصرفية:

لاحظ كثير من دارسي لغة القرآن الكريم، أنّ الصيغة الصرفية التي ترد فيها الكلمة القرآنية، تختلف دلالتها من صيغة إلى أخرى. وذلك أنّ« الألفاظ التي تبدو في قالب صيغي يكون له أثر فاعل في تحديد مساراتها في النص، ومن دونها تفقد الألفاظ كيانها، وتغدو من العدم، ودليلنا على هذا إهمال بعض الألفاظ اللغوية، وإخراجها من دائرة الاستعمال سواء الاعتيادي منه أم الإبداعي؛ لتراكبها بطريقة لا تخضع فيها لقاعدة تصريفية تكون دالة على شيء»[1]. من ذلك ما يسمى بالممات في اللغة، أو المهمل، أو غير المستعمل. وفيه الكلمات المعجمية، وفيه ترك بعض التصريفات دون بعضها الآخر؛ مثل إهمال الفعل الماضي والمصدر من "وذر"، و"ودع"، والإبقاء على المضارع والأمر منهما؛ أي يذرُ ويدعُ، ودَعْ، وذَرْ.

ويقول آخر:« إنّ الصيغة الفرعية الواحدة لها معنى واحد غالباً، فقد وجدنا مائتين وستاً وأربعين صيغة تأتي كل منها بمعنى واحد ما عدا خمس صيغ فقط أتت كل صيغة منها لغير معنى واحد.. وهذا يُستنتج منه أن الكلمات القليلة التي يكون لها غير معنى واحد إنما يكون ذلك نتيجة تطورات تحدث للكلمة تصيب بها معانيَ جديدة. فعند تغيّر الظروف، وطروء معان جديدة، لا يسهل إنشاء كلمات جديدة لها، يلجأ المتكلمون إلى الإفادة من الكلمات المعروفة عن طريق وجود مناسبة ما بين المعنى الجديد والمعنى القديم »[2]. وهذا هو واقع الأمر في اطّراد دلالة كل صيغة من هذه الصيغ في القرآن الكريم، وهو موضوع عميق، وشائك مسلكه، لاسيما إذا أضفنا إليه مسألة ورود هذه الصيغ بنسب دقيقة موزّعة بين القرآن المكي والقرآن المدني، بحيث ترد صيغة صرفية لفعل ما في الآيات المكية، ثم تأتي صيغة أخرى للفعل نفسه في الآيات المدنية، كما سنوضح ذلك في الفصول الآتية.

وبناء على هذا القول، نجد القرآن الكريم يستعمل مصطلح "كلمة"، ومشتقاتها (كلام، كلم، كلمات، تكلّم، كُلِّم، يتكلمون، يكلمهم، كَلّم، كلّمَهُم)، بدلاً من "لفظة" أو "مفردة". قال تعالى:﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾(البقرة:75). و﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾(التوبة:6). و﴿**وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا**﴾ (التوبة:40). و﴿**فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾(البقرة:37). و﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾(المائدة:13). و﴿**إِنَّ الَّذِينَ**

[1] - خالد توفيق مزعل الحسناوي، الأنساق المهيمنة على السور القرآنية، ص76.

[2] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، دار البشير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996. ص327.

UNIVERSITE SETIF2

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(البقرة:174). و**﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾**(هود:105)...إلخ. ولكننا نعثر على الفعل "لفظ" في قوله تعالى:**﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾**(ق:18). ولا نعثر على مشتق منه مثل: لفْظ، أو ملفوظ، أو ألفاظ.

- المفردة القرآنية وهيمنتها الدلالية:

إنّ ألفاظاً مثل: واحد، أحد، الله، رب العالمين، التقوى، الخير، الشر، المعروف، المنكر، الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، العدل، الإحسان، وغيرها، نجدها مهيمنة في الخطاب القرآني، بحسب توزيعها في القرآن المكي أو المدني. وهي بذلك تدل على معنى واحد يتكرر في سياقات متنوعة، وبعبارة أخرى فهي تدل على حقل دلالي موحّد، وإنْ خرج بعض هذه الكلمات عن المعنى المطّرد، إلى معنى آخر، فهو عادة ما يكون نوعاً من الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، لأنّ الهيمنة الدلالية لهذه الكلمات المستخدمة اقتضت أن يكون معناها المقصود محدداً في موضوع معيّن دون سواه. فإذا ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:**﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**(الحجر:9)، اقتضى الأمر أن تُفهم كلمة "نحن" بأنها "أنا"؛ أي الله الواحد الأحد، لا شيء آخر، لأنه سبق أن عبّر الله تعالى عن ذاته العليا، وفي كثير من الآيات، بأنه واحد، لا شريك له. وهذا النوع من التفسير، يسميه المختصون في علوم القرآن؛ ردّ المتشابه إلى المحكم[1].

ومن معاني هذه الهيمنة الدلالية لألفاظ القرآن الكريم، أن تأخذ اللفظة المعجمية الواحدة شكلاً خاصاً، يجعلها تنتمي إلى حقل دلالي ثابت، ويطّرد معناها في كل الخطابات المشابهة، والسياقات المختلفة، وكأنها - وقد صُنعت بشكل خاص - لتسير في مسار خاص، معروف المعالم. يقول أحد الباحثين:« ويبدو أن الأفعال التي تنتمي إلى حقل دلالي معيّن أفعال تملك بنية دلالية واحدة، وتعود الاختلافات التي تبدو، ظاهريا، بين هذه الأفعال إلى امتلاك كل فعل، داخل هذا الحقل، بنية جهية متميزة. ونقصد بذلك أنه يغطي أحد المفاهيم التي توجد في نفس الحقل الدلالي »[2]. بمعنى أنّ لفظة ما - مقارنة بلفظة مشابهة له في المعنى العام - تأخذ جزءاً من المساحة الكلية للمعنى العام، وتترك الجزء الآخر للفظة أخرى تقاسمها الحقل الدلالي. مثل: رأى ونظر، وأبصر.. وسمع، وأنصت، واستمع، وغيرها من الكلمات أفعالاً كانت أم أسماء. ويؤكد الباحث نفسه أنّ مثل هذه العملية في تصنيف المفردات

[1] - يراجع، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص10.

[2] - عبد اللطيف شوطا، نظر ورأى، مجلة أبحاث في اللسانيات العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك، الدار البيضاء، د. ط، د. ت، ص12.

اللغوية، يؤدي إلى تحديد« الحقل الدلالي للمحمول، ورصد سلوكه التركيبي، والتنوبؤ بالتوسع الممكن في دلالته، الشيء الذي يساعد على ضبط التلاقح الممكن بين الحقول وهندسة هذا التلاقح »[1].

وتظهر الهيمنة الدلالية بشكل آخر من استخدام ألفاظ القرآن، في محطات خاصة من سوره؛ مثل أن ينعدم ورود لفظة "الله" في حزب بكامله؛ وهو حزب القمر والرحمان والواقعة. مع ذكر اسمين آخرين هما: ذو الجلال، وذو الإكرام. يقول باحث معاصر:« فما الذي يربط بين هذه الأسماء الحسنى الثلاثة؟ وكيف تهيمن هذه الأسماء الثلاثة على معاني السورة الثلاث بكاملها »[2]. فقد تكرر اسم "ربّ" في هذه السور، ولم يذكر لفظ الجلالة "الله" قط، كما أنّ اسميْ "الجلال" و"الإكرام" لم يُذكرا إلا في سورة الرحمان.

ثم يحاول الباحث تفسير ذلك بقوله:« وهكذا نجد صفتيْ الله تعالى{ذو الجلال والإكرام} تنسجان مع صفتيْ {الرب} وهما الرحمة والهيبة... فصفتا الجلال والإكرام يتوازن فعلهما في خلق الله الذي أسّس الكون كله على أساس من التوازن »[3]. لكن لماذا وردت هذه الصفات بهذا الشكل في هذه السورة بالذات؟ وهي السورة المحسوبة من القرآن المدني، وإن كان أسلوبها ومضمونها يميلان كثيراً إلى القرآن المكي. علماً بأنها تتوسط سورتين مكيتين هما: القمر والواقعة، وفي هذه السور الثلاث يهيمن اسم "الرب" ويتكرر، من غير ذكر اسم "الله" مطلقاً.

إنّ الأمر - والله أعلم - يتعلق بتذكير الناس، والكفار والمنافقين على وجه الخصوص، بقوة الله تعالى وعظمته، وهما الصفتان المرتبطتان أصلاً باسم "الرب"، وليس باسم "الله". وحتى إن كانت سورة الرحمان مدنية، فهي تذكر المسلمين بما كانت تعِدُهم في العهد المكي، مخافة أن يقال: إنّ القرآن، أو النبي(ص) لم يعودا يذكران شيئاً عن الجنة ونعيمها، بعد انقضاء فترة المحن التي كانت في مكة. فجاءت السورة مبشرة لهم في فترة حرجة من العهد المدني، حين كثرت الغزوات والابتلاءات.

- الألفاظ المترادفة في القرآن وحقيقتها:

رأينا أن نعرض لمسألة الترادف هذه - على وجه الخصوص - لأنها تمثل جوهر دراستنا في بعض جوانبها، كون كثير من الألفاظ محل البحث يتعلق بهذه القضية، إذ نجد القرآن الكريم يستخدم لفظة في الآيات المكية باطّراد كبير، ثم يستبدلها بمرادفها في الآيات المدنية. ولا يبدو ذلك صدفة، ولا ترادفاً محضاً، لأن التواتر الذي وردت به هذه الألفاظ، والدقة في الاستعمال، في كِلَا الخطابين؛ المكي والمدني، يمنعان هذا الافتراض. وللعلماء في مسألة الترادف

[1] - عبد اللطيف شوطا، نظر ورأى، مجلة أبحاث في اللسانيات العربية، ص12.

[2] - محمد عادل القلقيلي، نظرات جديدة في كتاب الله المعجز، دار الجيل، بيروت، ط1، 1997.ص88.

[3] - المرجع نفسه، ص89.

آراء مختلفة، ولكننا نطمئن إلى الرأي القائل بعدم ورود الترادف التام في القرآن، وإن كان جائزاً في اللغة بصفة عامة. والقائلون بهذا كثيرون؛ منهم القدامى أمثال: أحمد بن فارس، وأبي علي الفارسي، وأبي هلال العسكري، وغيرهم، ومن المعاصرين أمثال: محمد المبارك، وأحمد مختار عمر، وفاضل صالح السامرائي وسالم شاكر.

ولما كانت لغة القرآن من المستوى العالي، بل أعلاه فإنّ:« النصوص العالية لا تلجأ إلى (الترادف) ولا يرد فيها، وإنما الترادف يرد في النصوص الدون، لأنّ الكاتب لا يلجأ إلى الترادف إلا إذا كان غير مطمئن إلى أنّ اللفظ الذي جاء به ليعبّر عن المعنى لم يحِطْ بالمعنى إحاطة كافية، فيلجأ - عندئذ - إلى لفظ آخر يقوّي به سابقه »[1]. وقد حرص آخرون على التدقيق في مصطلح الترادف؛ فأضاف له أحدهم صفة تميّزه عن الترادف العام، أو المطلق فقال: «فالترادف التام التطابقي لا وجود له في القرآن الكريم، ولا ينبغي أن يكون في كلام البلغاء حقاً. أما الترادف الناقص التقاربي، فلا خلاف في وجوده، وكذلك الترادف بين المعاني الاصطلاحية، إذ لا مشاحة في الاصطلاح »[2].

ولسالم شاكر رأي مشابه في مسألة الترادف، يقول فيه:« فإنّ إمعان النظر في اللغات المختلفة يبيّن لنا أن الترادف المطلق شبه معدوم. فهناك دائماً سياقات لغوية أو مقامات تحملنا على اختيار واستخدام بديل واحد واستبعاد البدائل الأخرى... إن الترادف المطلق لا يمكن العثور عليه إلا في مستوى الكلام parole أي في قول أو مقام معيّنين. ولا نعثر عليه في مستوى اللسان langage. وبعبارة أخرى قد يكون هناك ترادف بين المعاني المحصلة sens ولا يكون على مستوى المعاني المقدرة signification »[3]. ومعنى كلامه هذا، أن الترادف قد يحدث عند متكلم واحد بعينه، بصفته شخصاً يعبّر عن رأي خاص أو فكرة معينة، ثم يعجز أحياناً عن أن يجد اللفظة المعبرة، أو أنه لا يستسيغها لسبب أو لآخر، فيستعيض عنها بلفظة أخرى مقاربة لها في المعنى. وفي الواقع لا مفر من هذه العملية، لاسيما عندما نشرح نصاً، أو نفسّر قولاً، أو نترجم كلاماً، بحيث نضطر اضطراراً منهجياً وإجرائياً إلى استبدال لفظة بأخرى لنشرح كلامنا للآخرين. ذلك لأنّ اللغة لا تشرح إلا باللغة، ولا يمكن شرح لفظة بنفسها، وإلا انعدم الشرح، وذهب المعنى. أما الترادف على مستوى اللسان؛ أي في بنية اللغة ذاتها، وفي نظامها العام، فلا وجود له.

ويقول الكاتب نفسه في موضع آخر من الكتاب معلّقا على النظرية السياقية:« وفضلاً عن هذا، فإنه المنهج الذي يمكننا من البرهنة على عدم وجود الترادف المطلق بين الكلمات. لأننا نجد دائماً في صلب المدونات الواسعة

---

[1] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية من أصل لغوي واحد في القرآن، ص328.

[2] - رضا هادي حسّون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، المركز التقني، بغداد، ط2، 2013، ص11.

[3] - سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص24.

سياقات تمييزية تجبرنا على استعمال إحدى الكلمات (واستبعاد غيرها) التي تبدو في الظاهر ذات معنى واحد »[1]. إذن، يمكن أن نقول« ليست هناك مرادفات حقيقية وأن ليس هناك لكلمتين نفس المعنى تماماً. ويبدو في الواقع أنّ من غير المحتمل أن تبقى في أي لغة كلمتان لهما معنى واحد تماماً »[2]. فمثل هذا الكلام ينطبق - إلى حد كبير - على القرآن الكريم، لكونه مدونة كبيرة الحجم، وذات سياقات تمييزية بين آياته، لاسيما الفروق الواضحة بين الآيات المكية والآيات المدنية.

ويقول آخر بعد استعراض آراء القائلين بالترادف والنافين له:« والراجح هو المذهب الثاني، المانع للترادف، والقائل بوجود فروق دقيقة بين الألفاظ المتقاربة في القرآن... قد يوجد في بعض كلمات اللغة العربية، لكنها كلمات قليلة جداً... أما ألفاظ القرآن، فليس بينها ترادف، هذا ما نرجحه، ونحن في هذا موافقون للمحققين من البلاغيين والبيانيين والمفسرين، في القديم والحديث »[3]. ويبدو أنّ هذا الرأي هو الأرجح فعلاً، بالنظر إلى طبيعة النص الذي يستخدم ألفاظ اللغة. فكلما كان النص راقياً، بليغاً، بلغ حداً كبيراً من النضج الموضوعي والجمالي، أو بلغ حد الإعجاز، كان بعيداً عن استخدامه الترادف بكثرة، أو بقلة، إذا كان صاحبه يمتلك فعلاً ناصية اللغة.

وقد ألّف أحد الباحثين كتاباً سمّاه« الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم »[4]، حاول فيه أن يجد فرقاً دلالياً بين الفعل (أتى) والفعل (جاء)، كما وردا في السياق القرآني، منطلقاً من افتراض عدم وجود الترادف في القرآن الكريم، ليخرج ببعض النتائج التي تبدو قريبة من الصواب، أحياناً، وبعيدة أحياناً أخرى مع الجهد المبذول في التوفيق فيما بينها. وتبدو الصعوبة في ذلك حين يرد هذان الفعلان في موضع واحد؛ كما في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾(الأعراف:129). والحديث، هنا، عن موسى عليه السلام، فما الفرق بين "تأتينا" و"جئتنا" وقد اجتمعا في هذا الموضع من السورة؟ يقول ابن عاشور في تفسير الآية:« والإتيان والمجيء مترادفان، فذكر المجيء بعد الإتيان ليس لاختلاف المعنى، ولكنه للتفنن وكراهية إعادة اللفظ »[5]. ولكن الملاحظ أن هذين الفعلين وردا في القرآن الكريم بشكل مختلف، فلفظ (أتى) ورد مصرفاً في الأزمنة الثلاثة؛ ماض، ومضارع، وأمر، بينما لفظ (جاء) فلم يرد إلا بصيغة الماضي. ومن هنا يجب أن نأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار قبل أن

---

[1] - سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص31.

[2] - أف. آر. بالمر، علم الدلالة، ص104.

[3] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، الأردن، ط1، 2000، ص104.

[4] - هو محمود موسى حمدان، والكتاب صادر عن مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1998.

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص61.

نقول أي شيء عن الفرق بين الفعلين، من حيث دلالتهما على معنى معيّن دون آخر، وإلا وقعنا في تعسف ظاهر، وتأويل بعيد غير مستساغ.

لذلك، هل يمكن أن ننظر إلى هذين الفعلين على أساس نحوي، أو صرفي ؟ فنقول: إنّ العرب لم تستخدم الفعل "جاء" بكثرة في المضارع والأمر، إلا ما كان لضرورة شعرية أو ما شابهها، مثلما فعل الفرزدق في هجائه جريراً، مفتخراً بقومه قائلاً:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع[1]

والقرآن الكريم نزل بمعهود العرب في كلامها، وبلسان عربي مبين، فاحترم هذا الأساس، وسار على منواله.

وبناء على ذلك نقول: هل يمكن اعتبار كلمات مثل: الفهم، والاستيعاب، والعلم، والمعرفة وغيرها مترادفة ؟ فإن كان الأمر كذلك، فلِمَ عدل القرآن عن بعضها تماماً، وجنح إلى أخرى فذكرها مراراً ؟ إنّ القرآن لم يُولِ اهتماماً بلفظ "فهم" - مثلاً - ومشتقاته إلا مرة واحدة، وهي قوله تعالى:﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾(الأنبياء:78- 79). واستبدله بلفظ "عقل" الذي استخدم منه الصيغ الفعلية فقط، فلم يقل "عاقلون" أو "متعقلون"، أو "عقلاء"، بل لم يرد لفظ "العقل" بصيغة المصدر مطلقاً. وكل ما ورد منه هو الفعل المضارع فيثمانية وأربعين 48 موضعاً، والفعل الماضي في موضع واحد فقط هو قوله تعالى:﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾(البقرة:75).

وقد سمّى أمين الخولي الألفاظ المترادفة بالكلمات الترفة حين يقول:« ونعني بهذه الكلمات الترفة... صنوفاً من الألفاظ اللغوية متعددة منها: أولاً الأضداد، وثانياً المشتركات لفظية ومعنوية... وأريد أن أضع في صف هذه الكلمات الترفة صنفاً ثالثاً هو المترادفات... هذه المترادفات، في حقيقة الإفهام الدقيق، لا تؤدي معنى واحداً بعينه، بل هي دوال على معان مختلفة، وأحوال متغيرة... فقد أمست تلك المترادفات، حين تدل على مظهر من مظاهر الغنى والوجد، تدل في حساب العمل والجدوى، على أسباب العنت والإرهاق، في حفظها وتعرّفها؛ ثم هي لا تسعف على شيء مما يلتمس الناس اللغة من أجله. فسواء أكان للسبع أو للكلب أو للسيف... مئات الأسماء، أو كان لكل واحد منها اسم واحد، فالمتكلم المتفاهم المستفيد المتعامل، يدل على كل واحد من هذه المسميات باسمه الواحد، دون أن يعنيه من ذلك شيء »[2]. أي أن المستخدم الفعلي للغة يختار وينتقي اسماً أو اسمين، للدلالة على المسمّى الواحد، ولا يحدث أن تتكلم الجماعة اللغوية في المجلس الواحد، وفي الموضوع الواحد، بعشرات الألفاظ التي

[1] - الفرزدق، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 1987، ص360

[2] - أمين الخولي، فن القول، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ط، 1996، ص176.

تدل كلها على مسمى واحد. إنما الذي يحصل في العادة - وحتى عند الكتاب والشعراء - أن يُنتقى من المعجم اللغوي ما يفي بالغرض، ويكفي للتعبير عن المفاهيم والمعاني، التي تخص الإنسان في حياته العامة والخاصة.

وإننا واجدون في المعجم اللغوي العربي مئات الألفاظ التي لا نجد لها استعمالاً، أو ما كان يسمى عند اللغويين بالمهجور، أو المهمل. بل إننا واجدون أيضاً ألفاظاً يستخدم منها تصريف دون آخر، فمن الأفعال - مثلاً - ما يستخدم في الماضي والمضارع دون الأمر، أو يستخدم منه المضارع والأمر دون الماضي. مثل الفعل "ودع"، والفعل "وذر"، إذ نجدهما مصرّفين في المضارع؛ يدع، ويذر، وفي الأمر؛ دَعْ، وذَرْ، أما الماضي منهما، وهو الأصل، ومصدرهما، فلا يستخدمان أبدا؛ لا في كلام الناس، ولا في القرآن الكريم. فإذا أريد التعبير عن معنييْهما في الماضي، أُستخدم فعل آخر هو: ترك. فهل "ترك" هو نفسه ودع، ووذر؟

ونجد القرآن يستخدم من الأسماء جمع "سنين" وليس "سنوات"، وجمع "سماوات" وليس هناك جمع "أرضين"، ويستخدم "أباريق" دون "إبريق"، و"كأس" دون "كؤوس" أو "أكؤس"... إلخ. ذلك أنّ« استعمال القرآن لمفردات اللغة له خصائص... كاستعماله الكلمة في موضع لا تصلح له غيرها مهما كان بينهما من تشابه واتصال. وكتوزيع مادة الكلمة الواحدة على منهج بديع، فيستعمل بعض صورها في معنى لا يستعمل صورة أخرى من صورها وكأن الكلمة الواحدة فيه كلمات بحسب ما تدل عليه، وليست كلمة واحدة »[1]. من ذلك الفرق في استعمال لفظ "القاسطون" و"المقسطون"، ليدل باللفظ الأول على معنى الظلم والاعتداء، وباللفظ الثاني على معنى العدل. والدليل على ذلك قوله تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾(المائدة:42). وقوله كذلك:﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**﴾ (الجن:15). إن الله تعالى، إذن، يحب المقسطين، ويبغض القاسطين. ويطّرد ذلك في كل مواضع القرآن التي ترد فيها هاتان المفردتان. مع العلم أنّ لفظ "القاسطون" ورد مرتين فقط في سورة الجن، أمّا لفظ "المقسطون" فتكرر ثلاث مرات. غير أنّ مصدر "قسط" هو الذي تكرر خمس عشرة مرة، وأقل منه صيغة الفعل؛ أي "أقسط" بتصريفاته المختلفة.

وقد لاحَظ أحدهم أنّ:« في القرآن الكريم ألفاظ مترادفة تدور حول الموت والقتل والذبح، فالموت والممات والمنون والفراق والتهلكة والثبور واليقين والقاضية، أسماء للموت. ولكن ثمة فروقاً دلالية بين هذه الأسماء. فالموت ضد الحياة، ويحدث الموت للكائنات الحية، سواء كانت إنساناً أو حيواناً أو نباتاً، أما المِمات فلم يقع في القرآن إلا على

[1] - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص160.

الإنسان، وكأنّ الممات هو الموت الخاص بالإنسان دون سائر الكائنات »[1]. وهذا تخريج صائب - فيما يبدو - لكنْ، لماذا قصر التعبير القرآني هذا اللفظ على الإنسان فحسب، وفي موضعين فقط من القرآن الكريم كله؟ ذلك هو موطن الإعجاز الذي قد نعجز فعلاً عن فهمه على وجه الدقة.

إنّ لفظ "المِمات" مصدر ميمي، وهو يختلف بعض الشيء عن المصدر الصريح، الذي هو "الموت"، ذلك أنّ "الموت" اسم لظاهرة تمس كل الكائنات الحية« والمَوْتُ: السُّكونُ. وكلُّ مَا سَكنَ، فَقَدْ ماتَ، وَهُوَ عَلَى المثَل. وماتَتِ النارُ مَوتاً: بَرَدَ رَمادُها، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الجَمْرِ شَيْءٌ »[2]. فالموت - إذاً - سُكون الكائن الحي عن الحركة، ونهاية حياته، بطريقة طبيعية أو غير طبيعية. أما "المِمات" فهو نهاية أجل إنسان معيّن، أو جماعة من الناس، أي زمن موتهم[3]، أو طريقة موت إنسان ما.

يقول الشعراوي في مسألة الترادف:« نلاحظ أن هناك ثلاثة أسماء قد تكررت في بسم الله الرحمان الرحيم، وفي فاتحة الكتاب، وهذه الأسماء هي: الله. والرحمن الرحيم. نقول إنه ليس هناك تكرار في القرآن الكريم، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه في كل مرة مختلفاً عن معناه في المرة السابقة، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى.. ولذلك فهو يضع اللفظ في مكانه الصحيح، وفي معناه الصحيح..»[4]. ولعل هذا هو الأمر الذي لم يتفطن إليه الشعراء والأدباء في استعمالهم لمفرداتهم، ولم يجدوا السياقات المناسبة ليغيّروا من دلالة اللفظ في كل مرة، وفي كل نص من نصوصهم، أو لأنهم لم يقدروا على أن يفعلوا ذلك بدقة واطّراد، لكون« علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن »[5].

ويضيف الشعراوي في موضع آخر:« و"الرحمان الرحيم" في البسملة لها معنى غير "الرحمن الرحيم" في الفاتحة، ففي البسملة هي تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لا نستحي ولا نهاب أن نستهين باسم الله إن كنا قد فعلنا معصية.. فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائماً في أعمالنا. فإذا سقط واحد منا في معصية، قال

---

[1] - عصام الدين عبد السلام محمد إبراهيم أبو زلال، التعبير عن المحظور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم، دراسة دلالية، ص147 – 148.

[2] - يراجع: لسان العرب، ج2، مادة موت، ص92.

[3] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، هامش ص245.

[4] - الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، ط، أخبار اليوم، 1997، ص51 – 52.

[5] - ثلاث رسائل في الإعجاز، ص27

كيف أستعين باسم الله وقد عصيته ؟ نقول له أُدخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة.. فيغفر لك وتستعين به فيجيبك»[1]. ثم يتابع شرحه قائلاً:« ولكن الرحمن الرحيم في الفاتحة مقترنة برب العالمين، الذي أوجدك من عدم، وأمدّك بنِعَمٍ لا تُعدّ ولا تحصى، أنت تحمده على هذه النعم التي أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى في ربوبيته، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة. والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر، هو الذي استدعاهم جميعاً إلى الوجود، ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته.. وليس بما يستحقون.. وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية لله هي في الدنيا لخلقه جميعاً، وهذه رحمة.. فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه. وهذه رحمة، والله قابل للتوبة، وهذه رحمة.. إذن ففي الفاتحة تأتي "**الرحمان الرحيم**" بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه، فهو يمهل العاصي ويفتح أبواب التوبة لكل من يلجأ إليه »[2].

فإذا كان تكرار الألفاظ ذاتها في سياقات متنوعة في القرآن، يأخذ هذا المنحى الدلالي المتغير، فكيف بألفاظ مختلفة حروفاً ومعنى؟ أي تلك التي يقال عنها مترادفة، فهي أولى أن تكون مختلفة في دلالتها. ومن ثَمَّ تكون لفظة "**الله**" مختلفة عن لفظة "**الرب**"، وألفاظ الإنسان، والإنس، والبشر مختلفة عن بعضها بعض... وهكذا مع باقي الألفاظ المتشابهة أو المتقاربة في الدلالة.

المفردة القرآنية بين الحقيقة والمجاز:

يكاد يكون هذا المبحث من أهم المباحث اللغوية التي تعنى بالدلالة والمعاني، وكذلك الأمر في مباحث علوم القرآن. وقد اختلف الباحثون في هذه المسألة، فأنكر بعضهم وقوع المجاز في القرآن فقط، وأثبته في اللغة، وأنكره آخرون مطلقاً سيما في القرآن. قال الزركشي:« وَأَمَّا الْمَجَازُ فَاخْتُلِفَ فِي وُقُوعِهِ فِي الْقُرْآنِ وَالْجُمْهُورُ عَلَى الْوُقُوعِ وَأَنْكَرَهُ جَمَاعَةٌ... وَشُبْهَتُهُمْ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَا يَعْدِلُ عَنِ الْحَقِيقَةِ إلَى الْمَجَازِ إلَّا إذَا ضَاقَتْ بِهِ الْحَقِيقَةُ فَيَسْتَعِيرُ وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَهَذَا بَاطِلٌ وَلَوْ وَجَبَ خُلُوُّ الْقُرْآنِ مِنَ الْمَجَازِ لَوَجَبَ خُلُوُّهُ مِنَ التَّوْكِيدِ وَالْحَذْفِ وَتَثْنِيَةِ الْقَصَصِ وَغَيْرِهِ وَلَوْ سَقَطَ الْمَجَازُ مِنَ الْقُرْآنِ سَقَطَ شَطْرُ الْحُسْنِ »[3]. وواضح أن الزركشي لم يفنّد هنا شبهة المانعين للمجاز، ولو فعل لقال إنّ العدول إلى المجاز عن الحقيقة، لا يحدث بسبب ضيق الحقيقة، لأن هذا محض افتراض، إنما يحدث المجاز موازياً للاستخدام الحقيقي لألفاظ اللغة.

قال ابن فارس:« كانت العرب في جاهليتهم على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم... فلما جاء الله بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونُقلت من اللغة أمور من مواضع إلى مواضع أخر... فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، وإنّ العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو

---

[1] - الشعراوي، تفسير القرآن، ص52.

[2] - المرجع نفسه، ص54.

[3] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مجلد2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية بيروت، ط1، 1957، ص225.

التصديق... وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر. فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه وكان الأصل من نافقاء اليربوع »[1]. والمنافق« اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفرَه »[2]. وهذا في الواقع نوع من الاصطلاح الذي أتى به القرآن بفعل التغيّر الذي أحدثه في الحياة العربية آنذاك.

وقد أورد المطعني أقوال بعض العلماء المؤيدين لهذه المسألة، ثم ختم ذلك بقوله:« إن إنكار المجاز في اللغة بوجه عام، وفي القرآن الحكيم بوجه خاص، إنما هو مجرد دعوى بُنيت على شبهات واهية، كُتب لها الذيوع والانتشار والشهرة ولكن لم يُكتب لها النجاح »[3].

وفي الواقع، فإنّ مسألة المجاز يجب أن تحسم في هذا المجال، كما حُسمت - من قبل - مسألة اللفظ والمعنى[4]. يقول المطعني عن أصحاب هذا الرأي« فالمعنى بدون اللفظ جنين في ضمير الغيب. واللفظ بدون معنى لا يعتبر. وهؤلاء على حق فيما ذهبوا إليه لأنهم يُحلّون تلك المشكلة التي رأيناها بين الفريقين السابقين. ولأنهم يمثلون الواقع. فهى نظرة معتدلة حَرِية بالاعتبار »[5]. ولسنا ندري لماذا يتفق الباحثون على وقوع المجاز في اللغة، ثم ينكر بعضهم وقوعه في القرآن الذي نزل بهذه اللغة التي فيها مجاز؟ وحتى لا ينقلب الأمر إلى مجرد جدال نظري، نقول: إنّ هناك آيات كثيرة يجب فهمها على أساس المجاز، وإلاّ صار أخذها بالظاهر فيه من التعسف والتأويل ما فيه. من ذلك قوله تعالى:﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا**﴾(الإسراء:72)؛ فهل أعمى البصر في الدنيا بالضرورة أعمى البصر أيضاً في الآخرة ؟ يقول القرطبي« وَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى عَنْ حُجَجِ اللَّهِ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى »[6]. ويقول عز وجل أيضاً:﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**﴾(الأحزاب:10). فهل وصلت قلوب الخائفين إلى حناجرهم فعلاً ؟ إنما ورد ذلك على وجه التمثيل « تمثيل لشدة اضطراب القلوب من الفزع والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارّها وترتفع طالبة الخروج من الصدور فإذا بلغت الحناجر لم تستطع تجاوزها من الضيق؛ فشبهت هيئة قلب الهلوع المرعُود بهيئة قلبٍ تجاوز موضعه وذهب متصاعداً طالباً الخروج ».[7]

---

[1] - السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، ص172. ونافقاء اليربوع: إحدى جِحَرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها. (المعجم الوسيط، مادة نفق، ص942) .

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج10، مادة نفق، ص359.

[3] - عبد العظيم المطعني، المجاز عند ابن تيمية وتلاميذه، ص84.

[4] - ينظر: أمين الخولي، فن القول، ص10.

[5] - عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ص87.

[6] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، تح، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964، ص298.

[7] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص281.

وهناك التفاتة أخرى في مسألة مجاز القرآن مفادها أن ترد لفظة ذات دلالة في فضاء معيّن، لتأخذ دلالة فضاء آخر تفهم من السياق؛ من ذلك فعل "بشّرهم" التي تدل على الخبر السار، والاسم منه البشارة والبشرى[1]، وهو الأمر المطّرد في الاستعمال القرآني، غير أنّ هناك ثلاثة مواضع ورد فيها هذا اللفظ بغير معناه الحقيقي؛ وهو قوله تعالى:﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾(الانشقاق:22 - 24)[2]. فمعنى "بشّرهم" هنا ليس إعلان الخبر السار من دون شك، بدليل قوله: بعذاب أليم، فهذا تهكّم على الكافرين. وهذه أول مرة يستخدم القرآن هذه المفردة في دلالة التهكم، بعد نزول اثنتين وثمانين 82 سورة، وسورة الانشقاق رتبتها 83 نزولاً؛ أي أنّ القرآن لم يبدأ بتهكّمه على الكفار إلا بعد أن تمادوا في طغيانهم وسخريتهم من النبي (ص) وتهكمهم عليه أولاً. بل كان يستخدم لفظ "ينذرهم" و"أنذرناهم"، و"أنذرناكم" في مقابل لفظ "بشّر"؛ حيث يبشّر بالجنة، وينذر من النار. وهذا أمر طبيعي عادي في تبليغ الرسالة، إذ ليس في مثل هذا الخطاب استهزاء ولا تهكم ولا انتقاص من قيمة الإنسان.

ومثل هذا نجده أيضاً في العدول الدلالي للفظتي "العزيز" و"الكريم" في قوله تعالى:﴿**خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾(الدخان:47- 49)[3]. إن مفردات السياق كلها تدل على خروج اللفظتيْن عن دلالتهما المتعارف عليها« وَقَوْلُهُ: إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّهَكُّمِ بِعَلَاقَةِ الضِّدِّيَّةِ. وَالْمَقْصُودُ عَكْسُ مَدْلُولِهِ، أَيْ أَنْتَ الذَّلِيلُ الْمُهَانُ، وَالتَّأْكِيدُ لِلْمَعْنَى التَّهَكُّمِيِّ »[4]. ولعل هذه المرة الوحيدة حيث ترد هاتان المفردتان بدلالة التقريع والتوبيخ والتهكم، مع كثرة ورودهما في آيات القرآن بغير هذا المدلول. وما قيل عن لفظ "بشرهم" يقال أيضاً عن هذين اللفظين.

غير أن العدول عن معنى مفردة إلى معنى آخر لا يحدث اعتباطاً، ولا طفرة، ولا عن هوى، إنما يكون عن تحرٍّ، وعن دراية بتمظهرات اللغة، وتطور دلالة مفرداتها، بحسب قانون التطور. ولعل ما ذهب إليه ابن حزم في مفهوم المفردة اللغوية، قريب من هذا المنحى حين قال:« إنه لا يحل لمسلم أن يقول في لفظة لم يأت نص ولا ضرورة حس بأنها منقولة عن موضوعها: إنها منقولة، ولا يتعدى بكل ذلك ما جاء في نص أو ضرورة حس، ولا يصرف لفظ عن موضوعه إلا بأحد هذين الوجهين. وإلا فهي باقية في مرتبتها في اللغة »[5]. وهذا تحفّظ مقبول من ابن حزم، حتى لا لا يقول كل قائل، وكل ناظر في كتاب الله، عن ألفاظ القرآن ما شاء وكيف شاء.

ويردف ابن حزم قائلاً:« وأعجب العجب أنّ هؤلاء القوم يأتون إلى الألفاظ اللغوية فينقلونها عن موضوعها بغير دليل، فيقولون معنى قوله تعالى:﴿**وثيابك فطهّر**﴾ ليس الثياب المعهودة، وإنما هو القلب؟ ثم يأتون إلى ألفاظ قام

---

[1] - يراجع: الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص91.

[2] - والموضعان الآخران هما: آل عمران:21، والتوبة:34.

[3] - تعدّ هذه السورة الثالثة والستين نزولاً.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص316.

[5] - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج4، تح: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د ط، د ت، ص36.

البرهان الضروري على أنها منقولة عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر... فيقولون: ليس هذا اللفظ ههنا منقولا عن موضوعه مكابرة للعيان، وسعياً في طمس نور الحق »[1].

وواضح من هذا القول أنّ ابن حزم ينعى على الذين يُخرِجون دلالة اللفظ إلى معنى آخر، بفعل سبب ضعيف من السياق، وفي الوقت نفسه، ينفون المجاز الواقع ضرورة في بعض ألفاظ القرآن الكريم بفعل السياق نفسه. إذ ما الذي يجعل كلمة "ثيابك" في الآية السابقة، تعني "القلب"؟ وهل كان العربي يستخدم لفظ "الثياب" بمعنى "القلب" ولو مجازاً ؟ ولماذا لا يقول الله تعالى مباشرة: وقلبك فطهّر؟ وقد ذكر القلب - وبأكثر من صيغة صرفية - في كثير من الآيات عندما استدعاه المعنى الذي يراد تبليغه للناس، واقتضت الحاجة إلى إيصال ذلك إلى المتلقي، فاستخدم لفظ "القلب" مقروناً بفعل "يطهّر" فقال عز من قائل:﴿**وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ**﴾(المائدة:41). والآيات التي ذكر فيها لفظ "ثياب" لا يخرج معناها عن معنى اللباس المتعارف عليه، فقوله تعالى:﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ**﴾(الحج:19)، وقوله سبحانه:﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ**﴾(الإنسان:20 - 21)، دليل واضح على ذلك. ومستحيل أن يكون معنى الثياب في هاتين الآيتين غير معنى اللباس. ومثل هذا الكلام يقال عن سائر الكلمات التي تقع في المجال نفسه، وفي الفضاء نفسه.

ويساند ابن تيمية هذا الرأي قائلاً:« وَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَحْمِلَ كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى وَفْقِ مَذْهَبِهِ إنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَإِلَّا فَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ تَابِعَةٌ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ قَوْلُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ تَابِعًا لِأَقْوَالِهِمْ. فَإِذَا كَانَ فِي وُجُوبِ شَيْءٍ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَفْظُ الشَّارِعِ قَدْ اطَّرَدَ فِي مَعْنًى؛ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُنْقَضَ الْأَصْلُ الْمَعْرُوفُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِقَوْلِ فِيهِ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ »[2]. ولكن، كيف يختلف العلماء في لفظ، وقد اطّرد معناه في القرآن؟ أو لماذا يختلفون إذا كانوا جميعاً يستقون المعاني من القرآن نفسه مباشرة؟

وهناك رأي طريف جدير أن نذكره، وإن كان الاقتباس طويلاً، لكنه لا يخلو من فوائد. يقول هذا صاحبه وهو باحث معاصر:« لا شك، إنّ للكلمة القرآنية وجهتين، وجهة إلهية وهي وجهة المنزِّل المبين، ووجهة بشرية هي وجهة المنزَل إليه أو المتبيّن. وبناء على ذلك فإنّ للكلمة القرآنية سِمَتيْن أو صفتيْن، صفة لا محدودة وصفة محدودة... وما نحن بقادرين على الإحاطة بالطرف الأول من الصفة (الإلهية اللامحدودة)، وإن قدرنا على الإحاطة بشيء من

---

[1] - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج4، ص37.

[2] - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، ج7، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية: 1416هـ/1995م، ص35.

تلك الجهة إذا شاء الله وبإذنه، فإنّ تلك الإحاطة لا تعني نفاد القدرة الكامنة في الكلمة، لأن توهّم نفادها يعني نفي الطرف الأول أو الوجهة الأولى لهويتها. وفي الوقت نفسه تطالبنا تلك الكلمة بعدم التوقف عندها أو عند ما تبيّنه، التوقف الذي يوهمنا بنفادها، لأن الوقف بعد التحقق الطور الأول من التبيّن، يعني الاعتقاد بيانية البيّن. أي الاعتقاد بتمام الإحاطة وبلوغ غاية البيان من قِبَل المتبيّن، ومن ثَمّ الاعتقاد بنفاد قدرة الكلمة وغناها... ولتلافي هذا الوهم الخطير لا بد من الاعتقاد بأن البيّن درجات ومنازل، وأن الفراغ من تبيّن ما، يعني بدء تبيّن جديد، خاضع لوجهية الكلمة القرآنية (إلهيتها وبشريتها)، وهكذا ما شاء الله وقدر المتبيّن... فإذا كانت الكلمة القرآنية مدعاة لعلوم بيانية... وأخرى برهانية وثالثة عرفانية، وهي الكلمة الواحدة... فصار على المتبيّن أن يحيط بهذه التشكلات أو التبيّنات مرة واحدة لا على مرات منفصلة... وهاهنا نتخلص من تلك التصنيفات التي تجعل من (س) بيانياً، ومن (ص) برهانياً، ومن (ع) عرفانياً. وكأن الذي تخاطب به الكلمة القرآنية (س) البياني غير الذي تخاطب به البرهاني أو العرفاني.. وما سبيلنا إلى تلافي ذلك كله إلا إعادة النظر في حكمة الإعجاز اللساني وبلاغته »[1].

ومثل هذا الكلام يقودنا إلى مسألة أخرى كان يشتغل عليها علماء المسلمين القدامى؛ وهي مسألة الظاهر والباطن، مثلما يقرر الشاطبي في الموافقات« أن القرآن له ظهر وبطن، فحيث ينعى القرآن على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا يحضهم على التدبر في آياته، لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام أو حضهم على فهم ظاهره، لأن القوم عرب والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك، وإنما أراد بذلك: أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم »[2]. غير أن أهل التصوف ذهبوا بالمسألة إلى جانب بعيد في تأويل الباطن، كما يرى ذلك كثير من المشتغلين بتفسير القرآن، الذين لا يُقرّونهم على تأويلاتهم تلك لآيات القرآن الكريم.

ويظهر عند بعض الباحثين أنّ فهم اللغة، وفهم مفرداتها وما يجب انتقاؤه من معجمها، يُفضل أن يمرّ عبر المتن القرآني، مثلما يرى باحث معاصر حين يقول:« ولا شك أن دراسة اللغة العربية على أي مستوى لا تثمر شيئاً ذا بال إذا لم تكن مرتبطة بالنص القرآني، وكما أننا لا نستطيع أن نستوعب قواعد اللغة العربية من دون اللجوء إلى آيات القرآن الكريم، فإنه لا يمكنا أن نظفر بشيء ذي بال في دراستنا لمتن اللغة العربية أو المعجم اللغوي من دون درس عميق لألفاظ القرآن الكريم »[3]. لأن القرآن يُعتبر المتن اللغوي الخالد، الذي لا يبلى، ألفاظاً وأساليب، ومصطلحات، مثلما يشهد على ذلك الأبحاث الكثيرة في مجال إعجاز القرآن، وفي مختلف ميادين المعرفة.

---

[1] - عباس أمير، الإعجاز القرآني، التبيان- التكوّن - القراءة. مدخل لنظرية معرفية في نشوء الكون ونظام الكائنات، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، د.ط، د.ت، ص44 - 45.

[2] - محمد حسين الذهبي، تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط2، ص14.

3 - محمد الجوادي، كلمات القرآن التي لا نستعملها، دار الشروق القاهرة، ط 2، 1997، ص7.

ويرى باحث آخر وجوب احترام مطلحات القرآن الكريم حتى يفهم الناس المراد من كلام الله تعالى، وحتى لا يحدث الانحراف في تفسير آيات القرآن. يقول الباحث:« ومما ينبغي أن يُعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرِف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي(ص) لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم. ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حدّه بالشرع كالصلاة والزكاة، ونوع يُعرف حدّه باللغة كالشمس والقمر، ونوع يُعرف بالعُرف كالقبض »[1]. أما المعنى الذي يُعرف باللغة، كالمثال السابق، فلأنّ اللفظين؛ الشمس والقمر، وما شابههما يستخدمان بنفس المدلول عند الجماعة اللغوية الواحدة، وهما الجِرمان المعروفان في السماء، ولا يخرجان إلى معانٍ أخرى إلا على سبيل التمثيل، والمجاز. ومع ذلك فمدلولهما الأصلي يبقى محالاً عليه في الكلام المجازي. والمقصود من النوع الثالث أنّ هناك مصطلحات تعارف عليها الناس، بفعل حرفة، أو ظيفة، أو مجال معرفي ما، فيكون لفظ "القبض" - على سبيل المثال - في ميدان التجارة بمعنى أخذ الأجر عيناً، أو حيازته فعلاً. وفي مصلحة الضرائب يكون معناه دفع مال لهذه المصلحة، حتى أنها تسمى "قباضة الضرائب ". وهكذا في كل مجال من مجالات الحياة.

أما عن معناه اللغوي فلا مفر من الرجوع إلى المعجم، ومنه نعرف المعاني المتعلقة بهذا اللفظ. قال ابن فارس: «(قَبَضَ) الْقَافُ وَالْبَاءُ وَالضَّادُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مَأْخُوذٍ، وَتَجَمُّعٍ فِي شَيْءٍ. تَقُولُ: قَبَضْتُ الشَّيْءَ مِنَ الْمَالِ وَغَيْرِهِ قَبْضًا. وَمَقْبِضُ السَّيْفِ وَمَقْبَضُهُ: حَيْثُ تَقْبِضُ عَلَيْهِ. وَالْقَبَضُ، بِفَتْحِ الْبَاءِ: مَا جُمِعَ مِنَ الْغَنَائِمِ وَحُصِّلَ.. وَأَمَّا الْقَبْضُ الَّذِي هُوَ الْإِسْرَاعُ، فَمِنْ هَذَا أَيْضًا، لِأَنَّهُ إِذَا أَسْرَعَ جَمَعَ نَفْسَهُ وَأَطْرَافَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ}[الملك:19]، قَالُوا: يُسْرِعْنَ فِي الطَّيَرَانِ »[2]. وذلك لأنّ مثل هذا اللفظ قد يحصل له توسّع في الدلالة، في أصل الوضع، أو توسع في الاستخدام أيضاً، على عكس غيره من الألفاظ التي تثبت دلالتها أكثر من غيرها.

- الاشتراك اللفظي أو تعدد المعاني:

هو ظاهرة لغوية نوقشت قديماً وحديثاً، وتعتبر - في الواقع - جزءاً من الحقيقة أكثر مما تعتبر من المجاز[3]. وهذه« الكلمات المتعددة المعاني تكون أكثر الكلمات رواجاً، وأسهلها للإنتاج والفهم. واختيار مفهوم ملائم من بين لائحة المفاهيم التي يعبّر عنها اللفظ المشترك يتطلب مجهوداً معرفياً خاصاً، ويتسبب أحياناً في أخطاء. ويقع الالتباس عن طريق السياق اللغوي المباشر، أو السياق الخطابي، أو الوضع الذي يحدث فيه التواصل، أي كل مصادر المعلومات

---

[1] - فهد بن عبد الرحمان بن سليمان الرومي، تحريف المصطلح القرآني وأثره في انحراف التفسير في القرن الرابع عشر، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2003، ص9.

[2] - أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص50.

3 - غير أنّ الناظر في استعمالات القرآن الكريم لبعض الألفاظ، يجد أن المعاني المستفادة منها، تكون أقرب إلى المجاز، لأن المفردة الواحدة في أصل الوضع لا يمكنها أن تحمل كل هذا الكم من المعاني المختلفة.

المتوفرة لرفع اللبس »[1]. وذلك لأن لمثل هذه الكلمات القدرة على التستر على المعاني المقصودة، تاركة المجال مفتوحاً لاستنباط الدلالة الدقيقة المقصودة من بين لائحة من احتمالات المعنى التي تؤديها تلك الكلمات.

ولكن، يجب معرفة الألفاظ التي من شأنها أن تكون مشتركة الدلالة، حتى لا تخرج عن معناها المعروف إلى معنى متعسف، كما فعل ذلك بعض المتصوفة القدامى، وبعض الباحثين المعاصرين، في قراءاتهم الخاصة لمدلول بعض ألفاظ آيات القرآن، حين أخرجوا بعض مفرداته من مدلولاتها المتفق عليها، إلى مدلولات جديدة، قد ترفضها قواعد اللغة نفسها، وقوانين النص القرآني ذاتها، من حيث الموضوع والسياق وغيرهما.

وقد عرض أحد الباحثين لهذه المسألة، وبحث في المصنفات التي تناولت هذه الظاهرة اللغوية، من ذلك ما فعله الحكيم الترمذي، الذي يرفض الاشتراك في الكلمة القرآنية. يقول الباحث:« فالكلمة القرآنية لها معنى واحد في الوضع اللغوي فمهما ابتعدت عنه واتجهت إلى معاني أخرى متنوعة، ولها دلالات متباينة، فإنها مشدودة دائماً إلى الوضع اللغوي الذي وُضع لها، لأنها لا تستطيع الفكاك عنه... فهي منبثقة منه، منجذبة إليه، يطل بوجهه في كل معنى يبدو من أول وهلة أن الصلة بينه وبين المعنى اللغوي الوضعي مفقودة، ولكنه عند التحليل والتعمق، نجد أن هذا المعنى مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بوضعه اللغوي الثابت الذي تمثله الكلمة القرآنية »[2]. ويضرب أمثلة على ذلك بلفظ "الهدى" الذي يرد بثمانية عشر وجهاً، منها البيان، والإسلام، والتوحيد. والحاصل من هذا اللفظ أنه يعود إلى معنى واحد هو: الميل إلى جهة ما، أو إلى أمر معيّن؛ محبوب ومرغوب فيه، في كل الأحوال. وكذلك فعل المؤلّف مع ألفاظ قرآنية أخرى[3].

وفي هذا المجال يعرض الشعراوي كلاماً ذا أهمية حين يقول:« وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أولى من الآخر، إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية »[4]. وهذا الكلام ينطبق على المشترك اللفظي، كما ينطبق على المفردات التي تم استبدال معانيها الأصلية، وصارت المعاني الجديدة هي المقصودة في الكلام العادي بين جمهور الناس. فالعبرة - إذن - في معاني المفردات هي الاستخدام والشيوع بين طبقات الناس في المجتمع.

إنّ القرآن الكريم قد يستخدم لفظاً واحداً في موضعين مختلفين، فينتج عن ذلك اختلاف في مضمون ذلك اللفظ؛ لا من حيث معناه المعجمي، بل من حيث دلالته الثانية المتوخاة من الاستخدام المطرّد لذلك اللفظ باختلاف

---

1 - عبد القادر الفاسي الفهري، تعريب اللغة وتعريب الثقافة، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، ص265.

2 - عبد العال سالم مكرم، المشترك اللفظي في الحقل القرآني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1997، ص139.

3 - ينظر، المرجع نفسه، ص141 وما بعدها.

4 - الشعراوي، تفسير القرآن، ج16، ص9873.

المقامات. وقد عبّر أحدهم عن هذا بقوله:« لعل أهم ما ينبغي لنا أن نمحصه حركة الكلمات. هذه الحركة كانت تظهر بوضوح أكثر في حديث المفسرين.. في جو التفسير القرآني خاصة لا يحول التأصيل دون الإصغاء إلى حيوية الكلمة.. الكلمة ترن رنيناً كثيراً، وقد تذكر بنقيضها »[1]. وضرب لذلك مثالين عن تغير معنى الكلمة الواحدة إلى نقيضها وهما: "حصيداً" في قوله تعالى:﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ**﴾(ق:9) - وإن لم يذكر الكاتب هذه الآية - وقوله:﴿**فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ**﴾(الأنبياء:14)، وكلمة "لباساً" في قوله أيضاً:﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا**﴾(النبأ:10)، وقوله كذلك:﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**﴾(النحل:112). وواضح الفرق هنا، بين دلالة الحصيد في الآية الأولى ودلالتها في الثانية، وكذلك الأمر في لفظة "اللباس"[2].

غير أنّ الخروج باللفظ من المعنى المعجمي المتعارف عليه، إلى معنى آخر بعيد لا رابط يربطه بما سبقه وما يليه، يجعل دلالته بعيدة التأويل، قريبة من الرفض. فمن ذلك، ما فسّر به ابن عربي قوله تعالى﴿مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾(الرحمان:19 - 20)، حين قال:«﴿مَرَجَ البحرين﴾ بحر الهيولى الجسمانية الذي هو الملح الأُجاج، وبحر الروح المجرد الذي هو العذب الفُرات، ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ في الوجود الإنساني، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجرَّدة ولطافتها، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها، ﴿لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوز أحدهما حدّه فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مادياً »[3]. ولسنا ندري ما المسوّغ اللغوي، أو السياقي لكي يُخرِج هذا المؤلف معنى لفظ "البحرين" المعروف جغرافياً عند كافة الناس، إلى مفهوم النفس أو الروح أو ما شابههما؟ فهذا المعنى الجديد لا يقرّه عليه سياق الآية، ولا المعنى المعجمي للفظ "بحر". ولذلك كثيراً ما نسمع عن مثل هذه التفسيرات والآراء، بأنها من شطحات الصوفية وتأويلاتهم الخاصة التي لا يعرف معناها سواهم.

إنّ القرآن ليس شعراً، ولا يشبه الشعر في شيء؛ فلا خيال، ولا مجاز، ولا توظيف لموروث معين بالشكل الذي يرد في الشعر، حتى يجوز لنا أن نقول: إن هذه اللفظة أو تلك قد وردت مجازاً، أو عدلت عن الأصل، على اعتبار أن الشعر يقول: رميتهم ببحر من حديد له في البر خلفهم عباب[4].
ويقول كذلك:

---

[1] - مصطفى ناصف، النقد العربي، نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة، المجلس الوطني الثقافة والفنون والآداب، الكويت 2000، ص59.

[2] - المرجع نفسه، ص60.

[3] - محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، مكتبة وهبة، القاهرة، ص253.

[4] - أبو الطيب المتنبي، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، د. ط، 1983، ص384.

لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء[1]

ويقول أيضاً:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي[2]

ومن التفسير الإشاري، لقوله تعالى:﴿**وَتَفَقَّدَ الطير فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾(النمل:20)، ينقل أحدهم تفسير الشيرازي الذي يقول:« إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقده ساعة، وكان قلبه غائباً فى غيب الحق، مشغولاً بالمذكور عن الذكر، فتفقده وما وجده. فتعجب من شأنه.. أين قلبه إن لم يكن معه؟.. فظن أنه غائب عن الحق وكان فى الحق غائباً، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم فى الله »[3]. ويعلّق على مثل هذه التخريجات قائلاً:« وهذا هو ما لا نقره عليه، ولا نُسلِّمه له، لأن هذه المعانى الغريبة التى يأتى بها فى تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللَّفظ القرآنى، ولا يعقل أن تكون مُرادَةً لله تعالى من خطابه لأفراد الأُمة »[4]. بل لا يفهمها العربي القديم صاحب الفصاحة والبيان، بهذا المعنى الذي لا تقرّه عليه قواعد لغته. لأنه يفرّق جيداً بين لغة الشعر وأساليبه وتلويناته، وبين أسلوب القرآن ومعانيه ودلالاته، وتعبيراته الخاصة. وقد فهم ذلك الوليد بن المغيرة وغيره.

ومن هذا الخروج بمدلول اللفظة إلى مدلول آخر بعيد، ما ذهب إليه باحث معاصر في كتابه "الكتاب والقرآن قراءة معاصرة" حين زعم أن لفظ "شهر" الذي ورد في سورة القدر يعني الإشهار وليس الثلاثين يوماً المعروفة في حساب التقويم، كما هو معلوم في اللغة، وأنّ معنى لفظ "البنون" في قوله تعالى:﴿**المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (الكهف:46) إنما هو البنيان. وكذلك فعل بمفردات أخرى، حيث أخرجها من معناها المتداول عند جل الدارسين باختلاف مشاربهم، إلى معانٍ جديدة، قد لا يقرّه عليها معظم المشتغلين في حقل اللغة والتفسير[5]. إذ ليس هناك داعٍ لكي يستخدم القرآن لفظ "البنون" في معنى "البنيان"، والسياق لا يقر هذا الباحث على ذاك التخريج. ولأنّ القرآن نفسه عندما أراد التعبير عن "البيوت" و"البنيان" والبنايات، استخدم الألفاظ الدالة معجمياً على كل مفهوم

---

[1] - حسان بن ثابت، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص21.

[2] - حافظ إبراهيم، الديوان، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1987، ص254.

[3] - محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص290.

[4] - المرجع نفسه، ص289.

[5] - يراجع محمد شحرور: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت . لبنان. ط2، 1992، ص206 - 207.

من تلك المفاهيم؛ تلك الألفاظ التي يعرفها العربي، ويفهم دلالتها. فقد استخدم القرآن ألفاظ "الديار"، و"البيوت"، و"البنيان"، و"المساكن"، بل ولفظ "السقف" أيضاً، عندما كان ذلك ضرورياً ومناسباً للتعبير عن المعنى المقصود.

إن الحقيقة والمجاز ثنائية معروفة في الدرس اللغوي، مثل ثنائية اللفظ والمعنى؛ وحين« تتقابل الحقيقة اللغوية مع تلك العرفية، تكون الغلبة للثانية... وكذلك حين تتقابل الحقيقتان اللغوية والشرعية، فالغلبة للثانية »[1]. ولا يُحمَل اللفظ عند أغلبية الباحثين على المجاز، إلا إذا ضاق به مجال الحقيقة؛ أي أنواع الحقيقة الثلاثة المذكورة آنفاً. ولا يعني ضيق مجال الحقيقة - بالضرورة - عند المؤلف، إنما عند المتلقي. فإذا جاز ذلك على الإنسان، فإنه لا يجوز على الله تعالى بحال. ومن ثمّ رأى بعضهم أن المجاز في القرآن تعبير فني على طريقة العرب في كلامها، لا عن عجز أو غيره. إلاّ أنّ العلاقة بين الحقيقة والمجاز ليست علاقة صراع، وتنافر، إنما هي علاقة دعم وبيان، و« التحوّل من الحقيقة إلى المجاز لا يعني أن تطل الحقيقة نفسها من خلال برقع جديد. فالمجاز تعبير منهجي لا يموّه الحقيقة بل يبحث عنها من خلال قراءة مختلفة »[2]. ولعل ذلك هو مسار المجاز وفضاؤه في كل الكتابات المختلفة قديماً وحديثاً.

وبناء على هذا، يمكن القول إنه« لا يجوز لأحد أن يفسّر القرآن الكريم وهو غير عالم بمصطلحاته ومعانيها ومدلولاتها. وقد ينطوي تحت هذا قاعدة مهمة من قواعد التفسير وهي قاعدة: حمل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن ومعهود استعماله أولى من الخروج به عن ذلك »[3]. لأنّ القرآن الكريم أوامر ونواهٍ في كثير من آياته، ولا يمكن أن يحدث تناقض، أو اختلاف كبير في فهم تلك الآيات التي تدعو إلى شيء واحد مضبوط، هو الدين القيّم، بكل معطياته العقائدية والتشريعية.

والخلاصة التي نستلهمها مما سبق عرضه، أنّ لألفاظ القرآن الكريم دلالتها الأولى الظاهرة، قبل كل شيء، وقبل أي تأويل آخر، هذه الدلالة استقرت من خلال الاستعمال المطّرد لمعاني الألفاظ. وحتى تلك التي غيّر القرآن من مدلولاتها، وألبسها معاني أخرى جديدة، لكنها اطّردت بذاك المفهوم في كل السياقات القرآنية، فأخذت دلالة قارة يعوّل عليها في تفسير آيات القرآن. فإذا ضاقت دائرة الظاهر ودائرة الحقيقة للفظ، يُلجأ عندئذ إلى غيرهما بالشروط التي تقبلها اللغة، وتقبلها قوانين التغيّر الدلالي أيضاً.

---

[1] - علي مهدي زيتون، الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011، ص 246- 247.

[2] - المرجع نفسه، ص 248.

[3] - فهد بن عبد الرحمان بن سليمان الرومي، تحريف المصطلح القرآني وأثره في انحراف التفسير في القرن الرابع عشر، ص9 - 10

كان ولا يزال البحث في إعجاز القرآن، هو الشغل الشاغل للباحثين والمفسرين وغيرهم ممن جعلوا القرآن الكريم محلّ بحوثهم. لأنّ إظهار بعض ملامح إعجاز القرآن - في كل ميدان فكري وعلمي- كفيل بإظهار واقع هذا الكتاب الفريد، ودليل بيان على صدق نبوة الرسول الكريم (ص)، وعلامة على أنّ عجائب القرآن وأسراره لا تنتهي كما أخبر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام.

غير أنّ ما تجدر الإشارة إليه هو« أنّ الذين كتبوا في الإعجاز وفي المتشابه اللفظي كان معظمهم من القضاة والفقهاء، الذين لم يكن لهم اهتمام خاص بالأدب، لينقلوا ما وعوه من اتجاهات التعبير الجمالي في القرآن إلى ميدان الأدب، وإنّ نقاد الأدب لم يكن لهم اهتمام ملحوظ بدراسات الإعجاز. وبذك ظلت القنوات غير مفتوحة بين هؤلاء وهؤلاء »[1]. لذلك بقي هذا المبحث يتأرجح بين التفكير الفقهي، والجمال الأدبي، ولم يخطّ لنفسه منهجاً دقيقاً يسير عليه في تفسير قضية الإعجاز القرآني. ولعل الأمر ليس بهذه السهولة من الناحية الإجرائية، لأن القرآن الكريم لا تحيط بمعانيه قراءة، ولا تستوعبه مناهج بشرية، بل يتمرد عليها جميعاً، ومن ثَمّ صعُب على الدارسين تحديد موضع الإعجاز، وتحديد آلياته على وجه الخصوص.

وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا المقام، إسهامات عبد القاهر الجرجاني في مفهوم الإعجاز، الذي يراه في تركيب المفردات ونظمها، لا في المفردات المنفصلة عن سياقاتها. وله في هذا المجال كلام يجدر نقله والتنبيه عليه لما فيه من دقة ملاحظة، وبُعد نظر، يقول إن الإعجاز:« لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدث في حذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوّة في القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن، ولا يجوز أن تكون في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد والرب ومعنى العالمين والملك واليوم والدين وهكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن. وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعد من المحال وأشنع لكان إياه»[2].

ومثل هذا الكلام يحتاج إلى بعض الشرح، لأن عدم وجود مزية في اللفظ المفرد وهو خارج عن السياق، لا يختص بالقرآن وحده، بل يشاركه في ذلك كل صاحب كلام؛ من أقوال النبي (ص) إلى الشاعر، والكاتب،

[1] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص325.

[2] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص295 - 296.

UNIVERSITE SETIF2

والفيلسوف وغيرهم، فكلهم يستعملون مفردات اللغة نفسها المعروفة في لسان العرب. ولكن كل واحد منهم يستخدمها بطريقة خاصة يُعرف من خلالها ميدان اشتغال هؤلاء وأولئك؛ حيث تصبح هذه المفردة أو تلك، شعرية، أو فلسفية، أو فقهية، وهكذا.

ولكن القرآن الكريم نحا بالمفردات نحواً فيه بعض الخروج عن سنن العرب في كلامها، ولذلك أدهشهم، وقالوا إنه ليس بكلام بشر. فكيف عرفوا أن القرآن ليس كلام بشر إذا كان استخدامه الألفاظ بالطريقة التي يستخدمها شعراؤهم وخطباؤهم وحكماؤهم؟ ثم إن من الألفاظ ما يكون حيادياً، يستخدمه كل الناس بمعنى موحد، ولا تكون مزية لأحد في استعمال ذلك اللفظ، لاسيما إن لم يكن له بديل في الاستعمال، أو يكون اللفظ قد بلغ مبلغ الشيوع والانتشار والذيوع في كل مجالات الكلام وميادين التعبير، ولم يعد للناس بُدّ من استعماله في شتى محادثاتهم. مثل ألفاظ: الأرض، السماء، الماء، النهار، اليوم، الساعة، الأكل، الشراب، النوم، دخل، خرج، جاء، ذهب، وقف، أعطى، منح، أهدى، الشجاعة، العلم، الفن... إلخ.

ويقول باحث آخر:« القرآن الكريم ينتقي ألفاظه، ويختار كلماته، لِما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، فيستخدم كل كلمة بدقة بحيث تؤدي معناها المراد في إحكام شديد، يكاد السامع يؤمن بأن هذا المكان خُلقت له هذه الكلمة بعينها، وأنّ كلمة أخرى لا تؤدي المعنى الذي أفادته أختها »[1]. فكأنّ القرآن الكريم يصطفي كلماته وينتقيها بعناية فائقة« للتعبير عن المقاصد، يستوي في ذلك أن يكون هذا اللفظ اسماً أو فعلاً أو حرفاً. ولا تحسبنّ اختيار الكلم أمراً يسيراً، فإنّ كل من مارس فن القول... يدرك صعوبة الاختيار لواحدة فقط بين المفردات المتعددة التي تتقارب معانيها على ما بينها من فروق دقيقة تراعى عند الاختيار، وهذا التوفيق في الاختيار أو الإخفاق فيه يُعدّ أحد الأساليب المهمة التي بها تتفاوت مراتب الكلام »[2]. وهذا الكلام لا يماري فيه أحد، ولا يدعي عكسه أبداً، لأنّ الواقع يثبته، إذ كثيراً ما نعجز عن التعبير عن الفكرة التي نريد إيصالها إلى المستمع، بشكل دقيق، فترانا نعيد الشرح، ونغيّر الصياغة للاقتراب أكثر مما نقصد تبليغه المتلقي.

ويقول غيره إنّ القرآن قد:« انفرد بذروة في البلاغة، وقمة في البيان، وجمال في الأسلوب، لم يطاوله فيه كتاب.. لكن يظل هناك وجه معجز من وجوه القرآن ربما كان أهم من كل هذه الوجوه.. يحتاج إلى وقفة طويلة.. وهو ما أسميته بالمعمار أو البنية الهندسية، أو التركيب العضوي أو الترابط الحي بين الكلمة والكلمة »[3].

---

[1] - عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة القرآنية، ص62.

[2] - ناصر بن عبد الرحمان بن ناصر الخنين، النظم القرآني في آيات الجهاد، مكتبة التوبة، ط1، 1996، الرياض، السعودية، ص30.

[3] - مصطفى محمود، القرآن كائن حي، دار المعارف، د. ط، 1993، ص4.

يمكن أن نفهم إعجاز القرآن على أن البشر قد عجزوا، ولا يزالون عاجزين أيضاً، عن أن يزيدوا في القرآن، أو ينقصوا منه شيئاً، من دون أن يتأثر المعنى، ويختل المبنى، ومن ثَمّ يضيع القرآن بذلك، ويصبح كلاماً غير كلام الله تعالى. ومثل هذا الأمر كمثل سائر الخلائق، لا يمكن للإنسان أن يزيد فيها أو ينقص منها، لتصبح بعد ذلك أحسن مما كانت عليه، إلا أن يصيبها قبح أو تشويه. فلا يمكن أن نحسّن خلق الله أحسن من صنع الله تعالى، ولا يمكن أن نحسّن كلام الله أحسن من قوله تعالى ذاته. ولكن الخالق العظيم يَقْدِر على ذلك إذا شاء، وبالكيفية التي يشاء، ويأتي بأحسن من ذلك، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. والدليل على ذلك من القرآن نفسه، إذ تحدى العرب بأن يأتوا بمثل القرآن، فلم يفلحوا، أو لم يجرؤوا على ذلك. ثم أمهلهم بضع سنين حتى العهد المدني، ليأتي بقرآن مخالف في بعض الوجوه لما كان ينزل في العهد المكي، ولم يستطيعوا فعل شيء أيضاً. وكانت القراءات القرآنية خير دليل على ذلك، فقد تنزل الآية بحرف، ثم تنزل مرة أخرى بحرف آخر، أو أنّ جبريل عليه السلام يُقرئ النبي (ص) الآية الواحدة بقراءتين أو أكثر؛ مختلفة إحداهما عن الأخرى، كما هو معروف في علم القراءات. فالذي يقرأ الآية يقول: لا يمكن أن يقال أحسن من هذا، إنه قمة القول، فينزل القرآن بأسلوب مخالف عن الأسلوب الأول فيعجز الناس مرة أخرى، وهكذا.

وليس البحث عن كنه الإعجاز على وجه الدقة بالأمر الهيّن، فقد أورد السيوطي في معترك الأقران أنّ أبا حيان التوحيدي قال:« سُئل بُندار الفارسي عن موضع الإعجاز في القرآن فقال: هذه المسألة فيها حَيْف على المفتي؛ وذلك أنه شبيه بقولكم موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرتَ إلى جملته فقدت حقيقته ودللت على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه، ومعجزة لِمُحاوِله، وأهدى لقائله؛ وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كتابه؛ فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده »[1]. والواقع أنّ مثل هذا الكلام قريب من الصواب، ومن حقيقة الإعجاز، لكنه من الناحية الإجرائية ليس كذلك، فحتى إن لم يكن بوسع المرء أن يحيط بكُنه الإعجاز، فبوسعه أن يشير إلى مواطنه، وإلى بعض علاماته التي تدل بلا شك على أنه من عند الله، ولا يمكن أن يكون من عند بشر بحال، مهما أوتي من قدرة التصرف في الكلام، ومن بلاغة القول وبراعته.

وقد جاء في كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز ما يلي:« وزعم آخرون أَن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماءِ أَهل النظر، وفي كيفيتها يعرض لهم الإِشكالُ، ويصعب عليهم منه الانفصال، ووجدت عامة أَهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له

[1] - السيوطي، معترك الأقران، مجلد1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص10 - 11.

وإحاطة العلم به، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام »[1]. إذ في الإنسان« قوة كامنة تميّز بين الكلام: بين الشعر والشعر، وبين القرآن وغيره، وهي... لا تنهض وحدها في هذا العلم، إنما هي معرفة مبهمة تقوم في النفس قياماً واضحاً ولكن لا توصف بوصف يحللها ويعللها »[2]. وهو السبب الذي جعل كثيراً من الباحثين يطلقون أحكاماً عامة، وآراء متشابهة في تحديد مفهوم الإعجاز القرآني، وهو أمر لا يمس الجانب التطبيقي الإجرائي مباشرة، ولا يضع يده على موطن الإعجاز الفعلي بدقة.

ويؤكد هذا المعنى باحث معاصر فيقول:« فالبحث في الإعجاز لا بد أن يكون عن شيء موجود في كل سورة، ونجد الظاهرة العامة هي "البيان"؛ لأنه ينتظم القرآن كله، والإعجاز البياني يرجع في لبه وجوهره إلى النظم، والنظم هو ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن، جملها من جهة، واختيارهذه الكلمات من جهة أخرى »[3]. وهذا يعني أن آيات الإعجاز العلمي والتشريعي والتاريخي، ليست موجودة في كل آيات القرآن، إنما في بعضها فقط، ولذلك فالذين يقولون بهذا النوع من الإعجاز ما عساهم يقولون في الآيات التي ليس فيها ذلك النوع ؟

وهناك ملاحظة أخرى عن إعجاز المفردة القرآنية، وهي ملاحظة أشار إليها فاضل السامرائي، ونبّه عليها بوضوح في كتابه "لمسات بيانية"، مفادها أنّ ما يقال عن المفردة القرآنية يجب أن يكون بتحفظ، إذ قد نقول، مثلاً، إنّ هذه اللفظة جاءت في مكانها المناسب، للدلالة على المعنى الدقيق المناسب، ولا يصلح مكانها لفظ آخر مطلقاً، ثم نتفاجأ بورود لفظة مختلفة في قراءة قرآنية صحيحة، وما أكثر القراءات الصحيحة. فماذا نقول في هذه الحالة ؟ وبمعنى آخر، يجب الاحتراز من الأحكام المطلقة، قبل معرفة كل السياقات التي وردت فيها اللفظة، أي ضرورة معرفة وجود قراءة أخرى غير تلك التي نعرفها، حتى يكون الحكم علمياً مقبولاً ومقنعاً.

ولذلك قال في موضع آخر:« إنّ إعجاز القرآن أمر متعدد النواحي متشعب الاتجاهات، ومن المتعذر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآني شخص واحد ولا حتى جماعة في زمان ما مهما كانت سعة علمهم واطلاعهم وتعدد اختصاصهم، إنما هم يستطيعون بيان شيء من أسرار القرآن في نواحٍ متعددة في زمانهم هم، ويبقى القرآن مفتوحاً

---

[1] - ثلاث رسائل في الإعجاز، ص24.

[2] - محمد كريم الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1، 1426 هـ، ص23 - 24.

[3] - سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم - نظرياً وتطبيقاً، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص28.

للنظر، لمن يأتي بعدنا في المستقبل ولما يجدّ من جديد. وسيجد فيه أجيال المستقبل من ملامح الإعجاز وإشاراته ما لم يخطر لنا على بال »[1].

وأورد عبارة تدل على أنّ البحث في الإعجاز ضرب بعيد المنال، وصعب الإحاطة به، جاء فيها:« أما شأن الإعجاز، فهيهات، إنه أعظم من كل ما نقول، وأبلغ من كل ما نصف، وأعجب من كل ما نقف عليه من دواعي العجب »[2]. وإلى مثل هذا ذهب أحمد مختار عمر حين قال:« ومع إيماننا بأن أسرار التعبير القرآني تفوت كل محاولة لتحديدها، وتجاوز كل طاقات النفس البشرية على مشارفة آفاقه الرحبة، وتسم بالعجز كل اجتهاد لاجتلائها »[3]. وفي هذا الكلام صواب وصحة، إذ الإحاطة التامة بمفهوم الإعجاز ومظاهره الكلّية، أمر ليس في مقدور البشر، ولو اجتمعوا له، لأنّ القرآن الكريم يُظهِر في كل وقت وعصر عجائبه التي لا تنقضي، والتي تدل على أنه كتاب مفتوح على الدوام إلى يوم القيامة.

أما مالك بن نبي فيقول في إعجاز القرآن ما يلي:« إن الجانب الأدبي للرسالة، ذلك الذي كان في نظر المفسرين التقليديين موضوع الدراسة الأول، يفقد بعض أهميته شيئا فشيئا، في عصرنا هذا الذي يهتم بالعلم أكثر من اهتمامه بالأدب وإن مسألة إعجاز القرآن هي أعقد مشكلة يمكن أن يعانيها العقل الحديث »[4]. وذلك - فيما نظن - أنّ مسألة الإعجاز يصعب البرهنة عليها بطريقة إجرائية دقيقة، إنما يمكن أن يقال: إنّ أسلوب القرآن غاية في الفصاحة والبلاغة والبيان، وأنّ الألفاظ مختارة بدقة متناهية، وفيها من الجزالة والفخامة، والعذوبة والمتانة، والمعاني شريفة وصحيحة، ترقى إلى أعلى درجات الفضل[5]، إلى غير ذلك من مثل هذه العبارات والأحكام والأوصاف التي تتكرر عند القدامى والمحدثين على السواء.

1 - القرآن والمعجم اللغوي:

من الواضح الجليّ أن القرآن الكريم قد استخدم ألفاظ اللغة العربية استخداماً خاصاً، ذلك أنه اختار منها الأفصح والأبلغ والأبين، لقوله تعالى:﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾(الشعراء:192 - 195). ويتفق الدارسون على أن أسلوب القرآن غاية في البلاغة والبيان، ولكنهم يختلفون في وجوه هذه البلاغة، وهذا البيان. ومعلوم أن بعضهم ينطلق من الكلمة المفردة، ويرى أنه يؤتى بها في

---

[1] - فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط3، 2003، ص5.

[2] - المرجع نفسه، ص9.

[3] - أحمد مختار عمر، لغة القرآن - دراسة توثيقية فنية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط2، 1997، ص127.

[4] - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص229.

[5] - يراجع، ثلاث رسائل في الإعجاز، ص27.

الموضع المناسب وبالقدر المناسب، حيث لا يصلح غيرها في ذلك الموضع، حتى إنّ بعضهم سمّاها "صفاء الكلمة القرآنية"[1]. و يتكرر مثل هذا الكلام، وهذا التحليل عند كثير من الباحثين القدامى والمحدثين على السواء، من غير تحديد موضع ذلك الإعجاز إلا قليلاً. ولعل ذلك لكون أمر الإعجاز عسيراً وغير هيّن، فقد نعجز في كثير من الأحيان عن الإتيان بالآليات الواضحة المحددة لموطن الإعجاز، وإن كنّا ندرك ذلك بالذوق والانطباع والشعور.

وقد وصف الباحثون المفردة بأوصاف عديدة، منها أنها كلمة جامعة؛ وهذا وصف لا يوصف به إلا كلمات القرآن، أو كلمات الحديث النبوي. ومعنى "الكلمة الجامعة"؛ أي التي تجمع المعنى المحدد الذي لا مزيد عليه، أو تجمع عدة معانٍ، على أساس أن الكلمة في السياق قد تأخذ أكثر من دلالة، لأن القرآن حمّال أوجه، أو منفتح على تعدد القراءات. وقد أُخِذ معنى "جامعة" من قول النبي (ص):« **بُعِثتُ بجوامع الكلم** »[2]. وقد فسر بعضهم ذلك بأن جوامع الكلم هي القرآن نفسه. يقول أحدهم في تعريف ذلك:« يمكن تعريف الكلمة الجامعة: بأنها كل لفظ، أو جملة، أو جمل وجيزة، دل، أو دلت على معان كثيرة »[3]. ويقول عن الكلمة الواحدة:« وأما الكلمة الجامعة التي تقع تقع على اللفظ المفرد؛ فالحديث عنها يقتضي أن أتناول قبل، باختصار تقسيمات الألفاظ في اللغة، من حيث الاتفاق والاختلاف، ومن حيث الحقيقة والمجاز »[4].

إن مفهوم الكلمة الجامعة، إذاً، يعني أنها تجمع المعنى، وتضبطه، وتحيط به، لتدل على الواقع، أو التاريخ، أو الحق، أو الحقيقة العلمية والنفسية. وما من أحد يستطيع أن يفعل ذلك، إلا أن يوحى إليه. لأننا نعلم ظاهراً فقط، من الحياة الدنيا، والله وحده هو الذي يحيط بالأشياء، والحياة وما وراء الحياة« فكان حسناً من القرآن - وهو يُعبِّر عن تلك الحالات النفسية الدقيقة - أن يكون في التعبير نفسه ما يشير إلى تلك الحالات أبلغ وأوجز إشارة... وكان التعبير كذلك »[5]. لأنّ التعبير القرآني حين يوظّف مفردة ما، أو صيغة معيّنة، إنما يفعل ذلك بنوع من الإحاطة التامة بالمعنى، فهو الأمر الذي لايستطيعه أحد من الناس. وكل ما في مقدور البشر فعله، هو الاقتراب النسبي من المعنى.

وما نلحظه في الخطاب القرآني، هو تضمنه ألفاظاً لم يجد لها الشعراء ولا الكُتاب مجالاً ولا سياقاً لكي يستخدموها فيهما. ومن ذلك ألفاظ "دسر"، و"حرد"، و"باخع"، و"ضيزى" و"قمطريرا"، و"قطمير"، و"عزين"،

---

[1] - يراجع، عبد الفتاح لاشين، صفاء المفردة القرآنية، ص17.

[2] - صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ص1797.

[3] - عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السيحاني، جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 2008، ص29.

[4] - عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السيحاني، ص33.

[5] - عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ص7.

و"عضين"، و"عمون"، و"قِطّ"،[1] الوارد في قوله تعالى:﴿**وقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**﴾(ص:16)، أو ما يماثلها، إذ قلّما يستعملها هؤلاء في كتاباتهم، إذا كانت للشاعر مقدرة ومهارة في ذلك، مثلما فعل المعتمد بن عبّاد بلفظة "قطمير" قائلاً:

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتكَ في الأطمار جائعة يغزلن للناس لا يملكن قطميرا[2]

كما أضرب الخطاب القرآني - في المقابل - عن إيراد ألفاظ لم يستخدمها الناس في شتى كلامهم، وعزفوا عنها هم أيضاً إلاّ قليلاً؛ مثل هذه الألفاظ: جيّد، سيّان، جدّا، أيضاً، حبّذا، لاسيّما، ما عدا، سِوى (أداة استثناء)، شخص، جماعة، وما يشبهها. وكثير من هذه الألفاظ نادر الاستعمال في الأدب والشعر، قديماً وحديثاً، إلاّ في النزر القليل من الأشعار؛ إذ نجد لفظة "جدا" في شعر المقنع الكندي حين يقول:

وإنّ الذي بيني وبين بني أبي وبين بني قومي لمختلف جدّا[3]

ويقول شاعر معاصر:

أنا جيّد جدّا... إذا أحببتني فتعلّمي أن تفهمي أطواري[4]

ويقول أيضاً:

كل اللغات قديمة جدّا وأضيق من رؤياي ورؤياك[5]

أما غير ذلك، فقليل جدّا في أشعار القدامى والمحدثين على السواء. والسبب هو أنّ هذه الألفاظ عُدّتْ ألفاظاً غير شعرية، لاسيما إذا وقعت في القافية. ومثل هذا يقال عن الألفاظ الأخرى التي استخدمها القرآن، ولم يجد لها الشعراء والكُتّاب سياقات ملائمة في كتاباتهم المختلفة.

ومن حيث الجانب الصرفي للمفردة القرآنية، نجد أن القرآن لا يستخدم بعض الألفاظ إلاّ مفردة، مثل: كأس، لحم، طير، وبعضها الآخر لا يرد إلاّ جمعاً، مثل: سرر، أرائك، أباريق، والصنف الثالث لا يستخدمه إلاّ معرفة مثل: الرحمان، أو نكرة، أو مضافاً؛ مثل: رَبّ، إلى غير ذلك من هذه الظواهر اللغوية المتعلقة بالمفردة القرآنية، والتي نستطيع

---

[1]- معنى دسر: مسامير، أو حبال. وحرد: الجد والقصد، أو المنع. وباخع: هالك حسرة. وضيزى: جائرة. وقمطريرا: عسير وشاق، وقطمير: قشر النواة، وعزين: جماعات متفرقة، وعضين: تفرقة، وتجزئة، و قِطّ: نصيب من العذاب.

[2] - المعتمد بن عباد، الديوان، تح: حامد عبد المجيد/ أحمد حمدي بدوي، دار الكتب المصرية، 2002، ط3 ، ص100.

[3] - يراجع: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج17، ص81.

[4] - نزار قباني، الأعمال الكاملة، ج4، منشورات نزار قباني، بيروت 1998 ط2،.ص102.

[5] - المرجع نفسه، ص93.

تصنيفها، وإحصاءها، ووضعها في مجالات محددة، وفضاءات معينة، لكننا نعجز في كثير من الأحيان أن ندرك كنهها والحكمة من إيرادها بهذا الشكل أو ذاك.

2 - المفردة القرآنية وشهودها الحضاري:

يمكن اعتبار المفردة القرآنية كلمة شاهدة، ومن لفظة "شاهدة"، نستلهم فكرة عمر عبيد حسنة، التي ما فتئ يكررها في مقالاته، ومحاوراته وهي عبارة "الشهود الحضاري"، مثلما فعل مع الشيخ الغزالي رحمه الله في مدارسة بينهما، تخص القرآن الكريم وكيفية التعامل معه في عصرنا هذا[1]. فالقرآن الكريم نفسه شاهد على عصر التنزيل بكل ما فيه من تمظهرات الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية، وشاهد على ما بعد عصر التنزيل، وهو الجزء الذي يتصل بفكرة الإعجاز في بعض الوجوه. ولئن كان القرآن كذلك، فلا بد أن تكون مكوّناته شاهدة أيضاً، ومفرداته أحد هذه المكوّنات.

ويقودنا مثل هذا الرأي إلى فكرة ذكرها الباحث الفرنسي جورج ماطوري، مفادها أن كل عصر تطبعه مجموعة من الألفاظ سمّاها "**الكلمات الشاهدة**". هذه الألفاظ تَسِمُ العصر، وتحدد معالمه العامة في السياسة والاقتصاد والعلوم والفنون إلخ، و« تقوم بإدخال مفهوم القيمة أو الوزن إلى المفردات. وهي الرمز المادي للعمل الروحي المهم. فهو يمثل في الوقت الواحد العنصر التعبيري الملموس الذي يجسد عملاً من الأعمال الحضارية »[2]. ومن ثَمّ، فإنّ هذه المفردات الشاهدة التي لبست لباساً خاصاً بفعل التطور في شتى مجالات الحياة، تحمل دلالات قارة عند الجماعة اللغوية، سيما إنْ كانت مستخدمة في علم بعينه. فمفردات الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغير ذلك تختلف من حيث البعد الدلالي، ولكنها ثابتة الدلالة في المجال الواحد.

فلو أخذنا مفردة "طلقة" لوجدنا لها أكثر من معنى؛ بحسب المجال المعرفي الذي ترد فيه. فالعسكري يفهم منها طلقة رصاصة، والفقيه يفهمها على أنها طلاق الزوجة، وإذا وردت صفة مشبهة كانت بمعنى بشوش؛ مثل قولنا لقي المضيف المدعووين بوجه طلق.

وإذا تأملنا في القرآن الكريم الذي يعتبر كتاباً مهيمناً على الزمان والمكان، أمكننا فهم العينات اللفظية التي اختارها لتكون شاهدة على عصر نزوله، وعلى كل العصور التالية لعصره. مما يدل على إعجازه إذ يتعالى على الزمان والمكان، بحيث لا تشيخ مفرداته، ولا تنضب معانيها مع كثرة تداولها على الألسن، واستعمالها يومياً من قِبل العامة

---

[1] - يراجع، محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، دار الانتفاضة للنشر، الجزائر، د.ط، د.ت، ص23. 27.

[2] - جورج ماطوري، منهج المعجمية، تر: عبد العلي الودغيري، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1993، ص130.

والخاصة. فكأن القرآن جمع وحوى وانتقى كل المفردات المهمة، التي تقوى على الصمود في وجه التغيرات المختلفة على مرّ الزمان. ولذلك وجب إعادة النظر في مسألة ابتذال الألفاظ المعروفة في الدرس اللغوي القديم.

وقد أطلق أحد الباحثين على المعجم القرآني مصطلح« **نظرية العينات اللفظية القرآنية**» واعتبرها أعظم عيّنة في اللغة العربية، فقال:« ولا بد أن نثبت هنا أن أعظم عيناتنا اللفظية في اللغة العربية هي تلك التي شملها "القرآن الكريم"، بها تقوم اللغة، وبها تبقى بحفظ الله سبحانه وتعالى، فضلاً عن أنها قمة البلاغة التعبيرية وقمة الرقي اللفظي»[1]. وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وضرب أمثلة دقيقة، بدلا من إطلاق الأحكام الجاهزة، كالجملة الأخيرة من هذا الاقتباس. لأننا لا نستطيع إلا أن نقول ذلك عن أسلوب القرآن، ولذلك تكرر مثل هذه العبارة عند القدامى والمحدثين على السواء. ولكن الذي ينقصنا هو إيضاح ذلك الإعجاز الباهر، وتلك البلاغة الراقية، وذلك التفرد في القول، والعمق في الدلالة، والإحاطة بالمعنى، باستخدام آليات دقيقة، تقرّب إلى المقصود، وتبيّن مواطن الجمال التعبيري، وتشرح العموم الغامض الملتبس، وتضيء الجوانب التي بقيت تتعاورها الشروحات بالمنوال نفسه، إلى يومنا هذا.

ويوضح الباحث نفسه عن قيمة هذا النوع من البحث الذي سماه علماً فيقول:« ولعل أبرز عائد من وجود هذا العلم، هو مساعدته في البحوث اللغوية والأدبية التي تتعرض للتحليل اللفظي للنصوص، وذلك أن البحث في العيّنات اللفظية سوف يتيح لنا صورة عامة لحالة العيّنة اللفظية في المجتمع موضوع البحث، وهكذا يسهل علينا دراسة هذه النصوص على أساس من الواقع المعاصر(لها) لا المعاصر (لنا). وسوف يكون من خصائص هذا العلم حصر العينة اللفظية لكتاب معيّن كالقرآن الكريم، ثم دراسة هذه العيّنة كصورة صادقة لمجتمع معيّن »[2].

ونضيف إلى ما قاله الباحث، أنّ هذه العينات اللفظية، إذا عُرِف مجالها المعرفي، وفضاؤها الدلالي، كانت عوناً للذي يتعاطى مع آيات القرآن شرحاً لمعانيها، وتفسيراً وتأويلاً لدلالاتها، واستنباطاً لأحكامها وحِكمها التي لا تنقضي، ولا تبلى.

3 - الكلمة القرآنية كلمة صافية:

إنّ القرآن الكريم صفّى اللغة العربية، وانتخب منها معجمه الخاص، فاختار من الألفاظ ما يلائم المعاني والدلالات، وما يبقى على وجه الدهر، لا يشيخ ولا يصيبه الهرم ولا الضعف. وقد استخدم بعض الدارسين المعاصرين مفهوم صفاء الكلمة القرآنية، وقدموا له تأويلات خاصة، مع المقارنة بين الألفاظ القرآنية لاسيما المرادفات، بكون

---

[1] - محمد الجوادي، كلمات القرآن التي لا نستعملها، دراسة تطبيقية لنظرية العينة اللفظية، ص16.

[2] - المرجع نفسه، ص16.

كلمة أحق من مرادفها، لما تحمله من دلالات لا يحملها مرادفها. مثل الذي قارن بين كلمة "النجاح" و"الفوز"، شارحاً سبب عدم ورود الأولى في كل القرآن. يقول:« ولقد رأينا القرآن الكريم يستخدم فاز ويفوز، والفوز وفوزاً والفائزون ومفازاً ومفازة، في أصول الإيمان وفروعه، وفي الفضائل الأمهات، وفي السعاة الحقة في الآخرة، وما يقرّب إليها في الدنيا من عقيدة، وقول وعمل. وليست "نجح" ومشتقاتها أهلاً لأن تقوم بهذه المهمة الجليلة الشأن، وليس فيها من صفاء ألفاظ القرآن ما يرقى إلى هذه المنزلة، لأننا نقول: نجح اللص في نهب الأموال... ولا نقول فاز اللص، هذه الشوائب نحّت "نجح" وما يتفرع منها عن أن تكون "نجماً" في سماء البيان المعجز »[1].

ولكن هذا التخريج يبدو قاصراً، لأنه لم يعتمد التفسير العلمي، بل التأويل الانطباعي الذوقي، فالباحث ضرب أمثلة من الواقع المعاصر، فقد نفى أن يقال: فاز اللص، غير أنه قد يقال: نجحت العملية وفزنا بالمال في مجال السرقة والنهب. ثم هل كانت العرب تستخدم الفعل "نجح" ومشتقاته كما نستخدمه الآن؟ إن الناظر في كلام العرب لا يكاد يعثر على أمثلة استخدم فيها هذا الفعل، وها هي المعلقات كلها ليس فيها ذكر له. ثم إنّ القرآن الكريم استخدم لفظة "عصبة" للدلالة على معنى محبّذ، والناس يستخدمون اليوم لفظة "عصابة" للدلالة على معنى سيء، والمفهوم والمضمون مختلفان فيهما. وبعد كل هذا، ما الذي يمنع القرآن من أن يصفّي فعل "نجح" من دلالته القديمة، إلى دلالة جديدة، فتُنسى القديمة ولا يُستخدم من الفعل إلا الدلالة الجديدة؟ مثلما فعل مع كثير من الألفاظ ذات المعاني الجاهلية، إذ أفرغها من محتواها الأصلي إلى محتوى جديد ذي بُعد أخلاقي، أو شرعي.

وقد ذكر بعض الدارسين أنّ المصطلحات في الثقافة الإسلامية موحّدة وواضحة عند كل المشتغلين بها، أما في الغرب فالمصطلح متردد لا يكاد يستقرّ على معنى موحّد[2]. و« اصطفاء الألفاظ أسماءً كانت أو أفعالاً أو حروفاً يفضي إلى كون هذه الكلمة المصطفاة صافية نقية من حوشي اللفظ أو مستكرهه... فالنقاء والخلوص من كل شوب هما من صفات اللفظ الصافي المتمحض للمعنى المراد »[3]. ويبدو أن هذا الرأي قريب من الصواب، وكأن العلماء المسلمين قديماً قد استلهموا هذا الوضوح من القرآن نفسه، ومن كلماته المستخدمة في الدلالات المحددة المطّردة. ولعل الأمر كذلك بالنسبة إلى الشعر العربي القديم الذي ينعى عليه بعض النقاد ووضوحه ومباشرته وخطابيته أحياناً.

إلاّ أنّ بعض مصطلحات القدامى مثل الحوشي، والمستكره، والمبتذل، وغيرها، يبقى غير محددة المعالم كما يجب في معظم الدراسات القديمة والحديثة، إنما يرد في سياق التدليل على إعجاز القرآن وتفرده، فيوصف بأنه خالٍ من كل هذا، دونما تحديد إجرائي- في كثير من الأحيان - لهذا التفرد، ولهذا الإعجاز.

---

[1] - عبد العظيم المطعني، نظرات جديدة في إعجاز القرآن، ص224 - 225.

[2] - ينظر، محمد إقبال العروي، اطّرادات أسلوبية في الخطاب القرآني، ص17.

[3] - ناصر بن عبد الرحمان بن ناصر الخنين، النظم القرآني في آيات الجهاد، ص35 - 36.

لقد استخدم القرآن الكريم مفرداته بنسب متفاوتة على مستويات كثيرة؛ صوتية، وصرفية، ونحوية، وبلاغية، ودلالية،. فمنها ما ورد مرة واحدة في كل القرآن؛ مثل: حرد، عزين، أبّ، أبق، إرم، آسن، حفدة، حنيذ، حوباً، زرابيّ، زمهرير، زنجبيل، الشتاء، الصيف، الضأن، الضفادع، الساحل، السرد، سكت، عفريت، عميق، غدقا، غَوْل، فجوة، فرث، قثاء، قدح، قريش، كبد، كثيب، لحن، لازب، مِحال، ماروت، نسر، نخرة، هرب، هاروت، وجبت، الوتين... فأين تكمن مزية بعض هذه الألفاظ الغريبة التي لم يستخدمها أصحاب اللغة في خطاباتهم المختلفة؟ علماً بأننا لا نستطيع وصفها بالحوشية ولا بالمستكرهة، إلاّ أن يقال عنها إنها من الغريب، وهو المصطلح الذي شاع في بداية تفسير القرآن الكريم.

ومن هذه الألفاظ ما ورد مرات عديدة الدلالة نفسها، ثم ورد مرة واحدة بدلالة مخالفة؛ وهذا النوع أطلق عليه ابن فارس اسم« أفراد كلمات القرآن »، مثل: الأسف، البروج، الصلوات... ومنها ما ورد بنسبة كبيرة، وهو الأغلب، مثل: قال، الله، آمنوا، كفروا، رحيم، غفور، أتى، جاء، خير، شر، حسنة، سيئة... ومنها ما لم يرد إلاّ مفرداً فقط، مثل: زكاة، كأس، لحم، ومنها ما لم يرد إلاّ جمعاً، مثل: أكواب، وأباريق، وسرر. ومن الجموع ما ورد لمعنى، وغيره ورد لمعنى آخر؛ فلفظ "العيون" يختص بمنابع الماء، و"الأعين" بالعين الباصرة، و"العُميان" لعَمَى البصيرة، و"العُمي" و"عمون" لعَمَى الباصرة...إلخ.

ولفهم معنى صفاء الكلمة القرآنية، نذكر أنّ القرآن الكريم لم ترد فيه بعض الكلمات المستخدمة عند الناس باطّراد في الكلام العادي، وفي الإبداع الأدبي على الخصوص، مثل: جداً، أيضاً، فقط، سيّان، تماماً، حبذا، وغيرها. ولم ترد فيه كذلك كلمات كثيرة معروفة ومستخدمة عند العام والخاص، مثل: فأر، ثور، ظلام، ثلج، جيش، نقاش، صدام، ثار، ثورة، فرسان، ثقافة، فن، سياسة، وغير ذلك من أسماء الحيوان، والسلوكات، وسائر الموجودات. وكأن القرآن قد اختار من كل طائفة من الكلمات عيّنة خاصة مضبوطة، ومحددة، لها الأولوية للدلالة على المعاني الدقيقة المختلفة، تفي بالغرض على قدر المقصود، وعلى قدر الاستحقاق، من غير فضول كلام، ولا بخس في المعنى.

4 - اللفظة القرآنية وجِهاتها؛ (رفيقاتها).

ويُقصد ببهذا العنوان الموقع الذي ترد فيه اللفظة، مجاورة لفظة أخرى تلازمها وترافقها في كل السياقات القرآنية المتعلقة بها، أو في جلّها، بمعنى أنّ بعض الألفاظ يرد - عادة - مقترناً بألفاظ خاصة، ومحددة، لا تعدوها إلى غيرها، ليدل بذلك على نوع من الارتباط الدلالي، والنسق المعنوي يجعل القرآن الكريم مميّزاً تمام التميّز عن غيره من الكتابات والتآليف. يقول أحدهم في هذا المعنى« وهناك بحث في ألفاظ القرآن يعتمد على القرآن الكريم وحده، لأنه خاص بالأسلوب القرآني، وهو بيان جهات الكلمة. والمقصود به... العلاقات بين معاني الألفاظ التي يكثر اقترانها في

القرآن الكريم... نحو كلمة (صلاة) التي تقترن كثيراً بالزكاة والإنفاق، وأحيانا بالصبر، وتارة بالإيمان، وأخرى بالنحر وهكذا. ويدل ذلك على أن الصلاة ذات جهات. فهي ترتبط بالزكاة من جهة، وبالصبر من جهة، وبالإيمان من جهة أخرى»[1]. وأكثر ما تقترن به كلمة "الصلاة" هو كلمة "الزكاة"، بحيث تكادان لا تنفصلان في النسق القرآني، وذلك حتى في الآيات المكية حيث لم تكن شعيرة الزكاة قد فرضت بعد.

يقول الطاهر بن عاشور:« وقال الجاحظ في البيان" وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس" قلتُ: والنفع والضر، والسماء والأرض »[2]. ويمكن أن يقال كذلك: الظلمات والنور، الخير والشر، المعروف والمنكر، والسيئة والحسنة.

ونفهم من كلام ابن عاشور، أنّ للفظة القرآنية فَلَكها الخاص، وفضاءها المحدد، ومسارها المضبوط، إذ نجدها تطّرد في نسق محدد ثابت، لا تطّرد فيه عند أهل الأدب والمعرفة والعلم بحال. هذا الاطراد الذي يجعل الكلمة القرآنية تسير جنباً إلى جنب مع كلمة أخرى؛ قريبة لها في المعنى، أو بعيدة، ينبئ عن كون هذه الكلمة تستمد دلالتها من مجاورتها لكلمة أخرى، تصاحبها على مدار القرآن الكريم. وقد لاحظ صاحب مفردات القرآن أن الفعل (درس) ومشتقاته - على سبيل المثال - ورد في القرآن الكريم ست مرات، كلّها بمعنى القراءة، لا غير، واللفظة المرافقة له تدل على ذلك، وهي لفظة "كتاب"، كما في قوله تعالى:﴿**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾(آل عمران:79)، وقوله:﴿**أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ**﴾(الأعراف:169)، وقوله أيضاً:﴿**أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ**﴾(القلم:37). أما في اللغة فإنّ للفظ "درس" عدة معانٍ؛ كالبلى، والجرب، والدياس[3]، والأكل الشديد[4]. وكأن القرآن الكريم اختار من كل معاني (درس) معنى القراءة والنظر في الكتب، دون غيره من المعاني، وفي ذلك إعجاز ما، قد يصعب إدراك حقيقته. ولا نطمئنّ إلى الرأي الذي يجعل مجال المعنى الإعجازي محصوراً في شيء واحد، هو المقصود بعينه، دون سائر المعاني الأخرى التي قد تكون ممكنة هي أيضاً، لاسيما إذا علمنا أنّ العرب - في الجاهلية على الخصوص - لم يستخدموا الفعل "درس" كثيراً في أشعارهم وأمثالهم بمفهوم القراءة، وإن كانوا يعرفون ذلك المفهوم.

---

[1] - عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن - نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية - تح: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002، ص63.

[2] - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص124.

[3] - الديّاس: الذي يدوس الطعام ليخرج منه الحَب. مثل الثور الذي يدوس السنابل في البيدر ليفصل عنها حبات القمح. ينظر لسان العرب، مادة دوس، ج6، ص90.

[4] - ينظر، عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، ص73.

ويعود سبب تهيّبنا من حصر المعنى المقصود من هذا الاستخدام القرآني للألفاظ، إلى أنّ البحث في هذا الجانب لا يتعلق بمدلول الآية أو بمضمونها، أو موضوعها، إنما يتعلق بالحكمة التي وراء استخدام لفظة في معنى خاص، دون غيره من المعاني، مع إمكانية استخدامها في معانٍ أخرى، مما يجعل الاقتراب من القصد من استخدامها أمراً غاية في الصعوبة.

ونعثر على رأي آخر لصاحبة "التفسير البياني للقرآن الكريم" تقول فيه:« وإذا كان اللفظ لغةً يحتمل أكثر من معنى على ما ذكروا في ضحى وسجا، فإن البلاغة لا تجيز إلا معنى واحداً في المقام الواحد، يقوم به لفظ بعينه، لا يقوم به سواه »[1]. وهي تقول هذا رداً على بعض التفاسير التي ترى أن لفظ "الضحى" قد جاء - في القرآن - بمعنى "النهار" كله لا جزء منه. وبعد مناقشة هذا الرأي، تقول:« واللغة قد عرفت الضحى وقتاً بعينه من النهار، وبه سميت صلاة الضحى لوقوعها فيه، والضاحية من الإبل التي تشرب ضحى... وفي الاستعمال القرآني، نرى القرآن الكريم استعمل الضحى مقابلاً للعشية في آية النازعات 46:﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾. ومعها الآية 29:﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾...»[2]. وضربتْ أمثلة أخرى تدل على أن معنى لفظ "الضحى" هو نفسه في كل السياقات الواردة فيه. بمعنى أنّ له فضاءً خاصاً محدداً لا يخرج عنه لمعنى آخر، قد يحسبه بعضهم من نتاج سياقات القرآن المتنوعة التي ورد فيها.

إن الباحثة بعملها هذا، تريد أن تصنّف الكلمات القرآنية ضمن مجال معيّن، أو فضاء محدد، تحصر فيه الدلالة الخاصة بكلمة من الكلمات، حين تطّرد في القرآن الكريم، وتطّرد في كل سياقاتها تقريباً بمعنى واحد لا تخرج عنه، ما دام المعنى الأولي لم يطرأ عليه تغيير ولا تبديل بفعل سياق خاص، أو مقام معيّن. ومن ثَمّ، وجب أخذه بمعناه الأصلي المتعارف عليه، ولا مسوّغ للخروج بلفظ من الألفاظ إلى معانٍ جديدة، أو ثانوية إلا بحقه.

إنّ هذه الصفات التي تتميّز بها الكلمة القرآنية يلخّصها الحديث النبوي في فضل القرآن الذي يقول فيه النبي (ص):« **فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ** »[3]. إنّ هذا

---

[1] - عائشة عبد الرحمان، التفسير البياني للقرآني الكريم، دار المعارف، ط7، ج1، ص29.

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص30.

[3] - المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم ، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ج8، دار الكتب العلمية - بيروت، ص176، وما بعدها.

الحديث ليصف لنا بدقة ما في ألفاظ القرآن وكلماته من خلود، وحيوية، وحركية، وصفاء، وتنوع، وشهود على الحاضر والغائب، ولانهائية الدلالة في كلماته المعجزة.

ومحصلة القول لِمَا سبق عرضه لمسألة المفردة القرآنية، هي أنّ القرآن الكريم يعتبر خزاناً لغوياً لمفرداته ومصطلحاته الخاصة، أو معجماً متميّزاً من ألفاظ اللغة، يسيّرها بطريقة متميزة. أما المعيار والحكمة في ذلك، فيبقيان للبحث والنظر والاستنباط، كلّ بحسب اتجاهه، وآلياته، وثقافته، لأنّ المعنى النهائي والمغزى من هذا الاستخدام لألفاظ اللغة بهذا الشكل الذي ورد في القرآن، لا يحيط به أحد، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنه وضع يده على السر النهائي في ذلك أبداً. إنما هي آراء واقترابات من ذلك السر الكبير الذي سيبقى إلى يوم القيامة شاهداً على صدق نبوّة الرسول الكريم، وعلى إعجاز هذا القرآن الكريم الذي أوحي به إليه صلى الله عليه وسلم.

وسؤالنا الآن: ما هو موقع المفردة القرآنية، كما وردت في الخطابين المكي والمدني، من كل هذه التنظيرات التي أرادت أن تؤسس لمفهوم الكلمة أو اللفظة أو المفردة اللغوية؟ وكيف تتمظهر في مختلف السياقات؟ وما هي نسبة اطراداتها في الخطاب القرآني ككل؟ وهذا ما سنعرض له بنوع من التفصيل في الفصول التالية.

الفصل الثاني:

فضاءات المفردة القرآنية في الخطاب المكي

المبحث الأول: المفردة القرآنية والفضاء العقدي

المبحث الثاني: المفردات القرآنية والفضاء المعتقداتي

المبحث الثالث: فضاء المفردات الثنائية المتشابهة (المترادفة) .

المبحث الرابع: فضاء المنظومة اللفظية.

UNIVERSITE SETIF2

المبحث الأول: المفردة القرآنية والفضاء العقدي

يتعبر العهد المكي مرحلة دقيقة من مراحل الدعوة الإسلامية، وثرية في كثافة نزول آيات القرآن الكريم. وهي المرحلة التي حدث فيها التحدي أكثر من مرة، وفيها كثر الجدال مع المشركين، وكثر فيها الحديث عن التوحيد، وعن آيات خلق الله تعالى، وضرب الأمثال، وذكر سير السابقين من الصالحين والطغاة. وقد دامت هذه المرحلة أكثر من عشر سنين، وفيها نزل ثلثا القرآن، أي ما يعادل ستاً وثمانين 86 سورة من العدد الكلي الذي يقدر بمائة وأربع عشرة 114 سورة.

وأكثر موضوعات هذا العهد يتحدث عن التوحيد، وعن أهل الإيمان وأهل الكفر، وعن مصير الطائفتين يوم القيامة، ويصف نعيم أهل الجنة، وجحيم أهل النار. فلا غرو أن غطّت الألوهية مساحة واسعة من القرآن المكي، بتكرار ذكر صفات الله تعالى، وأفعاله، وآياته الباهرة، في كل شيء، وتدبيره لشؤون خلقه.

ونشير -كذلك - إلى أنّ المفردات المطّردة في القرآن المكي على ثلاثة أصناف هي: صنف لا يُذكَر بتاتاً في العهد المدني، وصنف يذكر لفظه المشابه له، أو (نظائره)، وصنف ثالث يذكر منه مجموع المفردات المقصودة، مع ترك استثناء أو استثناءين، للعهد المدني. وفي ذلك كله، تمّ توزيع هذه المفردات بطريقة عجيبة، ودقيقة تكاد تكون كالقانون العام الذي يحكم ظاهرة ما، ليس فيه إلا استثناء قليل، بل نادر أحياناً.

وفضّلنا أن نسمّي مجال هذه الدراسة باسم الفضاء، بدلا من اسم الحقل، لكون الفضاء أوسع من الحقل، وأعلى منه، ولأن القرآن الكريم نزل من السماء قبل أن يصل إلى الأرض، فقد كان محفوظاً (مخزّناً) في اللوح المحفوظ، ولذلك أردنا أن تكون دلالة الكلمة القرآنية أرحب وأوسع، وأشمل وأدل على المقصود، من خلال وضع فضاء لها، تتحرك فيه على سجيتها، بحرية طبيعية.

ولمصطلح الفضاء، حضوره الكبير في السرديات، وهو« العالَم الفسيح الذي تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، وبقدر ما يتفاعل الإنسان مع الزمن يتفاعل مع الفضاء، بل يمكننا القول: إن تاريخ الإنسان هو تاريخ تفاعلاته مع الفضاء أساساً »[1]. ومن هذا القبيل يقول أحدهم في مبحث بعنوان "اللغة المبدعة للخيال":« ومع ذلك أمكننا الوقوف على صور متضايفة مؤلّفة، بصفتها هذه، مسارات ترينا بعض الفضاءات المرسومة والمجسدة بالكلمات، وتبرز من بنية النص الدالة كيفية اشتغال ما يسميه ريكور "حلم الكلمات" »[2]. أما في القرآن الكريم فللكلمات مسارات، ومجالات، وفضاءات، مهيمنة على الدلالة حين تطّرد بشكل ملحوظ فيما تُستعمَل من أجله.

والفضاء - بالمفهوم الذي عنيناه - هو ما يعادل مفهوم الفلك الذي ورد في قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾(الأنبياء:33). فإذا كانت هذه المخلوقات تسبح في أفلاكها الخاصة بها، فإنّ القرآن الذي هو كلام الله، تسبح مفرداته بدورها في أفلاك خاصة، لا تحيد عنها، وذاك هو منبع

---

[1] - حسن نجمي، شعرية الفضاء السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000، ص32.

[2] - محمد الناصر العجيمي، مجلة علامات في النقد، ع49، سبتمبر 2003، ص652.

الإعجاز فيها. لأن كل ما خلق الله هو آية في ذاته، وإذا أراد أن يخلق شيئاً، إنما يخلقه بقوله: كُنْ؛ أي بالكلمة. وكلام الله تعالى آية كذلك، في مفرداته، وفي تراكيبه ومعانيه ودلالاته.

ونجد أحد الباحثين المعاصرين في مجال الدراسات القرآنية، يجمع مثل هذه المفردات المتشابهة، والمتقاربة في المعنى، تحت اسم "المنظومة". ويضع تحت كل منظومة مجموعة من الألفاظ المتقاربة مثل: منظومة أبى؛ أبى- امتنع - رفض. ومنظومة أبق؛ أبق - فرّ- هرب - انهزم - ولّى. ومنظومة أثاث؛ أثاث - متاع... إلخ[1]. ثم يحاول الكشف عن الفروق الدقيقة في معاني تلك المفردات.

إنّ وضع المفردات ضمن إطار دلالي عام، أو ضمن فضاء خاص، يساعد في البحث، وفي إيجاد الرابط المعنوي لمجموعة من الألفاظ المنتمية إلى عائلة واحدة. وإن كان لهذا النوع من الدراسة والتصنيف مزالق ومآخذ[2] - لكونها غير مضبوطة ضبطاً تاماً، جامعاً، مانعاً - فإنّ تحديد مجالها المعجمي، يقرّب كثيراً إلى الفكرة الموحدة، والمعنى القريب، والقصد الدقيق.

وأول ما نعرض له، إذاً، هو الفضاء العقدي، لأن التركيز عليه كان شديداً في تلك الفترة؛ فهو الأساس في تكوين إيمان المرء، وربطه بالخالق جل وعلا. ويتفرع هذا الفضاء إلى عدة فضاءات سنتعرض لها بالتفصيل.

أ - **فضاء الألوهية والربوبية:** وقد تكررت مفردات خاصة بهما معاً، فورد بعضها في الخطابين المكي والمدني، ولم يرد بعضها الآخر إلاّ في الخطاب المكي تقريباً مثل؛ اسم "الرحمان"، وعبارة "الحمد لله"، وعبارة "رب العالمين"، ومفردة "العالمين" حين ترد منفردة، وذلك لأمر سيتضح بعد استقراء الطريقة التي يطّرد فيها إيراد هذه المفردات في الخطاب المكي فقط، إلا بعض الاستثناءات النادرة.

ويستخدم هذا الفضاء كل أسماء الله الحسنى، للدلالة على أن الله عز وجل هو كل شيء في هذا الوجود؛ فهو رازق وخالق، وقادر، وجبّار، وسميع، وبصير، وغفور، ورحيم، وعليم... إلخ. غير أنّ الملاحظ في هذه الأسماء، هو إيرادها بتوزيع دقيق، يعبّر عن قصد محدد؛ فبعضها لا يرد إلا معرفة، وبعضها الآخر يرد معرفة ونكرة، وصنف ثالث لا يرد إلاّ في القرآن المكي، وصنف رابع يرد مقترناً باسم آخر لا يكاد يعدوه في كل القرآن الكريم، وغير ذلك من هذه التمظهرات لأسماء الله الحسنى. وهذا الذي سنعرض له فيما يلي:

1 - **فضاء التوحيد:** هو المسألة الأولى والأخيرة في الدين، وفي كل الأديان السماوية السابقة، ولذلك ورد باستخدام مفردات كثيرة متنوعة في سبيل إيصال هذه الفكرة إلى الناس بكل وضوح، وبشكل لا يحتمل التأويل، ولا تعدد المعاني. فكانت آيات العهد المكي لا تفتأ تذكر أسماء الله الحسنى البالغة تسعة وتسعين اسماً كما ورد في الخبر. وفي ذلك« سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله وأفعاله وآلائه ونعمائه، وإشادته بها، والعودة إليها مرة بعد مرة، فإنّ الصفات هي التي تثير الحب وتبعث الحنان وتوجد الأشواق... ولولا هذه الصفات العليا والأسماء الحسنى... لكان

[1] - يراجع، أحمد الكبيسي، الكلمة وأخواتها. على موقع: ملتقى أهل اللغة.

[2] - يراجع، سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص42 - 43.

هذا الدين خشيباً جامداً لا يملك على أتباعه قلباً، ولا يثير فيهم عاطفة »[1]. وهنا، سننتقي منها ما ورد في القرآن المكي فقط، لأنّ هذا هو موضوع المبحث، فتكون كما يلي:

1- 1 - **الواحد:** يتعلق هذا الاسم أساساً بالله تعالى، فهو الواحد الذي لا إله غيره، المتفرد بعبادته، ولا يرد منفرداً، إنما يأتي صفة للفظ الجلالة. ويرد متعلقاً بأمور شرعية وأخرى كونية، وتاريخية كذلك. فإذا كان هذا اللفظ نكرة تعلق بأمور مختلفة، أما إذا كان معرّفا "بال" فيختص بالله تعالى فقط، ويرد متبوعاً باسم آخر هو "القهّار"، وكل آياته من القرآن المكي؛ كما هو مبيّن في الآيات التالية:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(يوسف:39). **﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**(الرعد:16). **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**(إبراهيم:48). **﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**(ص:65). **﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**(الزمر:4). **﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**(غافر:16). وفي كل موضع من هذه المواضع يرد هذا الاسم متبوعاً باسم آخر بصيغة مبالغة على وزن فعّال، معرّفاً دائماً هو اسم "القهّار". ويختص هذا الاسم بلفظ الجلالة لا غير، أما اسم الفاعل منه فيكون وصفاً للعبد كذلك؛ كقوله تعالى على لسان فرعون:**﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فوقهم قاهرون﴾**(الأعراف:127).

فإذا كان لفظ "واحد" نكرة، فإنه يرد صفة للفظ الجلالة "الله"، ولا يرد صفة للفظ "رب". وقد يرد مقترناً بلام التوكيد في بعض الأحيان، ويكون خاصاً بلفظ الجلالة لا غير. وفي هذه الحال يأتي في القرآن المدني أيضاً، وإن كان قليلاً، كما في الآيات التالية:**﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾**(البقرة:163). **﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ﴾**(النساء:171). **﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**(المائدة:73). **﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**(الأنعام:19). **﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**(إبراهيم:52). **﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**(النحل:22). **﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**(النحل:51). **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**(الكهف:110). **﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**(الأنبياء:108). **﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾**(الحج:34). **﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**(العنكبوت:46). **﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾**(الصافات:4). **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**(فصلت:6).

وفي كل هذه الآيات لم يقل - ولو مرة واحدة - رب واحد، أو ربكم واحد، أو الله واحد، إنما قال: إلهكم واحد، أو إله واحد. وذلك ليرد على الكفار الذين كانوا يخلطون بين توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية؛ حيث كانوا يؤمنون بأنّ الله ربّ العالمين واحد؛ من حيث خلقه المخلوقات، وتصرفه فيها، ولكنهم لم يكونوا يوحّدونه في العبادة، إنما كانوا يشركون بعبادة هذا الرب الواحد - الذي يؤمنون بوحدانيته - آلهة أخرى من صُنعِهم وتسميتهم؛ فركّز القرآن في الخطاب المكي على الأمر الذي كان العرب مخطئين فيه.

[1] - أبو الحسن علي الحسني الندوي، وأذّن في الناس بالحج، مطبوعات المجمع الإسلامي العلمي، لكنهؤ- الهند. ط3، 1980، ص12.

ووجود هذا الاسم في العهد المكي دليل على تنبيه الكفار على أنّ الإله الحق يجب ألاّ يغلبه أحد، وألاّ يحتاج إلى من ينصره، أو يحميه، بل على العكس من ذلك تماماً، وكأن الله تعالى يقول لهم: ما بال آلهتكم هذه التي تزعمون، تحتاج إلى نصرتكم، أو دفاعكم عنها؟ فلو كانت حقيقة لكانت أقوى منكم، وكنتم في حاجة إليها، لا العكس. ولكنها في الحقيقة لا تملك هذه القوة التي تزعمون لها، فأكّد القرآن صفة "الواحد" بصفة "القهّار"، في كل هذه المواضع من آيات العهد المكي.

1 - 2 - وحده:

وقد ورد مفهوم الواحدية بلفظ "وحده" في مواضع قليلة من القرآن المكي، وفي آية واحدة مدنية. وهذه الآيات هي:﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾(الأعراف:70). ﴿**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾(الإسرا:46). ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾(الزمر:45). ﴿**ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ**﴾(غافر:12). ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾(غافر: 84). ﴿**وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾(الممتحنة:4). ولا تخرج آية الممتحنة المدنية عن نهج الآيات المكية السابقة، لأنها تعرض مسألة التوحيد على لسان إبراهيم عليه السلام، ليُذكّر القرآن أهل الكتاب في هذه المرحلة المتأخرة من نزول القرآن، لعلهم يرجعون إلى الحق قبل أن ينتقل الرسول (ص) إلى ربه، فلا يجدون بعدها من الوحي ما يذكّرهم بذلك. ويذكّر القرآن الناس أجمعين بأصل التوحيد الذي بدأ به في العهد المكي، ليكون حلقة وصل مستمرة تدعو إلى أصل هذا الدين، وهو الإيمان بالله الواحد الأحد.

1 - 3 - أحد: وقد ورد هذا اللفظ مرة واحدة فقط، مسنداً إلى لفظ الجلالة "الله" في قوله تعالى:﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾(الإخلاص:1). قال الراغب بعد أن ذكر نوعين لمعنى لفظ "أحد":« الثالث: أن يستعمل مطلقا وصفا، وليس ذلك إلا في وصف الله تعالى بقوله:{قل هو الله أحد}... وأصله وحد (قال الفيروز آبادي: وأصله وحد، أبدلوا الواو همزة على عادتهم في الواوات الواقعة في أوائل الكلم، كما في: أجوه ووجوه، وإشاح ووشاح »[1]. ويقول أحد الباحثين وهو يشرح مدلول لفظ الجلالة "**الله**"[2]، إذ كان هذا اللفظ مستعملاً كثيراً في الجاهلية بالمدلول نفسه الذي ورد في القرآن الكريم. ولعل ذلك صحيح، فقد قال شاعرهم:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب[3]

ثم يردف قائلاً:« والشيء الجديد في الاستعمال القرآني هو وصف الله عز وجل ذاته بأنه "أحد" وهو وصف لم يعهد في الشعر الجاهلي، فلم يرد - فيما قرأت - أنّ أحدهم قد وصف نفسه أو غيره بهذا الوصف وإنما استعملوه

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص19.

[2] - يراجع: عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغتيْ الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، دراسة دلالية مقارنة، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن، ط1، 1985، ص91 وما بعدها.

[3] - النابغة الذبياني، الديوان، شرح وتقديم عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1996، ص27.

بمعنى واحد من الناس... وكانوا إذا أرادوا وصف إنسان بأنه منفرد في صفة، قالوا هو واحد قومه، أو أحد قومه »[1]. وهذا دليل على احترام التعبير القرآني لسنن العرب في كلامها، بحيث لم يكثر من المفردات أو التصريفات التي قلّ استخدامها عند العرب في تعابيرهم المختلفة، ولم يجد لها داعياً موضوعياً أو بلاغياً لتكرارها في الخطاب المكي، أو الخطاب المدني، فأعرض عنها كما أعرض عن كثير من مفردات اللغة الأخرى. لقد تصرّف القرآن في استعمال مفردة "أحد"، ليدل بذلك على خصوصية التعبير القرآني، تنبيء بتفرّد عجيب في تناول المادة المعجمية التي يعرفها العرب، عامة، ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثلها؛ كمّاً وكيفاً في خطاباتهم المختلفة.

2 - **أسماء الله الحسنى:** وهي أعلام وأوصاف كثيرة، وهي أسماء مترادفة في دلالتها على الذات الإلهية، متباينة في الدلالة على الصفات[2]. وهذه الأسماء« أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلّت عليه من المعاني من صفات الجلال والجمال. فالحي، القيّوم، والسميع البصير، والعزيز العليم، وغيرها من الأسماء الحسنى، كلها أسماء لمسمّى واحد هو الله جلّ جلاله »[3]. وأكثر هذه الأسماء ورود هي: الله، الرحمن، الرحيم، باعتبارها تتكرر في مطلع كل سورة، ناهيك عن ورودها في ثنايا السور كذلك. ثم يأتي اسم "الواحد" الذي يرد مقترناً بلفظ "الله" أو "إله". ولكن الملاحظ في هذه الأسماء أنّ بعضها لا يرد إلا معرفة، وبعضها الآخر يرد معرفة ونكرة. و« من أسماء الله ما يرد مفرداً، ومنها ما يرد مقروناً مع غيره لأن الكمال الحقيقي من اجتماعهما »[4]. ومن أمثلة ذلك: اسم "العزيز" الذي يرد مقترناً باسم "الحكيم" بهذا الترتيب، في جل الآيات التي ورد فيها هذان الاسمان؛ وعددها أربع وستون(64) آية. أما إذا أضفنا الآيات التي ورد فيها اسم "العزيز" نكرة فتبلغ اثنتين وتسعين(92) آية. وفي هذه الحال يأتي هذا الاسم مقترناً بأسماء أخرى مثل: قوي، حميد، غفور، أو يرد منفرداً، كما في قوله تعالى:﴿**وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ**﴾(الزمر:37). وقوله أيضاً:﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**﴾(فصلت:41).

وإذا تأمنا آية آية سورة الحشر، أمكننا أن نعرف الترتيب الذي أورده القرآن نفسه لهذه الأسماء. قال تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(الحشر:22 - 24). فاسم "**الله**" ورد أولاً، وورد اسم "**الرحمان**" سابقاً على اسم "**الرحيم**" وملازماً له، كما ورد اسم "**العزيز**" سابقاً على اسم "**الحكيم**".

---

[1] - عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغتيْ الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ص101.

[2] - يراجع: محمد بن إبراهيم التويجري، كتاب التوحيد، أسماء الله الحسنى في ضوء القرآن والسنة، مكتبة فهد الوطنية، السعودية، ط2، 2012، ص48.

[3] - المرجع نفسه، ص48.

[4] - أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، تح: عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 112 - السنة 33 - 2001، ص158.

ويبدو أنّ أسماء الله الحسنى، كما أنها كثيرة ومتنوعة، فهي« كذلك متفاضلة في المعاني، وفيها اسم الله الأعظم، الذي أخفاه الله عز وجل في أسمائه الحسنى، ليتعبّد الخلق بجميع أسمائه الحسنى »[1]. واستخدامها في القرآن له نظام دقيق، ونسق مطّرد، إذ نجد بعضها لا يتكرر إلاّ في الخطاب المكي، مثل: الرحمان، ورب، وإله، وإلهكم، وأخرى تتكرر في الخطابين معاً، مثل: الله، الرحيم، الحكيم، الغفور، العزيز وغيرها.

أما عن الأمثلة الأخرى التي ورد فيها اسم العزيز مقترناً بأسماء أخرى فمنها قوله تعالى:﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾(الحديد:25). وقوله:﴿**كتبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾(المجادلة:21). وقال:﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾(فاطر: 28). وقوله:﴿**وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾(القمر:41- 42). إلا في موضع واحد هو قوله تعالى:﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(لقمان:27). وفي آية أخرى ورد اسم "العزيز" تالياً لاسم "القوي"، وجاء الاسمان كلاهما معرفة في قوله تعالى:﴿**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**﴾(الشورى:19).

ويرد اسم "العزيز" - كذلك - موظّفاً بمعنى آخر غير فضاء الأسماء الحسنى، فيأتي اسم علم للحاكم أو الملك، وقد ورد في سورة يوسف عليه السلام بوجه خاص. وورد مرة أخرى بمعنى القدرة على فعل الشيء، وعدم العجز عن شيء كما في قوله تعالى:﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾(فاطر:16- 17). أو يرد صفة للكتاب كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**﴾(فصلت:41). وقد اختار التعبير القرآني هذا الاسم للدلالة على غير أسماء الله الحسنى، وإن شابهها في اللفظ. قال الأصفهاني:« والعزيز: الذي يَقهر ولا يُقهر. قال تعالى:{إنه هو العزيز الحكيم}[العنكبوت/26]، {يا أيها العزيز مسنا}[يوسف/88]»[2].

وسنقتصر في هذا المبحث على أربعة من أسماء الله الحسنى هي: الله، الرب، الرحمان، والرحيم، لأنها الأكثر تكراراً في القرآن، ولأنّ لها وضعاً خاصاً يختلف عن بقية الأسماء الأخرى. وفيما يلي تفصيل لذلك.

أ - **الله**: ويتكرر 2541 مرة، في القرآن المكي والمدني على السواء. أما في حال وروده نكرة، أو مضافاً إلى شيء، فإنه يختص بالخطاب المكي على وجه التحديد. فإذا أضفنا إليه لفظ الجلالة الذي ورد نكرة؛ أي: **إله**، بعدد 57 مرة[3]، **وإلهاً** 16 مرة(آيتان مدنيتان، البقرة:133، والتوبة:31)، **وإلهك** 02 مرتان، **وإلهكم** 10 مرات(واحدة مدنية؛ الحج:34)، **وإلهنا** مرة واحدة 01. **وإلهه** مرتان 02، كان العدد الإجمالي 2629 مرة.

---

[1] - محمد بن إبراهيم التويجري، كتاب التوحيد، أسماء الله الحسنى في ضوء القرآن والسنة، ص48.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص90.

[3] - وما ورد من هذا اللفظ في الخطاب المدني، أكثره يتعلق بخطاب أهل الكتاب، ودعوتهم إلى عبادة الله الواحد. وذلك في السور التالية: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، التوبة، الرعد، الحج، محمد، الإنسان.

أما لفظ الجلالة "الله" بالتعريف، فهو اسم يتكرر في الخطابين معاً، لأنه اسم الخالق الذي بيده كل شيء، والذي هو مع الناس في كل زمان ومكان، فلا فرق في إيراده بين الخطاب المكي، والخطاب المدني. واسم الجلالة هذا، لم يتسمّ به أحد من البشر، منفرداً بل يستخدم دائماً مضافاً إليه، فيقال عبد الله، أو عبد الإله، والأول أكثر إطلاقاً في تسمية الأبناء. وقد يكون هو الاسم الأعظم لرب العالمين[1]، انطلاقاً من حديث النبي (ص) الذي سمع رجلاً يدعو فقال (ص): اللهم إنّي أسألك بأنّي أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد« والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[2]. وكقوله في الحديث الآخر:« أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ». وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ وَهِيَ كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ »[3]. قال تعالى:﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾(مريم:65). ومنه أنّ« مدلول كل منهما يختلف عن الأخرى، إذ "الإله" يطلق على المعبود بحق وباطل، و"**الله**" لا يطلق إلا على المعبود بحق، والتعامل الصرفي مختلف، إذ "الإله" يثنى على "إلهين" ويجمع على "آلهة"، و"**الله**" لا يثنى ولا يجمع... هو مرتجل غير مشتق »[4]. ولئن صحّ هذا القول، فهذا دليل على تفرّد القرآن في استخدام مفردات اللغة بطريقة مميزة، تدل على أنه من عند الله، لا من صنع بشر. ويرد لفظ الجلالة، أحياناً، بصيغة "اللهم"، وهو - كما يقول أهل النحو- أسلوب نداء غرضه التعظيم.

ومن المتعلّقات اللفظية الخاصة بلفظ الجلالة (الله) نذكر ما يلي:

- ليس هناك نداء بـ (يا الله) أو (يا إلهي)، أو(يا إلهنا). إنما يُستبدل بلفظ "اللهمّ". أما في الكلام البشري، من شعر وغيره، فيرد هذا التعبير، وإن كان قليلاً، لعدم التفرقة الدقيقة بين العبارتين؛ أي بين "يا ربّ"، و"يا الله"، أو لعادة أسلوبية، أو لضرورة شعرية كما في قول المجنون:

يبيتُ ضجيع الهمّ ما يطعم الكرى ينادي إلهي قد لقيتُ الدواهيا[5]

وواضح أن الشاعر لا يستطيع استخدام عبارة "ربّي" بدلاً من "إلهي" الموظّفة في القصيدة، وإلاّ اختل الوزن، واضطربت التفعيلة. ولعل هذا هو الأمر الذي ألجأه إلى فعل ذلك.

- ليس هناك عبارة (إله السموات أو إله الأرض، أو إله كل شيء، أو إله العالمين)، ما عدا عبارة ﴿**إِلَهِ النَّاسِ**﴾ (الناس:3)، وذلك لأنّ الألوهية تتعلق بالمكلّفين من جنّ وإنس، وليس بالعوالم الأخرى الجامدة؛ غير المكلّفة. ولكن

---

[1] - يراجع، ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، ط7، 1981، ج1، ص19.

[2] - محمد بن إبراهيم التويجري، كتاب التوحيد، أسماء الله الحسنى في ضوء القرآن والسنة، ص48.

[3] - أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ط، د.ت، ج 8، ص308. وج9، ص313.

[4] - صبري المتولي، منهج أهل السنة في تفسير القرآن الكريم، (دراسة موضوعية لجهود ابن القيم التفسيرية)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط2، 2002، ص 311 – 312.

[5] - مجنون ليلى، الديوان، تح: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، د ط. 1979، ص237.

في المقابل هناك العبارات التالية: (رب السموات، رب الأرض، رب كل شيء، رب العالمين، رب الناس، رب البيت، رب موسى وهارون، رب الشِعرى)، وذلك لأنّ هذه المخلوقات ليست مكلّفة مثل الإنسان؛ إذ لها ربّ ككل مخلوقات الله، ولكن ليس لها إله تعبده كما يعبده الإنسان. أما العكس فوارد مثل:﴿**ناقة الله**﴾[1]، « وَأُضِيفَتِ النَّاقَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى جِهَةِ إِضَافَةِ الْخَلْقِ إِلَى الْخَالِقِ. وَفِيهِ مَعْنَى التَّشْرِيفِ وَالتَّخْصِيصِ »[2]. وليس في القرآن مفردة أضيفت إلى لفظ الجلالة غير المفردات التالية: "ناقة"، و"كلمة"، و"كلام"، و"سُنّة"، و"رسول"، و"نار". قال تعالى:﴿**وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا**﴾(التوبة:40). وقال:﴿**لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**﴾(يونس:64). وقال:﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ**﴾(الفتح:15). وقال:﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾(الأحزاب:62). وقال:﴿**نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا**﴾(الشمس:13). فقد شرّف الله تعالى بذلك الناقة، كما شرّف كلامه ورُسله، وهو أعلم بما خلق. أما النار في قوله تعالى:﴿**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ**﴾(الهمزة:6)، فقال فيها ابن عاشور:« وَإِضَافَةُ نارُ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ لِلتَّرْوِيعِ بِهَا بِأَنَّهَا نَارٌ خَلَقَهَا الْقَادِرُ عَلَى خَلْقِ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ »[3]. ولكن لماذا قال: نار الله، وليس نار الربّ؟ ولو كان العكس لقال - كما جرت عادة التعبير القرآني - ربّ النار، وذلك لاجتناب التعبير المشابه لتعبير النصارى، وللتأكيد على أنّ ما جاء به محمد (ص) لم يتعلّمه من النصارى (بحيرا الراهب على الخصوص)، ولو كان الأمر كذلك لأخذ عنهم طريقتهم في الكلام، ونسقهم في التفكير.

- اختيار أغرب صيغة القسَم باستخدام "التاء" المتصلة بلفظ (الله)، فلم يقل: والله، إلاّ في قوله عز وجل:﴿**ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾(الأنعام:23). إنما أورد صيغة {تالله}، كما في قوله تعالى:﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**﴾(يوسف:73)، ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾(يوسف:85)، ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ**﴾(يوسف: 91)، ﴿**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ**﴾(يوسف:94 - 95)، ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ**﴾(النحل:56)، ﴿**تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾(النحل:63)، ﴿**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**﴾(الأنبياء:57)، ﴿**قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾(الشعراء:96 - 97)، ﴿**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ**﴾(الصافات:55 - 56).

وما يلاحظ على هذا النوع من القسم؛ أي "تالله"، أنّه لا يرد إلا في السور المكية، تماشياً مع كثرة القسم والحلف في كلام العرب. وقد ورد في معظمه على لسان إخوة يوسف عليه السلام، وورد - أيضاً - على لسان بعض الأنبياء، وعلى لسان الكفار، وبعض المؤمنين يوم القيامة. وورد مرتين من الله تعالى في سورة النحل. يقول السامرائي

---

[1] - وردت بهذه الصيغة (مضافة) في ثلاث آيات هي: الأعراف:73، هود:64، الشمس:13. وفي ثلاث آيات غير مضافة وهي: الإسراء:59، الشعراء:55، القمر:27.

[2] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص238.

[3] - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص540.

في هذا النوع من القسم، وفي التاء التي فيه:« وتكاد تختص بلفظ الله تعالى، ولم ترد في القرآن الكريم إلا معه، وفيها معنى التعجب والتفخيم »[1]. ويقول غيره:« تالله، معناه والله، فأبدلت التاء من واو القسم. ولا تبدل التاء من واو القسم إلا مع الله تبارك وتعالى. ولا يجوز تالرحمن. ولا تالعزيز، لأن الاستعمال لم يكثر إلا مع الله عز وجل »[2]. والتاء« فِي تَاللَّهِ حَرْفُ قَسَمٍ عَلَى الْمُخْتَارِ، وَيَخْتَصُّ بِالدُّخُولِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى لَفْظِ رَبِّ، وَيَخْتَصُّ أَيْضًا بِالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ الْعَجِيبِ »[3]. و« عادةً تدخل «التاء» على لفظ الجلالة عند القَسَم المقصود به التعجُّب، أي: أن إخوة يوسف أقسموا مُندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا؛ وأن الكُلَّ قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك، لم يسبق أن اتهمهم أحد بمثل هذا الاتهام »[4].

ويلاحظ كذلك أنّ التعبير القرآني لا يقول {أقسِمُ}، أو {أَقسمْتُ} وحدها أبداً، إنما يورد الفعل مسبوقاً بـ "لا"، فيقول:{لا أقسم}، كما لاحظ ذلك فاضل السامرائي في كتابه لمسات بيانية. وقد فسّر ابن عاشور هذا التعبير بقوله:« وفَلا أُقْسِمُ بِمَعْنَى: أُقْسِمُ، وَ(لَا) مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكِيدِ، وَأَصْلُهَا نَافِيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَائِلَ لَا يُقْدِمُ عَلَى الْقَسَمِ بِمَا أَقْسَمَ بِهِ خَشْيَةَ سُوءِ عَاقِبَةِ الْكَذِبِ فِي الْقَسَمِ. وَبِمَعْنَى أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى الْقَسَمِ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَاضِح الثُّبُوت، ثُمَّ كَثُرَ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ فَصَارَ مُرَادًا تَأْكِيدُ الْخَبَرِ فَسَاوَى الْقَسَمَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَقِبَهُ: وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، وَهَذَا الْوَجْهُ الثَّانِي هُوَ الْأَنْسَبُ بِمَا وَقَعَ مِنْ مِثْلِهِ فِي الْقُرْآنِ »[5].

ولا يقترن الفعل "أقسم" في القرآن بلفظ الجلالة "الله"، إنما يرد مقترناً باسم "ربّ"؛ أي لا يقول: فلا أقسم بالله، إنما يقول:﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**﴾(المعارج:40). وهو الموضع الوحيد الذي جاء فيه القسم باسم "الربّ". أما إذا كان فعل القَسَم خاصاً بالعباد؛ أي إذا كان الله تعالى يأمر الناس في قضايا الحدود وما شابهها بأن يُقسموا لدرء العذاب، أو غيره، فيستعمل القسَم مع لفظ الجلالة "الله" وليس مع لفظ "الربّ". قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا**﴾(المائدة:106). وقال سبحانه:﴿**فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا**﴾(المائدة:107). وذلك ليختلف قَسَم الله تعالى عن قَسَم العباد، وليكون قَسَمهم عبادة لله، وإذعاناً لمشيئته، لا لشيء آخر. أما قسَمُ الله فهو قَسَم قدرة واستطاعة.

---

[1] - فاضل السامرائي، معاني النحو، ج4، ص139.

[2] - أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تح: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط5، ص7.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص29.

[4] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج11 ، ص7025.

[5] - المرجع نفسه، ج27، ص330.

ب - **رَبّ**: وقد ورد بنسبة أقل من لفظ الجلالة "الله"، ولم يرد معرفاً "بِاَلْ" أبداً، إنما يُعرّف بالإضافة إلى اسم ظاهر، أو إلى ضمير. وقد ورد 42 مرة بصيغة "ربّ العالمين"، و102 مائة ومرتين بلفظ "ربّي". و111 مرة بلفظ "ربّنا". و119 مرة بلفظ "ربكم". و125 مرة بفلظ "ربّهم". و76 مرة بلفظ "ربّه". و242 بلفظ "ربّك". و9 مرات بلفظ "ربّها". و3 مرات بلفظ "ربّهما". وورد بلفظ "رب السماء"، و"رب الأرض"، و"رب المشرق والمغرب"، و"رب المشرقين ورب المغربين، و"رب المشارق"، و"رب المشارق والمغارب"، "و"رب العرش"، و"رب كل شيء"، و"رب موسى وهارون"، و"رب السماوات والأرض"، و"ربّ آبائكم الأولين"، و"رب الفلق"، "رب الناس"، و"رب الشعرى"، و"رب هذا البيت" و"رب العزة". وكأنّ هذا التنوع والتفصيل في ذكر هذه المضافات إلى المولى جل وعلا، دليل على تأكيد صفة الربوبية لكل شيء، ولكل مخلوق؛ كبيراً كان أم صغيراً، شاهداً أم غائباً، كثيراً أم قليلاً. وذلك ليؤكد مرة أخرى قدرته تعالى الكاملة التي لا يحدها شيء، ولا يقف في سبيل وقوعها وتحقيقها أحد مهما يكن شأنه.

وقد ورد لفظ "ربّ"، في موضعين اثنين، مفرداً نكرة غير مضاف إلى شيء، إنما موصوفاً، وذلك في قوله تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾ (سبأ:15). وفي قوله أيضاً:﴿**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ**﴾(يس:57- 58). أي أنّ مجموع تكرار هذا الاسم هو 889 مرة. ويرد هذا الاسم - رب - في المكي والمدني على السواء، إلاّ أن عبارة ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ ترد في القرآن المكي فقط. والآيات الدالة على ذلك كثيرة؛ منها ما يلي:﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (غافر:64)، ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(الزخرف:46)، ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(الفاتحة:2)، ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(الأعراف:61). إلخ... ما عدا قوله تعالى:﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(البقرة:131)، فهي مدنية.

وكذلك عبارة (ذِكْرٌ لِلعَالَمِين)، إذ لم ترد إلا في القرآن المكي؛ مثل قوله تعالى:﴿**مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾(يوسف:104)، ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾(ص:87 - 88)، ﴿**وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾(القلم:51 - 52)، ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾(التكوير:25 - 26 - 27)، وليس هناك آيات أخرى غير هذه الأربع.

والناظر في ترتيب نزول هذه الآيات يدرك بسهولة الفترة التي كان القرآن الكريم يكرر على مسامع الناس، أنّ هذا الوحي الذي ينزل إنما هو لكل البشر، وهي فترة متقدمة من نزول القرآن؛ فسورة القلم هي الثانية، والتكوير السابعة، ويوسف الثالثة والأربعون. وقد تكررت تلك العبارة ثلاث مرات في سورة التكوير وحدها، للدلالة في وقت مبكر على عالمية الإسلام، من قبل أن يكون لمحمد(ص) أيّ علم بما سيصير إليه هذا الدين، وفي ذلك إعجاز واضح؛ إنها نظرة استباقية للزمن، بل إنه غيب كان في علم الله، أطلعه للناس، قبل وقوعه، ولا بد من وقوعه. قال محمد الغزالي:« ولفتنا النظر إلى أنّ هذه السور جميعاً مكية بل نزل بعضها في السنة الأولى من بدء الوحي، مما يردّ أوهام

المستشرقين الذين زعموا أنّ فكرة العالمية طرأت على الرسول بعدما نجح في إخضاع العرب عسكرياً، فأغراه النصر الذي أحرزه، بأنْ يمدّ رسالته إلى الأجناس الأخرى »[1].

بل إنّ مفردة "العالمين" إذا وردت منفردة، اختصت بالخطاب المكي فقط، أو ما كان في حكمه؛ أي الآيات التي تقص أخبار الأنبياء والصالحين، ولو وردت في الخطاب المدني مثل هذه الآيات:﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾(البقرة:122)، ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾(آل عمران:33)، ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾(المائدة:20). ومعروف عند علماء القرآن أن سورتي البقرة وآل عمران تُستثنيان دوماً في الحكم على القرآن المكي والقرآن المدني. أما سورة المائدة فلأنها عرضت لقصص الأولين؛ وهو بنو إسرائيل، فأخذت حُكم القرآن المكي. وأما بقية الآيات فهي من السور المكية، مثل﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾(الأنعام:86)، ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾(الأعراف:80)، ﴿**قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾(الحجر:70)، ﴿**أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ**﴾(العنكبوت:10)، ﴿**وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾(الدخان:32).

ولم ترد مفردة "العالمين" بصيغة "عوالم"، ولا بصيغة المفرد، وفي ذلك يقول الراغب:« وأما جمعه فلأنّ من كل نوع من هذه قد يُسمّى عالَما، فيقال: عالم الإنسان، وعالم الماء، وعالم النار... وأما جمعه جمع السلامة فلكون الناس في جملتهم، والإنسان إذا شارك غيره في اللفظ غلب حكمه، وقيل: إنما جمع هذا الجمع لأنه عني به أصناف الخلائق من الملائكة والجن دون غيرها »[2]. وقال ابن عاشور:« و(العَالمين) جَمْعُ عَالَمٍ قَالُوا وَلَمْ يُجْمَعْ فَاعَلٌ هَذَا الْجَمْعَ إِلَّا فِي لَفْظَيْنِ عَالَمٌ وَيَاسَمٌ، اسْمٌ لِلزَّهْرِ الْمَعْرُوفِ بِالْيَاسَمِينَ، قِيلَ جَمَعُوهُ عَلَى يَاسَمُونَ وَيَاسَمِينَ... وَالْعَالَمُ الْجِنْسُ مِنْ أَجْنَاسِ الْمَوْجُودَاتِ، وَقَدْ بَنَتْهُ الْعَرَبُ عَلَى وَزْنِ فَاعَلٍ بِفَتْحِ الْعَيْنِ مُشْتَقًّا مِنَ الْعِلْمِ أَوْ مِنَ الْعَلَامَةِ لِأَنَّ كُلَّ جِنْسٍ لَهُ تَمَيُّزٌ عَنْ غَيْرِهِ فَهُوَ لَهُ عَلَامَةٌ، أَوْ هُوَ سَبَبُ الْعِلْمِ بِهِ فَلَا يَخْتَلِطُ بِغَيْرِهِ. وَهَذَا الْبِنَاءُ مُخْتَصٌّ بِالدَّلَالَةِ عَلَى الْآلَةِ غَالِبًا كَخَاتَمٍ وَقَالَبٍ وَطَابَعٍ فَجَعَلُوا الْعَوَالِمَ لِكَوْنِهَا كَالْآلَةِ لِلْعِلْمِ بِالصَّانِعِ، أَوِ الْعِلْمِ بِالْخَقَائِقِ. وَلَقَدْ أَبْدَعَ الْعَرَبُ فِي هَذِهِ اللَّطِيفَةِ إِذْ بَنَوْا اسْمَ جِنْسِ الْحَوَادِثِ عَلَى وَزْنِ فَاعِلٍ لِهَذِهِ النُّكْتَةِ، وَلَقَدْ أَبْدَعُوا إِذْ جَمَعُوهُ جَمْعَ الْعُقَلَاءِ مَعَ أَنَّ مِنْهُ مَا لَيْسَ بِعَاقِلٍ تَغْلِيبًا لِلْعَاقِلِ »[3].

غير أنّ الاستخدام القرآني لهذه المفردة يؤكد على أنّ مفهومها يقترب أكثر من دلالتها على المخلوقات المكلفة أصلاً؛ فآية المائدة، وآية الأنعام، وآية الأعراف، وآية العنكبوت، لتدل أيما دلالة على ما ذهب إليه الراغب في جملته الأخيرة، وما أورده ابن عاشور كذلك.

---

[1] - محمد الغزالي، الحق المرّ، دار الشروق، د. ط، د. ت، ص142.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص117 - 118.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص168.

ونشير - هنا مرة أخرى - إلى أنّ القرآن الكريم يستخدم صيغة معيّنة للفظ ما، أو يورد مفردة بذاتها، والناس يستخدمون غيرهما. فإنّ المتعارف عليه في مختلف العلوم أنّ الباحثين يستخدمون مصطلح "عوالم"، وليس "عالمون". وحتى وإن كان توظيف "عالمون" من باب تغليب العاقل على غير العاقل، فإنّ الناس يعتمدون مصطلح "عوالم". أمّا الاستخدام القرآني فآثر صيغة "عالمون"، لكون جمع السالم هو الأصل في الجموع، ولا يعدل عنه إلى غيره إلا في حالة عدم تمكنه من أداء المعنى المقصود بدقة كافية، أو لأنه ورد لعلة التغليب كما قيل.

ومعنى هذا الاستخدام، أيضاً، أنّ القرآن الكريم قد خصّ مصطلح "العالمين" بالخطاب المكي، وحتى إن وردت بعض الآيات في العهد المدني، إلاّ أنّ حكمها حكم القرآن المكي. وفي ذلك دلالة واضحة على أنّ هذا الدين عام لكل الناس، بل للإنس والجن على السواء.

والسبب في عدم ورود اسم "رَبّ" معرّفاً بأل التعريف أنه كلمة« لا يظهر معناها إلا بإضافتها إلى غيرها... ثم لأن استعمالها بصيغة التعريف أصبح مصطلحاً في لغة النصارى يعني أحد أفراد العائلة المقدسة الثلاثة في زعمهم»[1]. أما في العهد القديم فكانت كلمة "الرب" ترد بكثرة، وفي مواطن متعددة. ولهذا الاسم متعلقات لفظية تقترن به، وتجعله متميزاً عن اسم "الله"، ومنها ما يلي:

– اتصاله بأداة النداء، التي عادة ما تحذف إذا كان النداء من العباد إلى الله، إلاّ في موضعين من كل القرآن، وتثبت الأداة دوماً إذا كان النداء من الله تعالى إلى العباد. فمن النوع الأول نجد - على سبيل التمثيل - الآيات التالية: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾**(البقرة:126). **﴿قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾** (آل عمران:35)، **﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾**(الأعراف:143)، **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾**(هود:47)، **﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾**(يوسف:33)، **﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**(الأعراف:23)، **﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**(الأعراف:47). وغير ذلك كثير ومطّرد في الخطاب المكي.

وقد تفطن باحث معاصر، إلى أنّ لفظ "رب" لا يأتي مسبوقا بحرف "يا" إلا في موضع واحد هو:**﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾**(الزخرف:88 - 89)، وأغفل الآية الأخرى وهي **﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾**(الفرقان:30). وقد فسّر ذلك بتفسير جميل، إلا أننا نراه غير كافٍ لأنه اعتمد زاوية واحدة، هي حالة الرسول المتعبة من هداية قومه دون نتيجة، وكان يمكن رؤيته من زاوية نحوية؛ وهي أنّ النداء في هذه الآية لم يرد في سياق الطلب، أو ما يسمى في البلاغة بالإنشاء الطلبي، إنما ورد في سياق الإخبار عن حالة النبي (ص)، عن طريق الإنشاء غير الطلبي، وكذلك الشأن في آية الفرقان. بمعنى أنّ – في أسلوب النداء – عادة ما يطلب المنادي من المنادى فعل أمر، أو اجتناب آخر، وهي الحال التي تطّرد في النداء في كل

[1] - عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغتيْ الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ص121.

آيات القرآن[1]. أما في هاتين الآيتين فلم يكن وراء النداء طلب معيّن، إنما فيهما بث شكوى وتأسف لا غير. وفي مثل هذه الحالات يحتاج المرء إلى مدّ نَفَسه وإطالته دليلاً على التأوه، والتألم، فاستُعين على ذلك بياء النداء. أو لأنّ المنادي نفسه استخدم ياء النداء في كلامه، والقرآن الكريم نقل حديث المتكلم وترجمه بحقيقة ألفاظه.

وقد لاحظ هذا الباحث أن القرآن لم يستخدم من أدوات النداء إلا (يا)، ولاحظ أنها تحذف أحيانا دون أن يحدد الآلية في ذلك، والآلية - كما نراها - هي أن تقع أداة النداء بعد جملة خبرية أو إنشائية؛ مثل قوله تعالى: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾(يس:59). وقوله:﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ**﴾ (الواقعة:51 - 52). وذلك لأنّ النداء« وإن كان طلباً إلاّ أنه ليس هو غاية الطلب في الخطاب العربي، وهذا ما يدعو لتأمل الغرض المسلتزم لاستجلاب النداء - وهو أسلوب طلبي - لخدمة أسلوب طلبي آخر. وعلى هذا فإنّ النداء في القرآن الكريم يراد به معنى يدعم الطلب المشتمل عليه سياق الخطاب »[2]. ومعنى ذلك أنّ أسلوب النداء ليس مطلوباً لذاته، إنما المقصود به هو ما يأتي بعد النداء، فهو كالمقدمة للموضوع؛ ننادي شخصاً ما لنلقي إليه خبراً أو أمراً أو نهياً أو التماساً، أو غيرها من المعاني والمشاعر والطلبات. وهذا الذي تقرره كل أساليب النداء في الكلام العربي. فالنداء في التعريف النحوي« هو: توجيه الدعوة إلى المخاطب، وتنبيه للإصغاء، وسماع ما يريده المتكلم »[3]. أو هو « طلب الإقبال بالحرف: "يا" أو أحد إخوته، والإقبال قد يكون حقيقيا، وقد يكون مجازيا يراد به الاستجابة كما في نحو: "يا أللّه" »[4]. والأكثر أن يكون النداء لغرض آخر بعده، يلقيه المتكلم للسامع، أو للمتلقي قصد إبلاغه رسالة معيّنة، بحيث لا يُكتفى بأسلوب النداء المجرد؛ فلا يقول المخاطِب: يا أيها الشعب! ثم يسكت، إنما الأهم هو ما يأتي بعد النداء، والذي قد يكون مجرد إلقاء خبر، لغرض ما، أو يكون طلباً صريحاً من أنواع الطلب الكثيرة.

وذهب بعضهم إلى مثل هذا التخريج فقال:« وعلى كثرة ما نودي الرب في القرآن لم أعثر عليه مسبوقاً بأداة النداء إلا في تلك الآية الكريمة ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف:88 - 89). وألمح في المجيئ بحرف النداء هنا خاصة تعبيراً عن حالة نفسية ألمّت بالرسول، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم فأطبق الهمّ على فؤاده، وكأنما شعر بتخلي الرب عن نصرته، وبعده عن أن يمدّ إليه يد المساعدة فأتي بحرف النداء، كأنما يريد أن يرفع صوته، زيادة في الضراعة إلى الله، واستجلاب رضاه »[5]. وهو تخريج مقبول ومنطقي، لاسيما إذا عرفنا أن القرآن في هذا الموضع يكون قد نقل قول القائل - وهو الرسول (ص) - كما تلفظ به هو نفسه، دون أن يتصرف فيه، إنه نقل أمين لما نطق به صاحبه.

---

[1] - يراجع: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص135 - 136.

[2] - ظافر بن غرمان العمري، مجازات النداء وحقيقته وأغراضهما في الخطاب القرآني، جدّة، السعودية، ع6، 1426 هـ، ص162.

[3] - عباس حسن، النحو الوافي، ج4، دار المعارف، مصر، ط15، ص1.

[4] - المرجع نفسه، ج4 ، ص1. والمقصود بـ"يا أللّه"؛ استجب، أو تقبّل.

[5] - أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، نهضه مصر - القاهرة، 2005، د ط. ص131.

- عدم وروده معرّفاً بأل مطلقاً؛ فلا يقال "الرب" في القرآن الكريم كله. قال ابن منظور:« الرَّبُّ يُطْلَق فِي اللُّغَةِ عَلَى المالكِ، والسَّيِّدِ، والمدَبِّر، والمرَبِّي، والقَيِّم، والمنْعِم؛ قَالَ: وَلَا يُطلَق غيرَ مُضافٍ إِلّا عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وإِذا أُطْلِق عَلَى غيرِه أُضِيفَ، فقيلَ: ربُّ كَذَا »[1]. ولكن لفظ "الرب" معرّفاً "بال"، يرد في الحديث النبوي، كقوله (ص):« الصدقة تطفئ غضب الرب »[2]، ويرد عند الكُتّاب كقول العز بن عبد السلام:« وقد يكون بين محلّي الحقيقة والمجاز تعلقات متنوعة يصح التجوز بكل واحدة منها على ما سنذكره في صفات الرب سبحانه وتعالى »[3]. وكقول الشعراوي:« إن العبد يحب الرب بالإيمان، والرب يحب العبد بالتكليف »[4]. ومثله كثير في كلام الكُتّاب والمؤلفين والعلماء على اختلاف مشاربهم.

أما في العهد القديم فنجد هذه الصيغة واردة بكثرة؛ مثل:« أيها الرب سيّدنا ما أعظم اسمك في كل الأرض وقد جعلت جلالك فوق كل السماوات »[5]، ومثل« يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات »[6]، ومثله« وكانت وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله »[7]. ولعل هذا اللفظ صار كالمصطلح، خاصاً بلغة أهل الكتاب وفكرهم وعقيدتهم، فلا يصح أن ينصرف استخدامه إلى أهل القرآن وفكرهم وعقيدتهم، والله أعلم.

– اتصاله بلفظ "التسبيح"؛ إذ لا يقول التعبير القرآني: سبّحْ اسم الله، أو باسم الله، إنما يقول: سبّحْ باسم ربّك، أو: سبّحْ اسمَ ربّك، إلا إذا كان الفعل ماضياً أو مضارعاً، فتنقلب الآية لتصبح: سبَّحَ لله، ويُسبّحُ لله أكثر استخداماً. ولا يقول: سبّحَ للرب، أو: يُسبّحُ للرب. أما المصدر "سبحان" فيصلح للأمرين معاً، وإن كان اقترانه بلفظ "ربّ" أكثر. وقد يجمع بينهما كما في قوله تعالى:﴿**فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(النمل:8). و﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾(الأنبياء:22).

وإذا كان التسبيح مضافاً إلى لفظ "حمد"، فإنه لا يكون متبوعاً إلا بمصطلح "رب"، فلا يقول: سبّح بحمد الله أبداً. قال تعالى:﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾(البقرة:30). ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**﴾(الحجر:98). ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**﴾(طه:130). ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾(السجدة:15). ﴿**وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾(الزمر:75). ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾(غافر:7). ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾(غافر:55). ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾(الشورى:5). ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ**

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص399.

[2] - حمزة محمد قاسم، منار القاري بشرح مختصر صحيح البخاري، مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية، 1990، ج1، ص196.

[3] - العز بن عبد السلام، مجاز القرآن، ص21.

[4] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج2، ص755.

[5] - الكتاب المقدس، المزمور الثامن، ص58.

[6] - سفر التكوين، الإصحاح الثاني، ص3.

[7] - المرجع نفسه، الإصحاح الثاني، ص5.

طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾(ق:39). **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾**(الطور:49). **﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾**(النصر:3). وهذه هي كل المواضع التي ذكرت إضافة "الحمد" للفظ "ربّ" بهذا الشكل في القرآن الكريم.

يقول ابن عاشور في هذه المسألة:« والْخُلَاصَةُ أَنَّ كُلَّ مَقَامٍ يُقْصَدُ فِيهِ التَّيَمُّنُ وَالِانْتِسَابُ إِلَى الرَّبِّ الْوَاحِدِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ يُعَدَّى فِيهِ الْفِعْلُ إِلَى لَفْظِ اسْمِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ: وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها[هود: 41]»[1].

غير أنّ هذه العبارة لم ترد في القرآن إلا قليلاً؛ وذلك في ثلاث آيات لا غير هي:**﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** (الفاتحة:1)[2]، **﴿وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها﴾**(هود:41)، **﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**(النمل:30). وتأويل هذا الأمر هو أنّ لفظ الجلالة جاء معرّفا "بال"، لذلك أورده التعبير القرآني على حساب لفظ "رب" الذي من عادته ألاّ يرد معرّفاً بأل أبداً في كل القرآن. وتبقى عبارة "باسم الله" عنواناً لبداية الأعمال المختلفة عند المسلمين جميعاً إلى يوم القيامة، وتبقى مختلفة عن عبارات اليهود والنصارى "باسم الرب"، ويبقى معها شهودها التاريخي وشهودها الحضاري الممتدان عبر الزمان والمكان.

أما من حيث الفضاء الذي تستخدم فيه مفردة «**ربّ**»، فإنّ القرآن ينتقي هذه الكلمة« في مكان احتياج الموقف إلى الرّبوبيّة، ولا يضع غيرها من أسمائه الحسنى عزّ وجل، فقد اطّرد ذكر هذه المفردة في حال الدّعاء حيث يكون المرء في ضعف »[3]. ولذلك لا نجد إلاّ نداء "الرب"، وليس نداء الله، لأن الحاجة التي يطلبها العبد من المولى عز وجل، يطلبها منه بصفة الربوبية، لأنه بهذه الصفة يطلب المرء من الله تعالى ما شاء، لا بصفة الألوهية التي هي للعبادة، وليست لقضاء الحاجات.

وعن دلالة لفظ "**رب**"، يقول أحدهم إنها:« تتضمن مجموعة كبيرة من أسمائه تعالى وصفاته، فالرب هو السيد والمالك والمربي، وحتى يكون مربّياً، فلا بد أن يكون "رحيما" بمن يربّي، قديراً عليماً حكيماً بَرّاً رؤوفاً ودوداً كريماً لطيفاً صبوراً على أخطاء من يربّيه، غفوراً له توّاباً عليه، خبيراً بنفسه على ما انطوت عليه من قدرات ونقائص»[4]. وقد قال ابن فارس في هذا المعنى:« الرَّاءُ وَالْبَاءُ يَدُلُّ عَلَى أُصُولٍ. فَالْأَوَّلُ إِصْلَاحُ الشَّيْءِ وَالْقِيَامُ عَلَيْهِ. فَالرَّبُّ: الْمَالِكُ، وَالْخَالِقُ، وَالصَّاحِبُ. وَالرَّبُّ: الْمُصْلِحُ لِلشَّيْءِ. يُقَالُ رَبَّ فُلَانٌ ضَيْعَتَهُ، إِذَا قَامَ عَلَى إِصْلَاحِهَا »[5]

وأوضح العسكري في معرض التفرقة بين لفظيْ "ربّ" و"مالك"« أن الصّفة بِرَبّ أفخم من الصّفة بِمَالك لِأَنَّهَا من تَحْقِيق الْقُدْرَة على تَدْبِير مَا ملك فقولنا رب يتَضَمَّن معنى الْملك وَالتَّدْبِير فَلَا يكون إِلَّا مُطَاعًا أَيْضا وَالشَّاهِد قَوْله الله تَعَالَى:**﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارهم وَرُهْبَانهمْ أَرْبَابًا من دون الله﴾**؛ أَي سادة يطيعونهم وَالصّفة بِمَالك تَقْتَضِي الْقُوَّة على تصريف مَا ملك »[6]. ولذلك تكرر في القرآن لفظ "رب" أكثر من لفظ "مالك"، أو"ملك" بكثير.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1 ، ص150.

[2] - يعتبر كثير من العلماء أنّ البسملة في أول الفاتحة آية، على عكس ورودها في بقية سور القرآن.

[3] – أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص44.

[4] - محمد عادل القلقيلي، نظرات جديدة في القرآن المعجز، دار الجيل، بيروت، ط1، 1997، ص38.

[5] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص381.

[6] - العسكري، الفروق اللغوية، ص186.

وعن سر نداء "الرب" بدلاً من نداء "الله" يقول الشاطبي:« نداء العبد للرب نداء رغبة وطلب لِما يصلح شأنه؛ فأتي في النداء القرآني بلفظ "الرب" في عامة الأمر، تنبيهاً وتعليماً لأن يأتي العبد في ندائه بالاسم المقتضى للحال المدعوّ بها. وذلك أن الرب في اللغة القائم بما يصلح المربوب.. وإنما أتى قوله تعالى:﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ**﴾(الأنفال:32) من غير إتيان بلفظ "الرب" لأنه لا مناسبة بينه وبين ما دعوا به، بل هو مما ينافيه »[1].

ولكي نفهم ما يقصده الشاطبي بشكل أوضح، يجب أن نكمل الآية ليتضح ذلك، وتمام الآية هو:﴿**فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾، هذا هو الأمر المخالف للمألوف في دعاء هؤلاء القوم على أنفسهم، لأنّنا عندما ندعو الله أو الرب، فلأمر مرغوب، وليس لأمر مذموم. ومع ذلك، يمكن القول إن هذه الآية حكاية على ألسنة الكفار أنفسهم؛ أي هم الذين تلفظوا بذلك، عناداً وتحدياً، لاسيما إذا عرفنا أن عبارة "اللهم" كانت متداولة في قريش وعند العرب جميعاً تقريباً. ولا أدل على ذلك من صحيفة صلح الحديبية التي رفض سهيل بن عمرو أن يُكتب فيها: بسم الله الرحمان الرحيم، وقال: لا أعرف هذا، بل أُكتب: باسمك اللهم[2]. وكذلك الشأن فيما ورد في صحيفة المقاطعة حيث يقول ابن هشام:« فَقَامَ الْمُطْعِمُ إلَى الصَّحِيفَةِ لِيَشُقَّهَا، فَوَجَدَ الْأَرَضَةَ قَدْ أَكَلَتْهَا، إلَّا "بِاسْمِكَ اللَّهمّ" »[3].

غير أنّ محقق كتاب الموافقات، علّق على قول الشاطبي في هامش الصفحة قائلاً:« وأما الدعاء في الحديث، فالشائع فيه لفظ الجلالة، ولكلٍّ سر وحكمة »[4]. وهذا صحيح، لأنّ الحديث النبوي لا يستخدم ألفاظ اللغة بالطريقة التي يستخدمها القرآن الكريم، وكذلك فعل مع لفظ "مطر"، ولفظ "حلف"، حين استخدمهما في معناهما العام المتعارف عليه عند أصحاب اللغة، لكون الحديث النبوي غير معجز مثل أسلوب القرآن. أما السر والحكمة من هذا الاستخدام في القرآن والسنة، فلم يشر إليهما محقق الكتاب.

ونقل السيوطي قول بعضهم في موضوع النداء فقال:« قال الزمخشري وغيره: كثر في القرآن النداء بـ(يا أيها) دون غيره؛ لأن فيه أوجهاً من التأكيد، وأسباباً من المبالغة: منها: ما في (يا) من التأكيد والتنبيه، وما في (ها) من التنبيه، وما في التدرج من الإبهام في (أيّ) إلى التوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد، لأن كل ما نادى له عباده - من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية وغير ذلك، ومما أنطق الله به

---

[1] - الشاطبي، الموافقات، ج2، ص 164.

[2] - ابن هشام، السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1955، ج2، ص317

[3] - المرجع نفسه، ج1، ص376.

[4] - الشاطبي، الموافقات، ج2، هامش ص 164.

كتابه - أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ واجب عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون، فاقتضى الحال أن ينادوْا بالآكد الأبلغ »[1].

ويقول باحث معاصر:« وقد يؤتى بـ(أيّ) للتعظيم، نحو:(يا أيها الملك) (يا أيها العزيز) بخلاف ما لو قلت (يا ملك) (يا عزيز) فإنه ليس في هذا تعظيم »[2]. والغريب في هذا، أننا لا نعظّم الله باستعمال (أيها)، فلا يقال (أيها الله)، أو(يا أيها الله)، وكأنّ ما يُعظّم به المخلوق، لا يُعظّم به الخالق، أو كأنّ لفظ الجلالة في حدّ ذاته لا يقبل هذا الاقتران بين لفظ "أيها" ولفظ الجلالة. ومن جهة الدلالة والتأويل، فإنّ لفظ (أيها) واقعة بين أداة النداء والمنادى، أي هي واسطة بينهما، وليس هناك واسطة بين العبد وربّه، وإنما يناديه مباشرة؛ فيقول: يا ربّ، أو يا الله. لأن الله تعالى يقول:﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾(البقرة:286)، فلا يحتاج الأمر إلى واسطة في ذلك بين الخالق والمخلوق. والله أعلم بمراده من ذلك أولاً وآخراً.

– تحذف أداة النداء في درج الكلام، ولا تُذكر بعده إلا الأسماء مثل:﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾(يس:59). وقوله:﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(النور:31). إذ لم يقل سبحانه: يا أيها المجرمون، ولا يا أيها المؤمنون، كما لم يقل: يا مجرمون، ولا يا مؤمنون. ولا يا أيها الذين آمنوا، كما جرت العادة في أسلوب النداء.

– يكثر القسم بلفظ "**رب**"، مثل قوله تعالى:﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾(الذاريات:23). وقوله:﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾(النساء:65)، إذا كان المتكلم هو الله تعالى، أما إذا كان الكلام منقولاً عن أقوال العباد، فيستخدم القسَم مع لفظ الجلالة "**الله**". وفي ذلك تلميح إلى أنّ القسم - الصادر من الله - يجب أن يكون باسم "الرَبوبية" الذي يدل على الفعل والإرادة والتصريف في شؤون الخلق، لا باسم "الله" الذي يدل على العبودية والخضوع والانصياع.

ج - الرحمان: وهو ثالث الأسماء التي سمّى الله تعالى بها نفسه، أي بعد اسمَيْ الله والرب[3]، ولم يرد إلا معرفة في كل سور القرآن، وقد ورد 57 مرة، منها 9 مرات ورد فيها مجروراً بلام الجر؛ أي "**للرحمان**". وجُلّ الآيات التي جاء فيها هذا الاسم هي من سور العهد المكي، عدا البقرة، والرعد، والرحمان، والحشر. أما سورة الرحمان[4]، وسورة الرعد فقد رجح بعضهم أنهما مكيّتان، وموضوعهما، وأسلوبهما يدلان على ذلك أيّما دلالة. وقد ورد هذا الاسم في بداية سورة الرحمان مباشرة. ولم يرد اسم الرحمان في كل القرآن مقترنًا باسم آخر من أسماء الله الحسنى، إلا بلفظ الجلالة "**الله**"، وباسم "**الرحيم**"، أو متصلاً بحرف عطف أو غيره. ويأتي اسم "**الرحمان**" قبل اسم "**الرحيم**" دوماً، وبعد لفظ الجلالة

---

[1] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص283.

[2] - فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، ج4، ص 282 - 283.

[3] - يراجع: الجابري، فهم القرآن، ص124.

[4] - والذي يؤكد أن هذه السورة مكية ما رواه ابن هشام في السيرة النبوية من أنّ ابن مسعود كان أول من جهر بالقرآن في مكة بعد النبي (ص)، وقد قرأ سورة الرحمان. ج1، ص314. ويكرر الجابري ذلك قائلاً:« تَم الجهر بالقرآن لأول مرة عندما قام ابن مسعود قراءة سورة الرحمان في المسجد الحرام، وكبار قريش في نواديهم يسمعون ويتساءلون ». وكان ذلك في السنة الثالثة أو الرابعة من البعثة. يراجع كتابه: فهم القرآن، ج2، ص5.

"الله" كما هو واضح في البسملة، وكما هو ظاهر في قوله تعالى:﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾(الحشر:22). وقوله أيضاً:﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ (الإسراء:110).

أما ورود اسم "الرحمان" في سورة الحشر المدنية - وهي من أواسط السور نزولا، وقريبة من سورة الرحمان - فلكونه جاء في سياق ذكر مجموعة من أسماء الله الحسنى، ولم يرد منفرداً. وفي السورة تذكير بالله وبالآخرة لكل الناس؛ لاسيما المنافقون وأهل الكتاب، وذلك في مرحلة حرجة من مراحل تكوين الدولة الإسلامية، لعلّهم يرجعون عن غيّهم، فإنّ الوحي يوشك أن ينقطع عن النزول، ولن يجدوا من يذكرهم بواقعهم ومآلهم. والسورة تتحدث عن« غَرَضِ فَتْحِ قُرَى الْيَهُودِ وَمَا يَنَالُ الْمُنَافِقِينَ مِنْ جَرَّائِهِ مِنْ خُسْرَانٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »[1]. كما ضرب الله فيها لهم مثلاً للتنبيه والتعريض بتصلّبهم في الضلال، فهم لم يفهموا، ولم يتحركوا، بعد نزول هذا الكم الكبير من الآيات والسور. موظّفاً مصطلح "قرآن" معرّفاً ومسبوقاً باسم إشارة« وهذَا الْقُرْآنَ إِشَارَةٌ إِلَى الْمِقْدَارِ الَّذِي نَزَلَ مِنْهُ، وَهُوَ مَا عَرِفُوهُ وَتَلَوْهُ وَسَمِعُوا تِلَاوَتَهُ »[2]. ومن ثم أكثر من ذكر أسماء الله الحسنى، بما فيها اسم "الرحمان"، لعلّ المنافقين وأهل الكتاب يرجعون إلى الصواب.

يقول القرطبي:« وأكثر العلماء على أنّ الرحمان مختص بالله عز وجل، لا يجوز أن يسمى به غيره... وقد أنكر بعض الناس اشتقاق الرحمان لاختصاص الله تعالى به كسائر الأسماء المختصة به، ولأنه لو كان مشتقاً من الرحمة لاتّصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال: الله رحمان بعباده، كما يقال: الله رحيم بعباده »[3]. غير أنّ في هذا التخريج ثغرة؛ وهي أن صيغة "رحمان" لا تقاس هكذا بصيغة "رحيم"، لكون الأولى صفة مشبهة تدل على الامتلاء الشخصي من الشيء، مثل شبعان، ونعسان، ويقظان. ومن ثمّ لا تستطيع أن تتعدى بنفسها إلى الآخرين، لأنها مشتقة من فعل لازم، أما الصيغة الثانية فصيغة مبالغة يمكنها أن تتعدى إلى الآخرين، لأنها مشتقة من فعل متعدّ. وعلى هذا، يكون معنى "الرحمان" الممتلىء رحمة في ذاته، أو « ذو الرحمة لا نظير له فيها »[4]، وليس ذلك إلا لله تعالى، كما يقرر ذلك كل العلماء. أما رحيم فهو هذا الرحمان ذاته الذي يكثر من الرحمة بعباده.

ويقول أبو هلال العسكري في ذلك:« الرَّحْمَن على مَا قَالَ ابْن عَبَّاس أرقّ من الرَّحِيم يُرِيد أَنه أبلغ فِي الْمَعْنى لِأَن الرقة والغلظة لَا يُوصف الله تَعَالَى بهما وَالرَّحْمَة من الله تَعَالَى على عباده وَنعمته عَلَيْهِم فِي بَاب الدّين وَالدُّنْيَا»[5]. وقال في موضع آخر:« فَأَما قَوْلهم لمسَيْلمَة رحمان الْيَمَامَة فشيء وَضعه لَهُ أَصْحَابه على وَجه الْخَطَأ كَمَا وضع غَيرهم اسْم الإلهية لغير الله. وَعِنْدنَا أَن الرَّحِيم مُبَالغَة لعدوله وَأَن الرَّحْمَن أَشد مبالغة فَكلما كَانَ أَشد عُدُولًا كَانَ أَشد

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص116.

[2] - المرجع نفسه، ج28، ص116.

[3] - القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط1، 1995، ص63 - 64.

[4] - المرجع نفسه، ص66.

[5] - العسكري، الفروق اللغوية، ص195 - 196.

مُبَالغَة»[1]. وقد يكون هذا التصرف من باب التنوع في أسماء الله الحسنى، لدلالات مختلفة، كما في الغفور والغفّار، والعليم والعلاّم، والقدير والمقتدر. إلاّ أنّ ابن عاشور يرى في تسمية مسيلمة برحمان، لغلوّ أصحابه في الكفر[2].

ويقول ابن جماعة عن سبب إيراد اسم الرحمان قبل اسم الرحيم:« لمّا كانت رحمته في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين: قدّم (الرحمن). وفى الآخرة دائمة لأهل الجنة لا تنقطع قيل: الرحيم ثانيا. ولذلك يقال: رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة »[3]. وكأنّ ذلك إعلان عن عظم شأن اسم "الرحمان" مقارنة باسم "الرحيم"، وقد خُصِّص لاسم الرحمان سورة كاملة، وليس هناك سورة أخرى بأحد أسماء الله الحسنى غيرها. وقال ابن عاشور:« وَتَقْدِيم الرَّحْمَن عَلَى الرَّحِيم لِأَنَّ الصِّيغَةَ الدَّالَّةَ عَلَى الِاتِّصَافِ الذَّاتِيّ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ فِي التَّوْصِيفِ مِنَ الصِّفَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَثْرَةِ مُتَعَلَّقَاتِهَا »[4].

ويقول أبو عبيدة:« "الرّحمن" مجازه ذو الرحمة، و"الرّحيم" مجازه الراحم، وقد يقدّرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد، وذلك لاتّساع الكلام عندهم، وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونديم »[5]. ويقول الزركشي: «والإضافة بذي أشرف من الإضافة بصاحب »[6]. ومن ثمّ، قال تعالى عن نفسه: ذو الرحمة وليس صاحب الرحمة. ولكن صيغة "رحمان" تختلف عن صيغة "رحيم"، فالأولى صفة مشبهة[7] على وزن فعلان، أما الثانية فصيغة مبالغة على وزن فعيل، وقد تكون صفة مشبهة كذلك« وَيُنْسَبُ إِلَى قطرب أَن الرَّحْمَن وَالرَّحِيمَ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ مِنَ الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَجُعِلَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا فِي الْآيَةِ مِنْ قَبِيلِ التَّوْكِيدِ اللَّفْظِيِّ »[8]، ولا بد من فرق- ولو طفيفاً- بينهما في الدلالة. وقد اقترب ابن عاشور من هذا التخريج، وإن قلَب المسألة حين نسب ذو الرحمة إلى الرحيم، فقال:« وَعَدَلَ عَنْ أَنْ يُوصَفَ بِوَصْفِ الرَّحِيمِ إِلَى وَصْفِهِ بِأَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ: لِأَنَّ الْغَنِيَّ وَصْفٌ ذَاتِيٌّ لِلَّهِ لَا يَنْتَفِعُ الْخَلَائِقُ إِلَّا بِلَوَازِمِ ذَلِكَ الْوَصْفِ، وَهِيَ جُودُهُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُ لَا يَنْقُصُ شَيْئًا مِنْ غِنَاهُ، بِخِلَافِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ فَإِنَّ تَعَلُّقَهَا يَنْفَعُ الْخَلَائِقَ، فَأُوثِرَتْ بِكَلِمَةِ ذُو لِأَنَّ ذُو كَلِمَةٌ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْوَصْفِ بِالْأَجْنَاسِ، وَمَعْنَاهَا صَاحِبُ، وَهِيَ تُشْعِرُ بِقُوَّةِ أَوْ وَفْرَةِ مَا تُضَافُ إِلَيْهِ، فَلَا يُقَالُ ذُو إِنْصَافٍ إِلَّا لِمَنْ كَانَ قَوِيَّ الْإِنْصَافِ، وَلَا يُقَالُ ذُو مَالٍ لِمَنْ عِنْدَهُ مَالٌ قَلِيلٌ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْوَصْفِ بِذِي الرَّحْمَةِ، هُنَا تَمْهِيدٌ لِمَعْنَى الْإِمْهَالِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ »[9].

---

[1] - العسكري، الفروق اللغوية، ص196.

[2] - يراجع، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص172.

[3] - بدر الدين بن جماعة، كشف المعانى فى المتشابه من المثانى، تح، عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1990 ، ص85.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص172.

[5] - أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تح: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة، د. ط. 1981، ص21.

[6] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص162.

[7] - هي صفة مشبهة في عرف النحاة، غير أنها تدل على المبالغة كذلك، إنما أخرجها النحاة من دائرة صيغ المبالغة لاختلاف وظيفتهما الإعرابية.

[8] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص172.

[9] - المرجع نفسه، ج8، ص86.

وفي قول أبي عبيدة بأنّ اسم "الرحمان" مأخوذ من ذي الرحمة، - وقد قال تعالى:﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ**﴾ (الأنعام:133)، وقال أيضاً:﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ**﴾(الكهف:58) - واسم "الرحيم" من الراحم، دليل على ما ذهبنا إليه، فهو لم يجعل الاسمين من مشتق واحد؛ هو اسم الفاعل "راحم"، مع العلم أنّ كليهما مشتق من فعل ثلاثي هو "رحم". والأصل الذي عرفناه من عادة القرآن في التعبير، أن يجعل صفة الرحمان مقترنة بصفة القوة والقهر والعذاب أحياناً، والآية التالية لآية {**ذُو الرَّحْمَةِ**} هي ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ**﴾، التي نلمس فيها نوعاً من الشدة، والغلبة والجبروت، ومثلها آية سورة الكهف{**ذُو الرَّحْمَةِ**} المتبوعة بقوله تعالى:﴿**لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ**﴾. ومعلوم في عُرف النحاة أن صيغة المبالغة محوّلة عن اسم الفاعل، أما الصفة المشبهة فليست كذلك.

ويضيف ابن جماعة قائلاً:« (الرحمن الرحيم). وأحسن ما يقال مما لم أقف عليه في تفسير: أن (فعلان) صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمه، والامتلاء منه، ولا يلزم منه الدوام لذلك، كغضبان، وسكران، ونومان. وصيغة (فعيل) لدوام الصفة، ككريم، وظريف. فكأنه قيل: العظيم الرحمة، الدائمها. ولذلك: لما تفرّد الرب سبحانه بعظم رحمته لم يسمّ بالرحمن وبالألف واللام غيره »[1].

وهذا الاسم، لا يتسمّى به الناس منفرداً، إنما يرد مضافاً إليه دائماً، فيقال "عبد الرحمان" لا غير. ولا يقال هذا ابني "الرحمان"، أو ذاك ولدك "رحمان". وهو« اسم مخصوص بالرب تعالى. والعرب عرفته، ولم يُسمَّ به غير الله إلا "رحمن اليمامة" ولكن بغير حرف التعريف. فكلمة "الرحمن" لم يعرفوا بها إلا الله تعالى »[2]. ودلالة ذلك أنّ« الرحمن اسم لله تبارك وتعالى لا يدعي به غيره، والرحيم صفة. لأن العرب تقول كن بي رحيما ولم تقل كن بي رحمانا. وفي القرآن الكريم دليل على هذان وهو قوله عز وجل﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ فالله اسم ليس لأحد فيه شركة وكذلك الرحمن »[3]. وأكّد ابن عاشور ذلك فقال:« وَقَدْ ذَكَرَ جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ أَن وصف الرَّحْمَن لَمْ يُطْلَقْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِ صِفَةً لِلَّهِ تَعَالَى »[4]. وأضاف قائلاً:« وَقد ذكر الرَّحْمَن فِي سُورَةِ الْمُلْكِ بِاسْمِهِ الظَّاهِرِ وَضَمِيرِهِ ثَمَانِيَ مَرَّاتٍ مِمَّا يُفِيدُ الِاهْتِمَامَ بِتَقْرِيرِ هَذَا الِاسْمِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ فَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ تُنُوسِيَ فِي كَلَامِهِمْ، أَوْ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ »[5].

وورد في ظلال القرآن ما يلي:« ووصفه - سبحانه - في البدء بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها وحده باجتماع هاتين الصفتين.. وهو المختص كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن. فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن. ومن باب أولى

---

[1] - ابن جماعة، كشف المعانى فى المتشابه من المثانى، ص85.

[2] - عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن (نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية)، ص185.

[3] - عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغتيْ الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ص108.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص172.

[5] - المرجع نفسه، ج1، ص172.

أن تجتمع له الصفتان »[1]. وواضح هنا أنّ سيد قطب لا يشرح لفظة "الرحمان" شرحاً علمياً إجرائياً، إنما بناء على اعتقاده - من الناحية الانطباعية، أو من التوجّه الصوفي - بعدم جواز إطلاق هذا اللفظ على العباد.

ويقول الجابري عن معنى "الرحمان":« أكّد جميع المفسرين أن لفظ "الرحمان" يستقي معناه الشرعي من قوله تعالى:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:156)، ولذلك لا يطلق الرحمان إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له »[2]. وربما هذا هو السبب الذي جعل هذا الاسم لا يرد إلا معرفة، وفي ذلك دلالة على أنه اسم علم لله تعالى، لا يشاركه في هذه الصفة أحد، على عكس اسم "الرحيم".

ولأحد الباحثين المعاصرين رأي طريف في معنى "الرحمان" حين يقول:« وقد لاحظت فرقاً دقيقاً وواضحاً بين {**الرحمان**} و{**الرحيم**}... فصفة الرحمان - والله أعلم - تعني المربي الذي يرحم مربّاه، لكن لا يتركه يطمع طمعاً مطلقاً في رحمته، بل يتجلى عليه بصفات جلاله وعظمته، ليوقع في نفسه الخوف منه والمهابة له، وذلك من المبادئ العامة في التربية، التي تفيد أن المربي لا بد أن يجمع بين الرحمة والهيبة، ليستطيع توجيه مربّاه التوجيه السليم »[3]. بمعنى أن هذه اللفظة تدور في فضاء خاص برهبة الله تعالى وعظمته جل وعلا في كل المواطن التي ترد فيها.

ولعل لهذا التخريج ما يبرره من آيات القرآن الكريم، إذ نجد كلمة "**الرحمان**" تطّرد مقترنة بفضاء الهيبة والعظمة والقدرة الإلهية، كما في مثل قوله تعالى:﴿**قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا**﴾(مريم:18)، ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾(مريم:45)، ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا**﴾(مريم:85)، ﴿**يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا**﴾(طه:109)، ﴿**قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ**﴾(الأنبياء:42)، ﴿**إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾(يس:11)، ﴿**أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا**﴾(يس:23)، ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾(الزخرف:36)، ﴿**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**﴾(ق:33). ولم يرد مثل هذا التعبير منسوباً إلى اسم "**الرحيم**" فيما رأينا من آيات القرآن الكريم.

د – **الرحيم**: ورد معرفة ونكرة، 95 مرة، في سور مدنية ومكية على السواء. والملاحظ أن هذا الاسم يرد مقترناً باسم آخر هو "الغفور"، وقد يكون في مواضع قليلة مقترناً باسم "التواب"، وفي آيات أقلّ يرد منفرداً. ويأتي هذان اللفظان متتابعين؛ غفور يسبق رحيم، وهما نكرتان في جلّ الآيات إذا وردا بهذا التتابع، ما عدا في سبعة مواضع؛ كلها في السور المكيّة[4]. أما في سورة سبأ فقد ورد اللفظان بتتابع مختلف؛ أي الرحيم الغفور في قوله تعالى:﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ**﴾(سبأ:2). ويردان منصوبين في مثل

[1] - سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، مجلد1، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط17 - 1412 هـ، ص22.

[2] - الجابري، فهم القرآن، ص126.

[3] - محمد عادل القلقيلي، نظرات جديدة في القرآن المعجز، دار الجيل، بيروت، ط1، 1997، ص 34.

[4] - هذه المواضع هي: يونس:107، يوسف:98، الحجر:49، القصص:16، الزمر:53، الشورى:5، الأحقاف:8.

قوله تعالى:﴿**وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾(النساء:16). وقال:﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾(النساء:29). وقال:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾(النساء:64). وقال:﴿**رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾(الإسراء:66). وقال:﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾(الأحزاب:43).

يقول ابن منظور في اسميْ "الرحمان" و"الرحيم":« الرَّحْمَنَ اسْمٌ مُخْتَصٌّ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَن يُسَمّى بِهِ غَيْرُهُ وَلَا يُوصَفَ، أَلا تَرَى أَنه قَالَ: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ؟ فَعَادَلَ بِهِ الِاسْمَ الَّذِي لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، وَهُمَا مِنْ أَبنية الْمُبَالَغَةِ، ورَحمن أَبلغ مِنْ رَحِيمٌ، والرَّحيم يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى فَيُقَالُ رَجُلٌ رَحِيمٌ، وَلَا يُقَالُ رَحْمن »[1]. و« الرحمان من أسماء الله الحسنى، وهو الذي يوصل آثار رحمته ونعمته وفضله بالفعل إلى عباده »[2].

ويقول باحث معاصر في معنى كلمة "**رحيم**" ما يلي:« أما اسمه تعالى "الرحيم" فيشير إلى رحمته تعالى، الصافية الخالية من كل شدة، لذلك نراها في معظم مواطن ورودها مقترنة بالمغفرة والتوبة، كما في قوله تعالى:﴿**وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[البقرة:128]، وقوله:﴿**وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[المزمل:20]، وقوله: ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾[هود:90] »[3]. وكأنّ هذا الاسم الذي هو صيغة مبالغة، لا يصلح أن يقترن إلا بما هو ألين وأكثر لطفاً وحناناً على إطلاقه، من غير تقييد. فإذا كان الله رحيماً، وكان رسوله رحيماً أيضاً، وكان بعض الناس رحماء، امتنع عليهم أن يصدر عنهم ما يَشقّ على العباد، أو ما يُتعبهم.

غير أنّ هناك ملاحظة أخرى مفادها أنّ لفظ "**الرحيم**" لا يأتي أبداً سابقاً على لفظ "**الرحمان**"، حيثما وردا مقترنيْن في كل المواضع من القرآن الكريم؛ وكأنّ لاسم "**الرحمان**" الأولوية في الخطاب، بما يحمله من شحنة دلالية خاصة، أو كأنه سابق في الوجود على اسم "**الرحيم**"، لما ذُكر من دلالتهما، والله أعلم بمراده من ذلك كله.

أما بقية الآيات فتغلب عليها عبارة "**غفور رحيم**"، وذلك في أكثر المواضع التي يرد فيها هذان الاسمان. يقول الجابري عن هذا الاسم ما يلي:« والذي يبدو لي من هذا الرأي الذي أوردناه، ومن استقصاء آي الذكر الحكيم، هو أن "الرحمان" اسم للذات بينما "الرحيم" اسم للفعل. ومع أن كليهما من صيغ المبالغة[4]، لكن جهة المبالغة تختلف فيهما: فالمبالغة في فعلان، مثل غضبان وعطشان، تفيد الامتلاء والغلبة، امتلاء الذات بتلك الصفة إلى الدرجة التي تجعل منها جزءاً من ماهيته، أما مبالغة فعيل، كرحيم وكريم فتفيد الكثرة والتكرار؛ تكرار فعل الرحمة والكرم. فهي إذن

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص231.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1990. ص20.

[3] - محمد عادل القلقيلي، نظرات جديدة في القرآن المعجز، ص36.

[4] - من المعروف عند الصرفيين أن وزن فعلان ليس من صيغ المبالغة، بل من صيغ الصفة المشبهة. وهذه الصيغة تدل على الامتلاء من الشيء والخلو وحرارة الباطن. ينظر في هذا الشأن: فاضل صالح السامرائي، معاني الأبنية في العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأدرن. ط2، 2007، ص78. وهذا لا يعني أن صيغة "فعلان" خالية من دلالة المبالغة، لكنها ليست دائمة ولا ثابتة في الموصوف.

من صفات الفعل »[1]. غير أنّ لفظ رحمان، ولفظ كريم ليسا من صيغ المبالغة، إنما من أوزان الصفة المشبهة. وإن كان هذا الوزن يحمل دلالة الكثرة، إلاّ أنه ليس من صيغ المبالغة، كما هو مقرر في علم الصرف. ويشترك وزن "فعيل" أيضاً مع وزن اسم المفعول من غير أن يحمل معنى المبالغة؛ مثل: صريع، وقتيل، وطريح... أي مصروع، ومقتول، ومطروح... إلخ. وخلاصة لهذا نقول: إنّ الله تعالى اشتق من مادة "رحم" أفضل صيغتين هما: رحمان ورحيم، للدلالة على صفاته الحسنى، وجلاله وجماله، بدلاً من صيغ رحّام، أو مرحام، أو رحوم، أو غيرها من صيغ المبالغة والصفات المشبهة.

وخلاصة هذا الفضاء؛ أنّ القرآن الكريم يورد أسماء الله الحسنى بمقدار وميزان، يطرّد استخدام كل اسم منها معنى، وشكلاً؛ حيثما ورد في كل سياقات الخطاب القرآني، إلا نادراً. وسؤالنا الآن هو: أيقصد بهذا التنظيم وهذه الهندسة في إيراد هذه الأسماء أن نختار نحن ما يلائم ظروفنا - عندما ندعو الله تعالى في حاجة ما - أم نستخدم أيّ اسم كان باعتبارها كلها أسماء لله تعالى؟ وذلك وفقاً لقوله تعالى:﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾(الإسراء:110). إنّ الله تعالى يطلب منا أن ندعوه بأسمائه الحسنى، فقال:﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾(الأعراف:180). فإذا كُنّا في حالة عوز ما؛ قلنا: يا رزاق، ويا واهب، وإذا كنا في حال مرض قلنا: يا شافي، ويا قدير، وفي حال الندم قلنا: يا غفور ويا رحيم ويا تواب، وهكذا. غير أنّ الدعاء باسم "اللهم" يعتبر شائعاً عند الكثير من الناس، لاسيما في القنوت، ومن ثَمّ، قلّما نجد من يدعو الله بمثل: يا مانع، أو يا مذلّ، ويا مُميت، وما شابهها.

ب - فضاء مفردات النعيم والعذاب:

ويلاحظ في هذا الفضاء أنّ مفردات الجنة والنعيم، ترد أكثر من مفردات النار والعذاب، وذلك لكون البشرى أصلاً والإنذار والوعيد فرعاً. إذ قبل أن ننذر شخصاً من أمر ضار، نبشره أولاً بالأمر النافع. ولكن القرآن ينوّع من مفردات النعيم كما ينوّع من مفردات العذاب، لأنّ أعمال الخير كثيرة ومتنوعة، وأعمال الشر كذلك، فكان لكلّ نصيبه وما يستحقه.

1 - فضاء النعيم:

له مفردات خاصة؛ أسماء وأفعال، وأكثر ما يرد منها الأسماء؛ مثل: الجنة، الفردوس، الغرفة، طوبى، عدن، قرّة أعين. وهذا التنوع وارد في الخطاب المكي على الخصوص. أما في الخطاب المدني، فيقتصر على مصطلح واحد تقريباً هو لفظ "الجنة". وقد تكرر لفظ "الجنة" مفرداً وجمعاً أكثر من لفظ "الفردوس"، الذي لم يرد إلا مفرداً. وقد ورد مرتين في سورة الكهف:107 وسورة المؤمنون:11، وورد مقروناً بلفظ "يرثون". ولفظ "الفردوس" يدل على جنة الخلد التي سيصير إليها عباد الله الصالحون، أو هو« صفة من صفات الجنة وهي البستان أو الروضة المليئة بالأشجار، كثيرة

[1] - الجابري، فهم القرآن، ص126. ونشير هنا مرة أخرى إلى أن وزن فعيل تشترك فيه صيغ المبالغة مع الصفة المشبهة ومع اسم المفعول. والمثال الذي ضربه الكاتب، وهو لفظ "كريم" ليس من صيغ المبالغة، إنما من أوزان الصفة المشبهة. لأنه مشتق من فعل لازم - مضموم العين (كرُم) - وهو شرط الصفة المشبهة. أما "رحيم" فهو صيغة مبالغة. إلا إذا نظرنا إلى المسألة من باب المجاز، فيكون هذا الاسم في معنى المبالغة لا من صيغها.

الثمار، وارفة الظلال »[1]. وقد ذكر النبي (ص) لأمته أنه من طلب الجنة من الله فليسأله الفردوس، لأنه أعلى الجنة ومنه تتفجر أنهارها.

أما مصطلح "الجنة" فقد يعني أحياناً جنان الأرض. قال ابن منظور:« والجَنَّةُ: البُسْتانُ، وَمِنْهُ الجَنّات، والعربُ تسمّي النخيلَ جنَّةً »[2]. وقال في موضع آخر:« والجَنَّةُ: الحَديقةُ ذَاتُ الشَّجَرِ وَالنَّخْلِ، وَجَمْعُهَا جِنان، وَفِيهَا تَخْصِيصٌ، وَيُقَالُ لِلنَّخْلِ وَغَيْرِهَا. وَقَالَ أَبو عَلِيٍّ فِي التَّذْكِرَةِ: لَا تَكُونُ الجَنَّة فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا وَفِيهَا نخلٌ وعنبٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا ذَلِكَ وَكَانَتْ ذَاتَ شَجَرٍ فَهِيَ حَدِيقَةٌ وَلَيْسَتْ بجَنَّةٍ »[3]. وقال ابن فارس« الْجِيمُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ [السَّتْرُ] والتَّسَتُّرُ. فَالْجَنَّةُ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ ثَوَابٌ مَسْتُورٌ عَنْهُمُ الْيَوْمَ. وَالْجَنَّةُ الْبُسْتَانُ، وَهُوَ ذَاكَ لِأَنَّ الشَّجَرَ بِوَرَقِهِ يَسْتُرُ. وَنَاسٌ يَقُولُونَ: الْجَنَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ النَّخْلُ الطِّوَالُ »[4]. ولذلك عبّر الكفار عن ذلك المفهوم حين طلبوا من الرسول (ص) أن يأتيهم بمعجزات حسية، قال سبحانه على لسانهم:﴿**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا**﴾(الإسراء:90 - 91). فقد جمع الكفار في طلبهم هذا كل ما كان معروفاً عندهم عن مفهوم الجنة؛ من نخيل، وعنب، وأنهار، وإن كانت أرضهم؛ أي مكة ليس فيها من الجنّات شيء[5].

ويأتي مصطلح "الجنة" جمعاً سالماً، نكرة في الأغلب، ولم يرد بصيغة "جنان". وورد معرفة - في حال الجمع - مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ**﴾(الشورى:22). ويقصد بمصطلح "الجنة" جنة الخلد، كما يقصد به أيضاً جنان الأرض. فإذا قُصِد به جنان الأرض أتى موصوفاً بصفات دالة على ذلك؛ مثل: صفة "معروشات". ويرتبط مصطلح "الجنة" كثيراً بلفظ "أعناب"، ولفظ "نخيل"، كما في قوله تعالى: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾(البقرة:266)، ﴿**وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ**﴾(الأنعام:99)، ﴿**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ**﴾(الرعد:4)، ﴿**واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ**﴾(الكهف:32)، ﴿**فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**﴾ (المؤمنون:19)، ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**﴾(يس:34). ولم يورد التعبير القرآني لفظ "جنات" مقروناً بالفواكه الأخرى غير العنب والنخل. أما إذا قُصِد به جنة الآخرة، فعادة ما يرد مضافاً إلى أسماء دالة على ذلك؛ مثل: النعيم، أو مضافاً إلى مصطلحات معروفة مثل: عدن، والفردوس، وكثيراً ما يرد مقترناً بعبارة كاملة هي ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾، وتدل على الفرق الذي بين جنة الآخرة وجنان الأرض.

أما مصطلح "الغرفة" فقد ورد مفرداً وجمعاً؛ قال تعالى:﴿**أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا**﴾(الفرقان:75)، وقال: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا**﴾(العنكبوت:58)، وقال:﴿**مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ**

---

[1] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص27.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص99 .

[3] - المرجع نفسه، ج13، ص100 .

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ماة (جنّ)، ص421.

[5] - ينظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص207.

UNIVERSITE SETIF2

جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾(سبأ:37)، ﴿**الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ**﴾ (الزمر:20). والغرفة« صفة من صفات الجنة وتفيد أعلى منازل الجنة وأفضلها »[1]. أو هي« الْبَيْتُ الْمُعْتَلِي يُصْعَدُ إِلَيْهِ بِدَرَجٍ وَهُوَ أَعَزُّ مَنْزِلًا مِنَ الْبَيْتِ الْأَرْضِيِّ. وَالتَّعْرِيفُ فِي الْغُرْفَةِ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ فَيَسْتَوِي فِيهِ الْمُفْرَدُ وَالْجَمْعُ... فَالْمَعْنَى: يُجْزَوْنَ الْغُرَفَ، أَيْ مِنَ الْجَنَّةِ »[2].

أما "طوبى" فهي« صفة من صفات الجنة، وهي تعني طيب الإقامة الذي لا يعلوه طيب ولا يفوقه حسن»[3]. أو هو« مَصْدَرٌ مِنْ طَابَ طِيبًا إِذَا حَسُنَ، وَهِيَ بِوَزْنِ الْبُشْرَى وَالزُّلْفَى... أَيْ لَهُمُ الْخَيْرُ الْكَامِلُ لِأَنَّهُمُ اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِالذِّكْرِ، فَهُمْ فِي طِيبِ حَالٍ: فِي الدُّنْيَا بِالِاطْمِئْنَانِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ »[4]. وهذا اللفظ ورد مرة واحدة في سورة الرعد هي قوله جل وعلا:﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾(الآية:29). هذه السورة محسوبة من القرآن المدني، وهي أقرب إلى السور المكية موضوعاً وأسلوباً.

أما اسم "عدن" فهو« صفة من صفات الجنة، تعني دار الخلود والبقاء »[5]. وقد ورد هذا المصطلح مقترناً بلفظ "جنات" دوماً؛ أي بعبارة "جنات عدن"، إذ لا يرد منفرداً أبداً، وقد تكرر إحدى عشرة (11) مرة، جلّ آياته مكية عدا آية التوبة وآية الصف. قال تعالى:﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ**﴾(التوبة:72)، ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**﴾(الرعد:23)، ﴿**وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ**﴾(ص:49 - 50)، ﴿**رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ**﴾(غافر:8).

أما الأفعال الخاصة بالنعيم فنجد منها ما يلي: يحبرون[6]، يتخيرون، يشتهون، يدعون، يشربون. يضاف إلى ذلك أسماء الأطعمة والأشربة مثل: لحم طير، فواكه، عين جارية، عسل، لبن، خمر، شراب طهور، رحيق، كافور، زنجبيل، سلسبيل. وكذلك اللباس: حرير، استبرق، سندس، أساور، لباس أخضر، وأخيراً الحور العين. والواقع في كل هذه المفردات أنها دالة على مفاهيم ظاهرة مما يفهمه العربي في بيئته، ويفهمه غيره في بيئته كذلك. ولم ترد على سبيل المجاز كما يقول بعضهم، مما جعلهم ينكرون بذلك نعيم الجنة المادي، ولا يثبتون إلاّ نعيمها الروحي.

ومن ذلك أنّ لفظ "حور عين" اعتبرها بعضهم نوعاً من النعيم المعنوي، وليس نعيما مادياً؛ أي ليس الحور العين نساء الجنة. ولكن الناظر في الآيات التي ورد فيها ذكر الحور العين من القرآن المكي خصوصاً - ما عدا سورة

---

[1] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص26.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص84.

[3] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص25.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص138.

[5] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص25.

[6] - قال الراغب الأصفهاني:« وقوله عز وجل:{في روضة يحبرون}[الروم/15]، أي: يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم » (مفردات القرآن، ج1، ص207).

الرحمان فهي مدنية[1] - يجدها فيها من الألفاظ ما يدل على أنّ الحور نساء حقيقيات ولسن شيئاً آخر. إذ يذكرهنّ بصفات المؤنث؛ مثل: كأنهنّ، أنشأناهنّ، أبكاراً، زوّجناهم، يطمثهنّ، حِسان، قاصرات الطرف. قال تعالى:﴿**كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ**﴾(الدخان:54)، ﴿**وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ**﴾(الطور:20)، ﴿**وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**﴾(الواقعة :22- 23)، ﴿**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**﴾(الرحمان:56)، ﴿**حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**﴾ (الرحمان:72)، ﴿**وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ**﴾(الصافات:48)، ﴿**وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ**﴾(ص: 52). فإن لم تكن هذه الصفات خاصة بالمرأة، أو بالأنثى فماذا ستكون إذاً؟

قال الأصفهاني:« وقوله تعالى:{حور مقصورات في الخيام}[الرحمن/72]، {وحور عين}[الواقعة/22]، جمع أحور وحوراء، والحور قيل: ظهور قليل من البياض في العين من بين السواد، وأحورت عينه، وذلك نهاية الحسن من العين »[2]. وقال ابن عاشور:« مَعْنَى زَوَّجْناهُمْ جَعَلْنَاهُمْ أَزْوَاجًا جَمْعَ زَوْجٍ ضِدِّ الْفَرْدِ، أَيْ جَعَلْنَا كُلَّ فَرْدٍ مِنَ الْمُتَّقِينَ زَوْجًا بِسَبَبِ نِسَاءٍ حُورِ الْعُيُونِ »[3]. وفي هذا تصريح بأنّ "الحور العين" نساء لا غير، وإن كنّ نساء بمواصفات خاصة لأنهن يسكنّ الجنة، لا الأرض التي نحن عليها.

وفي هذا التنوع لمفردات النعيم المخصص للمؤمنين، دليل على التكريم العظيم الذي أعدّه الله تعالى لعباده المتقين، مصداقاً لقول الرسول (ص) عن الجنة فيما يرويه عن ربه:« أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ »[4]. فمثلما كثرت أعمال الصالحين الخيرية وتنوعت، كذلك تنوع جزاؤهم ونعيمهم في الجنة، وكثُر. وكلثرة وروده في الخطاب المكي، إيحاء بطبيعة الإنسان الضعيفة والتي تحتاج إلى قوة تساعدها على تحمل مصائب الدنيا، وأن لِما يصيبه فيها تعويض لا يحصى، إنها سلعة الله، وسلعته غالية، إنها الجنة بكل ما وصفها القرآن الكريم، وبما لم يصفها كذلك.

2 - فضاء العذاب:

له مفردات خاصة؛ أسماء وأفعال، وأكثر ما يرد منها أسماء النار؛ مثل: جهنم، الجحيم، الحطمة، السعير، سقر، وأكثر هذه المفردات تكراراً هو لفظ "النار". ولم يرد جمعاً أبداً، أي بصيغة "نيران"، وكذلك الأمر في أسماء النار الأخرى[5] وهي كالتالي:

أ - **النار**: وقد وردت 129 مرة في الخطابين معاً، ووردت مقترنة باسم آخر من أسمائها، وصفاتها في قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**﴾(البينة:6)، ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ**﴾(الجن

---

[1] - سورة الرحمان مدنية، غير أن موضوعها وأسلوبها يدلان على أنها مكية. لاسيما أنّ ابن مسعود كان قد جهر بها في مكة، فناله أذى قريش.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص272.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص318.

[4] - صحيح البخاري، ج4، ص118.

[5] - ربما نستثني منها آية القمر47. بحيث ورد لفظ السعير بصيغة الجمع؛ أي سُعُر.

:23). ووردت أيضاً بمعنى نار الدنيا في بضعة مواضع، وبمعنى نار الحرب في موضع واحد. وهي« الاسم العلَم على مقر العذاب الذي أعدّه الله عز وجل لمن أشرك به وأعرض عن عبادته »[1]. أمّا أسماؤها الأخرى فاستأثرت بالخطاب المكي وحده تقريباً، وهي كالتالي:

أ – **الجحيم**: ورد هذا اللفظ 26 مرة، وجاء في تعريفه:« والجحيمُ: اسْمٌ مِنْ أَسماء النَّارِ. وكلُّ نارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْواةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. الجحيمُ النارُ الشديدة التأَجُّج ...فَهِيَ تَجْحَمُ جُحوماً أَيْ توقَّد توقُّداً »[2]. و« الجحمة: شدة تأجج النار، ومنه: الجحيم، وجحم وجهه من شدة الغضب، استعارة من جحمه النار، وذلك من ثوران حرارة القلب»[3]. والجحيم« صفة من صفات النار، شدة الحرارة ولهيب النار الحارقة »[4].

ب – **جهنم**: ورد 77 مرة، جلّ آياتها مكية، وجاء في تعريفها:« جهنم: الجِهنّامُ: القَعْرُ الْبَعِيدُ. وَبِئْرٌ جَهَنَّمٌ وجِهِنَّامٌ، بِكَسْرِ الْجِيمِ وَالْهَاءِ: بَعِيدَةُ القَعْر، وَبِهِ سُمِّيَتْ جَهَنَّم لبُعْدِ قَعْرِها »[5]. ونقل عن الجوهري قوله:« جَهَنَّم مِنْ أَسماء النَّارِ الَّتِي يُعَذِّبُ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا؛ هَذِهِ عِبَارَةُ الْجَوْهَرِيِّ وَلَوْ قَالَ: يُعَذِّبُ بِهَا مَنِ اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ مِنْ عَبِيدِهِ كَانَ أَجْوَدَ »[6]. ونلاحظ هنا كيف فرّق ابن منظور بين دلالة لفظ "عباد" ولفظ "عبيد"، حيث جعل الأول للعباد الصالحين، والثاني للعصاة، وإن لم يوضح ذلك صراحة. وجهنم كما عرّفها الأصفهاني« اسم لنار الله الموقدة »[7]، ولم يزد على هذا إلا أن ذكر أصلها الفارسي، أو العربي. وجهنّم على« الأرجح أنها كلمة غير عربية في الأصل، وهي الصفة الغالبة للنار »[8].

ج – **السعير**: يكثر في الخطاب المكي، ويرد بصيغة الاسم إلا في موضع واحد من سورة التكوير، جاء بصيغة الفعل "سُعِّرت". قال تعالى:﴿**وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ**﴾(التكوير:12). وقد جاء في معناه اللغوي:« وسَعَرَ النَّارَ وَالْحَرْبَ يَسْعَرُهما سَعْراً وأَسْعَرَهُما وسَعَّرَهُما: أَوقدهما وهَيَّجَهُما. واسْتَعَرَتْ وتَسَعَّرَتْ: اسْتَوْقَدَتْ. وَنَارٌ سَعِيرٌ: مَسْعُورَةٌ. وسُعارُ العَطَشِ: التهابُه. والسَّعِيرُ والسَّاعُورَةُ: النَّارُ، وَقِيلَ: لَهَبُهَا »[9].

---

[1] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص32.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص84.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج 1، ص172.

[4] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص16.

[5] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج12، ص112.

[6] - المرجع نفسه، ج 12، ص112.

[7] - نفسه، ج1، ص 201.

[8] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص17.

[9] - ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص365.

و« السعير صفة من صفات النار، وهي النار الموقدة الهائجة »[1]. وقد ورد هذا اللفظ 19 مرة، جلّها في الخطاب المكي، ما عدا ثلاث سور من المدني. وجاء بصيغة الاسم، كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ**﴾(القمر:47). قال ابن عاشور:« وسُعُرٍ جَمْعُ سَعِيرٍ، وَهُوَ النَّارُ، وَجَمْعُ السَّعِيرِ لِأَنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ »[2]. وقال تعالى: تعالى: ﴿**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾(الشورى:7). واستخدمه مع لفظ "جهنم" مقترنين في آية واحدة هي قوله جل وعلا:﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا**﴾(النساء:55). أما بصيغة الفعل ففي قوله سبحانه: ﴿**وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ**﴾(التكوير:12).

د - **الحطمة**: وردت مرتين في سورة الهمزة فقط، وهي« اسْمٌ مِنْ أَسماء النَّارِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا، لأَنها تَحْطِمُ مَا تَلْقى، وَقِيلَ: الحُطَمَةُ بَابٌ مِنْ أَبواب جَهَنَّمَ، وكلُّ ذَلِكَ مِنَ الحَطْمِ الَّذِي هُوَ الْكَسْرُ وَالدَّقُّ »[3]. وهي كذلك« صفة من صفات النار تحطم من يلقى فيها لشدة هولها »[4]. ووروردها في موضع واحد، وفي سورة مكية دلالة على رد فعل قويّ مساو لعمل الكفار الذين اشتدوا في عنادهم، ومحاربتهم للدين الجديد ولأصحابه. قال ابن عاشور:« وَكَلِمَةُ (كُلِّ) تُشْعِرُ بِأَنَّ الْمُهَدَّدِينَ بِهَذَا الْوَعِيدِ جَمَاعَةٌ وَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَمْزَ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْزَهُمْ دَيْدَنًا »[5]

وقد استخدم التعبير القرآني مع لفظة "الحطمة" عبارة {وما أدراك} التي استخدمها مع لفظة "سقر"؛ ولم يفعل ذلك مع أسماء النار الأخرى. وهذا التعبير يوحي بأنّ هناك شيئاً جديداً في الموضوع. قال ابن عاشور:«الْحُطَمَةُ: صِفَةٌ بِوَزْنِ فُعَلَةٍ... أَيْ لَيُنْبَذَنَّ فِي شَيْءٍ يُحَطِّمُهُ، أَيْ يَكْسِرُهُ وَيَدُقُّهُ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ اللَّامَ لِتَعْرِيفِ الْعَهْدِ لِأَنَّهُ اعْتَبَرَ الْوَصْفَ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى شَيْءٍ يُحَطِّمُ وَأُرِيدَ بِذَلِكَ جَهَنَّمُ، وَأَنَّ إِطْلَاقَ هَذَا الْوَصْفِ عَلَى جَهَنَّمَ مِنْ مُصْطَلَحَاتِ الْقُرْآنِ. وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِطْلَاقُ هَذَا الْوَصْفِ عَلَى النَّارِ »[6]. وفي ذلك توظيف خاص لهذا اللفظ، يعطيه فرادة في التعبير، وقوة في الدلالة؛ بإخراج معنى لفظ من معناه المتعارف عليه، إلى معنى آخر يفاجئ القارئ، فيحدث فيه زحزحة في مقولاته المعتادة. وفي ذلك إعجاز واضح قد فهمته العرب، ولم تعترض عليه أبدا إلا عنادا ومكابرة.

هـ - **سقر**: ورد هذا اللفظ أربع (4) مرات في سورتين مكيتين فقط هما: القمر(آية:48) والمدثر(آية:26)، ومعنى سقر « صفة من صفات النار، وهي النار الشديدة التي تلوح من فيها وتصهره وتذيبه »[7]. وجاء في مفردات القرآن الأصفهاني قوله:« سقر- من سقرته الشمس، وقيل: صقرته، أي: لوحته وأذابته، وجعل سقر اسم علم لجهنم »[8].

---

[1] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص21.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص215.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص138

[4] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص18.

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص536.

[6] - المرجع نفسه، ج30، ص540.

[7] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص21.

[8] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص482.

وما قيل عن لفظ "الحطمة"، يقال عن لفظ "سقر"، وهو أنّ التعبير القرآني لا يستخدم عبارة "وما أدراك" إلا مع هذين اللفظين من أسماء النار. فلا يقول: وما أدراك ما السعير، أو ما أدراك ما جهنم. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنّ ذينك الاسمين لم يكونا معروفين بهذه الدلالة عند العرب. ولذلك قال الراغب:« ولما كان السقر يقتضي التلويح في الأصل نبّه بقوله:{وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر}[المدثر/27 - 29]، أن ذلك مخالف لما نعرفه من أحوال السقر في الشاهد »[1]. أي مخالفة القرآن لمدلول "سقر" عما ألفه العرب من معنى متداول عندهم، لأنّ المعنى اللغوي للفظ "سقر" هو« إِحْرَاقٍ أَوْ تَلْوِيحٍ بِنَارٍ. يُقَالُ سَقَرَتْهُ الشَّمْسُ، إِذَا لَوَّحَتْهُ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ سَقَرَ. وَسَقَرَاتُ الشَّمْسِ: حَرُورُهَا »[2]. و« السَّقْرُ: البُعْدُ. وسَقَرَته الشمسُ تَسْقُرُهُ سَقْراً: لوَّحَتْه وَآلَمَتْ دِمَاغَهُ بِحَرِّهَا. وسَقَرَاتُ الشَّمْسِ: شِدَّةُ وَقْعِها. وَيَوْمٌ مُسْمَقِرٌّ ومُصْمَقِرٌّ: شَدِيدُ الْحَرِّ. وسَقَرُ: اسْمٌ مِنْ أَسماء جَهَنَّمَ، مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ، وَقِيلَ: هِيَ مِنَ الْبُعْدِ »[3]. وفي معنى سقر رأيان:« أَحدهما أَن نَارَ الْآخِرَةِ سُمِّيَتْ سَقَرَ لَا يُعْرَفُ لَهُ اشْتِقَاقٌ وَمَنَعَ الإِجراء التَّعْرِيفَ وَالْعُجْمَةَ، وَقِيلَ: سُمِّيَتِ النَّارُ سَقَرَ لأَنها تُذِيبُ الأَجسام والأَرواح، وَالِاسْمُ عَرَبِيٌّ مِنْ قَوْلِهِمْ سَقَرَتْهُ الشَّمْسُ أَي أَذابته »[4].

ونلاحظ في تنوع أسماء "النار" وصفاتها دليلاً على تنوع أعمال الكفار والمنافقين، إذ كل فريق من هؤلاء يتميز بسلوك خاص، وخلق معيّن. ولذلك جعل الله تعالى المنافقين في أسفل النار في قوله تعالى:﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾(النساء:145). ومعنى ذلك أنّ في النار درجات، ومنازل، وكذلك في الجنة درجات ومنازل.

أما من حيث استخدام الأفعال الدالة على العذاب، فنجد أكثرها فعل "صلي"؛ ويأتي مضارعاً وأمراً، مفرداً وجمعاً، وورد مصدراً واسم فاعل، كما في قوله تعالى:﴿**جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ**﴾(إبراهيم:29)، ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا**﴾(الإسراء:18)، ﴿**ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا**﴾(مريم:70)، ﴿**وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**﴾(الواقعة: 92- 94)، ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ**﴾(الحاقة:30 - 31)، ﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ**﴾ (الانفطار:14 - 15)، ﴿**ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ**﴾(المطففين:16)، ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا**﴾(الإنشقاق:10 - 12)[5].

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص482.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص86.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص372.

[4] - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[5] - حريّ- هنا - أن ننوّه بأنّ "يَصْلى" في هذه الآية هي برواية حفص، أما برواية ورش فالصيغة هي "يُصَلّى"، وذلك حتى لا يقول قائل إنّ تلك الصيغة هي الوحيدة الصالحة في هذا السياق. وعليه فالصيغتان صالحتان معاً، وهذا جزء من إعجاز القرآن الكريم.

وليس في القرآن كلّه معنى آخر للفعل "صلي" غير فضاء العذاب. وقد ورد هذا اللفظ خمس (5) مرات في سورتين مدنيتين هما؛ النساء أربع (4) مرات والمجادلة مرة واحدة، مستخدماً فيها صيغة الفعل فقط. وورد تسع عشرة (19) مرة في السور المكية، ولكن بصيغ عديدة؛ ولم يستبدله التعبير القرآني بأيّ مادة معجمية أخرى، مثل "أحرق"، أو غيرها، علما بأنّ معناه اللغوي هو« الإيقاد بالنار، ويقال: صلي بالنار وبكذا، أي: بلي بها، واصطلى بها، وصليت الشاة: شويتها، وهي مصلية »[1]. وجاء في اللسان« يُقَالُ: قَدْ صَلِيَ واصْطَلَى إِذَا لَزِمَ، وَمِنْ هَذَا مَنْ يُصْلَى فِي النَّارِ أَي يُلْزَم النارَ... وصَلَى اللَّحْمَ وغيرَهُ يَصْليهِ صَلْياً: شَواهُ، وصَلَيْتهُ صَلْياً مثالُ رَمَيْتُه رَمْياً وأَنا أَصْلِيهِ صَلْياً إِذَا فَعَلْت ذَلِكَ وأَنْت تُرِيد أَنْ تَشْوِيَه، فَإِذَا أَرَدْت أَنَّك تُلْقِيه فِيهَا إِلْقاءً كأَنَّكَ تُرِيدُ الإِحْراقَ قلتَ أَصْلَيْته، بالأَلف، إِصْلاءً، وَكَذَلِكَ صَلَّيْتُه أُصَلِّيه تَصْلِيةً »[2].

وتورد التفاسير لفظ "صلي" بمعنى الإحراق، أو بمعنى دخول النار، كما في قول ابن عاشور:« وَيَصْلَوْنَ مُضَارِعُ صَلِيَ كَرَضِيَ إِذَا قَاسَى حَرَّ النَّارِ بِشِدَّةٍ »[3]. وعند السيوطي«{وَسَيَصْلَوْنَ} بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُول يَدْخُلُونَ {سَعِيرًا} نَارًا شَدِيدَة يَحْتَرِقُونَ فِيهَا »[4]. أمّا إذا كان المقصود في الاقتراب من النار أمراً مرغوباً، ومفيداً للإنسان في حياته ومعيشته، فيعبّر عنه القرآن بصيغة أخرى هي "اصطلى"، كما في قوله تعالى على لسان موسى:﴿**قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾(القصص:29). وقوله كذلك: ﴿**إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾(النمل:7). علماً بأن مادة (صلي) تأخذ معنى واحداً في الأصل، ولو اختلف وزن الفعل، وصيغته. يقول ابن فارس:« (صَلَى) الصَّادُ وَاللَّامُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا النَّارُ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ الْحُمَّى، وَالآخَرُ جِنْسٌ مِنَ الْعِبَادَةِ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَقَوْلُهُمْ: صَلَيْتُ الْعُودَ بِالنَّارِ. وَالصَّلَى صَلَى النَّارِ. وَاصْطَلَيْتُ بِالنَّارِ. وَالصِّلَاءُ: مَا يُصْطَلَى بِهِ وَمَا يُذْكَى بِهِ النَّارُ وَيُوقَدُ »[5].

وفي الآيات المدنية التي ورد فيها لفظ "صلي"، لم يُغيّر التعبير القرآني هذا المصطلح الخاص بتعذيب الكفار - بعكس ما ورد في الآيات المكية - حيث صار يتوعد به المنافقين والخارجين على القانون، في العهد المدني. وقد يكون سبب ذلك أنّ المنافقين ليسوا بأقل كفر من المشركين المجاهرين بكفرهم، ولا أقل عناداً من أهل الكتاب، سيما اليهود. وقد قال تعالى في المنافقين:﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾(المنافقون:4)، بتعريف لفظ "العدو"، ولم يقل: هم عدوّ، للدلالة على شدة عداوتهم للمسلمين« وَالتَّعْرِيفُ فِي الْعَدُوُّ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ الدَّالِّ عَلَى مُعَيَّنٍ كَمَالِ حَقِيقَةِ الْعَدُوِّ فِيهِمْ، لِأَنَّ أَعْدَى الْأَعَادِي الْعَدُوُّ الْمُتَظَاهِرُ بِالْمُوَالَاةِ وَهُوَ مَدَّاحٌ وَتَحْتَ ضُلُوعِهِ الدَّاءُ الدَّوِيُّ »[6]. وقال أيضاً:﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾(النساء:145). فمن كانت هذه حقيقته، فما عساه يكون جزاؤه؟

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص589.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص465 - 467.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص255.

[4] - تفسير الجلالين، دار الحديث، ج1، القاهرة، ط1، د ت، ص99.

[5] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص300.

[6] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص241.

غير أنّ التعبير القرآني لم ينوّع مادة "صلي" في الخطاب المدني، كما نوّعها في الخطاب المكي، إنما أوردها بصيغة الفعل فحسب، مثل قوله عز وجل:﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾(النساء:10)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا**﴾(النساء:29 - 30)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا**﴾(النساء:56)، ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾(النساء:115)، ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا**﴾(المجادلة:8).

ويدور موضوع هذه الآيات حول الظلم الاقتصادي المؤدي إلى أكل حقوق الناس، وإلى العناد الديني والسلوك الاجتماعي المؤدي إلى إضعاف عزيمة المواطنين. وهذا من الجرائم التي تعاقب عليها كل قوانين الحضارات والمجتمعات. فلا غرو إذا كان القرآن يفعل مثل ذلك مع هؤلاء الناس، الذين هم نموذج هذا النوع الصعب المراس.

أما مصطلح "الحرق" فيُسنَد إلى أفعال البشر، أو يوصف به حريق الدنيا، إذا ورد بصيغة الفعل. وما ورد بصيغة المصدر فللدلالة على عذاب الآخرة لا غير. فالنوع الأول نجده في قوله عز وجل:﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**﴾(البقرة:266)، ﴿**وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ**﴾(طه:97)، ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ**﴾(الأنبياء:68)، ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ**﴾(العنكبوت: 24). ونجد النوع الثاني في قوله سبحانه:﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾(آل عمران:181)، ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾(الأنفال:50)، ﴿**لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾(الحج:9)، ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾(الحج:22)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾(البروج:10).

وما يستنتج من هذا كله، أنّ البشر ليس في طاقتهم إلاّ أن يعذّبوا الناس بالحرق، والذي يدوم قليلاً ثم يموت المرء المعذّب، أو يطلق سراحه. أما "صلي" ففيها قوة الفعل وتجديده، وفيها طول الزمن وامتداده، ولذلك قال تعالى: ﴿**الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا**﴾(الأعلى:12 - 13). وقال أيضاً:﴿**مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**﴾(الإسراء:97). ولم يقل: يُحرق بالنار، أو في النار. ومن ثمّ، لا يستطيع الإنسان أن يجعل غيره من الناس يصلى ناراً، أو يُصليه هو بنفسه ومقدرته نارا، إنما ذلك خاص بالخالق جل وعلا يوم القيامة في عقابه الكافرين والمجرمين والمتكبرين.

غير أن القرآن الكريم لم يكتف في بعض المواضع بذكر التعذيب على عمومه، إنما ذكر ألفاظاً وعبارات مدعّمة له، تعرف العرب مدلولاتها جيداً، مثل: يشوي، الحميم، زقوم، عين آنية، يصهر، يغلي، صديد، لا يموت ولا يحيا، وكلها وردت في القرآن المكي. وهذه الألفاظ والعبارات تصلح للكفار والمعاندين والمجرمين، ولكل من اتصف بمثل هذه الصفات، واستمرّ عليها طويلاً. فكان من الطبيعي أن يكون الجزاء من جنس العمل؛ فكما نوّع الكفار من اضطهادهم للمسلمين وغمزهم ولمزهم والاستهزاء بهم، نوّع لهم القرآن كذلك عذابهم يوم القيامة بقدر تنوع معاصيهم.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:﴿**وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ**﴾(الكهف:29). ﴿**تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ**﴾(الغاشية:5)، ﴿**مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ**﴾(إبراهيم:16)، ﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**﴾(الدخان:43- 46)، ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ**﴾(الواقعة:51- 55)، ﴿**وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا**﴾(الأعلى:11 - 13).

هذه بعض المفردات القرآنية التي وردت في الخطاب المكي، وامتاز بها، وكررها كثيرا، منتقياً عيّنات خاصة، موزعة بنسب متناهية في الدقة، نعرف سرها، أو نجهله. وذلك للدلالة على أنّ هذا القرآن ليس من صنع محمد(ص)، وللدلالة على الشهود الحضاري والتاريخي لزمن التنزيل، من دون أن ينقص ذلك شيئاً من دلالته على المستقبل أيضاً، ودلالته على الإعجاز الباهر.

وفي المبحث التالي، سنعرض لعيّنات أخرى اختص بها الخطاب المكي. ومع كثرتها أحياناً، وإنّ عدم ورودها البتة في الخطاب المدني، لدليل أيضاً على إعجاز القرآن الكريم، ودقته في اختيار ألفاظه ومصطلحاته، للدلالة على معانٍ دقيقة، توحي بأنّ قائل هذا القرآن مطّلع على كل شيء؛ مطّلع على النفوس، وعلى التاريخ، وعلى الواقع، والمستقبل. وأنه أتقن صنع كل شيء، ومن ذلك هذا القرآن؛ بألفاظه، وتراكيبه، ومعانيه.

UNIVERSITE SETIF2

المبحث الثاني: المفردة القرآنية والفضاء المعتقداتي

ينظر هذا المبحث في الألفاظ الخاصة بمعتقدات العرب في الجاهلية، تلك الألفاظ التي حفظها القرآن الكريم، وسجلها لتكون شاهداً على أقوال الكفار يوم القيامة، وفي حياتهم الدنيا كذلك. وهي ألفاظ في مجملها ذات بُعد تاريخي؛ إذ وجدت لدى كثير من الأمم السابقة، حيث كانوا يحاجّون بها أنبياءهم ورسلهم. وقد تكررت مجموعة خاصة من هذه الألفاظ، وبأكثر من تصريف، ليدل بذلك على تعنّت هؤلاء في رفضهم لدعوة الحق. وهذه الألفاظ هي: شاعر، كاهن، ساحر، مجنون، أساطير؛ وتكاد تكون الأكثر استخداماً عند العرب، والأكثر شهرة في ثقافتهم. فهم لم يستخدموا لفظة "فيلسوف" ولا مشتقاتها، لأن العرب لم يكونوا على علم بفن الفلسفة، فلم يصفوا به النبي (ص)، إنما وصفوه بما عهدوه من معارفهم آنذاك. وتنويع التعبير القرآني في اختيار هذه الألفاظ، ومشتقاتها إنما يعكس تذبذب مشركي العرب واضطرابهم في محاولتهم وصف القرآن الكريم، ووصف النبي (ص)، بغير ما هو في حقيقة الأمر.

والواقع أنّ هذه الألفاظ هي نفسها التي اتخذها الأقوام السابقون ذريعة لتكذيب أنبيائهم ورسلهم، ما عدا مصطلح "شاعر" لأنه خاص بأمة العرب؛ أصحاب البيان والبلاغة والفصاحة، وفرسان الكلام. ونجد هذه الألفاظ تتكرر باطّراد في العهد المكي، لتختفي تماماً في العهد المدني، لأنه لم تعد هناك حاجة لتلك الألفاظ، إذ بعد عشر سنين، أو أكثر، من الدعوة ونزول القرآن، صار الأمر أوضح من الشمس، ولم يعد للكفار من مسوّغ لكي يستمروا في وصف القرآن والنبي الكريم بتلك الحجج الواهية، التي فقدت تأثيرها في الناس، فتوقفوا عن قول تلك السفاهات، والاحتجاج بها، لذلك اختفت من القرآن المدني تماماً. أما العهد المكي الذي كثر فيه قصص الأولين، وتشابهت قلوب الكفار منهم، وتشابهت حججهم، وافتراءاتهم، وعنادهم، فكانت تلك المفردات دليلاً على أنهم كانوا ينهجون المنهج نفسه، ويسيرون في الطريق نفسه، ومن ثَمّ ينتهون إلى النهاية نفسها.

وقد أسمينا هذا الفضاء بهذا الاسم، لنفرق بينه وبين الفضاء العقدي، الذي يتصل بالعقيدة الصحيحة التي أقرّها الإسلام. والفضاء المعتقداتي هو ما كانت العرب، أو غيرهم من الأقوام قبلهم، تعتقده في الجاهلية، من أمور خاصة بالدين والدنيا. وما كان من أنظمتها الاجتماعية، والثقافية، والسياسية؛ كالسحر، والأساطير، والمس، والتطيّر، والجِنة، والبحِيرة، والسائبة، والحام، والوصيلة... وبعض هذه الألفاظ تكرر كثيراً في القرآن، مثل: السحر، وأساطير الأولين، ومجنون؛ وذلك لأنه كان يتردد كثيراً على ألسنة الكفار، في عنادهم ورفضهم لرسالة النبي (ص)، وصدهم الناس عنها. بينما الألفاظ الأخرى لم ترد إلا مرة أو مرتين، لأنّ الأمر لا يتطلب أكثر من ذلك، مثل: البحيرة، والسائبة، والحام، والوصيلة[1]، فقد وردت كلها في آية واحدة مدنية هي﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ**﴾(المائدة:103). وذلك في معرض تفصيل بعض الأمور التشريعية.

[1] - هذه أسماء أصناف من الأنعام كانت تترك لآلهة العرب وأصنامهم.

وإذا نظرنا إلى هذه الألفاظ المتكررة في الخطاب المكي، وجدناها ممكنة التصنيف كالتالي:

1 - **فضاء السحر**: ونجد فيه مشتقات كثيرة لهذه المادة، وهي: "سِحْر" و"ساحر" و"ساحران" و"سَحّار" و"سَحَرة" و"مسحور" و"مُسَحّرين"، و"تُسحَرون". وقد وردت مادة "سحر" ثلاثا وعشرين (23) مرة، وفي سور مختلفة، ومع أقوام وأنبياء شتى، ليدلل القرآن على أن هذا المعنى أو الاعتقاد كان منتشراً وسائداً لدى كل الأقوام، وكان الاعتراض على الأنبياء، والاحتجاج بالسحر هو السبيل الوحيد لرفض دعوتهم، ودفع الناس إلى عدم الإنصات إليهم. وقد كان هذا الأمر من أخطر التهم في أوربا المسيحية في القرون الوسطى.

ومعنى السحر هو:« الخداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع، وعلى ذلك قوله تعالى:﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ »[1]. وجاء في لسان العرب:« السِّحْرُ عَمَلٌ تُقُرِّبَ فِيهِ إِلى الشَّيْطَانِ وَبِمَعُونَةٍ مِنْهُ، كُلُّ ذَلِكَ الأَمر كَيْنُونَةٌ لِلسِّحْرِ، وَمِنَ السِّحْرِ الأُخْذَةُ الَّتِي تأْخُذُ العينَ حَتَّى يُظَنَّ أَن الأَمْرَ كَمَا يُرَى وَلَيْسَ الأَصل عَلَى مَا يُرى؛ والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ. وكلُّ مَا لَطُفَ مَأْخَذُه ودَقَّ، فَهُوَ سِحْرٌ »[2]. وجاء في المقاييس:« السِّينُ وَالْحَاءُ وَالرَّاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ مُتَبَايِنَةٌ: أَحَدُهَا عُضْوٌ مِنَ الْأَعْضَاءِ، وَالْآخَرُ خَدْعٌ وَشِبْهُهُ، وَالثَّالِثُ وَقْتٌ مِنَ الْأَوْقَاتِ... أَمَّا الثَّانِي فَالسِّحْرُ، قَالَ قَوْمٌ: هُوَ إِخْرَاجُ الْبَاطِلِ فِي صُورَةِ الْحَقِّ، وَيُقَالُ هُوَ الْخَدِيعَةُ »[3].

وقد ورد في القرآن بصيغ متنوعة هي كالتالي:

1 - 1 - صيغة "**سحّار**"في قوله تعالى:﴿**قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ**﴾(الشعراء :36-37). وهي الآية الوحيدة التي ورد فيها هذا اللفظ بصيغة مبالغة. يقول ابن عاشور:« وَالسَّحَّارُ مُرَادِفٌ لِلسَّاحِرِ فِي الِاسْتِعْمَالِ لِأَنَّ صِيغَةَ فَعَّالٍ هُنَا لِلنَّسَبِ دَلَالَةً عَلَى الصِّنَاعَةِ مثل النجّار والقصّار وَلِذَلِكَ أُتْبِعَ هُنَا وَهُنَاكَ بِوَصْفِ عَلِيمٍ، أَيْ قَوِيِّ الْعلم بِالسحرِ »[4]. غير أنّ هذا التخريج غير مقنع، لأنّ القرآن لا يستخدم المفردات إلا بميزان وبمقدار، فلماذا يعدل عن صيغة اسم الفاعل التي كررها في عدة مواضع، إلى صيغة مبالغة ليوردها في موضع واحد فقط؟ لعل الأمر راجع إلى أن المناظرة وقعت بين موسى وفرعون في قصره وأمام حاشيته، فأراد الملأ أن يكون سحرة فرعون هم الغالبين، حين استشارهم فرعون في قوله تعالى:﴿**إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾(الشعراء:34). ومن ثمّ أشاروا عليه بالبحث عن أمهر السحرة، لاسيما إذا عرفنا أنّ القرآن الكريم ينقل أقوال الآخرين نقلاً أميناً، وترجمة صادقة حقيقية. ولا يتأتى ذلك المعنى إلا باستخدام صيغة المبالغة، لأن دعوة ساحر عادي أو مبتدئ قد لا يفي بالغرض، وقد يخذل فرعون وملأه. ومعلوم في عالم السياسة أن مثل هذا الإخفاق - إن وقع - قد يُحدث اضطراباً، وتحوّلاً في الرأي العام.

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص463.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص348.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص137 - 138 .

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص125.

ومما يثير الحيرة أن هذا اللفظ قد ورد بصيغة اسم فاعل في سور أخرى متشابهة؛ في الألفاظ وفي السياق، كما في قوله تعالى:﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾(الأعراف:109- 112). فهنا قال: ساحر، بدلاً من سحّار التي وردت في سورة الشعراء.

والذي يبدو - والله أعلم - أنّ المناظرة التي كانت في مجلس فرعون وملئه، في مسألة آيات موسى عليه السلام، قد اختلف فيها الحاضرون، وأنّ القرآن الكريم يعرض لنا الواقعة من أكثر من زاوية، ومعلوم أنّ حديث القوم لم يكن مقتضباً، ولم يكن المتكلم واحداً. ولعلّ كل واحد من هؤلاء القوم قد تكلّم برأي خاص في المسألة؛ فمنهم من قال: ساحر عليم، ومنهم من قال: سحّار عليم. ثم استقر الرأي العام على أنْ يستدعوا كل من له علم بهذا الفن. ولذلك عبّر القرآن الكريم عن أصحاب هذا الفن بمفردة "السحرة"، وليس الساحرون، أو السحّارون؛ أي هو ذكر لكل من يتعاطى السحر بشكل عام.

1 - 2 - صيغة "**ساحر**": وردت إحدى عشرة مرة في قوله جل وعلا:﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأعراف:109)، ﴿**قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾(الأعراف:112)، ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ**﴾(يونس:2)، ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾(يونس:79)، ﴿**وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾(طه:69)، ﴿**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾(الشعراء:34)، ﴿**وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾(ص:4)، ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾(غافر:23 - 24)، ﴿**يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ**﴾(الزخرف:49)، ﴿**وفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾(الذاريات:38 - 39)، ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾(الذاريات:52).

1 - 3 - صغية "**ساحرون**": وردت مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**﴾(يونس:77). وهو نقل لكلام موسى عليه السلام الذي استخدم هذه الصيغة؛ اسم الفاعل للدلالة على الحدث العام لفعل السحر، من غير توظيف لأي صيغة دالة على النوع، أو الكيف.

1 - 4 - صيغة "**سحرة**": ورد هذا اللفظ ثماني مرات، معرفة ونكرة. وهذا الجمع عبارة عن اسم دال على صنف من الناس يمارسون نوعا من العمل يسمى السحر، سواء أكانوا بارعين في ذلك أم لا، وسواء أكثروا منه أم لا. وبمعنى آخر، فإن هذا النوع من الجموع لا يتصل بحركة أو حدث، وقد ورد منه في القرآن ثمانية ألفاظ كلها غير متعلقة بحرف الجر، ولا متصلة بظرف، ولا عاملة أيّ عمل[1]. والآيات التي وردت فيها لفظة "سحرة" هي:﴿**وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ**

[1] - يراجع: فاضل صالح السامرائي، معاني الأبنية في العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط2، 2008، ص133. والألفاظ المقصودة هي: بررة، سفرة، خزنة، سحرة، فجرة، ورثة، كفرة، حفظة.

UNIVERSITE SETIF2

قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ﴾(الأعراف:113)، **﴿وَأَلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾**(الأعراف:120)، **﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾**(يونس:80)، **﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾** (طه:70). **﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾**(الشعراء:38)، **﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾**(الشعراء:39 - 40)، **﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾**(الشعراء: 41)، **﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾**(الشعراء:46).

وواضح في هذه الآيات أنّ لفظ "سحرة" لم يرد جمع مذكر سالم لاسم الفاعل "ساحر"، ولا جمعاً لصيغة المبالغة "سحّار". فلم يقل: "ساحرون"، ولا "سحّارون". ولم يرد جمع تكسير بصيغة سُحّار، إنما قال:"سحرة". والسبب في ذلك - والله أعلم - أنّ الذين أُستُقدِموا لمناظرة موسى عليه السلام عن طريق السحر، لم يكونوا كلهم من المتقنين لهذا الفن، وأنّ الذي استقدمهم لم يكن في وسعه معرفة الساحر العليم من الساحر المبتدئ. وربما جُمع لفرعون كل من له شيء من هذا الفن؛ أي السحر، ليكونوا كثيري العدد عند مناظرة موسى عليه السلام ومباراته. فقد أورد الزمخشري في كشافه أنّ عددهم كان بين ثلاثين ألفاً إلى ثمانين ألفاً[1].

غير أنّ في لفظ "سحرة" دلالة أخرى تاريخية واقعية، إذ في كل مرة يذكر هذا اللفظ، يورد معه ما يدلّ به على حدث وقع فعلاً، في مكان معيّن، وزمان محدد[2]. وذلك من خلال الألفاظ الملازمة له، وهي الأفعال التالية: وجاء، وأُلقي، فجُمع، ونتّبع. وهذه الأفعال كلها متبوعة بلفظ "السحرة".

1 - 5 - صيغة **مسحور**: وردت في ثلاث آيات هي قوه سبحانه:**﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾** (الإسراء:47)، **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾**(الإسراء:101)، **﴿وقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾**(الفرقان:08).

1 - 6 - صيغة **مُسَحّرون**: وردت في آية واحدة هي قوله عز وجل:**﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾**(الشعراء:153).

1 - 7 - صيغة **يُسحَرون** وردت في آية واحدة كذلك هي قوله تعالى:**﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾**(المؤمنون:88 - 89).

ولعل في هذا التنوع الاشتقاقي لمادة "سحر"، دليلاً على حال المكذّبين المضطربة، وعلى عدم اتفاقهم على كلمة واحدة يستندون عليها. فَهُمْ في كل مرة يستخدمون لفظاً مغايراً لعلهم يغلبون، أو يؤثّرون في الناس، فمرة يتهمون النبي(ص) - والأنبياء من قبله - بأنهم ساحرون، ومرة أخرى يتهمونهم بأنهم هم المسحورون، فكيف يكون ذلك؟ إنها عادة كل مكذّب، ومشكك وعنيد، لا يفتأ يبحث عن ثغرات أخرى يدخل منها إلى عقول الناس، فيغيّر العبارات، والأقوال، والأفكار، حتى يبقى على اتصال دائم بالناس، فلا يدعهم يسمعون الحق بحرية وراحة.

---

[1] - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط3 - 1407 هـ، ج2، ص139.

[2] - يوضح القرآن الكريم أنّ ذلك حدث في يوم الزينة، عند الضحى. يراجع: سورة طه، آية 59.

2 - فضاء **الأسطورة**: كل السور التي وردت فيها هذه المفردة مكيّ، ما عدا قوله تعالى:﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾(الأنفال:31). وهي السورة الثانية نزولاً بالمدينة، وفي هذه الفترة كان الفكر الوثني لا يزال عالقاً بأذهان كثير من الناس، وكانت معتقدات العرب الخرافية ماثلة فيهم، ولا يزال عنادهم، وحججهم الواهية هي نفسها التي يجابهون بها الحق بعدما ظهر أيّما ظهور.

والجدول التالي يوضح ترتيب ورود مصطلح "أساطير" في القرآن المكي، ومنه نستنتج دلالة ذلك.

الآية	السورة	ترتيب نزولها
﴿**وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾	(الأنعام:25)	55 نزولاً
﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾	النحل:24	70 نزولاً
﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾	المؤمنون:83	74 نزولاً
﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾	الفرقان:05	42 نزولاً
﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾	النمل:68	48 نزولاً
﴿**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾	الأحقاف:17	66 نزولاً
﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾	القلم:15	02 نزولاً
﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾	المطففين:13	86 نزولاً

نلاحظ - هنا - أمرين اثنين؛ الأول ارتباط لفظ "أساطير" بلفظ "الأولين"، وذلك للدلالة على البعد الزمني العميق الموغل في الماضي لهذه الأساطير - كما زعم المشركون - بحيث يصعب على المرء التأكد من صحتها، لذلك لم يكتف القرآن بقوله "أساطير" فقط، وقد يكون ذلك نقلاً أميناً لِما تلفّظ به هؤلاء المعارضون للقرآن وآياته. ونلاحظ كذلك عدم استخدام جمع التكسير لجمع "الأولين"؛ فلم يقل: أساطير "الأوائل"، ولعل جمع المذكر السالم أسبق في الظهور، وأيسر في التوظيف من جمع التكسير. والأمر الثاني هو: كيف ركّز القرآن الركيم على فترة معيّنة من نزوله، فكرر هذه اللفظة في سور متقاربة النزول، ما عدا سورة المطففين، التي هي آخر ما نزل بمكة، وسورة الأنفال وهي من أول ما نزل بالمدينة. وكأن القرآن يردّ بذلك على المشركين في تلك الفترة الحرجة، والأشد صراعاً وتوتراً في حياة النبي

(ص) وأصحابه، وما لاقوه من عنت المشركين وعنادهم وجدالهم. فكان القرآن يتتبّع خطوات الكفار في ردود أفعالهم حيال نزول كل سورة، فهم لم يصفوا القرآن بالأساطير مرة واحدة فقط، بل مرات عديدة، والقرآن سجّل عليهم ذلك بكل أمانة. كما سجل أقوال السابقين، ليدل على أن ما يقوله العرب عن الوحي ليس أمرا جديداً، إنما هو حجة سبقهم إليها غيرهم. بل نجد شيئاً عجباً، أنْ يصادف ورود هذه اللفظة في ثاني سورة نزولاً بمكة (القلم)، وفي ثاني سورة نزولاً بالمدينة (الأنفال) كذلك. وكأن القرآن جعل لها مضماراً تسير فيه ولا تعدوه، هذا المضمار الذي عدّه بعض الدارسين هندسة قرآنية في ألفاظ القرآن الكريم، وهذا المضمار، أو هذا الفضاء جزء لا يتجزأ من إعجاز القرآن الباهر.

وفي كل هذه الآيات، لا تخرج دلالة "أساطير" عن المعنى المتعارف عليه في اللغة، ولا عن الحقيقة العرفية. إذ إنّ« الأَساطِير: الأَباطِيلُ. والأَساطِيرُ: أَحاديثُ لَا نِظَامَ لَهَا، وَاحِدَتُهَا إِسْطارٌ وإِسْطارَةٌ، بالكسر، وأُسْطِيرٌ وأُسْطِيرَةٌ وأُسْطُورٌ وأُسْطُورَةٌ »[1]. وهي« الأباطيل والأحاديث العجيبة وفي التنزيل العزيز إن هذا إلا أساطير الأولين »[2]. و«الأساطير جمع إسطارة أو أسطورة ومعناها الخرافات والترهات »[3]. يقول ابن عاشور عن الأسطورة:« الْقِصَّةَ الْمَسْطُورَةَ. وَتُفِيدُ الشُّهْرَةَ فِي مَدْلُولِ مَادَّتِهَا مِثْلَ الْأُعْجُوبَةِ وَالْأُحْدُوثَةِ وَالْأُكْرُومَةِ. وَقِيلَ: الْأَسَاطِيرُ اسْمُ جَمْعٍ لَا وَاحِدَ لَهُ مِثْلَ أَبَابِيلَ وَعَبَادِيدَ وَشَمَاطِيطَ. وَكَانَ الْعَرَبُ يُطْلِقُونَهُ عَلَى مَا يَتَسَامَرُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا مِنْ صِدْقٍ وَكَذِبٍ. وَقَدْ كَانُوا لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ التَّوَارِيخِ وَالْقِصَصِ وَالْخُرَافَاتِ فَجَمِيعُ ذَلِكَ مَرْمِيٌّ بِالْكَذِبِ وَالْمُبَالَغَةِ»[4]. وقال ابن فارس:« فَأَمَّا الْأَسَاطِيرُ فَكَأَنَّهَا أَشْيَاءُ كُتِبَتْ مِنَ الْبَاطِلِ فَصَارَ ذَلِكَ اسْمًا لَهَا، مَخْصُوصًا بِهَا. يُقَالُ سَطَّرَ فُلَانٌ عَلَيْنَا تَسْطِيرًا، إِذَا جَاءَ بِالْأَبَاطِيلِ. وَوَاحِدُ الْأَسَاطِيرِ إِسْطَارٌ وَأُسْطُورَةٌ »[5].

وفي مقابل ذلك، استخدم القرآن مصطلح "القصص"، في ستة وعشرين (26) موضعاً، ليردّ على الكفار الذين استخدموا مصطلح "أساطير"، وليدل على الفرق الشاسع بينهما، « فالقرآن هو الذي أقرّ بأفضلية القصص على الأسطورة كوسيلة لتقديم التعاليم الإلهية المتعالية والعلم الموثوق به كبديل لأساطير الأولين »[6]. فكما أن لفظ "أساطير" يدل على الأكاذيب والخرافات والأباطيل، فإن مصطلح "قصص" حقائق لا مرية فيها، فهي من عند العليم الخبير الذي لا يعزب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض.

وقد التزم التعبير القرآني هذا المصطلح في كل ما ورد في القرآن متعلقاً بنقل أخبار القدامى، فأورده بصيغة الفعل كذلك؛ ماضياً ومضارعاً وأمراً. ولم يذكر مرادفه أو نظيره أبداً؛ أي لم يذكر الفعل "حكى" ولا مصدره "حكاية" أو "حكايات"، ولم يستخدم الفعل "روى"، ولا مصدره "رواية"، أو"روايات"، وذلك لكي ينفي عن القصص القرآني

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص363.

[2] - المعجم الوسيط، ج1، مادة سطر، ص429.

[3] - سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، مجلد5، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997 - 1998، ص59.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص182.

[5] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص72 - 73.

[6] - محمد أركون، من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، دار الطليعة بيروت، ط2، 2005، ص6.

كل توهّم أن يكون من قبيل ما يعرفه الناس من خرافات وحكايات؛ فيها الصحيح والباطل، والواقعي والمتخيّل. ولذلك نجده أحياناً يردف مصطلح القصص بنعوت دالة على الحيطة والدقة، مثل: أحسن القصص، والقصص الحق... وقد استخدم هذا اللفظ في غير مفهوم نقل أخبار الماضين، كما في قوله تعالى:﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**﴾(الأنعام:57)، ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾(الأنعام:130)، ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ**﴾(الأعراف:6 - 7)، ﴿**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**﴾(الأعراف:35)، ﴿**قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**﴾(الكهف:64)، ﴿**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ**﴾(القصص:11).

أما بقية الآيات فورد فيها مصطلح "القصص" بالمعنى المتعارف عليه، قال الله تعالى:﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ**﴾(آل عمران:62)، ﴿**فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ**﴾(الأعراف:7)، ﴿**تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا**﴾(الأعراف:101)، ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(الأعراف:176)، ﴿**مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ**﴾(هود:100)، ﴿**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾(هود:120)، ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**﴾(يوسف:3)، ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا**﴾(يوسف:5)، ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾(يوسف:111)، ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ**﴾(الكهف:13)، ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ**﴾(طه:99)، ﴿**وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾(القصص:25).

3 – فضاء "**الجنون**": ويرد بصيغتين اثنتين هما: مجنون، و"به جنّة" كالتالي:

3 - 1 - **مجنون**: لقد ورد هذا اللفظ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾(الحجر:6)، ﴿**قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**﴾(الشعراء:27)، ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**﴾(الصافات:36)، ﴿**ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ**﴾(الدخان:14)، ﴿**فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾(الذاريات:39)، ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾(الذاريات:52)، ﴿**فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ**﴾(الطور:29)، ﴿**وَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ**﴾(القمر:9)، ﴿**مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾(القلم:2)، ﴿**وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾(القلم:52)، ﴿**وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ**﴾(التكوير:22).

3 - 1 - به جِنّة: ورد هذا اللفظ في قوله تعالى:﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ**﴾(الأعراف:184)، ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ**﴾(المؤمنون:25)، ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ**﴾(المؤمنون:70)، ﴿**أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ**﴾(سبأ:8)، ﴿**إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ**﴾(سبأ:46).

4 - فضاء "**الشعر**": لم يكثر المشركون من هذا اللفظ في دعواهم الباطلة عن ظاهرة القرآن الكريم، وذلك لعلمهم تمام العلم أنه ليس بشعر، إنما استخدموا هذا الوصف في مرحلة معيّنة متأخرة من نزول القرآن. وقد ذكر الشعراء في سورة تحمل اسمهم في قوله تعالى:﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**﴾(الشعراء:224)، وذلك قبل أن يصف العرب المشركون القرآنَ بأنه شعر، ثم جاء اعتراضهم بأنْ قالوا: إنه شعر أو يشبهه، وذلك في أربع سور متقاربة النزول هي قوله عز من قائل: ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**﴾(الصافات:36)، (56 نزولاً)، و﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ**﴾(الأنبياء:5)، (73 نزولاً)، و﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾ (الطور:30)، (76 نزولاً)، و﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ**﴾(الحاقة:41)،(78 نزولاً).

5 - فضاء **الكهانة**: ورد هذا اللفظ في موضعين اثنين فقط هما قوله تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ**﴾(الطور:29)، ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾(الحاقة:42). غير أنّ الملاحظ في هاتين الآيتين هو ورود لفظ "كاهن" مقترناً بلفظ "مجنون" أو بلفظ "شاعر". والسورتان اللتان ورد فيهما هذان اللفظان هما آخر ما نزل من القرآن بمكة، وهو يردّ على هذه التهم، ولذلك لم يكن بد من أن يذكر أكثر من تهمة للدلالة على تخبّط المشركين في دعواهم، وتذكيرهم بأنّ ما يتلوه الرسول (ص) ليس من قبيل هذا الذي تقولونه إطلاقاً.

والملاحظ في استخدام لفظ "شاعر"، ولفظ "كاهن"، أنهما وردا قليلاً، بل جاءا في بعض الآيات نفياً من الله تعالى لأن يكون كلامه من قبيل الشعر أو الكهانة. وذلك لأنّ العرب تعرف جيداً الفرق بين الشعر والكهانة، وبين ما نزل على النبي(ص) من وحي السماء. إنما يلبسون على غير العارفين بهذه الأمور من عامة الناس، والشعر يعرفه جلّ من يستمع إليه، أما السحر والأساطير فأمرهما أكثر صعوبة على غير المختص. ومن ثَمّ، انصرف العرب المشركون إلى التشكيك في الوحي بتشبيهه بالسحر أكثر من أية تهمة أخرى، لكونه الشبهة الأكثر انسجاماً - في رأيهم - من غيرها ليتلقّاها الناس بالقبول، ويمكن تمريرها على عقولهم بسهولة أكثر من غيرها.

والخلاصة التي نخرج بها من هذا العرض، هي أنّ القرآن الكريم شاهد على التاريخ، فشهد على ما قاله المشركون العرب، والذين سبقوهم بالكفر، فقد تشابهت قلوبهم، وأقوالهم. وجاءت هذه المفردات في فضاء جغرافي؛ مكة، وفي فضاء ثقافي؛ عقيدة الكفار ومعتقداتهم الباطلة. وهذه المفردات لا تُذكر أبداً في الخطاب المدني، لعدم جدواها. وفي المبحث التالي سنعرض لمفردات أخرى، اقتصر إيرادها على الخطاب المكي، أيضاً، إلا قليلا.

المبحث الثالث: فضاء الألفاظ الثنائية "المترادفة".

نقصد بهذا العنوان المفردات الشديدة التشابه، والتي لا تزيد عن اثنتين في غالب الأحيان؛ أي لا يمكن الزيادة عليهما بمفردة أخرى تقاربهما في المعنى بالدرجة نفسها التي تكون في المفردتين الأصليتين؛ من ذلك الثنائيات التالية: الكتاب والقرآن، الإسلام والدين، الرسول والنبي، القسَم والحَلِف، الانتظار والتربص، البنون والأبناء، اليهود وبني إسرائيل، وغيرها. والسبب في اختيار هذه الألفاظ بهذا الشكل، هو تنوع ورودها بين الخطابين المكي والمدني، فالمفردة التي ترد في القرآن المكي لا ترد في القرآن المدني، وبمعنى آخر؛ إنّ المفردة التي تذكر في العهد المكي، يستعاض بصنوها في العهد المدني، مما لفت انتباهنا إلى أنّ هناك فرقاً دلالياً في ذلك من خلال هذا الاستخدام المطّرد في القرآن الكريم.

1 - الرسول والنبي:

يستخدم القرآن الكريم مصطلحين اثنين؛ هما النبي والرسول، للدلالة على مسألة واحدة تقريباً؛ هي الرجل الموحى إليه من الله، وقد يجمع بينهما في وصف عبد من عباد الله المصطفَيْن، كما هي الحال مع محمد(ص) وآخرين. ولهذين المصطلحين تمظهرات خاصة، ومتعلقات لفظية محددة. غير أنّ توظيف التعبير القرآني لهما فيه بعض الفروق؛ فمصطلح "الرسول" كثيرا ما يرد في السور المكية، ومصطلح "النبي" يرد في السور المدنية [1]. ولا يأتي هذان اللفظان متتابعين إلا نادراً، مثل قوله تعالى:﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾(الأعراف: 157)، ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾(الأعراف: 158)، ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾(الأحزاب:40)

يقول أحد الباحثين في الفرق بين النبي والرسول:« النبي الذي يبعث لمتابعة رسالة سبقته، أو التهيّؤ لرسالة ستأتي بعده، ولكن الرسالة غير مرتبطة به، بل مرتبطة بالرسول الذي بعث بها أو سيبعث »[2]. ويذكر في الصفحة نفسها مستدلاً على صحة ما ذهب إليه، بأنّ الله تعالى قال عن محمد(ص):{خاتم النبيين} ولم يقل: خاتم الرسل، وأنّ النبي (ص) نفسه قال: لا نبي بعدي، ولم يقل: لا رسول بعدي.

قال الشريف الجرجاني:« الرسول: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام... والرسول: في اللغة: هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو بالقبض. قال الكلبي، والفراء: كل رسول نبي، من غير عكس. وقالت المعتزلة: لا فرق بينهما؛ فإنه تعالى خاطب محمدًا مرة بالنبي، وبالرسول مرة أخرى »[3]. و« النبي: من أوحي إليه بملك، أو

---

[1] - إذا ورد لفظ "الرسول" في أسلوب نداء؛ يا أيها الرسول، فلا يرد إلا في السور المكية. ويا "أيها النبي" لا يرد إلا في السور المدنية.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1990، ص31.

[3] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص110.

أُلهم في قلبه، أو نبه بالرؤيا الصالحة، فالرسول أفضل بالوحي الخاص الذي فوق وحي النبوة؛ لأن الرسول هو من أوحى إليه جبرائيل خاصة بتنزيل الكتاب من الله »[1].

والله تعالى يأمر الناس، والمسلمين على الخصوص، باتباع الرسول وطاعته وليس باتباع النبي. وتكون ألفاظ يعصي، ويشاقق، ويتبع، وما شابهها متعلقة بالرسول لا بالنبي. فلماذا؟ وحتى الكافر يوم القيامة يلوم نفسه على عدم اتباع الرسول وليس النبي كما في قوله تعالى:﴿**يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا**﴾ (الفرقان:27). ذلك لأنّ اتباع الرسول يعني اتباع أصول الدين؛ أي التوحيد الذي يقود إلى الفوز بالجنة، أما اتباع النبي فهو نوع من اتباع السنة التي ليست فرضاً قطعياً على المسلم، بل إذا فعلها جوزي، وإن لم يفعلها لا يعاقب على تركها.

والكفار قد لا ينفون عن الذين اختارهم الله واصطفاهم صفة النبوة، أو ما يشبهها، بل ينفون عنهم الرسالة، كما في قوله تعالى:﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد:43). لأنّهم اعتادوا في حياتهم الاجتماعية أن يسمعوا بالمتنبئين، أو الكهان، أو العرّافين. وقد اشتهر في الجاهلية أسماء لبعض الكهان نسبوا إلى اليمامة ونجد، مثل: الأبلق الأسدي وعجلة بن رباح، وغيرهما. قال الشاعر:

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعرّاف نجد إن هما شفياني

فقالا: شفاك الله واللهِ ما لنا مما حملت منكَ الضلوع يدان

وقال ابن منظور، والعرّاف الكاهن. واستشهد بقول عروة بن حزام:

فقلتُ لعرّاف اليمامة داوني فإنّك إنْ أبرأتني لَطبيبُ[2]

وقال أبو هلال العسكري في الفرق بين النبي والرسول:« النبي لا يكون إلا صاحب معجزة، قد يكون الرسول رسولاً لغير الله تعالى، فلا يكون صاحب معجزة، والإنباء عن الشيء قد يكون من غير تحميل النبأ، الإرسال لا يكون إلا بتحميل، والنبوة يغلب عليها الإضافة إلى النبي فيقال: نبوّة النبي؛ لأنه يستحق منها الصفة التي هي على طريقة الفاعل، والرسالة تضاف إلى الله لأنه المرسِل بها، ولهذا قال: برسالتي ولم يقل بنبوّتي، والرسالة جملة من البيان يحملها القائم بها ليؤديها إلى غيره، والنبوة تكليف القيام بالرسالة، فيجوز إبلاغ الرسالات، ولا يجوز إبلاغ النبوات»[3].

أما الأصفهاني فيقول:« النبي بغير همز، فقد قال النحويون: أصله الهمز فترك همزه، واستدلوا بقولهم: مسيلمة نبيء سوء. وقال بعض العلماء: هو من النبوة، أي: الرفعة؛ وسمي نبيا لرفعه محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله:

---

[1] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص239.

[2] - يراجع: ابن منظور، لسان العرب، مادة (عرف)، ج9، ص239.

[3] - أبو هلال العسكري. الفروق اللغوية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط6، ص268 - 269.

{ورفعناه مكانا عليا}[مريم/57]. فالنبي بغير الهمز أبلغ من النبيء بالهمز؛ لأنه ليس كل منبإ رفيع القدر والمحل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال: يا نبيء الله فقال: (لست بنبيء الله ولكن نبي الله) »[1].

وإذا سلّمنا بهذا القول، فماذا نقول عن الذين وصفهم الله تعالى بأنهم رسلٌ وأنبياءُ في الوقت ذاته؟ قال تعالى:﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**﴾(مريم:51). وقال أيضاً:﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**﴾(مريم:54). قال ابن عاشور في تفسير الآية 157 من الأعراف، منوّها بما فعله أهل الكتاب في تحريف كتابهم:« وَمِنْ نُكَتِ الْقُرْآنِ الْجَمْعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ وَصْفَيِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْيَهُودَ بَدَّلُوا وَصْفَ الرَّسُولِ، وَعَبَّرُوا عَنْهُ بِالنَّبِيءِ، لِيَصْدُقَ على أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَغَفَلُوا عَنْ مُفَادِ قَوْلِهِ مِثْلَكَ، وَحَذَفُوا وَصْفَ الْأُمِّيِّ »[2]. ومعنى هذا الكلام هو الرد على اليهود الذين اعتقدوا أن الذي سيأتي بعد موسى وعيسى عليهما السلام، إنما هو نبي فقط، وليس برسول يأتي بشرع جديد. فمحوا من كتابهم لفظ "رسول"، أبقوا لفظ "نبي"، ليوهموا الناس أن لا رسول جديد مبشّر به في كتابهم. لكنهم أغفلوا لفظ "مثلك"« وَعُلِمَ أَنَّ النَّبِيءَ رَسُولٌ بِشَرْعٍ جَدِيدٍ مِنْ قَوْلِهِ: «مِثْلَكَ» فَإِنَّ مُوسَى كَانَ نَبِيًّا رَسُولًا »[3]. إلاّ هذا لا يفسر الفرق بين المصطلحين حين يتعلق الأمر بمحمد (ص)، فهو الرسول والنبي. إنّ "الرسل الأنبياء" السابقين على محمد(ص) لهم حال خاصة بهم، أما النبي الرسول محمد(ص) فهو خاتمهم، ولذلك له خصوصيات باقية بقاء هذا الدين. وذلك ما سنفصّله في المتعلقات اللفظية للمصطلحيْن.

- **المتعلقات اللفظية لفضاء الرسالة:** يقترن بمصطلح الرسول بعض الألفاظ التي تعطيه حق التميّز عن مصطلح النبي، وذلك في الأمور التالية:

– مناداة الرسول باستخدام هذا المصطلح، لتقرير حقائق الدين الكبرى، التي إن أباها العبد كان كافراً لا محالة. يقول السيوطي:« قَالَ بَعْضُهُمْ: وَنَجِدُ الْخِطَابَ بِالنَّبِيِّ فِي مَحَلٍّ لَا يَلِيقُ بِهِ الرَّسُولُ وكذا عكسه كقوله في الأمر بالتشريع العام:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} وفي مقام الخاص:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} قَالَ وَقَدْ يُعَبَّرُ بِالنَّبِيِّ فِي مَقَامِ التَّشْرِيعِ الْعَامِّ لَكِنْ مَعَ قَرِينَةِ إِرَادَةِ الْعُمُومِ كَقَوْلِهِ:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ} وَلَمْ يَقُلْ: "طَلَّقْتَ"»[4]. ويقول باحث عن نداء الرسول:« فيا أيها الرسول: هل يشمل الأمة، نعم إنه يشملها باعتبار الأسوة، واتباعه واجب لقوله تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾، وقوله:﴿**آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾»[5].

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ج2، ص405.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص 132.

[3] - المرجع نفسه، ج9، ص132.

[4] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص111.

[5] - أحمد محمد فارس، النداء في اللغة والقرآن، دار الفكر اللبناني، ط1، 1989، ص132. والآيتان هما: الأحزاب:21، والحشر:7

ولكن القرآن الكريم لم يقل في مثل معاني هذه الآيات: يا أيها النبي؛ أي لم يطلب من محمد (ص) أن يبلّغ شيئاً من مبادئ الإسلام الكبرى باسم "الرسول". أما آية الطلاق - وهي من التشريع بلا شك - فقد وردت منسوبة إلى نداء "النبي"، وبحسب عادة القرآن في التعبير أن ترد مقترنة بنداء "الرسول". لكن القرآن الكريم عدل عن هذا، واستخدمها مع مصطلح "النبي"، فلماذا إذن؟

إن الظاهر - والله أعلم - أنّ هذا التشريع لم يرد بصيغة الأمر المباشر؛ أي لم يطلب منا القرآن أن نطلّق بداية، فالطلاق ليس أصلاً، إنما جعله فسحة ورخصة لمن ضاق عليه الأمر، واستحال استمرار الزواج. لذلك أتى به مع نداء "النبي"، وليس "الرسول".

وقد التفت الباحث في موضع آخر لفتة طيبة، حين لخّص نداء النبي في ثلاثة أقسام: قسم لا يصلح إلا للنبي، وقسم لا يصلح إلا لغيره، وقسم له ولغيره، ثم حاول تفسير بعض أنواع النداء فأورد نوعاً هو:« نداء العين والمراد به الغير كقوله:{يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين}، نداء له والمراد أمته لأنه كان تقياً وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين »[1]. غير أن مدلول الآية يوحي بمعنى آخر« فمعنى {يأيها النبي اتق الله. أي: واصل تقواك حالاً، كما فعلتها سابقاً، وواصلها مستقبلاً، فلا تنقطع عنها أبداً »[2]. وكذلك فإنّ« الأمر للنبي بتقوى الله توطئة للنهي عن اتباع الكافرين والمنافقين... وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأنّ النبي (ص) لا يقبل أقوالهم ليأسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكايد ويظهرون أنهم ينصحون النبي (ص) ويلحّون عليه بالطلبات نصحاً تظاهراً بالإسلام »[3]. لأنه قال: ولا تطع، ولو كان غير هذا لقال: اتقوا الله ولا تطيعوا، كما قال في آية أخرى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾(الطلاق:1).

غير أنّ تخريج الباحث لعدم ذكر حرف النداء مع لفظ الجلالة (الله) يبقى غير معلل علمياً بما فيه الكفاية، حين يقول:« ولم ينادِ لفظ الجلالة في القرآن، واستغنى عنه بكلمة اللهم... وأُحِسّ في كلمة (اللهم) فخامة وروعة لا أحس بهما في "يا الله"»[4]. ولا نرى في هذا التخريج سوى نوع من الانطباع الشخصي الخاص، والحكم القيمي العام، بدليل قول الباحث نفسه: "أحسّ". ولعل الفخامة التي في لفظة "اللهمّ" آتية من زيادة الميم المشددة، لأن هذه اللفظ تحتوي على كل حروف لفظ الجلالة مضاف إليها تلك الميم التي يسميها البعض ميم التعظيم. وفائدتها التأكيد على عظمة الخالق من خلال الضغط على حرف الميم المشدد الذي لا نقف عليه ساكناً، بل يجب إظهار الفتحة على الميم، لأن هذه اللفظة لا ترد في آخر الكلام عند استخدامها في جل السياقات.

ولقد سبق الشاطبي هؤلاء الباحثين في الإشارة إلى ذلك بقوله:« القرآن أتى بالنداء من الله تعالى للعباد، ومن العباد لله سبحانه؛ إما حكاية، وإما تعليماً، فحين أتى بالنداء من قبل الله تعالى للعباد جاء بحرف النداء المقتضي

---

[1] - أحمد محمد فارس، النداء في اللغة والقرآن، ص143.

[2] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج19، ص11888

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص250 - 251.

[4] - أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص131.

للبعد، ثابتاً غير محذوف... فإذا أتى بالنداء من العباد إلى الله، جاء من غير حرف [فلا تجد فيه نداء بالرب تعالى بحر] نداء ثابت بناء على أن حرف النداء للتنبيه في الأصل، والله منزّه عن التنبيه »[1]. ويقول في موضع آخر:« أكثر حروف النداء للبعيد، ومنها "يا" التي هي أمّ الباب، وقد أخبر الله تعالى أنه قريب من الداعي، خصوصاً... ومن الخلق عموماً »[2]. ولكنه لم يخبرنا عن الآيتين اللتين فيهما نداء "ربّ" الوارد من العباد إلى الله؛ أي: نداء يا ربّ.

أ - (**الطاعة والعصيان**) مصطلحان مرتبطان بالرسول خاصة لا بالنبي، لاسيما إذا وردا بصيغة فعل أمر، يقول تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾(النساء:64). وقوله:﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾(النساء:80). أما الآيات الأخرى فخطاب مكي، ورد من غير تحديد نوع الطاعة، ولا فيم تجب. إنما وردت على العموم. وفيه خطاب للأمم السابقة أيضاً. ومن الأمثلة التي ذكر فيها فعل الأمر "أطيعوا" نورد ما يلي:

– ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾(آل عمران:32). ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(آل عمران:132). ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ**﴾(النساء:59). ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾(المائدة:92). ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾(الأنفال:1). ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾(الأنفال:20). ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾(الأنفال:46). ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾(النور:54). ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(النور:56). ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾(محمد:33). ﴿**فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾(المجادلة :13). ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾(التغابن:12).

وهناك فرق بين استخدام الفعل "أطيعوا" مقترناً بطاعة الله، مع تكرار الفعل، أو عطف طاعة الله على طاعة الرسول من غير تكرار الفعل. قال ابن عاشور:« وَإِنَّمَا أُعِيدَ فِعْلُ: وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ مَعَ أَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ يُغْنِي عَنْ إِعَادَتِهِ إِظْهَارًا لِلِاهْتِمَامِ بِتَحْصِيلِ طَاعَةِ الرَّسُولِ لِتَكُونَ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنْ طَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ، وَلِيُنَبِّهَ عَلَى وُجُوبِ طَاعَتِهِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، وَلَوْ كَانَ أَمْرُهُ غَيْرَ مُقْتَرِنٍ بِقَرَائِنِ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ السَّامِعُ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ الْمَأْمُورَ بِهَا تَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللَّهِ دُونَ مَا يَأْمُرُ بِهِ فِي غَيْرِ التَّشْرِيعِ، فَإِنَّ امْتِثَالَ أَمْرِهِ كُلِّهِ خَيْرٌ »[3]. وقال الشعراوي: « الطاعة تأتي في أساليب القرآن بثلاثة أساليب «أطيعوا الله والرسول» و«أطيعوا الله وأطيعوا الرسول»، وأطيعوا الرسول فقط... الأسلوب الأول: أطيعوا الله والرسول؛ فأمر الطاعة واحد والمطاع هو الله والرسول. والأسلوب الثاني: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول. والأسلوب الثالث: أطيعوا الرسول، نعم. فالتكليفات يأمر بها الحق سبحانه وتتأكد بحديث من قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أو فعله أو تقريره، وهنا تكون الطاعة في الأمر لله وللرسول، أو أن الحق قد أمر إجمالاً والرسول عين تفصيلاً؛ فقد أطعنا الله في الإجمال وأطعنا الرسول في التفصيل فتكون الطاعة لله،

---

[1] - الشاطبي، الموافقات، ج2، ص163.

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص164.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص97.

وتكون الطاعة للرسول »[1]. ويردف قائلاً:« أو إن كان هناك أمر لم يتكلم فيه الله وتكلم الرسول فقط. ويثبت ذلك بقول الحق:{مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله}[النساء: 80]. وقوله تعالى:{وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا}[الحشر:7]. إذن فهذه تثبت أن لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة ملاحظ في التشريع: ملحظ يشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له أو أن الله قد شرع إجمالاً، والرسول عين تفصيلا »[2].

ومن ثَمّ، فإنّ الخروج عن طاعة الله وطاعة الرسول يعتبر كفراً. قال تعالى:﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾(التوبة:54). وقد أوضح بعض ما يدل على كفرهم من سلوكاتهم المخالفة لجوهر الدين وتعاليمه. وقال القرطبي في هذا المعنى:« وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ وَسَائِرَ الْفَرَائِضِ مُسْتَحِلًّا كَفَرَ، وَمَنْ تَرَكَ السُّنَنَ مُتَهَاوِنًا فَسَقَ، وَمَنْ تَرَكَ النَّوَافِلَ لَمْ يَخْرُجْ، إِلَّا أَنْ يَجْحَدَ فَضْلَهَا فَيَكْفُرُ »[3]. يقول الشعراوي:« إن نوحاً - عليه السلام - هو أول رسل الله إلى البشر، أما مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام، فكانوا أنبياء أوحى الله إليهم بشرع يعملون به، فيكونون نموذجاً إيمانياً، وقدوة سلوك طيب، يُقلِّدهم مَنْ رآهم، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقتَدِ بهم، أما إن اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر. لذلك نُفرِّق بين النبي والرسول، بأن النبي أُوحي إليه بشرع يعمل به ولم يُؤمر بتبليغه، أما الرسول فقد أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه فكلٌّ منهما مرسل، لذلك يقول تعالى: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ...} [الحج:52] »[4].

ب - **الأسوة**: أي القدوة، وترتبط بالرسول كذلك. قال تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾(الأحزاب:21). وإن وردت مقترنة برسول آخر هو إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى:﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾(الممتحنة:4). ومرة ثالثة كررت في نفس السورة بقوله تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾(الممتحنة:6).

ج - **الإضافة إلى لفظ الجلالة**: وشيء آخر يلاحظ على هذا الفضاء، هو أنّ لفظ الرسول يضاف إلى لفظ الجلالة "الله"، ولكن لفظ "النبي" لا يضاف إلى لفظ الجلالة، فلا يقال: نبي الله، أو: يا نبي الله. ولكن يقال رسول الله (وردت هذه العبارة 17 مرة، وقصد بها الرسول (ص) وغيره من الرسل السابقين).

د - **الاستجابة**: والاستجابة خاصة بالرسول - بعد الله تعالى - لا بالنبي. قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾(الأنفال:24). ارتبط فعل (الاستجابة) في هذه الآية بالله وبمحمد (ص) من حيث هو رسول، وليس من حيث هو نبي.

---

[1] - الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، مطابع أخبار اليوم، 1997، ج4، ص2358.

[2] - المرجع نفسه، ج4، ص2359.

[3] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص74.

[4] - الشعراوي، تفسير، الخواطر، ج18، ص11094.

ومما يجدر التنبيه عليه، كذلك، أنّ القرآن الكريم لا يفتأ يذكر أنّ من عادة بني إسرائيل قتل "الأنبياء" أو"النبيين"، ولم يقل أنهم كانوا يقتلون "الرسل"، إلا في موضع واحد من القرآن كله، وهو قوله تعالى:﴿**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾(المائدة: 70)، مما يدل على أنّ« ذكر كلمتي "الرسول" و"النبي" في القرآن الكريم كان للتوكيد على أنّ كلا منهما تحمل معنى خاصاً. ولم يختلف العلماء والمفسرون حول هذه الحقيقة؛ فقد ذكروا بوضوح أنّ الرسول أخصّ من النبي لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، وهذا القول صحيح... ولكن عندما نتعرف إلى معنى كل كلمة منهما، نجد أنّ الرسول - في المهمة التي أسندت إليه - أعمّ وأشمل من النبي »[1].

وهناك رأي آخر يزعم صاحبه أنّ الرسول هو المبعوث بشرع جديد يدعو الناس إليه، أما النبي فهو المبعوث لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام[2]. ويقول الشعراوي في ذلك:« يقول العلماء: إن نوحاً - عليه السلام - هو أول رسل الله إلى البشر، أما مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام، فكانوا أنبياء أوحى الله إليهم بشرع يعملون به، فيكونون نموذجاً إيمانياً، وقدوة سلوك طيب، يُقلِّدهم مَنْ رآهم، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقتَدِ بهم، أما إن اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر، لذلك نُفرّق بين النبي والرسول، بأن النبي أُوحي إليه بشرع يعمل به ولم يُؤْمر بتبليغه، أما الرسول فقد أُوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه فكلٌّ منهما مرسل، لذلك يقول الله تعالى:{**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ..**}[الحج: 52]. إذن: فالنبي أيضاً مُرسَل، لكنه مُرسَل لذاته »[3]. ولكن، ماذا سنقول في وصف محمد(ص) بالنبي مرة، وبالرسول مرة ثانية؟ وبم نفسر ورود نداء الرسول في القرآن المكي، ونداء النبي في القرآن المدني؟ ذلك ما لم يعرض له الشيخ الشعراوي رحمه الله.

إلاّ أنّ قوله تعالى:﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾(التوبة:61)، فيه ملاحظة خاصة، وهي استخدام مصطلحيْن للإشارة إلى الشخص نفسه؛ وهو محمد(ص)، ولكن مرة استخدم لفظ "النبي"، ومرة أخرى استخدم لفظ "رسول"، وفي الآية نفسها، وفي السياق نفسه. وكل التفاسير لا تشير إلى هذا الفرق في الاستخدام؛ إنما تقتصر على ما تعورف عليه في كون كل رسول نبي، والعكس غير ضروري، والأول صاحب رسالة وشرع، أما الثاني فلا رسالة له، إنما يكمل أو يتبع رسالة رسول سبقه. غير أنّ ابن عاشور أشار بطرف خفي إلى الفرق بينهما فقال:« وفي ذكر النبي بوصف{رسول الله} إيماء إلى استحقاق مُؤذيه العذاب الأليم »[4]. ولكنه لم يوضح جيداً هذه المسألة، إذ لماذا يستحق الذي يؤذي الرسول (ص) عذاباً أليماً؟ إنّ التعبير القرآني بدأ بمصطلح "النبي"، ثم ذيّل الآية بذكر مصطلح "الرسول"، وذلك لأنّ المنافقين لم يكذّبوا محمداً (ص) من حيث هو رسول؛ إنما كانوا يطعنون في شخصه من حيث

---

[1] - عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغتي الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ص128.

[2] - المرجع نفسه، ص129. وينظر كذلك، إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص20.

[3] - الشعراوي، تفسير القرآن- الخواطر، ج18، ص11094

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص376.

هو نبي، فقال القرآن: يؤذون النبي؛ أي بزعمهم، ولكنهم في الحقيقة يطعنون في هذا النبي من حيث هو رسول، ولكنهم لا يستطيعون إظهار ذلك صراحة، لذلك قال: والذين يؤذون رسول الله. وفي ذلك كشف لنفسية المنافقين، وخباياهم ونياتهم السيئة. والله أعلم. والمشكل نفسه تقريباً يمكن ملاحظته في الثنائية التالية، باعتبار عدم ورود الترادف في ألفاظ القرآن الكريم.

2 - **الكتاب والقرآن:**

نقصد كلام الله المنزل على الرسول (ص)، الموصوف، والمسمّى بلفظتيْ "الكتاب" و"القرآن" وما يتعلق بهما. وقد ركزنا على هذين المصطلحين، وخصصناهما بالتحليل، لما لهما من ملامح خاصة في السياق القرآني، حيث يطّردان في فضاءين مختلفين من حيث الدلالة، وظلال المعنى. أما الأسماء الأخرى المتعلقة بالوحي؛ مثل: الفرقان، والهدى، والتنزيل، وغيرها فليس لها تلك الميزات التي للكتاب والقرآن، لأنها في غالب الأحيان عبارة عن صفات للكتاب أو للقرآن، وليست أسماء منفصلة الدلالة.

أ - **الكتاب:** هو مصطلح كثير التردد في القرآن المكي والمدني، وله دلالات كثيرة تبلغ عشرة معانٍ، وله متعلقات لفظية خاصة.

ب - **القرآن:** هو مصطلح إسلامي محض، ويرد في الخطاب المكي على وجه الخصوص، لذلك أوردناه في هذا الفصل. وقد قال في هذا المصطلح كثير من العلماء أقوالاً متشابهة مبثوثة في كتب علوم القرآن والتفسير، تكاد تتفق على أنّه كلام الله المعجز المنزّل على الرسول (ص)، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبّد بتلاوته[1].

- **المتعلقات اللفظة لمصطلح "قرآن"**: له بعض المتعلقات، وردت هي أيضاً في الخطاب المكي فقط ومنها ما يلي:

- وصفه بأنه"**عربي**": لقد ذكر القرآن الكريم لفظ "عربي" عدة مرات، ولكنه جاء وصفاً للقرآن وليس للكتاب. كما جاء الوصف نكرة، ولم يرد معرفة ولو لمرة واحدة. إذ لم يقل: القرآن العربي، أو اللسان العربي. والآيات التي ورد فيها هذا اللفظ هي:﴿**لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾(النحل:103). ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾(الشعراء: 192-195). ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾(يوسف:2). ﴿**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ**﴾(الرعد:37). ﴿**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**﴾(طه:113). ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾(الزمر:27 - 28).﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾(فصلت:3). ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾(الشورى:7). ﴿**حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾(الزخرف:1 - 3). ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ**﴾(الأحقاف:12).

[1] - ينظر، صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص21.

وهذه السور كلها مكية، ما عدا سورة الرعد التي يعتبرها بعض الدارسين مدنية. ولكن الناظر في أسلوبها وفي موضوعها، يتبيّن بسهولة أنها مكية، لاسيما أنها تبتدئ بحروف التهجي، وتحتوي على سجدة، وهي سمة من سمات القرآن المكي كما هو مقرر عند الباحثين في علوم القرآن. وكأنّ القرآن ينبّه على أمر مهم جداً -كونه عربي اللسان- في هذه الفترة المبكرة من العهد المكي، بالنظر إلى ترتيب نزول هذه الآيات؛ وكأنه يرد على الذين طعنوا في صحة نسبته إلى الله تعالى، ويذكرهم بأن النبي (ص) لا يمكن أن يتلقى القرآن ممن لا يعرف العربية. أما العرب الخلص فكلامهم لا يشبه كلام القرآن، فلم يبق إلا التصديق بمصدره الإلهي.

والجدول التالي يوضح تقارب ترتيب نزول هذه السور المذكور فيها لفظ "عربي"، ليدل به على الفترة التي كان يرد فيها القرآن الكريم على افتراءات المشركين.

اسم السورة	نوعها	ترتيب نزولها
1 - النحل	مكية	68
2 - الشعراء	مكية	47
3 - يوسف	مكية	53
4 - الرعد	مدنية (مكية عند البعض)[1]	96 (54)
5 - طه	مكية	45
6 - الزمر	مكية	59
7 - فصلت	مكية	61
8 - الشورى	مكية	62
9 - الزخرف	مكية	63
10 - الأحقاف	مكية	66

[1] - يراجع، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص39. ومساعد بن سليمان الطيار، المحرر في علوم القرآن، ص114. وسيد طنطاوي، الذي يقول:« والذي تطمئن إليه النفس، أن السورة الكريمة يبدو بوضوح فيها طابع القرآن المكي، سواء أكان ذلك في موضوعاتها، أم في أسلوبها، أم في غير ذلك من مقاصدها وتوجيهاتها ». التفسير الوسيط، ج7، ص432. وترتيب نزولها بحسب المدني هو رقم 10. أما إذا اعتبرنا نزولها بحسب المكي فقد أوردها السيوطي بعد سورة يوسف، ومن ثَمّ يصبح ترتيبها 54.

وهناك آية واحدة عوّض فيها التعبير القرآني لفظ "قرآن" بلفظ "حكم" عندما وصف به القرآن الكريم بأنه عربي. يقول ابن كثير:« وقوله:{**وَكَذَلِكَ أَنزلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا**} أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا، شرّفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي »[1]. أما الألوسي فيقول:« والتعرض لكونه عربياً أي مترجماً بلسان العرب للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة إذ بذلك يسهل فهمه وإدراك إعجازه يعني بالنسبة للعرب »[2] وأما الزمخشري فيقول:« {حُكْمًا عَرَبِيّا} حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصابه على الحال »[3]. أما القرطبي فيقول:« أي يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب »[4].

يقول الشاطبي:« وإنما البحث المقصود هنا أنّ القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلبُ فهمِه إنما يكون من هذا الطريق خاصة... فمن أراد تفهّمه، فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة »[5]. ويقول في موضع آخر من الكتاب:« فلا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلّف فيهما فوق ما يسعه لسان العرب، وليكن شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعني به العرب »[6]. ويضيف قائلاً:« لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذي نزل القرآن بلسانهم، فإنْ كان للعرب عُرف مستمر؛ فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثَمّ عُرف، فلا يصحّ أن يجري في فهمه على ما لا تعرفه »[7].

ويقول عن موضوع البحث في القرآن إنما« يكون الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناء على أنّ العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد »[8].

ويقول ابن عاشور في شرح معنى "حكما عربيا":« و{عربياً} حال ثانية وليس صفة لـ {حُكماً} إذ الحكمة لا توصف بالنسبة إلى الأمم وإنما المعنى أنه حكمة مُعبّر عنها بالعربية. والمقصود أنه بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجملها وأسهلها، وفي ذلك إعجازه. فحصل لهذا الكتاب كمالان: كمال من جهة معانيه ومقاصده وهو كونه حكماً، وكمال من جهة ألفاظه وهو المكنى عنه بكونه عربياً، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله لأن الحكمة

---

[1] - ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، تح: الصابوني، ج2، ص285.

[2] - الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د ط، د ت، ج9، ص291.

[3] - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص257.

[4] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص119.

[5] - الشاطبي، الموافقات، ج 2، ص 102.

[6] - المرجع نفسه، ج2، ص135.

[7] - نفسه، ج2، ص131.

[8] - نفسه، ج2، ص138.

أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة »[1]. وبهذا المفهوم لا يكون لفظ "عربي" وصفا للحكم (الحكمة)، وإنما هو وصف للغة القرآن الكريم.

ولم نعثر أبداً على عبارة "كتابا عربيا". وبذلك يكون هناك فرق بين الكتاب والقرآن على رأي بعض الباحثين. لأن القرآن الكريم لم ينزل مكتوباً، أتى به جبريل في صحيفة يقرأ منها النبي (ص) مباشرة، إنما كان عليه السلام يتلقى كلاماً شفوياً، بصوت فيزيائي، يسمعه من ملك الوحي. إلا ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من أول قراءة لآية الأحقاف:﴿**وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا**﴾، من أنّ لفظ "عربياً" وصف للكتاب، وليس الأمر كذلك، إنما هو وصف للسان، واللسان ظاهرة صوتية فيزيائية قبل أي شيء، والقرآن هو هذا الصوت الفيزيائي الذي يُتلى ويُقرأ. ومن ثَمّ كان الوصف بلفظ "عربي" وصفاً للقرآن لا للكتاب.

يقول محمد عابد الجابري عن لفظة "قرآن عربي" ما يلي:« فالتنصيص في القرآن، مراراً وتكراراً، على كونه "نزل بلسان عربي مبين" ليس معناه فقط أن كلماته عربية بل معناه أن "العربية جزء ماهيته"، كما يقول الأصوليون، بمعنى أن اللغة العربية، كأساليب في التعبير وكمخزون ثقافي، مكوّن من مكوّنات ماهيته فهو قد نزل ليس فقط بكلمات عربية بل أيضاً حسب معهود العرب. ولو لم يكن حسب معهودهم لَمَا أمكن أن يفهموه »[2]. ويبدو أنّ هذا التخريج صحيح وله ما يعضده من كون القرآن الكريم قد كرر عبارة "لسان عربي" عشر مرات كاملة لترسيخ الفكرة، وشد الانتباه إلى ذلك.

لقد احترم القرآن الكريم - إذاً - لغة العرب في سنن استخدامها للسانها، مصداقا لقوله تعالى:﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾(الشعراء:192، 195). ولذلك لم يعترض العرب على أسلوب القرآن، ولا على ألفاظه التي بُني منها، ولم يقولوا: إن هذا الكلام ليس من كلامنا ولا من ألفاظنا التي نعرف.

ولقد حافظ القرآن - كذلك - على ما حافظت عليه العرب من كلماتها، وابتعد عما ابتعدت عنه كالمُمات من الكلمات مثل: الماضي من فعل ودع، ووذر، ومصدريْهما، أي الودع، والوذر، فاحتفظ بالمضارع والأمر منهما فقط، وتجاهل صيغة الأمر من فعل (رأى) أي (رَه)، واحتفظ بالماضي والمضارع منه فقط. واستخدم الفعل "أتى" في كل الأزمنة، أما "جاء" فلم يرد إلا ماضياً في كل السياقات التي أتي فيها، من دون أي استثناء يذكر.

3 - **إبليس والشيطان**: هما مصطلحان يوصف بهما مخلوق من مخلوقات الله، خُلق من نار، وصار بعد العصيان رمزاً للشر والإغواء والخروج من رحمة الله تعالى. ولكن التعبير القرآني يوردهما بتوزيع خاص، وبهندسة مميزة، يظهر ذلك من فيما يلي:

- اسم "**إبليس**": ورد في القرآن المكي فقط، إحدى عشرة (11) مرة. وحين يخاطبه الله تعالى، إنما يكون دوماً باسمه هذا، كقوله تعالى:﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾(الحجر:32)، ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ**

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص160.

[2] - محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط2، 2007، ج1، ص195

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(ص:75). ولم يرد هذا اللفظ إلا مفردا، أي لم يرد بصيغة الجمع "أبالسة". لأنه اسم علم خاص بهذا المخلوق دون غيره من المخلوقات الأخرى.

إنما خاطب الله تعالى إبليس باسمه، وليس بلفظ الشيطان، لأن إبليس اسم علم لهذا المخلوق الذي هو من جنس الجان، وقيل إنه رئيسهم، وكان يُدعى بطاووس الملائكة، لتبختره ومباهاته حتى قبل خلق آدم. فكأنّ الله تعالى عدل عن استخدام لفظ الشيطان الذي فيه من الذم والإذلال والانتقاص، حتى لا يسبقه بهذا الوصف قبل أن يسمع منه ما يثبت ذلك. فلما حدث تكبّر إبليس وعصيانه ورفضه السجود لآدم، ذكره الله تعالى بعد ذلك بلفظ الشيطان؛ أي المطرود من الرحمة. فلم يذكره بهذا الوصف إذاً إلا بعد أن أثبت إبليس التهمة على نفسه، وفي ذلك قمة العدل والإنصاف. ومع ذلك فقد ذكره في غيبته أيضاً باسم إبليس، وذلك في كل القرآن المكي الذي ورد فيه ذكره، من مثل:﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾(البقرة:34).﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**﴾(الأعراف:11). ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾(الحجر:28 - 31). ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾(الإسراء:61). ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾(الكهف:50). ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى**﴾(طه:116). ﴿**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ**﴾(الشعراء:94 - 95). ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(سبأ:20). ﴿**فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ (ص:73 - 74).

والملاحظ، هنا، أن لفظ إبليس ورد ذكره في بداية العصيان، أي حين رفضه السجود، فقد كان في ذلك الوقت يسمى إبليس، أي باسمه الشخصي، أو باسمه العلَم، قبل أن يصبح لقباً؛ أي شيطاناً مطروداً من رحمة الله، بفعل معصيته الكبيرة. ويستثنى من ذلك آية سورة الشعراء التي تتحدث عن يوم القيامة، وما يحدث للكفار ولجنود إبليس وأعوانه.

وفي المقابل، لم يقل القرآن للمؤمنين أو غيرهم، احذروا إبليس، أو اتخذوا إبليس عدواً، أو ما شابه ذلك، إنما يقول:﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾(فاطر:6). أو﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾(البقرة:168). وغير ذلك من الآيات المشابهة. فالتعبير القرآني عندما يريد أن يعبّر عن مثل هذا التنبيه، إنما يستخدم مصطلح "الشيطان" لا غير، وذلك للدلالة على أن المنهي عنه ليس "إبليس" من حيث هو عَلَم على مخلوق معيّن، إنما من حيث لقبه الذي يدل على الغواية والعصيان والطرد من رحمة الله.

يقول الألوسي:« و(إبليس) اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعَلَمية والعجمة، ووزنه - فعليل - قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة وغيره: إنه عربي مشتق من الإبلاس وهو الإبعاد من الخير أو اليأس من رحمة الله تعالى، ووزنه على هذا مِفعيل، ومنعه من الصرف حينئذ لكونه لا نظير له في الأسماء؛ واعترض بأن ذلك لم يعد من موانع الصرف مع أنه له

نظائر- كإحليل وإكليل... وقيل: لأنه شبيه بالأسماء الأعجمية إذ لم يسمّ به أحد من العرب »[1]. وقيل:« الإبلاس: الحزن المعترض من شدة البأس، يقال: أبلس، ومنه اشتق إبليس فيما قيل »[2]، و« يُقَالُ أَبْلَسَ إِذَا يَئِسَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} [المؤمنون:77]، قَالُوا: وَمِنْ ذَلِكَ اشْتُقَّ اسْمُ إِبْلِيسَ، كَأَنَّهُ يَئِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ »[3]. ولكن كيف يكون اسم إبليس مشتقاً من اليأس من رحمة الله، وهو اسم كان قبل أن يُخلق آدم، وقبل أن يعصي إبليس الله تعالى؟ وكيف ينادي الله تعالى إبليس باسمه هذا، وكأنه يقول له: يا يائس من رحمتي؟ وقد رأينا أنّ الله تعالى لم يقل: يا شيطان، أبداً، وذلك حفاظاً على آداب المخطابة والحوار مع المخالفين. إنّ إبليس، إذن، اسم علم لهذا المخلوق الناري لا غير.

وجاء في المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن ما نصه أنّ:« إبليس[عَلَم] أبو الجن، لم يكن من الملائكة، وقيل: كان منهم ثم عاقبه الله لرفضه السجود لآدم »[4]. ويقول آخر إنّ إبليس هو:« الاسم العَلَم لأحد الملائكة وظيفة وأحد الجن نسباً وأصلاً، عصى ربه عز وجل، فطرده الله من رحمته، وأخرجه من جنته، وأسكنه الأرض فصار عدوّا للإنسان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها »[5]. ومعنى ذلك أنّ "إبليس" يجمع بين صفة "الملائكة"، وصفة "الجن"؛ فمن الأولى أخذ وظيفتها، وهي التسبيح وعبادة الله، ومن الثانية أخذ أصل الخَلْق، وهو النار، لأنّ الملائكة مخلوقة من النور. ولعل الكاتب فهم هذه الدلالة للفظ "إبليس" من الآيات التي تشير إلى خلقه، وأفعاله، سيما بعد خلق آدم عليه السلام.

نرى- إذاً - أنّ القرآن الكريم يعلّمُنا كيف نحترم الآخرين عندما نخاطبهم، ولو كانوا يخالفوننا الرأي، أو يعادوننا أحياناً. إذ طُلِب منّا أن نخاطبهم بأسمائهم المشهورة، لا بألقابهم التي يكرهون، أو التي نصنعها نحن لهم بناءً على خُلُق فيهم، أو سلوك فعلوه. ومثل هذا السلوك القويم الذي أتى به القرآن، فعله الرسول (ص) في مخاطبته لرؤساء الأمم الأخرى في رسائله وهو يدعوهم إلى الإسلام. وهو الأمر نفسه الذي سنلاحظه في المصطلحين الآتيين.

2 - بنو إسرائيل واليهود:

هما مصطلحان يوصف بهما جنس من الناس له أسماء كثيرة في الدراسات التاريخية؛ مثل: العبرانيين، واليهود، وبني إسرائيل، وبني يعقوب، والأسباط. غير أنّ القرآن استخدم بعضاً من هذه المصطلحات، وأضرب عن بعضها الآخر، وما ذكر منها هو: اليهود، وبنو إسرائيل، والأسباط. وأعرض عن مصطلح "بنو يعقوب"، و"العبرانيون". إلاّ أنه اطّرد استخدام مصطلح "بنو إسرائيل" في الخطاب المكي، واستخدم مصطلح "اليهود" في الخطاب المدني، ولكل

---

[1] - الألوسي، روح المعاني، ج1، ص229.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص155.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص300.

[4] - أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، ط1، 2002، ص60.

[5] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص16.

استخدام نسقه الخاص، ونمطه المتكرر في موضعه من القرآن الكريم. أما مصطلح "أهل الكتاب" فلا يقصد به اليهود وحدهم، إنما يضاف إليهم النصارى.

غير أنّ القرآن لا يستخدم عبارة (بني يعقوب) أبداً، والسر في ذلك« أن القوم لما خوطبوا بعبادة الله، وذكروا بدين أسلافهم موعظة لهم وتنبيهاً عن غفلتهم، سُمّوا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله فإنّ اسم إسرائيل مضاف إلى الله سبحانه في التأويل*... ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره به قال: يعقوب وكان أولى من إسرائيل، لأنها موهبة تعقب أخرى وبشرى عقب بشرى فقال:﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود:71]،[وإن كان اسم يعقوب] عبرانياً؛ لكن لفظه موافق للعربي، من العقب والتعقيب فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين فإنّه من العجائب»[1]. ولكن لا يبدو الربط بين دلالة "يعقوب"؛ الاسم العبراني وبين المفهوم اللغوي لمفردة "العقب" قوياً. وإن كانت هناك مشاكلة -كما يرى المؤلف - بين اللفظين، فلا يعدو الأمر أن يكون من باب المشابهة، والمصادفة لا غير، ما دامت اللغتان مختلفتين. ولماذا لا يكون هذا الاسم مأخوذا من« اليعقوب: ذكر الحجل لما له من عقب الجري »[2]؟

ثم إنّ الله تعالى حين يتحدث عن نبيّه يعقوب، يذكره أحياناً في مواطن خاصة باسم إسرائيل، كما في قوله تعالى:﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**﴾(آل عمران:93). وقوله:﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ**﴾ (مريم:58). ومن المعروف أنّ القرآن الكريم نفسه هو الذي أطلق اسم "يعقوب" حين بشّر به نبيّه إبراهيم عليه السلام قال تعالى:﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾(هو:71). وقد صار اسم "يعقوب" إلى اسم "إسرائيل" فيما بعد، وبذلك ذُكِر بنوه أيضاً في القرآن الكريم كله.

3 - **الحمد والشكر**: وردت هذه الثنائية بتمظهر مختلف لكل من اللفظين، يظهر ذلك فيما يلي:

وردت عبارة: (الحمد لله) أكثر بكثير من عبارة (وله الحمد)، كما ورد لفظ "الحمد"مع عبارة (رب العالمين). وذلك في الخطاب المكي فقط. والآيات في ذلك كثيرة تصل إلى ثلاث وعشرين. ولم يرد في هذه الآيات كلها لفظ "الشكر" في موضع "الحمد"، ولو لمرة واحدة. ومن هذه الآيات ما يلي:

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(الفاتحة:2). ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾(الأنعام:1) ﴿**قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**﴾(الأعراف:43). ﴿**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(يونس:10).﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾(إبراهيم:39). ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(النحل:75). ﴿وَقُلِ

---

* المقصود بذلك أنّ لفظ إسرائيل مركّب من كلمتين هما: "إسرا" أي عبد أو صفوة أو مهاجر، و"إيل" بمعنى الله. فيكون المعنى عبد الله، أو صفوة الله. (يراجع: السيد سابق، اليهود في القرآن، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط4، 1994، ص5. وسيد طنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2002. ص11 - 12).

[1] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص114.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص108.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾(الإسراء:111). **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾**(الكهف:1). **﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**(المؤمنون:28).**﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** (النمل:15). **﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾**(النمل:59). **﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾**(النمل:93). **﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾**(القصص:70). **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** (العنكبوت:63). **﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾**(الروم:18). **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**(لقمان:25).

يقول العسكري في معنى الشكر:« الشُّكْر لَا يكون إِلَّا على نعْمَة وَالنعْمَة لَا تكون إِلَّا لمِنْفَعَة أَو مَا يُؤَدِّي إِلَى مَنْفَعَة... الْحَمد لَا يكون إِلَّا على إِحْسَان وَالله حَامِد لنَفسِهِ على إِحسانه إِلَى خلقه فَالْحَمْد مضمّن بِالْفِعْلِ »[1]. ولا يبدو من هذا الكلام الفرق واضحاً بين الحمد والشكر، من حيث كونهما يدلان معاً على وقوع فعل بعد إحسان أو نعمة، إذ لا فرق بيّن بين النعمة والإحسان، فالنعمة والإحسان كلاهما لمنفعة، والله تعالى حامد لنفسه على إحسانه إلى خلقه، وعلى إنعامه عليهم كذلك. وقال الأصفهاني:« الحمد لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكرا، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمدا »[2]. وجاء في مخطوطة الجمل:« الشكر: عرفان الجميل ونشره. وشكر النعمة: عرفها ونشرها. والشكر من الله لعباده: مجازاتهم علي أعمالهم الصالحة »[3].

ويقول باحث معاصر:« والحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمّهما؛ لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته، والشكر الثناء، وكل شاكر حامد ، وليس كل حامد شاكراً، وربما جُعِل الحمد مكان الشكر، ولا يُجعل الشكر مكان الحمد، وفي الحديث: الحمد رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبدٌ لا يحمَده »[4]. وقد ذكر بعض الباحثين أنّ جماعة من العلماء القدامى قد أقرّوا بترادف معنى الحمد والشكر، منهم ابن جرير الطبري، والقرطبي، وابن منظور، والقاضي عياض. وجماعة أخرى أقرّت بالفرق بينهما، كابن كثير القائل: « اشتهر عند كثير مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّ الْحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ بِالْقَوْلِ عَلَى الْمَحْمُودِ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، والشكرُ لَا

---

[1] - العسكري، الفروق اللغوية، ص50.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1 ، ص263.

[3] - حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، مخطوطة الجمل - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 2003 - 2008 م، ج2، ص398 - 399.

[4] - محمود محمد الطناحي، أسرار اللغة في الكتاب والسنة، معجم لغوي ثقافي، المكتبة المكية، دار الفتح للدراسات والنشر، السعودية، ط1، 2008، ص426.

يَكُونُ إِلَّا عَلَى الْمُتَعَدِّيَةِ، وَيَكُونُ بالجَنَان، وَاللِّسَانِ، وَالْأَرْكَانِ »[1]، ويعتبر الرازي الحمد عاماً يصل إلى المرء وإلى غيره، أما الشكر فيصل إلى المرء دون غيره[2]. ثم يورد هذا الباحث رأيه الخاص قائلاً:« والذي يظهر لي - والله أعلم - وجاهة الفرق بينهما... وهو أن الله تبارك وتعالى لم يأت بالحمد بصيغة الأمر مطلقاً كغيره من الأوامر في القرآن، فلم يقل: (احمدوه أو احمدني) مباشرة، وإنما يأتي مسبوقاً بالقولية كقوله (فقل الحمد لله)، أو مسبوقاً بالتسبيح كقوله: ﴿فسبّح بحمد ربّك﴾، وجاء مسبوقاً بالألف واللام الدالة على الاستغراق، لكنه أتى بآيات عديدة يأمر فيها بالشكر، فلو كانا بمعنى واحد لَمَا أمر بالشكر، بل جعله كالحمد مسبوقاً بالألف واللام الدال على الاستغراق. والعلم عند الله تعالى»[3]. ويبدو أنّ الباحث لم يستطع القطع بالفرق بينهما من حيث الدلالة، وإن كان استقر عنده أن اللفظين مختلفان من حيث المفهوم، ففوّض أمره إلى علم الله تعالى، كما يظهر من الجملة الأخيرة من قوله.

ويعود الباحث نفسه ليقول مرة أخرى:« وفي مواضع أخر أمر الله تبارك وتعالى أن يُشكر ويُشكر معه غيره في قوله تعالى:﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾[لقمان:14] فأمر بشكر الوالدين مع شكره، غير أنه لم يأمر بحمده مباشرة، أو حمد أحد من خَلْقِه؛ ليعلم من ذلك أن الحمد مغاير للشكر »[4]. ثم يخلص إلى نتيجة عن علاقة الحمد بالشكر قائلاً:« إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فحين يذكر الحمد مفرداً فإنه يعني في نفس الوقت معنى الشكر، والعكس صحيح، لكن إذا اجتمع الحمد والشكر أصبح لكل واحد منهما معنى يخالف الآخر. فيكون الحمد - حال اجتماعهما - هو الثناء على الله دون سابق إحسان، ويكون الشكر عند ذلك هو الثناء على الله بما أولى به من إحسان »[5]. فالله تبارك وتعالى أهل للحمد وأهل للشكر معاً. فإن لم نحمده فمن جهلنا بجلاله وعظمته، وإن لم نشكره فمن كفراننا بنعمه وإحسانه.

غير أنّ الشيء الذي نضيفه على قول هذا الباحث، هو أنّ الشكر يناقض الكفر بالنعمة« والكُفْرُ: كُفْرُ النِّعْمَةِ، وَهُوَ نَقِيضُ الشُّكْرِ. والكُفْرُ: جُحود النِّعْمَةِ، وَهُوَ ضِدُّ الشُّكْرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ؛ أَي جَاحِدُونَ. وكَفَرَ نَعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرها كُفُوراً وكُفْراناً وكَفَر بِهَا: جَحَدَها وسَتَرها »[6]، ولا يستخدم ذلك مع الحمد؛ أي يقال: كافر كافر بالنعمة، أو شاكر لها، ولا يقال: حامد للنعمة. وبمعنى آخر؛ الكفر نقيض الشكر، وليس نقيضاً للحمد.

ونضيف أمراً آخر لم يشر إليه الباحث، وهو أنّ الحمد - وبصيغته الاسمية فقط - ورد في القرآن المكي دون المدني، مع كثرة الآيات التي نبّهت الناس على وجوب حمد الله وأمرتهم بذلك. لقد ركّز القرآن الكريم على مسألة حمد الله وحده في الخطاب المكي، لأنّ العرب كانوا يحمدون مع الله آلهة أخرى، فقصر التعبير القرآني الحمد على الله تعالى وحده، واختيار مادة (حمد) لها دلالتها. قال ابن عاشور:« عَلَى أَنَّ تَوْجِيهَ الثَّنَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَادَّةِ (حَمِدَ) هُوَ أَقْصَى

---

[1] - ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، تح: الصابوني، ج1، ص20.

[2] - يراجع، عبد الرحمان الغريبي، الحمد في القرآن والسنة، دار البر، دبي، ط1، 2011، ص37.

[3] - المرجع نفسه، ص42.

[4] - نفسه، ص42.

[5] - نفسه، ص45.

[6] - ابن منظور، لسان العرب، ج 5، ص144.

مَا تُسَمَّى بِهِ اللُّغَةُ الْمَوْضُوعَةُ لِأَدَاءِ الْمَعَانِي الْمُتَعَارَفَةِ لَدَى أَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ، فَلَمَّا طَرَأَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدَارِكُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْحَقَائِقِ الْعَالِيَةِ عَبَّرَ لَهُمْ عَنْهَا بِأَقْصَى مَا يُقَرِّبُهَا مِنْ كَلَامِهِمْ »[1]. ومن ثَمّ، قد تسعفنا معرفة هذا الأمر في الاقتراب من الدلالة المقصودة من هذا الاستخدام الفريد للفظ "الحمد" في القرآن الكريم.

يقول باحث معاصر في هذه المسألة مقارناً بين معنى التسبيح ومعنى الحمد اللذين وردا مقترنين في كثير من الآيات:« إنّ التسبيح هو تنزيه الله عن النقص، وصرف الظن بأن الله تعالى قد يخطىء في علمه، أو أنه سبحانه قد يفعل ما هو ناقص. أما الحمد فهو ذكر الله بصفاته الحسنى الكاملة، من القدرة على كل شيء، والعلم بكل شيء، والرحمة والكرم، وذلك عند مشاهدة أفعاله البديعية التي تدل على هذه الصفات »[2].

ونلاحظ كذلك أن حَمْدَ الله تعالى يكون في خواتم الأعمال، ونهايات الأمور، إذ عندما نشكر أحدا عن شيء ما، إنما نفعل ذلك - في الأغلب - بعد أن يساعدنا، ويتم عمله تجاهنا، من هداية وإكرام وتفضّل وغير ذلك. ولكنه سبحانه وتعالى إذا أراد أن نحمده يقول {**اشكروا لي**}، و{**اشكر لي**}، ولا يقول "احمدني" أو "احمدوني". كما أنه تعالى لم يقل "الشكر لله". أو "وله الشكر" مطلقاً، وتلك - مرة أخرى - هندسة قرآنية لألفاظ اللغة، يستخدمها القرآن الكريم بفرادة وتميز لا نظير لهما في كلام البشر على وجه الإطلاق، ومن ثَمّ كان إعجازه الذي لا يجارى بحال.

وإذا شئنا تأويل هذا الاستخدام للفظتيْ "الشكر" و"الحمد" ومشتقاتهما- مع ما في التأويل من مشقة - قلنا إن "الحمد" صفة ثابتة في الخالق عز وجل، سواء أحَمِده الناس أم لم يفعلوا، لأنه تعالى قد حمِد نفسه قبل كل الخلق، وهو أهل لذلك، وقد حمدته الملائكة قبلنا، قال تعالى على لسان الملائكة:﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾(البقرة: 30)، وحمدته المخلوقات، جميعاً وإن كنّا لا نفقه تسبيحها. فالحمد صفة في الله يجب أن تكون، نظراً لقدرة الله تعالى وكماله ورحمته بخلقه. أما الشكر فهو عملية تقوم على رد الفعل من المنعَم عليه تجاه المنعِم، سواء أكان هذا المنعِم الله عز وجل أم كان من البشر؛ أي نحن نشكر الشخص الذي يقدّم لنا من الخيرات، والمساعدات، في حياتنا، والذي ينفّس عنا من كرب الدنيا، ولا نحمده في كل ذلك. إنما الحمد خاص بالله تعالى وحده.

ويرى بعض الباحثين أن عبارة (الحمد لله) تقال لأمور كثيرة؛ منها لإحسان الله تعالى لخلقه، ورحمته لهم جميعاً، ولأسمائه الحسنى، ولقدرته العظيمة في خلق السماوات والأرض.« إن كون ربنا جل جلاله حميداً مالكاً للصفات الحسنى جميعاً، يبعث في نفوسنا كل الأمل والتفاؤل، ومجرد تلاوتنا لعبارة {الحمد لله} تبرمج قلوبنا على الثقة بالله صاحب الصفات الحسنى الكريمة، التي جاءت كلمة {رب العالمين} لتشير إليها »[3].

وقال آخر:« وقيل: إن الحمد والمدح مترادفان، ولعل قائل هذا القول نظر إلى معنى الثناء فيهما من غير أن ينظر إلى الباعث، فإن الباعث على الحمد أعمال الإنعام والخير، والباعث على المدح الشخص والذات، فيقال: مدحت الجميل في صفاته الحسنة، وخلاله الكريمة، ولا يقال حمدته، ومن العلماء من قال إن المدح أعم، ومن قال

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1 ، ص156.

[2] - محمد عادل القلقيلي، نظرات جديدة في القرآن المعجز، ص271

[3] - المرجع نفسه، ص38.

العكس، ونميل إلى التفرقة بينهما باختلاف الموضوع. و"الشكر" امتلاء النفس بالإحساس بالنعمة، واندفاع النفس إلى الطاعة والخضوع، والقيام بحق المنعم ومقابلة الفضل والنعمة بالإحسان في الطاعة والواجبات »[1].

أما السامرائي فيقول:« الحمد لم يرد في القرآن إلا لله، وهو نقيض الذم، أي ذكر الله عز وجل، والثناء عليه لصفاته العليا، وأنعمه التي لا تحصى »[2]. وذلك واضح من كل الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ، غير أنّ التعبير القرآني لم يستخدم أبداً ألفاظ "المدح"، أو "الثناء"، أو "التمجيد"، علماً بأن الثاني والثالث منها وارد بكثرة في الأدعية المأثورة، وفي بعض الأحاديث النبوية.

- **اقتران التسبيح بالحمد**: من متعلقات لفظ "الحمد"، أن يقترن به لفظ "التسبيح؛ "وذلك في كثير من آيات القرآن « وَإِذَا كَانَ التَّسْبِيحُ كَمَا قُلْنَا هُوَ قَوْلٌ أَوْ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ فَتَعَلُّقُ قَوْلِهِ بِحَمْدِكَ بِهِ هُنَا وَفِي أَكْثَرِ الْمَوَاضِعِ فِي الْقُرْآنِ ظَاهِرٌ لِأَنَّ الْقَوْلَ يَشْتَمِلُ عَلَى حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ فَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ أَيْ نُسَبِّحُ تَسْبِيحًا مَصْحُوبًا بِالْحَمْدِ لَكَ »[3].

قال الأصفهاني:« وقوله:{ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك}[البقرة/30]، أي: نطهر الأشياء ارتساما لك. وقيل: نقدسك، أي: نصفك بالتقديس »[4]. وقال ابن عاشور:« فَمَعْنَى وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ نَحْنُ نُعَظِّمُكَ وَنُنَزِّهُكَ وَالْأَوَّلُ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالثَّانِي بِاعْتِقَادِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُنَاسِبَةِ لِلذَّاتِ الْعَلِيَّةِ، فَلَا يُتَوَهَّمُ التَّكْرَارُ بَين (نُسَبِّح) و(نقدس) »[5].

وسواء أصحّ هذا التخريج أم لا، فإنّ الترادف في هذا المقام غير مسوّغ، وفي كل القرآن كذلك. ولو لم يكن فرق بين اللفظين، لَما تلفّظت به الملائكة بهذا الشكل. مع العلم أنّ لفظ التقديس لم يرد إلاّ مرة واحدة على لسان الملائكة. ولم يرد على لسان أي إنسان آخر؛ من الأنبياء أو الصالحين. وكأنّ التسبيح هو الأصل، وهو الأسهل في التعبّد، وهو المطلوب من المؤمنين لا غير.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى:﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾(النصر:3)،﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾(الأعلى:1)، ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾(الحاقة:52)، ﴿**قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾(القلم:29)، ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾(الطور:48)، ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ**﴾(ق:39)، ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾(غافر:55)، ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾(الصافات:180).

أما إذا أضيف لفظ "التسبيح" إلى معرفة - وفي هذه الحال يأتي مصدراً نائباً عن فعله - فإنه لا يضاف إلا إلى لفظ الجلالة، دون غيره من الأسماء الأخرى كقوله تعالى:﴿**وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(النمل:8)، ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي**

---

[1] - محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، د ت، د ط. ج1، ص56.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص20.

[3] - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص405.

[4] - المرجع نفسه، ج2، ص226.

[5] - نفسه، ج1، ص406.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(الحديد:1)، ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾(التغابن:1)، ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾(الجمعة:1)، ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾(الصف:1)، ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾(الحشر:1)، ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾(الحشر:23). وذلك لاجتناب عبارة "الحمد للرب"، لأنّ التعبير القرآني قد عزف كلياً عن ذكر "الرب" معرفاً بِالْ. وكما قال {باسم الله} قال كذلك {الحمد لله}. وفي ذلك تنبيهاً وتعليماً للمسلمين قواعد الدعاء والثناء على المولى جل وعلا، والله أعلم بمراده.

وإذا أضيف لفظ "التسبيح" إلى اسم ضمير؛ غائب،أو حاضر، أو إلى اسم موصول؛ مثل الذي، فلا يشترط أن يكون اسم "رب" هو المفضل في الاستخدام. مثل قوله عز وجل:﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (يس:83)، ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾(الزخرف:13)، ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا**﴾(البقرة:32).

ومهما يكن من أمر، فإنّ القرآن الكريم أمرنا بالتسبيح، لا بالتقديس، فأجرى مادة "سبح" على أكثر من صيغة، وعلّمنا كيفية التسبيح، كما ورد على لسان بعض الأنبياء والصالحين في آيات كثيرة، مثل قوله سبحانه:﴿**وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا**﴾(الإسراء:93)، ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ**﴾(القلم:28)، ﴿**قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾(القلم:29)، ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾(مريم:11).

والنتيجة التي نستخلصها مما سبق هي: أنّ للتعبير القرآني "هندسة" بديعة، وبناء عجيب في إيراد مادة "شكر"، ومادة "حمد"، مع أنهما ينتميان إلى مجال واحد. وفي الوقت نفسه نجد القرآن الكريم يُعرِض عن استخدام ألفاظ أخرى هي نظائر لهذين اللفظين؛ مثل: المدح، والثناء اللذين لم يردا في الخطاب القرآني مطلقاً. ولعل الأمر راجع إلى الشحنة الدلالية التي في لفظ "شكر" ولفظ "حمد"، والتي لا توجد في غيرهما. أو لأنّ المدح والثناء قد علقا في أذهان العرب بالشعر، والتقرب إلى الأمراء والملوك، ولا يخفى على الدارس ما في هذين اللفظين من نفاق، ومجاملة. وهذا لا ينبغي في جنب الله تعالى بحال.

3 - **القديم والعتيق:** هما لفظان متقاربان في الدلالة، وظّف الأول في معنى الانتقاص، والثاني في معنى القداسة والهيبة.

جاء في كتاب الفروق:« الْعَتِيق هُوَ الَّذِي يدْرك حَدِيث جنسه فَيكون بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ عتيقا أَو يكون شَيْئا يطول مكثه وَيبقى أَكثر مِمَّا يبْقى أَمْثَاله مَعَ تَأْثِير الزَّمَان فِيهِ فيسمى عتيقا وَلِهَذَا لَا يُقَال إِن السَّمَاء عتيقه وَإِن طَال مكثها لِأَن الزَّمَان لَا يُؤثر فِيهَا وَلَا يُوجد من جِنْسهَا مَا تكون بالنسة إِلَيْهِ عتيقا... والقدم لَا يُسْتَفَاد وَالْعِتْق يُسْتَفَاد أَلا ترى أَنه لَا يُقَال سأقدم هَذَا الْمَتَاع كَمَا تَقول سأعتقه ويتوسع فِي الْقدَم فَيُقَال دُخُول زيد الدَّار أقدم من دُخُول عَمْرو وَلَا يُقَال أعتق مِنْهُ »[1]. ومن ثَمّ، كانت الكعبة بيت الله العتيق. ولم يرد لفظ "العتيق" إلا مقترناً بلفظ "البيت" في

[1] - العسكري، الفروق اللغوية، ص117.

موضعين اثنين في سورة الحج. أما القديم فيرد بمعنى السابق في الزمان« وأكثر ما يستعمل القديم باعتبار الزمان نحو: {العرجون القديم}[يس/39]، وقوله:{قدم صدق عند ربهم}[يونس/2]، أي: سابقة فضيلة، وهو اسم مصدر »[1].

وقال الأصفهاني:« العتيق: المتقدم في الزمان، أو المكان، أو الرتبة، ولذلك قيل للقديم: عتيق، وللكريم عتيق، ولمن خلا عن الرق: عتيق. قال تعالى: {وليطوفوا بالبيت العتيق}[الحج/29] »[2]. غير أنّ التعبير القرآني قد اقتصر على وصف البيت؛ أي الكعبة، بالعتيق دون أي بقعة أخرى، أو بلد آخر. وفي ذلك دلالة الرتبة والمكانة والشرف، مع إضافة مفهوم القدم الزمني، لأن الكعبة تعتبر أول بيت وضع للناس بنص القرآن نفسه، وبنص الحديث النبوي. قال تعالى:﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا**﴾(آل عمران:96).

أما لفظ "القديم" فورد أربع مرات؛ جاء في إحداها بصيغة "الأقدمون". وورد في مقام الانتقاص، وقلة القيمة. قال تعالى:﴿**قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ**﴾(يوسف:95)، ﴿**قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ**﴾ (الشعراء:75- 76)، ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾(يس:39)، ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ**﴾(الأحقاف:11). قال ابن عاشور:« القديم هو البالي لأنه إذا انقطع الثمر تقوّس واصفارّ وتضاءل »[3]، ويحدث ذلك بفعل الزمن الذي يؤثر في الخلائق كلها، فيُتعب بعضها، ويُهلك أخرى، ويوهن طائفة ثالثة، وهكذا.

4 - البحر واليم:

هما مفردتان متقاربتان في الدلالة، إلاّ أنّ الأولى تستخدم بكثرة في الخطابين معاً؛ المكي والمدني، وتأتي مفرداً ومثنى، وجمعاً بصيغتيْ؛ بحار، وأبحر. أما الثانية فلا ترد إلا في الخطاب المكي، وترد مفرداً معرفاً بأل فقط، وقد جاءت سبع مرات، متعلقة بقصة موسى عليه السلام وفرعون، وذلك في الآيات التالية، قال عز وجل:﴿**فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾(الأعراف:136)، ﴿**إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ**﴾ (طه:38 - 39)، ﴿**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**﴾(طه:78)، ﴿**وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**﴾(طه:97)، ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ**﴾(القصص:7)، ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾(القصص:40)، ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾(الذاريات:40).

أما إذا كان الحديث عن أمر آخر، فيورد التعبير القرآني مصطلح "بحر"، كما في قصة موسى عليه السلام وفتاه. قال تعالى:﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾(الكهف:63). وكما أورده عند الحديث عن آياته في الكون والطبيعة، في خمس وثلاثين 35 آية، منها قوله تعالى:﴿**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ**﴾(البقرة:164)، ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ**}(المائدة:96)،

---

[1]- الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص227.

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص63

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج23، ص23.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(الأنعام:59)، ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(يونس:22)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾(إبراهيم:32)، ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾(النحل:14)، ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾(الإسراء:66)، ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾(الكهف:79)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾(الحج:65)، ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾(النور:40)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾(لقمان:31).

وهذه المواضع كلها وردت في الخطاب المكي عدا آيات البقرة والمائدة والحج[1] والنور. ولا يخرج ذكر "البحر" في الآيات المدنية، عن السياق الموضوعاتي الذي ورد فيه هذا اللفظ في الآيات المكية؛ وهو سياق التذكير بنعم الله تعالى، وبقدرته العظيمة في خلق المخلوقات، وعنايته الربانية بها، لعل الإنسان يعود إلى ربه، ويحمده على ذلك كله. وكأن في توظيف لفظ "البحر" إيحاء بأنه المصطلح الأصلي عند الحديث عن المساحات المائية الزرقاء التي على الأرض.

أورد ابن فارس في المقاييس عن الخليل قوله:« سُمِّيَ البَحْرُ بَحْرًا لِاسْتِبْحَارِهِ وَهُوَ انْبِسَاطُهُ وَسَعَتُهُ »[2]. ثم أضاف في موضع آخر من الصفحة نفسها قول أبي زيد إنّ الأنهار بحار كذلك[3]. أما في تعريف اليمّ، فلم يزد الراغب الأصفهاني عن قوله: اليمّ البحر[4]. أما ابن منظور فيقول:« اليَمُّ البحرُ الَّذِي لَا يُدْرَكُ قَعْرُه وَلَا شَطَّاه، وَيُقَالُ: اليَمُّ لُجَّتُه. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: اليَمُّ البحرُ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الْكِتَابِ... وزَعَم بعضُهم أَنها لُغَةٌ سُرْيانية فَعَرَّبَتْهُ الْعَرَبُ، وأَصله يَمًّا، ويَقَع اسمُ اليَمّ عَلَى مَا كَانَ مَاؤُهُ مِلْحاً زُعاقاً، وَعَلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ العَذْب الْمَاءِ، وأُمِرَتْ أُمُّ مُوسَى حينَ وَلَدَتْه وخافتْ عَلَيْهِ فِرْعَوْنَ أَن تجعلَه فِي تَابُوتٍ ثُمَّ تَقْذِفَه فِي اليَمّ، وَهُوَ نَهرُ النِّيلِ بِمِصْرَ، حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَمَاؤُهُ عَذْبٌ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ؛ فَجَعل لَهُ ساحِلًا، وَهَذَا كُلُّهُ دليلٌ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ اللَّيْثِ إِنه الْبَحْرُ الَّذِي لَا يُدْرَكُ قَعْرُه وَلَا شَطَّاه »[5].

أما لفظ البحر، فيقول فيه ابن منظور:« البَحْرُ: الماءُ الكثيرُ، مِلْحاً كَانَ أَو عَذْباً، وَهُوَ خِلَافُ البَرِّ، سُمِّيَ بذلك لعُمقِهِ واتساعه، قد غَلَبَ عَلَى المِلْحِ حَتَّى قَلّ فِي العَذْبِ، وَجَمْعُهُ أَبْحُرٌ وبُحُورٌ وبِحارٌ. وماءٌ بَحْرٌ: مِلْحٌ، قَلَّ أَو كَثُرَ... سُمِّيَ البَحْرُ بَحْراً لِسِعَتِهِ وَانْبِسَاطِهِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ إِن فُلَانًا لَبَحْرٌ أَي وَاسِعُ الْمَعْرُوفِ؛ قَالَ: فَعَلَى هَذَا يَكُونُ البحرُ للملْح والعَذْبِ »[6].

---

[1] - ذكر ابن عاشور أنّ هذه السورة مختلف في كونها مكية أو مدنية فقال:« قَالَ الْجُمْهُورُ هَذِهِ السُّورَةُ بَعْضُهَا مَكِّيٌّ وَبَعْضُهَا مَدَنِيٌّ وَهِيَ مُخْتَلِطَةٌ، أَيْ لَا يُعْرَفُ الْمَكِّيُّ بِعَيْنِهِ، وَالْمَدَنِيُّ بِعَيْنِهِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهُوَ الْأَصَحُّ »(التحرير والتنوير، ج 17، ص180).

[2] - أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص201.

[3] - ينظر المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفرادت القرآن، ج2، ص549.

[5] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص647.

[6] - المرجع نفسه، ج4، ص41.

أما في القرآن الكريم فيكاد استخدام لفظ "اليمّ" يقتصر على أرض مصر، لأنّ معظم المواضع التي ورد فيها هذا اللفظ تخص قصة موسى عليه السلام وفرعون. والمقصود باليمّ نهر النيل، أو البحر الأحمر. غير أنّ لفظ "البحر" ورد في قصة موسى عليه السلام، كما في قوله تعالى:﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ**﴾ (الشعراء:63)، ﴿**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ**﴾(البقرة:50)، ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ**﴾ (الأعراف:138)، ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ**﴾(يونس:90)، ﴿**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا**﴾(طه:77)، ﴿**فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ**﴾(الدخان:23 - 24). وفي ذلك دلالة واضحة على الفرق بين البحر واليمّ. إلاّ أنّ القرآن لم يقل: اقذفيه في النهر، للدلالة على نهر النيل، إنما وظّف لفظ "اليمّ". أما لفظ "النهر" فيأتي به التعبير القرآني في سياق النعيم، أو في ذكر آيات الله تعالى في خلقه.

وكل هذه المواضع التي تتحدث عن البحر تخص حادثة غرق فرعون وجنوده. ومعلوم أنّ بني إسرائيل قد اجتازوا البحر الأحمر مع موسى عليه السلام، وليس نهر النيل، ليصلوا إلى أرض الميعاد من بلاد كنعان. أما عند الحديث عن اليمّ، فيفهم من أحداث القصة أنه نهر النيل. ولذاك قال ابن عاشور:« والْيَمّ: الْبَحْرُ وَهُوَ هُنَا نَهْرُ النِّيلِ الَّذِي كَانَ يَشُقُّ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ حَيْثُ مَنَازِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَالْيَمُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مُرَادِفُ الْبَحْرِ، وَالْبَحْرُ فِي كَلَامِهِمْ يُطْلَقُ عَلَى الْمَاءِ الْعَظِيمِ الْمُسْتَبْحَرِ، فَالنَّهْرُ الْعَظِيمُ يُسَمَّى بَحْرًا قَالَ تَعَالَى وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هَذَا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ [فاطر:12] ، فَإِنَّ الْيَمَّ مِنَ الْأَنْهَارِ »[1].

ونلاحظ - إذاً - أنّ القرآن الكريم يستخدم البحر، واليمّ بطريقة مطّردة حين يتحدث عن قصة موسى عليه السلام، ففي المرحلة الأولى من حياة هذا الرسول العظيم يذكر القرآن مصطلح "يمّ"، فأمّه ألقته في اليم؛ أي في نهر النيل، وليس في البحر؛ أي البحر الأحمر. أما مصطلح "بحر" فيذكره في حادثة العبور حين أدرك فرعون وجنوده موسى وقومه. فالله تعالى فرق لبني إسرائيل البحر الأحمر[2]، وليس نهر النيل. وفي ذلك توظيف لغوي دقيق معجز عن واقع جغرافي محدد حدثت فيه تلك القصة. وهذا الاستخدام وارد حتى في السور المدنية التي تذكر قصة بني إسرائيل، ونجاتهم من فرعون في حادثة شق البحر؛ الذي هو البحر الأحمر وليس نهر النيل.

ولذلك نجد في القرآن استخدام لفظ "البحر" في قصة موسى ونجاته مع قومه، وإغراق فرعون وجنوده. لكون حادثة الشق والإغراق، كانت في البحر الأحمر. وهذه المواضع هي قوله تعالى:﴿**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ**﴾(البقرة:50)، ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ**﴾(الأعراف:138)، ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ**﴾(يونس:90)، ﴿**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ**﴾(طه:77)، ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ**﴾(الشعراء:63)، ﴿**وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ**﴾(الدخان:24).

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص74. وينظر، أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن، ص494.

[2] - ينظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص494.

إلاّ أنّ هناك آيات أخر تذكر حادثة غرق فرعون، ولكن وُظّف فيها لفظ "اليمّ"، بدلاً من "البحر"، وذلك في قوله تعالى:﴿**فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾(الأعراف:136)، ﴿**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**﴾(طه:78). ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ**﴾(الذاريات:40)، ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾(القصص:40). ولسنا ندري سرّ توظيف لفظ "اليمّ" في هذه الآيات، وإن بدت الآيتان الأخيرتان بالمفردات ذاتها تقريباً، وتتعلّقان بالموضوع ذاته أيضاً، وحتى رقم الآية هو نفسه، وهو الرقم 40.

وخلاصة القول: يكاد كثير من الدارسين لا يفرقون بين مدلول "البحر" ومدلول "اليمّ"، فهما عند بعضهم مترادفان تماماً، إلاّ أنّ القرآن الكريم قد أوردهما بنوع من الاختلاف. ولكنه توظيف معقد، لا نكاد نشعر بالفرق بين اللفظين، والفرق الوحيد المطّرد دون تخلّف هو ورود لفظ "اليمّ" في الخطاب المكي فقط، ولا يرد جمعاً ولا نكرة أبداً، على عكس لفظ "البحر"، الذي ورد نكرة مرة واحدة[1]، وفي بقية الآيات ورد جمعاً بصيغة "بحار"، و"أبحر". ولعل ذلك راجع إلى أنّ لفظ "بحر" أكثر استخداماً في كلام العرب، أو أنّ لفظ "اليمّ" لغة قديمة، احتفظ بها القرآن كشاهد تاريخي عليها، أو أنها كانت مستخدمة في بلاد مصر في العصور الخالية، أو لأمر آخر لا نعرفه. وفي ذلك إعجاز بيّن، وواضح، يدعو إلى التأمل والتدبّر في آيات هذا الكتاب الكريم.

5 - **الحلم والرؤية**: يرد لفظ "أحلام" جمعاً دائماً، كما في هذه الآيات، قال تعالى:﴿**قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ**﴾(يوسف:44)، ﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ**﴾(الأنبياء:5)، وتسبق دائماً بلفظ "أضغاث". و« ضغث: قبضة ريحان، أو حشيش أو قضبان، وجمعه: أضغاث. قال تعالى:{**وخذ بيدك ضغثا**} [ص/44]، وبه شبه الأحلام المختلطة التي لا يتبين حقائقها، {قالوا أضغاث أحلام}[يوسف/44]: حزم أخلاط من الأحلام »[2]. وأضغاث أحلام من لا يفهم ولا يمكن تأويله، أو وقوعه في اليقظة.

قال ابن فارس:«(حَلَمَ) الْحَاءُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: الْأَوَّلُ تَرْكُ الْعَجَلَةِ، وَالثَّانِي تَثَقُّبُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ رُؤْيَةُ الشَّيْءِ فِي الْمَنَامِ. وَهِيَ مُتَبَايِنَةٌ جِدًّا، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ اللُّغَةِ لَيْسَ قِيَاسًا »[3]. وقال غيره:« حلم في نومه- يحلم حلما وحلما: رأي في منامه رؤيا »[4]. وقال آخر:« الحُلْمُ والحُلُم: الرُّؤْيا، وَالْجَمْعُ أَحْلام. يُقَالُ: حَلَمَ يَحْلُمُ إِذا رأَى فِي المِنام »[5].

أما لفظ الرؤيا فورد فيه:« والرؤيا: ما يرى في المنام، وهو فعلى، وقد يخفف فيه الهمزة فيقال بالواو، وروي: (لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا)... قال:{لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق}[الفتح/27]، {وما جعلنا الرؤيا

---

[1] - الآية هي:﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾(النور:40).

[2] - الراغب الأصفهاني، مفرادت القرآن، ج2، ص13.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص94.

[4] - حسن عز الدين الجمل، خطوطة الجمل، ج2، ص162.

[5] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص145.

التي أريناك}[الإسراء/60] »[1]. وجاء أيضاً« الرَّاءُ وَالْهَمْزَةُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى نَظَرٍ وَإِبْصَارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصِيرَةٍ »[2]. والرؤية هي ما يراه المرء في منامه ويمكن تأويله، أو يمكن وقوعه في اليقظة كتصديق لما رآه النائم. وقد وردت أربع مرات في القرآن الكريم، هي قوله عز وجل:﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**﴾(يوسف:43)، ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾(الإسراء:60)، ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾(الصافات:104- 105)، ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**﴾(الفتح:27). فليست رؤيا الأنبياء والصالحين، أحلاماً أبداً، وكلا المصطلحين ورد في القرآن المكي فقط، عدا سورة الفتح.

والملاحظ في توظيف التعبير القرآني لهذين المصطلحين، أنه يوردهما في الخطاب المكي خصوصاً، معظمه في قصص الأنبياء. غير أنّ لفظ "الأحلام" ذكر في قصة يوسف عليه السلام، وهي الحلم الذي رآه ملك مصر، ولكنه عبّر عنه بلفظ "رؤياي"، أما المعبّرون فقالوا: أضغاث أحلام. ويبدو أنّ الملك كان يشعر بأنّ لما رآه تفسيراً معقولاً، فقال: رؤياي، والمعبّرون الذين لم يفهموا تأويله وصفوه بلفظ "أحلام"، وهو من باب الأخلاط التي لا تفهم أحياناً. أما لفظ "رؤيا" فيقصد به ما يراه النبي في منامه، أو في يقظته بوحي ما، ويكون صادقاً دائماً. وقد يستخدم مجازاً في أحلام الناس كذلك، لكون بعضها تصدق أحياناً. وفي هذا التنوع في اللفظ دليل على اختلاف مكانة الشخص الذي يرى هذه الأشياء.

نكتفي بهذه العيّنات من ألفاظ القرآن الكريم، للدلالة على أنّ التعبير القرآني لا يورد مفرداته؛ التي هي اللبنات الأولى؛ والمادة الخام، للوحي إلا بمقدار وميزان، مصداقاً لقوله تعالى:﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾(الرعد:8). وبهذه التنوعات اللفظية يصنع هذه الدلالات كلها، وبهذا البناء الفريد، والهندسة البديعة، يوجّه أنظارنا إلى تدبر آياته، من خلال مفرداته التي يضعها في فضاء خاص مميز، لا يلتبس بمفردات فضاء آخر. إنّ الإنسان ليقف مبهورا، وعاجزاً عن أن يجد تفسيراً مقنعاً لهذا التصرف في إيراد المفردة القرآنية بهذا التنوع، إنّه الإعجاز الواضح، والقدرة الباهرة.

والمبحث التالي نموذج آخر من التنوع المفرداتي في إيراد ألفاظ القرآن الكريم، واخترنا له عنوان المنظومة اللفظية، الذي استوحيناه من أحد الباحثين المعاصرين في حقل العلوم الإسلامية.

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفرادت القرآن، ج1، ص429.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص472.

المبحث الرابع: فضاء المنظومة اللفظية

قصدنا بهذا العنوان الألفاظ المتشابهة في الدلالة، أو المترادفة، والتي تكون أكثر من اثنين، للتفرقة بينها وبين الألفاظ الثانية الواردة في المبحث الثالث. وقد استعرنا هذا المصطلح من حلقات الشيخ أحمد الكبيسي على قناة الشارقة، إذ يصب بحثه في التفرقة بين المعاني الدقيقة التي في الألفاظ المتقاربة المعنى، فأطلق عليها اسم "المنظومة"، أو "الكلمة وأخواتها" مثل: منظومة ولد، غلام، طفل، صبي، ابن. ومنظومة خوف، وجل، رعب، خشية. ومنظومة السنة، العام، الحول، الحِجّة. ومنظومة تلا ـ قرأ ـ رتّل...إلخ.

وقد لفت انتباهنا في هذه الألفاظ، أنّ القرآن الكريم يختار من بين تلك المفردات المتقاربة، ما يتلاءم مع سياق ما، وفضاء خاص، فيكثر من إيراد بعضها، ويقلل من أخرى، بحسب ما يتطلبه المعنى، والواقع التاريخي وغير ذلك من المناسبات. وقد يذكر واحداً من هذه الألفاظ أو اثنين في الخطاب المكي، ثم يذكر مشابهه في الخطاب المدني؛ فمفردتا "غلام" و"صبي" ـ مثلاً ـ تردان في الخطاب المكي فقط، وفي الخطاب المدني ترد مفردتان أخريان هما: ولد (أولاد)، وأبناء. وترد مفردتا "سنين" و"حِجة" في الخطاب المكي فقط، ويستعاض عنهما في الخطاب المدني بألفاظ أخرى مشابهة هي: عام، وحول. وغيرها من الألفاظ الأخرى التي هي من قبيلها.

1 - **منظومة الحساب والتقويم:**

نجد في هذه المنظومة المفردات التالية: سنة، وحِجّة، وعام، وحول. « والحِجَّةُ: السَّنَةُ، وَالْجَمْعُ حِجَجٌ »[1].

وقد وردت مفردة "سنة"، في الخطاب المكي وحده، ووردت مفردة "حِجة" مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ**﴾(القصص:27). والظاهر في هذه الآية أنّ القائل هو "الشيخ" الصالح – الراجح هو شعيب عليه السلام - الذي استأجر موسى عليه السلام لرعي الغنم مدة ثمانية أعوام، والقرآن الكريم نقل قوله كما صدر عن القائل. والمفسرون كلهم يذكرون أنّ معنى الحجج هو السنون« والحجج: اسم جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة، مشتقة من اسم الحج لأن الحج يقع كل سنة وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة العربية»[2]، و« الحجة تفيد أنها يُحجّ فيها، الحجة المرة الواحدة من حجّ يحُجّ، الحَجّة فَعْلة مثل الجَلسة والقَعدة، ثم سميت بها السنة، كما يسمى الشيء باسم ما يكون فيه »[3]. ولكن، لماذا استخدم القرآن - على لسان الشيخ الصالح - لفظة "حِجج" بدلاً من سنين أو أعوام ؟ وهي المرة الوحيدة التي تذكر هذه اللفظة في كل القرآن.

والناظر في القرآن الكريم، يجد بسهولة أنّ لفظ "السنين" قد ورد بصيغتيْ المفرد والجمع فقط، في اثنيْ عشر موضعاً في الخطاب المكي فقط، وورد أكثر بكثير من أيّ مفردة أخرى خاصة بالتقويم، كما أنه لم يرد بصيغة الرفع؛ أي سنون. وللعلماء آراء مختلفة في مدلول لفظ "سنة"، والفرق بينها وبين لفظ "العام". من ذلك قول الأصفهاني:

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص227.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص106 – 107.

[3] - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص271.

« السنة في أصلها طريقان: أحدهما: أن أصلها سنهة، لقولهم: سانهت فلانا، أي: عاملته سنة فسنة، وقولهم: سنيهة، قيل: ومنه قوله تعالى:{لم يتسنه}[البقرة/259]، أي: لم يتغير بمر السنين عليه، ولم تذهب طراوته. وقيل: أصله من الواو، لقولهم سنوات، وقال عز وجل:{أربعين سنة}[المائدة/26]، {سبع سنين دأبا}[يوسف/47]، {ثلثمائة سنين}[الكهف/25]، {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين}[الأعراف/130]، فعبارة عن الجدب وأكثر ما تستعمل السنة في الحول الذي فيه الجدب، يقال: أسنت القوم: أصابتهم السنة »[1].

ويبدو أن التفريق بين دلالة "السَنة"، ودلالة "العام" أمر صعب، وغير دقيق. لذلك قال العسكري:« العَام أَيَّام وَالسّنة جمع شهور... وَيجوز أَن يُقَال الْعَالم يُفِيد كَونه وقتا لشَيْء وَالسّنة لا تفيد ذَلِك وَلِهَذَا يُقَال عَام الْفِيل وَلَا يُقَال سنة الفيل وَيُقَال فِي التَّارِيخ سنة مائَة وَسنة خمسين وَلَا يُقَال عَام مائَة وعام خمسين إِذْ لَيْسَ وقتا لشَيْء مِمَّا ذكر من هَذَا الْعدَد وَمَعَ هَذَا فَإِن العَام هُوَ السّنة وَالسّنة هِيَ العَام وَإِن اقْتضى كل وَاحِد مِنْهُمَا مَا لَا يَقْتَضِيهِ الآخر مِمَّا ذَكَرْنَاهُ كَمَا أَن الكل هُوَ الجمع وَالجمع هُوَ الكل وَإِن كَانَ الْكل إحاطة بالأبعاض وَالْجمع إحاطة بالأجزاء »[2].

ولسنا نفهم عبارة "إِذْ لَيْسَ وقتا لشَيْء"، فهل السنة ليست وقتا لوقوع أحداث تاريخية؟ وما قيمة الحساب بالسنين إذن؟ وقد قال تعالى:﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾(العنكبوت:14). إنما قول الكاتب يدل على الاضطراب، وعلى عدم وضوح رؤيته في هذه المسألة. ولعلها من الاستخدام القديم في اللغة، ثم صار التعبير باللفظين من باب الترادف.

فالشعراوي - في تفسيره - لا يرى فرقاً بين اللفظين إذ يقول:« ونلحظ هنا {أَلْفَ سَنَةٍ ...} ثم استثنى منها {إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً...} ولم يقُلْ خمسين سنة، فاستثنى الأعوام من السنين، ليدلَّك على أن السنة تعني أيَّ عام، ويُرفَع الخلاف؛ لأن البعض يقول: إن السنة هي التي تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة، في حين أن السنة ليس من الضروري أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهي بذي الحجة، إنما تبدأ في أي وقت وتنتهي في مثله بعد عام كامل »[3]. ويردف قائلاً: « كأنّ الحق سبحانه أراد أنْ يُعْلِمنا أن السنة هي العام، لا فَرْق بينهما، ولا داعي للجاج في هذه المسألة »[4]. وكذلك رأي الزمخشري« لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة »[5]، ورأي ابن عاشور أيضاً« وَأُوثِرَ تَمْيِيزُ أَلْفَ بِـ سَنَةٍ لِطَلَبِ الْخِفَّةِ بِلَفْظِ سَنَةٍ، وَمُيِّزَ خَمْسِينَ بِلَفْظِ عَامًا لِئَلَّا يُكَرَّرَ لَفْظُ سَنَةٍ »[6].

ولكننا سنصطدم بآية أخرى استثنى فيها القرآن السنين من السنين وهي قوله تعالى:﴿**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا**﴾(الكهف:25). فلفظ "تسعاً" جاء مذكراً؛ أي أنّ التمييز مؤنث بالضرورة، ولو استثنى الأعوام، لقال: تسعةً، لأنّ قاعدة تمييز العدد من ثلاثة إلى عشرة، أن يُذكّر مع المؤنث ويُؤنث مع المذكّر. ومعنى هذا

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص505.

[2] - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص271.

[3] - الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، ج18، ص11097.

[4] - المرجع نفسه، ج18، ص11098

[5] - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص445 - 446.

[6] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص222.

أنّ الرأي القائل باستثناء الأعوام من السنين لاجتناب التكرار، غير دقيق، إلاّ إذا كان المقصود من تلك الآراء هو حين يذكر المستثنى في السياق، وليس حين يحذف. ففي هذه الحال قد يكون التخريج مقبولا.

ومهما يكن من أمر هذه المسألة، فإن التعبير القرآني لم يأت بلفظ "سنين" إلا في القرآن المكي، سوى سورة الحج. ولم يأت به مفردا إلا قليلاً، وجاء في سياق ذكر قصص الأولين، كقوله تعالى:﴿**فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾ (يوسف:42)، ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا**﴾(الكهف:11)، ﴿**فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ**﴾(طه:40). أو في ذكر قدرة الله تعالى فيما خلق؛ مثل قوله عز وجل:﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾(المعارج:4)، ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾(الحج:47).

2 - **منظومة الإنسان:** وتحوي المفردات التالية: إنسان، امرؤ، رجل، فتى، صبي، غلام، ولد، ابن. و يأتي لفظ "إنسان" بمشتقات أخرى هي: إنس، ناس، أناسي، بشر. ولكل من هذه المصطلحات استخدام خاص في سور القرآن الكريم كما يلي:

2 - 1 - **فضاء مشتقات الإنسان:**

أ - **الإنس:** ورد خمس عشرة 15 مرة. جله في القرآن المكي، عدا آية الرحمان. وقد نودي الإنس مع الجنّ مرتين فقط؛ في قوله تعالى:﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**﴾(الأنعام:130)، ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا**﴾(الرحمان:33). أما بقية الآيات فكانت وصفاً وتقريراً لحقائق عن هذين العالَميْن. مثل قوله تعالى:﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ**﴾ (الأنعام:128)، ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(الذاريات:56)، ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾(الجن:5).

تقول عائشة عبد الرحمان في كتابها "الإنسان في القرآن":« فلفظ الناس يأتي في النص القرآني نحو مائتين وأربعين مرة بدلالة واضحة على اسم الجنس لهذه السلالة الآدمية... أما الإنس والإنسان فيجمع بينهما ملحظ مشترك من الأصل اللغوي من مادة "أ ن س" في دلالتها على نقيض التوحش. ثم يختص كل من اللفظين في البيان القرآني، بملحظ متميز وراء ذلك الملحظ المشترك »[1]. ثم تضيف معتمدة الإحصاء قائلة إنّ لفظ الإنس:« يأتي دائما مع الجن على وجه التقابل، يطّرد ولا يتخلف في كل الآيات التي فيها ذكر "الإنس" وعددها ثماني عشرة آية »[2]. ولكنها لم تعرض للفرق في توظيف هذه المفردات في التعبير القرآني، كما فعلت مع لفظ "الإنسان" الذي أفردت له معظم الكتاب.

ب - **الإنسان**: ورد 65 مرة جلها في القرآن المكي، وورد معرفة إلا في موضع واحد هو﴿**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾(الإسراء:13). وورد خمس مرات في المدني هي:﴿**وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾(النساء:28)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ**

[1] - عائشة عبد الرحمان، مقال في الإنسان - دراسة قرآنية، دار المعارف، مصر، ط2، 1969، ص13 - 14.

[2] - المرجع نفسه، ص14.

UNIVERSITE SETIF2

يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾(الحج:66)، ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾(الأحزاب:72)، ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ**﴾(الرحمان:1- 3)، ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾(الرحمان:14)، ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾(الإنسان:1 - 2). وقد أشارت عائشة عبد الرحمان إلى ما في مصطلح "الإنسان" من متعلّقات، نلخصها فيما يلي: خلقه من علق، اختصاصه بالعلم، تورّطه في الطغيان أحيانا. ثم تتابع بحثها مركّزة على لفظ "الإنسان" فقط، فلم تقابله بلفظ "الناس" أو لفظ "الإنس"[1].

ج - **الناس**: هو اللفظ الأكثر استخداماً في القرآن، ويرد في الخطابين معاً. وقد ورد 241 مرة. وقد ورد مرة واحدة بصيغة "أناسي" في قوله تعالى:﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾(الفرقان:48 - 49). قال ابن عاشور:« وَالْأَنَاسِيُّ: جَمْعُ إِنْسِيٍّ، وَهُوَ مُرَادِفُ إِنْسَانٍ. فَالْيَاءُ فِيهِ لَيْسَتْ لِلنَّسَبِ. وَجُمِعَ عَلَى فَعَالِيَّ مِثْلِ كُرْسِيٍّ وَكَرَاسِيَّ. وَلَوْ كَانَتْ يَاؤُهُ نَسَبٌ لَجُمِعَ عَلَى أَنَاسِيَةٍ كَمَا قَالُوا: صَيْرَفِيٌّ وَصَيَارِفَةٌ. وَوُصِفَ الْأَنَاسِيُّ بِ كَثِيراً لِأَنَّ بَعْضَ الْأَنَاسِيِّ لَا يَشْرَبُونَ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ وَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ مِنْ مِيَاهِ الْأَنْهَارِ كَالنِّيلِ وَالْفُرَاتِ، وَالْآبَارِ وَالصَّهَارِيجِ، وَلِذَلِكَ وُصِفَ الْعَرَبُ بِأَنَّهُمْ بَنُو مَاءِ السَّمَاءِ. فَالْمِنَّةُ أَخَصُّ بِهِمْ »[2]. أما في بقية الآيات فيأخذ لفظ "الناس" دلالته العامة على الجنس البشري العاقل المكلّف. ولذلك ورد كثيرا في أسلوب النداء، وفي سياق تقرير الحقائق.

د - **البشر**: لم يناد التعبير القرآني البشر إطلاقاً، فليس هناك عبارة: يا أيها البشر، أو : يا بشر. إنما يرد في سياق الخبر، من غير وصفهم بصفات الكفر أو الإيمان؛ أي لا يطلق عليهم أحكاماً قيمية. إنما أورده في معنى حيادي، أو كما قال الراغب:« وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر »[3]. ومن ذلك قوله تعالى:﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾(آل عمران:47)، ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾(إبراهيم:11)، ﴿**قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ**﴾(الحجر:33)، ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**﴾(الكهف:110). وغيرها من الآيات، التي ورد معظمها في الخطاب المكي. ما عدا ما جاء في سورة المدثر في قوله تعالى:﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ**﴾(المدثر:27 - 29)، وفي قوله: ﴿**نَذِيرًا لِلْبَشَرِ**﴾(المدثر:36)، فقد ورد في الآيتين لفظ "البشر" في مقام الوعيد.

وهناك ملحظ آخر في توظيف المفردات الدالة على الإنسان، وهي كثيرة نوضحها فيما يلي:

2 - 2 - **فضاء الإنسان البالغ**: يوظف القرآن الكريم طائفة من المفردات الخاصة بالإنسان البالغ؛ مثل: رجل، امرأ، عبد، مرء، زوج، بعل. ولا يستخدم أبداً لفظ "شخص"، إلا ما كان مشتقاً مستخدماً بدلالة مغايرة؛ أي "شاخصة".

---

[1] - عائشة عبد الرحمان، مقال في الإنسان، ص15 وما بعدها.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص49.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص90.

وهذه المفردات ترد بنوع من الاختلاف من حيث التعريف والتنكير، والعدد، والإضافة، ومن حيث ورودها في الخطاب المكي، أو في الخطاب المدني.

وقد عرض المطعني للفرق بين لفظ "زوج"، ولفظ"بعل"، مستنتجاً أن القرآن يطلق لفظ "زوج" على الزوجين غير المتوافقين في حياتهما الزوجية، بسبب عقم، أو كفر، أوغيرهما. أما لفظ "بعل" فيورده في سياق التوافق بين الزوجين. يقول:« لعل السر البياني في كل أولئك أن ضَنَّ القرآن بكلمة "زوج" فى المقامات التي يسود فيها الحياة الزوجية ما يجعلها قليلة الإثمار لأن هذه الكلمة نفسها تدل على "الزوجية" لأنها ما سميت زوجاً إلا مضافاً إليها الرجل وما سمى الرجل زوجاً إلا مضافة إليه هي. ودبيب الخلاف ينافى هذا الاعتبار »[1].

ويقول في موضع آخر عن لفظ "المرأة":« ومثل هذه الكلمات كلمة "امرأة" فإن القرآن يستعملها في المواضع التى تفقد فيها الحياة الزوجية بعض مقوّماتها. سواء أكان ذلك من جانب الرجل. أو من جانب المرأة، ويؤثر كلمة "الزوج" متى استقامت تلك الحياة. وكذلك إذا انفصمت عرى الزوجية بموت وما أشبه الموت »[2]. وراح يضرب الأمثلة الدالة على زعمه، وكلما اصطدم بآية تخالف ما ذهب إليه، تأوّلها تأويلاً بعيداً، كما في قوله:« وأما قوله تعالى: (وَيَذَرُون أَزْواجاً) فذلك في مقام "الجمع" وحديثنا فى مقام الإفراد، وإنما أوثر جمع "زوج" على جمع "امرأة" لأن الثانية "امرأة" لم يستعمل لها جمع لثقله »[3]. ولكن القرآن استخدم لفظ "نساء" لما كان ذلك أصلح للمقام، وما الضير في أن يقول: ويذرون نساء؟ وقد قال تعالى:﴿**لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ**﴾(الأحزاب:52). وقال أيضاً:﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ**﴾(الأحزاب:32)، ولم يقل: يا أزواج النبي. فأين عدم التوافق بين النبي(ص) وأزواجه، حتى يصفهنّ القرآن بالنساء؟ فإذا ذكرهنّ بالغيبة قال سبحانه:﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُم**﴾(الأحزاب:6)، فاستخدم لفظ "أزواج".

إنّ الملاحظ في توظيف "النساء" أنه يرد في السور المدنية على الخصوص، للدلالة على الأحكام الخاصة بهنّ، باعتبارهنّ جزءاً أصيلاً في المجتمع، من غير أن يحدد انتماءهنّ ولا منزلتهنّ في ذلك. وقد ورد أكثر في سورتيْ النساء، والبقرة، وفي مجال الطلاق، والخِطبة، والميراث وغيرها. أما لفظ "امرأة" فيطلق مضافاً إلى زوجها في كثير من الآيات المكية، ولم يورد الخطاب القرآني "الزوج" - ولو مرة واحدة - مضافاً إلى اسم زوجها. وحتى مع آدم عليه السلام لم يقل: زوج آدم، إنما قال: زوجه، أو زوجك، أو زوجها. وهذا مطّرد في آيات القرآن الكريم كلها؛ المكّي منها والمدنيّ على السواء.

2 - 3 - **فضاء الإنسان القاصر**: تطّرد في الخطاب المكي المفردات التالية: فتى، صبي، غلام، طفل. والناس يستخدمون لفظ "شاب"، أو"شبان"، أو "شباب". وفي اللغة« الشَّباب: الفَتاء والحداثةُ. شبَّ يشِبُّ شَبَابًا وَشَبِيبَةً.. وَالِاسْمُ الشَّبيبةُ، وَهُوَ خِلافُ الشَّيبِ. وَالشَّبَابُ: جَمْعُ شابٍّ، وَكَذَلِكَ الشُّبان. الأَصمعي: شَبَّ الغلامُ يَشِبُّ شَباباً وشُبوباً

[1] - عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ص296.

[2] - المرجع نفسه، ص291.

[3] - نفسه، ص295.

وشَبِيباً، وأَشَبَّه اللهُ وأَشَبَّ اللَّهُ قَرْنَه، بِمَعْنَى؛ والقَرْنُ زِيَادَةٌ فِي الْكَلَامِ؛ وَرَجُلٌ شابٌّ، وَالْجَمْعُ شُبَّانٌ »[1]. غير أنّ القرآن لم يستخدم هذا المصطلح أبداً.

أ - غلام/ غلامين/ غلمان: جاء في مقاييس اللغة:« (غلم) الغين واللام والميم أصل صحيح يدل على حداثة وهَيْج شهوة. من ذلك الغلام، هو الطارّ الشارب. وهو بيّن الغلومية والغلومة، والجمع غلمة وغلمان... والغيلم الجارية الحدثة، والغيلم الشاب، والغيلم ذكر السلاحف »[2]. وهذا اللفظ؛ أي "الغلام" لم يرد إلا في القرآن المكي، وفي ثلاثة عشر موضعاً وورد في جلّها مفرداً، عدا موضعين ورد في أحدهما مثنى وفي الآخر جمعاً. وهذه المواضع هي قوله تعالى:﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**﴾(آل عمران:40)، ﴿**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ**﴾(يوسف:19)، ﴿**قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾(الحجر:53)، ﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**﴾(الكهف:74)، ﴿**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا**﴾(الكهف:80)، ﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا**﴾(الكهف:82)، ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا**﴾(مريم:07)، ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾(مريم:08)، ﴿**قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾(مريم:19)، ﴿**قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾(مريم:20)، ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾(الصافات :101)، ﴿**فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾(الذاريات:28)، ﴿**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ**﴾(الطور:24).

ب - **صبي:** ورد مرتين فقط للدلالة على سيدنا عيسى، وعلى سيدنا يحي عليهما السلام. قال تعالى:﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾(مريم:12). ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾(مريم:29). والصبي« من لم يبلغ الحلم، ورجل مصب: ذو صبيان. قال تعالى:{قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا}[مريم/ 29]. وصبيا فلان يصبو صبوا وصبوة: إذا نزع واشتاق، وفعل فعل الصبيان »[3]. و« (صَبَى) الصَّادُ وَالْبَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ صَحِيحَةٍ: الْأَوَّلُ يَدُلُّ عَلَى صِغَرِ السِّنِّ، وَالثَّانِي رِيحٌ مِنَ الرِّيَاحِ، وَالثَّالِثُ [الْإِمَالَةُ] فَالْأَوَّلُ وَاحِدُ الصِّبْيَةِ وَالصِّبْيَانِ. وَرَأَيْتُهُ فِي صِبَاهُ، أَيْ صِغَرِهِ »[4]. علماً بأن التعبير القرآني لم يورد جمع "صبية" ولا "صبيان"، إنما أورد "فتيان"، و"فتية" و"غلمان" فقط، وكأن جمع "صبي" لا مجال له في الخطاب القرآني، ولا يتسع له مقام خاص به.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص480.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص 387. والطارّ الشارب؛ أي الذي ظهر شاربه، وهو علامة على بلوغ مرحلة الشباب، وبداية الدخول فيها. ولعل الأصوب هو الطائر الشارب، كما أشار إلى ذلك محقق هذا المعجم. وورد الطرّ والطارّ في لسان العرب بمعنى الظهور« وطَرَّ النبتُ والشاربُ والوَبَرُ يَطُرُّ، بِالضَّمِّ، طَرّاً وطُرُوراً: طلَع ونبَت ». والطرير هو الحسن والجميل. لسان العرب، ج4، ص499.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص67.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص 331 - 332 .

ج - فتى، فتيان، فتية، فتيان، فتيات: وورد جلّ هذه المفردات في الخطاب المكي، والفتى« الطري من الشباب، والأنثى فتاة، والمصدر فتاء، ويكنى بهما عن العبد والأمة... والفتي من الإبل كالفتى من الناس، وجمع الفتى فتية وفتيان، وجمع الفتاة فتيات »[1]. وقد ورد هذا المصطلح تسع (9) مرات، بمختلف صيغه، ثماني (8) مرات منها في الخطاب المكي، خاصاً بالذكور، ومرة واحدة في الخطاب المدني، خاصاً بالإناث. وجاء في مقاييس اللغة:« (فتى): الْفَاءُ وَالتَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى طَرَاوَةٍ وَجِدَّةٍ، وَالْآخَرُ عَلَى تَبْيِينِ حُكْمٍ »[2].

وما نلحظه في استخدام لفظ "فتى" وبصيغ متنوعة، أنّ القرآن الكريم يقصّ علينا أخبار الأولين، منتقياً منها أفضل أصناف الناس، وهم الذين يحملون صفات المروءة والرجولة والعقل والقوة والفتوة. وليس ذلك إلا في لفظ "الفتى"، فالفتى هو الذي يستطيع القيام بالمهمات الكبيرة، ويصبر على الأذى والمشقة في سبيل الدعوة إلى الله.

وهنا نلاحظ مرة أخرى، أنّ القرآن الكريم ينتقي من مفردات اللغة ما يؤدي الغرض المطلوب من المعاني والدلالات المختلفة. فالذي ينظر إلى هذا العدد الكبير المتنوع من الألفاظ الدالة على شيء واحد، يدرك أنها ما جاءت ترادفاً محضاً، للتوسعة في الكلام، ولتجنب التكرار، وإلاّ لاستخدم التعبير القرآني مفردة "شباب"، أو "شبّان"، أو "شابّات"، كذلك، ولكنه لم يفعل لعدم الحاجة إليها.

3 - منظومة الاستهزاء والسخرية والضحك:

هي مصطلحات تتردد في وصف حال الكفار من كل قوم، تجاه نبيّهم وأتباعه، حين يكذّبونه ويحتقرون أصحابه. وجاء في تعريفها:« الاستهزاء يَقْتَضِي تحقير المستهزإ بِهِ واعتقاد تحقيره... والإِنْسَان يُستهزأ بِهِ من غير أَن يسْبق مِنْهُ فعل يُستهزأ بِهِ من أجله والسخر يدل على فعل يسْبق من المسخور مِنْهُ »[3]. ولا يرد هذا اللفظ إلا فعلاً؛ ماضياً ومضارعاً وأمرا؛ وذلك في أربع وثلاثين 34 آية جلّها مكي.

وجاء في مقاييس اللغة:« (سَخِرَ) السِّينُ وَالْخَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُسْتَقِيمٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ وَاسْتِذْلَالٍ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنَا سَخَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الشَّيْءَ، وَذَلِكَ إِذَا ذَلَّلَهُ لِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ.. وَيُقَالُ رَجُلٌ سُخْرَةٌ: يُسَخَّرُ فِي الْعَمَلِ، وَسُخْرَةٌ أَيْضًا، إِذَا كَانَ يُسْخَرُ مِنْهُ. فَإِنْ كَانَ هُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ قُلْتَ سُخَرَةٌ »[4]. أما عن الاستهزاء فورد ما يلي:« (هَزَأَ) الْهَاءُ وَالزَّاءُ وَالْهَمْزَةُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ. يُقَالُ: هَزِئَ وَاسْتَهْزَأَ، إِذَا سَخِرَ »[5]. ولا نشعر في هذا التعريف بالفرق بين المفردتين؛ وكأنهما مترادفتان. وإن كان هناك من فرق بينهما، فإنّ الذي لا شك فيه أنّ الكفار والمنافقين لا يفتأون يسخرون ويستهزئون من المؤمنين في كل عصر ومصر، ولو وجدوا شكلاً آخر للنيل منهم ما تركوه.

أما "الضحك" فورد بصيغة الفعل، ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ**﴾(الزخرف:47). إلا في موضع واحد جاء فيه اسم فاعل، في قوله تعالى:﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ**

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص177.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص374.

[3] - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص254.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص144.

[5] - المرجع نفسه، ج6، ص52.

وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾(النمل:19). ونعيد الفكرة، هنا، التي مفادها أنّ تنوع التصريف في المادة المعجمية يغيّر من دلالتها. فمادة "ضحك" إذا جاءت فعلاً مضارعاً فهي للدلالة على السخرية والاستهزاء. أما في غير ذلك - وهو قليل - فالمعنى مختلف بالضرورة. مثل قوله تعالى:﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (التوبة:82). قال ابن عاشور:« وَالضَّحِكُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْفَرَحِ أَوْ أُرِيدَ ضَحِكُهُمْ فَرَحًا لِاعْتِقَادِهِمْ تَرْوِيجَ حِيلَتِهِمْ عَلَى النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَذِنَ لَهُمْ بِالتَّخَلُّفِ »[1]. ولكن لماذا لا يكون ضحكاً حقيقياً قام به المنافقون تجاه النبي(ص) وأصحابه؟ وخاصة أنّ القرآن يقرنه بالبكاء، لأنه تعالى قال في آية أخرى حين أراد التعبير عن الفرح:﴿**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾(آل عمران:120). وقال أيضاً:﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ**﴾(هود:71). وآية التوبة، وآية آل عمران كلتاهما تتحدثان عن المنافقين، ومن شاكلهم.

4 - **منظومة المطر والغيث والصيّب والودق والماء**: سبق أنْ نوّه الجاحظ بمجال إيراد لفظ "مطر" في القرآن الكريم، وغيره من الألفاظ الأخرى التي تجري مجراه مثل: الجوع، والريح، بحيث وضع لكل لفظ فضاءه الخاص به. وهذا مروي عند كثير من اللغويين والنقاد والمفسرين[2]. وفيما يلي سنحاول الكشف عن الفروق التي بين هذه المصطلحات الواردة في الخطابين بتوزيع متباين.

أ - لفظ "**ماء**": هو الأشهر للدلالة على المطر أو الغيث، أو غيرهما، وقد ورد بمعنيين اثنين هما: الماء النازل من السماء لفائدة الإنسان والحيوان والنبات، وماء الإنسان الذي يخرج من صلبه، ليكون سبباً لولادة إنسان جديد. ولم يرد المعنى الثاني إلا في آيات قليلة هي قوله جل وعلا:﴿**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ**﴾(الطارق:5 - 6)، ﴿**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**﴾(المرسلات:20)، **وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**﴾(السجدة :7 - 8)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا**﴾(الفرقان:54)، ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**﴾(النور:45).

أما لفظ (مطر) فيورده الخطاب القرآني دوماً في معنى العذاب، وفي فضاء العقاب الدنيوي، للأقوام الذين طغوا وعصوا وظلموا. والآيات التي ذكر فيها هذا اللفظ بهذا الشكل أو بأحد مشتقاته، جلُها مكية. وهي قوله سبحانه:﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ**﴾(الأنفال:32)، ﴿**وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ**﴾(الفرقان:40)، ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ**﴾(الشعراء:173)، ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ**﴾(النمل:58)، ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**﴾(الأحقاف:24).

وفي كل هذه المواضع اقترن لفظ "المطر" بلفظ آخر يدل على سمة العذاب؛ مثل: "فساء مطر"، و"مطر السوء"، " فأمطر علينا حجارة"... ما عدا ما ورد في سورة النساء المدنية وهو قوله عز وجل:﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ**﴾(النساء:102)، بحيث جاء لفظ "المطر" مقترناً بلفظ "أذى"، وهو أقل دلالة على مفهوم العذاب الوارد في الآيات الأخرى.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص282.

[2] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص165. وينظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص48.

ومع ذلك فقد استخدم القرآن لفظ "مطر" في هذه الآية - المتعلقة أصلاً بالتشريع والأحكام - بدلاً من لفظ "الغيث"، أو "الماء"، وذلك ليتفق مفهوم المطر على دلالة عامة، هي العذاب والألم وما يشبههما. وكأنّ لفظ (مطر) يطلق على المعاني الدالة على ما يؤذي الإنسان، فكلما تحوّل الماء النازل من السماء إلى قوة تدمّر، أو تؤذي العبد في جسمه، وتؤثر سلباً على الخَلق فهو مطر. وقد لاحظ القرطبي ذلك حين قال:« قَالَ النَّحَّاسُ: يُقَالُ لِكُلِّ كَثِيرٍ مُطِيفٍ بِالْجَمِيعِ مِنْ مَطَرٍ أَوْ قَتْلٍ أَوْ مَوْتٍ طُوفَانُ »[1]. ولم يقل "غيث" أو "قطر" أو غيرهما. يقول إبراهيم السامرائي:« المطر هو نقمة الله على الكافرين، يرسله الله عز وجل عقاباً للأمم الكافرة والمعاندة »[2]. وهذا تعريف اصطلاحي لألفاظ القرآن؛ كما رآها الكاتب نفسه في مؤلَّفه. ويقول الأصفهاني:« المطر: الماء المنسكب، ويوم مطير وماطر، وممطر، يقال: مطرتنا السماء وأمطرتنا، وما مطرت منه بخير، وقيل: إن (مطر) يقال في الخير، و(أمطر) في العذاب »[3]. إلاّ أنّ القرآن لا يستخدم الفعل "مطر" الثلاثي، ولذلك لا يمكننا القطع في ذلك.

أما قوله تعالى على لسان قوم عاد:﴿**هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**﴾ فهو« حكاية صادقة، فقد قالوا بألسنتهم ما يستحقونه بما كسبت قلوبهم، وهذه إحدى "لطائف" البيان القرآني المعجز. وأما "تفسيراً" فإنّ القرآن عقّب على قولهم هذا وبيّن حقيقة العارض الذي انخدعوا فيه، فقال:﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ »[4]. لكن قوم عاد لم يقصدوا - بلفظ {ممطرنا} - العذاب بحال، إنما قصدوا الغيث، لأنه لا يعقل أن يطلبوا إهلاكهم، حتى ولو أخطأوا في العبارة. ولاسيما أنهم كانوا في حالة قحط، وعوز إلى الغيث. إنما استخدموا اللفظة في معناها العام المتعارف عليه بينهم، بدليل استخدام القرآن لفظ {بل} دليلاً على الإضراب، ونقض ما وقع في نفوسهم من طمع إغاثتهم بالماء. فكأنّ القرآن يقول لهم رداّ على ظنّهم: نعم ذاك عارض سيمطركم، ولكن بماء منهمر يهلككم، وليس بماء ينفعكم ويغيثكم. وكان النبي (ص) يقول عند الاستسقاء:« اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ».

ونشير، هنا، إلى أنّ هذا اللفظ لم يرد في القرآن الكريم جمعاً أبداً؛ أي بصيغة (أمطار). قال ابن منظور: « المِطَرُ الماء المنكسب من السَّحابِ والمِطرُ ماءُ السحابِ والجمع أَمْطارٌ... والمِطَرُ فِعْل المِطَرِ وأَكثر ما يجيء في الشعر وهو فيه أَحسن. والمِطْرة: الواحدة »[5]. ولئن كان لفظ "مطر" - في رأي ابن منظور - أحسن في الشعر، الذي هو أفضل كلام العرب، فإنّ القرآن الكريم قد قلب هذه القاعدة، وعكس الأمر. وكأنه يقول: إنّ ما ترونه حسناً وجميلاً، ليس كذلك عند الله. وقد قال في الآية الكريمة:﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾(البقرة:216). وإن كانت الآية تتحدث في موضوع القتال، ولكن يكمن تطبيقها على أمور كثيرة، يريدها الإنسان ويحبّها، والله تعالى يريد غيرها لأنه أحكم الحاكمين.

---

[1] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص334.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص30.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص379.

[4] - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص96 - 97.

[5] - ابن منظور، لسان العرب، ج5، مادة (مطر)، ص178.

وفي استخدام القرآن للفظ "مطر" بهذه الدلالة المطّردة بمعنى الأذى والعذاب سرّ ما، قد يكون لدلالته الصوتية، وقد يكون لدلالته المعنوية. إذ قد يقال أمطرت السماء حجراً أو برَداً، أو غير ذلك، ولكنه لا يقال أغاثت السماء حجراً، ولا أغاثت السماء برَداً، أو نزل من السماء غيث حجر، ويجوز نزل من السماء مطر حجر، على أنه عطف بيان. فما فعله القرآن للفظ "مطر"، إذاً، هو قصره على دلالة واحدة، من غير أن تضيع دلالته الأولى المتعارف عليها، وهي الماء الذي ينزل من السماء فيسقي البلاد والعباد. وعلى هذا الأساس فهمه العرب، واستخدمه الكُتّاب. وقد وضع أبو زيد الأنصاري معجماً أسماه كتاب المطر.

والغريب في الأمر أنّ الشرّاح والمفسرين يفسرون (الغيث) بـ(المطر). فكأن اللفظين مترادفان، و بالمعنى نفسه. إن لفظ (المطر) ذو معنى حيادي في الأصل، وكذلك ورد في الشعر العربي القديم والحديث على السواء، بكل تصريفاته، ولا أدل على ذلك من قول المنخل اليشكري:

ولقد دخلت على الفتا ةِ الخدرَ في اليوم المطير[1]

ويقول أبو زيد في كتابه المطر" قال الراجز:

يا حبذا نضخكِ بالمشافر كأنه تهتانُ يومٍ ماطرِ

فقد استعمل الشاعر هنا لفظ (ماطر) على أنها الكلمة العامة للماء الذي ينزل من السماء. ولذلك جلعه أبو زيد عنواناً لأحد كُتبه. ثم قال: الذِهاب: الأمطار الضعيفة والشديدة[2]. ومثله قول الشاعر:

سلام الله يا مطراً عليها وليس عليك يا مطرُ السلام[3]

وإنْ كان الشاعر الأندلسي قد أحسن في استخدام لفظ "الغيث" حين قال:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس[4]

أما الثعالبي فيقرّ في كتابه "فقه اللغة وأسرار العربية" من خلال عرضه لأنواع الماء، النازل من السماء، بكون لفظ المطر حيادياً، وذلك في الفصل الذي عقده تحت عنوان "فصل في فعل السحاب والمطر". يقول:« إذا أتت السماء بالمطر الخفيف قيل خفشت وحشكت. فإذا ارتفع صوت وقعها قيل هطلت وهتنت...»[5]. ولم يذكر أبداً نوعاً من المطر يوصف بالعذاب، أو يرمز له بذلك.

---

[1] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص7.

[2] - أبو زيد، كتاب المطر، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، 1905، ص6.

[3] - تمام حسان، الأصول، دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة 2000، ص34.

[4] - ابن سهل الأندلسي، الديوان، تح، يسرى عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2003، هامش ص44.

[5] - الثعالبي أبو منصور بن عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، فقه اللغة وأسرار العربية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، د. ط، د. ت. ص216.

ونعثر في أدبنا الحديث والمعاصر أيضاً، على استعمال لفظ "مطر" أكثر من غيره، فها هو بدر شاكر السياب في قصيدته المشهورة (أنشودة المطر)، يجعل سقوط المطر كالنشيد أو الغناء الذي يرتاح القلب لسماعه وتأنس له الأذن. وكذلك الشأن في قول نزار قباني:

فاستسلمي لإرادتي ومشيئتي واستقبلي بطفولةٍ أمطاري[1].

ويقول أيضاً في موضع آخر:

أيا غمامة موسيقى... تظللني كذا ينقّط فوق الجنّة المطر[2].

بل نجد لفظ "مطر" في مختلف العلوم أيضاً؛ كالجغرافيا، مثلاً؛ إذ يقال: نسبة تساقط الأمطار، والأمطار الموسمية إلخ... وحتى في النشرات الجوية يقال: أمطار قليلة تسقط غداً، وكمية الأمطار، ونرتقب أمطاراً غزيرة إلخ. فكأن الله تعالى صرف الناس عن أن يستعملوا هذه اللفظة كما استعملها القرآن الكريم، واختص بها وحده، وهذا نوع من الإعجاز فيما يبدو، وفي ذلك ما يدعو إلى التأمل. والحديث النبوي نفسه استخدم لفظ "المطر" في مجاله الحيادي، بل الإيجابي في قوله (ص):{ولو لا البهائم لم يمطروا }. وقال أيضاً:« مَثَل أمتي مَثَل المطر لا يُدرى أوّله خير أم آخره »[3].

أما لفظ (الغيث) فيرد في مقام الرحمة والنماء والإنعام، كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**﴾(لقمان:43)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ**﴾(الشورى:28). ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**﴾(الحديد:20). ولم يرد هذا اللفظ جمعاً كذلك؛ أي بصيغة غيوث.

ولعل قيمة دلالة "غيث" جاءت من المعنى اللغوي. قال الراغب:« الغوث يقال في النصرة، والغيث في المطر، واستغثته: طلبت الغوث أو الغيث، فأغاثني من الغوث، وغاثني من الغيث... وقوله:{إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل} [الكهف/29]، فإنه يصح أن يكون من الغيث، ويصح أن يكون من الغوث، وكذا يغاثوا، يصح فيه المعنيان. والغيث: المطر في قوله:{كمثل غيث أعجب الكفار نباته} [الحديد/20] »[4]. فكأن نزول "المطر" من السماء "غيث" وإنقاذ للخلائق من شر القحط، وما يتبعه من أذى. ولذلك عندما يأتي به التعبير القرآني لا يتبعه بوصف يوضحه، ويبيّن وظيفته؛ مثلما يفعل بلفظ "الماء". يقول تعالى عن الماء:﴿**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**﴾ (البقرة:22)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾(الأنعام:99)، ﴿**وينزّل عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ**﴾(الأنفال:11)، ﴿**وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا**﴾(المرسلات:27)، ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**﴾(النبأ: 14). ويقول عن الغيث:﴿**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ**﴾(لقمان:34)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا**

---

[1] - نزار قباني، الأعمال الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت 1998، ط2، ج4، ص98.

[2] - المرجع نفسه، ص108.

[3] - ابن العربي المالكي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ج10، ص316 - 317.

[4] - الراغب الأصفهاني، الغريب في مفردات القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، د. ط، د. ت، ج2، ص167.

قَنَطُوا﴾(الشورى:28)، ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**﴾(الحديد:20). فالماء يحتاج إلى توضيح؛ لأنه حيادي في الأصل، والماء الطهور غير الماء المنهمر، أما الغيث فلا يحتاج إلى ذلك، لأنه مشتق من الغوث؛ أي إغاثة الناس ومساعدتهم لقوام حياتهم.

وهناك لفظ آخر وهو "الودق" الذي ورد مرتين؛ في آية مكية وأخرى مدنية. ويقصد به المطر؛ أو الغيث. قال ابن منظور:« والوَدْقُ: الْمَطَرُ كُلُّهُ شديدُه وهيّنُه، وَقَدْ وَدَقَ يَدِقُ وَدْقاً أَيْ قَطَرَ»[1]. والودق:« ما يكون من خلال المطر كأنه غبار، وقد يعبّر به عن المطر »[2]. و« الْوَدْقُ: الْمَطَرُ، لِأَنَّهُ يَدِقُّ، أَيْ يَجِيءُ مِنَ السَّمَاءِ »[3]. والآيتان هما قوله عز وجل:﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**﴾ (النور:43)، ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**﴾(الروم:48). ففي الآية الأولى اقترن لفظ "الودق" بلفظ "ركاما" الذي يدل على الشدة والقوة« والركام: ما يلقى بعضه على بعض، قال تعالى:{ثم يجعله ركاما}، والركام يوصف به الرمل والجيش »[4]. فيخرج المطر من هذا الركام القوي، وفي الآية الثانية اقترن "الودق" بلفظ "كسفا" الذي يدل على الرقة واللين« والكسفة: قطعة من السحاب والقطن، ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة الحائلة، وجمعها كسف، قال:{ويجعله كسفا}»[5]. ومنه يخرج هذا "المطر" أيضاً. ومن ثمّ يكون الودق المطر؛ شديده وهيّنه. وذكر ابن عاشور أنّ الودق بمعنى البرق أيضاً، ولكنه استطرد قائلاً:« وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْوَدْقَ هُوَ الْمَطَرُ، وَهُوَ الَّذِي اقْتَصَرَتْ عَلَيْهِ دَوَاوِينُ اللُّغَةِ، وَالْمَطَرُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِ السَّحَابِ »[6] غير أنّ التعبير القرآني وظّف "لفظ" يخرج، بدلاً من "ينزل" الذي من عادته أن يوظّفه في موضوع "الغيث"، أو "المطر"[7]. ومن ثمّ قد يقصد به البرق كذلك.

وأخيراً نجد لفظ "صيّب" وهو أحد نظائر لفظ "مطر"، وقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ**﴾(البقرة:19). والصيّب« قيل: هو السحاب، وقيل: هو المطر، وتسميته به كتسميته بالسحاب »[8]. والظاهر من الآية أن يكون بمعنى السحاب، لأنّ فيه ظلمات، ورعداً، وبرقاً. وليس في المطر رعد ولا برق، إنما يأتيان ملازمين له في الواقع، فيربط الناظر بين الثلاثة عند وقوعها.

4 - **فضاء الانتظار والتربص والترقّب والمكوث**: هذه أربعة مصطلحات تأتي في القرآن بدلالات متباينة، من حيث ورودها في نوع الخطاب، ومن حيث فضاؤها الدلالي. ولعل البدء بالتعريف اللغوي لموادها يكون أجدى.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص373.

[2] - الراغب الأصفهاني، الغريب في مفردات القرآن، ج2، ص 500.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج6، ص97.

[4] - المرجع نفسه، ج1، ص415.

[5] - الراغب الأصفهاني، الغريب في مفردات القرآن، ج2، ص298.

[6] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص261.

[7] - هناك أكثر من خمسين 50 آية، توظف كلها مادة "نزل" بصيغتيْ (أنزل)، و(نزّل) في سياق نزول "الماء" من السماء؛ أي المطر.

[8] - الراغب الأصفهاني، الغريب في مفردات القرآن، ج1، ص596.

قال العسكري:« التَّرَبُّص طول الِانْتِظَار يكون قصير الْمدَّة وطويلها وَمن ثمَّ يُسمى المتربص بِالطَّعَامِ وَغَيره متربصا لِأَنَّهُ يُطِيل الِانْتِظَار لزِيَادَة الرِّبْح وَمِنْه قَوْله تَعَالَى (فتربصوا بِهِ حَتَّى حِين) وَأَصله من الربصة وَهِي التلبث يُقَال مَا لي على هَذَا الْأَمر ربصة أَي تلبث فِي الِانْتِظَار حَتَّى طَال »[1].

وقال ابن فارس:« (رَبَصَ) الرَّاءُ وَالْبَاءُ وَالصَّادُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْتِظَارِ. مِنْ ذَلِكَ التَّرَبُّصُ. يُقَالُ تَرَبَّصْتُ بِهِ »[2]. وفي هذا التعريف ترادف تام بين الانتظار والتربص من غير أدنى فرق.

وقال ابن منظور:« التَّرَبُّصُ: الانْتِظارُ. رَبَصَ بِالشَّيْءِ رَبْصاً وتَرَبَّصَ بِهِ: انْتَظَرَ بِهِ خَيْرًا أَو شَرًّا»[3]. وقال الراغب:« التربص: الانتظار بالشيء، سلعة كانت يقصد بها غلاء، أو رخصا، أو أمرا ينتظر زواله أو حصوله»[4].

إن لفظ "الانتظار" يرد في القرآن المكي، وهو يتعلق بمواجهة الكافرين، والرد عليهم، أو الصبر على أذاهم، كما في وقله تعالى:**﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾**(السجدة:28 - 30)، **﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾**(هود:121 - 122)، **﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾**(يونس:102)، **﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾**(يونس:20)، **﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾**(الأعراف:71)، **﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾**(الأنعام:158).

إن دلالة "الانتظار" في التوظيف القرآني توحي بالمكوث في المكان إلى أجل غير معروف، وقد يكون الانتظار طويلاً من غير فعل شيء. والكافرون - لأنهم ينتظرون - يظنون أنّ الوقت لا يزال فيه متسع، لذلك لا يسارعون في الإيمان والتوبة. أما المؤمنون فإنهم ينتظرون حتى يأتي أمر الله، وليسوا في عجلة من أمرهم كذلك. يقول ابن عاشور في تفسير ذلك:« جَاءَ الِاسْتِئْنَافُ بِقَوْلِهِ: قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ أمرا للرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يُهَدِّدَهُمْ وَيَتَوَعَّدَهُمْ عَلَى الِانْتِظَارِ، إِنْ كَانَ وَاقِعًا مِنْهُمْ، أَوْ عَلَى التَّرَيُّثِ وَالتَّأَخُّرِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ شَبِيهٌ بِالِانْتِظَارِ إِنْ كَانَ الِانْتِظَارُ ادِّعَائِيًّا، بِأَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالدَّوَامِ عَلَى حَالِهِمُ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِالِانْتِظَارِ أَمْرَ تَهْدِيدٍ، وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَنْتَظِرُونَ نَصْرَ اللَّهِ وَنُزُولَ الْعِقَابِ بِأَعْدَائِهِمْ، أَيْ: دُومُوا عَلَى انْتِظَارِكُمْ فَنَحْنُ مُنْتَظِرُونَ »[5].

أما لفظ "التربص" فيرد في القرآن المدني، وهو يتعلق إما بالتشريع، كما في قوله تعالى:**﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾**(البقرة:226)، **﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾**(البقرة:228)، **﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾**(البقرة:234). أو يرد بمعنى كيد المنافقين للمؤمنين، والرد

---

[1] - العسكري، الفروق اللغوية، ص76.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص477.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص39.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ج1، ص378

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج8، ص191.

على الكافرين، كما في الآيات التالية، قال تعالى:﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(النساء:141)، ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾(التوبة:24)، ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ**﴾(التوبة:52)، ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ**﴾(التوبة:98).

ويرد في بعض السور المكية. قال تعالى:﴿**قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى**﴾(طه:135)، وقال على لسان قوم نوح:﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ**﴾(المؤمنون:25)، ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾(الطور:30)، ﴿**قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ**﴾(الطور:31). ويعرض موقف المنافقين من المؤمنين يوم القيامة قائلاً:﴿**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ**﴾(الحديد:14). فالتربص، إذن، هو انتظار لغرض ما، من أجل استكمال عمل بُدئ فيه، أو انتظار فرصة وفسحة من الوقت، للقيام بمهمة خاصة، أو أمر خُطّط له من قبل.

أما "الترقب" فجاء فيه:« (رَقَبَ) الرَّاءُ وَالْقَافُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عَلَى انْتِصَابٍ لِمُرَاعَاةِ شَيْءٍ وَالْمَرْقَبُ: الْمَكَانُ الْعَالِي يَقِفُ عَلَيْهِ النَّاظِرُ »[1]. وقد ورد هذا الفعل في قصة موسى عليه السلام وقتله القبطي، في موضعين فقط. قال ابن عاشور:« وَهُوَ يَتَرَقَّبُ، أَيْ يُرَاقِبُ مَا يُقَالُ فِي شَأْنِهِ لِيَكُونَ مُتَحَفِّزًا لِلِاخْتِفَاءِ أَوِ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ »[2]. وقال الأصفهاني:« وترقب: احترز راقبا، نحو قوله:{فخرج منها خائفا يترقب}[القصص/21]»[3]. والدلالة المستفادة من صيغة "يترقّب" هي إشارة إلى الانتظار المشوب بالحذر والخوف من أمر ما. فإذا كان الانتظار لشيء آخر يستخدم فيه صيغة "ارتقب"، مصرّفاً في الأمر، كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**﴾(القمر:27)، ﴿**فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ**﴾ (الدخان:59)، ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ**﴾(الدخان: 10)، ﴿**وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾ (هود:93). وفي هذا الفعل دلالة الانتظار في أمر الدين، وإلى أمد غير محدود، وقد يكون إلى يوم القيامة، كما في آية الدخان.

4 - **فضاء التنقل في البحر**: وفيه المفردات التالية: سفينة، فُلْك، جارية. وقد أوردها التعبير القرآني بتوزيع دقيق جدا يصعب معه كشف الفرق بينها، إلا ما كان من تمظهراتها في السياق القرآني؛ كأنْ يذكر لفظاً في الخطاب المكي فقط، أو في موضوع خاص، أو أن يرد بعضها مفرداً فقط، وبعضها الآخر مفرداً وجمعاً، وغير ذلك.

---

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص427.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص93.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص411.

ولا يظهر - من خلال التعبير القرآني - الفرق بيّناً بين مدلول هذه الألفاظ الثلاثة، إلاّ أن هناك أمراً دقيقاً يمكن ملاحظته، وهو أنّ الله تعالى حين يكون بصدد ذكر آياته، وقدرته، وأنعُمه على العباد، فإنه يوظّف مصطلح "فُلك"، كما في الآيات التالية:﴿**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ**﴾(يونس:22)، ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**﴾(هود:37)، ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**﴾(إبراهيم:32)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ**﴾(النحل:14)، ﴿**رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**﴾(الإسراء:66)[1]. أما إذا كان الحديث عن قصة أو ما شابه ذلك، فإنه يوظّف مصطلح "سفينة"، قال تعالى:﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا**﴾(الكهف:71). وقد يستخدم في بعض الحالات لفظ "فُلك"مثل:﴿**وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**﴾(الصافات:139 - 140)، ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾(المؤمنون:28). أما لفظ "الجارية" فقد ورد مفرداً مرة واحدة، في قوله تعالى:﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾(الحاقة:11)، وجمعاً في موضعين اثنين. هما:﴿**وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾(الرحمن:24)، ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾(الشورى:32).

وفي تفسيرها لم يزد الراغب عن قوله:« الجارية أي: السفينة التي تجري في البحر، وجمعها: جوار »[2]. أما ابن عاشور فقال:« وَالْجَوَارِي: جَمْعُ جَارِيَةٍ صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ ذِكْرُ الْبَحْرِ، أَيِ السُّفُنُ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ [11] إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ. وَعَدَلَ عَنِ: الْفُلْكِ إِلَى الْجَوارِ إِيمَاءً إِلَى مَحَلِّ الْعِبْرَةِ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ لِجَرْيِهَا وَتَفْكِيرِ الْإِنْسَانِ فِي صُنْعِهَا »[3]. ويردف في موضع آخر« وَالْمُرَادُ: بِالْجَوَارِي السُّفُنُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تَسَعُ نَاسًا كَثِيرِينَ، وَالْعِبْرَةُ بِهَا أَظْهَرُ وَالنِّعْمَةُ بِهَا أَكْثَرُ »[4]. ويبدو هذا واضحاً من الآيات الأخرى التي ذكر فيها لفظ "الجواري"، بحيث جاءت في سياق التنقل في البحر، ووصفها بأنها كالأعلام؛ أي الجبال لعظمها.

5 - فضاء الخوف والخشية والوجل:

هي كما تبدو مفردات متقاربة المعنى، حتى أننا لا نجد لها فرقاً في تعبيراتنا المختلفة. غير أنّ الاستخدام القرآني لها مختلف - في توظيفها المميز - عن غيره من الكتابات والتآليف. ويظهر ذلك فيما يلي:

يقول أحدهم في الفرق بينها:« الخشية أعلى من الخوف وأشد منه. ولذا خصّت الخشية بالله في كثير من الآيات... وفرق بينهما أيضاً: بأن الخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً »[5]. والآيات الدالة على ما ذهب إليه الباحث كثيرة. ويؤكد ذلك أنّ موسى

---

[1] - هناك ثلاث وعشرون آية تتحدث عن الفُلك، كلها مكية ما عدا البقرة(فهي تستثنى عادة في علم المكي والمدني)، والحج (فيها بعض الآيات المكية كما يرى دارسو علوم القرآن).

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص180.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص105.

[4] - المرجع نفسه، ج5، ص125.

[5] - فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، د ط، د ت، د. دار نشر، ص175.

عليه السلام - حين فرّ من فرعون - كان خائفاً منه لا خاشياً إيّاه. وقد ورد ذلك أكثر من مرة؛ إمّا على لسانه هو، كما في قوله تعالى:﴿**فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ**﴾(الشعراء:21). وإمّا حكاية ووصفاً لحاله، كما في قوله سبحانه: ﴿**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾(القصص:18)، ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ (القصص:21)، ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**﴾(طه:67 - 68). لقد استخدم في كل هذه الآيات لفظ "الخوف" بمشتقاته المتنوعة، ولم يستخدم صنوه "الخشية". لأنّ الإنسان يخاف من الحيوانات المفترسة، ومن الطغاة، ولا يخشاهم. فإن حدث أن خشي المرء أحداً من الناس كان ذلك غير سوي، وغير جائز، لذلك أمرنا الله بعدم خشية الناس، فقال عز من قائل:﴿**الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾(البقرة:150). أما الخوف منهم فلم يرد نهي عنه كما هو واضح من آيات القرآن المتعلقة بهذا الموضوع.

أما الوجل فورد في قوله تعالى:﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾(الأنفال:2)، ﴿**وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾(الحجر:51-53)، ﴿**وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾(الحج:34- 35)، ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾(المؤمنون:60).

قال ابن عاشور في تفسير الآية الثانية من الأنفال:« وَالوَجَلُ خَوْفٌ مَعَ فَزَعٍ فَيَكُونُ لِاسْتِعْظَامِ الْمَوْجُولِ مِنْهُ. وَقَدْ جَاءَ فِعْلُ وَجِلَ فِي الْفَصِيحِ بِكَسْرِ الْعَيْنِ فِي الْمَاضِي عَلَى طَرِيقَةِ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى الِانْفِعَالِ الْبَاطِنِيِّ مِثْلَ فَرِحَ، وَصَدِيَ، وَهَوِيَ، وَرَوِيَ. وَأُسْنِدَ الْوَجَلُ إِلَى الْقُلُوبِ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَكْثُرُ إِطْلَاقُهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى إِحْسَاسِ الْإِنْسَانِ وَقَرَارَةِ إِدْرَاكِهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ هَذَا الْعُضْوَ الصَّنَوْبَرِيَّ الَّذِي يُرْسِلُ الدَّمَ إِلَى الشَّرَايِينِ »[1]. ولعل هذا التخريج صحيح لأنّ العرب لا يكادون يستخدمون لفظ "العقل" بصيغة المصدر إلا قليلاً. وقد حافظ القرآن على ذلك فلم يستخدمه مطلقاً بتلك الصيغة، في أيّ آية، على كثرة ما استخدمه بصيغة الفعل. وجاء في لسان العرب:« وجل: الوَجَل: الْفَزَعُ وَالْخَوْفُ»[2]. وقال الشعراوي:« والوجل هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب في القلب »[3].

6 - **البنون والأبناء**: يستخدم هذان اللفظان باطّراد في الخطابين، كل في نطاقه الخاص به؛ فالأول يرد - كما رأينا - في الخطاب المكي، والثاني يرد - كما سنرى - في الخطاب المدني. ولكل واحد من اللفظين متعلقات خاصة. ولفظ "البنون": يرد معرفة كله إلا قليلاً. فلفظ "البنون" يتعلق بالجانب العقائدي وبقدرة الخالق ونعمه. أما لفظ "الأبناء" فيتعلق بالجانب التشريعي، وبالجانب الاجتماعي كما في قصة موسى عليه السلام وفرعون.

وصيغة هذا اللفظ؛ أي "بنون" هي جمع مذكر سالم، أما لفظ "أبناء" فجمع تكسير، و« الجمع السالم بنوعيه يفيد القلة عندهم كالسنبلات والسنابل والجفنات والجفان والزيدين والزيود، فالسالم يفيد القلة والتكسير يفيد

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص256.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص722.

[3] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج8، ص4569.

الكثرة »[1]. غير أنه« قد يستغنى بجمع عن جمع فيستعمل جمع القلة للقلة والكثرة وبالعكس كالرجال فهو من أوزان الكثرة ويستعمل للقلة والكثرة، وكالأقلام جمع قلم وهو من أمثلة القلة ويستعمل للقلة والكثرة »[2]. والمقصود بجمع القلة« ما كان من الثلاثة إلى العشرة فإنْ زاد عن العشرة فهو من جموع الكثرة، فيقال مثلاً: أربعة أحرف أو عشرة أحرف فإنْ زادت على العشرة قيل: حروف، ويقال: خمسة فتية فإنْ زادوا عن العشرة قيل: فتيان »[3]. وذلك ما نلاحظه في القرآن من استخدام كلمة "أشهر" وكلمة "شهور"؛ فالأولى ترد في مفهوم القلة العددية التي تقل - حقيقة - عن العشرة، كقوله تعالى:﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ**﴾(البقرة:197)[4]، ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾(البقرة:234)، ﴿**بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾(التوبة:1 - 2). أما الثانية فترد في دلالة أكثر من العشرة، كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾(التوبة:36).

أما عن مفردة "بنون"- في حالة الرفع - فترد في الآيات التالية:﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾(الكهف: 46)، ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ**﴾(الشعراء:88)، ﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**﴾(الصافات:149)، ﴿**أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ**﴾(الطور:39). وتتمظهر كما يلي:

وفي هذه المواضع ورد لفظ "بنون" مرفوعاً، ومعرّفاً بِالْ، وورد مسنداً إليه في كل تلك الآيات؛ مبتدأ في ثلاثة مواضع، وفاعلاً في موضع واحد هو آية الشعراء. وسبب قلة ورود هذا اللفظ مرفوعاً، هو أن هذه الحالة تدل على الإخبار بما يفعله البنون، أو الإخبار بوصف يتصفون به؛ كما في آية الكهف. ومثل هذه الحالة لا تتطلب شرحاً كثيراً لمفهوم "البنون"، ولا إيراد آيات متنوعة في ذلك. على عكس حالة النصب؛ أي "بنين" فهي تذكر الناس دوماً بقدرة الخالق جل وعلا، وتذكرهم أيضاً بنعمه التي لا تحصى؛ ومنها المال والبنون. ولذلك لا يفتأ القرآن يورد ذلك بأنه يمدّ الناس بالخيرات الكثيرة، ويعددها أحيانا، فتقع عادة موقع المفعول به، كقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام:﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾(نوح:10 - 12). أو تقع موقع المضاف إليه، والاسم المجرور.

أما صيغة "بنين" منصوبة أو مجرورة: فوردت نكرة ومعرفة في الاستخدام القرآني ؛ كما في الآيات التالية: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾(الأنعام:100)، ﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً**﴾(النحل:72)، ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**﴾(الإسراء:6)، ﴿**أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا**﴾(الإسراء:40)، ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ**﴾(المؤمنون:

---

[1] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص118.

[2] - المرجع نفسه، ص118.

[3] - نفسه، ص119.

[4] - أشهر الحج ثلاثة هي: شوال، ذو القعدة، وذو الحجة.

55)، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾(الشعراء:133)، ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾(نوح:12). ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا﴾(المدثر:13).

- منظومة زوج، امرأة، صاحبة: هذه مصطلحات ثلاثة ترد في القرآن الكريم بتوزيع دقيق جدا، يصعب معه إدراك الفرق بينها بصورة جلية بيّنة المعالم؛ لكون بعض هذه المصطلحات يرد في القرآن المكي فقط، ويأتي مفرداً، وبعضها يرد في الخطابين معاً، وآخر يرد مفرداً وجمعاً. وسنذكر الآن ما اقتصر وروده في السور المكية؛ ونموذجه هو: مصطلح صاحبة.

لقد ورد هذا اللفظ في أربعة مواضع من الخطاب المكي، وهي قوله سحانه:﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾(الأنعام:101)، ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾(الجن:3)، ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾(المعارج:11 - 12)، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾(عبس:34 - 36).

ومعنى الصاحبة هو الزوجة، قال ابن عاشور:« وَالصَّاحِبَةُ: الزَّوْجَةُ لِأَنَّهَا تُصَاحِبُ الزَّوْجَ فِي مُعْظَمِ أَحْوَالِهِ »[1]. ولم نعثر على إشارة إلى تعريف "صاحبة" بصيغة المؤنث في لسان العرب، ولا في المقاييس، ولا في مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ولا في مخطوطة الجمل. وكأنّ هذا الاسم لا يحتاج إلى شرح، مع أن في توظيفه القرآني ميزة، وإلاّ لما أورده في فضاء بذاته.

وما يلاحظ في هذا اللفظ أنه لا يرد جمعاً مطلقاً؛ أي بصيغة "صاحبات"، "صواحب"، عكس لفظ "زوج"، ولفظ "امرأة" فإنهما يجمعان على "أزواج"، و"نساء". وقد أطلق لفظ "صاحبة" على ذات الله العليا، حين نفى أن يكون له ذلك، ولم يستخدم لفظاً آخر، مثل: زوج، أو امرأة، أو أنثى.

إن لفظ "صاحبة" مشتق - كما هو واضح - من فعل "صَحِب" الذي يعني الملازمة؛ والملازمة تدل على معرفة الشخص الذي نلازمه معرفة جيدة، من طول البقاء معه. ولذلك اختار التعبير القرآني هذا اللفظ في مواضع خاصة؛ وهي المواطن الصعبة التي تكون يوم القيامة، حين يقوم الحساب، وتكشف السرائر، فيودّ المرء أن يفتدي بكل شيء لينقذ نفسه، ولن يجد من يسعفه ولو كان من أقرب المقرّبين إليه، وهي زوجته "صاحبته" التي لازمته طويلاً، ولكنها في ذلك الموقف لا تستطيع أن تفعل له شيئاً.

أما سبب إيراد لفظ "صاحبة"، في مقام نفيها عن المولى تعالى، دون لفظ "زوجة"، أو "امرأة"، فلأنّ لفظ "صاحبة" أعمّ - في الدلالة- من "زوجة"، أو "امرأة". فالزوجة تعني النظير، وليس ذلك هو المقصود من الآية، فالله تعالى ينفي عن ذاته العليا أي صنف يمكن اتخاذه قريناً، وليس نفي النظير فقط، الذي قد يكون مثله. وأما سبب عدم توظيف لفظ "امرأة"، فلأن المرأة خاصة بالبشر، ولو استخدمها التعبير القرآني لكان قد خصص لذات الله ما لا ينبغي من حيث النوع. لذلك أتى بلفظ "صاحبة"، التي تحمل دلالة عامة، انطلاقاً من مادة هذه اللفظة؛ أي "صحب". فانتقى تلك اللفظة بدلاً من بقية الألفاظ الأخرى الدالة على ما يقترن به الإنسان في الحياة.

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص411.

نستطيع أن نفهم من عرض هذه المواد أنّ التعبير القرآني يلتزم صورة واحدة للدلالة على معنى واحد خاص، ويطرد ذلك في جلّ الآيات التي من الموضوع ذاته، ومن نفس الفضاء الدلالي. وهذا الأمر يساعد الباحثين في الاقتراب من الدلالة المقصودة من الآيات الكريمة. وإذا اختفت المفردات التي كانت ترد في الخطاب المكي، من الخطاب المدني، فلأنّ القرآن يريد أن ينبّه على أنها قد انتهت وظيفتها في التبليغ، لتسد مسدها مفردات أخرى يستقبلها الخطاب المدني. وإن خفى علينا بعض دلالات توظيف المفردة القرآنية، أو خرج بعضها عن القاعدة العامة، فلأنّ البحث في القرآن واسع وعميق، وأن الإحاطة بكل مدلولاته، وأسراره أمر ليس في مقدور البشر، وإن فاتت المرءَ أشياءُ، فذلك إقرار بعجزه أمام هذا الصرح الشامخ في عالم البلاغة والبيان والإعجاز.

خلاصة الفصل:

هذا ما لفت انتباهنا من الألفاظ القرآنية الموظفة في الخطاب المكي، ولكن ليس معنى هذا أننا أحصينا كل مفردات هذا الخطاب، إنما اقتصرنا على ما رأيناه ظاهرة بيّنة، استطعنا أن نصنفها ونحصي مفرداتها في أحايين كثيرة، بناء على موضوع البحث، الذي يركز على دائرة الخطاب؛ حتى نفهم سر إيراد طائفة من المفردات في الخطاب المكي، وطائفة أخرى في الخطاب المدني. وإنّ كثيراً من الألفاظ القرآنية الواردة في القرآن المكي، قد اختفى في العهد المدني، كما اختفت فواتح السور؛ من السور المبدوءة بالحروف المقطعة، أو حروف التهجي، عدا الزهراوين اللتين يقول فيهما صبحي الصالح:« وبنزولهما مفتتحتين بهذه الحروف المقطعة تمت الحكمة الإلهية من تنبيه اليهود إلى الدعوة الجدية وإثارة اهتمامهم بها، فلم يعد في استمرار الافتتاح بتلك الحروف بعد الزهراوين حكمة ظاهرة باهرة، ولذلك نزل الوحي بعدهما خاليا من تلك الفواتح »[1]. ومثل هذا الكلام يقال عن بقية المفردات والمصطلحات القرآنية التي وردت في العهد المكي، ثم اختفت في العهد المدني، أو العكس، ليدل بذلك على إعجاز فريد، شاهد على واقع، وتاريخ، ومكتسبات حضارية، وأسبقية في التشريع، والتنوير، والشهود الحضاري للمجتمع الإسلامي، ومن ثَمّ، الانطلاق إلى المجتمعات الأخرى. وذلك الذي سنراه في الفصل القادم.

[1] - صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، هامش ص245.

الفصل الثالث: فضاءات المفردة القرآنية في الخطاب المدني

المبحث الأول: فضاء مفردات التشريع

1 - فضاء مفردات التعبّد

2 - فضاء مفردات الحرب والسلم

3 - فضاء مفردات المعاملات

المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية المتشابهة (المترادفة)

المبحث الثالث: فضاء المنظومة اللفظية

المبحث الرابع: فضاء مفردات التنوع الصرفي

1 - فضاء المصادر

2 - فضاء المشتقات

3 - فضاء الأفعال

4 - فضاء الجموع

مكث النبي (ص) في مكة ثلاث عشرة سنة - على الأرجح - والقرآن ينزل عليه، وهو يشرح مبادئ الدين الجديد، ويردّ على المشركين، ويجادلهم بالبراهين والحجج المختلفة، ليبيّن لهم الحق من الباطل. وكانت الآيات المكية ذات نسق معجز خاص، وذات معجم لغوي خاص أيضاً، وذات عيّنات لفظية مميزة اطّردت في ست وثمانين 86 سورة تمثل القرآن المكي كلّه[1]. وما انفك القرآن يتحدى العرب في هذه المرحلة بأن يأتوا بمثله، فلم يفعلوا.

ولما هاجر النبي (ص) إلى المدينة المنورة، تغيّر أسلوب القرآن الكريم في مخاطبة الناس، وتغيّرت عيّناته اللفظية، وتميّز معجمه اللغوي عما كان عليه في الخطاب المكي. فصار في هذه المرحلة يشرح قضايا التشريع، ومسائل المعاملات الاجتماعية والاقتصادية، بأسلوب آخر معجز كذلك، وتحداهم لآخر مرة في سورة البقرة على أن يأتوا بأصغر آية من مثل القرآن، وذلك في بداية هذه السورة المدنية التي تعتبر حلقة وصل بين العهدين؛ المكي والمدني وتحداهم هذه المرة بأن أغلق عليهم باب المحاولة تماماً بقوله تعالى:﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾(البقرة:24).

إنّ مدة عشر سنين[2] التي انتظر القرآن المشركين خلالها، لكي يأتوا بما زعموا أنهم قادرون عليه، تعتبر كافية لمن أراد أن يفعل شيئاً، وكأنه يقول للعرب: قد انتظرتكم هذه المدة - وهي فترة كافية - لكي تأتوا بما زعمتم، فلم تفعلوا، وعجزتم كل العجز. وها أنا سأنزل قرآناً جديداً، يتميّز عن ذلك الذي نُزِّل في العهد المكي، وسترون أنكم ستعجزون أيضاً، وسأغيّر الأسلوب، والعيّنات اللفظية، وسيبقى القرآن هو القرآن. وحكمة ذلك هي:« التصرف في الكلام، والإتيان به على ضروب، ليُعْلِمهم - أي العرب - عجزهم عن جميع طرق ذلك: مبتدأ به ومتكرراً، وأكثر أحكامه تأتي من وجهين، فلهذا جاء باعتبارين »[3]. ومع ذلك عجز العرب مرة أخرى عن الإتيان بمثل القرآن، وسكتوا سكوتاً مطبقاً، بل وسكتوا عن نعت القرآن بما كانوا يصفونه به قبل الهجرة النبوية؛ من سحر، وكهانة، وأساطير، وشعر، كما سكت القرآن عن تحدّيهم بعد قوله عز وجلّ:﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾(البقرة:23 - 24). ثم قطع كل محاولة تقليد القرآن بنفي القدرة على ذلك بأداة "لن" التي تستخدم لنفي الحدوث القطعي للفعل في الزمن المستقبل.

---

[1] - هذا هو المشهور، وقد اخُتلف في بعض السور، منها على سبيل المثال، الرعد والرحمان. ينظر، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص40.

[2] - يرى بعض الباحثين أن عشر سنين كافية لفعل أشياء كثيرة؛ مثل الخروج من أزمة ما، أو تغيير وضع معيّن، أو حتى الانتقال من حالة تخلف إلى حالة نمو. والأمثلة على ذلك كثيرة؛ منها ما فعله النبي(ص) في المدينة من إقامة مجتمع متكامل في ظرف عشر سنين، وما فعلته ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، واليابان، وما فلعته ماليزيا...إلخ ينظر في ذلك: محمود الخالدي، التفكير بداية الطريق إلى نهضة الأمة الإسلامية، شركة الشهاب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1989، ص47 - 48.

[3] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص112.

المبحث الأول: مفردات الفضاء التشريعي

إنّ أوّل ما يطالعنا من العيّنات اللفظية في العهد المدني، هو مفردات الفضاء التشريعي[1]، باعتبار هذا العهد بداية للتشريع الجديد. فقد بدأ قاموس جديد في الظهور؛ بمصطلحات جديدة، أو بمفردات قديمة حُمّلت معاني جديدة؛ مثل الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، فك الرقبة، الكفّارة، الحنث، اليمين، الجهاد، المكاتبة، الكلالة، الأنفال، الجزية، الفدية، الوضوء، النسك، التطوّع، أو مفردات معروفة الدلالة ثابتة المعنى مثل: الربا، الزنى، السرقة، القذف، النكاح، الطلاق، الظهار، الإرث، القتال، المواعدة، النشوز، الخدن...إلخ. وألفاظ هذا الفضاء كثيرة« فألفاظ العبادات والمعاملات، والأحكام الشرعية في القرآن الكريم، لا نستطيع حصرها... وهي تدل دلالة واضحة على أن القرآن قد أحدث ثورة في كثير من معاني الألفاظ التي لم تكن معروفة في الجاهلية »[2]... وكثير من هذه الألفاظ يرد مرة أو مرتين، للدلالة على أنّ التشريع ليس من شأنه الإطالة والإطناب من غير فائدة تُرجى، لأنّ ذكر الحكم الشرعي لشيء ما مرة واحدة، يكفي لاستيعابه والعمل به. فهو كالنصوص القانونية في الدول، والحكومات، حيث يذكر النص في مكان ما من وثيقة القانون، أو الدستور، ولا يعاد إلاّ لجديد فيه، أو لتعديل بعض الأمور فيه.

لقد اطّردت هذه الألفاظ القرآنية في مواضع كثيرة من القرآن المدني، وتنوعت صيغها، وتوزعت بحسب المقصود، فتراها تكثر مرة وتقلّ أخرى. وذلك ما سنعرض له في المباحث التالية:

1 - فضاء مفردات التعبّد:

لقد وردت في الخطاب المدني - وفي فضاء الحال الاجتماعية - مفردات، أو مصطلحات كثيرة، تدل على دقة التنظيم، وبراعة التشريع الذي بلغ درجة الإعجاز. وإذا كانت بعض المفردات الخاصة بالخطاب المدني، قد ذُكرت في الخطاب المكي، فلأنها تدل على أصالتها في الدين عموماً، وأنّ الأنبياء السابقين قد نبّهوا أقوامهم على مثل تلك الأمور. والمفردات التي كررت في الخطاب المدني، كانت تحمل دلالة جديدة، بفعل مقوّمات الواقع، وخصائص الدين الجديد. وقد نبّه الخطاب القرآني على قضايا كثيرة تخص الحياة العامة للمسلمين، وغير المسلمين؛ من سلوك فعلي، وقولي على السواء. ووضع لكل حالة قانونها الخاص، وحدد مسارها الطبيعي، وأعطى كل ظاهرة علاجها المعقول؛ فحثّ على أمور، ونهى عن أخرى كما سيرد في المباحث التالية.

1 - 1 - فضاء الشعائر التعبدية:

نقصد بذلك المصطلحات الأربعة المكوّنة لأركان الإسلام المتكررة في حياة المسلم، وهي: الصلاة والزكاة والصيام والحج. وترد هذه الأركان بنسق مطرّد خاص مثلما سنراه في التمظهرات التالية.

---

[1] - هذا لا يعني أن هذه المفردات قد ظهرت بصورة مفاجئة، أو جملة واحدة، في سورة بعينها، وإنما نعني بذلك تحوّل الخطاب المدني بشكل عام في مخاطبة الناس بكل أصنافهم، بأسلوب جديد، وبمفردات جديدة، مبثوثة في مواطن متفرقة من السور المدنية. وهذه المفردات الخاصة بالتشريع هي التي تسترعي الانتباه قبل غيرها من المفردات الأخرى.

[2] - عبد العال سالم مكرم، الكلمات الإسلامية في الحقل القرآني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997. ص116.

أما الشهادة فلا تتكرر، إنما تعتبر مدخل المرء إلى الإسلام، أو المفتاح لذلك. وترد الصلاة والزكاة مقترنتين في كثير من الآيات، وفي الخطابين والمكي والمدني على السواء، وأما الصيام والحج فيردان بنسبة قليلة، وفي الخطاب المدني على الخصوص، مع بعض الاستثناء في ما يخص مصطلح الصيام. وهذه الشعائر فرضت في العهد المدني، ما عدا الصلاة التي كانت منذ العهد المكي. وتتمظهر هذه المصطلحات التعبدية في الخطاب القرآني كما يلي:

أ - **الصلاة:** ربما يكون هذا المصطلح من أكثر ألفاظ القرآن تكراراً في مجال التعبّد، ولذلك ورد في السور المكية والمدنية جميعاً، ويرد مقترناً بمصطلح الزكاة في كثير من المواضع، ويكون أسبق في الترتيب؛ أي ترد الصلاة أولاً ثم الزكاة ثانياً، وقد ترد الصلاة منفردة في بعض المواطن، ليدل بها التعبير القرآني على مفهوم الدعاء عموماً، كما في قوله تعالى:﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ**﴾(التوبة:99)، وقوله عز وجلّ:﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾(التوبة:103).

والملاحظ في مصطلح "الصلاة" أنّه يرد مفرداً وجمعاً، ويأتي بمعنى الدعاء؛ وهو المعنى اللغوي الأصلي، ويأتي بمعنى الشعيرة التعبدية أيضاً، إلا في موضع واحد من القرآن كله، وهو قوله تعالى:﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ**﴾(الحج:40)، فإن لفظ "صلوات"، هنا، يعني أماكن العبادة، لا العبادة نفسها. وذلك ما أشار إليه ابن فارس في مؤلَّفه المسمّى "أفراد كلمات القرآن العزيز"، حيث ذكر أربعاً وثلاثين كلمة تنحو هذ المنحى[1]. وأعادها السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن، مضيفاً عليها كلمات أخرى لعلماء سابقين من صحابة وغيرهم، كما أضاف هو نفسه كلمات أخرى[2].

ويُسبق هذان المصطلحان دوماً بلفظ خاص لتدعيم المعنى، فالصلاة تسبق بلفظ إقامة، أو ما يشبهه من مشتقات، والزكاة تسبق بلفظ إيتاء، وما يشبهه من مشتقات. بينما الصوم والحج لا يحتاجان إلى مثل ذلك، يقول الأصفهاني:« كل موضع مدح الله تعالى بفعل الصلاة أو حث عليه ذكر بلفظ الإقامة، نحو:{والمقيمين الصلاة} [النساء/162]،{وأقيموا الصلاة}[البقرة/43]،{وأقاموا الصلاة}[البقرة/277]، ولم يقل: المصلين إلا في المنافقين، نحو قوله:{فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون}[الماعون/4 - 5] »[3]. ويقول باحث معاصر:« ثم انظر إلى التصريح بكلمة الأمر، (وأمُرْ)، فلم يكتف بصيغة الأمر من فعل الصلاة: (صلّ أو صلّوا)، لما في كلمة (وأمُرْ)، من شدة تتجاوب مع الشدة المماثلة في كلمة اصطبر، ولما في مادة (أمر) من الدلالة المباشرة على الأمر مما لا يكون في

---

[1] - يراجع، ابن فارس، أفراد كلمات القرآن العزيز، ص13.

[2] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص156 وما بعدها.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص590.

مستواه استعمال صيغة الأمر من الفعل المطلوب العمل به »[1]. وذلك لأنّ الحج واجب مرة واحدة في العمر، والصوم مرة واحدة في السنة، فقد يهتمّ بهما المرء أيّما اهتمام، ويهيّء لهما ما شاء من المظاهر والظواهر المناسباتية، والله تعالى يعلم ذلك من الناس، ومطّلع على بواطنهم؛ بأنهم لا يحتاجون إلى هذا التخصيص، فأوردهما خاليين من الفعل "أقيموا"، أو "آتوا". أما الصلاة فتُسبق بلفظ (إقامة)، أو بمشتق فعلي؛ أي يقيمون، وأقيموا، لأنها شعيرة تؤدى يومياً، ومع تكرارها قد يؤديها بعضهم تأدية آلية خالية من الروح، ومن الخشوع« وإنما خص لفظ الإقامة تنبيها أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط »[2]. وتُسبق الزكاة أيضاً بلفظ (إيتاء)، أو يؤتون، أو آتُوا... إلخ. ومع أنها لا تجب إلا على المستطيع، إلا أن التعبير القرآني أوردها كذلك، لأنها ثقيلة على المرء، وقد يخرجها وهو كاره لذلك، وقد يتلاعب في إخراجها. فأتى بها القرآن مقرونة بفعل الإتيان، ليفهم العبد أنه يجب تأدية هذه الفريضة على أحسن وجه.

ولذلك لم يهدّد الله تعالى، ولم يتوعّد الذين "أقاموا" الصلاة إذا سهوا عنها، إنما توعّد "المصلّين" فقط؛ أي الذين يذهبون إلى المساجد لتأدية هذه الفريضة، وقد يفعلون ذلك نفاقاً، أو حياء، أو لغيرهما. قال تعالى:﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾(الماعون:4 - 5). أما المقيمون الصلاة فلا شيء عليهم، لأنهم يقيمونها حقيقة، فلا يصح بعد ذلك توبيخهم أو توعّدهم، بل ورد ذكرهم بصفات حسنة، وبإطراء عليهم. وكذلك حال الكافرين يوم القيامة، حيث يعتذرون بأنهم لم يكونوا من "المصلّين"، وليس من "المقيمين الصلاة".

فإذا عبّر القرآن الكريم عن الصلاة بفعل مباشر عن مادتها، كان معناها - في هذه الحال - الدعاء، كما في قوله تعالى:﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾(التوبة:103). وفي قوله عز وجل:﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾(الأحزاب:56). أو تأتي بمعنى الرحمة، كما في قوله سبحانه:﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ**﴾(الأحزاب:43). أو بمعنى تفصيل طريقة تأدية الصلاة أثناء القتال، كما في قوله جلّ وعلا: ﴿**وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ**﴾(النساء:102)؛ وهو ما يُعرف في الفقه بصلاة الخوف.

ومن تمظهرات مصطلحيْ "الصلاة" و"الزكاة" أنهما يكادان لا ينفصلان في جلّ المواطن التي ذُكرا فيها في القرآن، وكذلك حالهما إذا وردا في الخطاب المكي الذي لم يكن قد تقررت فيه بعد قضايا التشريع. يقول تعالى:

---

[1] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل واحد في القرآن الكريم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996، ص86.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص590.

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(مريم:31)[1]، ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾(مريم:55)[2]، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾(الأنبياء:73)، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾(النمل:3)، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾(لقمان:3).

وترد لفظة "الصلاة" مقرونة بلفظ "إقام"، أو "أقاموا"، أو "أقام". ولا ترد بصيغة الفعل وحده؛ أي صلّوا، أو يصلّون، إلاّ قليلاً كما سبقت الإشارة إليه. وكذلك كان ورودها اسماً مشتقاً؛ أي "المصلّين"، قليلاً إذ لم يتعدّ ثلاثة مواضع من القرآن هي قوله تعالى:﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا المصَلِّينَ﴾(المعارج:19- 22)، ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾(المدثر:42 - 43)، ﴿فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(الماعون:4 - 5).

أما "الزكاة" فلا ترد إلا مفرداً، ولا ترد بصيغة "تزكية"؛ ولو كان حقها أن تكون كذلك، لأنّ مصدرها الصريح هو "تزكية"، لكونه مشتقاً من الفعل الرباعي "زكّى" على وزن "فعّل". نقل السيوطي عن أحدهم فقال:«"التَّزَكِّي" فِي الْقُرْآنِ كُلُّهُ إِسْلَامٌ »[3]. ومعنى هذا أنّ القرآن خصّ كل مصطلح وصيغة صرفية بمعنى محدد، وذلك كثير في الخطابين معاً. أما لفظ "زكاة" المستخدم في القرآن كله فهو اسم مصدر. وترد لفظة "الزكاة" مقترنة بمصدر "إيتاء"، أو اسم فاعل "المؤتون"، و"فاعلون"، أو فعل "آتُوا"، أو "آتَوْا"، أو "يؤتون". ولا ترد بصيغة الفعل وحده؛ أي يزكّون، أو زكّوا، أو ما شابه ذلك. إلا إذا كان المعنى دالاً على غير الشعيرة المعروفة. ولم ترد جمعاً مطلقاً؛ أي بصيغة "زكوات"، ولا مشتقة، أي بصيغة اسم فاعل "مزكّون"، ولم ترد كذلك مضافة إلى اسم ظاهر، ولا إلى ضمير؛ فلا يقال: زكاتكم، وزكاتهم، ولا زكاة أموالكم، وأموالهم. وقد وردت بمعنى واحد هو: إخراج بعض المال عند بلوغ النصاب، إلا مرة واحدة وردت فيها بمعنى أخلاقي. يقول ابن فارس:« وكل شيء في القرآن من زكاة، فهو المال، غير الذي في سورة

---

[1] - يرى ابن عاشور أنّ الزكاة، هنا، بمعنى الصدقة، يقول:« وَالزَّكَاةُ: الصَّدَقَةُ. وَالْمُرَادُ: أَنْ يُصَلِّيَ وَيُزَكِّيَ. وَهَذَا أَمْرٌ خَاصٌّ بِهِ.. وَلَيْسَ الْمُرَادُ الصَّلَاةَ وَالصَّدَقَةَ الْمَفْرُوضَتَيْنِ عَلَى أُمَّتِهِ، لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ فِي أَوْصَافٍ تَمَيَّزَ بِهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِشَرْعِ صَلَاةٍ زَائِدَةٍ عَلَى مَا شُرِعَ فِي التَّوْرَاةِ ». (التحرير والتنوير، ج16، ص99 - 100). ومع ذلك فإنها لا تختلف عن مفهوم الزكاة المفروضة في الإسلام من حيث الدلالة العامة.

[2] - الحديث هنا عن إسماعيل عليه السلام. يقول ابن عاشور في تفسير ذلك:« وَقَدْ كَانَ مِنْ شَرِيعَتِهِ الصَّلَاة وَالزَّكَاة وشؤون الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ »(التحرير والتنوير، ج16، ص130).

[3] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص163. ويأتي تنوع الصيغ الصرفية في مفردات القرآن لأغراض مختلفة في الدلالة. من ذلك ما ذكره السيوطي نفسه:« عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: مَا صَنَعَ اللَّهُ فَهُوَ "السُّدّ" مَا صَنَعَ النَّاسُ فَهُوَ "السَّدّ"». ومثله:« مَا كَانَ "كِسْفًا" فَهُوَ عَذَابٌ وَمَا كَانَ "كِسَفًا" فَهُوَ قِطَعُ السَّحَابِ »(الإتقان: ج2، ص163).

مريم، عليها السلام:{**وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً**}(13/19)، فإنه يعني تعطّفاً »[1]. أو يعني تزكية، أو تطهيراً، أو ما كان في مقامهما. وكذلك يدل الفعل "زكّى" على معنى التطهير والتنقية والصفاء كلّما استخدم في الخطاب القرآني؛ كقوله تعالى:﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾(البقرة:129)، وقوله عز وجلّ:﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾(الجمعة:2).

والواقع أنّ هذه الدلالة الجديدة لمفردة "زكاة"، بصيغة الاسم، والتي خرجت عن معناها المطّرد في كل القرآن، إنما جاءت من كون هذا اللفظ قد ورد نكرة، ولم يأتِ مسبوقاً بفعل "آتى" الذي من عادة القرآن أن يقرنه بمصطلح الزكاة الشرعية. أما الزكاة المفروضة فلا تأتي نكرة، مُعرّاة من هذا الفعل، إلا في موضع واحد هوقوله تعالى:﴿**وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾(الروم:39). يقول ابن عاشور في ذلك:« وَقَوْلُهُ مِنْ زَكاةٍ بَيَانِيَّةٌ مُبَيِّنَةٌ لِإِبْهَامِ مَا الشَّرْطِيَّةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ »[2]. فهي ليست الزكاة المفروضة لأنّ السورة مكية، والزكاة الشرعية لم تكن قد فرضت بعد - وإن كانت ذات صلة ببذل المال - إنما وردت في سياق ذكر الربا، الذي نبّه القرآن عليه منذ ذلك العهد، تمهيداً لتحريمه لاحقاً؛ ولذلك أتبعها بلفظ "آتيتم"، لتشبه تماماً الزكاة التي تؤتى، والتي ستفرض في العهد المدني. أما ورود "الزكاة" الشرعية معرفة بأل، فللدلالة على أنها معروفة من حيث شروطها المنصوص عليها؛ من نصاب ووجوه إنفاقها، وغير ذلك، فأتى بها التعبير القرآني معرّفة بأل العهدية.

ب - **الصيام والحج**: يرد هذان المصطلحان بشكل مخالف، بحيث لا يحتاجان إلى "دعم لفظي"، كما في مصطلحيْ الصلاة والزكاة. قال تعالى في الحج:﴿**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾(البقرة:158)،﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**﴾(آل عمران:97)، ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**﴾(الحج:27)، وقال في الصوم: ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾(البقرة:185)، ﴿**وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ**﴾(البقرة:184). ولم يقل: أدوّا الصوم، أو أدّوا الحج، أو أقيموهما.

وترد مادة (صام) بصيغتين مختلفتين هما:(الصوم) و(الصيام)، وكلتاهما مصدر فعل ثلاثي هو (صام). والصيام يرد في القرآن المدني، في السور التالية: البقرة، والنساء، والمائدة والمجادلة. وقد يرد أكثر من مرة في الآية الواحدة، كما في آيات سورة البقرة. أما لفظ "الصوم" فيرد في القرآن المكي فقط، وقد جاء في سورة واحدة هي (مريم:26). جاء في

---

[1] - ابن فارس، أفراد كلمات القرآن العزيز، ص12. وهناك آية أخرى مشابهة لها هي قوله تعالى:{فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}(الكهف:81).

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص90.

الإتقان:« كُلُّ "صَوْمٍ" فِيهِ فَمِنَ الْعِبَادَةِ إِلَّا:{نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً} أَيْ صَمْتًا »[1]. ولكن هذا الصمت ورد في حال خاصة بمريم هي جزء من معجزتها، فهذا الصمت عبادة لها. وقال ابن عاشور تعليقاً على ذلك:« فَعَلَّمَهَا أَنْ تَنْذُرَ صَوْمًا يُقَارِنُهُ انْقِطَاعٌ عَنِ الْكَلَامِ، فَتَكُونَ فِي عِبَادَةٍ وَتَسْتَرِيحَ مِنْ سُؤَالِ السَّائِلِينَ وَمُجَادَلَةِ الْجُهَلَةِ. وَكَانَ الِانْقِطَاعُ عَنِ الْكَلَامِ مِنْ ضُرُوبِ الْعِبَادَةِ فِي بَعْضِ الشَّرَائِعِ السَّالِفَةِ، وَقَدِ اقْتَبَسَهُ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْمَرْأَةِ مِنْ أَحْمَسَ الَّتِي حَجَّتْ مُصْمَتَةً. وَنُسِخَ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ بِالسنةِ »[2]. غير أن المؤلف لم يشر إلى سر استخدام مصطلح "صوم" بدلاً من "صيام". وجاء الصوم كذلك تلميحاً عند الحديث عن آية سيدنا زكريا، بعدم تكليم الناس، أو عدم القدرة على ذلك، مدة ثلاثة أيام إلا رمزاً.

ويرد "الصيام" بصيغة الفعل أيضاً، كما في قوله تعالى:﴿**فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ**﴾(البقرة:184)، ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾(البقرة:185). أو يرد اسم فاعل كما في قوله تعالى:﴿**وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ**﴾(الأحزاب:35)، أما بقية الآيات فورد فيها مصدر "صيام" وهي:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾(البقرة:183)، ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ**﴾(البقرة: 187)، ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾(البقرة:196)، ﴿**وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**﴾(النساء:92)، ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**﴾(المجادلة:3 - 4).

ومما تجدر الإشارة إليه، أنّ مفهوم "الصيام" يأتي أحياناً نوعاً من العقاب لإثم ارتكبه المرء، أو كفارة لذنب ما. وذلك ظاهر من قوله تعالى:﴿**لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ**﴾(المائدة:95)، وهو تكملة لآية قتلِ المُحْرِمِ الصيدَ؛ أي أنّ المحْرِم إذا اعتدى في الإحرام بأن اصطاد طريدة، فإنه يكفّر عن ذلك بالصيام، وهذه الكفارة دفع ثمن، وتصحيح خطأ، لذلك وصفه القرآن بقوله:{**وبال**}. قال الزمخشري:« لِيَذُوقَ متعلق بقوله: (فَجَزاءٌ) أى فعليه أن يجازى أو يكفر، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام. والوبال: المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه »[3]. وقال ابن عاشور في هذه الآية:« وَالْجَزَاءُ الْعِوَضُ عَنْ عَمَلٍ، فَسَمَّى اللَّهُ ذَلِكَ جَزَاءً، لِأَنَّهُ تَأْدِيبٌ وَعُقُوبَةٌ إِلَّا أَنَّهُ شُرِعَ عَلَى صِفَةِ الْكَفَّارَاتِ مِثْلَ كَفَّارَةِ الْقَتْلِ وَكَفَّارَةِ الظِّهَارِ... وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى أَنَّ مَقْصِدَ التَّشْرِيعِ فِي ذَلِكَ هُوَ الْعُقُوبَةُ قَوْلُهُ عَقِبَهُ لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ »[4]. ومفهوم قول الزمخشري وقول ابن عاشور، أنّ الصيام المفروض على الصائد في الحرم نوع

---

[1] - السيوطي، الإتقان، ج2، ص160. لكن المؤلف لم يفرّق بين صيغة "صوم" وصيغة "صيام". وهو موطن النظر في المسألة.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص106.

[3] - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص679.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص45.

من الضرر والإتعاب والمشقة، يقع على المسلم الذي اعتدى على قدسية الحرم المكيّ، جراء ارتكاب ما لا يصح فعله في هذا المكان من الأرض.

أما في الحديث النبوي الشريف، وفي غيره من أقوال الفقهاء والعلماء، فيرد لفظ "الصوم" بمعنى "الصيام" تماماً من غير فرق في الدلالة؛ أي بمعنى الشعيرة الرابعة التي بُني عليها الإسلام. ولم يرد في القرآن الكريم معنى هذه الشعيرة إلا بلفظ "الصيام". وترد اللفظتان معاً في الحديث النبوي وبالدلالة نفسها، وفي غيره من أقوال الفقهاء والعلماء والشعراء والكتاب؛ وذلك لكون هذا اللفظ معروفاً عندهم بدلالته العامة، فليس في لفظ "صوم" وفي لفظ "صيام" ما يجعل الفرق واضحاً عندهم في كتاباتهم وكلامهم، وحتى في الحديث النبوي، وذلك لأنّه غير معجز كالقرآن. فقد قال الرسول(ص):« بني الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان »[1]. وقال في حديث آخر:« الصوم جُنّة »[2]. وقال أيضاً:« فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تُكفّرها الصلاة والصيام والصدقة »[3]. بل إن الإمام البخاري نفسه قد سمّى أحد أبواب "صحيحه" "باب الصوم" وليس باب الصيام. وقال الشاعر في مثل هذا المجال:

صيامي إذا أفطرت بالسحت ضلة وعلمي إذا لم يُجْدِ ضربٌ من الجهل

إنّ لفظ "صوم"، ولفظ "صيام" كلاهما مشتقان من الفعل الثلاثي "صام"، ومصادر الثلاثي غير قياسية عند علماء الصرف، وهي كثيرة ومختلفة في الفعل الواحد، فالفعل "سار" - مثلا - يشتق منه مصادر: سيْر، مسير، مسار، تسيار[4]. وتاب يشتق منه: توب، توبة، متاب، تابة[5]. ولا من بد أن يكون لكل وزن من هذه الأوزان دلالة خاصة غير تلك التي في الأوزان الأخرى، إلاّ إذا كان الأمر من قبيل تعدد اللهجات. غير أنّ ورودها في القرآن بشكل مطّرد يمنع أن تكون مترادفة في المعنى.

وقد لاحظ المطعني هذا الفرق في لفظ "صيام"، ولفظ "صوم" وعلّله، بقوله:« لا نزاع أن الإمساك عن شهوتي البطن والفرج أمر شاق على النفس، شتاء وصيفاً.. أما الإمساك عن الكلام فأمره يسير، ولا مشقة فيه، بل ربما كان فيه راحة للنفس ومتعة. لذلك التزم القرآن "الصيام" في التكاليف الشاقة، وخص الصوم بالأمر السهل،

---

[1] - البخاري، الجامع الصحيح، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط1 2002، ص12، ورقم الحديث: 8

[2] - المرجع نفسه، ص456. ورقم الحديث: 1894.

[3] - نفسه، ص457. ورقم الحديث: 1895.

[4] - المعجم الوسيط، مادة سار، ص467

[5] - المرجع نفسه، مادة تاب، ص90

وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. والصيام أكثر حروفاً من الصوم. فناسب كل منهما معناه المراد منه، الصيام للتكليف الشاق، والصوم للصمت السهل »[1].

ولكن من المعروف أنّ القرآن الكريم، لا يفتأ يكرر ألاّ حرج في الدين. والمفسرون يشرحون ذلك بعدم وجود مشقة، ولا ضيق، فكيف نفهم مثل هذا الكلام؟ لذلك وجب أن نرى المسألة من جهة أخرى، هي جهة معاني المصادر، وليس الحكم على دلالة اللفظة بمجرد النظر إلى عدد حروفها. إذ لا دليل علمياً على أن زيادة الألف في لفظ "الصيام" تؤدي معنى المشقة والعناء في التكليف، إذا قورن بلفظ "صوم"، إنما الفرق في كون "صوم" مصدراً وزنه "فَعْل" يدل على حدوث الفعل مرة واحدة، أو يدل على مجرد الحدث؛ مثل: ضرْب، قتْل، نزْع، دفْع...إلخ. ومعروف أنّ "الصوم" لم يرد إلا مرة واحدة في القرآن، وكان محدداً بثلاثة أيام لسيدنا زكريا، وبيوم واحد لمريم عليهما السلام. وكأنّ لفظة "الصوم" « لما كانت بمعنى الصمت جيء بها على وزنه وخصها الله به. وأما (الصيام) فقد وردت في تسعة مواطن من القرآن كلها بمعنى العبادة المعروفة »[2]. أما وزن "فِعال" فيدل على تكرار الحدث ومواصلته؛ مثل: ضِراب، قِتال، نِزاع، دِفاع.. ويدل أيضاً على قرب شيء من آخر، ويدل على الحينونة أيضاً؛ أي انتهاء زمان الحدث[3].

يقول سيبويه:« وجاءوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فعالٍ، وذلك: الصرام والجزاز، والجداد، والقطاع، والحصاد. وربما دخلت اللغة في بعض هذا فكان فيه فَعالٌ وفِعالٌ، فإذا أرادوا الفعل على فعلت قالوا: حصدته حصداً، وقطعته قطعاً، إنما تريد العمل لا انتهاء الغاية. وكذلك الجزّ ونحوه »[4]. وقوله: ربما دخلت اللغة في بعض هذا، إنما يقصد به أن تكون للمصدر الواحد صورتان مستعملتان كلتاهما بنفس الدرجة، كما في لفظ "حصاد" في قوله تعالى:﴿**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾(الأنعام:141)؛ حيث يقول ابن الجزري عن هذا الفرق:« (وَاخْتَلَفُوا) فِي: حَصَادِهِ فَقَرَأَ الْبَصْرِيَّانِ، وَابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ بِفَتْحِ الْحَاءِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِكَسْرِهَا »[5]. والواضح من هذا الكلام أنّه لا فرق بين الاستخدامين،« وَهَذَا زَمَنُ الحَصَادِ وَالْحِصَادِ »[6]، ما داما يطلقان على عملية واحدة واحدة - في الميدان الفلاحي - نكاد لا نشعر بالفرق بين الصيغتين في الواقع المعيش الموظفة فيه مفردة "حصاد".

أما مصطلح "الحج" فيعرّفه إبراهيم السامرائي بقوله:« القصد إلى بيت الله الحرام، عبادة لله وحده، في وقت محدد، لأداء مناسك محددة، بآداب محددة »[7]. وهذا التعريف هو تعريف الفقهاء والأصوليين عموماً. وليس هناك

---

[1] - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص317.

[2] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية العربية، ص20.

[3] - يراجع: المرجع نفسه، ص26.

[4] - سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.ط:3، 1408 هـ - 1988 م، ج4، ص14.

[5] - ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.ط:3، 1408 هـ - 1988 م، ص12.

[6] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص71.

[7] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص17.

معنى آخر للفظ الحج في كل الآيات التي ورد فيها؛ فلا مجاز فيه، ولا تصرف في دلالته المعروفة. إلاّ أنّ الملاحظ في إيراده، أنه يأتي بصيغة الفعل، وبصيغة المصدر. أي أن التعبير القرآني يورد هذا اللفظ من غير لفظ آخر مساعد له في تبيين الدلالة؛ كما هو الشأن مع لفظ "الصلاة" المسبوق بالفعل "أقام"، والزكاة المسبوقة بفعل "آتى"، فيورده مباشرة كقوله تعالى:﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾(البقرة:189)، ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾(البقرة:197)، ﴿**وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾(التوبة:3)، ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**﴾(الحج:27).

إلاّ أننا نجد في لفظ "حجّ" تصريفين فيهما اختلاف طفيف هما: صيغة "حَجّ"، التي وردت تسع مرات، مثل قوله تعالى:﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾(البقرة:189)، ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾(البقرة:196)، ﴿**فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ**﴾ (البقرة:196). وصيغة "حِجّ" التي وردت مرة واحدة؛ في قوله تعالى:﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**﴾(آل عمران:97).

والسؤال المطروح هو: لماذا وظّف التعبير القرآني- في هذه المرة صيغة- "حِج" عكس المواضع التسعة السابقة؟ يقول باحث معاصر:« الحَج.. هو المصدر في المرات التسع التي ورد فيها في القرآن جاء بمعنى وقت الحج، أو حدث الحج. أما حِج فهي اسم مصدر، وتعني أداء شعائر الحَج... من الإحرام والطواف والوقوف بعرفة ورمي الجمار »[1]. ثم يردف موضحاً وجهة نظره:« مما يدل على أن (حِج البيت) تعني: أداء شعائر الحج أنه سبقها بعض أماكن الشعائر مثل مقام إبراهيم، ثم أضيفت إلى البيت العتيق الذي يعتبر دخوله والطواف به من أهم شعائر الحج»[2]. ويقول ابن عاشور:« والحج...فِيهِ لُغَتَانِ- فَتْحُ الْحَاءِ وَكَسْرُهَا- وَلَمْ يُقْرَأْ فِي جَمِيعِ مَوَاقِعِهِ فِي الْقُرْآنِ- بِكَسْرِ الْحَاءِ- إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: قَرَأَ حَمْزَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ، وَأَبُو جَعْفَرٍ- بِكَسْرِ الْحَاءِ-. وَيَتَّجِهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي فُرِضَ بِهَا الْحَجُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَا عُلَمَاؤُنَا عَلَى فَرْضِيَّةِ الْحَجِّ »[3].

ولكن، لماذا لم يقل التعبير القرآني: ولله على الناس أداء الحَج، أو أداء شعائر الحَج؟ لقد رأينا أن الخطاب القرآني يقتصر في التعبير عن مفهوم الصيام والحج بصيغة الفعل، أو المصدر، فلا يَسنُدهما بفعل "أدى"، أو "أقام"، أو نظرائهما. وفي هذا الاستخدام ميزة تتعلق بالمعنى مباشرة؛ فما خُشي عليه من عدم إقامته وتأديته على الوجه الأكمل، عُبّر عنه بلفظ "أقام"، و"آتى"، كما في "الصلاة" و"الزكاة"، وما لم يُخش عليه من ذلك، عُبّر عنه بمادته مباشرة؛ مثل مصطلحيْ "الصيام"، و"الحج". والله أعلم.

ومن متعلقات مصطلح "الحج" نجد عبارة "المسجد الحرام" التي تكررت في الخطاب المدني فقط، وعلى نحو أكثر من كلمة "الحج" نفسها، وذلك إشارة إلى مكانة بيت الله في الشريعة الإسلامية، وعند الأمم السابقة المؤمنة به، وإشارة إلى المكان الوحيد الذي تؤدى فيه شعيرة الحج والعمرة، ويتوجّه المصلّون شطره في صلاتهم. ويتكرر لفظ

---

[1] - عودة الله منيع القيسي، سر تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص223.

[2] - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص21.

"الحرام"، أو "المحرّم" في وصف الحرم المكي. فمن الأول قوله تعالى:﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِالْحَرَامِ**﴾(البقرة:144)، ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾(التوبة:19)، ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾(الحج:25)، ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**﴾(الفتح:27). ومن الثاني فقوله تعالى:﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾(إبراهيم:37).

أما إذا ذُكر لفظ "مسجد" وحده، أو وُصِف بلفظ خاص، فإنه يدل على غير بيت الله الحرام، مثل قوله تعالى:﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**﴾(الإسراء:1)، ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾(الإسراء:7)، ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(التوبة:107). فالمسجد الأقصى هو القدس الشريف، والمسجد هو القدس كذلك، ومسجداً ضراراً هو مسجد بناه المنافقون في المدينة لفتنة المسلمين وللتفريق بينهم.

وهكذا، نجد التعبير القرآني يوظّف في كل مرة ما يجده ملائماً من الألفاظ والصيغ، لتأدية المعنى التام الكامل الدقيق. ويستخدم كذلك ما يلائم الخطاب المدني، بكل ما يحمله من طاقة دلالية متنوعة؛ اجتماعية، وتاريخية، وثقافية، وعقائدية. ليدل بذلك على أنّ هذا القرآن ليس من تأليف محمد (ص) على الإطلاق.

1 - 2 - فضاء الجهاد والقتال:

لقد تحدّد هذان المصطلحان - بالمفهوم الشرعي لهما - في العهد المدني. وما ورد منهما في العهد المكي، إنما جاء بالمعنى العرفي المعروف عند العرب. أما من حيث معناهما اللغوي -كما جاء في المعاجم - فنجد ما يلي: ورد في لسان العرب« الجَهد "بالفتح" المشقة، والجُهد "بالضم" الطاقة. الجهاد، استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل.. والجهاد المبالغة واستفراغ الوسع والطاقة في الحرب واللسان، أو ما أطاق من شيء. والاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود »[1]. وجاء في مقاييس اللغة:« (جُهْدٌ) الْجِيمُ وَالْهَاءُ وَالدَّالُ أَصْلُهُ الْمَشَقَّةُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ مَا يُقَارِبُهُ. يُقَالُ جَهَدْتُ نَفْسِي وَأَجْهَدْتُ وَالْجُهْدُ الطَّاقَةُ »[2]. وورد في مخطوطة الجمل« وجاهد مجاهدة وجهادا: بذل وسعه في المدافعة والمغالبة فهو مجاهد وهم مجاهدون »[3]. وواضح من هذا التعريف أنّ مفهوم الجهاد مأخوذ من بذل الطاقة من أجل هدف ما.

أما لفظ "قتال" فهو أكثر تحديداً من حيث دلالته. جاء في مقاييس اللغة:« القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماتة. يقال: قتله قتْلاً. والقِتلة الحال يُقتل عليها. والقَتلة المرّة الواحدة. ومَقاتل الإنسان المواضع التي إذا أصيبت قتله ذلك »[4]. وجاء في مفردات القرآن:« أصل القتل: إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، مادة جهد، ج3، ص133.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، مادة جهد، ص486.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص343.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص57.

إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال: قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موت »[1]. وفي مخطوطة الجمل:« القتال: مصدر قاتل، وهو المحاربة، والجهاد في سبيل الله، والسياق يدل على المراد »[2].

وورد "الجهاد" مرة واحدة في القرآن المكي، في سورة العنكبوت الآيتين 6 و69. وورد "القتال" في سورة واحدة مكية وهي سورة المزمل الآية 20. أما بقية المواضع التي وردت فيها هاتان اللفظتان فهي السور المدنية، وقد وردتا بصيغ مختلفة: فالجهاد قلّ وروده مصدرا، إذ لم يتجاوز أربع مرات، هي قوله تعالى:﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾(التوبة:24)، ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾(الحج:78)، ﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾(الفرقان:52)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي**﴾ (الممتحنة:1). وورد اسم فاعل، مرة واحدة، في سورة النساء، الآية 95، أما في بقية المواضع فورد بصيغة الفعل الماضي والمضارع والأمر.

أما القتال فورد مصدراً (9 مرات)، وفعل أمر في صيغة الجمع، قَاتِلُوا (10 مرات)، وفعلاً ماضياً قَاتَلُوا (3 مرات)، وفعلاً مضارعاً مرفوعاً ومنصوباً (14 مرة) وهو الأكثر. وهذه الألفاظ مشتقة كلها من الفعل الرباعي "قاتل". كما ورد من الفعل الثلاثي "قتل" بمعنى مختلف عن القتال، إلا ما استخدم في الأمر أي "اُقْتلوا"، فقد ورد بمفهوم القتال أو الحرب في سورة البقرة 191، وفي النساء 89 و91. وفي التوبة 5. أما ما ورد في قوله سبحانه:﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾(البقرة:54)، ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ**﴾(النساء:66)، ﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾ (يوسف:9)، ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾(غافر:25)، فالمعنى المقصود من هذا اللفظ مختلف، إذ ليس المقصود منه قتال العدو، إنما قصد منه الكفّارة، أو التعذيب.

يقول أحد الباحثين في مصطلحيْ الجهاد والقتال:« وهما - وإن اتّحد موضوعهما - ليسا بمعنى واحد من كل الوجوه بل بينهما فرق جليّ، كما ينبئ عنهما استعمال القرآن لهما »[3]. و« الجهاد في سبيل الله هو تحمّل المشاق في نصرة دين الله، ودحر الباطل سواء كان باللسان أو بالمال أو بحمل السلاح ومقاتلة العدو إذا وجب القتال »[4].

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص219.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص311.

[3] - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص136.

[4] - المرجع نفسه، ص137.

أما القتال، فهو فرع من الجهاد، ولعله« أسمى مراتب الجهاد، وله دواع خاصة به، وأسباب تقتضيه، بيد أن الجهاد أوسع دائرة من القتال »[1]. فإلحاح الوالدين على ابنهما ليشرك بالله مجاهدة، وجدال الكافرين وإقامة الحجة عليهم بالقرآن جهاد أيضاً.

وما يلاحظ في آيات القتال، أن التعبير القرآني لا يستخدم مصدر "مجاهدة"، ولا "مقاتلة"، وإن كان الفعلان المشتقان منهما، هما الفعلان اللذان يشتق منهما مصدر "جهاد" ومصدر "قتال"، وهما "جاهد" و"قاتَل"، قال الأصفهاني:« والمقاتلة: المحاربة وتحري القتل »[2]. غير أنّ القرآن آثر مصطلح "قتال" على مصطلح "مقاتلة"، وكأنّي به - وهو ينتقي مصطلح "قتال"، ويفضله على صنوه "مقاتلة"- يوحي بأن القتال في الإسلام لم يشرّع بداية، وليس أصلاً من أصوله، إنما الأصل هو السلم؛ فاختار المفردة الأقل دلالة على القتل، وإزهاق الأرواح، لأنّ المسلم لا يفضّل القتال، ولا يبحث عنه بحثاً، بل إنه حتى على أرض المعركة، لا يستحسن الدعوة إلى المبارزة، إلا إذا دُعِي المسلم إليها.

أما مصطلح الجهاد من الناحية الشرعية فقد« نقله الشرع في الكتاب والسنة من معناه اللغوي العام... وقصره على معنى خاص هو:" بذل الوسع في القتال في سبيل الله، مباشرة أو معاونة بمال، أو رأي، أو تكثير سواد، أو غير ذلك"...»[3]. وهو أيضاً:«كل ما يستطيع المسلم أن يبذله من جهد في سبيل إعلاء كلمة الله. »[4]. ولا شك في أنّ هناك فرقاً بينهما مهما يكن دقيقاً.

وقد ورد لفظ "الجهاد"، ولفظ "القتال" في القرآن المكي، وكان الثاني منهما خاصاً ببني إسرائيل، تأديباً لهم، واختباراً، كما في قوله تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة:246). وقال آخر:« وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مرادا به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها »[5].

ومن دلالات الجهاد الأخرى نورد ما يلي« الجهاد: هو الدعاء إلى الدين الحق »[6]. وقال الأصفهاني: « والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدوّ الظاهر، ومجاهدة

---

[1] - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص137.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ج2، ص220.

[3] - محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ص40.

[4] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص17.

[5] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص344.

[6] - الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط1، 1983. ص80.

الشيطان، ومجاهدة النفس »[1]. وهذه المخلوقات الثلاثة تعتبر أعداء لدودين للإنسان المسلم. أما مصطلح "القتال" فلم يذكره الشريف الجرجاني، إنما ذكر لفظ "القتل" فقط، وفسّره أفضل مما فعل ابن منظور الذي اقتصر على القول: القتل معروف!!

ويرى بعض الباحثين المعاصرين فرقاً دلالياً دقيقاً بين قتل وقاتل، فيقول:« والفعلان، "قتل وقاتل" في قوله تعالى:﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾، وقوله تعالى:﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾. فالمجرد منهما دال على حدوث أصله "القتل"، والمزيد دال على محاولة ذلك، فهما متخالفان لا متوافقان »[2]. هذا إذا كان القتل والقتال صادريْن من الإنسان، أما إذا كانا صادريْن من الله تعالى، فالأمر مختلف كما في قوله تعالى:﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ**﴾(الأنفال:17)، وقوله سبحانه:﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾(التوبة: 30)، فالفعلان هنا« متوافقان.. فالمجرد منهما دال على حدوث أصله "القتل" عموماً، والمزيد دال على المبالغة في ذلك »[3]. وذلك لأنّ الله لا يقتل ولا يقاتل كما يفعل الناس بطبيعة الحال. والملاحظ في هذين المصطلحين؛ الجهاد والقتال، أنهما لا يردان بصيغة "مفاعلة" أي: مجاهدة ومقاتلة ذلك لأنّ« القرآن يفضل المصدر (فِعالاً)- دائماً - على المصدر(مفاعلة) »[4].

ولكن ما الشيء الموجود في وزن (فعال) وغير موجود في وزن (مفاعلة)؟ أم إنّ المسألة لا تعدو أن نقول فيها: إنّ ذلك من عادة القرآن الكريم في أساليب تعبيره. قال سيبويه:« وجاءوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فعالٍ، وذلك: الصرام والجزاز، والجداد، والقطاع، والحصاد »[5]. وبذلك يمكن أن نفهم القتال والجهاد على على أن المقصود منهما نهاية العملية المطلوب القيام بها على أحسن وجه، حتى يُجزى المرء على ذلك.

وما يلاحظ في هذه الآية أن لفظ "القتال" قد ورد خمس مرات؛ بين اسم وفعل، وكأن الله يشير إلى طبيعة بني إسرائيل في الجدال والمراوغة، فأكثر من إيراد مادة هذا الفعل. ومثل ذلك جاء في قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾(آل عمران:21). فقد كرر الفعل "يقتلون" مرتين للدلالة على طبيعة هؤلاء الناس.

ومثال الاختبار قوله تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾(البقرة:54). والغريب في الأمر، أنّ ذكر القتال لبني إسرائيل لم يرد في السور المكية التي تحكي قصصهم مع موسى عليه السلام، أو مع غيره. وكأنّ القرآن يريد أن يذكّرهم بذلك، وهم في المدينة،

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص198

[2] - رضا هادي حسون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، المركز التقني، بغداد، ط2، 2013. ص22

[3] - المرجع نفسه، ص21 - 22

[4] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص216.

[5] - سيبويه، الكتاب، ج4، ص12.

عسى أن يكونوا خيراً من أسلافهم. فهي فرصة لاستدراك ما فاتهم من الخير. وهو تحدٍّ كذلك ليميز الله الطيب من الخبيث، ويمحّص معدنهم. فإن كانوا على حق، فليقاتلوا مع النبي محمد (ص)، ليمحوا عار أسلافهم، وإلاّ فقد وقع عليهم القول، وحقّ العقاب.

وورد لفظ "القتل" في حق بني إسرائيل توبيخاً لهم وتعزيرا، كما في قوله تعالى:﴿**قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾(البقرة:91). أما لفظ "الجهاد"، فلم يرد في حق بني إسرائيل، لأنّ الجهاد ذو دلالة خاصة، وبنو إسرائيل ليسوا من هذا النوع الذي يجاهد، وإنما حسْبُهم أن يقاتلوا. إذ للجهاد خصائص ومميزات وأخلاقيات، أما القتال فليس فيه كل ذلك، إنما فيه بعضه.

- **تمظهرات مصطلح "القتال" في القرآن**: تأتي مادة "قتل" وما يشتق منها على أشكال متعددة، وهي التالية:

أ - **بصيغة المصدر**: ورد في تسعة مواضع من القرآن المدني، ثلاث منها في سورة البقرة؛ قال تعالى:﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ**﴾(البقرة:216)، ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(البقرة:217)، ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ**﴾(البقرة:246). وهذه الآية الأخيرة خاصة ببني إسرائيل؛ أي لا يُفهم منها مباشرة مشروعية القتال.

ب - **بصيغة الفعل**: وقد ورد ماضياً، ومضارعاً (مرفوعاً، ومنصوبا، ومجزوما)، وورد بصيغة الأمر كذلك.

- صيغة فعل **أمر**: **قاتِلوا**. ورد في عشر آيات[1]. والواضح في هذه الآيات أنها تكاد تقتصر على قتال المشركين من العرب، الذين طغوا كثيراً، وأخرجوا الناس من ديارهم. واللافت للنظر في الآية 190 من سورة البقرة، أنها وردت في سياق منظومة تشريعية كاملة؛ فيها ذكر القصاص، والوصية، والأمر بصيام شهر رمضان، وإباحة الجماع في لياليه، والنهي عن أكل أموال الناس، وإتمام الحج والعمرة. وقد تكرر الفعل "قاتلوا"، والفعل "أُقتلوا" أكثر من مرة للدلالة على ضراوة العداء الذي كان العرب يكنّونه للدعوة الإسلامية. قال تعالى:﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾(البقرة:190 - 193). فقد كرر الفعل "قاتِلوا" ثلاث مرات، وفي كل مرة يتبعه بلفظ احترازي، وتعليل شرعي؛ ليعلم السامع دقة الدلالة في توظيف هذا الفعل. مثل: في سبيل الله، ولا تعتدوا، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام، حتى يقاتلوكم، فلا عدوان..

[1] - الآيات هي: (البقرة:244/190)، (آل عمران:167)، (النساء:76)، (التوبة: 123/36/29/12)، و(الحجرات:9)

كان القتال محظوراً في العهد المكي، وما كان محظوراً منه هو« تداعي المسلمين بعضهم بعضاً لمنازلة قريش من ميدان القتال، وشنّ حملات من الصفية الجسدية لصناديد قريش... يقوم بها المغامرون من المسلمين، بدافع الانتقام من الاضطهاد الذي يلحقون بهم »[1]. أما غير ذلك فيعتبر مسألة شخصية، لها مدلول الدفاع عن النفس، والانتصار للذات إذا أصابها ضيم لسبب أو لغيره. ومن ذلك ما فعله حمزة بأبي جهل، وما كان عمر ينوي أن يفعله لو تعرض له أحد حين أشهر إسلامه، وما فعله سعد بن أبي وقاص كذلك في أحد شعاب مكة حيث« ظَهَرَ عَلَيْهِمْ نَفَرٌ مِنْ المشْرِكِينَ وَهُمْ يُصَلُّونَ، فَنَاكَرُوهُمْ، وَعَابُوا عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ حَتَّى قَاتَلُوهُمْ، فَضَرَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ يَوْمَئِذٍ رَجُلًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ بِلَحْيِ بَعِيرٍ، فَشَجَّهُ، فَكَانَ أوّل دم هريق فِي الْإِسْلَامِ »[2]. ومثل هذا التصرف لم يقم به الضعفاء من الناس بطبيعة الحال، إنما قام به من كان في منعة من قومه، ومن كان يُرهب جانبه. أو هو ردّ فعل سريع من إنسان أصيب في مروءته، وفي إنسانيته، وفي دينه، فاتخذ قراراً شخصياً منفرداً، وهو بذلك يعدّ حالة خاصة لا يقاس عليها.

- صيغة **أُقتلوا**: وردت هذه الصيغة في تسعة مواضع[3]. والوارد في هذه الآيات من القرآن المدني هو القتال الشرعي، أما الوارد في الخطاب المكي فهو القتل العمدي؛ أي قتل النفس اعتداء وظلماً وطغياناً، كما في سورة يوسف عليه السلام، وفي سورة غافر التي تتحدث عن طغيان فرعون وقتله لأطفال بني إسرائيل. قال تعالى:﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾(يوسف:9)، وقال أيضاً:﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ (غافر:25). أما الخطاب المدني ففيه دعوة لقتال المشكرين المعتدين، أو ما كان تأديباً لبني إسرائيل وللمنافقين، قال سبحانه:﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾ (البقرة:54)، ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**﴾(النساء:66). ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾(التوبة:5).

والفرق بين صيغة "قاتِلُوا"، وصيغة "اُقْتُلوا"، أنّ الأولى دعوة إلى قتال المشركين عساهم يرجعون عن غيّهم، أما الثانية فهي« لِلْإِذْنِ وَالْإِبَاحَةِ بِاعْتِبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَأْمُورَاتِ عَلَى حِدَةٍ، أَيْ فقد أذن لكل فِي قَتْلِهِمْ، وَفِي أَخْذِهِمْ، وَفِي حِصَارِهِمْ، وَفِي مَنْعِهِمْ مِنَ الْمُرُورِ بِالْأَرْضِ الَّتِي تَحْتَ حُكْمِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ يَعْرِضُ الْوُجُوبُ إِذَا ظَهَرَتْ مَصْلَحَةٌ

---

[1] - محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ص457.

[2] - ابن هشام، السيرة النبوية، تح:مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1955 م، ج1، ص263. واللحي عَظْم ساق البعير.

[3] - الآيات هي: البقرة:191/54/، النساء:89/91/66، التوبة:5، يوسف:9، وغافر:25

عَظِيمَةٌ »[1]. على اعتبار أن صيغة الأمر - في اللغة - إذا وردت بعد أسلوب شرط، أفادت الإباحة لا الوجوب. أو أنّ صيغة "اقتُلوا" دعوة لاستئصال المشركين، حين زاد طغيانهم، ولم يرعوُوا، ولم يدَعُوا الناس في حال سبيلهم. ومع ذلك، فإنّ صيغة "القتال"، وليس "المقاتلة"- التي تعني المشاركة- هي الصيغة الطاغية في الخطاب القرآني المدني، للدلالة على أن الإسلام لم يسنّ القتال ولا القتل إلا لضرورة، يكون من ورائها حماية الناس جميعاً.

2 - **صيغة فعل ماض: قاتَلوا:** وردت في آيات قليلة هي:﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً**﴾(الحديد:10)، ﴿**وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا**﴾(الأحزاب:20)، ﴿**فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**﴾(آل عمران:195). وجاءت صيغة هذا الفعل في سياق التنويه بالأجر العظيم للذين جاهدوا في سبيل الله عن طريق قتال المشركين.

3 - **صيغة فعل مضارع:** وقد ورد بصيغين اثنتين هما: **تقاتلون، ويقاتلون،** وقد وردت الصيغتان في خمسة عشر موضعاً؛ منها أربعة ورد الفعل فيها مجزوماً أو منصوباً أو مرفوعاً؛ وهي قوله تعالى:﴿**وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**﴾(البقرة:191)، ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾(البقرة:217)، ﴿**إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ**﴾(النساء: 90)، ﴿**فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا**﴾(التوبة: 83). أما بقية الآيات فالفعل فيها مضارع مرفوع، كما في قوله تعالى:﴿**الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ**﴾(النساء:76)، ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(التوبة:111).

أما صيغة "**نقاتل**"؛ فوردت مرتين في آية واحدة على لسان بني إسرائيل، في قوله تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**﴾(البقرة:246).

4 - **صيغة المبني للمجهول:** ورد الفعل "قُتِل" في صيغة الماضي المبني للمجهول، غير أنه ورد على هذه الحال في الخطابين المكي والمدني معاً؛ فإذا جاء في الخطاب المكي، كان للدلالة على فضاء خاص؛ هو فضاء الدعاء بالهلاك، أو العذاب، أو اللعن، كما في هذه الآيات:﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ**﴾(الذاريات:10)، ﴿**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾(عبس:17)، ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**﴾(البروج:4). أما إذا ورد في الخطاب المدني فيدل على القتل الحقيقي، ويتعلق بالحرب

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص115.

والقتال، ويأتي فعلاً مضارعاً مبنياً للمجهول أيضاً؛كما في قوله جل وعلا:﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾(البقرة :154)، ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾(آل عمران:144)، ﴿**وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(النساء:74).

والملاحظ في هذه الآيات كلها - على كثرتها - عدم وجود آية واحدة استخدم فيها لفظ "سيف"، بينما ورد ذكره في الكتاب المقدس مائتيْ (200) مرة، وكذا الشأن في مادة "حرب"؛ فلم يقل القرآن: حارِبوا، أو فلْتُحاربوا، وإنما استخدم المصدر منها؛ أي الحرْب. كما لم يقل: احملوا السيف، أو سلّوا سيوفكم، أو ما شابه ذلك. بل لم يستخدم - ولو مرة واحدة - صيغة "مقاتل"، أو "مقاتلون". أما ما جاء من مادة "حرب" بصيغة الفعل؛ يحاربون، أو حارب، فيأتي بمعنى الحرب العقدية، أو المعنوية كما في قوله تعالى:﴿**جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ**﴾(المائدة:33)، ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾(التوبة:107). ومعنى« مُحَارَبَةِ اللَّهِ مُحَارَبَةُ شَرْعِهِ وَقَصْدُ الِاعْتِدَاءِ عَلَى أَحْكَامِهِ... وَالْمُرَادُ بِمُحَارَبَةِ الرَّسُولِ الِاعْتِدَاءُ عَلَى حُكْمِهِ وَسُلْطَانِهِ »[1].

إن للتنويع في صيغ مادة "قتل" دلالته التاريخية والتشريعية والحضارية. فالإنسان منذ خُلق وهو يتعرّض لأنواع من الاضطهاد من أخيه الإنسان، بسبب عرق، أو لون، أو لغة، أو أمر آخر. وقد يبلغ الأمر ببعض الناس أن يطغوا طغياناً، لا يُفكّ، ولا يُجابه إلا بالقتال، كما هو معروف في الثورات المختلفة عبر التاريخ. وكما هو معروف عن قريش وعدائها للمسلمين، فقد« كان هذا مثار دهشة وعجب لدى النقاد المحدثين، فهم لا يفهمون أن (الداعية) يدعو هكذا إلى حمل السلاح، ولكن إذا كان النبي قد حمل السيف فلأنه كان يعلم جيداً أن مكة لن تلقي السلاح، وسيعطيه التاريخ على ذلك البرهان القاطع »[2]. ومن ثَمّ، وجب اتخاذ الوسائل الضرورية في الوقت المناسب، وبالطريقة المناسبة. ولا يفلّ الحديد إلا الحديد، إذا تأزمت الحال واشتدت، وحمي الوطيس. فلا يكون مفرّ من القتال والحرب، لأنها الوسيلة الأخيرة لرد الأمور إلى نصابها، وأخذ الحقوق.

ولعل هذا الوضع في كثرة صيغ مادة "قتل" وتنوعها، وتوزيعها على الآيات المختلفة هو الذي جعل أحد الباحثين المعاصرين يقول:« القتال مشروع ضد تلك الدول حتى ولو لم يصدر من تلك الدول أيّ اعتداء على المسلمين، ولا أيّ منع للدولة الإسلامية، بأنْ تركت الإسلام ينتشر بين رعاياها، مع توفير الأمن لحملة الدعوة وللمستجيبين لها »[3]. وهو يقصد أنّ قتال المشركين شُرع ابتداء، لا ردا لعدوان فقط، وهو رأي يعتمده بعض القدامى وبعض المعاصرين كذلك، في مسألة قتال غير المسلمين بصفة عامة.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص181.

[2] - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص135.

[3] - محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ص598.

أما مصطلح "الحرب"، فلم يرد كثيراً، ولم يشتق منه اسم فاعل "محارب"، أو"محاربون. "قال الله تعالى:﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ (محمد:4)، وقال أيضاً:﴿**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ**﴾(الأنفال:57). وقال عن اليهود:﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**﴾(المائدة:64)، وقال كذلك:﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾(البقرة:279)، ومعنى الحرب لغة هو: السلب. جاء في مقاييس اللغة:« الْحَاءُ وَالرَّاءُ وَالْبَاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا السَّلْبُ، وَالآخَرُ دُوَيْبَّةٌ، وَالثَّالِثُ بَعْضُ الْمَجَالِسِ. فَالْأَوَّلُ: الْحَرْبُ، وَاشْتِقَاقُهَا مِنَ الْحَرَبِ وَهُوَ السَّلْبُ. يُقَالُ حَرَبْتُهُ مَالَهُ، وَقَدْ حُرِبَ مَالَهُ، أَيْ سُلِبَهُ»[1]. فالقرآن لم يقل: فأذنوا بقتال من الله ورسوله، وكأنّه يوحي في ذلك بمجال أوسع من العقاب، وأكثر تنوعاً، قد لا يعلمه المرء حتى يقع.

- مصطلح "**جهاد**": هو صنو مصطلح "قتال" في بعض الأوجه، لكنه أقلّ استخداماً منه، ويحمل معاني القتال، كما يحمل معاني مجاهدة النفس والمنافقين، وكذا الكفار كما في قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾(التحريم: 9). ومعنى هذه الآية ينصرف إلى جهاد الحجة والبيان[2]، ولو كان غير ذلك لقال: قاتِلْ الكفار والمنافقين. وقد ورد لفظ "جهاد" بصيغ ثلاث هي: فعل، واسم فاعل، ومصدر. وهذه نماذج من آيات القرآن الكريم.

أ - **صيغة الفعل**: وفيه الماضي والمضارع والأمر؛ في أربع عشرة 14 آية هي قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ**﴾(البقرة:218)، ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾(آل عمران:142)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾(الأنفال:72)، ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾(الأنفال:74)، ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ**﴾(الأنفال:75). ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾(المائدة:56)، ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ**﴾(التوبة:16)، ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(التوبة:19)، ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ**﴾(التوبة:20). ﴿**لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**﴾(التوبة:44)، ﴿**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(التوبة:81)، ﴿**لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ**﴾(التوبة:88)، ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(الحجرات:15)، ﴿**تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص48.

[2] - الشعراوي، الجهاد في الإسلام، مكتبة التراث الإسلامي، ط1، 1998، ص16.

(الصف:11). ومعظم هذه الآيات من سورة الأنفال التي نزلت بعد غزوة بدر، وسورة التوبة التي نزلت بعد غزوة تبوك. أما بقية الآيات فمكية؛ قال تعالى:﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(النحل:110)، ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(العنكبوت:69).

وليس معنى "الهجرة" في آية النحل هو الهجرة المعروفة في التاريخ الإسلامي، والتي يؤرخ بها إلى يومنا هذا، إنما « المرَادُ بِـ «الَّذِينَ هَاجَرُوا» الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْحَبَشَةِ الَّذِينَ أَذِنَ لَهُمُ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهِجْرَةِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ. وَلَا يَسْتَقِيمُ معنى الْهِجْرَة هُنَا إِلَّا لِهَذِهِ الْهِجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ »[1]. وذلك حتى لايقال إنّ الآية مدنية لأنها تذكر "الهجرة" و"الجهاد". وفي هذا دليل على درجة الجهاد في الإسلام بحيث هيّأ له التعبير القرآني الجوّ منذ العهد المكي، ليكون تقبّله في المدينة أمراً طبيعياً، به ما يسوّغه عند المتلقي.

ب - **صيغة اسم الفاعل**: المجاهدون؛ ورد ثلاث مرات في آية واحدة من سورة النساء وهي قوله عز وجل:﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(النساء:95).

وهنا ملحظ طريف ذكره الشعراوي رحمه الله وهو سبب عدم ذكر القرآن لفظ "غير المجاهدين" في مقابل "المجاهدون":« وكان من الممكن القول: لا يستوي القاعدون والقائمون. أو أن يقال: لا يستوي المجاهدون وغير المجاهدين... إن الحق تعالى يلفتنا إلى أن كل مؤمن حين يدخل الإسلام يعتبر نفسه جنديا في حالة تأهب... فالمسلم لم يكن في حالة استرخاء بل في تأهب وكأنه واقف دائما ليلبّي النداء، وكأن القاعد هو الذي ليس في صفوف المؤمنين »[2]. وفي ذلك دقة كبيرة في توظيف التعبير القرآني لمفرداته، من كل النواحي الدالة؛ معجمياً، وصرفياً، واشتقاقياً. وهذا مما لايقدر عليه إنسان مهما أوتي من قدرة على توظيف اللغة.

ج - **صيغة المصدر**: لقد وردت صيغة "جهاد"، وليس "مجاهدة" ، وهي غير معرّفة "بال"، إنما جاءت نكرة في كل المواطن التي وردت فيها، والآيات هي قوله سبحانه:﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾(التوبة:24)، ﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾(الفرقان:52). ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا**

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص299.

[2] - الشعراوي، الجهاد في الإسلام، ص56.

بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾(الممتحنة:1). إلا ما ورد مضافاً إلى ضمير، في آية واحدة هي:﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾(الحج:78).

ومن حيث دلالة الجهاد المعادلة لمفهوم "القتل"، أو "القتال"؛ الذي يعني حمل السلاح لمواجهة العدو، فإننا نجد بعض الخلاف في ذلك. قال الشعراوي:« لم يضع الله سبحانه الجهاد كوسيلة في أول الأمر، بل ظل يأمرهم بالدعوة والصبر.. فلما قامت دولة الإسلام وأصبح المسلمون في منعة وعزة، كان لابد لهم من قوة ترهب أعداء الله تعالى وتمنعهم من التصدي للدعوة، وتخلي بين الناس وبين اختيارهم. إذن فالجهاد في سبيل الله ضمان للمؤمن أن يظل المنهج الذي آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة »[1]. وقد أورد المؤلف في هامش كتابه آراء كثيرة لعلماء السلف في حد الجهاد، ومشروعيته، وشروطه، وفيمن يجاهد المرء وغيرها. ومما أورده رأي ابن عرفة في حد الجهاد وهو« قتال المسلم كافراً غير ذي عهد، لإعلاء كلمة الله تعالى، أو حضوره له، أو دخوله أرض له »[2]. وواضح من هذا القول أنّ الجهاد قد يحدث ابتداء؛ أي ليس للدفاع عن النفس. ولعل مثل هذا الرأي هو الذي يدفع بكثير من الناس في الدول الإسلامية في عصرنا هذا إلى التمسك بآيات القتال والجهاد، فيبيحون دماء كل الذين يرونهم كفاراً. مع العلم أنّ لمصطلح "جهاد"« ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى :{وجاهدوا في الله حق جهاده}[الحج/78]، {وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله}[التوبة/41]، {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله}[الأنفال/72] »[3]. أو أربعة أقسام - على عكس مصطلح قتال - وهي: جهاد بالقلب؛ أي مجاهدة النفس والشيطان عن الشهوات المحرمة، وجهاد باللسان؛ أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد باليد؛ أي زجر الأمراء أهل المناكر، وجهاد بالسيف[4]. والجهاد بالسيف هو آخر المراتب كما هو مبيّن في التقسيم السابق. بل إنّ الجهاد بالمال مقدَّم على الجهاد بالنفس[5].

وهناك ألفاظ متعلقة بفضاء الحرب والقتال: وهي مصطلحات خاصة، بعضها كان معروفاً في الجاهلية، وبعضها الآخر إسلامي خالص. ومن هذه الألفاظ ما يلي: الغنائم، الأسرى، الأنفال، الفيء، القوة، الرباط، الرصد. وهي مصطلحات محددة الدلالة، لا ترد بمعان مجازية ولا ثانوية، إلا إذا وردت بصيغ صرفية مختلفة.

ولا تتكرر هذه المصطلحات كثيرا في الخطاب القرآني، إلا بما يتطلبه المقام، من ذلك ما يلي: قال تعالى في الأسرى:﴿كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾(الأنفال:67)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾(الأنفال:70)، ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ

---

[1] - الشعراوي، الجهاد في الإسلام، ص41 - 48.

[2] - المرجع نفسه، ص43.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص198 - 199.

[4] - الشعراوي، الجهاد في الإسلام، ص44.

[5] - ينظر، المرجع نفسه، ص61.

صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾(الأحزاب:26)، ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(الإنسان:8). وقال في الأنفال:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾(الأنفال:1).

وقال تعالى في الغنائم:﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(الأنفال:41)، ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾(الأنفال:69)، ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾(الفتح:15)، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾(الفتح:18 - 19)، ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾(الفتح:20).

وقال تعالى في الفيء:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾(الأحزاب:50)، ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾(الحشر:6)، ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(الحشر:7). وقال في الرصد:﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (التوبة:5). وقال في القوة والرباط:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾(آل عمران:200)، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾(الأنفال:60).

فواضح من عرض هذه الآيات أن المصطلحات التابعة لفضاء القتال قليلة، وذلك لأنّ القرآن الكريم لا يطيل في مثل هذه الأمور، لكون الإشارة إليها مرة أو مرتين تكفي، لفهم مدلولها، وتغني عن الإعادة، والتكرار. كما أنه لا ينوّع في اشتقاقاتها؛ من فعل واسم فاعل، ومصدر إلخ، لأن ذلك لا مسوّغ له في إفهام المقصود، وهي ليست مطلوبة لنفسها ابتداءً، فالإسلام لم يكن يوماً دين جزية، أو مادة، أواقتناص غنائم، فاكتفى التعبير القرآني بما ذكره منها.

قال الأصفهاني في هذه المصطلحات:« النفل قيل: هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف الاعتبار، فإنه إذا اعتبر بكونه مظفورا به يقال له: غنيمة، وإذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب يقال له: نفل، ومنهم من فرق بينهما من حيث العموم والخصوص، فقال: الغنيمة ما حصل مستغنما بتعب كان أو غير تعب، وباستحقاق كان أو غير استحقاق، وقبل الظفر كان أو بعده. والنفل: ما يحصل للإنسان قبل القسمة من جملة الغنيمة، وقيل: هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال، وهو الفيء »[1]. ولعل ذلك هو السبب في أنْ كان سؤال المسلمين عن الأنفال، ولم يكن عن الغنائم. يقول ابن عاشور في ذلك:« افْتِتَاحُ السُّورَة بِ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَعْلَمُوا مَاذَا يَكُونُ فِي شَأْنِ الْمُسَمَّى عِنْدَهُمُ الْأَنْفالِ وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَنَّهُمْ حَاوَرُوا رَسُولَ اللَّهِ

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص449.

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِصَرِيحِ السُّؤَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَاصِمُ أَوْ يُجَادِلُ غَيْرَهُ بِمَا يُؤْذِنُ حَالُهُ بِأَنَّهُ يَتَطَلَّبُ فَهْمًا فِي هَذَا الشَّأْنِ »[1]. وقال غيره:« الأنفال هبة الله عز وجل للمقاتلين الذين حققوا بخروجهم الهدف الأول من القتال وهو نشر كلمة الله في الأرض »[2]. وقال آخر:« الفيء: ما ردَّه الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالفهم في الدين بلا قتال، إما بالجلاء أو بالمصالحة، على جزية أو غيرها. والغنيمة أخص منه، والنفل أخص منها »[3]. غير أنه لم يبيّن وجه الخصوص بوضوح في كل من الغنيمة والنفل.

إلاّ أن الملاحظ في ألفاظ "مغانم"، و"أنفال"، و"أفاء"، أن الأول يأتي منه الفعل والمصدر الميمي، والثاني لا يأتي إلاّ جمع تكسير، والثالث لا يأتي إلاّ بصيغة الفع. وقد أسند التعبير القرآني الفعل "غنِم" إلى المسلمين المجاهدين، بينما لم يسند الفعل "أفاء" إلاّ لذات الله تعالى؛ وكأنّ الفيء زيادة ومنّة من الله على عباده المقاتلين في سبيله، قد يحصلون عليه من دون مشقة، ولا قتال، في بعض الأحيان. أما الغنيمة فكأنها من حقهم، ومن نصيبهم الشرعي والمنطقي، يأخذونها بعد المجهود المبذول في القتال. وكذلك الأمر بالنسبة إلى "الأنفال"، إذ تحمل دلالة النافلة؛ أي ما ليس واجباً، أو ما كان زائداً على المطلوب.

أما الفيء فقال فيه الراغب:« الفيء والفيئة: الرجوع إلى حالة محمودة.. ومنه: فاء الظل، والفيء لا يقال إلا للراجع منه.. وقيل: للغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة: فَيْء، قال:{ما أفاء الله على رسوله}[الحشر/7]، {وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك}[الأحزاب/50]، قال بعضهم: سمي ذلك بالفيء الذي هو الظل تنبيها أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل »[4].

وقال ابن فارس:« وَالْفَيْءُ: غَنَائِمُ تُؤْخَذُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَفَاءَهَا اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِمْ »[5]. وقال ابن منظور: « الفَيْءُ: الغَنِيمةُ، والخَراجُ. تَقُولُ مِنْهُ: أَفاءَ اللهُ عَلَى المسْلِمينَ مالَ الكُفَّارِ يُفِيءُ إِفاءَةً. وَقَدْ تكرَّر فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ الفَيْءِ عَلَى اخْتِلاف تَصرُّفِه، وَهُوَ مَا حَصل لِلمُسلِمينَ مِنْ أَموالِ الكُفَّار مِنْ غَيْرِ حَرْب وَلَا جِهادٍ. وأَصْلُ الفَيْءِ: الرُجوعُ، كأَنه كانَ فِي الأَصْل لَهُمْ فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ »[6].

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص248.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص28.

[3] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص170.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص211.

[5] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص436.

[6] - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص126.

ومهما يكن من أمر هذه المصطلحات، فإنّ التعبير القرآني قد أوردها في الخطاب المدني فقط، وبنسبة مضبوطة؛ وبصيغ دقيقة، تدل على المقصود من كل صيغة؛ من غير إبهام، ولا مجاز، ولا تعدد في المعاني. وما دامت الحرب قائمة بين الناس، ومحتملة في كل عصر ومصر، فإنه لا مفر من تبعاتها، سيما مسألة الرق، والأسرى، والغنائم.

1 – 3 – **فضاء الولاء والبراء:** يتصل هذا الموضوع مباشرة بالموضوع السابق؛ أي القتال والجهاد.

ومما جاء في تعريفهما، ما ورد في مخطوطة الجمل:« برئ من الشئ - كعلم - يبرأ بروءا وبراءة: قطع ما بينه وبينه. ويقال: هو برئ وهما بريئان وهم بريئون وبرآء وهو أو هي براء وهما براء وهم أوهن براء.براءة:(بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ) "1/التوبة" أي قطع للعصمة ورفع للأمان وخروج من العهود بسبب ما وقع من الكفار من نقض للعهد »[1]. والآية الأولى من سورة التوبة هي التي يعتمدها الذين يرتكزون على عقيدة الولاء والبراء. وقال آخر:« والولاء شرعًا: حُبُّ الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباعِه المسلمين، ونُصْرةُ الله تعالى ورسولِه ودينِ الإسلام وأتباعِه المسلمين... والبراء شرعًا: بُغْضُ الطواغيت التي تُعبَدُ من دون الله تعالى(من الأصنام الماديّة والمعنويّة: كالأهواء والآراء)، وبُغْضُ الكفر (بجميع مله) وأتباعِه الكافرين، ومعاداة ذلك كُلِّه »[2].

فإذا عدنا إلى الخطاب القرآني ذاته، للكشف عن تمظهرات هذين المصطلحين، فإننا نجد ما يلي:

أ – الولاء: وردت مادة هذا المصطلح بصيغتين أساسيتين هما: وليّ، أولياء، أما ما ورد بصيغة الفعل فقليل في هذا الباب. فأما لفظ "وليّ" الذي ورد إحدى وعشرين 21 مرة، فأكثر ما يرد مقترناً بالله تعالى مثل:﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾(البقرة:257)، ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(آل عمران:68)، ﴿**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾(العنكبوت: 22). ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ**﴾(الإسراء:111).

أما "أولياء" بصيغة الجمع فورد 34 مرة، ويتعلق بأمور ثلاثة؛ أولّها سياق توحيد الله سبحانه وتعالى، وثانيها سياق الميل إلى طائفة من الناس، بما فيهم أهل الكتاب، وثالثها استمالة الشيطان لبعض الناس. فمن الأول قوله تعالى:﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾(يونس:62)، ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ**﴾(الجمعة:6)[3]. ومن الثاني قوله سبحانه:﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ**﴾(آل عمران:28)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ**﴾(المائدة:51)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ**﴾(التوبة:23)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ (الممتحنة:1). ومن الثالثة قوله عز وجلّ:﴿**فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ**﴾(النساء:76)، ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾(الأعراف:27)، ﴿**إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾(الأعراف:30).

وأما بصيغة الفعل فمنه الآيات التالية، قال تعالى:﴿**تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾(المائدة:80)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾(المائدة:51)،

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص168.

[2] - أبو عاصم الشحات شعبان محمود عبد القادر البركاتي، الولاء والبراء في الإسلام، دار الدعوة الإسلامية ط1، 2012 م، ص4.

[3] - يجب أن ننوّه هنا بأن الآيات التي تتحدث عن أولياء الله كثيرة، لكنها ترد بأسلوب النفي، بدلاً من أسلوب الإثبات.

﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(التوبة:23)، ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الممتحنة:9).

أما "البراء"، فورد بصيغة اسم الفاعل، في تسع 9 آيات، جلّها في سياق التبرؤ من الشرك وأهله، وقد ورد على لسان الأنبياء على الخصوص؛ كقوله تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾(الأنعام:19). وبصيغة الفعل، كما في قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم:﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(التوبة:114)، وقوله أيضا:﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾(البقرة:166). وورد بصيغة المصدر مرة واحدة فقط في قوله تعالى:﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(التوبة:1). كما ورد بصيغة الجمع؛ جمع تكسير وجمع سالم في قوله سبحانه:﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(الممتحنة:4)، ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(يونس:41).

والملاحظ في بعض آيات الولاء والبراء، أنها مشروطة، وأنها وردت في سياق لا يتكرر في كل العصور، إلاّ إذا تأوّلنا ذلك، وتعسّفناه تعسفاً. فقوله تعالى:﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(النساء:89)، يظهر فيه اشتراط الهجرة؛ التي تعني الجهاد[1]، لهؤلاء المنافقين لجواز اتخاذهم أولياء. ولورود هذين المصطلحين في الخطاب المدني دلالته؛ إذ لم يكن في العهد المكي ما يبرر توظيفهما، فالمؤمنون يومئذ كانوا على قلب رجل واحد، في التمسك بالدين، لا يفتنهم فيه شيء، أما في العهد المدني فكانت أمور جديدة، من منافقين، وأعراب، وحديثي عهد بالإسلام، فكان لا بد من تذكيرهم، وتحذيرهم من مخاطر اتباع العدو، ومساعدته لسبب أو لآخر.

1 - 4 - **فضاء الحدود:** تعتبر ألفاظه من أدق المفردات دلالة على المقصود، فهي كالمصطلحات العلمية، تعني شيئاً واحداً لا غير، وهذا ما يعرف في علوم القرآن بالقطعيات؛ أو الدلالة القطعية. وفي هذه الحال يسمي التعبير القرآني الأشياء بمسمّياتها كي لا تلتبس الأمور على الناس، وعلى المستنبط الأحكام من آيات القرآن. والحد مصطلح يختلف عن مصطلح القصاص، « القصاص حق الولي فله أن يعفو أو أن يأخذ الدية، كأن يقول: عفوت عن القصاص إلى الدّية. ويجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص. فالقصاص حق الولي، والحد حق الله. وللولي أن يتنازل في القصاص، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها، لأنها ليست حقاً لأحد ولكنها حق الله »[2]. ومن مصطلحات الحدود ما يلي:

---

[1] - يراجع، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص151.

[2] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج4، ص2543.

- **تحرير رقبة:** ورد هذا التعبير في موضعين فقط هما قوله تعالى:﴿**وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**﴾(النساء:92)، ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾(المجادلة:3). ومعنى "تحرير رقبة" عتق شخص من الرق، ليصبح حراً. جاء في مخطوطة الجمل« ويعبّر بالرقبة عن النسَمة وجملة الشخص. وجعلت في التعارف اسما للرقيق مما أحرزه صاحبه بملك اليمين »[1].

- **دية:** لم ترد هذه اللفظة إلاّ في قوله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ**﴾(النساء:92). قال ابن عاشور:« وَالدِّيَةُ مَالٌ يُدْفَعُ لِأَهْلِ الْقَتِيلِ خَطَأً، جَبْرًا لِمُصِيبَةِ أَهْلِهِ فِيهِ مِنْ حَيَوَانٍ أَوْ نَقْدَيْنِ أَوْ نَحْوِهِمَا... وَالدِّيَةُ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ بِمَعْنَاهَا وَمَقَادِيرِهَا فَلِذَلِكَ لَمْ يُفَصِّلْهَا الْقُرْآنُ »[2].

- **الجَلْد:** ورد بصيغة الفعل في موضع واحد هو:﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ**﴾(النور:2). وقد ورد في موضوع "الزنى"، وليس فيما يشبهه من ألفاظ؛ مثل: السفاح، والمخادنة، والبغاء. لأنّ الجلد حدّ يقع على مجرد ارتكاب فعل الزنى، ولو مرة واحدة. أما بقية المصطلحات فتدل على ارتكاب هذا الفعل مرات عديدة، وإنْ بنوع من الاختلاف في الظاهرة.

- **قطع اليد:** ورد مرة واحدة بصيغة الفعل في قوله تعالى:﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾(المائدة:38). ويدل على حد السرقة، من حيث كونه فعل أمر، ومتعلقاً بلفظ "يد"، أما إذا كان هذا الفعل بصيغة أخرى، دل على معنى مخالف كما في قوله تعالى:﴿**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾(البقرة:27). ﴿**وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ**﴾(التوبة:121)، ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾(الرعد:25)، ﴿**مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ**﴾(الحشر:5). ففي هذه الآيات، يعني فعل "قطع" عدم التواصل مع الأقارب، وهو ما يسمى بقطع صلة الرحم، أما آية الحشر فتعني قطع الأشجار لسبب أو لآخر.

وهنا ملاحظة أخرى تتعلق بمسألة القراءات، وهي ذات أهمية بالغة في تحديد فضاءات بعض المفردات - مثل لفظة "نشز" التي تندرج في هذا المجال - بحيث إذا اعتبرنا رواية ورش، فإننا لا نجد سوى ثلاث آيات فيها لفظ "نشز" ومشتقاته، أما إذا اعتبرنا رواية حفص، فإنّ الآيات تصبح أربعاً؛ أي بزيادة لفظة "ننشزها" الواردة في سورة البقرة برواية حفص، والتي تُقرأ "**نَنْشُرُهَا**" برواية ورش. والآية مذكورة سابقاً وهي﴿**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا**﴾(البقرة:259).

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص210.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص159.

ومن هنا ينبع التحفظ في إصدار الأحكام عن المفردة القرآنية كما أشار إلى ذلك فاضل السامرائي. لأنّ في هذه الحالة لا مسوّغ لذكر الفرق في تنوع الصيغ الصرفية لمادة "نشز"، إذا كانت الرواية القرآنية المعتمدة هي رواية ورش.

إنّ مصطلح "نشوز" - وهو مصطلح فقهي- يدل على مفهوم خاص بالعلاقة الزوجية، مع ملاحظة يحسن ذكرها؛ وهي أن تغيّر صيغة اللفظة صرفياً، يؤدي - في الاستخدام القرآني - إلى تغيّر دلالتها الشرعية أو الاجتماعية؛ مثل لفظة "نشز". فإذا كانت بصيغة الفعل دلّت على الانصراف من المجلس، قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا**﴾(المجادلة:11)، أو طريقة التكوين؛ مثل قوله تعالى:﴿**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**﴾(البقرة:259). وإذا كانت بصيغة المصدر دلّت على وضع عائلي شرعي، هو نفور أحد الزوجين من الآخر. قال تعالى:﴿**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ**﴾(النساء:34)، وقال:﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا**﴾ (النساء:128). فلم يقل في هذه الحال: واللاتي تخافون أن ينشزن، أو: وإن امرأة خافت من بعلها أن ينشز.

أما بقية المصطلحات الخاصة بالتشريع العام، فهي كثيرة، ومعلومة عند الدارسين، قال تعالى في النكاح:﴿**وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**﴾(البقرة:235). وقال في الرضاع:﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**﴾(البقرة:233). وقال في النفقة:﴿**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ**﴾(البقرة: 270). وقال في النذر:﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾(الإنسان:7)، ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ**﴾(الحج:29). وقال في الطلاق:﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾(البقرة: 229). وقال في الظِّهار: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾(المجادلة:3). وقال في الربا: ﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾(البقرة:275)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً**﴾(آل عمران:130). وقال في الاعتكاف:﴿**وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**﴾(البقرة:187).

وهذه المصطلحات غير مكررة كثيراً في الخطاب المدني، ومنها أيضاً مثلاً: الجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، والعاملين عليها، وإن ورد بعضها - قليلا - في الخطاب المكي، وذلك لكونه فاشياً في كل الأقوام السابقين؛ ويتصل بالحياة اليومية التي لا يخلو قوم من الأقوام من هذه الأصناف من الناس. مثل ألفاظ: المسكين، واليتيم، والصدقة، والغني، والفقير،... إلخ.

يقول إبراهيم السامرائي في هذا الشأن:« هناك كلمات أخرى.. من الصعب اعتبارها مصطلحات إسلامية لأنها تحمل دلالات إسلامية عامة لا يمكن حصرها في إطار معيّن، مثل الخير، والشر، والدعاء، والسلطان، والغلول، والرجس، والخبائث، والزنا، فهذه كلمات عامة الدلالة يستوي في فهمها كل الناس، مسلمين وغير مسلمين. وهناك

نمط ثالث من الكلمات.. الخاصة بالأحوال المدنية في حياة الناس كالزواج والطلاق والميراث والوصية، فهي على الرغم من أنها تحمل دلالات إسلامية معروفة، إلاّ أنها لا تكون مصطلحات إسلامية، لأنها عامة في كل الشعوب »[1].

ومع ذلك، فإن التعبير القرآني قد أوردها بنوع من التميّز، والدقة لا نجدهما في كلام الناس العادي.

وبعض هذه الألفاظ إذا ورد في الخطاب المكي، لا يعني الفضاء نفسه الذي يعنيه حين ترد اللفظة نفسها في الخطاب المدني. فلفظ "يتيم" على سبيل المثال إذا كان مفرداً يأتي في الآيات المكية، ويرد في الفضاء الاجتماعي[2]، وإذا كان جمعاً يرد في الخطاب المدني؛ ويختص بفضاء التشريع، مثل قوله عز وجلّ:﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى**﴾(البقرة:215)، ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ**﴾(النساء:2)، ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾(الأنفال:41)، ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾(الحشر:7)[3]. علماً بأن لفظ "اليتامى" لا يرد إلا معرفة، على عكس المفرد منه "يتيم"، فإنه يأتي معرفة ونكرة.

غير أن مصطلح "نكاح" الذي يرد بصيغتين فقط؛ صيغة الفعل، وصيغة المصدر، والمقصود به الزواج، فيه بعض الملاحظات؛ نفصلها فيما يلي:

أ - **صيغة الفعل**: وهي الأكثر وروداً، وجاءت مرة واحدة في سورة مكية هي قوله جلّ وعلا:﴿**قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ**﴾(القصص:27). أما بقية السور فمدنية، ووردت فيها صيغة الفعل بأنواع ثلاثة هي: ثلاثي مجرد (نكح)، رباعي بهمزة التعدية (أنكح)، وسداسي (استنكح). ومن هذه الآيات قوله تعالى:﴿**فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾(البقرة:230)، ﴿**وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ**﴾(البقرة:221)، ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾(النساء:3)، ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا**﴾(الأحزاب:53)، ﴿**وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا**﴾(البقرة:221)، ﴿**وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**﴾(النور:32)، ﴿**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ**﴾(الأحزاب:50).

---

[1] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص13.

[2] - والآيات هي:(الأنعام:152)، (الإسراء:43)، (الفجر:17)، (الضحى:9)، (الماعون:2)، (الإنسان:8)، (البلد:15)، (الضحى:6).

[3] - وبقية الآيات هي: البقرة:83، 177، 220. والنساء:3، 6، 8، 10، 36، 127.

ونجد لمعنى النكاح التعريفات التالية:« لَا يُعْرَفُ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ النِّكَاحِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إلا عَلَى مَعْنَى التَّزْوِيجِ »[1]. و« النكاح: هو في اللغة الضم والجمع، وفي الشرع: عقد يرد على تمليك منفعة البضع قصدًا »[2]. و«أصل النكاح للعقد، ثم استعير للجماع، ومحال أن يكون في الأصل للجماع، ثم استعير للعقد؛ لأن أسماء الجماع كلها كنايات لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه، ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه »[3]. و« (نَكَحَ) النُّونُ وَالْكَافُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْبِضَاعُ. وَنَكَحَ يَنْكِحُ.. وَالنِّكَاحُ يَكُونُ الْعَقْدَ دُونَ الوَطْءِ. يُقَالُ نَكَحْتُ: تَزَوَّجْتُ. وَأَنْكَحْتُ غَيْرِي »[4]. و« ونكحه الداء نكحاً: غلبه. والمرأة نكاحاً، تزوجها. وأيضاً: وطئها. وأنكحت الإنسانَ: زوّجته »[5].

ب - **صيغة المصدر**: وهي الأقل توظيفاً مقارنة بصيغة الفعل، ولم ترد إلا في الخطاب المدني، والآيات هي قوله سبحانه:﴿**وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**﴾(البقرة:235)، ﴿**أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾ (البقرة:237)، ﴿**وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾(النساء:6)، ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾(النور:33)، ﴿**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ**﴾(النور:60). قال ابن عاشور:« وَبُلُوغُ النِّكَاحِ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ بُلُوغُ وَقْتِ النِّكَاحِ أَيِ التَّزَوُّجِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْخُرُوجِ مِنْ حَالَةِ الصِّبَا لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَلِلْبُلُوغِ عَلَامَاتٌ مَعْرُوفَةٌ، عُبِّرَ عَنْهَا فِي الْآيَةِ بِبُلُوغِ النِّكَاحِ »[6]. ولكن لماذا وظّف التعبير القرآني - في هذه الآية - مصطلح "نكاح" بدلاً من مصطلح "حُلُم"[7] الذي يطرد استخدامه في الدلالة على سن البلوغ عند الإنسان؟

لم يوظّف التعبير القرآني مصطلح "زواج" أو "تزويج"، والأول يعتبر الأكثر شهرة في عقود الأحوال الشخصية في كل البلدان العربية تقريباً؛ ولم يوظف مصطلح "القِران" المستخدم ولو بنسبة أقل، علماً بأنّ الشراح والمفسرين يشرحون "النكاح" بـ"الزواج"، وكأنه مرادفه تماماً. من ذلك« زوّجه امرأة: أنكحه إياها وجعلها له زوجا.. زوجناكها:(فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا) "الأحزاب/37" أي أنكحناك إياها وجعلناها لك زوجة. زوّجناهم:(كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) "الدخان/54" أي أنكحناهم حوراً »[8]. وذلك لأنّ في المحصّلة لا فرق بين

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص625.

[2] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص246.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص452.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص475.

[5] - ابن القوطية، كتاب الأفعال، تح، علي فودة، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1993، ص110.

[6] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص238.

[7] - ورد مرتين في آيتين من سورة النور المدنية هما قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ**﴾(58)، ﴿**وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا**﴾(59).

[8] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص260.

المصطلحات الثلاثة، فنكاح المرأة، وزواجها، وقرانها شيء واحد، إلا أن القرآن اختار لفظ "نكاح" بما فيه من علاقة زوجية اجتماعية نفسية؛ أي اجتماع ذكر وأنثى، وبما فيه من علاقة بيولوجية بينهما تؤدي إلى مجيء الولد.

وهناك ملحوظة أخرى هي أنّ التعبير القرآني وظّف صيغة "نكاح"، وليس صيغة "نُكْح"؛ علماً بأنّ فعل مصدر "نكاح" رباعي؛ وهو "ناكَحَ"، أما "أنْكَح" فمصدره "إنكاح". وأما مصدر "نُكح" ففعله ثلاثي؛ "نَكَح"، والفعل الثلاثي هو الأكثر توظيفاً في الخطاب القرآني، وفي ذلك دليل مرة أخرى على أن القرآن يفضّل صيغة على أخرى، بناء على الأقوى دلالة، والأفضل بياناً.

ولم تذكر تفاسير القرآن على اختلاف مشاربها الفرق بين لفظ "زواج" ولفظ "نكاح"، ولم تذكر كذلك سبب جنوح التعبير القرآني إلى تسمية هذه العلاقة بين الزوجين بالنكاح، وليس بالزواج. وحتى في توظيف صيغة الفعل، يستخدم القرآن الكريم الأفعال "نكح"، و"أنكح"، و"استنكح"، بدلاً من "زوّج" أو "تزوّج". إلاّ في موضع واحد من الخطاب المدني هو قوله تعالى:﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾(الأحزاب:37). وفي ثلاثة مواضع من الخطاب المكي هي قوله سبحانه:﴿**يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا**﴾(الشورى: 49 - 50)، ﴿**كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ**﴾(الدخان:54)، ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ**﴾ (الطور:20).

وكل ما عثرنا عليه في هذا الموضوع هو تخريج أحد الباحثين لسبب ورود صيغة "استنكح" مرة واحدة في كل القرآن، مع ورود صيغة الثلاثي مرات عديدة[1]. غير أن الباحث في كل ما ذهب إليه من تخريج في استخدام القرآن صيغة "استنكح" هذه، لم يعرّج على سبب توظيف مادة "نكح"، بدلاً من مادة "زوج"؛ إنما ركز على صيغة الفعل السداسي فقال:« الزيادة في صيغة (يستنحكها) جاء لتدل على معنى القبول. وما كان يصح استعمال الفعل بغير هذه الزيادة، في هذا الموضع، لأنّ السياق يستدعيها »[2]. وذلك بسبب ورود لفظ "وهبت" الذي يستدعي القبول، ولفظ "إن أراد" الدال على الرغبة.

وفي ذلك يقول ابن عاشور:« امْرَأَةٌ تهب نَفسهَا للنبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ تَجْعَلُ نَفْسَهَا هِبَةً لَهُ دُونَ مَهْرٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ النِّسَاءُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ يَفْعَلْنَ مَعَ عُظَمَاءِ الْعَرَبِ، فَأَبَاحَ اللَّهُ لِلنَّبِيءِ أَنْ يَتَّخِذَهَا زَوْجَةً لَهُ بِدُونِ مَهْرٍ إِذَا شَاءَ النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِك، فَهَذَا حَقِيقَةُ لَفْظِ وَهَبَتْ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْهِبَةِ: تَزْوِيجُ نَفْسِهَا بِدُونِ عِوَضٍ، أَيْ بِدُونِ مَهْرٍ »[3]. فتكون بذلك حالة خاصة تفرّد بها النبي (ص) عن سائر المؤمنين، فتفرّد التعبير القرآني بتوظيف صيغة "استنكح"، لتتوافق مع خصوصيات النبي عليه الصلاة والسلام الكثيرة.

---

[1] - يراجع، عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص124 وما بعدها.

[2] - المرجع نفسه، ص126.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج22، ص67.

وتبدو تمظهرات توظيف مصطلحيْ "النكاح" و"الزواج" في التعبير القرآني كما يلي:

- مصطلح "النكاح": يستخدم لعامة الناس، بمن فيهم الكفار والمنافقين. ويرد بصيغتين؛ فعلية، واسمية، من دون توظيف المشتقات؛ كاسم الفاعل، أو اسم المفعول؛ فليس في الخطاب القرآني "ناكح"، ولا "منكوح".

- مصطلح "الزواج": يستخدم في الحالات العامة، وفي الحياة الدنيا، من الناحية النظرية، وفي حالة الاقتران بالحور العين في الآخرة، ولا يرد إلاّ بصيغة الفعل.

- صيغة "يزوّج" تسند إلى أفعال الله تعالى؛ فهو الذي يُيسّر الزواج للعباد، أما الناس، فلم يسند إليهم فعل التزوّج، إذ لا يورد التعبير القرآني فعل تزوجها، أو تتزوّج، أو أزوّجُك، ولا حتى اسم فاعل متزوّج، ومتزوّجة.

- لفظ "زوج"، و"أزواج" قد يأتي بغير معنى النكاح؛ أي يأتي بمعنى أصناف، كما في أزواج النبات، وأزواج الناس يوم القيامة؛ أي أصناف هذه المخلوقات.

3 - فضاء الأخلاق: نعثر فيه على مصطلحات متنوعة، تتكرر بنسبة كبيرة، ومع ذلك لم ترد إلا في الخطاب المدني، للدلالة على أنها من التشريعات الخاصة بالمسلمين، والتي تنفعهم كثيراً في معاملاتهم الاجتماعية اليومية. ومن هذه المصطلحات ما يلي:

المعروف والمنكر: يكاد هذان المصطلحان يختصان بالخطاب المدني، إلا آيتين وردتا في الخطاب المكي[1]. ومن حيث دلالتهما اللغوية والاجتماعية، فهما معروفان عند العرب. غير أنّ الذي شاع في تعريفهما هو التعريف الشرعي، من ذلك، التعريفات التالية:

جاء في تعريفات الجرجاني:« المعروف: هو كل ما يحسن في الشرع »[2]. قال الأصفهاني:« والمعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر: ما ينكر بهما »[3]. وهو كذلك« خلق إسلامي عام ومقياس إيماني دقيق، يحدد به المسلم الخير من الشر في لسلوك والتصرفات »[4]. ومنه أيضاً:« المعروف والعرف؛ أى المستحسن ضد المنكر. والمعروف: المستحسن، وهو صفة غالبة؛ أي أمر معروف بين الناس »[5]. ولذلك ورد هذان المصطلحان في

---

[1] - الآيتان هما: لقمان:17، والأعراف:157. مع ملاحظة مفادها أننا لم نذكر الآيات التي ورد فيها لفظ المنكر، أو لفظ المعروف منفردين، أو نكرتين، إنما اقتصرنا على المعرفة منهما، لكونهما يحملان فضاء محدداً حين يردان معاً بهذا الشكل.

[2] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص221.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص87.

[4] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص26.

[5] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص118 - 119.

القرآن الكريم من غير وصف، أو إضافة، للدلالة على أنهما من الأمور المتفق على معانيها بين الناس، فلا خلاف بينهم في معرفة ما الشيء الذي يكون معروفاً مألوفاً ومقبولاً، وما الشيء الذي يكون منكراً مرفوضاً.

أ - **المعروف**: ورد في الخطاب المدني ما عدا موضعا واحدا في سورة لقمان. وتكرر اثنتين وثلاثين 32 مرة. ذكر ابن فارس أصليْن لفعل "عرف"، والثاني منهما هو الذي يهمّنا، وهو« المَعْرِفَةُ وَالعِرْفَانُ. تَقُولُ: عَرَفَ فُلَانٌ فُلَانًا عِرْفَانًا وَمَعْرِفَةً. وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ مِنْ سُكُونِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا تَوَحَّشَ مِنْهُ وَنَبَا عَنْهُ... وَالْعُرْفُ: الْمَعْرُوفُ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ النُّفُوسَ تَسْكُنُ إِلَيْهِ »[1]. ومنه قوله تعالى:﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(الأعراف:199). فالعرف هنا بمعنى المعروف« العُرفُ:{وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}(199/الأعراف)، أي: بالمعروفِ حُسْنُهُ فى الشرع »[2]. فهو ما تعارف عليه الناس من أمور الحياة، ولا أنكروه على أحد إذا فعله، وهو كل ما عُلِم حسنه وصوابه عن طريق الشرع، أو العرف، أو العادة، أو غيرها.

ب - **المنكر**: ورد في الخطاب المدني أيضاً، عدا موضع سورة (لقمان:17)، و(الأعراف:147). وتكرر خمس عشرة 15 مرة معرّفاً بِالْ في جميعها، ومرتين نكرة في قوله تعالى:﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ**﴾(المجادلة:2)، وقوله عز وجلّ:﴿**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ**﴾ (المائدة:79).

قال ابن فارس:« (نَكَرَ) النُّونُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي يَسْكُنُ إِلَيْهَا الْقَلْبُ. وَنَكِرَ الشَّيْءَ وَأَنْكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ وَلَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسَانُهُ »[3]. وقال ابن منظور:« والمُنْكَرُ مِنَ الأَمر: خِلَافُ الْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي الْحَدِيثِ الإِنْكارُ والمُنْكَرُ، وَهُوَ ضِدُّ الْمَعْرُوفِ، وكلُّ مَا قَبَّحَهُ الشَّرْعُ وحَرَّمَهُ وَكَرِهَهُ، فَهُوَ مُنْكَرٌ، ونَكِرَه يَنْكَرُه نَكَراً، فَهُوَ مَنْكُورٌ، واسْتَنْكَرَه فَهُوَ مُسْتَنْكَرٌ، وَالْجَمْعُ مَناكِيرُ »[4]. وكأن "المنكر"، وهو معرّف بأل دائماً، يبدو على أن مدلوله غير خاف على جميع الناس في كل زمان ومكان فأورده التعبير القرآني مفرداً ومعرفة في جل المواطن التي ذكره فيها.

يقول في ذلك شارح صحيح الترمذي في باب الفتن:« باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت له ثلاثة أحوال، حالة بلاء وكرب وذلك بمكة الأولى، ثم انتقل إلى المدينة فتمكنوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم ضعف بعد ذلك إلى الآن »[5]. وقال الأصفهاني:« والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في

---

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص281.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص118.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص476.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص233.

[5] - ابن العربي المالكي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، د.ط. مجلد9، ص19.

في استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة »[1]. ويقول آخر:« المنكر في الأصل وصف من أنكر الشئ استوحش منه واستقبحه ونفر منه. وصار يطلق اسما بإزاء المعروف فيراد به ما تستقبحه العقول السليمة ويرد الشرع باستقباحه وأكثر ما يرد مقرونا بالمعروف، وقد ينفرد عنه »[2].

والملاحظ أنّ مصطلح "المعروف" ورد ضعف مصطلح "المنكر"، ويأتي سابقاً عليه في كل السياقات التي يردان فيها معاً. وكأنّ القرآن يشير إلى أنّ الخير أكثر من الشر، وأدوم وأولى أن نبدأ به ونهتم له. ومن ثمّ نكثر منه لأنه أصعب في الإنجاز من فعل المنكر.

أما ورودهما في الخطاب المدني على الخصوص، فلأنّ الناس في المدينة كانوا خليطاً؛ فيهم المؤمن والمنافق، والكِتابي. وحتى إيمان المسلمين كان متبايناً من واحد لآخر. فكان الأجدر أن يشدد الخطاب القرآني المدني، على هذه الأمور، ويكررها على المسامع، لأنها تخفى على كثير من العامة.

ويرد مصطلح "المعروف"، مسبوقاً بالفعل "يأمرون"، أو باسم الفاعل "الآمرون"، ويسبق "المنكر" بالفعل "ينهون" أو باسم فاعل "الناهون"، إلاّ أن عبارتيْ "يأمرون بالمعروف"، و"ينهون عن المنكر"، بصيغتهما الفعلية، هما الأكثر وروداً في الخطاب القرآني. وهذا التصرف القرآني أقوى في الدلالة من كل التصرفات الأسلوبية الممكنة. إذ لم يقل القرآن: يُعرّفون المعروف، وينكرون المنكر، ولا يدعُون إلى المعروف، ويجتنبون المنكر، لأنّ هذا تعبير قاصر عن دلالة الإصلاح في المجتمع، فالتعبير الثاني يوحي بمفهوم الصلاح فقط، أما الأول فيوحي بالحركة والسلوك الإيجابي من أجل التغيير، فهو إصلاح، ولذلك تكررت في الخطاب القرآني صيغة المصدر "إصلاح"، بدلاً من صيغة "صلاح".

أما المصدر الميمي "مصلحة" فهو غير وارد في التعبير القرآني؛ فقد عدل عنه مفرداً وجمعاً، وإن كان حضور هذا المصدر في الفقه قويّاً؛ فمنه المصحلة العامة، والمصالح المرسلة. وكما هي عادة القرآن في انتقاء الألفاظ، أضرب عن هذه الصيغة، ووظّف المصدر الأشهر؛ "إصلاح"، لعدم مناسبة المصدر الميمي لتأدية المعاني المقصودة.

ج - **الصدقة**: وردت في الخطاب المدني[3] بكثرة، وهي ذات قيمة اجتماعية ودينية كبرى. وقد وردت كذلك في الحديث النبوي منوّهاً بقيمتها الكبيرة، مثل حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله؛ ومنهم« رَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص453.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص114.

[3] - وردت هذه المادة مرتين في الخطاب المكي، بصيغة الفعل، وصيغة اسم الفاعل، في قوله تعالى:﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾(يوسف:88)، للدلالة على أنها أمر متأصل في تاريخ الإنسان، والتجمعات البشرية، وأنها ذات قيمة اجتماعية واقتصادية كبرى.

حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ »[1]، ومثله:« تصَدَّقُوا، فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ، فَلاَ يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا، يَقُولُ الرَّجُلُ: لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا، فَأَمَّا اليَوْمَ، فَلاَ حَاجَةَ لِي بِهَا »[2]. ومثله أيضاً:« اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ »[3]. وقد ورد هذا المصطلح بصيغة المفرد خمس مرات، وبصيغة الجمع عشر مرات، وبصيغة الفعل مرتين[4] غير أننا نلحظ أن مصدر "التصدّق" - وهو المصدر الصريح لفعل تصدّق - لم يرد في التعبير القرآني مطلقاً؛ وكأنه اجتنب هذا المصدر كما اجتنب توظيف الفعل منه، لكون "التصدق" مجرد حدث، أما "الصدقة" فهي المادة، وهي العين التي يخرجها المسلم لأصناف المحتاجين ابتغاء مرضاة الله، وهي الأهم، لأنها ملموسة تتصل بالواقع المعيش، لا بالنظري المفترض.

والصدقة« مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ المَرْءُ عَنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ.. عَنِ الخَلِيلِ قَالَ: الْمُطْعِمُ مُتَصَدِّقٌ وَالسَّائِلُ مُتَصَدِّقٌ. وَهُمَا سَوَاءٌ. فَأَمَّا الَّذِي فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ الْمُعْطِي »[5]. وهي:« مَا تصَدَّقْت بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ. والصَّدَقة: مَا أَعطيته فِي ذَاتِ اللَّهِ لِلْفُقَرَاءِ. والمتَصَدِّق: الَّذِي يُعْطِي الصَّدَقَةَ. والصَّدَقة: مَا تصَدَّقْت بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَقَدْ تَصَدَّق عَلَيْهِ »[6]. وهي أيضاً « ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبه الصدق في فعله »[7]. وهي كذلك:« العطية تبتغي بها المثوبة من الله تعالى »[8]. وبتعبير آخر:« الصدقة: ما يخرج من المال على وجه القربة، لأنها تظهر صدق العبودية، وقد يسمى الإعفاء مما يجب من حق صدقة، كما يسمى ما يسامح به المعسر صدقة، على ما يرد فى الآيات. وتصدق: أعطى الصدقة »[9]. وكأنّ النية الصادقة في إخراج المسلم بعض ماله للمحتاجين، ابتغاءً لمرضاة الله، هي التي جعلت هذا النوع من العطية يسمى "صدقة".

إنّ مصطلح الصدقة إسلامي محض، ويرد بصيغتين اثنتين هما: المفرد والجمع. والصدقة هي:« ما يعطيه الإنسان في سبيل الله للفقراء »[10]. قال تعالى:﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾(البقرة:196)، ﴿**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى**﴾(البقرة:263)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾(البقرة:264)، ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ**﴾(النساء :114)، ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾(التوبة:103)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا**

---

[1] - البخاري، الجامع المسند الصحيح، ج1، ص133.

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص108. ليس في الحديث لفظ "صدقة" أو مشتقاته، إنما يُفهم ذلك من ظروف ورود هذا الحديث.

[3] - نفسه، ج1، ص279.

[4] - وذلك في سورة يوسف:88، وفي البقرة:280.

[5] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص340.

[6] - ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص196

[7] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص575.

[8] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص123.

[9] - عز الدين حسن الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص432.

[10] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص24.

بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾(المجادلة:12). وجاء بصيغة الجمع ما يلي، قال تعالى:﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(البقرة:271)، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾(التوبة:58)، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(التوبة:60)، ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾(المجادلة: 13). ولم يسمّ القرآن الكريم هذه الصدقة باسم آخر؛ كالهبة، أو العطيّة، أو المنحة، وإن كانت هذه المفردات كثيرة التداول في كلام الناس، وفي مؤلفات الكُتّاب. فالقرآن الكريم يريد أن تكون مصطلحاته خاصة به، ذات دلالة دينية عقائدية، لا مجرد اصطلاحات علمية مادية محضة.

إن تنوع ورود لفظ "صدقة" أو "الصدقات"، نكرة أو معرفة، لا يغيّر من دلالته المقصودة؛ أي ليس لصيغة منه فضاء خاص مختلف عن الصيغة الأخرى، إنما الدلالة العامة لهذا المصطلح ثابتة، وهي بذل بعض المال للمحتاجين، بنيّة كسب حسنات، وتطبيق أوامر الشرع، وتعليماته. وسواء أكانت هذه الصدقات من مال الأنفال والفيء، أم من أموال الغنائم، أم من غيرها. مثلما هي الحال في تقسيم النبي(ص) أموال الغنائم التي سمّاها التعبير القرآني بالصدقات، كما في سورة التوبة، الآية 58[1].

ولأمر ما، وردت لفظة "الصدقات" سبع مرات في سور مدنية فقط، وكُرّرت في سورتين على الخصوص هما: سورة التوبة حيث كررت أربع مرات، وسورة البقرة حيث وردت مرتين، فإذا عرفنا أن البقرة والتوبة[2] من السور الأولى الأولى نزولاً بالمدينة، أمكننا أن نفهم سبب إيراد مصطلح الصدقة اسماً في الغالب، إذ لم يرد بصيغة الفعل إلا في موضعين هما قوله جل وعلا:﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾(البقرة:280)، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾(النساء:92). ولا بصيغة اسم الفاعل، إلا في موضعين كذلك هما قوله سبحانه:﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾(الأحزاب:35)، ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(الحديد:18).

إنّ لكثرة ورود "الصدقات" بصيغة الاسم، دلالتها المميزة في التعبير القرآني؛ إذ ليس المقصود من هذه المسألة وجود الأشخاص المتصدقين من عدمه، لأنّ هذا الوضع لا يختلف فيه الناس، ولا يطعنون فيه، إنما موطن القول هو الصدقة ذاتها، من حيث توزيعها، بحيث قد يعترض بعض الناس على توزيعها، إذا أعطيت لغير مستحقيها. قال ابن عاشور في آية التوبة التي تذكر اللمز في الصدقات:« وَأُدْخِلَتْ فِي عَلَى الصَّدَقاتِ، وَإِنَّمَا اللَّمْزُ فِي تَوْزِيعِهَا لَا فِي ذَوَاتِهَا: لِأَنَّ الِاسْتِعْمَالَ يَدُلُّ عَلَى المُرَادِ »[3]. فكثرة ورود "الصدقات" اسماً، تدل على أنّ التعبير القرآني يوظفها في فضاءات

---

[1] - يراجع، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص232.

[2] - تعتبر سورة التوبة الخامسة نزولاً بالمدينة، ولكن مع ذلك فيها بعض الآيات هي من آخر ما نزل من القرآن؛ مثل:﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(التوبة:118) فقد نزلت بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص232.

التعريف بها، وفي فضاء تفصيلها من حيث ذكر مستحقيها، والرد على بعض الحوادث المتعلقة بها[1]؛ إشارة إلى وقائع تاريخية، تبقى شاهدة على هؤلاء القوم في تعاملهم مع النبي (ص) في مجتمع المدينة المنورة.

وأما عن سر توظيف التعبير القرآني لمصطلح "صدقة"، ومشتقاتها، بدلاً من المصطلحات الأخرى المشابهة؛ كالعطية، والهبة، والمنحة، والهدية، فكأن القرآن الكريم اعتبر دلالة أصل مادة "صدق"، والتي تعني« في اللغة: مطابقة الحكم للواقع.. وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان »[2]. فصدق النية في إخراج الصدقات، هو مطابقة لواقع المؤمن الحقيقي؛ بحيث تكون الصدقة تصديقاً لما في قلبه من حسن النية في مساعدة المحتاجين، الذين هم إخوانه في الدين، وامتثالاً لأوامر الله تعالى وتوجيهاته في إخراج المسلم بعض مالِه، في سبيل الله حقاً وصدقاً.

وفي المبحث التالي، سنعرض لعينات أخرى من الألفاظ الثنائية المتشابهة (المترادفة) التي ذكرنا جزءاً منها في الفصل الثاني؛ أي الألفاظ الخاصة بالخطاب المكي. وسنذكر الآن العينات الخاصة بالخطاب المدني، ليتضح الفرق بين هذه المترادفات في الاستخدام القرآني.

---

[1] - من ذلك سبب نزول الآية 79 من سورة التوبة﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ**﴾. قال ابن عاشور:« نَزَلَتْ بِسَبَبِ حَادِثٍ حَدَثَ فِي مُدَّةِ نُزُولِ السُّورَةِ، ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَجَاءَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ بِأَوْسُقٍ كَثِيرَةٍ مِنْ تَمْرٍ، وَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: مَا أَعْطَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعَاصِمٌ إِلَّا رِيَاءً وَأَحَبَّ أَبُو عَقِيلٍ أَنْ يُذَكِّرَ بِنَفْسِهِ لِيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ »(التحرير والتنوير، ج10، ص274).

[2] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص132.

المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية المتشابهة (المترادفة)

عالجنا جزءاً من هذه المسألة في الفصل الثاني، وأرجأنا الجزء الآخر إلى هذا الفصل، لأنّ الخطاب القرآني ذاته فعل ذلك؛ إذ ذكر إحدى هذه المفردات في الخطاب المكي باطّراد، وذكر المفردة الأخرى في الخطاب المدني باطّراد أيضاً، إلا ما كان من بعض الاستثناءات القليلة، والنادرة أحياناً. وسنعود إلى الترتيب نفسه الذي عالجنا به هذه المفردات في الفصل الخاص بالخطاب المكي، كما يلي:

1 - فضاء الرسالة والنبوة:

يتكرر مصطلح "الرسول" في الخطاب المكي، لا سيما في أسلوب النداء، إذ تطّرد عبارة {يا أيها الرسول}. أما في الخطاب المدني، فأصبح النداء {يا أيها النبي}، علماً بأن الله تعالى لم يناد أحداً من رسله، أو أنبيائه بمثل هذا، إنما كان يناديهم بأسمائهم الخاصة، لا بألقابهم؛ ومعنى ذلك أنّ هناك فرقاً ما بين الاستخدامين. وسنعرض لبعض التفسيرات لمدلول "النبي" كما فعلنا بمدلول "الرسول".

يقول باحث معاصر:« النبوة هي مجموعة من المعلومات أوحيت إلى النبي (ص) وبها سُمي نبيا، أي أن كل الأخبار والمعلومات التي جاءت في الكتاب هي النبوة. والرسالة هي مجموعة التشريعات التي جاءت إلى النبي بالإضافة إلى المعلومات فأصبح بها رسولا، فالنبوة علوم والرسالة أحكام. أي أن نظرية الوجود الكوني والإنساني وتفسير التاريخ هي من النبوة، وهي من الآيات المتشابهات، أما التشريع من إرث وعبادات، ومعها الفرقان العام "الأخلاق" والمعاملات والأحوال الشخصية والمحرمات فهي الرسالة أي الآيات المحكمات »[1]. ومع أنّ مصطلح "المتشابهات" ليس جزءاً من النبوة كما رأى المؤلف، لأنه متعلق بآيات القرآن بنص الآية نفسها في سورة آل عمران، ولكنه تأويل منه للتفريق بين الرسالة والنبوة. ويقول في مكان آخر من الكتاب« فالرسالة هي مجموعة التعليمات التي يجب على الإنسان التقيد بها "عبادات، معاملات، أخلاق"الحلال والحرام" وهي مناط التكليف. والنبوة من "نبأ" هي مجموعة المواضيع التي تحتوي على المعلومات الكونية والتاريخية (الحق والباطل)[2]. وهذا تأويل فيه نظر، لأنّ الحق والباطل واردان في الرسالة كما هما واردان في النبوة، فكل شيء في الدين هو تفرقة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الحلال والحرام، وبين الجائز والمحظور. إلاّ إذا كان الباحث يقصد بلفظ "الحق والباطل" شيئاً آخر غير المفهوم الذي نعرفه عنهما من معاجم اللغة.

---

[1] - محمد شحرور، الكتاب والقرآن، دراسة معاصرة، ص37.

[2] - المرجع نفسه، ص54.

وقد تعلقت مفردة "الرسول" بأمور خاصة لم تتعلق بها مفردة "النبي"، منها لفظة "العصيان"؛ **ما** عدا في سورة الممتحنة، حيث ورد لفظ (**يعصينك**) مقترناً بلفظ النبي، وذلك في قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(الممتحنة:12).

ونجد في هذه الآية، بعض الاختلاف عن الآيات الأخرى التي ورد فيها هذا اللفظ، وذلك أن الآية قد اختصت بخطاب النساء على وجه التحديد، وفي موضوع البيعة. والآيات الأخرى عامة في الذين آمنوا. ثم إن هذه الآية خطاب مدني، خاص بالنساء وأمورهن، والدليل على ذلك أن التعبير القرآني أردف بعد ذلك عبارة {**في معروف**}؛ أي لا يعصين النبي (ص) في ما هو معروف وخير لهن، لكون النساء أكثر الناس حاجة إلى التذكير، والنصح .

ولتكرار طاعة الله والرسول(ص) في الآيات المدنية دلالته الخاصة، إذ من المفروض أن يكون ذلك في العهد المكي. وهذا ما نلاحظه مع كل الأنبياء حين يطلبون من أقوامهم طاعة الله وطاعة الرسل والأنبياء، منذ بداية الدعوة وإعلانها للناس. بينما نجد هذا الأمر يتكرر في العهد المدني، لأن العهد المكي لم يكن فيه إلا دعوة الناس إلى الإيمان بالله وحده، وهو جوهر الدين. فكيف يطلب ممن لم يؤمن بالله أن يطيعه؟ وفيم يطيعه؟ أما المؤمنون فلم يكونوا بحاجة إلى هذا التنبيه في مثل تلك المرحلة. وكل الذين آمنوا في العهد المكي لم يرتدّ منهم أحد، لأنهم آمنوا بحق في وقت عسير، يجعل المرء صادقاً لا يمكنه الردة أبداً، لأنه اختار ذلك عن قناعة وإيمان، دون رغبة أو رهبة أو طمع.

قال الألوسي:« الرَّسُولَ الذي أرسله الله تعالى لتبليغ الأحكام النَّبِيَّ أي الذي أنبأ الخلق عن الله تعالى فالأول تعتبر فيه الإضافة إلى الله تعالى والثاني تعتبر فيه الإضافة إلى الخلق، وقدم الأول عليه لشرفه وتقدم إرسال الله تعالى له على تبليغه، وإلى هذا ذهب بعضهم، وجعلوا إشارة إلى أن الرسول والنبي هنا مراد بهما معناهما اللغوي لإجرائهما على ذات واحدة »[1]. وقال معلّقا على قول الزمخشري في هذه المسألة:« ما ذكروه مدفوع بأن الفرق المذكور مع تغاير المفهومين على كل حال من عرف الشرع والاستعمال، وأما في الوضع والحقيقة اللغوية فهما عامان. وقد ورد في القرآن بالاستعمالين فلا تعارض بينهما »[2].

ويرى الشعراوي« أنّ النبي هو الذي يبعث لمتابعة رسالة سبقته، أو التهيّء لرسالة ستأتي بعده، ولكن الرسالة غير مرتبطة به، بل مرتبطة بالرسول الذي بُعِث أو سيبعث. ولهذا فإن الله عز وجل قدّر ألا تنتهي حياة الرسل إلا بعد إتمام الرسالة، على حين أنّ النبي قد يُقتَل قبل أن تتم الرسالة أو تنشر بين الناس. ويؤيد هذا أنّ كثيراً من أنبياء بني

---

[1] - الألوسي، روح المعاني، ج5، ص75.

[2] - المرجع، نفسه، والصفحة نفسها.

إسرائيل قد قُتِلوا في المراحل الأولى للدعوة التي كانوا يقومون بها »[1]. ويقول في موضع آخر:« الأنبياء غير الرسل. والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد.. أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسل لأنهم جاءوا بمنهج جديد. ولذلك كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا. والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة. . ولكنه يعصم رسله من القتل فلا يقدر عليهم أعداؤهم.. فمجيء الأنبياء ضرورة لأنهم نماذج سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج »[2]. ولهذا الرأي ما يدعمه من آيات القرآن، إذ كرر التعبير القرآني عبارة "قتْل الأنبياء" كثيراً، أما "قتْل الرسل" فلم يرد إلاّ مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾(المائد:70).

ويرى حسن حنفي أن الفرق بين الرسول والنبي هو الفرق بين التصور والنظام، بين العقيدة والشريعة، بين النظر والعمل، فالنبي لا يؤسس دولة ولا نظاماً، ولا يأتي بشريعة؛ إنما ذلك من مهمة الرسول. ثم يلاحظ الباحث أن لفظ "النبي" مشتق من فعل لازم، أما لفظ "الرسول" فمشتق من فعل معتدّ، ومن ثَمّ، فالرسول يشير إلى أربعة أطراف هي: المرسِل، والمرسَل إليه، والمرسَل إليهم، والرسالة، أما النبي فليس فيه كل هذا. فالنبي يمثّل البُعد الرأسي فقط؛ أي الصلة بينه وبين الله، في حين يمثل الرسول البعد الأفقي أيضاً؛ أي الصلة بينه وبين الناس في التبليغ[3].

وقد يكون هذا التخريج صحيحاً إذا كان الشخص المصطفى موصوفاً بأحد المصطلحين؛ أي رسول، أو نبي. لكن ماذا ستكون حال الشخص المصطفى، الموصوف بالمصطلحين معاً؛ أي بكونه نبياً ورسولاً في الوقت نفسه؛ أمثال: نوح، وإبراهيم، وموسى وعسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام؟ وبمعنى آخر: ما هي وظيفة النبي الرسول حيال العباد الذين أرسل إليهم؟ أيحدّثهم ويعلّمهم من حيث هو رسول، أم من حيث هو نبي؟ أم من كليهما؟ وما هي حدود التعليمات الرسولية، وحدود التعليمات النبوية؟

إننا نلاحظ بعض العبارات الشائعة في حياتنا الثقافية من مثل: الحديث النبوي، والطب النبوي، والهدي النبوي... ولا يقال: الحديث الرسولي، أو الرسالي، ولا الطب الرسولي، ولا الهدي الرسولي. فهذه الأمور تنسب إلى النبوة لا إلى الرسالة. ولا نرى في هذا الاستخدام اعتباطاً، ولا طفرة دلالية، ولا طلباً للتخفيف في النطق، إنما له دلالته الفكرية والدينية في حياة المسلمين، لمعرفة ما يطلب منهم على سبيل الواجب والفرض، وما يستحسن فعله على سبيل النفل والمستحب.

---

[1] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج1، ص .

[2] - المرجع نفسه،، ج1، ص368.

[3] - يراجع، حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، ج4، مكتبة مدبولي، القاهرة 1988، ص 26 - 27.

وجاء في التعريفات:« النبي: من أوحي إليه بملك، أو أُلهم في قلبه، أو نبه بالرؤيا الصالحة، فالرسول أفضل بالوحي الخاص الذي فوق وحي النبوة؛ لأن الرسول هو من أوحى إليه جبرائيل خاصة بتنزيل الكتاب من الله »[1]. فكأنّ النبي ليس له رسالة خاصة، يتلقاها مباشرة، ثم يبلغها للناس، إنما هو صاحب إرشادات إلهامية، ورؤى صادقة.

وتقول باحثة أخرى بعد استعراض لكثير من الآراء في هذه المسألة:« وعلى هذا الرأي فالنبي هو الذي يبيّن للناس صلاح معاشهم ومعادهم، من أصول الدين وفروعه على ما اقتضته عناية الله تعالى من هداية الناس إلى سعادتهم، والرسول هو الحامل لرسالة خاصة مشتملة على إتمام حجة يستتبع مخالفته هلاكاً أو عذاباً أو نحو ذلك، قال تعالى:{لئلا يكون على الناس حجة على الله بعد الرسل}(النساء:165) »[2]. ولعل هذا القول هو الأقرب إلى المقصود بدلالة مصطلحيْ "النبي"، و"الرسول" عندما يكون الأمر متعلقاً بمحمد عليه الصلاة والسلام، الذي يمثل النبوة الخاتمة والرسالة الخاتمة في الوقت نفسه.

وبعد كل هذه الآراء، نجد أن كثيراً من الباحثين لا يكادون يصرّحون، أو يؤكدون بجلاء الفرق بين الرسول والنبي من حيث الأوامر والنواهي التي يلقيها إلى الناس؛ أي ما هي الأوامر التي لا يمكن التهاون فيها، ولا يمكن عصيانها بحال؟ وما هي الأوامر أو التعليمات التي هي من باب المستحبات، أو المندوبات، أو من الكماليات إن صحّ التعبير؟ أما التعبير القرآني، فإنه يوظّف المصطلحين بدقة كبيرة ومطّردة في الخطابين المكي والمدني.

إنّ الذي يطّرد في القرآن الكريم من استخدام هذين اللفظين، هو اتصال لفظ الرسول بأمور العقيدة أساساً، واتصال لفظ النبي بأمور الشريعة والمعاملات التفصيلية أساساً. ومن ثَمّ، تكون معصية الرسول كفراً لا محالة، أما "معصية" النبي، أو عدم اتباعه في كل جزئيات الحياة اليومية، فالأمر ليس كذلك. ومثال ذلك ما حدث في صلح الحديبية حين أمر النبي (ص) أصحابه بحلق رؤوسهم وذبح ذبائحهم، فرفضوا، فدخل على زوجه أم سلمة مهموماً، فلما أخبرها بما حدث أشارت عليه بأن يبدأ هو بنفسه، فيحلق ثم يذبح فيتبعه المسلمون، وكان ذلك الذي أشارت به[3]. وغير ذلك كثير في الأمور الاجتماعية التي لا تتصل بالدين مباشرة، مثلما حدث مع بريرة التي رفضت أن ترجع إلى زوجها، فتشفّع له النبي (ص) عندها فرفضت ذلك. ورفض علي بن أبي طالب أن يكتب وثيقة الصلح في حادثة الحديبية، ورفض عمر كذلك أن يمحو اسم النبي من الوثيقة. وقضية تأبير النخل المشهورة حيث قال النبي (ص): "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل".

---

[1] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص239.

[2] - أسماء عبد المنعم أحمد هريدي، مفهوم النبوة في القرآن الكريم، جامعة عين شمس، د. ط، 2001، ص25.

[3] - يراجع: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، ط1، 2009، ص31 - 32.

ويلاحظ أن النووي سلك هذا الحديث في صحيح مسلم في باب« وجوب امتثال ما قاله عليه الصلاة والسلام شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي... ومعه رواية أخرى تنتهي بقوله عليه الصلاة والسلام: "أنتم أعلم بأمر دنياكم". فميّز النبي تمييزا قاطعا بين تجربته الإنسانية الدنيوية الظنية التي يحتملها احتمالا ويرجو ألا يؤاخذه صحابته بها، وبين تجربته النبوية الدينية القطعية التي يأمرهم بالأخذ بها »[1]. ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أمر أمته بأمور كثيرة جداً خاصة بالحياة اليومية؛ من عدم أكل البصل والثوم إلاّ مطبوخين[2]، وعدم شرب الماء من فم القربة أو السقاء مباشرة[3]، أو الأمر بالشرب على نفَسيْن أو ثلاثة[4]، وجواز الحجامة والنهي عن الكيّ[5]، وغير ذلك كثير من هذه التفصيلات الدقيقة، والجزئيات الكثيرة المتنوعة، والمتعلقة بالحياة اليومية للمسلمين في دنياهم.

ولننظر إلى هذه الآيات حيث يقول تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾(الأحزاب: 28 - 30). كيف نجد الخطاب القرآني ينوّع في الاستخدام بين كلمتيْ "رسول" و"نبي"، فقد بدأ النداء بيا أيها النبي، ثم غيّره إلى لفظ "الرسول"، ثم عاد ثانية إلى لفظ "النبي" في قوله:﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ**﴾. والسؤال المطروح هو: هل كان الوضع يتغيّر، والمعنى يتبدّل لو وضع لفظ (النبي) مكان لفظ (الرسول)، أو العكس ؟

إنّ إضافة لفظ "نساء" إلى النبي لا إلى الرسول، له دلالته الاجتماعية، فهنّ نساء أُضفن إلى مقام النبوة التي تعتني بأمور تفصيلية كثيرة في حياة الناس العامة، قد لا يطيقها كثير منهم، لظروف مختلفة، وهذه الأمور يتفاوت الناس في إتيانها، وكذلك نساء النبي(ص). ومع ذلك لم يذكر القرآن لفظ نساء النبي(ص) مضافاً إلى اسم محمد أبداً، فلم يقل: يا نساء محمد، لأنّ في ذلك تسوية النبي، بغيره من الناس، ومن ثمّ، لا تكون له مزية النبوة ودرجتها، لذلك عدل عن هذا الاستخدام. ومهما يكن من أمر، فإنّ محمداً عليه الصلاة والسلام رسول ونبي، وبهما يُعرف، وعلى أساسهما يتعامل المسلمون إزاءه إلى يوم الدين.

---

[1] - صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط24، 2000، ص34.

[2] - ينظر صحيح البخاري. ج1، ص170، رقم الحديث 854.

[3] - ينظر المرجع نفسه. ج7، ص112، رقم الحديث 5627.

[4] - ينظر المرجع نفسه. ج7، ص112، رقم الحديث 5631.

[5] - ينظر المرجع نفسه. ج7، ص122.، رقم الحديث 5680.

وهناك أمر آخر؛ هو أنّ القرآن الكريم يردف بعد استخدام لفظ "الرسول" أموراً تتصل به؛ من طاعة ومن عقاب في حالة العصيان، بينما لا يطرد ذلك مع لفظ النبي. كقوله تعالى:﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾(النور:63). ويقول في آية أخرى:﴿**وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ (المائدة:81). يقول ابن عاشور:« ذُكِرَ بِهِ حَالُ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ كَانُوا فِي زمن الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَهُمْ مُعْظَمُ الْمُنَافِقِينَ وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، لِأَنَّهُ لَا يُسْتَغْرَبُ إِلَّا لِكَوْنِهِ صَادِرًا مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ فَهَذَا انْتِقَالٌ لِشَنَاعَةِ الْمُنَافِقِينَ »[1]. لأنّ الآية السابقة لهذه تقول:﴿**تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ**﴾. والمنافقون يُقرّون بألسنتهم أن محمداً(ص) رسول الله، ولكنهم يطعنون في نبوّته، ولذلك أورد التعبير القرآني لفظ "النبي" في هذه الآية، بدلاً من "الرسول"، وأمرهم أن يؤمنوا به، كما آمنوا بالله في زعمهم. والقرآن نفسه يؤكد زعمهم فقال تعالى:﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾(المنافقون:1). إذ لم يقل هنا، نشهد إنك لنبي، وفي ذلك إيحاء كبير لطوايا أنفسهم، فالقرآن الكريم ينقل أقوال الناس بدقة متناهية. وذلك لأنّ أمر الرسالة يتعلق بمصطلح الإسلام، و« الإسلام: الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي الكشاف: أن كل ما يكون الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب، فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان. أقول: هذا مذهب الشافعي، وأما مذهب أبي حنيفة فلا فرق بينهما »[2].

أما أمر النبوة فيتعلق بالدين، و« الدِّين: وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. الدِّين والملة: متّحدان بالذات، ومختلفان بالاعتبار؛ فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى: دينًا، ومن حيث إنها تُجمع تسمى: ملة، ومن حيث إنها يُرجَع إليها تسمى: مذهبًا، وقيل: الفرق بين الدين، والملة، والمذهب: أن الدين منسوب إلى الله تعالى، والملة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد »[3]. غير أنّ هذا التفريق لا يحلّ المسألة، ولا يحدد ما بين هذه المفردات من مميزات وفروق تصلح أن نأخذ منها سلوكاً خاصاً في حياتنا الاجتماعية؛ كأن يكون الشيء الذي هو من الإسلام أمراً مفروضاً، وليس فيه ما يؤخذ منه قدر الطاقة، ولا يحق لأحد الامتناع عنه، وإلا صار كافراً. أما ما كان من أمر الدين، أو التديّن فهو الأخذ من تعاليم الإسلام بقدر المستطاع، وفيه ما يسمى بالسنة. أما المذهب فأمره مختلف، لأنه في الأصل اجتهاد بشري انطلاقاً من المصادر الشرعية.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص294.

[2] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص23.

[3] - المرجع نفسه، ص106.

وخلاصة القول: إنّ هناك فرقاً دقيقاً بين مصطلحيْ "الرسول" و"النبي" في الاستعمال القرآني، يظهر ذلك جلياً من كل السياقات التي وردت فيها هاتان المفردتان. ولكن هذا الفرق يظهر في حالة كون الرسول شخصاً معيناً، والنبي شخصاً آخر. أما إذا كان الشخص الواحد يوصف بأنه رسول ونبي في الوقت ذاته، فإنّ الأمر يختلف، بمعنى أنّ الرسول مطلوب منه شيء ما لا يُطلب من النبي بالضرورة، أو أنّ الرسول تجب عليه أشياء معيّنة لا تجب على النبي. وبعبارة وجيزة نقول: إنّ هناك فرقاً دقيقاً بين المصطلحين لا يكاد يظهر جلياً لتقارب المعنى في كليهما، ولعدم تفرقة الناس بينهما في الاستخدامات المختلفة عموماً.

2 - **مصطلح "اليهود" و"بنو إسرائيل":**

ورد هذان المصطلحان باطّراد في الخطابين المكي والمدني؛ ويختص الثاني منهما (بنو إسرائيل) بالخطاب المكي، مع بعض الاستثناء الذي ورد في السور المدنية، ولكن بملامح السور المكية -كما أوضحنا ذلك في موضعه من الفصل الثاني- أما مصطلح "اليهود" فورد في الخطاب المدني فقط، من غير استثناء. وقد ذكر القرآن الكريم هؤلاء القوم بصيغتين هما: الصيغة الفعلية؛ هادوا، وهدنا، والاسمية؛ هُوداً، واليهود. وللباحثين آراء متشابهة في دلالة هذه المصطلحات؛ إذ يكادون يجمعون على الفرق الذي بين لفظ "يهود" ولفظ "بنو إسرائيل"، والتعبير القرآني وضع حدّاً فاصلاً بينهما، حين استخدم الأول في القرآن المدني والثاني في القرآن المكي. ومِن الباحثين في هذا الموضوع مَن يقول:« وقال آخرون: إنّ كلمة "يهود" أعجمية، وليست مشتقة من مادة "هود" العربية. وهذا ما نميل إليه ونرجحه. ونكاد نرى أنه تعريب لكلمة "يهوذا" التي هي اسم أحد أسباط بني إسرائيل، وقد أطلقت هذه الكلمة "يهود" على بني إسرائيل وأصبحت عَلَماً عليهم »[1]. وسنرى فيما يلي الصيغ التي وردت بها مادة "يهود".

أ - صيغة "هادوا": وردت مع الاسم الموصول "الذين" في المواضع التالية، قال عز وجلّ:﴿**إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾(البقرة:62)، ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾النساء(46)، ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾(النساء:160)، ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آَخَرِينَ**﴾(المائدة:41)، ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا**﴾(المائدة:44)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾(المائدة:69)، ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ**﴾(الأنعام:146)، ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ**

[1] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، (الشخصية اليهودية من خلال القرآن)، تاريخ وسمات ومصير، دار القلم، دمشق، ط1، 1998، ص28.

هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾(النحل:118)، **﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**(الحج:17)، **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**(الجمعة:6).

يقول الباحث نفسه في ذلك:« وهي في هذه المرات كلها تتحدث عن اليهود الذين هادوا، وهي إمّا أنْ تبيّن زعم الذين هادوا وكذبهم وافتراءهم، وإمّا تكشف عن سوء أخلاقهم وأفعالهم، وإمّا أن تقرنهم مع المؤمنين والنصارى والصابئين، باعتبارهم يمثلون الطائفة اليهودية »[1]. وفي هذا التعبير بلفظ "هادوا" تنبيه لليهود على كلامهم القديم؛ حين أطلقو هذا الاصطلاح على أنفسهم، إذ لم يقل القرآن: بني إسرائيل، ولا اليهود، لأنّ المصطلح الأول كان خاصاً بالخطاب المكي، والثاني خاص ببقيتهم الذين استوطنوا المدينة المنورة، بعد كفرهم وقتلهم أنبياءهم، وهؤلاء ميؤوس من إيمانهم.« وَأَشْهَرُ وَصْفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُمْ هُودٌ... وَأَصِلُ هُودٍ هُوُودٌ وَقَدْ تُنُوسِيَ مِنْهُ هَذَا الْمَعْنَى وَصَارَ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنُودُوا بِهِ هُنَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ لِأَنَّ الْمَقَامَ لَيْسَ مَقَامَ ثَنَاءٍ عَلَيْهِمْ أَوْ هُوَ تَهَكُّمٌ »[2].

ولكن الملاحظ في التعبير القرآني أنّه يورد مصطلح "الذين هادوا" أحياناً في مقام المدح؛ لكن لم يفعل ذلك أبداً مع مصطلح "اليهود". لذلك، فإنّ في لفظ "هادوا" ملمح الطمع في أن يعود اليهود إلى الإيمان، لأنه تذكير بقولهم القديم، وبتوبتهم السابقة، فأورده الخطاب القرآني في السور المدنية، واستخدم نداءهم بهذا الاسم في موضع واحد فقط، طالباً من النبي(ص) أن يقول لهم ذلك. قال تعالى:**﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**(الجمعة:6). ولم يخاطبهم مباشرة، لأنهم لم يعودوا معنيين بذلك كما كانوا في السابق.

ب - **هُدنا:** وردت مرة واحدة فقط في موضع واحد هو:**﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾** (الأعراف:155 - 156). يقول الراغب:« الهود: الرجوع برفق، ومنه: التهويد، وهو مشي كالدبيب، وصار الهود في التعارف التوبة. قال تعالى:{إنا هدنا إليك}[الأعراف/156] أي: تبنا، قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم: هدنا إليك، وكان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازما لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح »[3]. ويقول كاتب معاصر « ويلاحظ أنها وردت في سياق التقرير والإثبات والثناء، وذلك أنّ الذين قالوها هم: نبي الله موسى عليه السلام، والسبعين صالحاً الذين تابوا معه، وهؤلاء تابوا إلى الله صادقين ورجعوا إليه »[4]. ونقل القرآن الكريم كلامهم كما

---

[1] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، ص29.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص215.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص483.

[4] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، ص30.

تلفظوا به، أو ترجمه ترجمة أمينة. وقد وردت مرة واحدة لأنّ مثل هذا الكلام يقال مرة واحدة، مثله مثل الإعلان عن أمر مهم، كالدخول في الإسلام، وإعلان الزواج والطلاق والخطبة والبيوع، وغيرها.

ج - صيغة **"هوداً"**: هي جمع "هائد"، وقد ردت في ثلاثة مواضع، كلها في سورة البقرة، وهي قوله سبحانه:﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(البقرة:135)، ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**﴾(البقرة:140)، ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ**﴾(البقرة:111).

قال الأصفهاني في تعريف معنى "هود":« الهود: الرجوع برفق، ومنه: التهويد، وهو مشي كالدبيب، وصار الهود في التعارف التوبة... قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم: هدنا إليك، وكان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح »[1].

وجاء في لسان العرب:« الهَوْد: التوبة... ويَهُودُ: اسْمٌ لِلْقَبِيلَةِ... وقَالُوا الْيَهُودَ فأَدخلوا الأَلف وَاللَّامَ فِيهَا عَلَى إِرادة النَّسَبِ يُرِيدُونَ الْيَهُودِيِّينَ ... وَقَالَ الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى؛ قَالَ: يُرِيدُ يَهُوداً فَحَذَفَ الْيَاءَ الزَّائِدَةَ وَرَجَعَ إِلى الْفِعْلِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ... وَقَدْ يَجُوزُ أَن يَجْعَلَ هُوداً جَمْعًا وَاحِدُهُ هائِدٌ مِثْلُ حَائِلٍ وَعَائِطٍ مِنَ النُّوق، وَالْجَمْعِ حُول وعُوط، وَجَمْعُ الْيَهُودِيِّ يَهُود، كَمَا يُقَالُ فِي الْمَجُوسِيِّ مَجُوس وَفِي الْعَجَمِيِّ وَالْعَرَبِيِّ عَجَمٌ وَعَرَبٌ »[2]. وقال آخر:« ويقال: هاد: دان باليهودية: والوصف هائد ويجمع على هود »[3].

ويقول غيره:« وهي في المرات الثلاث في مجال نقض افتراءات ومزاعم اليهود عن إبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام، عمّن يحبّهم الله ويدخلهم الجنة. وهي تبطل هذه المزاعم، وتنفي أن يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً، أو دخول الجنة لليهودي أو النصراني فقط. فهي في موضوع الذم والنفي وليس المدح والثناء »[4]. ويشرح سبب ورود هذه الكلمة في سورة البقرة فقط فيقول:« والذي يلفت النظر في هذا الاستعمال هو أن المرات الثلاث في سورة واحدة وهي سورة البقرة.

ولعل الحكمة من هذا - والله أعلم - أن سورة البقرة هي سورة "الخلافة" التي تبيّن نزع الخلافة من أيدي السابقين واليهود، وجعلها في الخلفاء الجدد "المسلمين"، وأنّ هؤلاء الخلفاء الجدد لا يمكن أن يكونوا هوداً على المعنى اللغوي الحقيقي، وهم ورثة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط »[5]. بل لا يمكن أن يكونوا كاليهود والنصارى في عدم حفظهم لما استحفظهم الله عليه من كتبهم ودينهم، إنما سيحفظ المسلمون دينهم وكتابهم بعد أن تكفل الله بفعل ذلك.

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص483.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص439.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص171.

[4] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، ص30.

[5] - المرجع نفسه، ص31.

وما يلفت النظر، كذلك، أنّ كلمة "هوداً" قد وردت على ألسنة اليهود أنفسهم، أو على الأقل على ألسنة أهل الكتاب. إذ لم يقولوا: كونوا يهوداً. أما عندما يتحدث القرآن عن هؤلاء القوم فيقول: اليهود؛ لأن هذه الكلمة هي اسم العلم لهم، تمثل الحقيقة التاريخية التي بقيت فيهم إلى اليوم، وليست مشتقة من شيء[1].

د - صيغة "**يهودي**": وردت مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا**﴾ (آل عمران:67)، في مقام نفي صفة ألصقها أهل الكتاب بإبراهيم عليه السلام. وقد ذكر القرآن مصطلح "اليهود" لأنّ الآية التي ورد فيها مدنية، وكان القرآن المدني قد استقر نهائياً على تسمية هؤلاء القوم باليهود؛ لا غير. وهي التسمية التي لازمتهم دهرا طويلاً، ولا تزال تستخدم إلى اليوم في كثير من المجالات.

هـ - صيغة "**يهود**": ورد هذا المصطلح ثماني مرات، في مقام تعنيف هؤلاء القوم، وفضح أسرارهم، وكشف ألاعيبهم. قال تعالى:﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾(البقرة:120)، ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ**﴾(المائد:18)، ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾(المائد:64)، ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾(المائدة:82)، ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ**﴾ (التوبة:30).

وقد أشار السيد طنطاوي في كتابه (بنو إسرائيل في القرآن والسنة) إلى أنّ تسمية اليهود بهذا الاسم فيها اختلاف، والأقرب إلى الصواب أنهم سُمّوا كذلك نسبة إلى (يهوذا) أحد أبناء يعقوب عليه السلام، لأن المُلك استقر في ذريته. وقد كان يهوذا هو الحاكم لسائر أبناء أبيه الأحد عشر لتقديم أبيه له. وظل كذلك حتى مات، وكان سبطه هو المقدم من بعده على سائر الأسباط الآخرين[2]. ويضيف مستشهداً بقول أحد الباحثين:« ولفظة يهود أعم من لفظة عبرانيين وبني إسرائيل، ذلك أن لفظة يهود تطلق على العبرانيين وغيرهم ممن دخل في دين يهود، وهو ليس منهم، وقد أطلق الإسرائيليون وأهل يهوذا لفظة يهود على أنفسهم وعلى كل من دخل في ديانتهم، تمييزاً لهم عن غيرهم ممن لم يكن على هذا الدين، وهم الغرباء »[3].

أما ما ورد من ذكر "بني" إسرائيل في قوله تعالى:﴿**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ**﴾(البقرة:211). ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ**﴾(الإسراء:101). ولم يقل:سل اليهود« وَالمَأْمُورُ بِالسُّؤَالِ

[1] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، الشخصية اليهودية في القرآن، ص32.

[2] - ينظر: سيد طنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص13.

[3] - المرجع نفسه، ص13.

هُوَ الرَّسُولُ لِأَنَّهُ الَّذِي يَتَرَقَّبُ أَنْ يُجِيبَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ سُؤَالِهِ... وَالْمُرَادُ بِ(بَنِي إِسْرَائِيلَ) الحَاضِرُونَ مِنَ اليَهُودِ. وَالضَّمِيرُ فِي آتَيْنَاهُمْ لَهُمْ، وَالْمَقْصُودُ إِيتَاءُ سَلَفِهِمْ لِأَنَّ الْخِصَالَ الثَّابِتَةَ لِأَسْلَافِ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ، يَصِحُّ إِثْبَاتُهَا لِلْخَلَفِ لِتُرَتِّبِ الْآثَارِ لِلْجَمِيعِ كَمَا هُوَ شَائِعٌ فِي مُصْطَلَحِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ »[1]. فالله تعالى يطلب من الرسول (ص) أن يسأل يهود المدينة - الذين يجاورونه - عن أسلافهم إن كانوا مثلهم، ولذلك استخدم مصطلح "بني إسرائيل" بدلاً من "اليهود"، ليذكّرهم بتاريخهم، وأصولهم الأولى. وفي ذلك أدب رفيع في الحديث عن هؤلاء القوم، وإيحاء بواقعهم التاريخي والمعاصر، وتحريك نفوسهم إلى الخير لعلهم يرجعون.

- مصطلح "**أهل الكتاب**": لم يرد هذا المصطلح إلاّ في الخطاب المدني[2]، ويقصد به اليهود والنصارى معاً. وذكرت هذه العبارة إحدى وثلاثين 31 مرة في القرآن الكريم. وقد خاطبهم الله تعالى مباشرة بهذا الاسم الذي يجمع كل من اليهود والنصارى، دون سواهم، لأنهم أصحاب ديانات سماوية، وأصحاب رسل حقيقيين، وكانت شرائعهم من آخر الشرائع السماوية القريبة من عصر الإسلام، عكس الرسالات السابقة البعيدة في الأزمنة الماضية. وقد وردت عبارة "أهل الكتاب" بكثرة في السور المدنية الأولى نزولاً، مثل آل عمران، والنساء، والمائدة. فقد وردت اثنتيْ عشرة مرة في سورة آل عمران وحدها. قال تعالى:﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ**﴾(آل عمران:64)، ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ**﴾(آل عمران:65)، ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾(آل عمران:70)، ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ**﴾(النساء:153)، ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾(النساء:123)، ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ**﴾(المائدة:15)، ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾(المائدة:19).

وقد وظّف الخطاب القرآني مصطلح "نصارى" منفرداً، ورد هذا اللفظ أربع عشرة (14) مرة كلها في القرآن المدني، ولم يرد اسم "مسيحيين" أبداً، مع أنّ لفظ "المسيح" ورد لقباً لعيسى عليه السلام. ولعل ذلك راجع إلى أنّ القرآن احتفظ بالاسم الذي أطلقه هؤلاء القوم على أنفسهم، يقول تعالى:﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾(المائدة:14)، ويقول:﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى**﴾(المائدة:82). ليكون ذلك شاهداً عليهم في الدنيا وفي الآخرة. والنصارى اسم مشتق من لفظ "نصرونة"، أو من "ناصرة"؛ وهي قرية بالشام ينسب إليها النصارى[3].

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص288.

[2] - ما عدا آية العنكبوت، وهذه السورة هي ما قبل الأخيرة نزولاً بمكة؛ أي رقمها 85. وعدد السور المكية هو 86.

[3] - يراجع، ابن منظور، لسان العرب، ج5، مادة (نصر)، ص211.

ويرى الأصفهاني غير ذلك في قوله:« كما أن النصارى في الأصل من قوله:{من أنصاري إلى الله}[الصف /14] ثم صار لازما لهم بعد نسخ شريعتهم »[1]. وقال ابن عاشور:« وَأَمَّا النَّصَارَى فَهُوَ اسْمُ جمع نَصري (فتح فَسُكُون) أَوْ نَاصِرِيٍّ نِسْبَةً إِلَى النَّاصِرَةِ وَهِيَ قَرْيَةٌ نَشَأَتْ مِنْهَا مَرْيَمُ أُمُّ الْمَسِيحِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَقَدْ خَرَجَتْ مَرْيَمُ مِنَ النَّاصِرَةِ قَاصِدَةً بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَوَلَدَتِ الْمَسِيحَ فِي بَيْتِ لَحْمٍ وَلِذَلِكَ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَدْعُونَهُ يَشُوعَ النَّاصِرِيَّ أَوِ النَّصْرِيَّ فَهَذَا وَجْهُ تَسْمِيَةِ أَتْبَاعِهِ بِالنَّصَارَى »[2]. وقال أيضاً:« وَعُبِّرَ عَنِ النَّصَارَى بِ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى هُنَا... تَسْجِيلًا عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اسْمَ دِينِهِمْ مُشِيرٌ إِلَى أَصْلٍ مِنْ أُصُولِهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَتْبَاعُهُ أَنْصَارًا لِمَا يَأْمُرُ بِهِ اللَّهُ، كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ [الصَّفّ: 14] »[3]. ومهما يكن من أمر هذا المصطلح، فإنّ بني إسرائيل الذين كانوا مع عيسى عليه السلام، هم الذين أطلقوا هذا الاسم على أنفسهم بنص القرآن الكريم.

ويقول أحمد ديدات في معنى لفظ "المسيح":« إن كلمة المسيح مشتقة من الكلمة العبرية "مسّياه". ومصدر الكلمة في اللغة العربية هو "مسح" بمعنى دعك ودلك ودهن، وكان الكهنة والملوك يمسحون (أو يدهنون) بالزيت المقدس عند رسمهم بوظائفهم. ولكن الكلمة في شكلها المترجم اليوناني "خريستوس" أو الإنكليزي "كرايست"، تبدو فريدة بحيث لا تليق إلا بعيسى عليه السلام »[4]. ثم علّق المترجم على ذلك في الهامش بقوله:« أي أنها تنصرف فقط للدلالة على عيسى بن مريم عليهما السلام دون غيره، وكأنه لم يكن "مسيح" غيره قبله ولا بعده »[5]. لأنّ الكلمة وردت معرفّة بأل التي تدل على العهدية، والتخصيص، فلم ترد نكرة أبداً في القرآن كله.

غير أننا نجد تعبيراً كنائياً عن أهل الكتاب، هو استخدام القرآن لفظ (**المغضوب عليهم**) ولفظ (**الضالين**) اللذين وردا في سورة الفاتحة، والمقصود بهما (اليهود) و(النصارى) على ما تذكر التفاسير كلها تقريباً. يؤكد الألوسي ذلك بالاعتماد على الحديث النبوي، لأنه أحرزُ في هذه المسألة، وهو يرُدّ على الذين فسروا المصطلحين بما ورد في القرآن الكريم من آيات تومئ إلى كلا الفريقين[6]. وقال رشيد رضا في تفسر المنار:« فَسَّرَ بَعْضُهُمُ المُنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالمُسْلِمِينَ وَالمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ : بِاليَهُودِ ، وَالضَّالِّينَ بِالنَّصَارَى »[7]. ونعثر على مثل هذا التخريج في مختلف التفاسير

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص483.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص533.

[3] - المرجع نفسه، ج6، ص146.

[4] - أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، تر: محمد مختار، مكتبة ديدات، د. ت. د. ط، ص50 - 51.

[5] - المرجع نفسه، ص51.

[6] - ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج1، ص96.

[7] - محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، ج1، ص55.

التفاسير سنيّة كانت أم غير ذلك، كما في تفسير الطبرسي، وهو أحد كبار مفسري الشيعة، الذي يؤكد أن مدلول المغضوب عليهم والضالين مُجمع عليه عند العلماء، والعامة[1].

وسؤالنا في ذلك هو: لماذا لم يصرح القرآن الكريم باللفظين (اليهود والنصارى) في تلك السورة، إنما كنّى عنهما فقط؟ والجواب هو: إن سورة الفاتحة مكية من أوائل السور نزولاً، فلو ذكر القرآن اليهود والنصارى صراحة لطعن الكفار وأهل الكتاب في نبوة محمد (ص)، ولقالوا: لماذا يذكرنا بهذه الصفة ونحن لم نفعل شيئاً للعرب ولا لمحمد؟ ولَتعجب العرب أيضاً من ذلك. ولكن في ذكرهم بهذه الصيغة سرّ وإعجاز، مفاده أن اليهود والنصارى كان لهم شأن وضيع مع أنبيائهم، ومع كتبهم، وسيكون لهم الشأن نفسه مع القرآن ومع النبي (ص) والمسلمين، ومع أمة الإسلام إلى يوم الدين، فلمّح القرآن لذلك من قبل أن يقصّ على نبيّه وعلى العرب سيرة هؤلاء القوم، وهو دليل على نبوة محمد (ص)، وعلى صدق أخباره وما أتى به من أنباء. فهذا الذكر الخاص بهؤلاء الناس في بداية الدعوة يعتبر لمحة استباقية صدّقها الواقع بعد بضع سنين من نزول القرآن.

وفي المبحث التالي سنعرض لعيّنات أخرى من مفردات الخطاب القرآني في العهد المدني؛ وهي المنظومة اللفظية، التي تحوي المفردات المتشابهة، أو "المترادفة"، أو "النظائر"، للدلالة مرة أخرى على التفرد والتميز في توظيف التعبير القرآني لمنتقياته اللفظية؛ فهو يصطفيها كما يصطفي من الناس عباداً له قادرين على أداء المهمة النبيلة على أكمل وجه.

[1] - ينظر، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسين، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم، بيروت، ط1، 2005، ص38.

المبحث الثالث: فضاء المنظومة اللفظية

يفرق كثير من الباحثين ومفسري القرآن الكريم بين المفردات "المترادفة"، ويعتبرون ذلك من باب التنوع الدلالي، وليس التشابه أو التطابق في المعنى. وقد يستخدم الخطاب القرآني أكثر من مصطلح للدلالة على مفهوم واحد بصفة عامة؛ فهو يستخدم جملة من المفردات تقل وتكثر في كل مجال تقريباً، فنجد مجموعة: ذنب، معصية، إثم، جُناح، سيّئة، فاحشة. ومجموعة: غفر، صفح، وفّر، عفا. ومجموعة: سنَة، عام، حول، جّة. ومجموعة: ولد، ابن، فتى، غلام، صبي... وهكذا. وفي ذلك كله توظيف دقيق، للمعجم اللغوي، يسير باطّراد في الآيات القرآنية التي ترد فيها ألفاظ كل منظومة.

1 - **منظومة (حرج) (جناح)، (إثم)**: ترد هذه المصطلحات الثلاثة في الخطاب المدني، وفي فضاء التشريع على الخصوص، غير أنها ترد بتوزيع مختلف، وبنسب متباينة، كما في الأمثلة التالية:

أ - **إثم**: ورد أربع مرات في سورة البقرة بمعنى الحرج أو الجناح، ومنها مرتان في آية واحدة هي قوله تعالى:﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى**﴾(البقرة:203). ثم مرة واحدة في كل آية من قوله سبحانه:﴿**فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾(البقرة:181)، ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾(البقرة:173). وليس هناك آية أخرى بهذا المعنى لهذه المفردة. والظاهر في هذه الآيات أنّ مفردة "إثم" ترد في نهاية الآيات، على عكس المفردتين الأخريين. ويرد في الخطاب المدني فقط.

ب - **حرج**: ورد في القرآن المدني باطّراد، والملاحظ أنه لم يرد إلا بصيغة النكرة، وأنّ معناه يتراوح بين مفهوم التعب والمشقة، وبين مفهوميْ الضيق والإثم، وإن كان هذا المفهوم الأخير هو الغالب على استعماله. لقد تكرر ثلاث عشرة 13 مرة، منها آيتان تكرر في كلتيهما ثلاث 3 مرات وهما قوله تعالى:﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(الفتح:17)، ﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾ (النور:61).أما الآيات التي ورد في كل منها مرة واحدة فهي قوله سبحانه:﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾(المائدة:6).﴿**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ**﴾(الأعراف:2)، ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ**﴾(التوبة:91)، ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾(الحج:78)، ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ**

UNIVERSITE SETIF2

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾(الأحزاب:37)، ﴿**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ**﴾(الأحزاب :38)، ﴿**قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ**﴾(الأحزاب:50).

كما ورد لأول مرة في سورة المائدة، أي في البدايات الأولى لنزول الوحي في العهد المدني، وقد جاء ذكره في سياق التشريع، وفي مسألة الوضوء بالذات، ليبيّن للناس أن فرض الشعائر عليهم، لأجل مصلحتهم، لا لتعذيبهم. لأنه قد يظن من لا يفقه الأمور أنّ في الغسل والوضوء والصوم والصلاة، مشقة وإتعاباً للجسد، وليس وراءها شيء من النفع، المادي أو الروحي.

ولا يستخدم القرآن هذا المصطلح (حرج) بصيغة الفعل، أي حَرِجَ، أو تحرّج - مع الفارق الذي بينهما - قال ابن فارس:« ومنه تقارب اللفظين واختلاف المعنيين وذلك قولنا "حَرِجَ" إذا وقع في الحَرَج و"تحرّج" إذا تباعد عن الحرج»[1]. ورد في معجم ألفاظ غريب القرآن الكريم ما نصه:« أصل الحَرَج والحَراج مجتمع الشيء وتُصُوِّر منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج وللإثم حرج »[2]. وقال ابن عاشور:« وَالحَرَجُ: الضِّيقُ، أُطْلِقَ عَلَى عُسْرِ الأَفْعَالِ تَشْبِيهًا لِلمَعْقُولِ بِالمحْسُوسِ ثُمَّ شَاعَ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً كَمَا هُنَا »[3].

ولكن، لماذا لم يستعمل القرآن الألفاظ الأخرى الدالة على الحرج، من مثل: المشقة، والتعب، والنصَب، والضيق؟ لاسيما أنّ المفسّرين يشرحون لفظ "الحرج" بهذه الألفاظ. إنّ السبب - والله أعلم - أنّ فضاء هذه الكلمة تشريعي، وفي العهد المكي لم يكن التشريع قد بدأ. فعندما يقول الله تعالى:﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(النور:61)، فإنّ ذلك يعني التكليف، أي لا يكلّف هؤلاء بمثل ما يكلّف الأصحاء. وهناك ملاحظة في الكلمات التي تقترن بكلمة "حرج"، إذ تتصل بكلمة "الدين"، وليس بكلمة "الإسلام"، فالقرآن لم يقل: ما جعل عليكم في الإسلام من حرج، إنما قال:﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾(الحج:78). وذلك لأنّ أمور التشريع والأحكام والمعاملات متعلقة بالدين أو التديّن، أما الإسلام فهو الاعتقاد النظري بما جاء به الوحي، والدين هو التطبيق الفعلي لما جاء في الإسلام.

ولم ترد كلمة (حرج) في كل القرآن إلا نكرة؛ وذلك للدلالة على نفي كل أنواع الحرج على المكلَّفين. لأنّ الناظر في أشكال التكاليف الدينية، يمكنه ملاحظة حدوث نوع من المشقة والتعب في ممارستها، مثلما نجد في مناسك الحج في فصل الحرارة بخاصة، وفي رمضان أيضاً، وفي صلاة التراويح، فقد يشعر بعض الناس بنوع من المشقة

---

[1] - أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ط1، 1997، ص153.

[2] - الراغب الأصفهاني، الغريب في مفردات القرآن، ص147.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص350.

والتعب. ولكن، القرآن - فيما يبدو- لا يقصد هذا المعنى، إنما يقصد الحرج النفسي من أداء الشعائر، هذا الذي لم يجعله الله في دينه، أما بعض التعب الجسدي الذي ينال المرءَ العابدَ، فهو من باب الزكاة؛ زكاة الجسم، وزكاة النفس. إنه نوع من الأذى النفسي الذي عبّر عنه القرآن في تنبيه المؤمنين على عدم المكوث ببيت النبي (ص) طويلاً بعد استضافتهم. قال تعالى:﴿**فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ**﴾ (الأحزاب:53). أي أن للنبي عليه الصلاة والسلام أشغالاً خاصة، يريد أن يخلو بنفسه وأهله كسائر الناس. ولكنه لرحمته (ص) وتأدبه لم يكن ليقدر على التصريح بذلك.

وقد جمع القرآن الكريم لفظ "ضيق" مع لفظ "حرج" في آية واحدة هي قوله تعالى:﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾(الأنعام:125). يقول ابن عطية عن معنى ضيقاً حرجاً:« ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام »[1]. ويقول ابن عاشور في معنى لفظ "حرج":« وإتباع الضيق بالحرج: لتأكيد معنى الضيق، لأنّ في الحرج من شدة الضيق ما ليس في ضيق »[2]. غير أنّه لم يوضح الفرق بين اللفظين اللذين يبدو أنّهما تنطبق عليهما قاعدة إذا اجتمعا اختلفا، وإذا افترقا اتحدا.

ونجد لفظة "حرج" في آية أخرى مدنية هي قوله تعالى:﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾(النساء:65). جاء في تفسير الآية:« ضيقاً وشكّاً... وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَيْ إِثْمًا بِإِنْكَارِهِمْ مَا قَضَيْتَ »[3]. وجاء:« ضيقاً أو شكّاً »[4]. وقال الزمخشري:« لا تضيق صدورهم من حكمك، وقيل: شكاً لأن الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين »[5]. ويقول الثعالبي:« والحرج: الضيق والتكلف والمشقة. قال مجاهد: حرجا: شكّاً »[6]. والظاهر من هذه التفسيرات أنّ معنى الحرج هو الضيق، والقلق، والاضطراب، والكراهية التي يشعر بها المرء إزاء أمر ما لا يعجبه، وهو وضع نفسي أكثر منه مادياً.

- لفظ (**جُناح**): لا يرد إلا في القرآن المدني، ويقترن بفضاء التشريع أكثر من أي فضاء آخر، وقد رد في خمس وعشرين 25 آية، وورد نكرة كله. قال ابن منظور:« والجُناح: الميل إلى الإثم. وقيل: الإثم عامة. والجُناح: ما تُحَمِّل من

---

[1] - ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح، عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1422 هـ ص661.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج8، ص59.

[3] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص269.

[4] - تفسير الجلالين، ج1، ص112.

[5] - الزمخشري، الكشاف، ص244.

[6] - الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج2، ص258.

الهم والأذى... وقال أبو الهيثم في معنى قوله تعالى:﴿**ولا جُناح عليكم فيما عرّضتم به**﴾، الجُناح: الجناية والجُرم »[1]. قال الأصفهاني:« قال تعالى:{وإن جنحوا للسلم فاجنح لها}[الأنفال/61]، أي مالوا، من قولهم: جنحت السفينة، أي: مالت إلى أحد جانبيها، وسمي الإثم المائل بالإنسان عن الحق جُناحا ثم سمي كل إثم جُناحا »[2]. وقال ابن فارس:« (جَنَحَ) الْجِيمُ وَالنُّونُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْمَيْلِ وَالْعُدْوَانِ. وَيُقَالُ جَنَحَ إِلَى كَذَا، أَيْ مَالَ إِلَيْهِ... وَالْجُنَاحُ: الْإِثْمُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ »[3]. وقد رد هذا اللفظ، تسع مرات في البقرة وحدها. وومنها قوله تعالى:﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾(البقرة:158)، ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**﴾(البقرة:198)، ﴿**فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا**﴾(البقرة:230)، ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(البقرة:234)، ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ**﴾(البقرة :235)، ﴿**لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ**﴾(البقرة: 236)، ﴿**إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا**﴾(البقرة:282)، ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾(النساء:24)، ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ**﴾(النساء:101)، ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ**﴾(النساء:128)، ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ**﴾(النور:29)، ﴿**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ**﴾(النور:60)، ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا**﴾(النور:61)، ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾(الأحزاب:5)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾(الممتحنة:10).

ويبدو أنّ لفظ "جناح" يأتي في مقام التحرج من إتيان شيء كان يفعله العرب فيما مضى، أو التحفظ من أمر جديد على الناس لا يعرفون حكمه الشرعي، أو يأتي في مقام الرخصة والتخفيف على المؤمنين في أمر دينهم.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، مادة (جنح)، ص697 - 698.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص197.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص484.

2 - **منظومة زوج، سيد، بعل**: يورد التعبير القرآني هذه المصطلحات الثلاثة للدلالة على مفهوم واحد، في مجاله العام، وهو الرجل الذي له الحق في ملك ذات اليمين، أو المتصرف في إنسان آخر؛ وهو المرأة على الأخص التي في عصمته. إلا أنّ لفظ "السيد" غير متداول عند العرب بمفهوم الزوج، أو البعل. يقول ابن عاشور:« وَإِطْلَاقُ السَّيِّدِ عَلَى الزَّوْجِ قِيلَ: إِنَّ الْقُرْآنَ حَكَى بِهِ عَادَةَ الْقِبْطِ حِينَئِذٍ، كَانُوا يَدْعُونَ الزَّوْجَ سَيِّدًا. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُسْتَعْمَلًا فِي عَادَةِ الْعَرَبِ، فَالتَّعْبِيرُ بِهِ هُنَا مِنْ دَقَائِقِ التَّارِيخِ مِثْلَ قَوْلِهِ الْآتِي مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ [سُورَة يُوسُف:76]. وَلَعَلَّ الزَّوَاجَ فِي مِصْرَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ كَانَ بِطَرِيقِ الْمِلْكِ غَالِبًا »[1].

أما لفظ "البعل"، فيقول فيه ابن عاشور:« قَوْلُهُ: وَبُعُولَتُهُنَّ. الْبُعُولَةُ جَمْعُ بَعْلٍ، وَالْبَعْلُ اسْمُ زَوْجِ الْمَرْأَةِ. وَأَصْلُ الْبَعْلِ فِي كَلَامِهِمْ، السَّيِّدُ. وَهُوَ كَلِمَةٌ سَامِيَّةٌ قَدِيمَةٌ، فَقَدْ سَمَّى الْكَنْعَانِيُّونَ (الفِينِيقِيُّونَ) مَعْبُودَهُمْ بَعْلًا قَالَ تَعَالَى: أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالِقِينَ [الصافات:125] وَسُمِّيَ بِهِ الزَّوْجُ لِأَنَّهُ مَلَكَ أَمْرَ عِصْمَةِ زَوْجِهِ، وَلِأَنَّ الزَّوْجَ كَانَ يُعْتَبَرُ مَالِكًا لِلْمَرْأَةِ وَسَيِّدًا لَهَا، فَكَانَ حَقِيقًا بِهَذَا الِاسْمِ، ثُمَّ لَمَّا ارْتَقَى نِظَامُ الْعَائِلَةِ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَمَا بَعْدَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ، أَخَذَ مَعْنَى الْمِلْكِ فِي الزَّوْجِيَّةِ يَضْعُفُ، فَأَطْلَقَ الْعَرَبُ لَفْظَ الزَّوْجِ عَلَى كُلٍّ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ »[2].

ولعل هذا الكلام صحيح، لأنّ القرآن الكريم لم يستخدم لفظ "بعل" إلا في خمسة مواضع؛ ورد في موضع واحد منها بمعنى الصنم[3]. أما بمعنى "زوج" فمستخدم في الخطابين معاً، غير أن صيغة المفرد منه وردت مرة واحدة في آية مكية هي قوله تعالى:﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا**﴾(هود:72). أما ما جاء في السور المدنية فأكثر من ذلك[4]. وقد ورد في فضاء "الأحوال الشخصية"- بلغة القانون - أي في مجال التشريع[5]. وورد بصيغة الجمع أكثر؛ أي "بعولتهن"، ومضافاً دائماً إلى ضمير "هن". وورد مرة واحدة مفرداً مضافاً إلى ضمير الغائبة "هي"، للدلالة على هذه الحال من النشوز، في قوله عز وجلّ:﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾(النساء:128). وأما صيغة الجمع فوردت في فضاء مراجعة المطلقة. وجاء مصطلح "زوج" في الخطابين معاً، وورد أكثر من مصطلح "بعل" بكثير.

يقول المطعني في دلالة لفظ "بعل" ولفظ "زوج":« القرآن يؤثر أن يطلق على زوجة الرجل كلمة "امرأة" إذا اختلت عُرى الحياة الزوجية، أياً كان نوع ذلك الاختلال سواء كان بموت أحد الزوجين.. أو حدث نزاع بين الزوجين

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص256.

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص393.

[3] - الآية مكية وهي:﴿**أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**﴾(الصافات:125).

[4] - وهذه السور هي: البقرة 228، النساء: 128. النور: 31. أما المكية فهي: هود:72. والصافات:125؛ وفيها جاء بمعنى الصنم.

[5] - ورد في معنى مراجعة المطلقة، وفي نشوز أحد الزوجين.

سواء أدى إلى طلاق أو لم يؤدِّ.. أو لاختلاف الدين بين الزوجين أو كانت العلاقة الزوجية قائمة على غير دين صحيح »[1]. وفي توظيف لفظ "بعل" يقول:« لما ضنّ القرآن بإطلاق كلمة "زوج" على الزوجة في حالات تدهور العلاقات الزوجية، وأطلق عليها كلمة "امرأة" ضن كذلك على الزوج الذكر بإطلاق كلمة "زوج" عليه، ثم أطلق عليه كلمة "بعل" أو "بعولة" لا تخلو آية واحدة منها مما يهدد، أو هدد الحياة الزوجية فعلاً من شقاق بين الزوجين أو سوء معاملة من الزوج للزوجة، أو سلوك شائن من الزوجة ينافي قدسية الحياة الزوجية »[2].

إلاّ أنّ هذا الرأي غير مسلّم به في كل الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ؛ إذ كيف يكون عدم التوافق بين الزوجين في مثل قوله تعالى:﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ**﴾ (النور:31)؟ فهل إبداء الزينة للزوج لا تكون إلاّ في حال عدم التوافق؟ ولماذا لم يقل التعبير القرآني: ولا يبدين زينتهن إلا لأزواجهن؟ ما دام لفظ "الزوج" هو الأصلح في هذا المقام، لكون العلاقة الزوجية صحيحة كما زعم الباحث. والكلام ذاته ينطبق على قوله تعالى:﴿**وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا**﴾(البقرة:228)؛ فكيف يكون "بعل" امرأة أحق بردّها، والعلاقة بينهما غير متوافقة؟

وقال العسكري:« الرجل لَا يكون بعلا للمَرْأَة حَتَّى يدْخل بهَا وَذَلِكَ أَن البعال النِّكَاح والملاعبة وَمِنْه قَوْله عَلَيْهِ السَّلَام أَيَّام أكل وَشرب وبعال.. وَأصل الكَلِمَة القيام بِالْأَمر وَمِنْه يُقَال للنخل إِذا شرب بعروقه وَلم يحْتَج إِلَى سقْي بعل كَأَنه يقوم بمصالح نَفسه »[3]. وهذا المعنى الأخير للفظ "بعل" معروف عند الفلاحين، ووارد في العامية الجزائرية في قولهم: هذا نبات بَعْليّ، أي لا يحتاج إلى سقي. أما بخصوص "بعل" الذي هو "زوج"، ففي الواقع لا يوجد رجل؛ وهو زوج - بهذا المفهوم - لم يدخل بامرأته حتى يقال: هذا زوجها فحسب، وذاك بعلها.

أما ابن عاشور فيرى أن ذكر "بعل" في السور المدنية يعتبر إشارة« فِيهَا إِلَى التَّذْكِيرِ بِمَا لِلزَّوْجِ مِنْ سِيَادَةٍ، نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً[النِّسَاء:128] وَهَاتِهِ الآيَةُ كَذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَمَّا جَعَلَ حَقَّ الرَّجْعَةِ لِلرَّجُلِ جَبْرًا عَلَى المرْأَةِ، ذَكَّرَ المَرْأَةَ بِأَنَّهُ بَعْلُهَا قَدِيمًا »[4]. ولعل هذا الرأي أقرب إلى الصواب، إذ فيه تذكير بحق القوامة للرجل، وحق السيادة في البيت؛ لكون الآيات التي ذكرت لفظ "بعول" مدنية جاءت في سياقات التشريع بشكل عام.

---

[1] - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص162.

[2] - المرجع نفسه، ص167.

[3] - العسكري، الفروق اللغوية، ص283.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص393.

وجاء في مخطوطة الجمل ما يلي:« الزوج: الفرد إذا كان معه آخر يقترن به للتناسل، الذكر زوج والأنثي زوج، وهما زوجان والجمع أزواج. والزوج: الصنف، والشئ يكون له ما يقرن معه في الذكر نظيرا كان أو ضدا، والجمع أزواج»[1]. وقد ذكر المؤلف كل مشتقات "زوج"، وما أضيف إليه. ومعنى ذلك أنّ مصطلح "زوج" هو الأكثر شيوعاً في الخطاب القرآني؛ مكيّه ومدنيّه، وفي الاستخدام العام عند الناس، وفي الإدارات الحكومية؛ لأنه الأكثر دلالة على الاقتران بين شخصين، وعلى التماثل بين فردين.

والملاحظ أنّ التعبير القرآني لم يقل أبداً عن آدم إنه "بعل" حواء، ولم يصف حواء بأنها امرأة آدم، ولم يذكر أزواج النبي (ص) إلا بوصف "أزواج"، أو "نساء"، ولم يقل في النداء: يا أزواج النبي، ولم يقل في الإثبات: نساء النبي. إنما الذي يرد هو العكس؛ ففي النداء يقول عز وجلّ:﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ**﴾(الأحزاب:32)، ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾(الأحزاب:30). وفي حالة الإخبار يقول سبحانه:﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾(الأحزاب:6)، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ**﴾(الأحزاب: 28)، ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا**﴾(التحريم:3).

لا يكاد الفرق يظهر جلياً، في توظيف التعبير القرآني لمصطلحيْ "زوج" و"بعل"، ولا يبدو الفضاء الدلالي لهما واضحاً تمام الوضوح، عدا الملامح المطّردة التي ذكرناها عن أزواج النبي (ص)، وعن آدم عليه السلام وزوجه. ولا بد من أن يكون لهذا الاستخدام من حكمة أوسع من مجرد التنويع في ذكر الأسماء والأوصاف، سواء تلك التي في الخطاب المكي، أم في الخطاب المدني، أم في كليهما.

3 - **منظومة التقويم والحساب**: فيها أربعة ألفاظ هي: سنة، عام، حول، حِجّة، وقد رأينا أن السنَة والحِجّة اختص بهما الخطاب المكي، والآن سنرى أنّ لفظيْ "عام"، و"حوْل" قد اختص بهما الخطاب المدني. فهل من فرق في توظيف هذه الألفاظ على هذا الشكل، وبهذا التوزيع؟

أ - **عام**: يطّرد في مجال التشريع الخاص بمعاملة الأشهر الحرم، وفضاء الحرب والسلم. قال تعالى:﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا**﴾(التوبة:37)، ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**﴾(التوبة:28). ولم يرد إلا في هاتين الآيتين، باستثناء آية العنكبوت التي جمعت بين لفظيْ "سنة" و"عام". قال تعالى عن سيدنا نوح:﴿**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾(العنكبوت:14). وهذا المصطلح هو الوحيد - من بين مصطحات التقويم - الذي ورد في الخطابين معاً؛ وما ورد في الخطاب المدني إنما في مقام التشريع على الخصوص، قال سبحانه:﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ**﴾(البقرة:259)، ﴿**أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ**﴾(التوبة:126). أما ما ورد في الخطاب المكي ففيه تلميح إلى قدرة الله تعالى في خلقه، وتدبير شؤونهم، وإظهار بعض معجزاته. قال عزّ من قائل:﴿**ثُمَّ**

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص261.

يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(يوسف:49). وقال عن المولود:﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾**(لقمان:14).

إن الملاحظ في توظيف مصطلح "عام"، في التعبير القرآني، أنه لا يرد إلا مع عدد محدد من السنين، أو بعد لفظ "بضع"،{بضع سنين}، أو لفظ عدد {عدد سنين}، أو{سنين عددا}؛ بحيث لا يأتي مع عدد أكبر من مائة؛ فلا يقال: ألف عام، أو خمسمائة عام، إنما يقال: ألف سنة، خمسون ألف سنة. ولعل هذا هو السبب الذي جعل الاستثناء في سورة العنكبوت، باستخدام "سنة" بدلاً من "عام"، عند تحديد مدة مُكث نوح عليه السلام في قومه.

قال ابن منظور:« الحَوْلُ يأْتي عَلَى شَتْوَة وصَيْفَة، وَالجمْعُ أَعْوامٌ، لَا يكسَّرُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ »[1]. فهو ،إذاً، السنة كاملة، أو سنة بأسرها. والسنة« واحدةُ السِّنين. قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: السَّنَة العامُ مَنْقُوصَةٌ. وَبَعْضُ الْعَرَبِ يَقُولُ هَذِهِ سِنِينٌ، كَمَا تَرَى، ورأَيت سِنيناً فَيُعْرِبُ النُّونَ، وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُهَا نُونَ الْجَمْعِ فَيَقُولُ هَذِهِ سِنُونَ ورأَيت سِنِينَ »[2]. أما صاحب كتاب الفروق اللغوية فيقول:« العام جمع أيام، والسنة جمع شهور.. ويجوز أن يقال: العام يفيد كونه وقتاً لشيء، والسنة لا تفيد ذلك، ولهذا يقال "عام الفيل"، ولا يقال: "سنة الفيل". ويقال في التاريخ: سنة مائة وسنة خمسين، ولا يقال: عام مائة وعام خمسين.. ومع هذا فإن السنة هي العام، والعام هو السنة...»[3]. لكننا نجد الناس في كثير من الأحيان يؤرخون بالعام كما يؤرخون بالسنة تماما، فيقال: انطلاق الثورة التحريرية سنة 1954 ؛ ويقال عام 1954 انطلاقها كذلك، من غير أدنى فرق بينهما.

ويشاطر الشعراوي فكرة أبي هلال العسكري فيقول:« ونلحظ هنا {أَلْفَ سَنَةٍ}، ثم استثنى منها {إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً}، ولم يقُلْ خمسين سنة، فاستثنى الأعوام من السنين، ليدلَّك على أن السنة تعني أيَّ عام، ويُرفَع الخلاف؛ لأن البعض يقول: إن السنة هي التي تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة، في حين أن السنة ليس من الضروري أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهي بذي الحجة، إنما تبدأ في أي وقت وتنتهي في مثله بعد عام كامل. فحين نقول: فلان عمره مثلاً عشرون سنة، أي: من يوم مولده إلى مثله عشرين مرة، وكذلك العام. إذن: السنة والعام والحجة، كلها سواء أردتَ الحساب بالسنة الشمسية، أو القمرية، أو غيرها كما تحب »[4]. ويقول في موضع آخر:« والعام هو الحول، وقد سمّوا "الحول" عاماً؛ لأنّ الشمس تعوم في الفلك كله في هذه المدة، والعوم سبح، والحق يقول:{وكلٌ في

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص431.

[2] - المرجع نفسه، ج 13، ص501.

[3] - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص270.

[4] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج18، ص11098

فلك يسبحون} ولذلك نسميه عاماً »[1]. ولكن لماذا استخدم القرآن الكريم أكثر من مصطلح للدلالة على معنى واحد؟ ثم لماذا تكرر مصطلح أكثر من غيره؟ وأخيراً، لماذا يرد بعض هذه المصطلحات في الخطاب المكي؛ مثل "السنة"، ويرد بعضها الآخر في الخطاب المدني مثل: الحول والعا؟ ثم لماذا لم يذكر مصطح "الحِجة" إلاّ مرة واحدة في الخطاب المكي؛ في سورة القصص؟ قال تعالى:﴿**قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ**﴾(القصص:27).

يقول ابن فارس عن أصل مادة هذه اللفظة:« (عمّ) العين والميم أصل صحيح واحد يدل على الطول والكثرة والعلوّ »[2]. وبذلك يكون العام طويلاً بعدد شهوره وأسابيعه، وكثيراً بعدد أيامه. ولكن لا فرق كبيراً- من حيث عدد الأيام والأسابيع والشهور - بين العام والسنة والحول. ومع هذا فإنّ المسألة لم تحسم في التفريق بين الألفاظ الأربعة: السنة، والعام، والحول، والحِجة، بما يرتاح له الباحث والقارئ.

ب - **حول**: يتردد في فضاء التشريع الخاص بالرضاعة، وبعِدّة المرأة المتوفى عنها زوجها، قال تعالى:﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ**﴾(البقرة:240)، ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**﴾(البقرة:233). ويبدو أن توظيف مصطلح "عام" يقصد به الدقة في إحصاء عدد أيام السنة؛ بحيث يجب أن تكون كاملة لأداء الغرض المطلوب من التشريع. ولذلك نجد الفقهاء يتسخدمون هذا اللفظ بالذات للتعبير عن وقت إخراج الزكاة، إذ يقال: حين يحول الحول، أو إذا حال الحول.

ومن حيث دلالة لفظ "الحول" اللغوية، يقول ابن فارس:«(حَوَلَ) الحَاءُ وَالوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ تَحَرُّكٌ فِي دَوْرٍ. فَالحَوْلُ العَامُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَحُولُ، أَيْ يَدُورُ »[3]. وقال الأصفهاني:« والحول: السنة، اعتبارا بانقلابها ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها »[4].

وقال ابن منظور:« الحَوْل: سَنَةٌ بأَسْرِها، والجمع أَحْوالٌ وحُوُولٌ وحُؤُولٌ »[5]. وقال ابن عاشور:« وَالحَوْلُ فِي كَلَامِ العَرَبِ: العَامُ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ تَحَوُّلِ دَوْرَةِ الْقَمَرِ أَوِ الشَّمْسِ فِي فَلَكِهِ مِنْ مَبْدَأٍ مُصْطَلَحٍ عَلَيْهِ، إِلَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى السَّمْتِ الَّذِي ابْتَدَأَ مِنْهُ، فَتِلْكَ المُدَّةُ الَّتِي مَا بَيْنَ المَبْدَأِ وَالمَرْجِعِ تُسَمَّى حَوْلًا »[6].

---

[1] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج2، ص1133.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص15.

[3] - المرجع نفسه، ج2، ص121.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص277.

[5] - ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص184.

[6] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص430.

وإذا كان جمع المذكر السالم يدل على القلة، كما يرى بعض الدارسين، فكيف نفسر ورود لفظتيْ "سنين" و"بنين" اللتين تنتميان إلى هذا الجمع - وإن كان ذلك بمصطلح آخر هو الملحق بجمع المذكر السالم - وتدلاّن على الكثرة؟ أم أنّ حكم الملحق غير حكم جمع المذكر الأصلي.

غير أنّ دلالة الجدب والقحط المضمنة في معنى "السنة"؛ باعتبار أصل التسمية، لا تفيد شيئاً تقريباً في توظيفها الدال على عدد الأيام، أو الشهور، التي تمثل السنة. وإلاّ، فأين نجد هذه الدلالة في مثل قوله تعالى:﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾(المعارج:4)؟ أو في قوله أيضاً:﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾(الحج:47). ثمّ إن دلالة الرخاء والخصب المضمنة في معنى "العام" لا تفيد عند توظيف هذا المصطلح في حياتنا العامة. فأين الرخاء في قولنا: العام الدراسي؟ أو العام المقبل؟ فلو كان الملفوظ - مثلاً - هو "العام الماضي"، لجاز لنا ذلك، باعتبار أننا نعرف إن كان عام خصب أم سنة قحط؛ لأن الماضي معلوم أما المستقبل فمجهول.

لا يكاد الدارسون، إذاً، يفرقون تفريقاً بيّناً بين دلالة "حول"، ودلالة "عام"، فمعناهما واحد تقريباً، فإذا أضيف لفظ "سنة"، أصبح عدد المصطلحات الدالة على التقويم والحساب ثلاثة؛ وهي الأكثر ورودا في الخطاب القرآني. أما لفظ "حِجة" فلم يرد إلا مرة واحدة، وهو أيضاً يدل على عدد الأيام التي تمثل السنة، أو العام أو الحول. إلاّ أن التعبير القرآني أورد هذه المصطلحات بنوع من التميّز والتباين. فمصطلح "عام" لا يأتي منه مثنىّ ولا جمع، ويرد في الخطاب المدني أكثر منه في المكي، ومصطلح "حول" لا يأتي منهإلاّ المفرد والمثنى، من غير جمع، ولا يرد إلاّ في الخطاب المدني، ويرد مصطلح"سنة" في الخطاب المكي، ويأتي بصيغة الجمع أكثر، كما عرضنا ذلك في الفصل الثاني. و"السنة" تدل على الشدة والجدب، و"العام" يدل على الخصب كما قيل.

إنّ القرآن الكريم استعمل مصطلحات التقويم كلها؛ أي السنة والعام والحول والحِجة، ولكنه وظّفها بنسب متفاوتة، وبصيغ مختلفة، حتى لا يكاد الفرق بينها يظهر جلياً، ولهذا قال باحث معاصر في هذه المسألة، في مقدمة تحقيق كتاب الرماني، وسمّي ذلك بشبه الترادف وهو:« تقارب اللفظين تقارباً شديداً، بحيث يصعب على غير المتخصص التفريق بينهما، مثل: عام - سنة - حوْل »[1]. ذلك أنّ كل ما قيل في الفرق بين هذه الكلمات الثلاث[2] لا يعطي دلالة واضحة - بحسب التوظيف القرآني لها - على ما يزعمه أصحابه.

وقد ورد مصطلحا "الحول" و"السنين" من كلام الله تعالى مباشرة، وليس نقلاً لأقوال أناس آخرين. وهذه الكلمات الدالة - في عمومها - على الزمن الطويل نسبياً، وردت جميعها في القرآن المكي وحده، دون القرآن المدني. ولعل تأويل ذلك هو أنّ الناس في العهد المدني لم يعودوا بحاجة إلى ذكر عدد السنين في أيّ موضوع كان، وكل ما

[1] - الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى ، الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، تح: فتح الله علي صالح المصري، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط1، 1987، ص24.

[2] - ذكرنا هنا ثلاث مفردات للتقويم، دون لفظ "حِجة"، لأنّ هذه الثلاث هي مناط البحث عند الدارسين، سيما "السنة" والعام، إذ كثيراً ما يقارن الباحثون بينهما تحديداً.

يمكن أن يذكر في هذا الأمر هو المقام في الجنة، الذي يصفه الله تعالى بالخلود، أو يصفه بعبارة ماكثين أبداً، فهو لا يُعَدّ بالسنين ولا بالحجج ولا بالأعوام. أما لفظ "السنون" ومرادفاته فقد ذكر في العهد المكي الذي يتماشى مع ذكر القصص وأحوال الأقوام الماضين، ومدة مكث بعض الأنبياء مع أقوامهم - كما هو شأن نوح عليه السلام - أو مدة مكث أهل الكهف. أو تنبيه الكفار على أمور الغيب والعقيدة، كمقدار عروج الملائكة قياساً بالزمن الأرضي... إلخ.

وخلاصة القول: يبدو أن التعبير القرآني لا يعير اهتماماً - في توظيفه لمصطلحات التقويم والحساب - لأصل هذه الألفاظ، كما فسرها الباحثون، لكي نستخدمها بهذا الاعتبار، أو لنفهمها بهذا المدلول؛ إنما يوظف كلاً منها في تمظهرات مميزة، وفي فضاء خاص بكل مصطلح، وبصيغ محددة، وفي خطاب دون آخر، للدلالة على أن الخطاب القرآني يورد كل شيء بحسبان، وبميزان دقيق، حتى وإن كنا لا ندرك السر والحكمة من ذلك النظام، وذلك التوزيع الفريد لألفاظ القرآن، وصيغها المتنوعة، والمتفاوتة.

ومن ناحية أخرى؛ فإنّ القرآن الكريم استخدم كل المصطلحات المعروفة عند العرب في التقويم، وحساب الزمن، وهي السنة والعام والحول والحِجة، ولكنه استخدمها باطرّاد خاص، كلّ في موضوعه المحدد. غير أننا نلاحظ تنبيه القرآن على أنّ هذه المفردات الدالة على الزمن قد تقوم إحداها مقام الأخرى دون حرج، أو خلل في المعنى، سيّما إذا كان المقصود هو حساب الزمن على العموم. فلا فرق في هذه الحال بين السنة - إذا كانت ناقصة يوماً أو يومين- وبين العام الذي هو السنة كاملة بعدد أيامها. وعليه، لا حرج في أن نقول: السنة الدراسية، أو العام الدراسي. فإن قيل: فماذا عن الحِجة والحول؟ أيجوز أن نقول: الحول الدراسي والحِجة الدراسية؟ قلنا: ذلك اصطلاح واتفاق بين الجماعة اللغوية، حيث اختارت الوصفين السابقين، ولم تختر الأخيرين. ثمّ إنّ التعبيرين الأخيرين قد يلتبسان بمعانٍ أخرى غير مقصودة منهما.

وفي المبحث التالي سنعرض لعيّنات ظاهرة أخرى من الظواهر اللغوية، الوادرة في الخطاب المدني، وهي ظاهرة تنوع الصيغ الصرفية؛ من مصادر، ومشتقات مختلفة، بحيث ينتقي التعبير القرآني صيغة على حساب أخرى، ولو كانت غير مستخدمة في العادة. وذلك لتبيان ما في هذا الخطاب من دقة بالغة في التعبير، ومن نظام محكم في إيراد تلك الصيغ، سيما تلك التي يوظفها باطّراد في مواطن كثيرة، ثم يورد لها استثناء واحداً، أو استثناءين، مما يدل على أن الخروج عن ذلك الاطّراد، إنما كان لضرورة لا تصلح معها إلاّ تلك الصيغة.

المبحث الرابع: فضاء التنوع الصرفي للمفردات

تتنوع البنى الصرفية للمادة الواحدة في إيراد مفردات القرآن الكريم، وذلك تبعاً لنظام خاص تميّز به التعبير القرآني عمّا سواه من التعابير والتآليف. يقول فاضل السامرائي:« الملاحظ في الأبنية القرآنية أنها استعملت على وفق أمرين: الأمر الأول أنها استعملت على وفق الدلالات المشهورة المعروفة من معاني أبنية المصادر، وصيغ المبالغة، والجموع وغيرها.. والأمر الآخر أنه خص أبنية بدلالات خاصة كالأعين والعيون، والقعود والقاعدين، والصوم الصيام وغيرها، إذ القرآن لا يستعمل بناءين مختلفين من مادة لغوية واحدة بدلالة مماثلة، بل لا بد أن يخص بناءً أو لفظاً باستعمال معيّن أو دلالة خاصة »[1]. ويمكن إضافة شيء آخر، وهو أن التعبير القرآني قد يورد صيغة ما في الخطاب المكي، ثم يورد أخرى في الخطاب المدني، وفي ذلك كله إعجاز ما، وبيان رفيع، وبلاغة سامية. ومن ذلك ما يلي:

1 - فضاء المصادر.

أ - المصدر الصريح والمصدر الميمي: ذكرنا أنّ التعبير القرآني يؤثر المصدر الصريح على المصدر الميمي؛ غير أنه أحياناً يقلب القاعدة ليصبح الفرع أصلاً، ومن دون ذكر صيغة ذلك الأصل؛ مثلما نرى في الأمثلة التالية:

– مادة "**غنم**": يورد التعبير القرآني من هذه المادة مصدراً ميمياً، هو "مغانم"، بدلاً من المصدر الصريح "غُنْم"، ويورد "غنيمة"، بل بدلاً من جمع "غنائم". وقد ذُكر هذا المصدر (الميمي) في القرآن المدني فقط، وفي ستة مواضع منه؛ ورد مرتين بصيغة الفعل. وكل ما ورد منه مصدراً جاء بصيغة الجمع؛ أي مغانم. والآيات التي ورد فيها هذا المصطلح هي من السور التي نزلت بعد مضي بعض الوقت من إقامة النبي (ص) في المدينة. وفي ذلك دليل على أنّ الغنيمة لم تكن هي الأصل في تشريع القتال. فالناظر في ترتيب نزول الآيات التي تتحدث عن الغنائم يدرك بسهولة دلالة ذلك.

قال تعالى:﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**﴾(النساء:94)(السادسة نزولاً)، وقال أيضاً:﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾(الأنفال:41)، وقال:﴿**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾(الأنفال:69)(الثانية نزولاً). وقال كذلك:﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ**﴾(الفتح:15)، ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا**﴾(الفتح: 18 - 19)، ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا**﴾(الفتح:20).

[1] - فاضل صالح السامرائي، من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2009، ص7.

ويكفي أنّ سورة الفتح التي ورد فيها هذا المصطلح ثلاث مرات متتالية، هي من أواخر ما نزل من القرآن في المدينة؛ أي السورة الرابعة والعشرون. وهي السورة الوحيدة التي جاء فيها ذكر الغنائم على سبيل الوعد، وتبشير المؤمنين بها، بعد أن تشرّب الإيمان قلوبهم، وفقهوا الدين جيداً، وعلموا أنّ ما عند الله خير وأبقى.

يقول ابن عاشور في ذلك:« إِذْ عُلِمَ أَنَّهُ فَتْحُ خَيْبَرَ، فَحَقَّ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ أَنْ يَخْطُرَ بِبَالِهِمْ أَنْ يَتَرَقَّبُوا مَغَانِمَ أُخْرَى فَكَانَ هَذَا الْكَلَامُ جَوَابًا لَهُمْ، أَيْ لَكُمْ مَغَانِمُ أُخْرَى لَا يُحْرَمُ مِنْهَا مَنْ تَخَلَّفُوا عَنِ الْحُدَيْبِيَةِ وَهِيَ المَغَانِمُ الَّتِي حَصَلَتْ فِي الفُتُوحِ المُسْتَقْبَلَةِ »[1]. أما ذكر الغنائم في السور المدنية الأولى نزولاً، فكان الأمر فيها مختلفاً عمّا ذُكر في سورة الفتح. تلك كانت نتيجة للقتال، وهذه ذكرت تبشيراً وتشجيعاً للقتال بعد أن خاض المسلمون أكثر من معركة، وكثر في صفوفهم أناس آخرون ليسوا من نفس درجة السابقين دخولاً في الإسلام.

- مصدر (**مَرَض**): وهو مصدر صريح، ولم يرد غيره في كل القرآن الكريم، وجاء بصيغة المفرد فقط؛ أي ليس بصيغة "أمراض"، ويأتي دالاّ على النفاق عموماً، إلا استثناء؛ بحيث قد يرد بمعنى الشك، أو الفساد. وقد ورد إحدى عشرة (11) مرة في سور مدنية، ومرة واحدة في سورة مكية، وهي قوله جلّ وعلا:﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾(المدثر :31).

قال الأصفهاني:« المرض: الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وذلك ضربان:الأول: مرض جسمي، وهو المذكور في قوله تعالى:{ولا على المريض حرج}[النور/61]، {ولا على المرضى}[التوبة/91]. والثاني: عبارة عن الرذائل كالجهل، والجبن، والبخل، والنفاق، وغيرها من الرذائل الخلقية. نحو قوله:{في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا}[البقرة /10] »[2]. وقال ابن فارس:«(مَرِضَ) الْمِيمُ وَالرَّاءُ وَالضَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَا يَخْرُجُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ فِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَ. مِنْهُ الْعِلَّةُ. مَرِضَ وَيَمْرَضُ. وَجَمْعُ الْمَرِيضِ مَرْضَى. وَأَمْرَضَهُ: أَعَلَّهُ. وَمَرَّضَهُ: أَحْسَنَ الْقِيَامَ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ... وَالنِّفَاقُ مَرَضٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَقَالَ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، قَالُوا: أَرَادَ الْفَهْرَ »[3].

إنّ الملاحظ في كل الآيات التي ورد فيها هذا المصدر، أنه ورد بمعنى المرض المجازي؛ أي أنه صفة ذميمة - أو أكثر من صفة - في الإنسان، تتصل بالجانب العقائدي، والإيماني بالخصوص، بحيث لم ترد إلا متصلة بلفظ "قلب"، أو"قلوب" - وهو الأكثر - فلم يقل التعبير القرآني: بهم مرض، أو هم مرضى؛ إنما قال: في قلوبهم مرض؛ كما في هذه الآيات، قال سبحانه:﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾(البقرة:9 - 10)، ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ**﴾(الأنفال:49)، ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾(التوبة:125)، ﴿**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي**

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج26، ص176 - 177.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص371- 372.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص311.

UNIVERSITE SETIF2

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾(الحج:53)، **﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾**(الأحزاب:32).

ويرد المرض - بهذا المفهوم - في فضاء الاضطراب النفسي والخروج عن الاعتدال؛ قال ابن عاشور:« وَتَنْوِينُ مَرَضٌ لِلتَّعْظِيمِ. وَأَطْلَقَ الْقُلُوبَ هُنَا عَلَى مَحَلِّ التَّفْكِيرِ.. وَالْمَرَضُ حَقِيقَةٌ فِي عَارِضٍ لِلْمَزَاجِ يُخْرِجُهُ عَنِ الِاعْتِدَالِ الْخَاصِّ بِنَوْعِ ذَلِكَ الجِسْمِ خُرُوجًا غَيْرَ تَامٍّ وَبِمِقْدَارِ الخُرُوجِ يَشْتَدُّ الأَلَمُ فَإِنْ تَمَّ الخُرُوجُ فَهُوَ الموْتُ، وَهُوَ مَجَازٌ فِي الأَعْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ العَارِضَةِ لِلْأَخْلَاقِ الْبَشَرِيَّةِ عُرُوضًا يُخْرِجُهَا عَنْ كَمَالِهَا، وَإِطْلَاقُ المرَضِ عَلَى هَذَا شَائِعٌ مَشْهُورٌ فِي كَلَامِ العَرَبِ »[1]. وتكرر مفهوم لفظ "مرض" بهذه الدلالة، وبهذه الصيغة في كل الآيات الاثنتيْ عشرة الواردة في القرآن الكريم. وفي هذا التوظيف دلالة على دقة انتقاء التعبير القرآني لمفرداته، وللصيغ المختارة من المادة المعجمية، ليؤدي كل ذلك غرضاً ما، وتوحي بمعنى خاص، لا يمكن أن تحلَ محله مفردة أخرى، أو صيغة مماثلة؛ باعتبار أن القرآن لا يوظف من الألفاظ والصيغ، إلا لأنّ المعنى يستدعي ذلك، بكل ما توحي به اللفظة من دلالات مطّردة، في الخطاب المكي، أو في الخطاب المدني، وما تعيّنه تلك اللفظة من فضاءات متنوعة تدل على إعجاز باهر مميز.

2 - **فضاء المشتقات**: يطّرد بعض المشتقات في الخطاب المدني، ولا يذكر في الخطاب المكي، وهي كما يلي:

- **مادة "أحصن"**: وهي خاصة بالخطاب المدني التشريعي، وترد اسم فاعل، أو مفعول[2]؛ "محصنات" بصيغة جمع المؤنث السالم، ويرد قليل منها بصيغة جمع المذكر السالم (مُحصِنين)، في أربعة عشر موضعاً من القرآن المدني. والآيات الخاصة بهذا اللفظ تتحدث عن المحرمات من النساء، وتفصّل في بعض الظواهر الجاهلية المتعلقة بمسألة الزواج، واتخاذ السراري، والأخدان وغيرها.

قال تعالى:**﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾**(النساء:24)، **﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾**(النساء:25)، **﴿طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ﴾**(المائدة:5)، **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾**(النور:4)، **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾**(النور:23).

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص279.

[2] - تُقرأ هذه اللفظة مُحصَنات، ومحصِنات، بحسب نوع القراءة القرآنية. يراجع، ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص122.

– صيغة الفعل(**أُحصِنّ**)، وردت مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**﴾(النساء:25). ومعنى "أحصِنّ" في هذه الآية هو التزوّج، وما يدل على ذلك الآية هو السابقة لها. قال ابن عاشور:« فَإِذا أُحْصِنَّ أَيْ أَحْصَنَهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ، أَيْ فَإِذَا تَزَوَّجْنَ »[1].

– صيغة جمع مذكر السالم: وردت مرتين هما:﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ**﴾(المائدة:5)، ﴿**وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ**﴾(النساء:24).

– صيغة المصدر: (**تحصّن**) ورد في ﴿**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا**﴾(النور:33). ولم يقل: إحصاناً، إذ القياس يفرض أن يكون مصدر فعل (أحصن) هو إحصان. ولكن التعبير القرآني عدل عن هذه الصيغة، إلى استعمال اسم المصدر.

ويلاحظ أن مادة "أحصن" ومشتقاتها تتموضع في حيز واحد تقريبا؛ سورا وآيات، فالسور هي نفسها والآيات نفسها كذلك. للدلالة على ألاّ فرق بين الرجل والمرأة في مثل هذه الأمور، فالخير خير لهما معاً، والشر شر لهما معاً أيضاً.

ويدور معنى الإحصان والتحصّن في اللغة حول معنى واحد هو« الحِفْظُ وَالحيَاطَةُ وَالحِرْزُ »[2]. ومنه جاء معنى الحصن؛ أي القلعة، أو البناء المحاط، والمحفوظ بالأسوار وغيرها. وجاء في لسان العرب:« امرأَة حَصانٌ، بِفَتْحِ الْحَاءِ: عَفِيفَةٌ بَيِّنة الحَصانةِ والحُصْنِ ومتزوّجَةٌ أَيضاً مِنْ نِسْوَةٍ حُصُنٍ وحَصاناتٍ، وحاصِنٌ مِنْ نِسْوَةٍ حَواصِنَ وحاصِنات، وَقَدْ حَصُنَت تَحْصُنُ حِصْناً وحُصْناً وحَصْناً إِذا عَفَّتْ عَنِ الرِّيبة »[3]. وقال الأصفهاني:« قيل: المحصَنات: المزوجات، تصورا أن زوجها هو الذي أحصَنها، و{المحصَنات من النساء}[النساء/24] بعد قوله: {حرمت}[النساء/ 23]، بالفتح لا غير، وفي سائر المواضع بالفتح والكسر؛ لأن اللواتي حرم التزوج بهن المزوجات دون العفيفات، وفي سائر المواضع يحتمل الوجهين »[4]. يريد بذلك أنّ المرأة المحصنَة هي المتزوجة، والتي لا يجوز لها التزوج برجل آخر في نفس الوقت، أما المحصِنة فهي العفيفة، وإن لم تكن متزوجة.

وتكون صيغة "محصَنات" اسم مفعول في هذه الآية لا غير، لكون السياق لا يقبل غير هذا المعنى؛ لأنّ المتزوجة محصَنة بالزواج، أما غيرها فمحصِنة بأمر آخر. أما في سائر الآيات الأخر فيجوز الأمران؛ أي "محصَنات" أو

---

[1] - ابن عاشور، التحرير و التنوير، ج5، ص16.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص69.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص120.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص240.

"محصِنات"، لأنّ السياق يقبل الصيغتين معاً، والمعنيين معاً، ولأنهما قراءاتان صحيحتان أيضا. قال ابن عاشور: « وَالمحْصَناتُ قَرَأَهُ الجُمْهُورُ - بِفَتْحِ الصَّادِ- وَقَرَأَهُ الْكِسَائِيُّ - بِكَسْرِ الصَّادِ - عَلَى اخْتِلَافِ مَعْنَيَيْ (أُحْصِنَّ)..، أَيِ اللَّاتِي أَحْصَنَّ أَنْفُسَهُنَّ، أَوْ أَحْصَنَهُنَّ أَوْلِيَاؤُهُنَّ، فَالمرَادُ الْعَفِيفَاتُ. وَالمُحْصَنَاتُ هُنَا وَصْفٌ خَرَجَ مَخْرَجَ الغَالِبِ، لِأَنَّ المسْلِمَ لَا يَقْصِدُ إِلَّا إِلَى نِكَاحِ امْرَأَةٍ عَفِيفَةٍ »[1].

وقال آخر:« وأحصن الرجل: تزوج فهو محصن وهم محصنون »[2]. وقال أيضاً:« والمحصنة وجمعها محصنات هي الحرة أو العفيفة أو المتزوجة »[3]. وفي هذا التنوع بين اسم فاعل واسم مفعول بلاغة وبيان ودقة في التعبير عن معنيين مختلفين من مادة واحدة، من غير تنوع في توظيف مادة لغوية أخرى.

وفي مقابل الإحصان نجد ثلاثة مصطلحات هي: السِفَاح، البِغَاء، والزنى، وهي مصادر صريحة ، أما الخِدْن فهو اسم ولكنه يدور في فلك هذه المصادر. فالسِفاح في اللغة« صَبُّ المَاءِ بِلَا عَقْدِ نِكَاحٍ، فَهُوَ كَالشَّيْءِ يُسْفَحُ ضَيَاعًا »[4]. والمسافح والمسافحة كما في مخطوطة الجمل« الزانى والزانية جهرا، وعن الزجاج: المسافح والمسافحة اللذان لا يمتنعان من أحد »[5]. والخدن في اللغة هو المصاحبة، ويطلق على المذكر والمؤنث[6]. قال الأصفهاني: « خدن أي المصاحب، وأكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب بشهوة، يقال: خدن المرأة وخدينها »[7]. « وأريد بالمخادنة في القرآن المصاحبة غير الشرعية »[8]. وقد ورد مرتين فقط، إحداهما خاصة بالرجال، والأخرى خاصة بالنساء.

قال تعالى:﴿**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ**﴾(النساء:25)، وقال أيضاً:﴿**طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ**﴾(المائدة:5).

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص12.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص406.

[3] - المرجع نفسه، ج1، ص 406.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص81.

[5] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص314.

[6] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص163.

[7] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص290.

[8] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص30.

وهذه المصطلحات معروفة الدلالة بدقة، سواء أكان ذلك في الجاهلية، أم في الإسلام، الذي أبقى على دلالتها المتعارف عليها. ومن ثَمّ، فلا مجاز فيها، إنما هي حقائق، لأنها وردت في مجال التشريع، وليس في هذا الفضاء غموض ولا تأويل لمصطلحاته، بل هي ثابتة الدلالة في كل الآيات التي وردت فيها.

اسم الفاعل: (الآمرون، الناهون)، وردا مرة واحدة في سورة التوبة، برفقة مجموعة أخرى من أسماء الفاعل. أما بقية الآيات الخاصة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوردت بصيغة الفعل. وفي هذه الآية﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**﴾(التوبة:112)، طائفة من أسماء الفاعلين لم يرد بعضها إلاّ مرة واحدة؛ مثل الحامدون، والسائحون، والتائبون، وفي حالة الرفع فحسب. أما الراكعون[1] والساجدون، فيردان أكثر من غيرهما، ونادرا ما يأتيان في السور المكية، أو في حالتيْ النصب والجر. وأما صيغة "سُجّد" فترد في الخطاب المكي، وحتى إذا وردت في بعض آيات الخطاب المدني فهي خاصة ببني إسرائيل؛ أي تلك الآيات التي تقص أخبارهم. ما عدا قوله تعالى:﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾(الفتح:29). وما ذكر فيه بنو إسرائيل فهو في حكم المكي. أما صيغة "ساجدين" فتطّرد في الخطاب المكي، وفي ذكر رفض إبليس للسجود، إلا في موضع واحد هو قوله تعالى:﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾(الشعراء :219)، فإنها خاصة بالنبي (ص).

- مادة (**عرج**): جاءت صفة مشبهة "أعرج"، ووردت ثلاث مرات في آية كررت مرتين في سورتين مختلفتين هما قوله تعالى:﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(النور:61)، وقوله عز وجلّ:﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(الفتح:17). وقد يقال إن هذا تكرار فحسب، غير أنّه عند النظر في السياق الخاص بكل آية يظهر الفرق جلياً. فآية النور تتحدث عن الاستئذان، والأكل من بيوت الناس، حيث أعطى الله تعالى« الرُّخْصَةُ لِلجَمِيعِ فِي الأَكْلِ، فَأَذِنَ اللَّهُ لِلأَعْمَى وَالأَعْرَجِ وَالمَرِيضِ أَن يدخلُوا الْبُيُوت لِلأَكْلِ لِأَنَّهُمْ مَحَاوِيجُ لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّكَسُّبَ وَكَانَ التَّكَسُّبُ زَمَانَئِذٍ بِعَمَلِ الأَبْدَانِ فَرَخَّصَ لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَدْخُلُوا بُيُوتَ المُسْلِمِينَ لِشِبَعِ بُطُونِهِمْ »[2]. أما الآية الثانية فسياقها آخر؛ وهو سياق الحرب والقتال؛ فقد جاءت تلك الآية الآية مباشرة بعد هذه﴿**قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً**﴾(الفتح:16). وهذا يدل على أنّ الرخصة هنا خاصة بهؤلاء الثلاثة في حالة الحرب، لعدم قدرتهم على القتال بسبب النقص الذي في أجسامهم.

[1] - مع العلم أن جمع "راكع" ورد جمع تكسير؛ أي بصيغة "رُكّع". وورد مفرداً؛ أي "راكعاً" في سورة مكية هي ص:24.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص300.

- مادة (**مرض**): وفيها صيغتان: "مريض" و"مرضى"[1]. وتدلان على المرض الحقيقي، لا المجازي، كالذي في صيغة المصدر، وفي هذه الحال يتعلق الأمر بمسألة التشريع الخاص بفئة المرضى الذين استثناهم الخطاب القرآني، وأعفاهم من بعض التكاليف. والآيات الخاصة بهاتين الصيغين هي التالية؛

قال الله تعالى:﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(النور:61)، ﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(الفتح:17)، ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾(النساء:43)، ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ**﴾(النساء:102)، ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾(المائدة:6)، ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ**﴾(التوبة:91).

وما يلاحظ في هذه الآيات، أنها تكاد تكون هي نفسها التي ذكرت ألفاظ "مريض"، و"أعرج"، و"أعمى"، وهذه الألفاظ عادة ما يرد بعضها مقترناً ببعض؛ كما في سورتيْ النور، والفتح. بل لقد تكررت الآية نفسها التي ذكرت لفظ "مرضى" بصيغة النكرة في آية النساء، وفي آية المائدة السالفتين.

3 - فضاء تنوع الأفعال. وذلك من خلال تذكير الفعل أو تأنيثه، وبنائه للمعلوم أو المجهول؛ كما في النماذج التالية.

أ - تأنيث الفعل أو تذكيره: يذكر الفعل أو يؤنث كذلك مع المفردة ذاتها، متبّعا في ذلك خطاً دلالياً خاصاً في كل استخدام. ويحدث هذا مع المفردات المؤنثة أصلاً، مثل: رحمة، عاقبة، الضلالة، أو ما كان في حكم المؤنث؛ كجمع المذكر رُسُل، وغيرها. فلفظ "عاقبة" مثلاً يُسبق بفعل "كان"، ويأتي مذكراً مرة؛ أي بصيغة "كان"، ويأتي مرة أخرى مؤنثاً؛ أي بصيغة "كانت". يقول السامرائي في هذه الظاهرة:« تذكير الفاعل المؤنث له أكثر من سبب وأكثر من خط في القرآن الكريم. فإذا قصدنا باللفظ المؤنّث معنى المذكّر جاز تذكيره وهو ما يُعرف بالحمل على المعنى. وقد جاء في قوله تعالى عن الضلالة (فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30) الأعراف) وقوله تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) النحل. ونرى أنه في كل مرة يذكر فيها الضلالة بالتذكير تكون الضلالة بمعنى العذاب لأن الكلام في الآخرة (كَمَا

[1] - وردت صيغة "مرضى" مرة واحدة في القرآن المكي، وهي﴿**عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ**﴾(المزمل:20).

بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (الأعراف:29) وليس في الآخرة ضلالة بمعناها لأن الأمور كلها تنكشف في الآخرة. وعندما تكون الضلالة بالتأنيث يكون الكلام في الدنيا) »[1].

ولمثل هذا التخريج ما يدعمه من آيات القرآن الأخرى؛ كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(الأعراف:56). وقوله كذلك:﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**﴾(الشورى:17). وكذلك الأمر في استخدام الفعل "جاء"، والفعل "أتى" مسندين إلى لفظ "البينات"؛ فمرة يأتيان مذكّرين، ومرة أخرى يردان مؤنّثين. قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ**﴾(غافر:66)، ﴿**ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾(النساء:153)، ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾(آل عمران:105)، ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾(آل عمران:86)، ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾(البقرة:253)، ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾(البقرة:213)، ﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(البقرة:209).

وممّا يشبه هذا النهج تذكير الفعل مع جمع "رُسُل"، وتأنيثه مع الجمع نفسه. كما في هذه الآيات:﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾(المائدة:32)، ﴿**قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ**﴾(آل عمران:183)، ﴿**يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾(الأعراف:53). ﴿**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**﴾(آل عمران:184)، ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا**﴾(الأنعام:34).

وفي تخريج هذا المظهر يقول أحدهم:« لأن كلمة - الرسل- عليهم السلام جمع تكسير قد تضمن معنى (الجماعة)، أي: كأنه قيل: (جاءتهم جماعة رسلهم أو جماعة الرسل).. والجماعة لا تكون متميزة ومستقلة وتستحق أن يطلق عليها لفظ الجماعة إلا إذا كانت معرفة.. أما صيغة جاء فقد وردت خالية من تاء التأنيث، لأن كلمة - رسل - لم تتضمن معنى الجماعة »[2]. إلاّ أن هذا التخريج غير وجيه؛ لأنّ كلتا الآيتين تتحدثان عن بني إسرائيل، وعن عنادهم وديدنهم في تكذيب الرسل والأنبياء، وهم يعلمون جيداً الرسل الذين أرسلوا إليهم. إنما المراد- والله أعلم - أنّ الرسل الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل، وإلى غيرهم من الأقوام، كانوا من الكثرة بحيث عُرف بعضهم، ولم يُعرف البعض الآخر، لقلة لبثهم في أقوامهم، أو لسبب آخر. فالمعروفون منهم عبّر عنهم القرآن بلفظ المعرفة "الرسل"، أو "رسلهم"، أو "رسلنا"، وغيرهم عبّر عنهم بلفظ النكرة "رُسل"، لأنّ عددهم غير محدد، ولا معلوم.

---

[1] - فاضل السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني، ص14.

[2] - عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص62 - 63.

ب - **بناء الفعل للمعلوم أو للمجهول:** هذا موضوع واسع، ومتشعب، يأخذ مساحة كبيرة من فضاءات مختلفة. فإذا أخذنا على سبيل المثال الفعل "آتى" المستخدم مع أهل الكتاب وجدنا التعبيرين الآتيين: آتيناهم الكتاب، أوتوا الكتاب. وكلّ منهما يطّرد في فضاء خاص. فالأول يطّرد في دلالة المدح، وهو تشريف للذين تلقّوا الكتاب بالقبول، لذلك نسب الإتيان إلى ذات الله العليا. قال تعالى:﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ (البقرة:121)، ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾(البقرة:146)، ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**﴾(الأنعام:89)، ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾(الأنعام:114)، ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**﴾(الرعد:36)، ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾(القصص :52)، ﴿**فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾(العنكبوت:47).

أما عبارة "أوتوا الكتاب"، فترد في معرض الذم، أو تعريض؛ أي أولئك الذين ورثوا الكتاب عن أسلافهم، بما فيه من تحريف، أو أنهم لم يأخذوه بحقه، وإنما كان ذلك تعصباً، وتظاهراً، وتنطّعاً. والآيات الدالة عل ذلك كثيرة، منها قوله تعالى:﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**﴾(البقرة:101)، ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾(البقرة:145)، ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾(آل عمران:19)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾(آل عمران:100)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ**﴾ (النساء:47)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ (المائدة:57)، ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾(البينة:4). أما آية المائدة فلها حالة خاصة، قال تعالى:﴿**أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾(المائدة:5). فالآية تتحدث عن أمور تتعلق بالحياة العامة التي قد تشق على الناس لو حرّمت، أما العقائد فيجب فيها التحري والتحفظ.

أما عبارة "أهل الكتاب" فترد للدلالة على وجود مزيج من المؤمنين والموحّدين من أهل الكتاب، والمثلّثين والمتعصّبين منهم؛ أي أنّ بعضهم كان لا يزال على عقيدة التوحيد، ولعله الفئة القليلة، وبعضهم الآخر - وهو الأكثرية - فعلى عقيدة التثليث. ويميل بعض الباحثين إلى أنّ الموحّدين من أهل الكتاب يُعرَفون باسم "الأريسيين"، أو "الأريوسيين"؛ نسبة إلى "أريوس"[1]، وهو الاسم الذي ذكره النبي (ص) في رسالته إلى هرقل الروم، قائلاً له: فإن

[1] - يراجع، جهاد الترباني، مائة من عظماء أمة الإسلام غيّروا مجرى التاريخ، دار التقوى القاهرة، ط1، 2010، ص 123.

أبيت فعليك إثم الأريسيين. ولم يقل: عليك إثم النصارى، أو المسيحيين. قال تعالى:﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾(آل عمران:199).

4 - **فضاء الجموع**: معروف عند أهل اللغة والنحو، أنّ الجموع صنفان؛ جموع قلة وجموع كثرة، ولهما أوزان مختلفة، وإن كانت أوزان جموع الكثرة أكثر من أوزان جموع القلة. ولكن هناك اختلاف في تحديد عدد أفراد هذه الجموع حتى قال أحدهم:« فإذا لم يكن للمفرد صيغة جمع إلا من صيغ القلة، فإن صيغة القلة، هنا، تُستعمل استعمالاً عاماً، فتصلح للتعبير عن القليل والكثير. وإذا لم يكن للمفرد صيغة جمع إلا من صيغ الكثير، فإن صيغة الكثرة، هنا، تُستعمل استعمالاً عاماً، فتصلح للتعبير عن القليل والكثير »[1]. وفيما يلي عينات من هذه الجموع.

4 - 1 - **أبناء، وبنون**: ترد عبارة "**يا بني إسرائيل**"، و"**يا بني آدم**"، و"**يا بَنِيّ**"، وليس: يا أبناء آدم، أو يا أبناء إسرائيل، ويا أبنائي. بينما ترد عبارة: "أبناء الله"(على لسان بني إسرائيل)، "أبناءنا"، "أبناءكم"، "أبنائهن"، "بني إخوانهن"، "أبناء إخوانهن"، "أبناء أخواتهن"، "بني أخواتهن". وترد مفردة "بنون" في الخطاب المكي. أما "أبناء" فترد في الخطاب المدني، مثل قوله سبحانه:﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ**﴾(النور:31)، و﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾(غافر:25)، و﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾(المائدة:18)، و﴿**لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ**﴾(الأحزاب:55).

يقول السيوطي في وزن "أفعال":« يطّرد في اسم ثلاثي لم يطّرد فيه أفْعُل، وهو فَعْل المعتل العين، كسيْف، أسياف، وثوْب وأثواب. وغير وزن فَعْل من أوزانه: كحِزب أحزاب، وصُلب وأصلاب... وعُنُق وأعناق. وأما فَعْل المطّرد فيه أفعُل، فلا يأتي فيه أفعال إلا نادراً، كفرخ أفراخ »[2]. ومعنى الجملة الأخيرة أن الأسماء الثلاثية التي على وزن "فَعْل" يكون جمعها على "فِعال" عادة مثل: نَعْل، نِعال. سهْم، سِهام. ما عدا المثال الذي ضربه المؤلف وهو فَرْخ، فِراخ، وأفراخ. وقد ورد هذا الجمع في شعر الحطيئة وهو يستعطف عمر بن الخطاب قائلاً:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر.

ولم يقدّم السيوطي لنا تفسيراً لهذا الوزن، إذ لا بد من أن تكون له دلالة خاصة، مختلفة ولو قليلاً عن بقية الأوزان الأخرى، كما هي الحال مع أوزان صيغ المبالغة وأوزان الصفة المشبهة.

---

[1] - رضا هادي حسون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، ص241.

[2] - السيوطي، همع الهوامع، في شرح جمع الجوامع، ج3، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1998، ص309.

ولا يرد لفظ "**الأبناء**" إلا مضافاً، إلى ضمير "هم"، أو ضمير "كم"، أو إلى اسم موصول، أو اسم جنس، كما في قوله تعالى:﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾(المائدة:18)، ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ**﴾(النور:31)، وهنا نجد مزجاً بين جمع "أبناء" وجمع "بنون" مضافين إلى ضمائر وإلى أسماء ظاهرة.

وهذه بعض الآيات الدالة على توظيف لفظ "أبناء" مضافاً، قال تعالى:﴿**لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا**﴾(الأحزاب: 55)، ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾(غافر:25)، ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾(البقرة:49)، ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ**﴾(الأحزاب:4)، ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾(البقرة:146)، ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ**﴾(القصص:4).

وقد تتخلف القاعدة في بعض المواطن، فترد "بنو" محل "أبناء"، أو العكس. يقول فاضل السامرائي:« ومن ذلك استعمال (بني) و(أبناء) فهو يستعمل مرة (بني)، ومرة (أبناء)، وذلك نحو قوله تعالى:﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾[النور:31]. وقوله في سورة الأحزاب:﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾[الأحزاب:55]. وههنا سؤالان: لِمَ قال في آية الأحزاب:﴿وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾. وقال في آية النور:﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فاستعمل مرة (بني) ومرة أبناء؟

والسؤال الثاني: لِمَ قال في آية الأحزاب:﴿وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾، ولمْ يقل ﴿ولا بَنِي إِخْوَانِهِنَّ ولا بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ كما في النور؟ والجواب عن السؤال الأول أنّ لفظة (بني) تدل على الكثرة وأنها تشمل أكثر مما يشمله الأبناء، نحو بني آدم وبني إسرائيل، ولذلك يستعمل القرآن (بني آدم) لمجموع البشر، و(بني إسرائيل) لهؤلاء القوم على مر العصور، ولم يستعمل أبناء آدم ولا أبناء إسرائيل »[1].

ويبدو هذا التخريج مقبولاً، إذ يطّرد مفهوم كلمة (بنو) في كل القرآن الكريم. وهذا الأمر نفسه الذي نلحظه في استخدام القرآن لمثل هذه الألفاظ؛ شبه المترادفة، التي تنحو منحى خاصاً تميّز به الأسلوب القرآني. غير أنّ جمع

[1] - فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص93 - 94.

السالم لا يختص بالكثرة، ولا بالقلة كما رأى سيبويه، بل« الرأي الأرجح أن جمعي التصحيح لا يختصان بالقلة وإنما يصلحان للقلة والكثرة. عند خلو الكلام من قرينة تعين الجمع لأحدهما دون الآخر »[1]. وبالعودة إلى دلالة الجموع في الصرف العربي، يتبيّن لنا أنّ وزن "أفعال" يدل على القلة [2]، ووزن "فَعُول" يدل على الكثرة. لأنّنا حين نقول (أبناء آدم) ينصرف المعنى إلى أبنائه الذين هم من صلبه؛ أي قابيل وهابيل وإخوتهما وأخواتهما. وكذلك الأمر حين نقول (أبناء إسرائيل)، إذ ينصرف المعنى إلى أبناء يعقوب عليه السلام؛ أو الأسباط كما يُعرفون في القرآن وفي التاريخ. فهل نستطيع القول - بعد هذا - إنّ طه حسين قد سها عن هذا المعنى حين سمّى كتابه "الفتنة الكبرى (عليّ وبنوه)" بدلاً من أن يسمّيه (علي وأبناؤه)؟ لأنّ المقصود من لفظ "بنوه" في هذا الكتاب الحسن والحسين فقط، والفتنة التي كانت في زمانهما كانت مع الحسَن ومعاوية، والحسين ويزيد بن معاوية.

غير أنّ التعبير القرآني لم يستعمل النداء مع لفظ "أبناء"، كما فعل ذلك مع لفظ "بنون"؛ فلم يقل: يا أبناء آدم، أو يا أبناء إسرائيل. ولكن إذا كان النداء من الأب إلى أبنائه جاز أن يقال يا بَنِيّ مثل قوله تعالى:﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾(البقرة:132)، ﴿**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ**﴾(يوسف:67). وكأنّ القائل يريد أن يبلّغ رسالته، ويصل طلبه إلى أبنائه الذين هم من صلبه، وإلى أحفاده أيضاً، على سبيل التغليب، كما قد يطلق اسم الآباء على الآباء والأجداد معاً.

وفي خلاصة هذا الموضوع نقول: إنّ لفظ "بنون" يحمل دلالة الكثرة مع العموم، ولفظ "أبناء" يحمل دلالة القلة - مقارنة بالأول - ودلالة الخصوص. علماً بأنّ لفظ "بنون" يدرجه النحاة تحت مصطلح "الملحق بجمع المذكر السالم"؛ والمذكر السالم يدل على القلة لا على الكثرة. ولذلك قال الله تعالى:﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ**﴾(الشعراء:52 - 54). فجمع لفظ "قليل" على "قليلون"، لا على "قلّة". ومن ثَمّ، فقد أراد أن يجمع دلالة القلة بالمعنى الصرفي وبالمعنى المعجمي، فتكون الدلالة كاملة مطابقة لحال القوم، لأنّ عبارة ﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ**﴾ تُرجِمت عن كلام فرعون، الذي عبّر بها عن حال قوم موسى، للتقليل من شأنهم، والانتقاص من مكانتهم. ومن ثمّ يوهم جنوده بسهولة الإمساك بهم، فلا يترددون في متابعتهم واللحاق بهم لكي يردّوهم إلى المدينة.

4 - 2 - **أرباب، ربّانيون، ربّيون:** وردت هذه المصطلحات، بالشكل التالي في ثلاث سور مدنية هي: آل عمران والمائدة والتوبة. وقد كثر ذكرها في القرآن المدني، وذلك لأجل الرد على أهل الكتاب الذين غالوا في دينهم، وجعلوا للإنسان ما لم ينزّل الله به من سلطان؛ مثلما فعل اليهود مع عزير، والنصارى مع عيسى عليه السلام. إلا أن لفظ "أرباب" ورد في سورة مكية واحدة هو قوله تعالى:﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ**﴾ (يوسف:39).

---

[1] - عباس حسن، النحو الوافي، ج4، ص 632.

[2] - أوزان القلة هي: أفعال: كأنماط، وأفعلة: كأندية، وفِعلة: كفتية، وأفعُل: كأشهر. ينظر، المرجع نفسه، ج4، ص629

وفي الفرق بين "الربّانيون" و"الربّيون" نجد أنّ:« الرِّبِّيُّ: العَارِفُ بِالرَّبِّ »[1]. و« الربّي: منسوب إلى الربة وهي الجماعة »[2]. أما الربّاني فهو:« نسبة إلى الرب سبحانه وتعالى وقويت النسبة بزيادة الألف والنون، ومعنى هذه النسبة إلى الله تعالى يتضمن أنوارا يتخلق بها المؤمن»[3]، من إخلاص لله، وتنفيذ لأحكامه، وإيمان راسخ، وغيرها. و«{رِبِّيُّونَ} أي ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب، و"ربّيون" أيضا تعني أتباعا يقاتلون، و"ربّيون" يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهي مثل "الربانيين"»[4]. و« الرباني: العالم الراسخ في علوم الدين وجمعه ربانيون »[5]. و«(الرِّبِّيّون) جَمْعُ رِبِّيّ وَهُوَ الْمُتَّبِعُ لِشَرِيعَةِ الرَّبِّ مِثْلُ الرَّبَّانِيِّ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَتَلَامِذَةُ الْأَنْبِيَاءِ »[6].

أما لفظ "الأرباب" فيتعلق أساساً بالعقيدة؛ أي يرد في مقام الرد على الذين يتخذون غير الله الواحد معبوداً لهم، كما ورد في سورة يوسف. أما بقية الآيات فمدنية؛ وهي:﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾(آل عمران:64)، ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا**﴾(آل عمران:80)، ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾(التوبة:31). وبناء على ذلك، فالأرباب - إذا كانت بمعنى العبودية - صفة غير سوية في البشر، إذ لا يجوز بحال أن يدعي بشر أنه ربّ للعباد، أما الربّيون فصفة محببة، ومطلوبة في الناس، لأنها تقرّبهم من رب العباد الذي لا رب سواه.

والظاهر أنّ اتخاذ المخلوقين أرباباً من دون الله، عادة قديمة مستحكمة في الناس، وأنّ اليهود والنصارى من أكثر الناس شهرة في هذه المسألة، لذلك كثر الحديث عنهم بالذات في هذه العقيدة، فورد الكلام عنها في القرآن المدني على الخصوص. أما في العهد المكي فلم يكن للعرب مثل هذا التصرف، إنما كانوا يشركون بالله في العبادة، وليس في الربوبية. وفي هذا تنبيه، وتلميح إلى الجانب التاريخي في هذه المسألة عند العرب، وعند أهل الكتاب.

4 - 3 - **نساء، نسوة:** هما جمعان للفظ "امرأة"،« والنساء والنسوان والنسوة جمع المرأة من غير لفظها »[7]، أحدهما جمع قلة (نسوة)، والآخر جمع كثرة (نساء)؛ والأول ورد في القرآن المدني على الخصوص، ما عدا موضعين من القرآن المكي، عند الحديث عن قوم لوط تحديداً. أما صيغة "نسوة" فوردت مرتين في سورة يوسف عليه السلام؛ في قوله تعالى:﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا**﴾(يوسف:30)، و﴿**قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾(يوسف:50). وهو جمع القلة الذي لا يتعدى عدد أفراده العشرة، وقد جاء في التفاسير أن عدد

---

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص382.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص165.

[3] - محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج3، ص1290.

[4] - الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، ج3، ص1806.

[5] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص165.

[6] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص118.

[7] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص426.

هؤلاء النسوة كان خمسة؛ وهنّ امرأة الخباز، وامرأة الساقي، وامرأة البواب، وامرأة السجان، وامرأة صاحب الدواب[1]. فيكون القرآن بذلك قد أرّخ لتلك الأحداث بدقة كبيرة حين وظّف "نسوة" بدلاً من "نساء". لأنّ اللواتي لُمْنَ امرأة العزيز لم يكنّ كثيرات، إذ من تجرؤ على الحديث عن امرأة ذات منزلة في الدولة، من غير أن تخشى على نفسها من العقاب، إلاّ من كانت في مثل مرتبتها، وهنّ قليلات بالضرورة؛ أي أنّ هؤلاء "النسوة" كنّ من الطبقة الاجتماعية التي منها امرأة العزيز ذاتها، وقد كنّ في المدينة وليس خارجها.

أما صيغة "نساء" فوردت ثماني وثلاثين 38 مرة في فضاء التشريع على الخصوص؛ من خطبة، ونكاح، وميراث ومعاملات أخرى، ولذلك وردت في ست وثلاثين 36 آية، أما الآيتان الأخريان فكانتا تتحدثان عن قوم لوط، قال تعالى:﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ**﴾(الأعراف:81)، وقال عز وجلّ:﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ**﴾(النمل:54 - 55).

وأما صيغة "نِسوان" فلم ترد مطلقاً في الخطاب القرآني، وكأنها لا تلائم أي مقام من مقامات الخطاب الموجّه للناس، ولا تصلح لتأدية أي غرض من أغراض الفكر، أو التشريع، أو التاريخ، أو الواقع، أو الاجتماع، أو غير ذلك من الأغراض والمعاني، فقد أعرض عنها التعبير القرآني كلياً، كما فعل مع كثير من الصيغ والمفردات الأخرى. قال ابن عاشور:« النِّسْوَةُ: اسْمُ جَمْعِ امْرَأَةٍ لَا مُفْرَدَ لَهُ، وَهُوَ اسْمُ جَمْعِ قِلَّةٍ مِثْلُهُ نِسَاءٌ »[2]، ولكن الخطاب القرآني لا يستعمل صيغة "نسوان" كما يستعمل صيغتيْ "نساء"، و"نسوة"، وإن كانت هذه المفردات الثلاث - بصيغها المختلفة - تدل على المفهوم نفسه بصورة عامة. فهي جميعها جمع "امرأة"، وليس لهذه الجموع مفرد من جنسها؛ أي لا تجمع على: امرآت، ولا على غيرها.

وخلاصة هذا كله؛ أنّ التعبير القرآني يوظّف من المفردات اللغوية ما يتلاءم مع المعاني المقصودة، ومع الدلالات الموظّفة في فضاءات خاصة ومحددة المسار. فقد وظّف بعض الألفاظ بنسبة كبيرة في الخطاب المدني؛ مثل حرج، وجناح، وغيرهما، ولم يوردهما ولو مرة واحدة في الخطاب المكي، والعكس صحيح. وهذا هو الاستخدام الذي نعجز - أحياناً - حتى عن الاقتراب من مغزاه، ومن الحكمة التي وراءه، لاسيما مع بروز بعض الاستثناءات التي قد تخرق القاعدة العامة، المتوخاة من توظيف مفردات القرآن الكريم بصفة عامة.

وفي الفصل اللاحق والأخير، سنعرض لعيّنات لفظية أخرى موظّفة في الخطابين المكي والمدني معاً، وسنختار منها ما يوضح الصورة التي اعتبرناها ميزة ثابتة المعالم؛ التي سمّيناها باسم "الفضاء"، والتي تحمل في ذاتها دلالة خاصة مطّردة في كل السياقات القرآنية إلا قليلا. وسيكون انتقاؤنا لهذه العيّنات بناء على المفردات التي تفرض نفسها كعيّنات بارزة في الخطابين، والتي تكون دليلاً واضحاً على هذا النسيج المميز في توظيف التعبير القرآني لألفاظ اللغة.

---

[1] - يراجع الزمخشري، الكشاف،ج2، ص462. والألوسي، روح المعاني، ج6، ص416. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص176.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص259.

الفصل الرابع: فضاءات المفردة القرآنية الواردة في الخطابيْن المكي والمدني معاً

المبحث الأول: فضاء المجال الاجتماعي.

المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية (المترادفة) .

المبحث الثالث: فضاء الثنائيات الضدية.

المبحث الرابع: فضاء المنظومة اللفظية المتشابهة

المبحث الخامس: فضاء مفردات التنوع الصرفي للمادة الواحدة

1 - فضاء المصادر

2 - فضاء المشتقات

3 - فضاء الجموع

يمثل هذا الفصل حلقة اتصال بين الخطابين المكي والمدني؛ لكون مفرداته تحمل صفاتهما على السواء، وهي المفردات التي لا وطن لها، ولا زمن محدداً؛ بحيث تصلح لكل الأوقات، ولكل من ينطق بالعربية. وهي ليست مصنفة في فضاءات دلالية معرفية؛ مثلما رأينا في الفصلين السابقين، لأنها تشمل ذلك جميعاً، فجنحنا إلى تسمية أكثر شمولاً، ثم نبّهنا على الفضاء الذي وردت فيه، وعلى نوع الخطاب كذلك. وتأويل هذا الأمر هو أنّ القرآن الكريم شاهد على عصره، وعلى ما بعد عصره، وأن العيّنات اللفظية المختارة عابرة للزمان والمكان. فالعينات التي طبعت العهد المكي كانت لحكمة، وضرورة، وكذلك الأمر في عينات العهد المدني. أما العينات الأخرى فنجدها في الخطابين معاً، وذلك لأنّ بعض المفردات تحمل طابع الشمولية والعموم، مثل الأسماء التالية: "الله"، "الناس"، "الرجال"، "النساء"، "الليل"، "النهار"، و"الصباح"، "المساء"، والأفعال مثل "قال"، و"جاء"، و"رجع"، و"أكل"، و"شرب"، ومشتقاتها، وأسماء الأعداد، وغير ذلك. فهذه المفردات وأمثالها لا يكاد يخلو منها خطاب، ولا كلام، ولا حديث؛ قديماً وحديثاً. وبمعنى آخر لا يمكن إنتاج كلام - مهما كان نوعه - من غير استعمال مثل هذه المفردات. غير أن المزية تكمن في تواتر هذه المفردات في خطاب ما، أو عند كاتب معيّن، وبصيغ مختلفة عند هذا وذاك.

وأول ما يطالعنا في مفردات هذا الفصل الخاص بالخطابين؛ المكي والمدني معاً، هو فضاء مفردات المجال الاجتماعي، لأنه هو مناط التشريع، وأساس الدين في الحياة اليومية للناس، بناء على ما ورد في الأحاديث النبوية التي تقرر أهمية السلوك الاجتماعي، وتجعله في كثير من الأحيان لبّ الدين.

المبحث الأول: فضاء المجال الاجتماعي.

نعثر في هذا الفضاء على جملة من المفردات الدالة على أخلاقيات كثيرة، دعا إليها القرآن الكريم في كل الرسالات، وأمر بها كل الأقوام على لسان أنبيائهم. وذلك لأنها تعتبر من المبادئ التي لا تتغيّر على مر العصور، وفي مختلف الأمكنة. وبعض هذه المفردات صار مصطلحات إسلامية خالصة؛ مثلما نجد في المواد التالية.

I - **فضاء مفردات السلوك**: ونعرض فيه لكثير من الأخلاقيات الحسنة، والأخلاقيات السيئة على السواء، وألفاظها - عادة - هي نفسها الدالة على الأخلاق التي كان القرآن الكريم يدعو إلى بعضها، وينهى عن بعضها الآخر، منذ أن كان الرسل والأنبياء يرُسَلون إلى أقوامهم. ومن هذه السلوكات - أقوالاً كانت أم أفعالاً - ما صار إسلامياً بحتاً، واندثر معناه اللغوي الأصل، مثل: التقوى، والجهاد، والزكاة، وغيرها، وبعضها بقي كما هو، لعدم اختلافه على مرّ العصور، مثل: الكذب، والصدق، والخير، والشر، والمعروف، والمنكر، وغيرها.

وقد سمّى بعض الباحثين مثل هذه الألفاظ بالألفاظ الجامعة وقال:« وقد استعمل الشارع جملة من هذه الألفاظ باعتبارها أسماء جامعة. فمنها على سبيل المثال: العبادة، التقوى، البر، الإحسان، الإيمان، الإسلام، المعروف، المنكر، الحسنة، السيئة، الإثم، الفحشاء، التوبة وغيرها، وبعض هذه الأسماء يختلف معناها عند الانفراد عنه عند الاقتران »[1]. وهي القاعدة المتعلقة ببعض المفردات ذات التقارب الدلالي؛ أو الألفاظ "المترادفة"، والتي مفادها أنّ مثل هذه الألفاظ إذا وردت منفردة في السياق القرآني، فقد تدل على مفهوم واحد، أو على معنى متقارب، أو مشابه. بمعنى أنه إذا وردت لفظة "إثم" - على سبيل المثال في سياق ما - فُسِّرت على أنها الفاحشة، أو الذنب، أو نا شابههما. أما إذا وردت في السياق نفسه مع غيرها من الألفاظ المتقاربة المعنى، ولاسيما إذا كانت معطوفة؛ ففي هذه الحال تأخذ كل لفظة مدلولاً خاصاً، لأنّ العطف لا يكون على الشيء ونفسه، إنما على الشيء ومغايره.

أ - **الأخلاق الحسنة**: نجد لها مصطلحات محددة، ومتشابهة، ومتداخلة فيما بينها مثل: التقوى، الصالحات، الخيرات، البر. وهي تتمظهر في الخطابين معاً كما يلي:

1 - **التقوى**: هو مصطلح إسلامي جديد، بالنسبة إلى العقلية العربية آنذاك. وقد ورد مائتين وثمان وخمسين 258 مرة بكل مشتقاته؛ فعلاً، واسم فاعل، ومصدراً في الخطابين المكي والمدني معاً. وجاء منفرداً؛ أي ليس في مقابل لفظ آخر، مرادف له، أو مضاد؛ كما في ثنائيات الخير والشر، أو الجنة والنار، أو المعروف والمنكر.. إخ. إلا في قوله تعالى:﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾(ص:28)، فقد قرن لفظ "المتقين" بلفظ "الفجار". وواضح هنا أنّ القرآن يوازن بين مصطلحين يعتبران قمة في الأخلاق؛ فالتقوى« اسم بمعنى الاتقاء وأصله وقياً فأبدلت الواو تاء والياء واوا والتقوى في لسان الشرع: اتقاء عذاب الله وذلك بامتثال أوامره

[1] - عبد العزيز بن عبد الله السحيباني، جوامع كلم القرآن، وشواهد الإعجاز، جامعة محمد بن سعود، السعودية، ط1، 2008، ص115.

واجتناب نواهيه »[1]، والتقوى قمة الإيمان، والفجور قمة الفساد الذي هو« التمادي في العصيان والإغراق في المنكرات »[2]. وورودهما في الخطاب القرآني بهذا الشكل، لاعتبار التقوى أفضل خصلة يمكن أن يتحلّى بها المرء المسلم المؤمن، والفجور أسوأ صفة يمكن أن يتصف به الكافر، والمنافق.

وجاء في لسان العرب:« تَوَقَّى واتَّقى بِمَعْنَى. وَقَدْ تَوَقَّيْتُ واتَّقَيْتُ الشَّيْءَ وتَقَيْتُه أَتَّقِيه وأَتْقِيه تُقًى وتَقِيَّةً وتِقاء: حَذِرْتُه... وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ؛ أَي جَزَاءُ تَقْواهم، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَلهَمَهُم تَقْواهم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ؛ أَي هُوَ أَهلٌ أَن يُتَّقَى عِقابه وأَهلٌ أَن يُعمَلَ بِمَا يُؤَدِّي إِلى مَغْفِرته »[3]. كما أنّه« جعل التقوى لباسا على طريق التمثيل والتشبيه، قال تعالى:﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾[الأعراف/26] »[4].

وقد تنوّعت صيغ هذه المادة؛ من فعل(في كل الأزمنة)، واسم فاعل، ومصدر(تقوى، وتقاة)، و« التقاة: التقوى وأصل التقاة وقية فقلبت الواو تاء والياء ألفا فالتقاة: اتقاء الله عز وجل واتقاء عذابه وهي أيضا ما يخشى ويخاف وقد تطلق على اتقاء المكروه من الناس »[5]. وتكررت "التقوى" في الخطابين معاً، أكثر من 280 مرة، للدلالة على قيمتها القصوى في حياة الناس الدينية. قال تعالى:﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾(البقرة:183)، ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾(الشعراء:105 - 106)[6]. بل حتى في دعوة القرآن الناس إلى اجتناب عذاب النار، فإنه يستخدم فعل اتقى، فيقول مثلاً:﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾(البقرة:27)، ﴿**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾(آل عمران:131). فالتقوى مطلوبة في كل الأحوال؛ الشرعية منها، والعقائدية، والسلوكية.

غير أنّ القرآن الكريم لم يستخدم صيغة "اتقاء"، مع أنّ الفعل الذي تشتق منه "التقوى" خماسي؛ وهو الفعل "اتّقى"، إنما استخدم منه اسم المصدر فقط، وجاء على صيغتين هما: التقوى، والتقاة. قال جل وعلا:﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾(آل عمران:28)، وقال:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾(آل عمران:102)، وقال:﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾(الشمس:7 - 8). أما مصدر "الاتّقاء" فلم يرد بتاتاً في كل القرآن؛ لأن لفظ "التقوى" أصبح اسم علَم، وصار اصطلاحاً إسلامياً خفيفاً في النطق، وذا دلالة قوية على المفهوم، أكثر من أيّ صيغة أخرى، بما فيها مصدر"تقاة" الذي وُظِّف مرتين فقط في سورة آل عمران وحدها. وفي ذلك دلالة على تفرّد التعبير القرآني في توظيف المفردات بالشكل الذي يختاره، وبالتصريف الذي ينتقيه، بحيث لا نجد أفضل منه، ولا أكثر دلالة على معاني القرآن سواه.

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، ج5، ص267.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص27.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص412.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص330.

[5] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص267.

[6] - وقد تكررت هذه الآية بألفاظها مع طائفة من الأنبياء، مثل: هود، صالح، لوط، شعيب، وإلياس، عليهم السلام.

2 - **الصالحات**: إنه مصطلح كثير التردد في القرآن الكريم، ورد في القرآن المكي والمدني على السواء، لأنه يعتبر نواة المعاملات في هذه الدنيا، وهو المغرس الذي تُجنى منه الحسنات في الآخرة. ورد بصيغة الجمع، 63 مرة، وفي بعض المواضع يرد مسبوقاً بحرف الجر "من"؛ أي {من الصالحات}. وورد أيضاً بصيغة المفرد؛ أي "صالحاً" 31 مرة. ورد بصيغة الفعل أيضاً. وعادة ما يرد منفرداً، غير مقترن بضده؛ إلاّ في بعض الآيات حيث نجد هذا المصطلح مقترناً بمصطلحين آخرين هما: السيئات، والفساد.

قال الأصفهاني في هذا الموضوع:« الصلاح: ضد الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة... في مواضع كثيرة. والصلح يختص بإزالة النفار بين الناس، يقال منه: اصطلحوا وتصالحوا، وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحا، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح »[1]. وقال أيضاً:« الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة »[2]. وقال ابن منظور:«صَلَحَ: الصَّلاح: ضِدُّ الْفَسَادِ؛ صَلَح يَصْلَحُ ويَصْلُح صَلاحاً وصُلُوحاً..وَهُوَ صَالِحٌ وصَلِيحٌ ..، وَالْجَمْعُ صُلَحاءُ وصُلُوحٌ؛ وصَلُح: كصَلَح، .. وَرَجُلٌ صَالِحٌ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَوْمٍ صُلَحاء ومُصْلِح فِي أَعماله وأُموره، وَقَدْ أَصْلَحه اللَّهُ، وَرُبَّمَا كَنَوْا بِالصَّالِحِ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ إِلى الْكَثْرَةِ »[3]. وجاء في مقاييس اللغة:«(صَلَحَ) الصَّادُ وَاللَّامُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْفَسَادِ. يُقَالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلَاحًا. وَيُقَالُ: صَلَحَ بِفَتْحِ اللَّامِ. وَحَكَى ابْنُ السِّكِّيتِ صَلَحَ وَصَلُحَ. وَيُقَالُ: صَلَحَ صُلُوحًا... وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ مَكَّةَ تُسَمَّى صَلَاحًا »[4].

غير أن القرآن لم يستخدم مصدر "صلاح"، بل مصدر "إصلاح"، ولم يستخدم اسم الفاعل "فاسد"[5]، إنما إنما استخدم صيغة "مُفسد" المأخوذة من الفعل الرباعي"أفسد". لأنّ مناط الأمر هو انتقال صفة الفساد من الشخص إلى غيره، ولا يكون ذلك باستخدام الفعل الثلاثي "فسد"، إنما يكون بتوظيف الفعل الرباعي منه. ولم يرد في القرآن مصدر "إفساد"، وهو المصدر الصريح لفعل "أفسد"، إنما ورد اسم مصدره "فساد" فحسب. كما في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾**(البقرة:205)، **﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾**(المائدة:32)، **﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾**(هود:116)، **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾**(الروم:41).

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص587

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص192.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص516.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص303.

[5] - في الواقع، يعتبر لفظ "فاسد" صفة مشبهة في المعنى، وهو اسم فاعل في الوزن، والشكل فقط. لأن الصيغة مأخوذة من فعل لازم ثلاثي "فسد"، وتدل على وصف ثابت نسبياً، وهذان الشرطان من خصائص الصفة المشبهة.

ومما يلاحظ أن صفة "صالحاً " ترد دائماً منفردة، إلا في ثلاثة مواضع حيث وردت متصلة بلفظ "عمل"، فقال تعالى:﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا**﴾(الفرقان:70)، وقال أيضاً:﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا**﴾(الكهف:110)، ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ (التوبة:102). أما بقية الآيات فترد فيها منفصلة عن لفظ "عمل"، مثل قوله تعالى:﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾(طه:82). وكأنّ ذلك إيحاء، وإشارة إلى أنّ الصالح والصلاح، لا يكونان إلا في الأعمال، أو أنّ المهم في صفة الصلاح أن تكون مرتبطة بالعمل، فلا حاجة لذكر الموصوف، لأنه مضمّن في القول، أو معلوم بالضرورة بحسب لغة علماء الأصول.

ونستثني في هذا المجال الآيات التي ورد فيها لفظ "صالحاً" بمعنى مخالف، وذلك حين قُصِد به النبي "صالح" عليه السلام، أو حين يرد صفة للإنسان، كأبي الغلامين الذي كان "صالحاً". وفي مثل هذه الحالات نجد أنّ التعبير القرآني يردف لفظة أخرى تدل على المعنى المقصود من اللفظة المشار إليها، حتى لا يتوهّم السامع شيئاً آخر.

أما صيغة الفعل، فكثيراً ما ترد في الماضي المفرد مثلقوله تعالى:﴿**فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ**﴾(المائدة:39)، ﴿**فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾(الأنعام:48)، ﴿**مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(الأنعام:54)، ﴿**فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (الأعراف:35)، ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾(الشورى:40). أما الماضي بصيغة الجمع فيُسبق بلفظ "تابوا"، ويرد في الخطاب المدني أكثر مثل:﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾ (البقرة:160) ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(آل عمران:89)، ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ**﴾(النساء:146)، ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(النحل:119)، ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(النور:5). لكون التوبة مطلوبة من الذي عرف الحق، وآمن به، ثم وقع في الأخطاء، والذنوب والمعاصي، لذا كثر هذا المصطلح في الخطاب المدني، أما الكافر فمطلوب منه الإيمان والتصديق؛ لا التوبة.

أما إذا كان لفظ "أصلحوا" بصيغة الجمع في المضارع فيُسبق عادة بلفظ "المفسدين" ولم يرد إلاّ في الخطاب المكي، مثل قوله عز وجلّ:﴿**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾(الشعراء:151 - 152)، ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾(النمل:48). ولعل في ذلك دلالة على أن الأقوام الماضين كانوا أشد فساداً وعناداً، وكانوا يجاهرون بذلك، بل ويدعون إليه. أما المنافقون ومن شابههم فلا يجهرون بنياتهم، إنما يخفون ما يريد تحقيقه.

3 - **الخيرات**: ورد هذا اللفظ في عشر آيات من المكي والمدني، وورد معرّفاً بأل في تسع آيات، تدل على معنى الخير. وورد مرة واحدة نكرة في قوله تعالى:﴿**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**﴾ (الرحمان:70- 71)، دالاً على شيء آخر. قال ابن عاشور:« وخَيْرَاتٌ صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ يُنَاسِبُ صِيغَةَ الْوَصْفِ، أَيْ نِسَاءٌ خَيْرَاتٌ، وَخَيْرَاتٌ مُخَفَّفٌ مِنْ خَيِّرَاتٍ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ مُؤَنَّثُ خَيِّرٍ... وَخَفَّفَ فِي الْآيَةِ طَلَبًا لِخِفَّةِ اللَّفْظِ مَعَ السَّلَامَةِ

من اللَّبْسِ بِمَا أَتْبَعَ بِهِ من وَصْفِ حِسانٌ الَّذِي هُوَ جَمْعُ حَسْنَاءَ »[1]. ودليل ذلك هو الآية التالية لها، وهي قوله سبحانه:﴿**حُورٌ مَقْصُورَاتٌ**﴾؛ وهي جملة واقعة بدلاً من جملة ﴿**خَيْرَاتٌ حِسَانٌ**﴾، فدلّت على أن المقصود من لفظة "خيرات" ليس هو نفسه الذي دلّت عليه هذه اللفظة في بقية الآيات الأخر، إنما:« المراد بذلك المختارات، أي: فيهن مختارات لا رذل فيهن »[2]. وفي لفظ "حِسَان" الذي هو جمع تكسير للمؤنث، دلالة على أن المقصود هو شيء غير الماديات، ولا المعنويات، إنما هو من جنس الإنسان، أو ما يشبهه، إنه الأزواج من الحور العين.

أما في الآيات الأخرى، فجاءت هذه اللفظة معرفة "بأل"، فأخذت الدلالة نفسها في كل تلك الآيات. ومثال ذلك قوله سبحانه:﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾(البقرة:148). ﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾(آل عمران:114). ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾(المائدة:48). ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾(الأنبياء:90). قال ابن عاشور:« والخيرات جَمْعُ خَيْرٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ كَمَا قَالُوا سُرَادِقَاتٍ وَحَمَّامَاتٍ. وَالْمُرَادُ عُمُومُ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا فَإِنَّ الْمُبَادَرَةَ إِلَى الْخَيْرِ مَحْمُودَةٌ »[3]. وقال الراغب:« الخير: ما يرغب فيه الكل، كالعقل مثلا، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضده: الشر »[4].

والملاحظ في جلّ هذه الآيات أنّ التعبير القرآني يربط هذه اللفظة بلفظتين أخريين من مادة "سرع"، أو مادة "سبق" ليضيء لها فضاء "الخيرات" المقصود، ويحدد مسارها الاجتماعي، والسلوكي. وقد رأينا أنّ القرآن الكريم لا يصنع مثل ذلك مع لفظة "الصالحات". وكأنّ الصالحات غير الخيرات في جانب من جوانب الدلالة الاجتماعية أو النفسية، أو الشرعية.

ونلاحظ كذلك استخدام القرآن لمفردتين من المادة نفسها، للدلالة على أمرين مختلفين؛ فقد استخدم لفظ "خير" ولفظ "خيرات" الذي هو« جَمْعُ خَيْرٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ كَمَا قَالُوا سُرَادِقَاتٍ وَحَمَّامَاتٍ. وَالْمُرَادُ عُمُومُ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا فَإِنَّ الْمُبَادَرَةَ إِلَى الْخَيْرِ مَحْمُودَةٌ »[5]. وهي أيضاً:« الخيرات جمع خيرة - بالتخفيف - وهي الصالحة الفاضلة من الناس والأمور »[6]. وذلك أنّ الله تعالى يمكن أن يعطي العبد الكافر من الخيرات، كما يعطي المؤمن تماماً. قال تعالى:﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ**﴾(المؤمنون:55 - 56)، ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ**﴾(الأنبياء:73). أما "الخير" بصيغة المصدر المفرد، فله شأن آخر، إذ يدل على ما تعارف عليه الناس؛ من كل ما ينفع الإنسان في حياته، كما يظهر ذلك قوله سبحانه:﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**﴾(آل عمران:104)، ﴿**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ**﴾(الأعراف:188)، ﴿**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**﴾(يونس:11). ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ**

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص325.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص329.

[3] - المرجع نفسه، ج2، ص43.

[4] - نفسه، ج1، ص327.

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص43.

[6] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص177.

UNIVERSITE SETIF2

وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾(الحج:77)، ﴿**لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ**﴾(فصلت:49). فالخير - هنا - ما ينفع الناس في حياتهم من عبادة وتقرب إلى الله على وجه الخصوص، ومثل هذا كثير في الخطابين معاً.

ب - **الأخلاق السيئة:**

لقد وردت في هذا الفضاء المفردات التي وظّفها القرآن الكريم في كلا الخطابين، بمفهوم عام وبمفهوم خاص في آن واحد. ومن ذلك الألفاظ التي سنعرض لها فيما يلي:

1 - لفظة "**فاحشة**": وردت بمفهوم عام، في كون« الفُحْش والفَحْشاءُ والفاحِشةُ القبيحُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَجَمْعُهَا الفَواحِشُ. وأَفْحَشَ عَلَيْهِ فِي المِنْطِق أَي قَالَ الفُحْش. والفَحْشاءُ: اسْمُ الْفَاحِشَةِ... والمتَفَحِّشُ الَّذِي يتكلَّفُ سَبَّ النَّاسِ ويتعمَّدُه، وَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ الفُحْش وَالْفَاحِشَةِ وَالْفَاحِشِ فِي الْحَدِيثِ، وَهُوَ كُلُّ مَا يَشتد قُبْحُه مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي »[1]. ومعنى ذلك أنّ الاستخدام الاجتماعي، وفي المواقف المتنوعة، هو الفيصل في تحديد الدلالة الدقيقة، أو الدلالة الخاصة والمحصّلة. لأنّ مثل هذه الألفاظ يحمل في ذاته الأصلية أكثر من معنى؛ أي أنه في أصل الوضع اللغوي متعدد المعاني؛ غير أنّ ألفاظه كلها تصب في فضاء دلالي واحد في عموم مفهومها. من ذلك أنّ لفظة "فاحشة" تعني - كذلك - ما أورده ابن منظور قائلاً:« وكلُّ أَمر لَا يَكُونُ مُوَافِقًا للحقِّ والقَدْر، فَهُوَ فاحشةٌ »[2]. ولذلك يقال: غِنىً فاحش، أي زائد عن القدْر المطلوب، أو المقبول. أمّا الفاحشة بمعناها الخاص فكثيراً ما ترد بمعنى « بِمَعْنَى الزِّنَا وَيُسَمَّى الزِّنَا فَاحِشَةً، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ »[3].

والواقع أنّ لفظ "فاحشة"، ونظائره؛ "فواحش"، أو "فحشاء"، تتكرر في الخطابين معاً، لأنها من القضايا الاجتماعية والنفسية التي تشترك فيها كل الأقوام، قديماً؛ وحديثاً. وتتحدد دلالة هذه الألفاظ من السياق الموضوعاتي للآيات، فإن كان سياق القصص، وذكر أحوال الأمم السابقة، كانت دلالته عامة في ذلك كله، بحسب واقع القوم الذين يُتحدَّث عنهم، كما في حال قوم لوط عليه السلام. قال تعالى:﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾(الأعراف:80)؛ فالفاحشة هنا هي إتيانهم الذكور، كما هو معلوم، بدلالة قوله تعالى:﴿**مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ**﴾، ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا**﴾(الأعراف:28)، فهي مطلق الإثم. أو هي« اسم جامع لكل عمل أو قول أو اعتقاد تستفظعه الشرائع والفطر لفساده »[4]. وإذا وردت في الخطاب المدني جاءت بمعنى الذنوب الصغيرة أحياناً مثل:﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ**﴾(الأحزاب:30). قال ابن عاشور في هذه الآية:« وَالْفَاحِشَةُ: الْمَعْصِيَةُ، قَالَ تَعَالَى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ[الْأَعْرَاف:33]. وَكُلَّمَا وَرَدَتِ الْفَاحِشَةُ فِي الْقُرْآنِ نَكِرَةً فَهِيَ الْمَعْصِيَةُ وَإِذَا وَرَدَتْ مَعْرِفَةً فَهِيَ الزِّنَا وَنَحْوُهُ »[5].

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج27، ص237.

[2] - المرجع نفسه، ج6، ص326.

[3] - نفسه، ج6، ص325.

[4] - عبد العزيز بن عبد الله السحيباني، جوامع كلم القرآن، وشواهد الإعجاز، ص122.

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص319.

أما الأصفهاني فيقول:« الفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وقال:{**إن الله لا يأمر بالفحشاء**}[الأعراف/28]،{وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون}[النحل/90]، {**من** يأت منكن بفاحشة مبينة}[الأحزاب/30]،{إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة}[النور/19]...{إلا أن يأتين بفاحشة مبينة}[النساء/19]، كناية عن الزنا »[1]. غير أنّ أحد الباحثين جعل الفاحشة مَرْتبة بين معصيتين فقال هي:« صفة تقع بين الإثم والذنب، فهي تدخل ضمن الإثم وتتسع عن مستوى الذنب. وهي كل قبيحة تشيع بين الناس ويصيب أذاها المجتمع بأسره. وأكثر ما يشيع ذكرها مع الزنا »[2]. وقال غيره:« الفحش: الزيادة والكثرة، وتجئ من هذا مجاوزة القدر والحد، وفحش فحشا وأفحش إفحاشا، والفحشاء والفاحشة: ما يشتد قبحه من الذنوب، قولا أو فعلا، وكثيرا ما يراد بالفاحشة الزنا، وجمع الفاحشة فواحش »[3].

ولم يذكر القرآن الكريم "الزنى" بلفظه هذا كثيراً[4]؛ لا في الخطاب والمكي ولا في المدني، وما ورد منه كان إقرارا بأنه ظاهرة غير سوية منذ القدم، أو كان يتعلق بمسألة شرعية؛ فيها حدّ من حدود الله، لأنّه يجب - في هذه الحال - معرفة طبيعة الإثم المرتكب بدقة حتى يقام الحد المخصص لذلك، فلا يعاقب المتهم بالشبهة فقط. أما لفظ "اللواط" فلم يرد مطلقاً. قال ابن منظور:« ولاطَ الرجلُ لِواطاً ولاوطَ أَي عَمِل عَمَل قومِ لُوطٍ. قَالَ اللَّيْثُ: لُوط كَانَ نَبِيًّا بَعَثَهُ اللَّهُ إِلى قَوْمِهِ فَكَذَّبُوهُ وأَحدثوا مَا أَحدثوا فَاشْتَقَّ النَّاسُ مِنِ اسْمِهِ فِعْلًا لِمَنْ فَعَل فِعْلَ قومِه »[5]. ولعل هذا هو السبب في عدم ذكر القرآن هذا المصطلح باسمه ذاك، أو لأنه معلوم عند الناس، فلا يحتاج لذكره صراحة.

وقد ورد لفظ "الفاحشة" أكثر من لفظ "الزنى" بكثير، وبصيغ ثلاث هي:

- صيغة "**فاعلة** "؛ أي **فاحشة**: وقد وردت ثلاث عشرة 13 مرة في القرآن الكريم، ووردت نكرة ومعرفة.

- صيغة "**فعلاء**"؛ أي **فحشاء**: وقد وردت سبع 7 مرات. ولم ترد إلاّ معّرفة بأَلْ، وكأنّ القرآن يشير إلى أنّ هذه اللفظة معروفة عند الناس بمختلف مشاربهم، ومستوياتهم، وفي كل العصور؛ فأتي بها معرفة دائماً. وهذه المواضع هي:﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ**﴾(البقرة:168 - 169)، ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ**﴾(البقرة:268)، ﴿**وإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾(الأعراف:28)، ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ**﴾(يوسف:24)، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾(النحل:90)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص180.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص27.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص245.

[4] - ورد هذا اللفظ ومشتقاته في خمس سور؛ اثنتين مكيتين هما: الإسراء:32، والفرقان:68، واثنتين مدنيتين هما: النور:2 - 3، والممتحنة: 12. وكرر تسع مرات.

[5] - ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص396.

UNIVERSITE SETIF2

وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(النور:21)، **﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾**(العنكبوت:45).

- صيغة "**فواعل**"؛ أي **فواحش**: وقد وردت أربع (4) مرات. وودت كلها معرفة، لأنها جمع فاحشة التي وردت معرفة هي كذلك، إلا قيلاً، وكأنّ الأمر مقصود؛ بحيث إذا جاءت اللفظة في المفرد معرفة دائماً، كان حقّها أن تأتي معرفة في حالة الجمع أيضاً. وهذه - مرة أخرى - هندسة قرآنية كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين. وهذه الآيات هي قوله تعالى:**﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾**(الأنعام:151)، **﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾**(الأعراف:33)، **﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾**(الشورى:37)، **﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾**(النجم:32). وهذه المواضع كلها في القرآن المكي. وتعني كلها ما قبح من الأعمال، وما عظم من الذنوب.

غير أن الاستخدام القرآني للفظة "فحشاء" يلاحظ فيه التركيز على المبالغة في دلالة الأمر المنهي عنه، فما كان أمراً عظيماً مبالغاً في قبحه، عبّر عنه بهذه اللفظة؛ لأنها كثيراً ما ترد مقترنة بلفظ آخر هو نفسه مرادف لها - كما تقرره التفاسير - مثل قوله تعالى:**﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾** (البقرة:168- 169). وقوله في يوسف عليه السلام:**﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾**(يوسف:24)، **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾**(النحل:90)، **﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾**(النور:21)، **﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾**(الشورى:37). فألفاظ "السوء"، و"المنكر" و"البغي" و"الإثم" كلها ذات دلالة واحدة تصب في معنى القبيح من الأعمال والأقوال؛ غير أنّ الفحشاء أشد القبح، وأرذله.

وما يلاحظ في هذا المجال أنّ فضاء الأخلاق السيئة تتعاوره مصطلحات كثيرة تدل عليه، وتحوم في فضائه وهي: المعصية والخطيئة والذنب والجرم والإثم والوِزر. وهي ترد بنوع من التوزيع العجيب، تصاحبها مصطلحات أخرى تسير في فضائها، وتدور في فلكها وهي: التوبة والغفران، والتكفير، والصفح. وذلك ما سنراه بنوع من التفصيل في العنصر التالي:

II- فضاء مفردات المعاصي:

تجتمع في فضاء هذا المصطلح مفردات ثمان هي: معصية، ذنْب، إثم، خطيئة، جُرْم، سيّئة، فاحشة، وِزْر. ولكل مفردة استخدام خاص، وفضاء محدد تسير فيه، وتدل على أمر غير موجود في المفردة الأخرى. ويظهر ذلك من خلال تمظهراتها، ومن خلال الألفاظ التي تتعلق بكل منها. ويقابل هذه المفردات مفردات أخر تعمل عمل المحو أو الإصلاح في مدلول تلك الألفاظ، إذا ارتكبها العبد في حياته؛ وهي: الاستغفار(الغفران، والمغفرة)، والتوبة، والتكفير، والعفو والصفح. ولذلك نجد أنّ كل مصطلح من مصطلحات المحو والتكفير يكاد يختص بواحد من مطصلحات المعاصي، مما يدل على فروق ما في كل واحد منها.

والفرق بين الذنب والجرم والإثم والخطيئة هو أنّ:« الخطيئة تكون من غير تعمّد، ولا يكون الإثم إلاّ تعمّداً، ثم كثر ذلك حتى سمّيت الذنوب كلها خطايا. والاثم هو القبيح الذي عليه تبعة، والذنب هو القبيح من الفعل، ولا يفيد التبعة، ولهذا قيل للصبي: قد أذنب، ولم يقل قد أثم، والأصل في الذنب الرذل من الفعل، كالذنَب الذي هو

أرذل ما في صاحبه »[1]. وجاء في الحديث أن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار. ولم يقل يطفئ الذنب، أو الاثم. وقال أيضاً:« الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »[2]. ولعل الخطيئة تدل على العموم، لكونها مأخوذة من الخطأ، أي ما ليس صواباً، وقد يكون متعمداً أو غير متعمد، ولعلّ الثاني يكون أقرب إلى الصواب والحقيقة. «والخطيئة والسيئة يتقاربان، لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصودا إليه في نفسه، بل يكون القصد سبباً لتولد ذلك الفعل منه، كمن يرمي صيدا فأصاب إنسانا، أو شرب مسكرا فجنى جناية في سكره »[3]. وقال ابن عاشور:« وَالخَاطِئُ: فَاعِلُ الخَطِيئَةِ، وَهِيَ الجَرِيمَةُ. وَجَعَلَهَا مِنْ زُمْرَةِ الَّذِينَ خَطِئُوا تَخْفِيفًا فِي مُؤَاخَذَتِهَا »[4].

إلا أنّ القرآن الكريم في استخدامه المطّرد لمفردة "الخطيئة"؛ سواء كانت مفردة أم جمعاً، لا يظهر - من خلال ذلك - الفرق بين التعمّد في اكتسابها، من غير التعمد. إنما نلمح استخدام جمع خطيئة بصيغتين هما: خطايا على وزن فعائل، وخطيئات على وزن المؤنث السالم. والخطايا أكثر وروداً من خطيئات. فالأولى وردت في قوله تعالى:﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**﴾(البقرة:58)، ﴿**إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا**﴾(طه:73)، ﴿**إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا**﴾(الشعراء:51)، ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾(العنكبوت:12). والثانية وردت في قوله سبحانه:﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ**﴾(الأعراف:161)، ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾(نوح:25). غير أن مفردة "خطيئات" لم ترد على ألسنة العباد المعترفين بذنوبهم، إنما وردت خطاباً من الله تعالى. وكأنّ في ذلك اعترافاً منهم بكثرة خطاياهم وذنوبهم، على اعتبار أن جمع السالم أقل عدداً من جمع التكسير نسبياً.

والملاحظ في هذه المفردات جميعاً هو عدم ورود صيغ فعلية لهذه المصادر، في أيّ زمن كان؛ أي لا نجد هذه الأفعال: أذنب، أو أثم، أو أخطأ[5]، إلاّ قليلا[6]، كما نجد في المقابل مصادرها من ذنب، وإثم، وخطيئة، وسيئة. غير غير أننا نجد فعل "عصى" ولا نجد المصدر منه إلا نادراً، وقد ورد منه صيغتان هما: معصية وعصيان. ولم يرد مصدر عصيان إلاّ مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**﴾(الحجرات:7). قال ابن منظور:« والعِصيانُ: خِلافُ الطَّاعَة. عَصى العبدُ رَبَّهُ إِذا خالَف أَمْرَه، وَعَصَى

---

[1] - العسكري، الفروق اللغوية، ص233.

[2] - ابن العربي المالكي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ج10، ص316.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص305.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص259.

[5] - ليس معنى ذلك أنّ القرآن خالٍ من فعل "أخطأ"، إنما المقصود أن هذا الفعل يرد بمعنى الخطأ لا الخطيئة. كما في آية البقرة:286. وفي آية الأحزاب:5. وواضح من الاستخدام القرآني لهذا الفعل في سورة الأحزاب، أنه يدل على عدم القصد حين قُرِن بلفظ "تعمّدت" الوارد في الآية. قال تعالى:﴿**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾. قال ابن فارس: والخَطَاءُ مُجَاوَزَةُ حَدِّ الصَّوَابِ. يُقَالُ أَخْطَأَ إِذَا تَعَدَّى الصَّوَابَ (مقاييس اللغة، ج2، ص198).

[6] - لم ترد صيغة الفعل "أساء" في الماضي فقط، وفي أربع آيات مكية هي: الروم:10، النجم:31، فصلت:46، الجاثية:15.

فُلَانٌ أَميرَه يَعْصِيه عَصْياً وعِصْياناً ومَعْصِيَةً إِذا لَمْ يُطِعْهُ، فَهُوَ عاصٍ وعَصِيٌّ »[1]. وواضح هنا أنّ دلالة صيغ المصدر المختلفة لفعل "عصى" واحدة في رأي ابن منظور. غير أنّ التعبير القرآني يستخدم صيغة المصدر الميمي أكثر من غيرها، حين يتعلق الأمر بطاعة الرسول(ص)، لكون المصدر الميمي أبلغ من الصريح في أداء المعنى، وأقوى منه في ذلك[2]. أما عندما يكون الأمر عامّاً؛ أي الدعوة إلى عدم العصيان، فيجيء بالمصدر الصريح، لأنه يدل على المعنى العام المنهي عنه.

أما عن لفظ "إثم" فقال الأصفهاني:« الإثم والأثام: اسم للأفعال المبطئة عن الثواب (يقال: أثمت الناقة المشي تأثمه إثما: أبطأت.. وقوله تعالى:{فيهما إثم كبير ومنافع للناس}[البقرة/219] أي: في تناولهما إبطاء عن الخيرات »[3]. وقال ابن فارس:« الْهَمْزَةُ وَالثَّاءُ وَالْمِيمُ تَدُلُّ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْبُطْءُ وَالتَّأَخُّرُ. يُقَالُ: نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ. وَالْإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ ذَا الْإِثْمِ بَطِيءٌ عَنِ الْخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ »[4]. ومفهوم التأخر عن الخيرات خاص بمصطلح "الإثم"، ولذلك نجده يتكرر في موضع يقترن فيه بالمحرمات الأخرى، أو بالخطايا الكبيرة. مثل قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾**(الأعراف:33)، **﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾**(المائدة:29)، **﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾**(الفرقان:68).

وقال آخر:« فالإثم ضد الأجر. يقال: فلان مأثوم، وفلان مأجور، لأن المأجور يسعى في الطاعة، ويعمل الأعمال التي يستوجب الثواب بها من الله عز وجل، وذلك الثواب هو أجر له بعمله؛ والآثم لم يعمل وقصّر وأبطأ عن الطاعة، فلا أجر له، فهو آثم أي مبطئ عن الطاعة »[5].

وجاء في كتاب المصطلح الإسلامي تعريف طريف للفظ "الإثم" هو:« الإثم: التخطيط والتدبير لأفعال السوء، والوقوع في المنكر وكتمان نية الإيذاء، وخشية المرء على أن يطّلع عليه أحد »[6]. وهذا التعريف مختلف عما ذكره كثير من الدارسين، إذ لا يشرحونه بهذا الشكل، إنما يكتفون في العادة بنوع من الشرح المرادف، أو مع إضافة بسيطة مثل: التأخير في الخيرات. أما صاحب هذا التعريف فقد حاول - كما أخبرنا في مقدمة كتابه - أن يستقرئ ذلك من خلال الاستخدام القرآني لهذه المفردة، بالاستعانة بإحصاء المواطن التي ذكر فيها لفظ "الإثم".

ونجد التعبير القرآني يشتق من مادة "أثم" اسم فاعل، وصيغة مبالغة "أثيم"، ومن مادة "خطأ" اسم فاعل، ولم يفعل مثل ذلك مع مادة "ذنب". قال تعالى:**﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾**(البقرة:283)، **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾**(الشعراء:221 - 222)، **﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾**(المائدة:106)، **﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾**(النساء:107)،

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص67.

[2] - يراجع: فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص31.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ج1، ص14.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص60.

[5] - أبو حاتم أحمد بن أحمد الرازي، كتاب الزينة في الكلمات العربية الإسلامية، ص410.

[6] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص16.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾(يوسف:29)[1]، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾(يوسف:91)، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾(يوسف:97)، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾(القصص:8)، ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة:35 - 37). إلا أن التعبير القرآني لم يوظّف اسم الفاعل من الرباعي "أخطأ"، بل من الثلاثي "خطأ"، ولذلك لم يقل: مخطئون. لأنّ« خطئ يخطأ: انحرف إلى الشر قصدا فهو خاطئ وهي خاطئة وهم خاطئون »[2]. أما الخطأ فهو« فعل الشر عن غير قصد وهو اسم مصدر من أخطأ »[3]. ومن ثمّ عبّر القرآن عن المعنى الأول بصيغة اسم الفاعل للدلالة على القصد العمدي في فعل الشر، وعبّر عن المعنى الثاني بصيغة الفعل الرباعي للدلالة على القصد غير العمدي في ارتكاب سيئة ما. أما ابن عاشور فيقول في دلالة "خاطئين" التي في سورة يوسف ما يلي:« وَالخَاطِئُ: فَاعِلُ الخَطِيئَةِ، وَهِيَ الجَرِيمَةُ. وَجَعَلَهَا مِنْ زُمْرَةِ الَّذِينَ خَطِئُوا تَخْفِيفًا فِي مُؤَاخَذَتِهَا »[4]، وكأنّ الخطيئة أقل درجة من الذنوب، وأقل من السيئات كذلك.

وأحياناً يأتي مصطلح "إثم" متبوعاً بصفة مميزة للدلالة على خطورة شأنه؛ مثل ألفاظ: مبين، كبير، عظيم، كبائر (الإثم)؛ فيقول الخطاب القرآني: إثم مبين، أو إثم كبير، أو إثم عظيم. ولكنه لا يقول أبداً: نغفر لكم آثامكم، أو نكفّر عنكم آثامكم، كما عبّر بذلك عن الذنوب والخطايا.

أما مصطلح الذنب فجاء في تعريفه:« الذنب: ما يحجبك عن الله تعالى »[5]. ولا يبدو هذا شرحاً لغوياً، إنما هو من قبيل الشرح الاصطلاحي الصوفي، أو التفسير الباطني، لأنه صالح لكل من الذنب، والمعصية، والسيئة، والخطيئة؛ فهذه كلها تحجب عن الله تعالى. وجاء أيضاً:« الذنب في الأصل: الأخذ بذنَب الشيء، يقال: ذنبته: أصبت ذنبه، ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتبارا بذنب الشيء، ولهذا يسمى الذنب تبعة، اعتبارا لما يحصل من عاقبته، وجمع الذنب ذنوب »[6].

ولم يستخدم التعبير القرآني من مادة (ذنب)، صيغة الفعل، ولا اسم فاعل، إنما ورد بصيغة المصدر فقط، وقد يرد جمعاً؛ أي "ذنوب". وما يلاحظ كذلك أنه يرد مسبوقاً بحرف الجر "مِنْ"، فيقول: يغفر لكم من ذنوبكم. وفي ذلك تنبيه خاص على الفرق الدلالي بين مصطلح "ذنب" وغيره من المصطلحات الأخرى المشابهة له؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾(إبراهيم:10)، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾(الأحقاف:31)، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾(نوح:2 - 4). وليس في القرآن كله عبارة تستخدم حرف الجر مع مفردات الإثم

---

[1] - نلاحظ هنا، أن التعبير القرآني لم يقل: استغفري لذنبك إنك كنت من المذنبين. ليحافظ على الخط الذي رسمه في توظيف هذه المفردات، أو لأنّ القرآن احتفظ باللفظ ذاته الذي نطق به عزيز مصر نفسه؛ ليكون شاهداً على الواقع وعلى التاريخ.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص45.

[3] - المرجع نفسه، ص45.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص259.

[5] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص107.

[6] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص369.

والمعصية، إلا مع لفظ "ذنوب"، ولفظ"سيئات"، في موضع واحد من القرآن هو قوله تعالى:﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾(البقرة:271).

والسر في استخدام حرف الجر هذا أنه ما« جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ. وقال في خطاب المؤمنين: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ إلى أن قال يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يُسوّي بين الفريقين في الميعاد. وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها »[1]. ولعل هذا التخريج وجيه، لأنّ هذا الأسلوب لم يرد إلا في ثلاث آيات، ومع أقوام أشداء في كفرهم؛ ففي الآية الأولى هم: قوم نوح، وفي الثانية هم: قوم نوح وعاد وثمود، وفي الثالثة هم: قوم من الجن. وقد أشار إلى هذا الفرق فاضل السامرائي مضيفاً أنّ عبارة "يغفر لكم من ذنوبكم" بتوظيف حرف الجر "من" قد وردت كذلك على لسان الجن في قوله تعالى:﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**﴾ (الأحقاف:31)[2].

ويرى بعض الباحثين المعاصرين فرقاً دلالياً بين مثل هذه المتشابهات اللفظية، حين عرض لمسألة الوجوه والنظائر، مؤكداً الاختلاف الدلالي بين لفظ "الذنْب"، و"المعصية"، من غير أن يشرحهما. فهو يرى أن لفظ "الإثم" يرد بمعانٍ كثيرة، من بينها معنى الذنْب والمعصية[3]. أما من القدامى فيقول الأصفهاني:« وعصى عصيانا: إذا خرج عن الطاعة، وأصله أن يتمنع بعصاه. قال تعالى:{وعصى آدم ربه}[طه/121]، {ومن يعص الله ورسوله} [النساء/14]، {آلآن وقد عصيت قبل}[يونس/91]. ويقال فيمن فارق الجماعة: فلان شق العصا »[4]. غير أنّ دلالة لفظ "عصى" - من خلال الاستخدام القرآني - توحي بأنّ الفاعل كان على علم بالمسألة المأمور بها، أو المنهي عنها، فلم يفعل المطلوب، أو فعل عكس المطلوب منه.

ويقول الشريف الجرجاني في الفرق بين الذنب والمعصية:« قولك: معصية ينبئ عن كونها منهياً عنها، والذنب ينبئ عن استحقاق العقاب، والشاهد على أن المعصية تنبئ عن كونها منهياً عنها، قولهم: أمرته فعصاني »[5]. ولعل هذا الذي جعل موسى عليه السلام يقول معتذراً لربه حين أمره بدعوة فرعون، قال تعالى:﴿**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**﴾(الشعراء:14). فلم يقل: عَلَيّ خطيئة، أو إثم، أو معصية، وإن كان ذلك نقْل لما تلفظ به موسى عليه السلام على وجه الحقيقة، أو ترجمة صادقة لكلامه؛ لكون الذنب قد يقع في حق البشر، كما يقع في جنب الله.

أما مصطلح "**إجرام**"؛ فإنّ القرآن الكريم قد أورد مشتقات مادة "جرم" سِتّا وستين 66 مرة، بثلاثة معان هي: ارتكاب المعاصي والآثام - وهي الأكثر، ومعظمها في الخطاب المكي-، وبمعنى "يحمل" أو "يدفع" إلى ارتكاب أمر ما،

---

[1] - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص543.

[2] - ينظر، فاضل السامرائي، من أسرار البيان القرآني، ص71.

[3] - ينظر، أحمد مختار عمر، لغة القرآن - دراسة توثيقية فنية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط2، 1997، ص149.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص100.

[5] - العسكري، الفروق اللغوية، ص229.

وبمعنى "لا محالة"، أو بمعنى "حقاً". وقد ورد مفهوم الإجرام بعدة صيغ؛ منها اسم الفاعل "مجرم"، و"مجرمون"، والفعل "أجرموا"، والمصدر "إجرام". أما مفردة "جريمة" فلا ذكر لها في كل القرآن الكريم، وكذلك صيغة الجمع منها؛ أي "جرائم". ونجد القرآن يشتق من هذه المادة عبارة "لا جَرَم"، ومفردة "يجرمنّكم" التي وردت ثلاث مرات هي قوله تعالى:﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا**﴾(المائدة:2)، ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾(المائدة:8)، ﴿**وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ**﴾(هود:89). أما بقية صيغ هذه المادة فوردت كما في الأمثلة التالية:

أ - استخدامها في فضاء ارتكاب المعاصي:

1 - **الإجرام بصيغة الاسم**: وهو الأكثر وروداً، إذ جاء في ثلاث وخمسين 53 آية، جلّها في القرآن المكي. ومنه قوله تعالى:﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾(الأنعام:55)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾(الأعراف:40)، ﴿**لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾(الأنفال:8)، ﴿**إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾(التوبة:66)، ﴿**هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾(الرحمان:43)، ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ**﴾(المدثر:38-41)، ﴿**أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**﴾(المرسلات:16- 18). وجاء في مخطوطة الجمل:« والمجرم والمجرمون في استعمال القرآن: الذين أجرموا بالكفر والعناد »[1].

2 - **الإجرام بصيغة الفعل**: وقد ورد في ثلاث آيات، بصيغة الماضي فقط، وهي قوله سبحانه:﴿**سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾(الأنعام:124)، ﴿**فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا**﴾(الروم:47)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾(المطففين:29). والجرم بمعنى الذنب« وجَرَم جُرماً وأجرم: أذنب »[2].

ب- استخدامها في مجال اصطلاحي؛ "لا جرم": وقد ورد خمس مرات كلها في الخطاب المكي وهي قوله عز وجل:﴿**لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ**﴾(هود:22).﴿**لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾(النحل:23)، ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ**﴾(النحل:62)، ﴿**لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾(النحل:109)، ﴿**لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ**﴾(غافر:43). والمعنى هو لا محالة، أو حقاً[3]. قال ابن عاشور في معناها:« (لَا جَرَمَ) كَلِمَةُ جَزْمٍ وَيَقِينٍ جَرَتْ مَجْرَى الْمَثَلِ، وَأَحْسَبُ أَنَّ (جَرَمَ) مُشْتَقٌّ مِمَّا تُنُوسِيَ، وَقَدِ اخْتَلَفَ أَئِمَّةُ الْعَرَبِيَّةِ فِي تَرْكِيبِهَا، وَأَظْهَرُ أَقْوَالِهِمْ أَنْ تَكُونَ (لَا) مِنْ أَوَّلِ الْجُمْلَةِ وَ (جَرَمَ) اسْمٌ بِمَعْنَى مَحَالَةَ أَيْ لَا مَحَالَةَ أَوْ بِمَعْنَى بُدَّ أَيْ لَا بُدَّ. ثُمَّ يَجِيءُ بَعْدَهَا أَنَّ وَاسْمُهَا وَخَبَرُهَا فَتَكُونُ (أَنَّ) مَعْمُولَةً لِحَرْفِ جَرٍّ

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص318.

[2] - ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم، كتاب الأفعال، تح، علي فودة، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1993.كتاب الأفعال، ص47.

[3] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص20.

مَحْذُوفٍ. وَالتَّقْدِيرُ: لَا جَرَمَ مِنْ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَا. وَلِمَا فِيهَا مِنْ مَعْنَى التَّحْقِيقِ وَالتَّوْثِيقِ وَتُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْقَسَمِ فَيَجِيءُ بَعْدَهَا فِي مَا يَصْلُحُ لِجَوَابِ قَسَمٍ نَحْوَ: لَا جَرَمَ لَأَفْعَلَنَّ »[1].

أما عن المعنى اللغوي للجُرم فقال ابن فارس:« الجُرْمُ وَالجَرِيمَةُ: الذَّنْبُ.. لِأَنَّهُ كَسْبٌ، وَالكَسْبُ اقْتِطَاعٌ. وَقَالُوا فِي قَوْلِهِمْ "لَا جَرَمَ": هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ جَرَمْتُ أَيْ كَسَبْتُ »[2]. وقال الأصفهاني:« ومعنى جرم: كسب، أو جنى »[3]. ثم أضاف:« واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكيس المحمود »[4]. وقال ابن منظور:« والجُرْمُ: التَّعدِّي، والجُرْمُ: الذَّنْبُ، وَالْجَمْعُ أَجْرامٌ وجُرُومٌ، وَهُوَ الجَرِيمَةُ، وقد جَرَمَ يَجْرِمُ جَرْماً واجْتَرَمَ وأَجْرَم، فَهُوَ مُجْرِم وجَرِيمٌ... وجَرَمَ إِلَيْهِمْ وَعَلَيْهِمْ جَرِيمة وأَجْرَم: جَنَى جِناية، وجَرُمَ إِذَا عَظُمَ جُرْمُه أَيْ أَذنب »[5]. وقال غيره:« لا جرم. قال الفراء: هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة: لا محالة ولا بدّ، فجَرَت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة "حقا"»[6].

وتبدو عبارة "لا جرم" ذات قوة إيحائية، ودلالة خاصة، فاحتفظ بها القرآن الكريم، ووظفها في المكان المناسب من الخطاب المكي فقط، ليقرع بها آذان المشركين المعاندين. وهذه العبارة يستخدمها الكتاب كذلك أمثال الرافعي والعقاد والإبراهيمي وغيرهم، ممن اشتهروا بتحكمهم بناصية اللغة العربية.

أما لفظ "وزر" فهو في الأصل بمعنى "الحِمْل" الثقيل، وإنما وظّفه التعبير القرآني في أسلوب مجازي؛ لأن« الوزر الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل. قال تعالى:{كلا لا وزر إلى ربك}[القيامة/11] والوزر: الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل»[7]. « وزر الشيء يزره وزرا: حمله ويأتي ذلك في الأحمال الثقيلة ويقال ذلك على سبيل المجاز في ارتكاب الذنوب والآثام، إذا كانت أثقالا على صاحبها »[8]. « وأما الوِزْر فهو أن يحمِل غيرَه على الذنب فيكون قد تقلّد ذنبيْن، ذنب نفسه وذنب غيره. قال تعالى:﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. لما أضلّ غيره سمّاه وِزراً »[9]. وربما هذا هو السبب الذي جعل صاحب الوزر لا يُغفر له، لأنه ارتكب إثماً لنفسه، وأمر غيره بالإثم ففعل الشيء نفسه، ومن ثَمّ، قد لا يغفِر الشخص الآثم للشخص الذي أوقعه في ذلك الإثم، ولا يغفرها له الله، لأنها بين العبد وأخيه، فتبقى تلك الآثام أوزاراً وأحمالاً على عاتق المذنب.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص39.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص446.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص179

[4] - المرجع نفسه، ج1، ص178

[5] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص91.

[6] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص318.

[7] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص510.

[8] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص219.

[9] - أبو حاتم الرازي، كتاب الزينة في الكلمات العربية الإسلامية، ص411.

وما يلاحظ في هذا اللفظ، أنه يعبّر عنه بلفظ آخر هو "يحمل"، للدلالة على ثقله الكبير. وسواء في ذلك أجاء مفرداً أم جمعاً كما في قوله تعالى:﴿**وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ**﴾(الأنعام:31)، ﴿**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ**﴾(طه:87)، ﴿**مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا**﴾(طه:100)، ﴿**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ**﴾(النحل:25). إلا أن الفعل "يحمل" يغيب إذا كانت العبارة كما يلي: لا تزر وازرة وزر أخرى، التي تكررت بنصها في خمس آيات هي قوله عز وجلّ :﴿**وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾(الأنعام:164)، ﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾(الإسراء:15)، ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾(فاطر:18)، ﴿**وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾(الزمر:7)، ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾(النجم:36 - 38).

والوِزْر، لا يتم غفرانه، ولا عفوه، ولا تكفيره، وكل ما ورد في الصفح عنه، أو ما يدل على ذلك، هو ما ورد في حق النبي(ص) فقط، في قوله تعالى:﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ**﴾(الشرح:1- 2). فقد وظّف التعبير القرآني الفعل "وضع" بدلاً من عفا، أو غفر، أو غيرهما. وقد فسر بعضهم "الوزر" بالذنب[1]، غير أن ابن عاشور يرى رأياً آخر حين يقول:« وَالوِزْرُ: الحرَجُ، وَوَضْعُهُ: حَطُّهُ عَنْ حَامِلِهِ، وَالكَلَامُ تَمْثِيلٌ لِحَالِ إِزَالَةِ الشَّدَائِدِ وَالكُرُوبِ بِحَالِ مَنْ يَحُطُّ ثِقْلًا عَنْ حَامِلِهِ لِيُرِيحَهُ مِنْ عَنَاءِ الثِّقَلِ. وَالمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ أَزَالَ عَنْهُ كُلَّ مَا كَانَ يَتَحَرَّجُ مِنْهُ مِنْ عَادَاتِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي لَا تُلَائِمُ مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ نَفسه من الزَّكَاة وَالسُّمُوّ »[2].

وقد يكون هذا الرأي أقرب إلى الصواب، لأنه لو كان معنى "الوِزْر"- هنا - الذنب، لقال التعبير القرآني: وغفرنا لك ذنبك، كما قال في آية سابقة:﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ**﴾(الفتح:1- 2). ولأنّ التعبير القرآني لم يقل عن "الوزر"، أو "الأوزار" أنه يغفرها، أو يعفو عنها في كل الآيات التي وردت فيها.

ونلحظ أيضاً أن هذه المصطلحات جميعها قد التصقت ببني إسرائيل، فقد ارتكبوا خطايا، وذنوباً، وآثاماً، وجرائم، ومعاصي، وحَمَلوا، وحُمِّلوا أوزاراً كذلك؛ للدلالة على نفسية هؤلاء القوم الذين لا يرعوون عن فعل كل أنواع الشر منذ فجر تاريخهم.

والآن، سنعرض للمفردات، أو المصطلحات المصاحبة لألفاظ مختلف المعاصي المذكورة سابقاً، والتي تتوزع بدورها بطريقة دقيقة ومطّردة، مما يدل على الفروق الدلالية الدقيقة الواردة في كل مصطلح من هذه المصطلحات التي تبدو مترادفة المعنى في الاستخدام العام.

ا - **التكفير**: هو أول من نعرض له بالتحليل والشرح والتأويل، لكونه يتعلق أساساً بمصطلح "السيئة" التي هي أخف المعاصي فيما يبدو من تعريفاتها ومن استخدامها في الخطاب القرآني.

---

[1] - يراجع، الرازي، مفاتيح الغيب، ج32، ص207.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص410. ومثله جاء في تفسير الألوسي، ج15، ص388، وما بعدها.

قال ابن منظور:« أصل الكفر تغطية الشيء تغطية تستهلكه، وقال الليث: يُقَالُ إِنما سُمِّيَ الْكَافِرُ كَافِرًا لأَن الْكُفْرَ غَطَّى قَلْبَهُ كُلَّهُ. وكل من ستر شيئاً فقد كفَره وكفّره. والتكفير أن يكفّر المحارب في سلاحه. الكفّارة: ما كُفِّر به من صدقة أو صوم أو نحو ذلك، قال بعضهم: كأنه غُطِّيَ عليه بالكفارة... وسميت الكفارات كفارات، لأنها تكفّر الذنوب؛ أي تسترها »[1]. وقال في موضع آخر:« وَتَكَرَّرَ ذِكْرُ الْكَفَّارَةِ فِي الْحَدِيثِ اسْمًا وَفِعْلًا مُفْرَدًا وَجَمْعًا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الفَعْلَة والخَصْلة الَّتِي مِنْ شأْنها أَن تُكَفِّرَ الْخَطِيئَةَ أَي تَمْحُوهَا وَتَسْتُرَهَا »[2]. غير أنّ دلالة "تمحوها" تختلف عن دلالة "تسترها"، ففي الأولى لا يبقى أثر للخطايا والذنوب، أما في الثاني فتبقى مسجلة لكنها غير ظاهرة للعيان، إنما يعاينها صاحبها فقط. ولذلك فإنّ معنى الكفّارة هو التغطية والستر، دون المحو، لأنّ المحو يتعلق بالفعل "عفا" خصوصاً. ومعنى قول المؤلف« تغطية تستهلكه »؛ أي تستغرقه بلغة المناطقة، بمعنى أنها تُغطّيه كاملاً.

ويقول الشعراوي في ذلك:« عندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن «الذنب» شيء، و«السيئة» شيء آخر. فالذنب يحتاج إلى غفران، والسيئة تحتاج إلى تكفير، على سبيل المثال «كفارة اليمين» تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن يمينا وحنث فيه، وهذا التكفير هو المقابل لحنث في اليمين، أما الأشياء التي تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهي الذنب، والسيئة هي الأمر الذي يخالف منهج الله مع عباد الله. فحين تفعل المعصية في أمر بينك وبين الله. فأنت لم تسيء إلى الله، فمَنْ أنت أيها الإنسان من منزلة الله؟ لكنك بالمعصية تذنب، والذنب تأتي بعده العقوبة. أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهي سيئة؛ لأنك بها تكون قد أسأت. لذلك فالمؤمنون قالوا:{رَبَّنَا فاغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا}»[3].

وقد لاحظ المطعني أنّ الفعل "كفّر" يرد مقروناً دائماً بحرف الجر؛ "عنهم" أو"عنكم" أو"عنه"، مع أنه فعل متعد بنفسه، ويرى في ذلك مغزى عظيماً، وهو إظهار الامتنان على العباد والتفضّل عليهم بنِعَم الله. وقياس ذلك: « أنّ قول أحدنا: "أديتُ ديْن فلان"، غير قوله "أديتُ عن فلان ديْنَه" ففي "عنه" إظهار لبراءته وتحمُّل الغرم عنه، أما العبارة الأولى فتخلو من هذه اللطيفة الحانية »[4]. ولكن لماذا ارتبط التكفير بمصطلح "السيئة"، وليس بغيره من المصلطحات الأخرى؛ كالذنب، أو المعصية، أو الخطيئة؟ إنّ الآيات الكثيرة في هذا الشأن توحي بوجود علاقة بين المصطلحين، وحتى في استخدام مادة "ساء" اسم تفضيل، فقد ربطها القرآن بالفعل "كفّر". قال تعالى:﴿**لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**﴾(الزمر:35). وهي الآية الوحيدة التي ورد فيها اسم التفضيل من مادة "ساء". وليس هناك آية واحدة تقول: نكفّر عنكم ذنوبكم، أو خطاياكم، أو معاصيكم.

ونرى أن المعاني التي يدور حولها لفظ "كفر" هي التغطية والستر، وعدم إظهار الشيء للعيان. فكأن الله تعالى يغطّي سيئات بعض الناس، ولا يظهرها يوم القيامة للآخرين، ومن ثَمّ، لا يراها إلا صاحبها، وفي ذلك رحمة كبيرة للعبد. حتى إنه ورد في الحديث أن الله تعالى يقول للعبد: ألم تفعل كذا وكذا في يوم كذا ؟ فيقول العبد: نعم.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص145.

[2] - المرجع نفسه، ج5، ص149.

[3] - الشعراوي، تفسير القرآن - الخواطر، ج4، ص1963 - 1964.

[4] - عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص149.

فيقول الله تعالى: أنا سترتها عليك في الدنيا وأسترها اليوم أيضاً. وقال النبي (ص) من ستر مؤمناً ستره الله يوم القيامة. إذاً، سيئات بعض الناس تبقى شاهدة على أفعالهم الدنياوية، تُعَرّفُ لهم يوم القيامة، وتُحجَب عن الآخرين. ومن ثَمّ، يصفح الله عن مقترف هذه السيئات.

ب – **الغفران**: أما لفظ "غفر" فيقول فيه ابن منظور:« الغفور الغفّار، جل ثناؤه، وهما من أبنية المبالغة ومعناهما الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم. يقال: اللهم اغفر لنا مغفرة وغَفْراً وغُفراناً. وأصل الغَفْر: التغطية والستر. غفر الله ذنوبه أي سترها »[1]. وقال كذلك:« وغفرت المتاع: جعلته في الوعاء... وأغفره أدخله وستره وأوعاه. وكذلك غفر الشيب بالخضاب وأغفره »[2]. وجاء في المصطلح الإسلامي:« المغفرة تجاوز الله عز وجل عن ذنوب الإنسان وآثامه وأعماله المنكرة بعد توبته وندمه على أعماله »[3]. والاستغفار هو طلب المغفرة ومحو الذنوب وغيرها من الأعمال المنكرة والسيئة. أما في مخطوطة الجمل فالغفران « هو الستر، وإلباس ما يصون عن الدنس، فقالوا اصبغ ثوبك فإنه أغفر للدنس، ومنه يجئ صون العبد من العذاب »[4].

وما يلاحظ في هذين اللفظين، ألاّ فرق تقريباً بين معنى "كفّر"، ومعنى "غفر"، إذ كلاهما يدلاّن على الستر والتغطية، ولكنهما مختلفان في الاستخدام القرآني بشكل واضح، فالأول يقترن بلفظ "سيئات" على الخصوص، ويقتصر على أفعال الخالق فقط، وإذا اقترن لفظ "كفّر" بالعبد، اتّخذ معنى شرعياً، هو التكفير عن الأخطاء العمدية وغير العمدية، أي إصلاح وتقويم وضعية المرء الدينية، أو دفع ثمن ارتكابه تلك الأخطاء، وهو ما يسمى في الفقه بالكفّارة، وليس بمعنى العفو والصفح. بينما يقترن لفظ "غفر" بلفظ "ذنوب" على الخصوص، ولا يقتصر على الله وحده، بل يشاركه في ذلك العباد، فيغفرون لغيرهم بدورهم أيضاً.

ومن تمظهرات مادة "**غفر**" أنها ترد مصرّفة في الأزمنة الثلاثة؛ الماضي، والمضارع، والأمر. وتُشتَق منها صيغتان للمبالغة هما: غفّار، وغفور، والثانية أكثر استخداماً، وترد مصدراً أيضاً؛ أي "مغفرة". ووردت صيغة "غفّار" في خمسة مواضع من القرآن المكي، دون المدني، هي:﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾(طه:82). ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾(ص:66).﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾(الزمر:5). ﴿**تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ**﴾(غافر:42). ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**﴾(نوح:10). ولعل السبب في إيرادها في السور المكية، أنها كانت في مقابل كفر القدامى وعنادهم الشديد، فجاء مساوية لذلك العناد، وكأن الله تعالى يقول لهم: مهما كفرتم وأكثرتم من الذنوب والخطايا والمعاصي، فإنكم ستجدونني "غفّاراً" أغفر لكم ذلك كله إن جئتموني لا تشركون بي شيئاً.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص25.

[2] - المرجع نفسه، ج5، ص25.

[3] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص27.

[4] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص207.

وقد يكون في مادة "غفر" معنى الإصلاح؛ كما يقول ابن القوطية:« غفر الله الذنب غفراً: ستره، والشيءَ: سترتُه، والأمرَ بغُفرته: أصلحتُه بما ينبغي أن يُصلَح به »[1]. فكأنّ الله تعالى - بهذا المفهوم - يُغطي ذنوب عباده يوم القيامة، أو يُصلحها؛ أي يبدّلها حسنات كما قال في قوله سبحانه:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ**﴾(الأعراف:94 - 95)، ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾(الفرقان:68 - 70). فتبديل الحسنة مكان السيئة هو إصلاح لحال هؤلاء، ونقلهم من وضع إلى آخر أحسن منه.

ج - **العفو**: له ميزة خاصة، لا توجد في نظائره التي هي "تكفير"، و"غفران"، و"صفْح". ومن تمظهرات مادة "**عفا**" ورودها بصيغة المبالغة "عَفُوّ" فقط، وبصيغة اسم الفاعل. أما المصدر منها؛ أي "العَفْو" فلم يرد إلاّ معرفة، ولا يدل على معنى غفر، أو صفح، إنما يدل على شيء آخر. وقد ورد ذلك في قوله تعالى:﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾(البقرة:219)، ﴿**خُذِ الْعَفْوَ**[2] **وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(الأعراف:199). وورد اسم الفاعل مرة واحدة بصيغة الجمع، بمعنى الصفح عن الناس في قوله سبحانه:﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (آل عمران:134).

أما عن دلالة "عفا" فيقول ابن عاشور:« وَالعَفو الصَّفْحُ عَنْ ذَنْبِ الْمُذْنِبِ وَعَدَمُ مُؤَاخَذَتِهِ بِذَنْبِهِ »[3]. وأفضل من هذا التفسير قول ابن منظور:« هو التجاوز عن الذنب، وأصله المحو والطمس. وكلّ من استحق عقوبة فتركتَها فقد عفوتَ عنه... عفت الرياح الآثار إذا درستها ومحتها »[4]. فمعنى العفو، إذاً، محو الذنوب والسيئات نهائياً، وكأن صاحبها لم يرتكبها أصلاً. وهذا تفضّل وتكرّم كبير من الله تعالى على عباده المؤمنين الذين خلطوا بعض الأعمال السيئة بأعمال صالحة. لأن من معاني "عفا" الأخرى في اللغة الفضل والإفضال، وأن تعمل شيئاً ليس واجباً عليك[5]. وهنا التفاتة طريفة مفادها أن الله تعالى لا يُري العبدَ تلك الذنوب التي عفا عنها؛ إذ محاها وطمسها، فلم تعد مكتوبة في صحيفة العبد، ولا يجد المرء لها أثراً يوم تنشر الصحف. وفي ذلك رحمة أكبر من الغفران والتكفير. ولهذا ورد لفظ "عفا" ومشتقاته 34 مرة بنسبة أقل بكثير من لفظ "غفر" ومشتقاته التي بلغت 240 مرة.

ومن خصائص الفعل "عفا" أنّ التعبير القرآني لا يذكر معه مفعوله، أو معموله المجرور، كما في الفعلين "كفّر"، و"غفر"، إنما يترك المجال مفتوحاً، فيقول: يعفو عن كثير، إلا في موضع واحد ذكر فيه المعمول، وهو قوله

---

[1] - ابن القوطية، كتاب الأفعال، ص27.

[2] - معناه: ما يسهل إنفاقه. الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص104. أو: مَا زَادَ عَلَى حَاجَةِ الْمَرْءِ مِنَ الْمَالِ أَيْ فَضَلَ بَعْدَ نَفَقَتِهِ وَنَفَقَةِ عِيَالِهِ بِمُعْتَادِ أَمْثَالِهِ، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص351.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص226.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص72.

[5] - يراجع: المرجع نفسه، ج15، ص74.

تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ**﴾(الشورى:25). قال السيوطي:« "العَفْوُ" فِي القُرْآنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ: نَحْوُ تَجَاوُزٍ عَنِ الذَّنْبِ، وَنَحْوٌ فِي القَصْدِ فِي النَّفَقَةِ:{وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} وَنَحْوٌ فِي الإِحْسَانِ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ:{إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}»[1]. واختلاف المعنى نابع من اختلاف الصيغ الصرفية. وكذلك:« يقال: العفو من المال: ما طاب وكثر، وما فضل ولم يشق علي صاحبه، أو العفو من أخلاق الناس: السهل الميسر، والعفو: ما أتي بغير مسألة، وأعفى: إذا أنفق العفو من ماله، وعفا - كدعا - عفوا: تجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه، فهو عاف وعفو »[2]. أما ما ورد بصيغة الفعل، منسوباً إلى الله تعالى، فهو مطّرد في فضاء العفو، والمحو، والتجاوز عن الذنوب والسيئات والخطايا، لا غير.

د – **التوبة**: إنّ لفظ "تاب" ومشتقاته، كذلك، لا يتحدد معه الشيء المتوب منه، فلا يقال تاب من ذنبه، ولا من خطيئته، ولا من سيئته، ولا من معصيته. فكأنّ العبد يتوب من كل شيء شائن، ومن كل سلوك غير لائق. ويتصل بهذا الفعل معنى الإصلاح أو الإيمان، فكثيراً ما يعبّر القرآن بعد فعل التوبة، بالإيمان والإصلاح. لأنه لا يُعرَف أنك تُبتَ حقاً، وندمتَ على ما فعلتَ، إذا لم تفعل شيئاً مخالفاً لما كنتَ تعفله من قبْل التوبة. ولهذا قال عمر بن الخطاب: والله لا يبقى موضع كنتُ أعلنُ فيه الكفر إلا وأعلنتُ فيه الإسلام. ومثال هذا الوضع من الآيات القرآنية قوله عز وجلّ:﴿**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**﴾(التحريم:4)، ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾(البقرة:160)، ﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا**﴾(الفرقان:71)، ﴿**فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ**﴾(القصص:67)، ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾(آل عمران:98)، ﴿**وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾(النساء:16)، ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا**﴾(النساء:145 - 146)، ﴿**فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ**﴾(المائدة:39)، ﴿**مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(الأنعام:54)، ﴿**وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(الأعراف: 153).

ويُشتق من لفظ "تاب"، اسم التوّاب، وهو صيغة مبالغة، مثله مثل أسماء الغفّار والغفور والعفوّ. غير أنّ لفظ "كفّر" لا يشتق منه شيء من الأسماء؛ فلا يأتي منه "مُكفِّر" ولا "كفّار"[3]. والملاحظ في الفعل "تاب" أنه يحمل معنيين؛ التائب من، والتائب عن أو على، فالأول هو العبد العاصي، والثاني هو الله تعالى. والتوبة تعني« الرجوع من الذنب، والتوب مثله. وتاب إلى الله توْباً وتوبة ومتاباً، أناب ورجع من المعصية إلى الطاعة. وتاب الله عليه، وفّقه لها. ورجل توّاب: تائب إلى الله. والله توّاب: يتوب على عبده »[4]. وتوبة أمة محمد (ص)« أكمَلُ من توبة سائر الأمم،

---

[1] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص165.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص144.

[3] - لا نقصد - هنا - بلفظ "كفّار" معنى صيغة المبالغة من "كافر"، إنما نقصد معنى التكفير عن الذنب المأخوذ من الفعل كفّر الرباعي. علماً بأنّ صيغة المبالغة لا تؤخذ من غير الثلاثي، إلا شذوذاً.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ص454.

وأسرَعُ قبولاً، وأسهلُ تناولاً، وكانت توبة من قبلهم من أصعب الأشياء، حتى كان من توبة بني إسرائيل من عبادة العجل قتل أنفسهم، وأما هذه الأمة، فلكرامتها على الله تعالى جعل توبتها الندم والإقلاع »[1]. وكذلك الرجوع إلى الحق، والتكفير عن الذنوب والخطايا.

ويظهر من الآيات الخاصة بالتوبة، أنّ لفظ "تاب" يسبق كل أنواع الأخطاء التي يرتكبها العبد، والتي يُطلَب منه الرجوع والإقلاع عنها. فمن يطلب العفو، أو الغفران، أو التكفير، إنما يتوب أولاً، أي يندم على فعلٍ فَعلَه، أو قولٍ قاله، أو حالٍ كان عليها. ومعنى ذلك أنّ التوبة لا تأتي إلا بعد اكتساب ذنب، أو خطيئة، أو إثم، أو سيئة، أو خطإ. وتأتي صيغة المبالغة "توّاب" غالباً متبوعة بصيغة المبالغة "رحيم".

ولننظر إلى الآيات التالية ليتبيّن لنا ذلك بوضوح، قال تعالى:﴿**فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾(البقرة:37)، ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ**﴾(النساء:17)، ﴿**فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ**﴾(المائدة:39)، ﴿**وَآَخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآَخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾(التوبة:102)، ﴿**وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾(التوبة:106)، ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾(هود:3)، ﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾(الرعد:30)، ﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا**﴾(الفرقان:70).

أما الفرق بين العفو والغفران والصفح، فمسألة دقيقة، وصعبة؛ ومن ذلك أنّ« الغفران يقتضي إسقاط العقاب، وإسقاط العقاب هو إيجاب الثواب، فلا يستحق الغفران إلا المؤمن المستحق للثواب، ولهذا لا يستعمل إلا في الله؛ فيقال غفر الله لك، ولا يقال غفر زيد لك إلا شاذا قليلاً... والعفو يقتضي إسقاط اللوم والذم؛ ولهذا يستعمل في العبد فيقال عفا زيد عن عمرو، وإذا عفا عنه لم يجب عليه إثابة، إلا أنّ العفو والغفران لما تقارب معناهما تداخلا، واستعملا في صفات الله جل اسمه على وجه واحد فيقال: عفا الله عنه، وغفر له بمعنى واحد»[2]. غير أنّ الاستعمال القرآني لهذين المصطلحين يدل على اختلافهما في المعنى؛ لاسيما إذا اقترنا، تبعاً للقاعدة المعروفة؛ إذا اقترن المتشابهان اختلفا، وإذا افترقا اتّفقا. ومن ذلك قوله تعالى:﴿**وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا**﴾(البقرة:286)؛ فهذا العطف وهذا التتابع في الدعاء بهذه الألفاظ، يدلان على اختلاف المعنى في كل واحد منها، تبعا لقاعدة العطف على المتغايريْن، والمتغايرات.

ولعلّ الكاتب يقصد أنّ الفعل "غفر" لا يستخدم مسنداً إلى العباد، في لغة التخاطب العادي بين الناس، ولا في غيرها من كتابات الكُتاب، كما هو متعارف عليه عندهم، أما في غير ذلك فالأمر مختلف، لأنّ هذا اللفظ ورد في القرآن الكريم، مسنداً إلى العباد في أكثر من موضع؛ مثل قوله تعالى:﴿**قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ**﴾(الجاثية:14)، ﴿**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**﴾(الشورى:37)، ﴿**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾(الشورى:43)، ﴿**وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(التغابن:14).

---

[1] - ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ص31.

[2] - العسكري، الفروق اللغوية، ص235- 236.

وقال الشريف الجرجاني:« المغفرة: هي أن يستر القادرُ القبيحَ الصادرَ ممن تحت قدرته، حتى إنّ العبد إن ستر عيب سيده مخافة عتابه لا يقال: غفر له »[1]. لأنّ العبد واقع تحت قدرة سيّده لا العكس؛ فالقادر هو الذي يغفر. أما الصفح فجاء فيه« وصَفَحَ عَنْهُ يَصْفَح صَفْحاً: أَعرض عَنْ ذَنْبِهِ. وَهُوَ صَفُوحٌ وصَفَّاحٌ: عَفُوٌّ. والصَّفُوحُ: الْكَرِيمُ، لأَنه يَصْفَح عَمَّنْ جَنى عَلَيْهِ. واستْصْفَحَه ذَنْبَهُ: اسْتَغْفَرَهُ إِياه وَطَلَبَ أَن يَصْفَحَ لَهُ عَنْهُ... يُقَالُ: صَفَحْتُ عَنْ ذَنْبِ فُلَانٍ وأَعرضت عَنْهُ فَلَمْ أُؤَاخذْه بِهِ؛ وَضَرَبْتُ عَنْ فُلَانٍ صَفْحاً إِذا أَعرضتُ عَنْهُ وَتَرَكْتُهُ »[2]. و"الصفح" ليس من أفعال الله تعالى، ولا يستخدم إلا للعباد؛ أو لجماعة المسلمين، ويرد أحياناً خاصاً بالنبي (ص)، كما في قوله عز وجل: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾**(البقرة:109)، **﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**(المائدة:13)، **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾**(الحجر:85)، **﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾**(النور:22)، **﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾**(الزخرف:88 - 89)، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**(التغابن:14).

وواضح من هذه الآيات أنّ المولى عز وجل، يطلب من نبيّه الكريم أن يعفو، عن كل الطوائف ويصفح عنهم كُفّاراً، ومنافقين، وأهل كتاب، لورود ذلك في الخطابين معاً، ويطلب من المؤمنين أن يحذوا حذو نبيّهم (ص)، لأنهم آخر الأمم، فهم يمثلون الوسط، والشهادة على الناس إلى يوم القيامة.

قال الأصفهاني في معنى الصفح:« والصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال:{فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره}[البقرة/109]، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح. قال:{فاصفح عنهم وقل سلام} [الزخرف/89]،{فاصفح الصفح الجميل}[الحجر/85]، {أفنضرب عنكم الذكر صفحا}[الزخرف/5]، وصفحت عنه: أوليته مني صفحة جميلة معرضا عن ذنبه، أو لقيت صفحته متجافيا عنه، أو تجاوزت الصفحة التي أثبت فيها ذنبه من الكتاب إلى غيرها »[3]. ومعنى ذلك، أنّ الذي يعفو يمكن أن يمنّ على الذي عفا عنه، فلا يفتأ يذكر ذلك أمام الناس، أما الذي يصفح فإنه يدع ذلك كله، وتلك مرتبة أكبر من العفو. لكن هذا لا ينطبق على المولى عز وجل، لأنّ عفو الله ليس فيه شائبة، لذلك لم يصف ذاته العليا بالصفوح، إنما بالعفوّ.

وفي خلاصة هذا الباب نقول: مثلما إنّ أعمال السوء كثيرة ومتنوعة، وذات درجات في الإساءة، كذلك كانت التوبة والتكفير عن هذه السلوكات السيئة مختلفة الطرق والأشكال. فما كان خفيفاً كان العفو عنه أقرب وأنسب، وما كان عظيماً تطلّب التكفير، لما في التكفير من تعب وعقاب، مصداقاً لقوله تعالى:**﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾**(المائدة:95). ومنه ما يغفره الله تعالى من غير علمنا، ومنه ما يتطلب

---

[1] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص233.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص515.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ج1، ص583.

توبة؛ وتوبة نصوحاً. وكل مصطلح يسبح في فضائه الدلالي الخاص به، ليكون بذلك كلاماً معجزاً بذلك الاستخدام والتوزيع الباهر العجيب في آيات القرآن العظيم.

2 - **فضاء الحياة الاجتماعية**: لقد صنفنا فيه ألفاظاً ذات الدلالة على مفاهيم الحياة الاجتماعية اليومية للناس، مع بعض الألفاظ ذات الدلالة العامة، والتي يمكنها أن ترد في كل مجال؛ مثل: شيء، أمر، فعل، آية، أحد. غير أنّ الملاحظ في هذا كله، أنّ القرآن الكريم يستخدم بعضاً من هذه المفردات، ويضرب صفحاً عن بعضها الآخر. ويرد بعضها في صيغ، ومشتقات متنوعة، ولا يرد آخر إلا بصيغة واحدة. وتلك ظاهرة مطّردة في كثير من ألفاظ القرآن، غير أنّ معرفة سبب هذا الاستخدام، ليست بالأمر الهيّن، إذ يصعب التأكد من السر الكامن وراءه. ومن ذلك المفردات التالية: السرقة، الزنى، الظهار، الطلاق، الربا... وقد ورد مثل هذه الألفاظ مرة أو مرتين، وكلها ذات دلالة معروفة، ومحددة، بحيث لا تلتبس بغيرها من الدلالات. وفي ذلك منطق معقول، واستخدام دقيق يدل على تنبيه الناس على كيفية التعامل مع المصطلحات الفقهية، أو القانونية في حياتهم، فلا يكثرون على الناس، ولا يغمضون ولا يلغزون في ذلك.

أ - **فضاء مفردات ألفاظ العموم:**

هو الفضاء الذي يحوي ألفاظاً دالة على معنى عام، يتحدد كل لفظ من خلال السياقات المختلفة؛ ومفرداته عامة في دلالتها حتى وهي خارجة عن السياق، وقد اختارها التعبير القرآني لتكون شاهدة على التوسع في المعنى، ودالة على مرونتها في تحميل المعاني وظلالها، وهي ليست كثيرة، وذاك أمر طبيعي، لأنّ التعبير عن المعاني يفترض فيه الدقة، والتحديد حتى يفهم المتلقي المقصود من الخطاب. وهذه المفردات هي: آية، وشيء، وفعل، وأمر، وأحد. فالأول يرد مفرداً نكرة وقلما يكون معرفة، ويرد جمعاً نكرة ومعرفة، فإذا جاء مفرداً نكرة، دلّ باطّراد على الآيات الكونية المختلفة، أو الأعمال الكبيرة العجيبة التي صنعها الإنسان بعلمه مجهوده، ومنها الآيات الحسية الخارقة التي تكون تصديقاً لنبوة نبي أو رسالة رسول. وقد ورد لفظ "آية" اثنتين وتسعين 92 مرة في القرآن معظمه مكي. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:﴿**فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾(العنكبوت:15)، ﴿**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(العنكبوت:44)، ﴿**مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ (الشعراء:154)، ﴿**وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ**﴾(الروم:58)، ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا**﴾(آل عمران:41)، ﴿**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ**﴾(المائدة:114)، ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**﴾ (يونس:92)، ﴿**وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً**﴾(هود:64)، ﴿**يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(النحل:11).

وبهذا الاعتبار، رفض بعض العلماء وقوع النسخ في القرآن، وقالوا إنّ الآية التي يستدل بها القائلون بالنسخ، ليس المقصود منها الآية القرآنية النصية، إنما المقصود آية أخرى؛ كونية أو أمر خارق. أو أنّ المقصود منها نسخ شريعة اليهود والنصارى، وليس آية قرآنية تنسخ آية قرآنية أخرى. قال تعالى:﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾(البقرة:106). والآية الأخرى المستدل بها هي:﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ**

مُفْتَرٍ﴾(النحل:101)[1]. غير أنّ بعض المفسيرين يرون أنّ المقصود بها هو آية قرآنية نصية، بقرينة قوله تعالى:﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ**﴾ [2]. غير أنّ لفظ "آية" وهو في حالة الإفراد قد اطّرد بمعنى واحد، في الآيات الاثنتين والتسعين المذكورة آنفاً، هو فضاء المعجزات الخارقة، والآيات الكونية الباهرة الدالة على عظمة الخالق عز وجل. وإن صحّ قول ابن عاشور ومن ذهب مذهبه، فيكون ذلك من بين الاستثناء الذي لم يَخْلُ منه القرآن في كثير من ألفاظه.

أما الفظ الثاني؛ أي "شيء" فيرد مفرداً وجمعاً نكرة في الحالين. والمفرد منه ورد كثيراً؛ في مائتين وموضعين 202 من القرآن، أما الجمع فورد أربع 4 مرات. وما يدل على أن لفظ "شيء" عام في دلالته، أنّ ابن منظور لم يورد له تعريفاً ولا شرحاً، ولو بالتقريب أو بالتمثيل، إنما قال:« والشَّيءُ: مَعْلُومٌ. قَالَ سِيبَوَيْهِ حِينَ أَراد أَن يَجْعَلَ المذَكَّر أَصلًا للمؤَنث: أَلا تَرَى أَن الشيءَ مذكَّر، وَهُوَ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَا أُخْبِرُ عَنْهُ »[3]. وذلك لأنه معلوم عند كل المتحدثين باللغة العربية؛ عامّهم وخاصّهم. وقال الأصفهاني:« الشيء قيل: هو الذي يصح أن يعلم ويخبر عنه، وعند كثير من المتكلمين هو اسم مشترك المعنى إذا استعمل في الله وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم. وعند بعضهم: الشيء عبارة عن الموجود »[4].

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ "**أشياء**" بصيغة الجمع قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾(المائدة:101). والمقصود بهذا اللفظ مسائل فقهية، أو اجتماعية غير محددة[5]. وواضح من خلال لفظ "أشياء" الوارد نكرة أن تكون الدلالة عامة إلى حد بعيد، حتى إنّ المقصود منها على وجه التحديد غير معروف، وإذا أضفنا أنّ سبب النزول مختلف فيه كذلك، بات معنى "أشياء" في هذه الآية غير محدد الدلالة. قال الشعراوي في ذلك:« لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس في الأمور التي تؤدي بهم إلى المشقة والتعب وتسيء إليهم وتقبل الحق من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشرعية مثل سؤالهم عن الخمر والأهلة والحيض والشهر الحرام وغيرها. أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق في شأنها:{عَفَا الله عَنْهَا والله غَفُورٌ حَلِيمٌ} .ذلك أن البعض استمرأ السؤال وكأنه يمتحن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ولذلك جاء الأمر بألا يتعمد المؤمنون السؤال عما ستره الله عنهم كي لا ينفضح عرضهم. {وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ} فإن نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها. وإن لم تأت الإجابة فلا يقولن أحد: إن النبي ليس عنده جواب. أو هي سؤال عن الأشياء التي اقترحوها ادّعاء منهم أنها تثبت صدق النبوة »[6].

أما المقصود بمفردة "أشياء" في الآيات الأخرى فهو القضايا الاقتصادية، والتعاملات التجارية بين الناس؛ كما في قوله تعالى:﴿**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾(الأعراف:85)، ﴿**وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ**

---

[1] - يراجع، محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج1، ص41، وص352، وج8، ص4269.

[2] - ابن عاشور، التحرير والنوير، ج14، ص281.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص104.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص561.

[5] - يراجع، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص66 - 67.

[6] - الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، ج6، ص3423.

بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾(هود:85)، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾(الشعراء: 182- 183). وذلك واضح من الألفاظ المرافقة مثل: الكيل، والميزان، والقسطاس، وتبخسوا.

وأما لفظ "فعل"، فيرد بأشكال عديدة؛ فعلاً، ماضياً ومضارعاً، ومشتقاً (اسم فاعل، اسم مفعول، وصيغة مبالغة). ويتعلق أكثر بأفعال الخالق عز وجل. ومن مشتقات هذه المادة ما لا يكون إلا لله تعالى؛ مثل صيغة المبالغة "فعّال" في قوله تعالى:﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(البروج:14 - 16)، وقوله:﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(هود:107). وكل صيغة تقريباً تحتل فضاء خاصاً بها، وتطّرد في مدلول واحد كذلك. فصيغة "مفعول" تتكرر في دلالة أفعال الله العظيمة؛ كالوعد والوعيد وغيرهما، وترتبط بلفظ "أمر" على الخصوص، وقد وردت سبع مرات في الخطابين المكي والمدني معاً؛ وهذه المواضع هي قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾(النساء:47)، ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾(الأنفال:42)، ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾(الأنفال:44)، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾(الإسراء:5)، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾(الإسراء: 108)، ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾(الأحزاب:37)، ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾(المزمل:18). وقد جاءت مادة "فعل" بصيغة "مفعولا"؛ وهو اسم مفعول للدلالة على أنّ هذه الأمور السابقة الذكر قد كانت في علم الله المقدر، وفي قضائه المسبق.

وأما لفظ "أمر"، فيرد مصدراً مفرداً؛ نكرة ومعرفة، وجمعاً معرفة أيضاً، كما يرد بصيغة الفعل؛ ماضياً ومضارعاً، وأمراً. مثل قوله تعالى:﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾(القدر:3)، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾(الانفطار:19)، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ (الطلاق:12)، ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(الشورى:43).

والملاحظ في هذا اللفظ، أنه لا يرد مكانه لفظ "شيء" وهو صنوه في معنى العموم، فلا يمكن أن نضعه بدلاً من اللفظ الأصلي في الآيات السابقة. إذ لا يستقيم أن يقال: بإذن ربهم من كل شيء، ولا: والشيء يومئذ لله، ولا: إن ذلك لمن عزم الأشياء. وكأنّ في لفظ "أمر" هالة كبيرة من الدلالة الواسعة، والمتنوعة ليست في لفظ "شيء".

وفي حال - ورود لفظ "أمر" بصيغة الاسم يكون المعنى عاماً، وهو شيء مقصود أن يكون كذلك، أما إذا كان بصيغة الفعل، أو اسم مشتق فإن المعنى يكون أكثر تحديداً، كما قال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل:90)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(آل عمران:21)، ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(التوبة:112). ففي هذه الآيات يبدو المعنى، من فعل "أمر" واضحاً محدداً لا يقبل تأويل آخر غير مراد، وذلك في كل آية من تلك الآيات.

أما لفظ "أحد"، فيورده التعبير القرآني للدلالة على العموم، وذلك في القضايا العامة والخاصة، التي تتطلب مقام الحصر مثل قوله تعالى:﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾(الصمد:1)، ﴿**وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى**﴾(الليل:19)، ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ**﴾(البلد:7)، ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ**﴾(الفجر:25)، ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي**﴾(ص:35)، ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ**﴾(الأحزاب:40)، وغير ذلك من الآيات. غير أنّ الألوهية لا توصف بلفظ "أحد" إلا في سورة الإخلاص، وكل الآيات الوارد فيها توحيد الألوهية جاءت بلفظ "واحد"؛ مثل قوله عز وجلّ:﴿**إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ**﴾(الصافات:4).

ولا يرد لفظ "أحد" معرّفاً بأل أبداً، كما يرد لفظ "الواحد" في مثل قوله تعالى:﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾(يوسف:39)(*). أما في كلام الناس فقد يرد معرّفاً كأن يقال: الله هو الواحد الأحد، الفرد الصمد. وإن كان في اللغة للنفي والإثبات« فأما المختص بالنفي وما في حكمه فإنه لاستغراق الجنس ويكون منكرا يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث »[21]؛ وهو ما احترمه القرآن الكريم في أسلوبه الحكيم.

ب – **مفردات المعاملات الاجتماعية**: ورد في الحديث النبوي قوله عليه الصلاة والسلام:« الدين المعاملة »، و« الدين النصيحة ». وأحاديث أخرى كثيرة تعرض لتفاصيل السلوكات الاجتماعية، وتجعلها في كثير من الأحيان قطب الرحى في مسألة التدين، وفيها ألفاظ كثيرة مثل: الصدقة، والأمانة والصدق، الطاعة، سوء الظن، وحفظ الحواس (غض البصر، حفظ اللسان، الغيبة، النميمة، السخرية)، الكرم؛ وما يقابلها من مضادات مثل: الكذب، والخيانة، والبخل، وأنواع الظلم.. إلخ. والآيات التي تذكر هذه الأمور جلّها مدنية، ويأتي أسلوبها مباشراً، أمراً أو نهياً، أو مدحاً، أو تهديداً ووعيداً إذا كانت الخصلة بالغة الخطورة.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾(الإسراء:29)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾(النساء:29)، ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾(النور:30)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾(الحجرات:12)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(الأنفال:27)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**﴾(الحجرات:11)، ﴿**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**﴾(الهمزة:1)، ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**﴾(الأنفال:21)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾(محمد:33)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾(الحجرات:2).

وتتعرض مواضيع هذه الآيات، وغيرها، للقضايا الاجتماعية اليومية الدقيقة، والتي عادة ما يكون لها الأثر البالغ؛ إيجاباً حين تطبيقها، وسلباً، حين إهمالها. وحتى إننا نجد نهياً عن أشياء، تعتبر تاريخية بعد عصر النبي (ص)،

---

* نلاحظ - هنا - توظيف لفظ الجلالة "الله" بدلاً من "رب"، مع أنّ السؤال في الآية كان عن الرب (أأرباب) إلاّ أن الجواب كان بلفظ "الله"، فلم يقل: أم الربّ الواحد القهار. وذلك لاجتناب ذكر لفظ "الرب" معرّفاً كما هي عادة التعبير القرآني في ذلك.

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص312.

مثل: عدم جواز التزوج بنسائه (ص) من بعده، كما قوله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا**﴾(الأحزاب:53)، وعدم جواز رفع الصوت فوق صوته (ص) كذلك. والخطاب القرآني يورد ذلك لنتعلّم منه، أو ليوحي به إلى ما يجب سلوكه في حياة الناس بعد النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، مع العلماء والحكام وأولياء الأمور وغيرهم.

وهذا المجال لا تتكرر مفرداته كثيراً ولا تتنوع صيغها الصرفية، وليس في دلالاتها ما يخفى، أو يُتأوّل على غير حقيقته الاجتماعية، وهي كافية أن يوردها الخطاب القرآني مرة أو مرتين ليقتدي بها من شاء من الناس، فهي مثل المواد القانونية؛ دقيقة الدلالة، مختصرة الأسلوب، مباشرة القصد. وبناء على هذا، لم نطل فيها، ولم نكثر من أمثلتها.

وفي المبحث التالي سنعرض للثنائيات المتشابهة، أو المترادفة، أو النظائر، التي ذكرناها في الفصلين السابقين، غير أنّ في هذا الفصل، سنورد الثنائيات المذكورة في الخطابين معاً. لنعرف الفرق بينها وبين تلك التي وردت في خطاب واحد فقط.

المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية المتشابهة (المترادفة)

لقد عالجنا جزءاً من هذه المسألة في الفصل الثاني، وأرجأنا الجزء الآخر إلى هذا الفصل، لأنّ الخطاب القرآني ذاته فعل ذلك؛ إذ ذكر إحدى هذه المفردات في الخطاب المكي باطّراد، وذكر المفردة الأخرى في الخطاب المدني باطّراد أيضاً، إلا ما كان من بعض الاستثناءات القليلة، والنادرة أحياناً. وسنعود إلى الترتيب نفسه الذي عالجنا به هذه المفردات في الفصل الخاص بالخطاب المكي، كما يلي:

1 - 3 - **الإسلام والدين**: ورد هذان المصطلحان بنوع من الاختلاف؛ فالأول يأتي بصيغ متنوعة؛ بصيغة الفعل وصيغة الاسم، ويأتي لمعنى واحد محدد، أما الثاني فيرد بمعان كثيرة، وبصيغة الاسم تحديداً. وكلاهما يردان في الخطابين معاً. وسنعرض لهما، فيما يلي من هذه الآيات، ونجدهما يتمظهران كالتالي:

أ - صيغة الاسم: ورد معرّفاً بِالْ في مثل قوله تعالى:﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ**﴾(آل عمران:19)، ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾(آل عمران:58)، ﴿**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**﴾(المائدة:3)، ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ**﴾(الأنعام:125)، ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ**﴾(الصف:7). وهي آيات مدنية، وكأنّ القرآن يلمّح بهذا الوصف؛ أي "الإسلام"، وليس "الدين"، إلى أصناف الناس الذين كانوا في المدينة؛ منهم يهود ومنافقون ونصارى، وينبّههم على أنّ الدين الحق هو الإسلام الذي جاء به محمد(ص)، وأنّ غيره منسوخ، ولا يعتدّ به، مهما قيل فيه.

وقد نجد سبيلاً لشرح الفرق الذي بين "الإسلام" و"الدين"، إذا اعتبرنا الفرق بين الرسول والنبي، إذ يبدو أن كلمتيْ الإسلام والدين متعلقتان بكلمتيْ الرسول والنبي، فإذا كان الأول يعني حمل مبادئ الدين الكبرى؛ العقدية منها بالأساس، نجد أن القرآن الكريم يكثر من مخاطبة محمد(ص) بلفظ الرسول في القرآن المكي، أي إنه يخاطبه بصفته صاحب الرسالة والشريعة الجديدة، ومن ثم كان الجزاء للكافرين شديداً، فقد كان القرآن المكي يردف ذكر عقوبة الذين يكفرون بهذه الأصول الكبرى والحقائق الثابتة. أما في القرآن المدني فكان يخاطب محمداً (ص) بلفظ النبي، وكانت الأمور المتعلقة بهذا الخطاب تفصيلية للدين أو للتدين، ولم يردف في كثير من الأحيان العقوبة من جراء مخالفة هذه الأمور، إلا ما كان متعلقاً بالمنافقين. لأنهم - في واقع أمرهم - كافرون بالرسالة أصلاً.

إذاً، تتعلق الرسالة بالإسلام وأصوله الكبرى(بني الإسلام على خمس)، وهي تلك التي يقول عنها الأصوليون "المعلوم من الدين بالضرورة"[1]؛ أي لا يعذر الجاهل بجهلها، ولا بد له من معرفتها لأنه مسلم، ولا يكون كذلك وهو يجهل أبسط قواعد الإسلام. أما مظهر التدين فيتعلق بالجانب الديني، وهو أمور تفصيلية كثيرة تؤكد أصول الإسلام، وقد يجهل كثير من الناس هذه الجزئيات، وهي محل بحث الدعاة ودعوة الناس إليها، وإفهامهم إياها لأنها ليست

[1] - يراجع، الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص197، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص247، و347.

ظاهرة بيّنة كأصول الإسلام. وقد قال النبي (ص):« الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى المشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي المشّبّهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أن يُواقِعَ [1].

فالإسلام هو القواعد الكبرى المحددة له، والتي يقوم بها كل الناس بالطريقة ذاتها تقريباً، أما الدين أو التدين فهو الطريقة التي يتوخّاها المسلم في علاقته بالإسلام؛ فبعض الناس يكثرون من الصلاة، وبعضهم الآخر يكثر من الصدقات، والأعمال الخيرية، وغيرهم ينكب على طلب العلم، أو الجهاد، وهكذا...

ولذلك كان القدامى في ترجمتهم لبعض الشخصيات يصفونها بقولهم: والرجل صاحب دين ومروءة، ولا يقولون صاحب إسلام، أو مسلم. ونحن الآن نقول إنه شخص متديّن؛ أي ملتزم بشكل جيد لأمور الإسلام، من صلاة وصيام وصدقات، ومن معاملات الناس على الخصوص.

يقول باحث معاصر عن مفهوم الإسلام:« معناه ظاهر بيّن، وهو الطاعة والخضوع، ولكن القرآن رفع هذه الكلمة فخصّها لطاعة الله، مثل كلمة "الدين"، فإنه الطاعة في أصل اللغة، وقد استعمله العرب لطاعة الله. ثم لهذا المعنى وجوه، ونتائج، وتأريخ. والقرآن دلّ على كل ذلك »[2].

ويقول بعد أن ذكر آيات كثيرة تشرح معنى الإسلام:« فدلّ على أربعة أمور: الأول أن كل شيء أسلم لله. والثاني أن كلهم يرجعون إليه، وهذا لازم للإسلام، فإن رجعوا إلى غيره كان الإسلام باطلاً، فدلّ على المعاد. والثالث أن الإسلام يتحقق بإطاعة رسله، لما يظهر من سياق هذه الآية. والرابع أن الإسلام لا اختلاف فيه، فإن كلهم أسلموا لله، فدينهم واحد، فلا مشاجرة فيه، كما صرح في قوله:﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾(آل عمران:19 - 20)»[3]. وواضح أنّ هذه الآية تشرح معنى الإسلام بصورته العامة، وبقواعده الأساسية الكبرى؛ وهي الإيمان بالله وبآياته التي يرسلها المولى جل وعلا إلى أقوام الرسل. وهذا هو الجوهر الذي ينبني عليه الإيمان والكفر.

متعلقات لفظ "الدين" ولفظ "الإسلام":

– يُسند لفظ الإسلام إلى الدين، وليس العكس، أي لا يقال إن الإسلام الدين؛ بل إن الدين الإسلام. فجعل الإسلام خبراً للمبتدأ الدين، كما في الآية السابقة. ومن ثَم كان المخبر به غير المخبر عنه، ولا يطابقه تمام المطابقة، أي ليس مرادفين.

---

[1] - حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، مراجعة: عبد القادر الأرناؤوط، تصحيح: بشير محمد عيون مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية، 1990، ج1، ص141- 142.

[2] - عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، ص149.

[3] - المرجع نفسه، ص149 - 150.

– وهناك ملاحظة أخرى وهي أن لفظ (الإسلام) يضاف إلى ضمير خاص بالعباد، وكذلك لفظ (الدين). قال تعالى:﴿**قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ**﴾(الحجرات:17)، وقال أيضاً:﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾(الكافرون:6). ولكن لفظ (إسلام) لا يضاف إلى الله تعالى أبداً؛ أي لا يقال: إسلام الله، ولكن يقال: دين الله.

– يشتق من لفظ الإسلام أفعال في مختلف الأزمنة؛ ماض، مضارع، وأمر، كما في قوله جلّ وعلا:﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا**﴾(آل عمران:20)، ﴿**فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا**﴾(الحج:34)، ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ**﴾(الحجرات:17). أما لفظ الدين فلا يشتق منه إلا فعل واحد بصيغة المضارع، في قوله تعالى:﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ**﴾(التوبة:29).

والسبب في هذا الاستخدام، أنّ القرآن الكريم يطلب من الناس أن يدخلوا في الإسلام كافة، فكرر ذلك بأفعال مختلفة مشتقة من مادة "إسلام" نفسه. أما من الفعل "دان" المأخوذ من مادة "دين" فلم يستخدم إلا هذا الفعل الذي ورد في آية التوبة، لأنه ليس مطلوباً من العبد أن يتدين فحسب، وإلا كانت كل الديانات صالحة لذلك، إنما المطلوب أن يدين بالدين الحق، ولهذا أردف القرآن عبارة {دين الحق} بعد الفعل {يدينون}. ليبيّن أنّ دين الحق هو الإسلام لا غير. لهذا كثر فعل (أسلم) وتصريفاته، وقلّ تصريف فعل (دان) في النسق القرآني.

2 - **فضاء الأخوة**: يرد في القرآن الكريم صيغتان لجمع "أخ" هما: إخوان وإخوة. على وزن فِعلان، وفِعلة. ولكل منهما استخدام خاص، وفضاء يدور فيه بشكل مطّرد، حيثما وردا في الخطابين المكي أو المدني.

إخوان وإخوة: يستعمل القرآن الكريم لفظة "إخوان" للدلالة على أخوّة المعتقد والسلوك المشترك، أو دلالة على الصحبة والملازمة. ويستعمل لفظ "إخوة" للدلالة على أخوّة النسب أو الدم. يقول ابن منظور مبيّنا ذلك:« الأخ من النسب: معروف، وقد يكون الصديقَ والصاحبَ... والاثنان أَخَوان، والجمع إخوان وإخوة... وأَخون وآخاء وأُخوة... وقولهم: إخوان العزاء وإخوان العمل، وما أشبه ذلك إنما يريدون أصحابه وملازميه... غير أنّا لم نسمعهم يقولون إخوة العزاء وإخوة العمل... إنما هو إخوان، ولو قالوه لجَاز، وكل ذلك على المثَل »[1]. ويقول في موضع آخر:« وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوة في الولادة »[2]. وقال الأصفهاني:« الأصل أخو، وهو: المشارك آخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من الرضاع. ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة أو في مودة، وفي غير ذلك من المناسبات »[3].

وهنا نعود مرة أخرى إلى سر اختيار القرآن للفظ دون غيره، فهو لم يستعمل أبداً لفظ "شقيق" المرادف للفظ "أخ"« وَهَذَا شَقِيقُ هَذَا إِذَا انْشَقَّ بِنِصْفَيْنِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا شَقِيقُ الْآخَرِ أَي أَخوه، وَمِنْهُ قِيلَ فلانٌ شَقِيقُ فلانٍ أَي أَخوه »[4]. والناس يستعملونه بكثرة في مختلف معاملاتهم، وكتاباتهم.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، مادة "أخا"، ص40.

[2] - المرجع نفسه، مادة أخا، ص41.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص20.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج10، مادة شقق، ص182.

وقد استعمل القرآن هاتين الصيغتين- إخوة وإخوان - بنوع من الاطّراد الذي لا يكاد يتخلف، إلا نادراً حين يريد معنى خاصاً مقصوداً بذاته. كما هو الشأن في قصة يوسف عليه السلام، إذ لم يصف القرآن أبداً إخوته بأنهم إخوانه لأنهم فعلاً إخوته من أبيه يعقوب عليه السلام؛ أي إخوة النسب. قال تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**﴾(يوسف:7)، ﴿**وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**﴾(يوسف:58)، ﴿**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**﴾(يوسف:100)، ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا**﴾(يوسف:5).

أما في حالة ذكر علاقة غير النسب، فإنّ القرآن الكريم يورد لفظ "إخوان"، في دلالة الصحبة، أو النسب العقائدي، والسلوكي، مثل قوله تعالى:﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ**﴾(الإسراء:27)، وقوله عن المؤمنين يوم القيامة:﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**﴾(الحجر:47)، وقوله:﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**﴾(البقرة:220)، وقوله في المعتدين:﴿**فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾(التوبة:11)، وقوله:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ**﴾(التوبة:23)، وقوله:﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾(الأحزاب:4 - 5). وربما لهذا السبب سمّى حسن البنا رحمه الله جماعته "بالإخوان المسلمين"، وليس بالإخوة المسلمين.

غير أنه قد ورد لفظ "إخوان" مقصوداً به المعنيان معاً؛ أي أخوّة النسب أو الدم، وأخوّة الصحبة والملازمة، وذلك في قوله تعالى:﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾(التوبة:24)، ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾(الأحزاب:5)، ﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ**﴾(النور:61).

إنّ التعبير القرآني انتقى لفظ "إخوة" للدلالة على أخوة النسب، واختار لفظ "إخوان" للدلالة على أخوة الدين والمذهب والفكرة، ذلك لأنّ« القرآن الذي لا يستعمل - البتة - كلمتين أو صيغتين لمعنى واحد... استثمر الطاقة الصوتية الكامنة في كل من الصيغتين. فخصص هذه لمعنى، وتلك لآخر »[1]. وهذا الملحظ وارد، ومطّرد في كل مواضع الخطاب القرآني تقريباً. وما كان من استثناء فلأنّ المقام يتطلّبه، لكون الدلالة والمعنى أولى من غيرهما بالعناية، فلا الشكل ولا الأسلوب. وذلك ما يلاحظ في كل المفردات التي فيها استثناء عن الفضاء العام المرسوم لها.

3 - **فضاء الإقامة والسكن**: ونجد فيه مصطلحين اثنين؛ هما: المدينة والقرية، ويطرد كل منهما في الخطاب القرآني؛ المكي والمدني، كما يلي:

[1] - عودة الله منيع القيسي، سر تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص213.

- **القرية والمدينة:** قال ابن منظور:« القَرْيَة والقِرْيَة لُغَتَانِ... وَجَمْعُهَا قُرًى، جاءَت نَادِرَةً. والقَرْيَة مِنَ المَسَاكِنِ والأَبنية والضِّياع وَقَدْ تُطْلَقُ عَلَى المُدُنِ. وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: مَا رأَيت قَرَوِيّاً أَفصَح مِنَ الحَجَّاجِ إِنما نَسَبَهُ إِلى القَرْيَة الَّتِي هِيَ المِصْرُ»[1]. أما المدينة فزاد فيها وقال:« مَدَنَ بِالمَكَانِ: أَقام بِهِ، فِعْلٌ مُمات، وَمِنْهُ المِدِينة، وَهِيَ فَعِيلة، وَتُجْمَعُ عَلَى مَدَائن، بِالهَمْزِ، ومُدْنٍ ومُدُن بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ... والمِدِينة: الحِصْنُ يُبْنَى فِي أُصطُمَّةِ الأَرض، مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ. وكلُّ أَرض يُبْنَى بِهَا حِصْنٌ فِي أُصطُمَّتِها فَهِيَ مَدِينَةٌ »[2]. وجاء في مخطوطة الجمل:« القرية: البلد الكبير يكون أقل من المدينة أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. ومثناها: قريتان والجمع: قرى »[3]. وليس في هذه التعريفات تفرقة بدقة بين مدلول "القرية" ومدلول "المدينة"؛ ولعل ذلك راجع إلى التداخل الشديد بينهما، وإلى الاستخدام الشائع لهما في الدلالة على الأمصار، والمقاطعات المسكونة. غير أنهما يردان في القرآن بنوع من التميّز، كما يظهر فيما يلي:

- المتعلقات اللفظية بمصطلحيْ قرية ومدينة:

الملاحظ في استخدام القرآن لهاتين الكلمتين، أنّ لفظ "القرية" يأتي مفرداً ومثنى وجمعاً، ويأتي نكرة ومعرفة، أما لفظ "المدينة"، فلا يأتي إلا مفرداً معرّفاً بِالْ، أو جمعاً معرّفاً كذلك. كما في قوله تعالى:﴿**قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ**﴾(الأعراف:111)، ﴿**قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ**﴾(الشعراء:36)، ﴿**فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ**﴾(الشعراء:53). وهو أمر متعلق بقصة فرعون لا غير.

جاء في مخطوطة الجمل:« المدينة: البلدة العظيمة تجمع المنازل والأسواق، واشتقاقها من فعل مُمات هو مدن بالمكان: أقام به، وجمعها مدائن. وتكرر ذكر المدينة في القرآن مرادا بها في جملتها مدينة معينة، وقد نصل إلى العلم بها، وقلما نصل إلى ذلك، وإنما فيها بعض الروايات التي لا تبلغ القطع واليقين »[4]. ويجمعها الأصفهاني على مُدن.

وما يلاحظ في لفظ "المدائن" أنه يرد دوماً متعلقاً بلفظ "حاشرين" في كل المواطن التي ورد فيها. وأنّ الله تعالى لم يسلط عذاباً على المدينة، إنما سلّطه على القرية وأهلها، وأهلك بعضاً من هذه القرى، ودمرها تدميراً. وإنّ لفظ "القريتين" الوارد في قوله تعالى:﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾(الزخرف:31)، يقصد به "مكة" و"الطائف"« والقريتان هما: مكة والطائف لأنّهما أكبر قُرى تهامة بلد القائلين وأما يثرب وتيماء ونحوهما فهي من بلد الحجاز »[5]. غير أنّ الله تعالى سمّى مكة أم القرى؛ وسمّاها قرية أيضاً في قوله عز وجل:﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ**﴾(محمد:13). وقال أيضاً:﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا**﴾(النساء:75). فهي قرية إذن، أما المدينة المنوّرة(يثرب)فلَمْ يسمّها إلا باسم المدينة، ولعل هذا ما يجعل الفرق الدلالي بين المصطلحين وارداً

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص177- 178.

[2] - المرجع نفسه، ج13، ص402. والْأُسْطُمَّةُ مُعْظَمُ الشيءِ، ومُجْتَمَعُهُ، أو وسَطُه. (القاموس المحيط. دار الفكر للطباعة والنشر، مادة: (ص ط م)، ص1018).

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص347.

[4] - المرجع نفسه، ج4، ص228.

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص199.

في الاستخدام القرآني. غير أنّ كثيراً من المفسرين لا يرون فرقاً بين القرية والمدينة من حيث دلالتهما على مجتمع بشري وعمراني. إلا أن الألوسي يقول:« والقرية بفتح القاف والكسر لغة أهل اليمن المدينة من قريت إذا جمعت سميت بذلك لأنها تجمع الناس على طريقة المساكنة، وقيل: إن قَلّوا قيل لها: قرية، وإن كثروا قيل لها مدينة »[1]. ولعل هذا أحد الفروق الظاهرة بين القرية والمدينة، وهو الفرق نفسه الذي نراه في عصرنا في توظيف مدلول هذين المصطلحين.

والظاهر - والله أعلم - من خلال الاستخدام القرآني للمصطلحين، أنّ القرية تأتي للدلالة على أنّ فيها قوماً ذوي قرابة خاصة؛ ليس فيهم غرباء، ولا خليط أجناس، ولا معتقدات مختلفة. وبناء على هذا نجد أنّ المدينة المنوّرة كان فيها عرب ويهود، وربما بعض النصارى، وفي هذا اختلاف واضح في المعتقد والجنس.

أما الآيات الأخرى التي ورد فيها ذكر المدينة، فتنقسم إلى قسمين: أحدهما دالّ على يثرب« مدينة الرسول (ص)»، وثانيهما دال على مجرّد مدينة في عصر من العصور الخوالي. وعندما يكون المقصود بلفظ المدينة؛ يثرب، يرد ذلك في الخطاب المدني، أما إذا كان المقصود غير ذلك، فيرد في الخطاب المكي. ومعنى ذلك أنّ التفريق في دلالة مصطلح "مدينة" بين "المدينة المنورة" أو "مدينة" معينة في عصر مضى، إنما يعوّل على نوع الخطاب القرآني؛ أمكيّ هو أم مدني، لكون المصطلح معرّفاً بِاَلْ في الحالين. ومن ثَمّ، نجد التعبير القرآني يحصر الدلالة الأولى في الخطاب المدني، ويحصر الدلالة الثانية في الخطاب المكي، وذلك باطّراد كامل في كل القرآن الكريم. وذلك لكي لا ينوّع القرآن الألفاظ الدالة على شيء واحد من غير داع دلالي قوي؛ من واقع، أو تاريخ، أو ثقافة، أو غيرها.

غير أنّ القرآن الكريم لم يورد اسم "يثرب" إلاّ مرة واحدة، في الخطاب المدني، وذلك على لسان المنافقين، في قوله تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا**﴾(الأحزاب:13). قال ابن عاشور:« وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَثْرِبُ: اسْمُ أَرْضٍ وَالْمَدِينَةُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا، أَيِ: اسْمُ أَرْضٍ بِمَا فِيهَا مِنَ الْحَوَائِطِ وَالنَّخْلِ وَالْمَدِينَةُ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ. سُمِّيتْ بَاسِمِ يَثْرِبَ مِنَ الْعَمَالِقَةِ، وَهُوَ يثرب بن قَانِيَةَ الْخَفِيدِ الْخَامِسِ لِإِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ تَسْمِيَتِهَا يَثْرِبَ وَسَمَّاهَا طَابَةَ »[2]. وفي ذلك إعجاز ما، فإذا عرفنا أن النبي (ص) نهى عن تسمية المدينة المنورة باسم يثرب، واختار لها اسم طابة[3]، أمكننا أن نفهم سبب إيرادها في القرآن بدلا من اسم المدينة. ذلك أن القرآن نقل بأمانة أقوال المنافقين حرفياً، وبما أنهم منافقون يُخفون كفرهم، فإن لسانهم يفضحهم أحياناً، وجعلهم ينطقون بلفظ "يثرب" في ندائهم لأهل المدينة، فكشفوا عن نيتهم في تمسكهم بالاسم القديم الذي نهى النبي(ص) عن استخدامه، وقد فضحهم لسانهم بتلك الزلة والسقطة، فكأنهم بهذا الاستخدام يَحنّون إلى الجاهلية الأولى، وفي هذا دليل كاف على نفاقهم وادّعائهم الإسلام ظاهرياً لا غير.

والآيات التي تتحدث عن المدينة أربع عشرة آية: أربع منها وردت في القرآن المدني، وهي:﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾(التوبة:101)، ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا**

[1] - الألوسي، روح المعاني، ج1، ص264.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص284 - 285.

[3] - يراجع ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص285. وابن منظور، لسان العرب، ج1، مادة: ثرب، ص235.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾(التوبة:120)، ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾(الأحزاب:60)، ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾(المنافقون:8).

أما بقية الآيات فهي من العهد المكي، وتذكر مُدناً معيّنة لأقوام مضوا مثل قوله سبحانه:﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾(الأعراف:123)، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾(يوسف:30)، ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(الحجر:67).﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾(الكهف:19)، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾(الكهف:82)، ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾(القصص:15)، ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾(القصص:18)، ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾(القصص:20)، ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾(يس:20)، ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(النمل:48)، وهذه الآية تتحدث عن قوم صالح عليه السلام، ومساكن قوم صالح تعرف في التاريخ باسم مدائن صالح.

ومعظم الآيات الواردة فيها لفظة "مدينة" هي تلك التي تتحدث عن موسى عليه السلام وقومه، أي حين كان في مصر يواجه فرعون، وفي قصة يوسف عليه السلام كذلك. ولعل الشيء المشترك بينهما هو حدوثهما في المكان نفسه؛ أي مصر. وكأن في ذلك إشارة إلى أن مصر كانت ذات حضارة ومدنية آنذاك. أما البقية فوردت في قصص سورة الكهف، وفي قصة قوم صالح عليه السلام التي في سورة النمل. يقول ابن عاشور:« والْمَدائِنِ: جَمْعُ مَدِينَةٍ، أَيِ الْبَلَدُ الْعَظِيمُ. وَمَدَائِنُ الْقُطْرِ الْمِصْرِيِّ يَوْمَئِذٍ كَثِيرَةٌ... وَالتَّعْرِيفُ فِي الْمَدائِنِ لِلِاسْتِغْرَاقِ، أَيْ فِي مَدَائِنِ الْقُطْرِ الْمِصْرِيِّ، وَهُوَ اسْتِغْرَاقٌ عُرْفِيٌّ، أَيِ الْمَدَائِنُ الَّتِي لِحُكْمِ فِرْعَوْنَ أَوِ الْمَظْنُونُ وُقُوعُهَا قُرْبَ طَرِيقِهِمْ »[1].

أما مصطلح "القرية" فورد أكثر من مصطلح "المدينة" بكثير؛ أي ثلاثاً وخمسين 53 مرة، جلّ مواضعها في القرآن المكي، ما عدا قوله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾(البقرة:58)، ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾(البقرة:259)،﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾(النساء:75)، ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾(الحج :45)، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾(الحج:48)، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾(محمد:13)، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾(الطلاق:8)، و﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(الحشر:7) و﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ﴾(الحشر:13).

ومدلول "القرية"- التي وردت في آية البقرة - فيه خلاف بين المفسرين؛ فمن قائل إنها بيت المقدس، أو أريحا كالطبري، والزمخشري، ومن قائل إنها حبرون كابن عاشور. يقول سيد طنطاوي:« القرية: هي البلدة المشتملة على مساكن، والمراد بها بيت المقدس على الراجح »[2]. أما ابن ابن عاشور فيقول فيها:« فَقَوْلُهُ: ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهَا «حَبْرُونَ» الَّتِي كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْهُمْ وَالَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا جَوَاسِيسُهُمْ وَأَتَوْا بِثِمَارِهَا، وَقِيلَ: أَرَادَ مِنَ الْقَرْيَةِ

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص129 - 130.

[2] - سيد طنطاوي، التفسير الوسيط،ج1، ص140.

الجِهَةَ كُلَّهَا »[1]. ويبدو أنّ هذا الاختلاف غير ذي بال، ما دام واقع هذه القرى المذكورة أنها كانت خاصة بقوم، لا بأقوام مختلفي الأجناس واللغات، والله أعلم.

وما يلاحظ كذلك أن الله تعالى جرت حكمته على تدمير القرى الباغية الطاغية الظالمة، وليس المدن، أو المدائن، فلم يذكر تعالى أنه أهلك أصحاب المدن إلا في موضع واحد من القرآن هو قوله سبحانه:﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾(النمل:48 - 52). والمَدِينَةِ هنا« هِيَ حِجْرُ ثَمُودَ الْمَعْرُوفُ مَكَانُهَا الْيَوْمَ بِدِيَارِ ثَمُودَ وَمَدَائِنَ صَالِحٍ، وَهِيَ بَقَايَا تِلْكَ المَدِينَةِ مِنْ أَطْلَالٍ وَبُيُوتٍ مَنْحُوتَةٍ فِي الجِبَالِ. وَهِيَ بَيْنَ المدِينَةِ وَتَبُوكَ »[2].

لقد أتى الخطاب القرآني بلفظين مختلفين للدلالة على شيء واحد تقريباً، لكن استعمالهما حدّد طريقاً خاصاً، وفضاء معيّنا، لكل واحد منهما. وفي ذلك إشارة - ربما - إلى مسألة تاريخية وعمرانية في بناء المدن والقرى، وإشارة إلى قاطنيها، وأصولهم وأجناسهم ومعتقداتهم المختلفة. والله أعلم بمراده من ذلك كله.

4 - **فضاء المجادلة والحِجاج**: فيه مصطلحان هما: الجدل (الجدال)؛ والحجاج (الحُجة)، غير أنّ الحِجاج لم يرد إلاّ بصيغة الفعل، أما الجدل فورد بصيغتين هما: الفعل والاسم.

جاء في مقاييس اللغة:« (جَدَلَ) الْجِيمُ وَالدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنْ بَابِ اسْتِحْكَامِ الشَّيْءِ فِي اسْتِرْسَالٍ يَكُونُ فِيهِ، وَامْتِدَادِ الخُصُومَةِ وَمُرَاجَعَةِ الكَلَامِ »[3]. وقال الأصفهاني:« الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله... وجدلت البناء: أحكمته، ودرع مجدولة، والأجدل: الصقر المحكم البنية. والمجدل: القصر المحكم البناء، ومنه: الجدال، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. وقيل: الأصل في الجدال: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة »[4].

وجاء في تعريفات الشريف الجرجاني:« الجدل: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة »[5]. وهذان التعريفان اصطلاحيان؛ وهما يخصّان المنطق، وعلم الكلام. والجملة الأخيرة من التعريف - وهو الخصومة في الحقيقة - قد يكون فيها مفهوم الجدل هو المعنى اللغوي الحقيقي.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص513.

[2] - المرجع نفسه، ج19، ص282

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص433.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص175.

[5] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص74.

وورد اللفظان في مخطوطة الجمل بمعنى واحد:« جدل الرجل جدلا فهو جدل خاصم. الجدل: المنازعة في الرأي، ويطلق علي شدة الخصومة واللدد فيها. جدلا:(.. وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً..) "54/الكهف".أي منازعة في الرأي والخصومة بالباطل:(وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً) "58/الزمر" أي إلا مبالغة في الخصومة. وجادل مجادلة وجدالا: خاصم، وقد يكون الجدال بالباطل ليصرف عن الحق وقد يكون بالحق ليدحض الباطل والمقام هو الذي يُعيّن المراد »[1].

وقد ورد مصطلح الجدال في السور المكية والمدنية على السواء، غير أنه ورد في بعض السور المدنية بمعنى مخالف لما ورد في السور المكية، وذلك في سورتيْن هما: البقرة والمجادلة. أما في السور المكية فكان الجدال صادراً من المشركين، وكان خاصاً بالجدال في آيات الله. ولم يرد بصيغة مفاعلة؛ أي "مجادلة". والواقع أنّ القرآن الكريم يفضّل وزن "فِعال" على وزن "مفاعلة"؛ مثل: جدال، جهاد، فراق، نفاق... بدلاً من مجادلة، مجاهدة، مفارقة، ومنافقة...

والغريب في الأمر أنّ إحدى سور القرآن المدني تسمّى "المجادلة" وليس سورة "الجدال". ولكن ليست هذه التسمية من تعبير القرآن، إنما هي تسمية اصطلاحية، وفي هذا دليل - مرة أخرى - على أنّ ما يختاره القرآن الكريم من ألفاظ اللغة مختلف عمّا يختاره الناس منها.

يقول باحث معاصر:« مادة(ج د ل) ومشتقاتها - مصدراً وغير مصدر- لم تأت في القرآن للدلالة على القول الحق إنما للدلالة على القول الذي يتجاوز الحق. لقد وردت في القرآن ثلاثين مرة وكان في كل مرة - ماعدا مرتين - تأتي في معرض ذم الجدل، أو أنه خصومة فيها تجاوز للحق »[2].

والفرق بين "جَدَلٌ" و"جِدال"، أنّ الأول مصدر صريح للفعل الثلاثي(جَدَلَ)، أما الثاني فمصدر للرباعي "جَادَلَ" الذي فيه معنى المشاركة، وهذا المعنى غير وارد في المصدر "جَدَلٌ". ومن ثمَّ، فالآيات التي ورد فيها الجدل كانت بمعنى « الانفرادية، فقوله تعالى(وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) هو نظرٌ للإنسان من حيث هو إنسان، أي من حيث هي قضية واحدة، لا طرف من طرفيْ خصومة »[3].

وما يلاحظ أيضاً أنّ القرآن الكريم لم يورد الفعل "جدل" الثلاثي أبداً، إنما يورد دوما الفعل الرباعي "جادل". قال تعالى:﴿**وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ**﴾(النساء:107)، ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**﴾ (الكهف:56)، ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾(الحج:3)، ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾(غافر: 4). ذلك أنّ الجدل ما هو إلاّ وسيلة لدحض الحق، أو لغلبة الخصم، وليس للبحث عن الحق. لذلك لم يسنده التعبير القرآني للأنبياء والرسل في دعوتهم لأقوامهم. وما ورد شبيها بذلك إنما هو قول القوم لنبيّهم، لا قول النبي نفسه؛ كما في قول قوم نوح، قال تعالى:﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**﴾(هود:32). أو ورد بداية، ثم تغيّر اللفظ لتغيّر الحال، كما في قوله تعالى:﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**﴾(المجادلة:1).

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص312.

[2] - عودة الله منيع القيسي، سر تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص209.

[3] - المرجع نفسه، ص209.

حيث غيّر يبحانه لفظ "تجادلك" إلى "تحاوركما"، لأنّ النبي(ص) لم يكن يجادل تلك المرأة، ولم تكن تجادله، إنما كان حواراً بينهما، وهي جاءت تتعلّم من النبي(ص)، لتعرف الحكم الشرعي فيما سمعته من زوجها.

أما الحِجاج فلم يرد إلاّ بصيغة الفعل، وهو مأخوذ من الحج:« وَيُمْكِنُ أَنْ تكُونَ الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ. يُقَالُ حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيْ غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلِكَ الظَّفَرُ يَكُونُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ، وَالْجَمْعُ حُجَجٌ. وَالْمَصْدَرُ الْحِجَاجُ »[1]. وقال الأصفهاني:« والحجة: الدلالة المبينة للمحجة، أي: المقصد المستقيم الذي يقتضي صحة أحد النقيضين... والمحاجة: أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته ومحجته »[2]. ومعنى ذلك أنّ الحجاج آلية لغوية للدفاع عن الرأي الخاص، أو الحق الشخصي. وقد يكون المحاجج على خطأ، أو ظالماً لغيره، ومع ذلك يقدّم حججاً لإقناع الخصم.

وجاء في مخطوطة الجمل:« الحُجة: أ- البينة الواضحة المبينة للمحجة والمقصد. ب- وقد يراد بها ما يحتج به الإنسان ولو كان غير مبين. ج - وقد يراد بالحجة: المحاجة والمنازعة »[3]. وقال ابن منظور:« وَمِنْ أَمثال الْعَرَبِ: لَجَّ فَحَجَّ؛ مَعْنَاهُ لَجَّ فَغَلَبَ مَنْ لاجَّه بحُجَجِه. يُقَالُ: حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومُحاجَّةً حَتَّى حَجَجْتُه أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ الَّتِي أَدْلَيْتُ بها »[4]. والظاهر أنّ مصدر الحجاج لم يتسخدم في القرآن، ولكن استخدم مصدر آخر هو "الحجة"، وكأن الحجة هي الأصل، أو هي الأولى بالتعبير، من مصدر الحِجاج، أو المحاججة، وهي الأفضل في الدلالة. قال تعالى:﴿**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾(الشورى:16).

والشيء الذي نستخلصه من إيراد التعبير القرآني لهذه المصطلحات، بهذا التوزيع الدلالي، أنه وضع كل لفظ في فضاء خاص به، لا يؤدي معناه اللفظ الآخر، فالجدل ذو اتجاه واحد، وهو وصف لمن يتصف به، أما الجدال فهو جدل بين طرفين، ويختص بمجال المحاججة الظالمة، أي ليس من أجل الحق. أما الحجاج - الذي لم يرد إلاّ بصيغة الفعل - ففيه عنصر الحركة أكثر من غيره، لأنّ المصدر منه لا يؤدي الغرض المنشود من المعنى. والدليل هو كيف نستخدم مصدر "الحجاج" في القرآن الكريم؟ وهل إذا وضعناه مكان لفظ "جدلا" الذي في آية الكهف، يكون ذلك ملائماً وذا معنى؟ وحتى لو كان الأمر من باب التفسير؛ فنقول: وكان الإنسان أكثر شيء حجاجا، أو محاججة.

5 - **فضاء التوبة والاعتذار**: يرد هذان المصطلحان منفصلين عن بعضهما، ويرد الأول بكثرة، وبصيغ متعددة؛ فعل، واسم فاعل، وصيغة مبالغة، ويرد في الخطابين معاً. أما الثاني فيرد قليلاً، ويكثر في الخطاب المكي على الخصوص، أو ما كان في حكمه.

جاء في تعريف التائب:« التائب مقرّ بالذنب الَّذِي يَتُوب مِنْهُ معترف بِعَدَمِ عذره فِيهِ والمعتذر يذكر أَن لَهُ فِي مَا أَتَاهُ من الْمَكْرُوه عذرا وَلَو كَانَ الِاعْتِذَار التَّوْبَة لجَاز أَن يُقَال اعتذر الى الله كَمَا يُقَال تَابَ إليه »[5]. وقال

---

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص30.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص212.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص369.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص228.

[5] - العسكري، الفروق اللغوية، ص234 - 235.

الأصفهاني:« العذر: تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه. ويقال: عذر وعذر، وذلك على ثلاثة أضرب: إما أن يقول: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنبا، أو يقول: فعلت ولا أعود، ونحو ذلك من المقال. وهذا الثالث هو التوبة، فكل توبة عذر وليس كل عذر توبة، واعتذرت إليه أتيت بعذر، وعذرته: قبلت عذره. قال تعالى:{يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا}[التوبة/94]، والمعذّر: من يرى أن له عذرا ولا عذر له. قال تعالى:{وجاء المعذّرون}[التوبة/90] »[1].

وجاء في لسان العرب:« العُذْر: الحُجَّةُ الَّتِي يُعْتَذر بِهَا؛ وَالجَمْعُ أَعذارٌ »[2]. وجاء في المخطوطة الجمل: « اعتذرت المنازل: إذا درست وامّحت، واعتذرت الحياة: انقطعت، ومن هذا وما إليه يستخرج معنى العُذْر، الذى يراد به محو الإساءة وطمسها بالحجة التى يمكن بها ذلك. ولم يرد فى القرآن من المادة إلا معنى العُذْر وما يتصل به »[3].

ولذلك لم يرد في القرآن أنّ العباد يعتذرون إلى الله، فيقبل اعتذارهم، بل العكس هو الذي ورد في حق المعتذرين من المنافقين والمكذبين، كما في قوله تعالى:﴿**يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**﴾(التوبة:94)، وقوله أيضاً:﴿**لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾(التوبة:66). وقوله:﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**﴾(الروم:57). وقوله:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ**﴾(التحريم:7). وقوله أيضاً:﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾(المرسلات:36). ومن ثَمّ، لم يقل القرآن عن هؤلاء بأنهم يتوبون، أو لا تقبل توبتهم. لأنّ التوبة تكون في الدنيا لا في الآخرة. إلاّ في موضع واحد هو قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾(آل عمران:90).

ويبدو أنّ هذه الآية المدنية عامة في أهل الكتاب والمشركين العرب. قال الزمخشري:« فإن قلت: قد علم أنّ المرتد كيفما ازداد كفرا فإنه مقبول التوبة إذا تاب، فما معنى لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ؟ قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر »[4]. أي أنّ الذين لا تقبل توبتهم هم الذين ماتوا على الكفر، ولم يتوبوا في حياتهم. وقد توحي الآية كذلك بالوعيد الذي يريد أن يدفع ببعض الناس إلى التوبة والإنابة قبل فوات الآوان. ولحكمة ما، جعل الله تعالى الاعتذار خاصا بالكافرين يوم القيامة، كما جعله وصفاً لحال المنافقين، وجعله سلوكاً غير مقبول، بل لا يؤذن لهؤلاء الكفار ولا تترك لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم. ولذلك طلب الله من المؤمنين وغيرهم التوبة، من أفعالهم السيئة ومن خطاياهم لا الاعتذار عنها.

وعلى العموم، يكون التعبير القرآني قد استخدم مصطلحاً واحداً للدلالة على الرجوع عن الذنب؛ هو التوبة التي بفضلها يستطيع المذنب أن يحظى بالقبول عند الله جل وعلا، ويكفيه ذلك. أمّا غير ذلك من عبارات الاعتذار فلا وزن لها، إنها صالحة بين العباد في الحياة الدنيا فحسب.

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص78.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص545.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص110.

[4] - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص382.

غير أنّه يمكن إضافة لفظ آخر دال على التوبة، هو "الإنابة"، لكنه لم يتكرر في الخطاب القرآني كثيراً ؛ فقد ورد في السور المكية على الخصوص، وذكر خصوصاً مع النبيّيْن داوود وسليمان عليهما السلام. قال تعالى:﴿**قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾(الرعد:27)، ﴿**وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ**﴾(لقمان:15)، ﴿**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ**﴾(ص:24)، ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ**﴾(ص:34)، ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾(الزمر:54)، ﴿**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(الروم:31)، وقال على لسان إبراهيم عليه السلام:﴿**رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا**﴾(الممتحنة:4).

جاء في مخطوطة الجمل:« أناب إلى الله إنابة فهو منيب: رجع إليه. وهو مأخوذ من النوبة، كأن العبد برجوعه إلى الله سبحانه دخل في نوبة الخير والحق. ورجوع العاصي إليه بالتوبة والتنصل من الذنب ورجوع غيره إليه سبحانه بأن يعتمد عليه فيما ينزل به وكان إبراهيم عليه السلام منيبا يرجع إلى الله في أموره كلها »[1]. وفي ذلك دلالة قوية على أنّ القرآن الكريم يدعو المشركين إلى "العودة" الحقيقية إلى الله وليس "التوبة"، لأنّ أسلافهم كانوا يعبدون الله الواحد، ومن ثَمّ فهم مطالبون بالعودة إلى ذلك الطريق السوي فحسب، ويبتعدون عمّا أحدثوه من بدع وشركيات. وعليه، فإنّ السبيل الصحيح الذي يوصلهم إلى مبتغاهم هو ما جاء به محمد(ص).

6 - **فضاء اللهو واللعب**: هما مصطلحان متقاربان في الدلالة، وقد يعجب المرء لورودهما معاً، ولماذا لم يكتف التعبير القرآني بأحدهما؟ فهل الذي يلعب غير الذي يلهو؟ لاسيما إذا نظرنا إلى القضية من الناحية الشرعية، وذلك ما سنراه في العرض التالي.

يذكر كثير من الباحثين - قديماً وحديثاً - الفرق بين هذين اللفظين، للدلالة على بلاغة القرآن وإعجازه. من ذلك ما ذكره الأصفهاني في قوله:« ولعب فلان: إذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا، يلعب لعبا »[2]. وقال ابن فارس:« اللَّامُ وَالْهَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى شُغْلٍ عَنْ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، وَالْآخَرُ عَلَى نَبْذِ شَيْءٍ مِنَ الْيَدِ. فَالْأَوَّلُ اللَّهْوُ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ شَغَلَكَ عَنْ شَيْءٍ، فَقَدْ أَلْهَاكَ... وَلَهِيتُ عَنِ الشَّيْءِ، إِذَا تَرَكْتَهُ لِغَيْرِهِ»[3]. وما دام التعبير القرآني قد أوردهما معاً، وفي سياق واحد تقريباً، في كل المواضع التي جاءا فيها، فإنّ في ذلك اختلافاً في دلالة كل واحد منهما، بحسب القاعدة القائلة بالعطف على المتغايريْن.

وجاء في مخطوطة الجمل:« لعب: أ- لعب يلعب لعبا ولعبا: أتي ما يتسلى به وتطرب إليه نفسه. ب- لعب في الأمر: هزل ولم يسلك فيه مسلكا جديا نافعا »[4]. وللعب كذلك معنيان« أ- العبث الذي لا يجدي. ب- اللعب: تناول الأمور في عبث وعدم اهتمام »[5].

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص125 - 126.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص339.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص213.

[4] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص163

[5] - المرجع نفسه، ج4، ص164

ويقول الشعراوي:« الفرق بين اللعب واللهو أن اللعب أن تعمل شيئاً لا فائدة منه إلا التسلية. وهذا قبل أوان التكليف، فإذا كان مكلفاً وفعل ما لا فائدة منه فهو لهو »[1]. وقريب من هذا التفسير قول غيره:« اللعب هو أن تشغل نفسك بحاجة هي غير مسنونة، ولم تصرفك عن شيء مسنون. وعادة ما يكون ذلك في وقت الصبا. اللهو حاجة غير مطلوبة وتشغلك عن حاجة مطلوبة، وغالباً ما يكون ذلك في وقت الشباب »[2]. وقال آخر:« لأن اللعب لا يكون إلا للصبيان غير الراشدين وفيه رمز إلى حقارة أعمالهم حيث لم يترتب عليها نفع كاللعب »[3].

وقد ورد لفظ "لهو" مقروناً بلفظ "لعب" مرات عدة، وورد منفرداً مرتين أيضاً، كما في قوله تعالى: **﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾**(الأنعام:32).**﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾**(الأنعام: 70). ورد اللعب قبل اللهو.**﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾**(الأعراف:51). **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾**(المائدة:57). **﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾**(المائدة:58). **﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾**(الأنبياء:17). **﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾**(محمد:36).**﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾**(العنكبوت:64). **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**(لقمان:6). **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾**(الجمعة:11).

وقال العسكري في الفرق بين اللهو واللعب:« قيل: اللعب عمل للذة لا يراعى فيه داعي الحكمة، كعمل الصبي لأنه لا يعرف الحكيم، ولا الحكمة، وإنما يعمل للذة. الفرق بين اللهو واللعب: أنه لا لهو إلا لعب، وقد يكون لعب ليس بلهو، لأن اللعب يكون للتأديب، كاللعب بالشطرنج وغيره، ولا يقال لذلك لهو، وإنما اللهو لعب لا يعقب نفعاً، وسُمّي لهواً لأنه يشغل عمّا يعني من قولهم: ألهاني الشيء أي: شغلني، ومنه قوله تعالى{ألهاكم التكاثر} (التكاثر:1) »[4]. وقال غيره:« [اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. يقال: لهوت بكذا، ولهيت عن كذا: اشتغلت عنه بلهو]. قال تعالى:{إنما الحياة الدنيا لعب ولهو}[محمد/36]، {وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب} [العنكبوت/64]، ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو »[5].

إلاّ أن لفظ "لعب" لا يأتي منه إلاّ صيغة الفعل المضارع، أما لفظ "لهو" فلا يأتي منه الفعل "لها" في المعنى ذاته، إنما يأتي بمعنى مخالف، وقد رود بصيغة الفعل الماضي {ألهاكم}، وبصيغة المضارع {يلهكم}(الحجر:3)، و{تُلهيهم}(النور:37). {لا تلهكم}(المنافقون:9). وبصيغة اسم الفاعل {لاهية}(الأنبياء:3).

وخلاصة القول في هذين اللفظين، أنّ القرآن الكريم لا يوردهما إلا في فضاء الانتقاص، إذا أسندا إلى الأشخاص البالغين، أما إذا أسندا إلى غير البالغين، فيوردهما التعبير القرآني في فضاء الحياد - وإن كانت الآيات في ذلك قليلة - كما في قصة يوسف عليه السلام. والملاحظ أن الناس، من كُتاب وباحثين في مختلف العلوم، يوظفون

---

[1] - الشعراوي، ، تفسير القرآن، الخواطر، ص13958 - 13959

[2] - عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلة القرآنية، هامش ص19.

[3] - عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ص198 - 199.

[4] - العسكري، الفروق اللغوية، ص254.

[5] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص349.

الفعل "لعب" بكثرة؛ فنسمعهم يقولون: يلعب الدين دوراً هاماً في حياة الناس، وتعلب السياسة الخارجية دوراً معتبراً في كذا وكذا.. وغيرهما. وفي هذا دليل واضح على تفرد التعبير القرآني في أسلوبه، وفي انتقاء مفرداته، وفي تحديد دلالاته، ولعلنا نستمد من كتاب الله العزيز مصطلحاتنا المختلفة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأدب.

7 - **فضاء الفعل والعمل**: هما لفظان دقيقان في توظيفهما في الخطاب القرآني، لأنهما يبدوان مترادفين ترادفاً تاماً. يقول أحدهم:« وهناك كلمتان في كتاب الله تعالى هما بحق مظهر من مظاهر إعجازه.. فإن لفظ (عمل) يستعمل لما يمتد زمانه وأما لفظ (الفعل) فهو على العكس من ذلك، فهو لما يكون دفعة واحدة »[1]. أو بالأحرى هو حدث غير محدد الخطوات في إنجازه، ولذلك توصف أفعال الله تعالى بأنها أفعال وليست أعمال، بل ليس في القرآن كله عبارة تقول: إنّ الله يعمل، إنما هو يفعل، وفعّال لما يريد، لأنّ كل ما يخلقه الله تعالى، وما يصنعه للناس؛ خيراً كان أم عقاباً، إنما يكون بكلمة: كُنْ؛ بحيث لا يُرينا كيف يفعل، إنما يُرينا الفعل الحاصل في الواقع. قال تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ**﴾(الفيل:1)، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾(الحج:18)، ﴿**فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾(البروج:16).

يقول باحث معاصر: « العمل: هو حركة واعية يقوم بها الإنسان على وجه العموم. الفعل: هو عمل معرف محدد، فنقول "ضرب" فعل ماض أي عمل معرف بالضرب، و" أكل" فعل ماض معرف بالأكل، ولا نقول عمل ماض. فإذا أخذنا كل آيات الكتاب المذكور فيها "فعل وعمل" رأيناها لا تخرج عن هذين المعنيين »[2]. ولكن عبارة "فعل ماض" من اصطلاح النحاة، وليس مفهوماً يحمل دلالة لغوية أو شرعية، أو غيرها من الدلالات لكي يصح القياس عليه بهذا الشكل. ومادة "فعل" من أعمّ المعاني في اللغة العربية، ولذلك وظّفها النحاة في درسهم اللغوي، وجعلوا الميزان الصرفي من هذه المادة، وقاسوا عليها سائر كلمات اللغة؛ مثل: فاعل، ومفعول، ومستفعل، ومفعلة، وفعال، وفعول...إلخ.

أما مادة "عمل" وما يشتق منها فكثيرة الورود في الخطابين معاً؛ وتأتي منها صيغة الفعل أكثر من غيرها من الصيغ، سيما عبارة {الذين آمنوا وعملوا}. قال تعالى:﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ**﴾(البقرة: 25)، ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ**﴾(آل عمران:57)، ﴿**وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ**﴾(النساء:57)، ﴿**وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا**﴾(الجاثية:33)، ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ**﴾(الأحقاف:19)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾(البينة:7).

فالعمل حركة بشرية محددة الهدف والوسيلة؛ تقع في الزمان والمكان. قال الأصفهاني:« العمل: كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل.. لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العمل في الحيوانات.. والعمل يستعمل في الأعمال الصالحة والسيئة»[3]. وقد ذكر الخطاب القرآني مسألة العمل بصيغة الفعل أكثر، للدعوة إلى العمل والنشاط وكسب الحسنات، لأن التعبير القرآني يكثر من الأوامر والنواهي، وهذا يتطلب توظيف الأفعال بدلاً من الأسماء.

---

[1] - عباس فضل، إعجاز القرآن الكريم، جامعة القدس المفتوحة، د. ت، د. ط، ص178.

[2] - محمد شحرور، الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة، ص418.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص125.

8 - **فضاء الإحسان والإنعام**: يتردد هذان المصطلحان القرآنيان في الخطابين معاً، ويشكلان حقلين متباينين في المجال الذي يُستخدَمان فيه؛ أي أنّ مجال الإنعام يختلف قليلاً عن مجال الإحسان في بعض زواياه. ومن ذلك أنّ الله عالى لا يطلب منّا أنْ ننعم على الناس، بل أنْ نحسن إليهم، وإلى الذين يخالفوننا في الدين.

وأول من نستشهد به هنا هو قول العسكري:« وَيَقُولُونَ للنفع كُله إِحْسَان وَلَا يَقُولُونَ للضَّرَر كُله إساءة فَلَو كَانَ معنى الإِحْسَان هُوَ النَّفْع على الحَقِيقَة لَكَانَ معنى الإِسَاءَة الضَّرَر على الحَقِيقَة لِأَنَّهُ ضِدّه وَالْأَب يحسن إِلَى وَلَده بسقيه الدَّوَاء المرّ وبالفصد والحجامة وَلَا يُقَال ينعم عَلَيْهِ بذلك وَيُقَال أحسن إِذا أَتَى بِفعل حسن »[1]. غير أنّ القرآن الكريم قد استخدم فِعليْ "أحسن" و"أنعم" على غير ما قرّره العسكري. قال تعالى:﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾(النساء:69)، ﴿**وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا**﴾(النساء:72)، ﴿**قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ**﴾(المائدة:23)، ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ**﴾(مريم:58)، ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ**﴾(الأحزاب:37).

أما الفعل "أحسن" فورد في الآيات التالية:﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾(يوسف:23). ﴿**وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ**﴾(يوسف:100). ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا**﴾(الكهف:30). ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾(القصص:77). ﴿**ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾ (السجدة:6 - 7). ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾(غافر:64). ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾(التغابن:3).﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا**﴾(الطلاق:11).

قال الأصفهاني:« والإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان. والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علما حسنا، أو عمل عملا حسنا »[2]. وقال الشريف الجرجاني:« الإحسان: هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤية الحق موصوفًا بصفاته بعين صفته، فهو يراه يقينًا ولا يراه حقيقة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "كأنك تراه" لأنه يراه من وراء حجب صفاته، فلا يرى الحقيقة بالحقيقة؛ لأنه تعالى هو الداعي، وصفة لوصفه، وهو دون مقام المشاهدة في مقام الروح". الإحسان: لغةً: فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير. وفي الشريعة: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[3]. أما

---

[1] - العسكري، الفروق اللغوية، ص193.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص236.

[3] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص12.

الإحسان في الاصطلاح النبوي فهو« أن تَعْبُدَ اللهَ كَأنكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فإنَّهُ يَرَاكَ »[1]. والإحسان« أعلى درجات العبادة في الإسلام »[2]. ولعلّ المقصود بالإحسان في الحديث النبوي هو قمة الإحسان، لأنّ معاملة الناس، والمحتاجين على الخصوص بالحسنى تعتبر جزءاً من الإحسان كذلك، لكن الحديث يلوّح إلى أبعد من ذلك؛ إذ تقتضي منّا عبادة الله كأننا نراه، أن نؤمن به جل وعلا إيماناً مطلقاً، ونستشعر وجوده الحقيقي سبحانه، وهذا ما يراه المتصوفة شرطاً للعبادة الحقة.

إن الاستخدام القرآني لمفهوم "الإحسان" و"الإنعام"، يعني بالأول القمة في العطاء والخلق، من دون انتظار لرد الإحسان، أما الثاني فهو مجرد عطاء من عطاءات الله تعالى، من غير تحديد في الكيف أو النوع. فالنعمة« الخير يصل إلى المرء في دينه أو دنياه. فالمال نعمة، والجاه نعمة. والإيمان نعمة، والسمع والبصر نعمتان. والعلم والحكمة نعمة، والقرآن نعمة، وجمعها نعم وأنعم وقد يراد بالنعمة الجنس فتوضع موضع النعم. وقد توضع النعمة موضع الإنعام، فتكون اسم مصدر من أنعم »[3]. والنعمة« منة الله عز وجل - بألوانها المتعددة - على عباده في الدنيا، والنعمة خاصة بالحياة الدنيا »[4]. وأنعم عليه« أوصل إليه خيرا وأحسن إليه، أو دفع عنه ضرا، أو عفا عنه فلم يصبه بسوء وإنما يكون الإنعام على ذوي العقول لا تقول: أنعمت علي الفرس »[5].

إلاّ أنّ التعبير القرآني قد أورد أكثر من صيغة للفظ "النعمة"؛ هي: نِعمة، نَعْمة، نعيم، نعماء، نعّم، وأنعم. أما لفظ "إحسان" فأكثر ما وظّف منه؛ صيغة أحسن، ومحسن؛ مفرداً وجمعاً، أما صيغتا إحسان وحُسن فقليلتان. وقد وظّف "إحساناً" في حالة النصب في سياق خاص بالإحسان إلى الوالدين في خمسة مواضع؛ ثلاثة منها في الخطاب المكي، واثنان في المدني. ومرة واحدة في سياق مخالف؛ هو سياق الحديث عن حال المنافقين في المدينة.

9 - **فضاء المرأة والزوج:** يورد التعبير القرآني لفظين؛ هما: زوج(مؤنث)، وامرأة، للدلالة على شيء واحد هو الأنثى المقترنة برجل، فتصير زوجاً له، أو امرأته. وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بالمصطلحين معاً، ولكن بتوزيع خاص لكل منهما. "فحواء"- مثلاً - يذكرها في كل المواضع بأنها زوج آدم، ولم يقل إنها امرأته أبداً، ولم يكن يذكرها إلاّ منسوبة إلى ضمير المخاطب، فيقول: اسكن أنت وزوجك الجنة(البقرة:35)، إن هذا عدوّ لك ولزوجك(طه:117). فلم يقل: زوج آدم، أو: زوجه. ولعل ذلك راجع إلى أنّ آدم عليه السلام لم يختر زوجه، من بين نساء أخريات، إذ لم يكن منهن آنذاك إلا حوّاء، فهي قرينه الحقيقي الأوحد، وصنوه الإنساني الذي خلقه الله تعالى ليسكن إليه.

أما بقية الأشخاص المعروفين في التاريخ؛ من أنبياء وغيرهم فقال عن نسائهم: امرأة لوط، امرأة نوح، امرأة عمران، امرأة فرعون، امرأة العزيز؛ موظّفاً لفظ "امرأة" مضافة إلى اسم زوجها، أو تكون اللفظة مضافة إلى ضمير

---

[1] - حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح البخاري، ج1، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية، 1990، ص138.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص17.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص83.

[4] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص32.

[5] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج5، ص82.

"هاء" مثل: {وامرأته} التي كررت أكثر من مرة للدلالة على زوجها تلميحاً أحياناً، وتصريحاً في السياق نفسه، بعد ذكر اسم زوجها مثل: إبراهيم عليه السلام، وأبي لهب، وعزيز مصر...

إن القرآن الكريم يوظف - مرة - لفظ "زوج"، ومرة أخرى يورد لفظ "امرأة"، وليس هناك لفظ آخر يستخدمه للدلالة على الأنثى "قرينة" الرجل. ولم يقل القرآن أبداً: زوجة بتاء التأنيث. كما لم يضف لفظ زوج إلى اسم ظاهر فلا يقول: زوج آدم، ولا امرأة آدم، ولا زوج نوح، أو زوج لوط، بل يقول: امرأة نوح، وامرأة لوط. أما في اللغة فلا تكاد المعاجم تفرق بينهما في الدلالة، قال ابن منظور:« وَزَوْجُ المرأَة: بَعْلُهَا. وَزَوْجُ الرَّجُلِ: امرأَته.. أَما الزَّوْجُ فأَهل الْحِجَازِ يَضَعُونَهُ لِلْمُذَكَّرِ والمؤَنث وَضْعًا وَاحِدًا، تَقُولُ المرأَة: هَذَا زَوْجِي، وَيَقُولُ الرَّجُلُ: هَذِهِ زَوْجِي »[1]. وقال ابن فارس:« الزَّاءُ وَالْوَاوُ وَالْجِيمُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ [الزَّوْجُ زَوْجُ المَرْأَةِ. وَالمَرْأَةُ] زَوْجُ بَعْلِهَا، وَهُوَ الْفَصِيحُ »[2].

وخلاصة هذه المسألة؛ هي أنّ تمظهرات لفظ "زوج" تختلف عن تمظهرات لفظ "امرأة"؛ فالزوج لا يضاف إلى اسم ظاهر، إنما يضاف إلى ضمائر فحسب؛ كالكاف، والهاء. أما "امرأة" فتضاف إلى الضمير، وتضاف إلى اسم ظاهر كذلك. وبعض الأسماء تختص بلفظ "زوج" دون "امرأة"؛ مثل آدم والنبي (ص)، أما بقية الأنبياء، وبعض زعماء التاريخ، فأسند إليهم لفظ "امرأة". ولم يناد التعبير القرآني المرأة بهذا اللفظ، إنما نادى جمع النساء؛ وهن أزواج النبي (ص) لا غير. والمرأة الوحيدة التي نوديت باسمها في القرآن الكريم هي مريم عليها السلام.

ويمكن إضافة شيء آخر هو أنّ لفظ "امرأة" مضافاً إلى ضمير، أو إلى اسم ظاهر، يرد في القرآن المكي، وأنّ لفظ "زوج" يرد في الخطابين معاً.

أما ما قيل عن سر استخدام القرآن للفظ "امرأة" دون لفظ "زوج"، في كون توظيف "المرأة" للدلالة على عدم التوافق بينها وبين زوجها، وتوظيف "الزوج" للدلالة على التوافق بينهما، فليس مظهراً مطّرداً في آيات القرآن الكريم.

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص292.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص35.

المبحث الثالث: فضاء الثنائيات الضدية

يورد القرآن الكريم بعض المفردات بشكل ثنائي ضدي من حيث المعنى، وذلك بنوع من الاطّراد في الخطابين المكي والمدني معاً؛ للدلالة على تلازم هذه الثنائية اللفظية الضدية. لأنّ القرآن يعرض توجيهاته على شكل مثاني؛ وهي« النظائر، فيه الخير والشر، فيه الترغيب والترهيب، فيه وصف الكفر وفيه وصف الإيمان، كله نظائر ومثاني»[1]. وذلك أمر وجيه، ليتم الفهم والفائدة من عرض هذه المتضادات، إذ الضد يعرف بضده. لأنّ« معنى مثاني أن فيه من كل معنى اثنين متقابلين، ففيه الإنذار والتبشير، وكرر ذلك، وفيه الأمر والنهي ويتكرر ذلك، وفيه بيان الحلال والحرام، ويتكرر ذكر ذلك، وفيه الخبر والإنشاء، وفيه القصص الكريم مثنى مثنى وهكذا »[2].

وهذه الثنائيات كثيرة ومختلفة، إذ فيها ثنائيات خاصة بالأخلاق، وهي الأكثر، لأنها هي المطلوبة في الحياة وأخرى خاصة بالآيات الكونية، وثالثة للعقيدة، وهي أصل الأصول؛ كما في النماذج التالية:

- **السماء والأرض**: يرد هذان اللفظان متلازمين[3] في كل الآيات التي يكون فيها لفظ "سماء" جمعاً– لأنّ لفظ "الأرض" لا يرد إلا مفرداً في كل القرآن الكريم - وذلك في حوالي مائة وتسعين 190 آية في الخطابين على السواء، وحتى وإن كرر لفظ "السماوات" في الآية نفسها يكرر معها لفظ "الأرض". كما في قوله تعالى:﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾(النساء:131)، ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾(البقرة:255).

أما الآيات الأخرى التي وردت فيها اللفظتان معاً فكثيرة، لا يمكن إيرادها كلها في هذا المقام. ولكن لها دلالة خاصة، ومميزة حين ترد بهذا الشكل، واللفظتان معرّفتان بأَلْ، في كل الآيات تقريباً. وقد ترد "السماء" نكرة في بعض المواطن، مفردة كانت أم جمعاً، أما الأرض فلا ترد إلا معرفة. وتسبق "السماوات" "الأرض" في كل الآيات تقريباً[4]. قال تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا**﴾(نوح:15 - 17)، ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ**﴾(الملك:16)، ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾(الطلاق:12). وتأتي "السماء" جمعاً ومفرداً، و"الأرض" تأتي مفرداً دائما. فإذا

---

[1] - محمد الشاهد البوشيخي، القرآن الكريم طبيعته ووظيفته، مطبعة أنفو فرانت، فاس- المغرب، د ت، د ط. ص 28 - 29.

[2] - محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج8، ص4109 - 4110.

[3] - فإن لم ترد اللفظتان جنباً إلى جنب في الآية الواحدة، وردت إحداهما بعد الأخرى بقليل.

[4] - والآيات التي وردت فيها "الأرض" سابقة على "السماوات" هي:﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا﴾(طه:4)، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾(إبراهيم:48)، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾(البقرة:29)، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾(الزمر:67).

كانت "السماوات" بصيغة الجمع جاءت ملازمة "للأرض"؛ في 185 آية[1]. وإذا جاءت بصيغة المفرد؛ أي "السماء"، وردت منفردة في الغالب، في 118 آية، وقد تجيء مع لفظ "الأرض" كذلك. مثل قوله عز وجل:﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا**﴾(فصلت:11).

ويلاحظ أن ورود "السماء" بصيغة المفرد، يدل دائما على السماء الدنيا؛ أي هذه السماء التي فوقنا مباشرة، نعرفها بما فيها من نجوم وأجرام وكواكب. أما إذا كانت بصيغة الجمع، فتدل على ما لا نعرفه من تلك الفضاءات.

والمعاني التي تدور حولها هاتان اللفظتان كثيرة، ومتنوعة، تنوّع الواقع الحياتي نفسه، وما وراء هذه الحياة كذلك؛ فالسماوات والأرض ترتبط بقدرة الله تعالى في خلقه، وملكه لها، وميراثه لها، وعلمه بما يحدث فيها، وغيرها. فلا ينفك التعبير القرآني يذكر آية خلق السماوات والأرض مرارا في كثير من آياته؛ وفي كلا الخطابين، المكي والمدني، وكأنه يوحي للناس بضرورة الربط بينهما، وأنّ العيش على الأرض يتطلب التطلع إلى السماء، ليكون عيشاً صحيحاً نافعاً، فيه الثواب والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

- **الظلمات والنور**: يشبه هذان اللفظان لفظيْ السماوات والأرض إلى حد كبير، فلفظ "الظلمات" يرد جمعاً دوماً، ولفظ "النور" لا يرد إلا مفرداً. أما إذا ورد لفظ "ظلمات" نكرة، فإنه يعني ظلام الليل كذلك، أو ظلاماً خاصاً، لا سيما إذا ورد منفرداً. ومن هذه الآيات قوله تعالى:﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**﴾(البقرة:17)، ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ**﴾(البقرة:19)، ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ**﴾(الأنعام:59)، ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**﴾(النور:40)، ﴿**أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾(النمل: 63)، ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ**﴾(الزمر:6).

قال الأصفهاني في معنى الظلمات والنور:« الظلمة: عدم النور، وجمعها: ظلمات، ويعبر بها عن الجهل والشرك والفسق، كما يعبر بالنور عن أضدادها »[2]. وقال ابن فارس:« الظَّاءُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا خِلَافُ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، وَالْآخَرُ وَضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا. فَالْأَوَّلُ الظُّلْمَةُ، وَالْجَمْعُ ظُلُمَاتٌ. وَالظَّلَامُ: اسْمُ الظُّلْمَةِ »[3].

وتسبق "الظلمات" "النور" دائماً في كل آيات القرآن الكريم، إلاّ ما كان من وصف لواقع الكفار وعملهم المغاير لطبيعة الكون ونواميسه، فتقلب المسألة، كما في قوله تعالى:﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾(البقرة:255).

والحكمة من ورود المصطلحين معاً، أنّ الظلمة سابقة على النور في أصل الخَلق، ثم استعير هذا كله لتوظيفه في معاني العقيدة. أما عن سبب مجيء الظلمات جمعاً والنور مفرداً فيقول ابن عاشور:« وَإِنَّمَا جَمَعَ الظُّلُماتِ وَأَفْرَدَ

---

[1] - وردت "السماوات" منفردة في قوله سبحانه:﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾(التحريم:26)، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾(غافر:63 - 37).

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص51.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص468.

النُّورَ اتِّبَاعًا لِلِاسْتِعْمَالِ، لِأَنَّ لَفْظَ (الظُّلُمَاتِ) بِالجَمْعِ أَخَفُّ، وَلَفْظَ (النُّورِ) بِالإِفْرَادِ أَخَفُّ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَرِدْ لَفْظُ (الظُّلُمَاتِ) فِي القُرْآنِ إِلَّا جَمْعًا وَلَمْ يَرِدْ لَفْظُ (النُّورِ) إِلَّا مُفْرَدًا. وَهُمَا مَعًا دَالَّانِ عَلَى الْجِنْسِ، وَالتَّعْرِيفُ الجِنْسِيُّ يَسْتَوِي فِيهِ المُفْرَدُ وَالجَمْعُ فَلَمْ يَبْقَ لِلاخْتِلَافِ سَبَبٌ لِاتِّبَاعِ الاسْتِعْمَالِ »[1]. وأما سبب ورود "الظلمات" جمعاً سالماً، بدلا من جمع التكسير "ظُلَم"، فلأنّ جمع السالم هو الأصل، ويستخدم للدلالة على الكثرة والقلة على السواء؛ أي هو من صيغ العموم الصرفي.

- **الحسنة والسيئة**: هما مصطلحان يتكرران كثيراً في الخطابين معاً، ويردان جمعاً كذلك؛ أي الحسنات والسيئات.

جاء في تعريف الحسنة:« هيَ الأَعْلَى فِي الحسن لِأَن الهَاء دَاخِلَة للمُبَالَغَة فَلذَلِك قُلْنَا إِن الحَسَنَة تدخل فِيهَا الفُرُوض والنوافل وَلَا يدْخل فِيهَا المبَاح وإِنْ كَانَ حسنا لِأَن المبَاح لَا يسْتَحق عَلَيْهِ الثَّوَاب وَلَا الحَمد وَلذَلِك رغب فِي الحَسَنَة وَكَانَت طَاعَة بِخِلَاف المبَاح لِأَن كل مُبَاح حسن وَلكنه لَا ثَوَاب فِيهِ وَلَا حمْد فَلَيْسَ هُوَ بحسنة »[2]. وجاء أيضاً:« الحسن: حالة حسية أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشئ ورغبة النفس فيه. ويكون في الأقوال والأفعال والذوات والمعاني. والحسنة: النعمة تنالها أو الخير والطاعة »[3].

قال تعالى:﴿**فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾(الفرقان:70)، ولم يقل "يبدّل ذنوبهم حسنات"، أو "يبدّل خطاياهم حسنات". ولعل التعبير القرآني أراد أن يطابق بين لفظ "سيء" ولفظ "حسن"، فاشتق لهما "سيئات" و"حسنات" ليكون ذلك أقرب وقعاً في النفس، وأجمل من حيث الأسلوب. ومن ثَمّ، أيبدّل الله سيئات بعض الناس حسنات بعد أن يُطلعهم على سيئاتهم التي فعلوها في الدنيا، أم يجدون بدل سيئاتهم حسناتٍ من غير أن يُطلعهم على سيئاتهم تلك؟ أي أنهم يجدون في صُحُفهم حسنات مكتوبة مكان سيئاتهم التي اقترفوها في الدنيا، مع علمهم فقط، أنهم ارتكبوا سيئات ما، ولكنهم لا يذكرونها بالتفصيل، ويعلمون أنها قد بدّلت برحمة الله تعالى. والذي ورد في الحديث النبوي بهذا المعنى هو قوله (ص):« إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ »[4].

أما "السيئة" فهي« مؤنث السيء بمعنى القبيح والضار، وتستعمل السيئة بمعنى الذنب الكبير والصغير لقبحها في اعتبار العقل أو الشرع »[5]. ويُشتق من "السيء"، أو من"السيئة" معنيان هما:« السُوء والسَوْء مصدران لساء كالكَره والكُره إلا أن: السَوْء بالفتح غلب عليه أن يضاف إليه ما يراد ذمه وتقبيحه من كل شيء. سَوْء: (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً)" 28/مريم واللفظ في 74/ 77/ الأنبياء". والسُوء بالضم: القبح،

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص127 - 128.

[2] - العسكري، الفروق اللغوية، ص222.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص398 - 399.

[4] - أبو عبد الله مصطفى بن العدوى شلباية، الصحيح المسند من الأحاديث القدسية، دار الصحابة للتراث، د.ت، د ط، ص74.

[5] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص352.

ويستعمل في الشر والأذى »[1]. ولذلك قال في آية أخرى:{وما مسّني السوء}؛ أي ما مسّني الشر، والأذى من مرض، وفاقة، وغيرهما.

ويقول ابن منظور:« ساء يسوء... فهو سيّء، إذا قبُح، ورجل أسوأ: قبيح... والسُوأى بوزن فُعلى: اسم للفِعْلة السيئة بمنزلة الحُسنى للحسنة. وأساء الرجل إساءة: خلاف أحسن. وأساء الشيء أفسده ولم يُحسن عمله. والسيئة: الخطيئة. والسيء والسيئة عملان قبيحان، يصير السيّء نعتاً للذكَر من الأعمال، والسيئة الأنثى »[2].

أما الراغب فيقول:« السوء: كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية، والأخروية، ومن الأحوال النفسية، والبدنية، والخارجة، من فوات مال، وجاه، وفقد حميم، وقوله:{بيضاء من غير سوء}[طه/22]، أي: من غير آفة بها، وفسر بالبرص، وذلك بعض الآفات التي تعرض لليد... وعبر عن كل ما يقبح بالسوأى، ولذلك قوبل بالحسنى، قال:{ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى}[الروم/10]، كما قال:{للذين أحسنوا الحسنى}[يونس/26]، والسيئة: الفعلة القبيحة، وهي ضد الحسنة »[3].

أما عن الفرق بين القبيح والسوء فجاء فيه:« الفرق بَين السوء والقبيح أَن السوء مَأْخُوذ من أَنه يسود النَّفس بِمَا قربه لَهَا وَقد يلتذ بالقبيح صَاحِبُه كَالزِّنَا وَشرب الخمر وَالغَصْب »[4]. و« القبيح: هو ما يكون متعلق الذم في العاجل والعقاب في الآجل »[5]. ولم يرد في القرآن إلا مرة واحدة بصيغة اسم مفعول في قوله تعالى:﴿**وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ**﴾(القصص:42). ومعنى "مقبوحين"« الموسومين بحالة منكرة، وذلك إشارة إلى ما وصف الله تعالى به الكفار من الرجاسة والنجاسة إلى غير ذلك من الصفات، وما وصفهم به يوم القيامة من سواد الوجوه، وزرقة العيون، وسحبهم بالأغلال والسلاسل ونحو ذلك »[6]. و« قبح يقبح فهو قبيح: ساءت صورته أو صفاته أو أعماله حتي صار بحيث ينفر منه الحس أو تأباه النفس »[7]؛ فلا تشعر بالارتياح إزاءه.

– **الدنيا والآخرة**: يسمي القرآن الحياة الأولى بالدنيا، أما الآخرة فيطلق عليها أحياناً اسم "الدار"، ولا يطلق هذا الاسم على الدنيا بتاتاً؛ أي لا يقول: الدار الدنيا. وتعريف الدار كما ورد في لسان العرب طويل ومتنوع، ومنه القول التالي:« الدُّورُ: جَمْعُ دَارٍ، وَهِيَ الْمَنَازِلُ الْمَسْكُونَةُ والمِحَالُّ »[8]. وقال أيضاً:« وَيُقَالُ للدَّارِ: دَارَة... والدَّارُ: الْبَلَدُ. وَالدَّارُ: اسْمٌ لِمَدِينَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ »[9]. وفي

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص351.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص96.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص521.

[4] - العسكري، الفروق اللغوية، ص231. وانظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص339.

[5] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص172.

[6] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص212.

[7] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص295.

[8] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص298.

[9] - المرجع نفسه، ج4، ص299.

وفي مخطوطة الجمل:« والدار: المنزل المبني، والموضع الذي يسكنه الناس، يقال: ديار بكر لبلادهم، وجمع دار ديار. هذا ويراد بالدار الآخرة: محل الحياة الثانية »[1].

وكأنّ القرآن - وهو يخصص لفظ "الدار" للآخرة، وينفيها عن الدنيا - يلمّح إلى أن هذه الحياة لا تستحق أن تسمى داراً، إنما هي حياة مؤقتة لا غير. أما "الدار" الحقيقية فهي في الآخرة، يوم يقوم الناس والحساب. وورود "الدنيا" و"الآخرة" في الخطابين معاً بيان كاف على أنهما مطلوبتان في خطاب الكفار والمؤمنين على السواء. فالطائفة الأولى ينبّهها إلى أنّ بعد هذه الدنيا، حياة أخرى خالدة باقية، يجازى فيها كل عبد. والطائفة الثانية يذكّرها بأنّ الأعمال الصالحة المتنوعة؛ قليلها وكثيرها، إنما جزاء ذلك كله في اليوم الآخر.

- **الحياة والموت**: يأتيان متتابعين في كثير من المواضع من القرآن الكريم، أو متقابلين للدلالة على أنّ الواحد منهما يعني الآخر بالضرورة.

ويضاف إلى ذلك أن لمصطلح "الموت" فضاء فرعياً؛ مثلما نجد أنّ للأرض أكثر من دورة؛ إذ لها دورة أولى حول نفسها ينتج عنها الليل والنهار، ولها دورة أخرى حول الشمس لينتج عنها تعاقب الفصول، ولها دورة ثالثة مع المجموعة الشمسية ككل. ولكل دورة مسارها الخاص لا تحيد عنه، ولا يختلط بالمسارات الأخرى. ولعل لكلمات الله في القرآن المبدأ نفسه، فهي مصممة تصميماً دقيقاً، ولها بناء عجيب كذلك.

ومن ذلك مصطلح "الموت"، إذ نجده يتعلق بثلاثة أفعال متشابهة هي: جاء أو أتى، وحضر. فمرة يقول القرآن: جاء الموت، ويأتي الموت، ومرة ثانية يقول: حضر الموت. ثم إن العبارة الأولى عادة ما ترد في الخطاب المكي، وترد الثانية في الخطاب المدني. والفرق بينهما أنّ الموت الأول« الموت المفاجئ السريع والثاني هو الموت البطيء الذي يمكن للإنسان أن يراجع موقفه قبله »[2].

ويمكن القول إنّ الموت "البطيء" هو الموت الطبيعي، الذي ورد في الخطاب المدني، وكان يتعلق بقضايا التشريع؛ وبمسألة الإرث على الخصوص[3]. والآيات هي:﴿**أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي**﴾(البقرة:133). ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾ (البقرة:180). ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**﴾(النساء: 18). ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾(المائدة:106).

وليس في ذكر ذلك تهويل ولا تلميح لعقاب أو ما شابهه. أما عبارة "جاء الموت" فتأتي في مقام الوعيد والعقاب وتذكير الكافرين بمصيرهم في الدنيا والآخرة. ومن هذه الآيات ما يلي:﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾(المومنون:99 -

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص123.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص30.- 31

[3] - ما عدا آية البقرة التي تتحدث عن يعقوب عليه السلام. والموضوع -كما يبدو- ذو أهمية بالغة، إنه يتعلق بالعبادة الحقة وبوصية نبي لولده. لذلك، لم يكن موت يعقوب عليه السلام مفاجئاً. وهذا هو الفضاء الذي تدور فيه عبارة "حضر الموت".

100)، ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾(إبراهيم:17)، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(الأنعام:61)، ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون:10)، ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾(ق:19).

- **الخير والشر**: يرد المصطلح الأول جمعاً؛ أي "خيرات"، أما الثاني فلا يأتي إلا مفردا؛ أي لا يرد بصيغة "شرور". وذلك بناء على أنّ القاعدة العامة للمصدر هي عدم جمعه، إلا لضرورة ما. وكأنّ الشر لا يحتاج إلى جمع، ما دام أصله واحداً. وهو:« الشر: الذي يرغب عنه الكل »[1]. ويرد لفظ "الخير" بصيغة اسم تفضيل، ولم يستخدم القرآن الكريم مادة "فضل"، فلم يقل: أفضل. وهذا الذي سلف ذكره، وتكرر في مناسبات كثيرة؛ وهو أنّ التعبير القرآني يوظّف ألفاظاً معيّنة، والناس يوظّفون غيرها من المترادفات والمتشابهات. وكذلك يستخدم لفظ "شر" في معنى التفضيل[2]. وقد أورد القرآن هذين المصطلحين معاً في مواطن كثيرة من الخطابين؛ المكي والمدني للدلالة على أنهما يكثران في الحياة، ولا يكادان يفترقان، فكل واحد منهما يُعرف في مقابل الآخر.

وقد ورد هذان اللفظان في مقام الاختبار والابتلاء، قال تعالى:﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(الأنبياء:35). أما بقية الآيات الأخر فهي قوله عز وجلّ:﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (يونس:11)، ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾(الإسراء:11)، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾(المعارج:19 - 21). ولم يرد لفظ "الشر" سابقاً على لفظ "الخير"، إلا في قوله تعالى:﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾(فصلت:49).

- **المعروف والمنكر**: وهذان المصطلحان يتقاطعان مع مصطلحات الخير والشر، والحق والباطل، والطيب والخبيث. يقول ابن عاشور:« وَالْمَعْرُوفُ هُوَ مَا يُعْرَفُ وَهُوَ مَجَازٌ فِي الْمَقْبُولِ الْمَرْضِيِّ بِهِ، لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ مَعْرُوفًا كَانَ مَأْلُوفًا مَقْبُولًا مَرْضِيًّا بِهِ، وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا مَا يُقْبَلُ عِنْدَ أَهْلِ الْعُقُولِ، وَفِي الشَّرَائِعِ، وَهُوَ الْحَقُّ وَالصَّلَاحُ، لِأَنَّ ذَلِكَ مَقْبُولٌ عِنْدَ انْتِفَاءِ الْعَوَارِضِ »[3]. أما عن المنكر فيقول:« وَالْمُنْكَرُ مَجَازٌ فِي الْمَكْرُوهِ، وَالْكُرْهُ لَازِمٌ للإنكار لأنّ النكر فِي أَصْلِ اللِّسَانِ هُوَ الْجَهْلُ وَمِنْهُ تَسْمِيَةُ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ نَكِرَةً، وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا الْبَاطِلُ وَالْفَسَادُ، لِأَنَّهُمَا مِنَ الْمَكْرُوهِ فِي الْجِبِلَّةِ عِنْدَ انْتِفَاءِ العَوَارِضِ. »[4]. والمنكر أيضاً:« الشيء المرفوض، غير المستساغ، الذي يأباه المسلم في ضوء نشأته وتربيته على قواعد الدين الحنيف »[5]. وبشكل عام، المنكر هو كل أمر، أو ظاهرة، أو قول أو فعل، ينشأ عنها نفور من الناس، وعدم قبولهم بها، بسبب من العُرف، أو الدين أو القانون.

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص529.

[2] - يراجع، المرجع نفسه، ج1، ص 328 - 329.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص40.

[4] - المرجع نفسه، ج4، ص40.

[5] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص32.

أما المعروف فهو:« اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر: ما ينكر بهما »[1]. وجاء في مخطوطة الجمل:« والمعروف والعرف؛ أى المستحسن ضد المنكر... والمعروف: المستحسن، وهو صفة غالبة؛ أي أمر معروف بين الناس »[2]. وجاء في تعريفات الجرجاني:« المعروف: هو كل ما يحسن في الشرع »[3]. والمعروف أيضاً: « خُلق إسلامي عام، ومقياس إيماني دقيق، يحدد به المسلم الخير من الشر في السلوك والتصرفات »[4].

أما الآيات التي تذكر المعروف والمنكر فكثيرة؛ ولم يرد هذان المصطلحات بصيغة الجمع أبداً. وإن كان "المنكر" يرد جمعاً في أقوال الفقهاء والعلماء، فيقولون: المنكرات، أو المناكر. أما المعروف فلا يرد إلا مفرداً. ولذلك أوردهما القرآن الكريم في خطاب كل الأقوام بالأسلوب نفسه.

ومن هذه الآيات ما يلي:﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾(آل عمران:104)، ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾(آل عمران:110)، ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ (الأعراف:157)، ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾(التوبة:67)، ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾(التوبة:71)، ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾(لقمان:17).

وبالجملة، فإنّ المعروف معروف، والمنكر منكر، عند جميع الناس، ولذلك أوردهما التعبير القرآني معرفتين، لاستواء الناس في التعرّف عليهما، وإدراكهما على حقيقتهما؛ فلا تأويل في دلالتهما العامة، أو الخاصة.

– **الطيّب والخبيث** (الطيّبات والخبائث): وردا معاً في خمسة عشر 15 موضعاً من الآيات. أما لفظ "الطيب" منفرداً فورد في خمسين 50 آية. ويظهر أن هذه الكلمة بمشتقاتها تحمل معاني كثيرة ومتنوعة كما أقر بذلك ابن منظور في قوله:« والطَّيِّب، نَعْتٌ. وَفِي الصِّحَاحِ: الطَّيِّبُ خِلَافُ الخَبيث؛ قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: الأَمر كَمَا ذُكِرَ، إِلا أَنه قَدْ تَتَّسِعُ مَعَانِيهِ، فَيُقَالُ: أَرضٌ طَيِّبة لِلَّتِي تَصْلُح لِلنَّبَاتِ؛ وريحٌ طَيِّبَةٌ إِذا كَانَتْ لَيِّنةً لَيْسَتْ بِشَدِيدَةٍ؛ وطُعْمة طَيِّبة إِذا كَانَتْ حَلَالًا؛ وامرأَةٌ طَيِّبة إِذا كَانَتْ حَصاناً عَفِيفَةً، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: الطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ؛ وكلمةٌ طَيِّبة إِذا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَكْرُوهٌ؛ وبَلْدَة طَيِّبة أَي آمنةٌ كثيرةُ الْخَيْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ »[5].

ويشبه هذان المصطلحان مصطلحيْ "المعروف" و"المنكر" إلى حد كبير، غير أن التعبير القرآني يوردهما بنوع من التميّز، إذ يأتي بهما في مقام المقارنة، والمفاضلة، يقول تعالى:﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾(آل عمران:179)، ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ**﴾(النساء:2)، ﴿**قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾(المائدة:100)، ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ**

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص87.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص193.

[3] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص221.

[4] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص26.

[5] - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص563.

مِنَ الطَّيِّبِ﴾(الأنفال:37). وكأن في ذلك ردّاً على بعض الناس الذين قد يتأوّلون مفهوم "الخبيث"، و"الطيّب"، فيستبدلون أحدهما بالآخر، أو يجعلونهما سواء.

وترد المصطلحات السالفة الذكر معرفة دائما، إلاّ نادراً. وفي ذلك يقول ابن عاشور:« وَالتَّعْرِيفُ فِي (الْخَيْرِ- والشر، وَالْمَعْرُوف - وَالمنكر) تَعْرِيفُ الِاسْتِغْرَاقِ، فَيُفِيدُ الْعُمُومَ فِي المعَامَلَاتِ بِحَسْبِ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ العِلْمُ وَالمقْدِرَةُ فَيُشْبِهُ الِاسْتِغْرَاقَ العُرْفِيَّ »[1]. وذلك لأنها أمور أشهر من أن تُعرّف، او لأنها قد عُرِّفتْ سابقاً على لسان الرسل والأنبياء، ولم تعد بحاجة إلى تعريف آخر، فقد استقرّت في عقول الناس، وفي نفوس العامة على كيفية معلومة، وصفة ثابتة. فصار الكل يتعامل بها وفق ذلك المنطق المتفق عليه.

- **الحق والباطل**: هما مصطلحان لا يتكرران إلاّ بصيغة المفرد، فلا وجود لصيغة "حقوق"، ولا لجمع "باطل".

ورد في تعريف الباطل ما يلي« الباطل: هو الذي لا يكون صحيحًا بأصله. الباطل: ما لا يعتد به، ولا يفيد شيئًا. الباطل: ما كان فائت المعنى من كل وجه، مع وجود الصورة؛ إما لانعدام الأهلية أو المحلية، كبيع الحر، وبيع الصبي »[2]. وهو« الجهد الضائع والعمل الخاسر والاعتقاد الزائف، وهو- في القرآن الكريم - نقيض الحق »[3]. قال الراغب:« الباطل: نقيض الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه، قال تعالى:{ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل}[الحج/62] وقد يقال ذلك في الاعتبار إلى المقال والفعال، يقال: بطل بطولا وبطلا وبطلانا، وأبطله غيره. قال عز وجل:{وبطل ما كانوا يعملون}[الأعراف/118]، وقال تعالى:{لم تلبسون الحق بالباطل}[آل عمران/71] »[4].

ومعنى لفظ "باطل" - من جانبه الاجتماعي- أنّ الناس في المجتمع الواحد يعرفون مفهومه، ومتفقون على دلالته، بحيث لو أتى شخص ما شيئاً من الباطل؛ قولاً كان أو فعلاً، لعُرف أنه باطل. فلا حجة لمن يقول: إنّ ما تراه أنتَ باطلاً يراه غيرك عكس ذلك. لأنّ المفاهيم تتقرر عند الجماعة الواحدة، ومتى تقررت على ذلك، فلا مجال لردها، أو الطعن فيها. ثم إنّ الباطل - في عمومه - يشترك الناس جميعاً في دلالته، وفي إنكاره. ولذلك ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم بلفظه فقط، من غير وصف، أو إضافة. أي لم يقل: باطل كبير، أو مبين؛ كما لم يقل: باطلكم، أو باطلهم، لأنّ الباطل واحد عند كل الناس، فمن أتى بشيء منه فهو على باطل.

أما عن لفظ الحق فيقول الجرجاني:« الحق: اسم من أسمائه تعالى، والشيء الحق، أي الثابت حقيقة، ويستعمل في الصدق والصواب أيضًا، يقال: قول حق وصواب. الحق: في اللغة هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وفي اصطلاح أهل المعاني: هو الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل. وأما الصدق فقد شاع في الأقوال خاصة، ويقابله الكذب، وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع، وفي الصدق من جانب الحكم، فمعنى صدق الحكم مطابقته للواقع، ومعنى حقيقته

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص40.

[2] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص42.

[3] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص16.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص97.

مطابقة الواقع إياه »[1]. وقال ابن فارس:« (حَقَّ) الْحَاءُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى إِحْكَامِ الشَّيْءِ وَصِحَّتِهِ. فَالْحَقُّ نَقِيضُ الْبَاطِلِ، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّ فَرْعٍ إِلَيْهِ بِجَوْدَةِ الِاسْتِخْرَاجِ وَحُسْنِ التَّلْفِيقِ وَيُقَالُ حَقَّ الشَّيْءُ وَجَبَ »[2].

إنّ الحق - بهذا المفهوم - هو الشيء الثابت على حقيقته، والذي يعرفه الناس جميعاً على أنه صواب، يستحق أن يتّبع، ويؤخذ به في المعاملات والقوانين. ولذلك أُثر: الحق أحق أن يُتّبع. وقد ورد في القرآن بمعان كثيرة؛ في أكثر من 290 موضعاً، وورد وصفاً، وبصيغة الفعل، واسم تفضيل. والآيات التي ورد فيها المصطلحان كثيرة؛ في الخطابين معاً كما في قوله تعالى:﴿**وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ**﴾(البقرة:42)، ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾(البقرة:241)، ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ**﴾(آل عمران:71)، ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ**﴾(المائدة:27)، ﴿**حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**﴾(الأعراف:105)، ﴿**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي**﴾(يونس:35)، ﴿**نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ**﴾(الأنبياء:18)، ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**﴾(الكهف:56).

إلا أن التعبير القرآني لم يورد صيغة "حقيقة"، ولا صيغة "حقوق" أبداً؛ وهما الصيغتان اللتان يستخدمهما الناس بشكل واسع جداً في كل خطاباتهم المختلفة، مما يدل على تفرّد أسلوب القرآن الكريم، في انتقاء عيّناته اللفظية، عن أساليب الكتّاب والأدباء والشعراء، وغيرهم على اختلاف مشاربهم.

- **الصدق والكذب**: ورد لفظ "صدق" ومشتقاته 129 مرة أقل بكثير من لفظ "كذب" ومشتقاته الذي ورد 282 مرة. ويطّرد "الصدق" "الكذب" في الفضاء العقدي على العموم؛ من تكذيب الأقوام لأنبيائهم ورسلهم، أو كذب بعض الزعماء ورجال الدين على الله تعالى؛ أي تحريف كلام الله عز وجل الذي حدث مع اليهود والنصارى في كتبهم المقدسة. ومعنى« كذب يكذب كذبا: جاء بالكذب، أو أخبر بخلاف ما يعرف أنه الواقع »[3]. والصدق عكسه تماماً. ويردان معاً بصيغة "فعّل"؛ أي "صدّق"، و"كذّب". ويرد "الصدق" اسم فاعل بصيغين؛، صادقاً، ومصدّقاً، وبصيغة مبالغة "صِدّيق"، أما الكذب فيرد بصيغة اسم فاعل "كاذب"، وبصيغة مبالغة "كذّاب "؛ على وزن فعّال. والصدق والكذب كلاهما يردان بصيغة الجمع أيضاً، وبصيغة المصدر تفعيل؛ أي تصديق، وتكذيب.

ويرد مصدر "كذِب" مصاحباً للفظ "افترى" في مواطن كثيرة، ويأتي في فضاء العقيدة؛ وبالضبط في قول الكفار غير الحق على الله تعالى. وقد تكررت عبارة: افتراء الكذب على الله تعالى بنصها مرات عديدة، يقول تعالى:﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾(الأنعام:21)، ﴿**وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ**﴾(المائدة :103)، ﴿**انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ**﴾(النساء:50)، ﴿**فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (آل عمران:94)، ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾(آل عمران:75)، ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾(آل عمران:78). ولم ترد في الخطاب القرآني عبارة: يكذبون على الله، أو كذبوا على الله.

---

[1] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص89.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص15.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج4، ص43.

أما في حالة مجادلة الأنبياء والرسل، فإن الذين كفروا لا يفتأون يتهمون أنبياءهم بالكذب، ومن ثمّ، استخدم الخطاب القرآني الصيغة الفعلية؛ "تَكذبون"، و"تُكذّبون"، كما في قوله تعالى:﴿**أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾(المؤمنون:105)، ﴿**قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ**﴾(يس:15)، ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾(البقرة :10)[1]، ﴿**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾(التوبة:77).

والملاحظ أن مادة "صدق" يكثر منها صيغة الفعل المضعّف "صدّق"، كما في قوله تعالى:﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ**﴾(الواقعة:57)، ﴿**وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ**﴾(المعارج:26). أما غير المضعّف فأمثلته قليلة مثل قوله جلّ وعلا:﴿**قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾(آل عمران:95)، ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾(الأحزاب:22)، ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾(يس:52).

وبالجملة، فإنّ توظيف الخطاب القرآني لمادة "صدق"، و"كذب" يأتي في فضاء العقائد على وجه الخصوص إذا كانا مضعّفين، وما كان في غير هذا الفضاء ورد فيه اللفظان من غير تضعيف؛ كما في قصة يوسف عليه السلام. أما ورودهما بصيغة المصدر، فإنّ لفظ "الصدق" يرد نكرة أكثر، ويأتي مصدر "الكذب" نكرة ومعرفة. وقد نوّع الخطاب القرآني من صيغ هاتين المادتين طبقاً لتنوع المسائل، والأحوال في حياة الناس؛ قديماً وحديثاً. أما من حيث توظيف مشتقاتهما؛ (اسم فاعل، أو صيغة مبالغة)، فأرجأنا ذلك إلى مبحث لاحق من الفصل الرابع.

[1] - هذه رواية حفص، أما رواية ورش فبصيغة {يُكَذِّبون}. ينظر، ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص68.

المبحث الرابع: فضاء المنظومة اللفظية

ذكر السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن آراء طائفة من العلماء في المفردات التي تتشكل وتتمظهر في القرآن الكريم بطرق شتى، للدلالة على معان مختلفة، وذلك محاولة منهم تَفَهُّم طريقة القرآن في إيراد مفرداته، وتحديد مسار الألفاظ لتسهيل البحث، والتفسير. من ذلك قوله:« أَخْرَجَ: سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُلُّ طَعَامٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ نِصْفُ صَاعٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ "قَلِيلٌ" وَ" إِلَّا قَلِيلٌ" فَهُوَ دُونَ الْعَشَرَةِ. وَأَخْرَجَ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ "عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ" "حافظوا على الصلوات" فَهُوَ عَلَى مَوَاقِيتِهَا »[1]. وغير ذلك كثير.

علماً بأنّ بعض هذه التخريجات، والتأويلات قد لا تَصدُق دائماً على ما ورد في القرآن الكري؛ فتخريج لفظ "قليل" إلى دلالة دون العشرة لا يمكن أن يكون كذلك مع بعض الآيات على الأقل؛ مثل قوله تعالى:﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾(سبأ:13). فهل من عباد الله كلهم عشرة شاكرين، أو أقل؟ وقوله تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿**وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾(هود:40). فهل الذين آمنوا لنوح يقلّون عن العشرة؟ وقد يكون ذلك صحيحاً مع آية الكهف﴿**قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾(الكهف:22). فعدد فتية أهل الكهف لا يعلمهم إلاّ الله، والذين استثناهم، فهم ممن لا نعرفهم؛ أمِنَ الإنس فقط، أم من الجن كذلك؟ ولعلهم أقل من العشرة.

1 - **فضاء القراءة:** فيه ثلاثة مصطلحات هي: قراءة، تلاوة، وترتيل. وتتمهظر بشكل متباين، صيغة ودلالة. ومن تعريفات العلماء لهذه المفردات نذكر قول العسكري:« التِّلَاوَة لَا تكون إِلَّا لكلمتين فَصَاعِدا وَالقِرَاءَة تكون للكلمة الوَاحِدَة يُقَال قَرَأَ فلَان اسْمه وَلَا يُقَال تَلا اسْمه وذلك أَن أصل التِّلَاوَة اتِّبَاع الشَّيْء الشَّيْء يُقَال تلاه إِذا تبعه فَتكون التِّلَاوَة فِي الْكَلِمَات يتبع بَعْضهَا بَعْضًا وَلَا تكون فِي الْكَلِمَة الْوَاحِدَة إِذْ لَا يَصح فِيهَا التلو »[2].

أما الراغب الأصفهاني فقال:« الرتل: اتساق الشيء وانتظامه على استقامة، يقال: رجل رتل الأسنان، والترتيل: إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة. قال تعالى:{ورتل القرآن ترتيلا}[المزمل/4]،{ورتلناه ترتيلا}[الفرقان /32]»[3]. ولم يرد هذا المصطلح إلا مرتين في كل القرآن الكريم، وفي السورة المكية فقط، قال تعالى:﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾(الفرقان:32)، ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾(المزمل:1 - 4).

أما مصطلح القراءة فورد بكثرة في الخطاب المكي على الخصوص. يقول فيها صبحي الصالح:« والعرب في الجاهلية حين عرفوا لفظ (قرأ) استخدموه بمعنى غير معنى التلاوة... أما قرأ بمعنى (تلا) فقد أخذها العرب من أصل

---

[1] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص165.

[2] - العسكري، الفروق اللغوية، ص63 - 64.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص382.

آرامي وتداولوها »[1]. ومعناها النطق الشفوي بما هو مكتوب، أو محفوظ، من غير شرط التدبر، أو الترتيل. كما يظهر من هذه الآيات:﴿**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾(الإسراء:14)، ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ (العلق:1)، ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾(الحاقة:19)، ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ (المزمل:20)، ﴿**فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ**﴾(يونس:94)، ﴿**فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا**﴾(الإسراء:71)، ﴿**وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ**﴾(الإسراء:93). يقول باحث معاصر:« هناك فرق بين القراءة والتلاوة في القرآن الكريم. فالقراءة تعني قراءة التعبدة وترديد الآيات وحفظها. والتلاوة تعني تدبر الآيات وفهما واستيعابها والعمل بها »[2].

وهناك ملاحظة مفادها أنّ التعبير القرآني لا يقول: اقرأ آيات الله، أو آيات الكتاب، إنما يقول: "أتْل"، مثل قوله جل وعلا:﴿**وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ**﴾(الكهف:27). و﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ**﴾(العنكوت :45). ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ**﴾(النمل:91 - 92). وإنما قال "اقرؤوا" فيما يخص قرآن الصلاة؛ كما في قوله تعالى:﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾(المزمل:20).

غير أنّ بعض الباحثين يفرق بين معنى "قرأ" ومعنى "تلا"؛ في أنّ الأول يقصد به مجرد النطق بالمكتوب أو المحفوظ، أما الثاني فيشترط فيه القراءة المتأنية الحسنة. قال ابن منظور:« تَكَرَّرَ فِي الحَدِيثِ ذِكْرُ القِراءَة والاقْتِراءِ والقارِئِ والقُرْآن، والأَصل فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ الجَمْعُ، وكلُّ شيءٍ جَمَعْتَه فَقَدْ قَرَأْتَه... وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الصَّلَاةِ لأَنّ فِيهَا قِراءَةً، تَسْمِيةً للشيءِ ببعضِه، وَعَلَى القِراءَةِ نَفْسِها »[3]. وقال الأصفهاني:« والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل »[4]. والترتيل من:« الرتل: اتساق الشيء وانتظامه على استقامة، يقال: رجل رتل الأسنان، والترتيل: إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة »[5]. ومعنى "تلا" كما جاء في مقاييس اللغة:« هُوَ الِاتِّبَاعُ. يُقَالُ: تَلَوْتُهُ إِذَا تَبِعْتَهُ. وَمِنْهُ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ يُتْبِعُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ »[6]. وقال ابن عاشور:« وَأُرِيدَ بِتَرْتِيلِ الْقُرْآنِ تَرْتِيلُ قِرَاءَتِهِ، أَيْ التَّمَهُّلُ فِي النُّطْقِ بِحُرُوفِ الْقُرْآنِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنَ الْفَمِ وَاضِحَةً مَعَ إِشْبَاعِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ الْإِشْبَاعَ »[7]. »[7]. إذ لم يورد القرآن الفعل "قرأ"، ولا الفعل "تلا" متبوعيْن بمفعول مطلق؛ أي لم يقل: اقرأ قراءة، أو اتلُ تلاوة، كما فعل مع الفعل "رتل" فقال تعالى:﴿**وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾(الفرقان:32)، ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾(المزمل:4). مما قد يعني بأنّ القراءة والتلاوة لا يشترط فيهما التجويد، إذا استخدمنا مصطلح علم تجويد القرآن.

---

[1] - صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص19 - 20.

[2] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص28.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص129.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص238.

[5] - المرجع نفسه، ج1، ص382.

[6] - ابن فارس، مقايس اللغة، ج1، ص351.

[7] - المرجع نفسه، ج29، ص260.

والفعل "تلا" إذا ورد مبنياً للمجهول يتصل بالكتاب، وبآيات الكتاب، فلا يقول يُقَرأ، إنما يقول: يُتلى، إلا في قوله تعالى:﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(الأعراف:204)، ﴿**وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ**﴾(الانشقاق:21). والفرق - فيما يبدو - أن فعل القراءة يقصد به مجرد قراءة مهما كانت قليلة، ومن غير شرط التدبّر، أما التلاوة فهي أكثر طولاً من القراءة، وفيها تحسين التلفظ بكلام الله تعالى. ولذلك أمر النبي (ص) بأن يتلو عليهم الآيات كاملة حتى يتبيّن المقصود بوضوح تام.

2 - **فضاء الإنسان البالغ**: يوظف القرآن الكريم طائفة من المفردات الخاصة بالإنسان البالغ؛ مثل: رجل، امرؤ، امرأة، عبد، مرء، زوج، بعل، ولا يستخدم أبداً لفظ "شخص"، إلا ما كان مشتقاً من مادته مستخدماً بدلالة مغايرة؛ أي "شاخصة". وترد هذه المفردات بنوع من الاختلاف من حيث التعريف والتنكير، والعدد، والإضافة، ومن حيث ورودها في الخطاب المكي، أو في الخطاب المدني.

وقد عرض المطعني للفرق بين لفظ "زوج"، ولفظ "بعل"، مستنتجاً أن القرآن الكريم يطلق لفظ "زوج" على الزوجين غير المتوافقين في حياتهما الزوجية، بسبب عقم، أو كفر، أوغيرهما. أما لفظ "بعل" فيورده في سياق التوافق بين الزوجين. يقول:« لعل السر البياني في كل أولئك أنْ ضَنَّ القرآن بكلمة "زوج" فى المقامات التي يسود فيها الحياة الزوجية ما يجعلها قليلة الإثمار، لأن هذه الكلمة نفسها تدل على "الزوجية" لأنها ما سميت زوجاً إلا مضافاً إليها الرجل وما سُمّي الرجل زوجاً إلا مضافة إليه هي. ودبيب الخلاف ينافي هذا الاعتبار »[1].

ويقول في موضع آخر عن لفظ "المرأة":« ومثل هذه الكلمات كلمة "امرأة" فإن القرآن يستعملها في المواضع التى تفقد فيها الحياة الزوجية بعض مقوّماتها. سواء أكان ذلك من جانب الرجل. أو من جانب المرأة، ويؤثر كلمة "الزوج" متى استقامت تلك الحياة. وكذلك إذا انفصمت عرى الزوجية بموت وما أشبه الموت »[2]. وراح يضرب الأمثلة الدالة على زعمه، فإن اصطدم بآية تخالف ما ذهب إليه، تأوّلها تأويلاً بعيداً، كما في قوله:« وأما قوله تعالى: (وَيَذَرُون أزْواجاً) فذلك في مقام "الجمع" وحديثنا فى مقام الإفراد وإنما أوثر جمع "زوج" على جمع "امرأة" لأن الثانية "امرأة" لم يستعمل لها جمع لثقله »[3]. ولكن القرآن استخدم لفظ "نساء" لما كان ذلك أصلح للمقام، وما الضير في أن يقول: ويذرون نساء؟ وقد قال جل وعلا:﴿**لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ**﴾(الأحزاب:52)، ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ**﴾(الأحزاب:32). ولم يقل: يا أزواج النبي. فأين عدم التوافق بين النبي(ص) وأزواجه، حتى يصفهنّ القرآن بالنساء؟ وإذا ذكرهنّ بالغيبة قال سبحانه:﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُم**﴾(الأحزاب:6)، استخدم لفظ "أزواج".

إنّ الملاحظ في توظيف صيغة "نساء" أنها ترد في السور المدنية على الخصوص، للدلالة على الأحكام الخاصة بهنّ، باعتبارهنّ جزءاً أصيلاً في المجتمع، من غير أن يحدد انتماءهنّ ولا منزلتهنّ في ذلك. وقد ورد في سورتيْ النساء، والبقرة، أكثر من غيرهما، وفي مجال الطلاق، والخِطبة، والميراث وغيرها. أما لفظ "امرأة" فيطلق مضافاً إلى زوجها في

---

[1] - المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ص296.

[2] - المرجع نفسه، ص291.

[3] - نفسه، ص295.

كثير من الآيات المكية، ولم يرد "الزوج" - ولو مرة واحدة - مضافاً إلى اسم زوجها. وحتى مع آدم عليه السلام لم يقل: زوج آدم، إنما قال: زوجه، أو زوجك، أو زوجها. وهذا مطّرد في كل آيات القرآن الكريم؛ المكّي منه والمدنيّ على السواء.

3 - **فضاء منظومة "رقبة"**: فيها الألفاظ التالية: **العنق، الرقبة، الجيد**: وكل مفردة منها ترد في مجالات خاصة ، موزعة في الخطابين؛ المكي والمدني بشكل مطّرد. وبعضها لم يرد إلاّ مرة واحدة.

- **الجِيد**: ورد مرة واحدة في سورة المسد في قوله تعالى:﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**﴾(المسد:4 - 5). و:« الجِيدُ: العُنُقُ، وَقِيلَ: مُقَلَّده، وَقِيلَ: مقدَّمه، وَقَدْ غَلَبَ عَلَى عُنُقِ المرأَة... قَدْ يُوصَفُ العُنُقُ نَفْسُهُ بالجَيَد فَيُقَالُ عُنُق أَجْيد كَمَا يُقَالُ عُنُقٌ أَوْقَصُ. التَّهْذِيبُ: امرأَة جَيْداءُ إِذا كَانَتْ طَوِيلَةَ الْعُنُقِ حَسَنَةً لَا يُنْعَتُ بِهِ الرَّجُلَ »[1].

ولعل ذلك ما جعل قيس بن الملوّح يقول حين أمسك غزالاً ثم أطلقه في البرية:

أقول وقد أطلقتها من وثاقها فأنتِ لِيلى إنْ شكرتِ عتيق

فعيناك عيناها وجِيدك جِيدها سوى أنّ عظم الساق منكِ دقيق[2]

قال ابن عاشور:« الجِيدُ: العُنُقُ، وَغَلَبَ فِي الِاسْتِعْمَالِ عَلَى عُنُقِ المَرْأَةِ وَعَلَى مَحَلِّ القِلَادَةِ مِنْهُ فَقَلَّ أَنْ يُذْكَرَ العُنُقُ فِي وَصْفِ النِّسَاءِ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ.. فَإِنَّمَا حَسُنَ هُنَا ذِكْرُ الجِيدِ فِي حُكْمِ البَلَاغَةِ لِأَنَّهَا امْرَأَةٌ وَالنِّسَاءُ تُحَلِّي أَجْيَادَهُنَّ وَأُمُّ جَمِيلٍ لَا حُلِيَّ لَهَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا الحَبْلَ المجْعُولَ فِي عُنُقِهَا فَلَمَّا أُقِيمَ لَهَا ذَلِكَ مَقَامَ الحُلِيِّ ذُكِرَ الجِيدُ مَعَهُ»[3]. فالقرآن استخدم مفردة "جِيد"، في هذا الموضع الوحيد لأنه المحلّ الذي تظهر فيه حُلي المرأة، وهو المكان الذي تتزين فيه المرأة بالمجوهرات، فكأنه يريد أن يقول لامرأة أبي لهب: إنّ هذا الجِيد الذي كنتِ تزيّنينه بمختلف الحلي، سيلفّه يوم القيامة حبل من مسد، ويُشدّ به بدلاً من تلك الحلي، جزاء لك لما فعلت، فهذا الحبل ليس للزينة، بل للتعذيب، والعِقاب.

- **الرقبة**: تأخذ دلالة شرعية؛ إذ تُذكر في مقام الإنفاق، أو الكفّارات، سواء وردت مفرداً أم جمعاً. وتكررت في القرآن المدني، ولم ترد في القرآن المكي إلاّ في موضع واحد هو قوله تعالى:﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ**﴾(البلد:12 - 13). قال ابن منظور في معنى الرقبة:« والرَّقَبَةُ: العُنُقُ؛ وَقِيلَ: أَعلاها؛ وَقِيلَ: مُؤَخَّر أَصْلِ العُنُقِ، والجمعُ رَقَبٌ ورَقَباتٌ، ورِقابٌ وأَرْقُبٌ »[4]. وقال:« والرَّقَبةُ: المَمْلُوكُ. وأَعْتَقَ رَقَبةً أَي نَسَمَةً. وفَكَّ رقَبةً: أَطْلَق أَسيراً، سُمِّيت الجُمْلَةُ باسمِ العُضْوِ لشرفِها... يُقَالُ: أَعتق اللهُ رَقَبَتَه، وَلَا يُقَالُ: أَعْتَقَ اللَّهُ عُنُقَه. وَفِي الحَدِيثِ:كأَنما أَعْتَقَ رَقَبةً »[5].

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى:﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ**﴾(البقرة:177)، ﴿**وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ**﴾(النساء:92)، ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ**

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص139.

[2] - قيس بن الملوّح، الديوان، مكتبة الآداب، مصر، د. ط. 1987، ص20.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص606.

[4] - المرجع نفسه، ج1، ص427.

[5] - نفسه، ج1، ص428.

وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾(التوبة:60). ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾(المجادلة:3). ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾(البلد:12 - 13). أما ما ورد في قوله تعالى:﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾(محمد:4)، فهو خاص بالحرب والقتال.

وجاء في مخطوطة الجمل:« الرقبة: العنق، وقيل: أعلاه، وقيل: مؤخر أصل العنق، والجمع رقب ورقاب وأرقب ويعبر بالرقبة عن النسمة وجملة الشخص. وجعلت في التعارف اسما للرقيق مما أحرزه صاحبه بملك اليمين »[1]. وقال ابن فارس:« (رَقَبَ) الرَّاءُ وَالْقَافُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عَلَى انْتِصَابٍ لِمُرَاعَاةِ شَيْءٍ.. وَمِنْ ذَلِكَ اشْتِقَاقُ الرَّقَبَةِ، لِأَنَّهَا مُنْتَصِبَةٌ، وَلِأَنَّ النَّاظِرَ لَا بُدَّ يَنْتَصِبُ عِنْدَ نَظَرِهِ »[2]. وكأنّ تحرير الرقبة يعني أن تعود مرفوعة، منتصبة كما كانت في الأصل، والاسترقاق هو الذي جعلها منحنية، مطأطأة.

- **العنق**: يرد مفرداً وجمعاً، في سياق العذاب، ولم يرد في سياق الحرب إلاّ في آية واحدة من سورة الأنفال. وجلّ آياته مكية، عدا الرعد التي فيها خلاف. قال ابن منظور:« العُنْقُ والعُنُقُ: وُصْلة مَا بَيْنَ الرَّأْسِ وَالْجَسَدِ، يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ »[3]. « والأَعناق: الرُّؤَسَاءُ. والعُنُق: الجَمَاعَةُ الكَثِيرَةُ مِنَ النَّاسِ، مذكَّر، وَالجَمْعُ أَعْناق. وَفِي التَّنْزِيلِ: فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ؛ أَي جَمَاعَاتُهُمْ، عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ المفَسِّرِينَ، وَقِيلَ: أَراد بالأَعناق هُنَا الرِّقاب كَقَوْلِكَ ذَلَّتْ لَهُ رِقَابُ القَوْمِ وأَعْناقهم »[4]. قال تعالى:﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾(الأنفال:12).﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾(الرعد:5).﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾(الإسراء:13).﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾(الإسراء:29).﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(الشعراء:4). ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(سبأ:33).

2 - **فضاء منظومة الموالاة**: فيه أربع مفردات ترد بنظام خاص ومميّز؛ وهي: فريق، فئة، طائفة، حزب.

أ - **مصطلح فريق**: المقصود به جماعة خاصة، قد تكون جماعة علماء، أو تجار، أو غيرهم. قال الأصفهاني« الفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين »[5]. وقال غيره:« الفِرْق القِسم، أو الطائفة من الناس، والفرقة مثله، والفريق: الطائفة من من الناس، وهم أكثر من الفريق، وجمع الفريق أفراق »[6]. وقد ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها سبع في البقرة وحدها، كقوله تعالى:﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾(البقرة:75)، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾(البقرة:85). أما السور الأخرى فمنها ما يلي:﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾(الأعراف:30)، ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾(الأنفال:5)، ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(الروم:33)، ﴿وَيَسْتَأْذِنُ

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص210.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص427.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص271.

[4] - المرجع نفسه، ج10، ص273.

[5] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص188.

[6] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص254.

فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾(الأحزاب:13)، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾(الأحزاب: 26)، ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(الشورى:7).

يقول ابن منظور:« والفِرْقُ والفِرْقةُ والفَرِيقُ: الطَّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ المتَفَرِّق. والفِرْقةُ: طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ، والفَرِيقُ أَكثر مِنْهُ »[1]. وهذا تعريف عام غير دقيق لمدلول لفظيْ الفرقة والفريق، ولا لمدلول الطائفة، فإذا كانت الفرقة هي الطائفة من الناس، والعكس صحيح، لم يعد هناك فرق بين المصطلحين، والقرآن لا ترادف فيه.

ب - طائفة: ترد في مفهوم الفرقة المذهبية والدينية، كطائفة المؤمنين وطائفة الكافرين. وقد تكون بمعنى الجماعة القليلة، أو الكثيرة. قال الأصفهامي:« الطائفة من الناس: جماعة منهم، ومن الشيء القطعة منه.. قال بعضهم: قد يقع ذلك على واحد فصاعدا، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره.. في قوله تعالى:{وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين} سورة النور: آية 2. قال: الطائفة: الرجل فما فوقه. وعن مجاهد قال: الطائفة: واحد إلى الألف.. والطائفة إذا أريد بها الجمع فجمع طائف، وإذا أريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعا، ويكنى به عن الواحد، ويصح أن يجعل كرواية وعلامة ونحو ذلك »[2]. وجاء في مخطوطة الجمل:« لا تكاد العرب تحد الطائفة بعدد معلوم، بل تقولها على الواحد، أما الفقهاء والمفسرون فلهم فى ذلك أقوال متعددة، من الواحد إلى الثلاثة إلى ما دون الألف »[3]. أما الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة فكثيرة أيضاً، ومعظمها ورد في الخطاب المدني، وكأن ذلك إشارة إلى أنّ مصطلح "طائفة" خاص بالمعتقد، أو المذهب. لأنّ المدينة المنورة هي التي كانت فيها الطوائف الدينية؛ من يهود ونصارى ومسلمين.

ومن هذه الآيات قوله تعالى:﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾(آل عمران:69)، ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾(آل عمران:154)، ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾(الأنفال:7)، ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾(التوبة:66)، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾(القصص:4)، ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ (الأحزاب:13)، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾(الحجرات:9)، ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾(الصف:14).

وقد ورد مصطلحا "طائفة" و"فرقة" في آية واحدة هي:﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾(التوبة:122). وهذا دليل على أنّ الفرقة أقل من الطائفة، أو أنها أعمّ منها.

ج - **فئة:** وترد بمفهوم عام، أي مجرد جماعة ما ينتمي إليها المرء. قال الراغب:« والفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد »[4]. وفي مخطوطة الجمل:« وتدور المادة حسيا على الانفصال، والانفراج والافتراق، ومنه تجئ الفئة: الفرقة من الناس، وقد يلحظ فيها مع الانفصال من غيرها مظاهرة بعضها لبعض، ورجوع بعضها إلى

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص300.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص45.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص60.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص272.

بعض في التعاضد »[1]. وهي« الطائفة المقيمة وراء الجيش للالتجاء إليهم عند الهزيمة »[2]. وهذا التعريف الأخير هو الذي تدور فيه دلالة "فئة"؛ أي فضاء الحرب والنصرة، كما في هذه الآيات: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾(البقرة:249)، ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ**﴾(آل عمران:13)، ﴿**وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ**﴾ (الأنفال:16)، ﴿**وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ**﴾(الأنفال:19)، ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ (الأنفال:48)، ﴿**وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾(الكهف:43)، ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ (القصص:81).

د - **حزب**: ورد مفرداً ومثنى، وجمعاً، في عشرين 20 موضعاً من القرآن الكريم، ولم يرد فعلاً مطلقاً؛ أي تحزّب، أو يتحزّب ...إلخ. جاء في مقاييس اللغة:«(حَزَبَ) الحَاءُ وَالزَّاءُ وَالبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ. فَمِنْ ذَلِكَ الحِزْبُ الجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}[المؤمنون:53]. وَالطَّائِفَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حِزْبٌ. يُقَالُ قَرَأَ حِزْبَهُ مِنَ القُرْآنِ. وَالحِزْبَاءُ: الأَرْضُ الغَلِيظَةُ. وَالحَزَابِيَةُ: الحِمَارُ المجْمُوعُ الخَلْقِ »[3]. وجاء في مخطوطة الجمل: « الحزب: كل طائفة جمعهم الاتجاه إلى غرض واحد، وجمعه أحزاب »[4].

ولم يرد في القرآن لفظ "جماعة" مفرداً، ولا مثنى، ولا جمعاً، إنما وردت مشتقاته مثل ألفاظ: جمْع، جميعاً، وجُمِع، مجموعون. وكأن مصطلح "جماعة" لا يؤدي غرضه الديني، ولا الشرعي، ولا العقائدي، ولا التاريخي، فأهمله التعبير القرآني. إن الملاحظ في هذه المصطلحات الثلاثة، أنّها ترد مفرداً ومثنى، لا غير، فلا ترد جمعاً مطلقا فلم يقل: فِرَق، ولا طوائف، ولا فئات. إلا مصطلح "أحزاب" فقد ورد إحدى عشرة مرة، معرّفاً بأل في جميعها. يقول ابن عاشور:« الأَحْزَابُ: جَمْعُ حِزْبٍ بِكَسْرِ الحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ وَهُوَ اسْمٌ لِلجَمَاعَةِ الَّذِينَ هُمْ سَوَاءٌ فِي شَأْنٍ: مِنِ اعْتِقَادٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ عَادَةٍ. وَالمُرَادُ بِهِمْ هُنَا الأُمَمُ الَّذِينَ كَانَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ مُتَّفِقَةً فِي الدِّينِ، فَكُلُّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ حِزْبٌ فِيمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ »[5]. وقال الراغب الأصفهاني:« الحزب: جماعة فيها غلظ »[6]. ومعنى ذلك أنّ أصحاب الأحزاب قوم غلاظ، غلاظ، يتفقون على شر، أو عداوة، حتى ولو لم تكن بينهم صلة قرابة من دين أو نسب، كما فعلت قريش واليهود حين تحزبوا ضد المسلمين في غزوة الخندق.

والسؤال هنا هو: أيريد القرآن الكريم من المسلمين أن يكونوا أحزاباً، أو فرقاً، أو طوائف، أو فئات؟ أم إنّ الأمر لا يعدو أن يكون توصيفاً لواقع حياتي متنوع؛ عادة ما يتوزع فيه الناس بهذه الأشكال. ولعل المطلوب من المسلمين أن يكونوا جبهة واحدة كما عبّر عن ذلك الشيخ محمد الغزالي رحمه الله. إلاّ أن التعبير القرآني لم يورد لفظ "جبهة" على الإطلاق. ما عدا لفظ "جباههم" التي وردت في سورة التوبة الآية 35، فهي مختلفة في المعنى؛ إذ يقصد

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص234.

[2] - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص164.

[3] - أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص55

[4] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص390.

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص85.

[6] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص229.

بها جبين الإنسان؛ أي العضو الذي في أعلى الوجه. إنّ ورود هذه المصطلحات المتنوعة في القرآن الكريم، ذو دلالة على الفرق الذي بين العباد في الدنيا، من حيث العقائد، والمهن، وغيرها من الأفكار التي يمكن أن تجعل منهم مجموعات على أساس ما.

3 - **منظومة الأجر والثواب والجزاء:** يرد الأول مفرداً وجمعاً أيضاً، ويأتي موصوفاً في كثير من الأحيان؛ مثل: أجر عظيم، أجر غير ممنون، أجر كبير، أجر كريم. أما الثواب فلا يأتي إلاّ مفرداً. قال باحث:« الثواب جزاء عمل الإنسان في الخير أو في الشر، ويغلب عليه أن يكون في الخير »[1]. وقال آخر:« الأجر والأجرة جزاء العمل دنيويا كان أو أخرويا ولا يقال إلا في النفع دون الضر إلا أن الأجرة تكون في الثواب الدنيوي. وجمع الأجر أجور وسميت مهور النساء أجورا تجوزا »[2]. وجاء في تعريف الأجر لغوياً:« أجر: الأَجْرُ: الجَزَاءُ عَلَى العَمَلِ، وَالجَمْعُ أُجور. والإِجارَة: مِنْ أَجَر يَأْجِرُ، وَهُوَ مَا أَعطيت مِنْ أَجْر فِي عَمَلٍ. والأَجْر: الثَّوَابُ »[3]. وهو أيضاً:« تلقي الإنسان مكافأة على عمله الصالح في الدنيا والآخرة »[4].

وقال الأصفهاني:« الأجر والأجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيويا كان أو أخرويا... والأجرة في الثواب الدنيوي، وجمع الأجر أجور »[5]. وجاء في مخطوطة الجمل:« الثواب والمثوبة: ما يرجع إلي الإنسان من جزاء أعماله يقال أثابه الله ثوابا، وثوبه مثوبة. ويستعمل الثواب والمثوبة في الخير والشر إلا أنهما بالخير أخص وأكثر استعمالا من هنا حمل استعمالهما في الشر علي الاستعارة التي يراد بها التهكم »[6].

ويرد من لفظ "الثواب" الفعل "أثاب"، في ثلاثة مواضع هي قوله سبحانه:﴿**فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾(المائد:85)، ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾(الفتح:18)، ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ**﴾(آل عمران:153). وورد مبنياً للمجهول في موضع واحد هو قوله عز وجل:﴿**هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾(المطففين:36). وجاء في معناه:« ثُوِّبَ أُعْطِيَ الثَّوَابَ، يُقَالُ: ثَوَّبَهُ كَمَا يُقَال: أثابه، إِذا أَعْطَاهُ ثَوَابًا وَلِذَلِكَ فَاسْتِعْمَالُهُ فِي جَزَاءِ الشَّرِّ هُنَا اسْتِعَارَةٌ تَهَكُّمِيَّةٌ »[7].

وكذلك الأمر في لفظ "فأثابكم" في آية آل عمران« وَالمرَادُ أَنْ عَاقَبَكُمْ بِغَمٍّ »[8]. أما لفظ "الأجر" فلم يرد منه الفعل إلاّ منسوباً إلى العباد، وفي موضع واحد من القرآن هو قوله تعالى:﴿**قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ**

---

[1] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص18.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص57.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، مادة "أجر"، ص10.

[4] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص14.

[5] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص15.

[6] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص290.

[7] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص216.

[8] - المرجع نفسه، ج4، ص131.

UNIVERSITE SETIF2

هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾(القصص:27). وورد مرة أخرى بصيغة "مثوبة" في قوله تعالى:﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ**﴾(المائدة:60).

يرد "الثواب" في فضاءين اثنين هما: فضاء الجزاء بالحسنى، وفضاء التهكّم، أما الأجر فلا يرد إلا في مقام الخير، أو مقام الاستحقاق المادي، الذي يقابل إنجاز عمل، أو تأدية وظيفة ما. وفي ذلك توظيف فريد لهذين اللفظين، كما هو الشأن في سائر ألفاظ القرآن الكريم، التي يوردها بميزان دقيق، وبحساب مميز، في أسلوب متشابه في كثير من الأحيان؛ يدل دلالة واضحة على هذا البيان القرآني المعجز. وفي القرآن الكريم ألفاظ كثيرة أخرى تنحو هذا المنحى، سنعرضها في المبحث التالي لهذا المبحث، تحت اسم الثنائيات الضدية.

5 - **فضاء القلب واللب والفؤاد والصدر**: يرى الترمذي في كتابه المعنون:« بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب»، أنّ هناك فرقاً بين هذه المصطلحات الأربعة. وقد حدد محقق الكتاب هذه الفروق بكون الضيق والانشراح يضافان إلى الصدر، لا إلى القلب. والعمى والبصر يضافان إلى القلب. واسم الفؤاد أدق معنى من اسم القلب[1]. وبعض هذا الكلام تؤيّده آيات كثيرة من القرآن مثل:﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾(الشرح:01). و﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾(الأنعام:125). وقال جل وعلا على لسان موسى عليه السلام:﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي**﴾(الشعراء:12-13). وقال عن النبي (ص):﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ**﴾(الحجر:97).

يقول المحقق في مقدمة كتاب الترمذي:« والفرق بين الصدر، والقلب، والفؤاد، واللب، قلّما يتنبّه لها أحد. مع أنّ معرفة هذه الفروق أمر يهمّ الباحثين في الإنسان. لأنّ فهم الإنسان فهماً صحيحاً يقتضي معرفة ما له من خصائص. فالصدر في كتاب الحكيم الترمذي مرتبط بنور الإسلام. والقلب مرتبط بنور الإيمان. والفؤاد مرتبط بنور المعرفة. واللب مرتبط بنور التوحيد »[2]. ومع ذلك يبقى السؤال المحيّر هو: لمَ ارتبط الصدر بالإسلام، والقلب بالإيمان، والفؤاد بالمعرفة، واللب بالتوحيد؟ وليس بطريقة مخالفة في كل هذه الأسماء. كأن يرتبط الصدر بالإيمان، والفؤاد بالإسلام... وهكذا.

وقال الأصفهاني:« وقلب الإنسان قيل: سمي به لكثرة تقلبه، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك »[3]. ثم ذكر أمثلة من آيات القرآن الدالة على ذلك. وقال أيضاً:« الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي: التوقد، يقال: فأدت اللحم: شويته، ولحم فئيد: مشوي... وجمع الفؤاد: أفئدة. وتخصيص الأفئدة تنبيه على فرط تأثير له (قال البرهان البقاعي: وخص بالذكر لأنه ألطف ما في البدن، وأشده تألما بأدنى من الأذى، ولأنه منشأ العقائد الفاسدة، ومعدن حب المال الذي هو منشأ الفساد

---

[1] - يراجع: أبو عبد الله بن علي الحكيم الترمذي، بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، تح: أحمد عبد الرحيم السايح، مركز الكتاب لنشر، القاهرة، د. ط، د. ت. ص11 - 12.

[2] - المرجع نفسه، ص3.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص258.

والضلال، وعنه تصدر الأفعال القبيحة »[1]. وربما هذا هو السبب الذي جعل الله تعالى يقول:﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا**﴾(القصص:10)، ولم يقل: قلب أمّ موسى.

وقال أيضاً:« اللب: العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كاللباب واللب من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل، فكل لب عقل وليس كل عقل لبا. ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي الألباب نحو قوله:{ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا} إلى قوله:{أولو الألباب}[البقرة/269] ونحو ذلك من الآيات »[2].

وجاء في مخطوطة الجمل:« اللب: العقل، سمي بذلك لأنه يمثل جوهر الإنسان وحقيقته وجمعه ألباب »[3]. وفي مقاييس اللغة:« (لُبَّ) اللَّامُ وَالْبَاءُ. أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى لُزُومٍ وَثَبَاتٍ، وَعَلَى خُلُوصٍ وَجَوْدَةٍ.. اللُّبُّ مَعْرُوفٌ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَالِصُهُ وَمَا يُنْتَقَى مِنْهُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْعَقْلُ لُبًّا. وَرَجُلٌ لَبِيبٌ، أَيْ عَاقِلٌ »[4]. إلاّ أن التعبير القرآني لم يورد لفظ "العقل" مصدراً مطلقاً، إنما أتى بمرادفه، أو مشابهه؛ وهما: الألباب، والنهى، وجاء بهما بصيغة الجمع فحسب، فلم يقل: أولو اللب، أو أولو النُهية.

وجاءت صيغة "الألباب" في عدد من الآيات مسبوقة بلفظ "يتذكر"، أو "ذكرى"، مثل قوله تعالى:﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(البقرة:269)، ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(الرعد:19)، ﴿**هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(إبراهيم:52). أما صيغة "النُهَى" فورد قبلها لفظ "آيات"، ووردت في موضعين فقط من سورة طه. قال تعالى:﴿**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**﴾(طه:54)، ﴿**أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**﴾(طه:128). ولا اعتبار لمن يقول إنّ الفاصلة هي التي استدعت ذلك، لأنّ التعبير القرآني لا يُلجئه شيء.

6 - **فضاء منظومة الدراية:** ويحتوي المصطلحات التالية: العلم، الفقه، المعرفة، العقل، اليقين، الظن، والفكر:

تختلف هذه المنظومة عن سابقتها في أنّ الأولى خاصة بالجوامد، أما هذه فمتعلقة بالمصادر، وجاء في الفرق بين العلم والفقه والمعرفة ما يلي:« الفقه: هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم. قال تعالى: {فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا}[النساء/78] »[5]. « وَالفِقْهُ: فَهْمٌ لِلحَقَائِقِ الخَفِيَّةِ »[6]. ولم يرد في القرآن من مادة (عقل)، و(فكر)، و(فقه) و(فهم) إلا بصيغة الفعل، وردت المواد الثلاث الأولى كثيراً وبشكل متنوع الصيغ الصرفية، أما المادة الرابعة (فَهْم) فلم ترد إلاّ في موضع واحد هوقوله تعالى:﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا**

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص207.

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص328.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج4،ص140.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص 199 - 200.

[5] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص201.

[6] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص238.

حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(الأنبياء:79). ولعل مدلول "أفهم" يعني أنّ الشخص المفهِم غيرَه يبيّن له وجه الحقيقة ويوضحها في مسألة واحدة عرضت له، وفي وقت معيّن، ولا يقال "علّمه" إيّاها، لأنّ التعليم يتطلب وقتاً طويلاً نسبياً، وتعهّداً بالمتعلّم ومتابعة له، وتنويع المسائل وتكرارها، ولهذا يقال التربية والتعليم[1]، وليس التربية والإفهام. وفي هذه الآية أفهم الله تعالى سليمان - وحياً - كيفية الحكم في قضية الغنم التي أفسدت زرع قوم آخرين[2]. أما هذا التنوع في استخدام مفردات مختلفة للدلالة على حقل دلالي واحد، من خلال فضاءات مختلفة، فهو دلالة على تنوع المفاهيم، والتصورات عن الأشياء والحياة. فقد كان العربي القديم يستخدم كل هذه المفردات، أو المصطلحات التي يؤدي كل واحد منها معنى لا يؤديه المصطلح الآخر بالضرورة.

قال العسكري:« المعرفَة أخص من العلم لِأَنَّهَا علمت بِعَين الشَّيْء مفصلا عَمَّا سواهُ وَالعلم يكون مُجملا ومفصلا قَالَ الزُّهْرِيّ لَا أصف الله بِأَنَّهُ عَارِف وَلَا أعرف من يصفه بذلك لِأَن الْمعرفَة مأخوذه من عرفان الدَّار يَعْنِي أثارها الَّتِي تعرف بهَا قَالَ وَلَا يجوز أَن يكون علم الله تَعَالَى بالأشياء من جِهَة الْأَثر وَالدَّلِيل »[3]. أما العلم فيقول فيه:« الْعلم هُوَ اعْتِقَاد الشَّيْء على مَا هُوَ بِهِ على سَبِيل الثِّقَة »[4]. ولم يزد صاحبا مقاييس اللغة ولسان العرب عن قولهما: العلم نقيض الجهل. ومن ثمّ، لا نستطيع إدراك الفرق بين العلم والمعرفة والفقه من خلال هذا التعريف. وعند الراغب:« العلم: إدراك الشيء بحقيقته؛ وذلك ضربان:أحدهما: إدراك ذات الشيء. والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه... وأعلمته وعلمته في الأصل واحد؛ إلا أن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم »[5].

أما العقل فهو:« العلم الأول الَّذِي يزْجر عَن القبائح وكل من كَانَ زاجره أقوى كَانَ أَعقل وَقَالَ بَعضهم الْعقل يمْنَع صَاحبه عَن القوع فِي الْقَبِيح وَهُوَ من قَوْلك عقل الْبَعِير إِذا شده فَمَنعه من أَن يثور وَلِهَذَا لَا يُوصف الله تَعَالَى بِهِ وَقَالَ بَعضهم الْعقل الْحِفْظ يُقَال عقلت دراهمي أَي حَفظتُهَا »[6].

---

[1] - لأبي هلال العسكري رأي مخالف في هذه المسألة حيث يقول:« التعليم يكون فِي المرة الوَاحِدَة والتلقين لَا يكون إلا فِي المرات » (الفروق اللغوية، ص82). أي أن التلقين يحدث بالتكرار. أما في عصرنا فالتعليم أيضاً يأخذ وقتاً طويلاً، ويحدث بالمرات كذلك.

[2] - وخلاصتها أن « دَاوُود جَلَسَ لِلْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَانَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ حِينَئِذٍ يَافِعًا فَكَانَ يَجْلِسُ خَارِجَ بَابِ بَيْتِ الْقَضَاءِ. فاختصم إِلَى دَاوُود رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَامِلٌ فِي حَرْثٍ لِجَمَاعَةٍ فِي زَرْعٍ أَوْ كَرْمٍ، وَالْآخَرُ رَاعِي غَنَمٍ لِجَمَاعَةٍ، فَدَخَلَتِ الْغَنَمُ الْحَرْثَ لَيْلًا فَأَفْسَدَتْ مَا فِيهِ فَقضى دَاوُود أَنْ تُعْطَى الْغَنَمُ لِأَصْحَابِ الْحَرْثِ إِذْ كَانَ ثَمَنُ تِلْكَ الْغَنَمِ يُسَاوِي ثَمَنَ مَا تَلِفَ مِنْ ذَلِكَ الْحَرْثِ، فَلَمَّا حَكَمَ بِذَلِكَ وَخَرَجَ الْخَصْمَانِ فَقُصَّ أَمْرُهُمَا عَلَى سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا قَاضِيًا لَحَكَمْتُ بِغَيْرِ هَذَا. فَبلغ ذَلِك دَاوُود فَأَحْضَرَهُ وَقَالَ لَهُ: بِمَاذَا كُنْتَ تَقْضِي؟ قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ مَا هُوَ أَرْفَقُ بِالْجَمِيعِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: أَنْ يَأْخُذَ أَصْحَابُ الْغَنَمِ الْحَرْثَ يَقُومُ عَلَيْهِ عَامِلُهُمْ وَيُصْلِحُهُ عَامًا كَامِلًا حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ وَيَرُدَّهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَأَنْ يَأْخُذَ أَصْحَابُ الْحَرْثِ الْغَنَمَ تُسَلَّمُ لِرَاعِيهِمْ فَيَنْتَفِعُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَصْوَافِهَا وَنَسْلِهَا فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ فَإِذَا كَمُلَ الْحَرْثُ وَعَادَ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ صَرَفَ إِلَى كُلِّ فَرِيقٍ مَا كَانَ لَهُ. فَقَالَ دَاوُود: وُفِّقْتَ يَا بُنَيَّ. وَقَضَى بَيْنَهُمَا بِذَلِكَ »(التحرير والتنوير، ج17، ص116). إذاً هي مرة واحدة لحادثة واحدة وقعت في زمن محدد، ففهّمها الله سليمان.

[3] - العسكري، الفروق اللغوية، ص80.

[4] - المرجع نفسه، ص80.

[5] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص114 - 115. ويلاحظ هنا أنه يناقض قول العسكري في كيفية حصول العلم.

[6] - العسكري، الفروق اللغوية، ص83.

ولا يرد مصطلح "فقه" مصدراً، إنما فعلاً مضارعاً، منفياً عادة، ولا يأتي بصيغة المضارع المرفوع المثبت إلا قليلاً؛ أي لا يقول: هؤلاء يفقهون، أو: إنهم يفقهون كثيراً أو قليلاً. إنما تسبق عادة بلفظة تدل على الالتماس والرجاء، مثل: لعلهم يفقهون، لو كانوا يفقهون، أن يفقهوه. وقد ورد في الخطاب المكي والمدني على السواء، في تسع عشرة آية، وورد في آية واحدة بصيغة المضارع المثبت في قوله تعالى:﴿**قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾(الأنعام:98).

أما مادة "علم" فترد مصدراً، بصيغة الفعل أكثر. وقد وردت بصيغ كثيرة، ومع ضمائر مختلفة؛ من فعل ماض، مضارع، وأمر، منفي، مجزوم، ومنصوب، واسم فاعل، وصيغة مبالغة...إلخ. وكأن هذا اللفظ قد استغرق كل ما يمكن استخدامه من ملابسات الواقع، وظروف المقال، لأنه مصطلح جدير بهذا الاحتفال أكثر من غيره من المصطلحات الدالة على مفهوم "المعرفة " في حياة الإنسان.

أما مادة (درى) فيقول فيها ابن فارس:« (دَرَى) الدَّالُ وَالرَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ وَالْمَهْمُوزُ. أَمَّا الَّذِي لَيْسَ بِمَهْمُوزٍ فَأَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا قَصْدُ الشَّيْءِ وَاعْتِمَادُهُ طَلَبًا، وَالْآخَرُ حِدَّةٌ تَكُونُ فِي الشَّيْءِ... قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: تَدَرَّيْتَ الصَّيْدَ، إِذَا نَظَرْتَ أَيْنَ هُوَ وَلَمْ تَرَهُ بَعْدُ. وَدَرَيْتُهُ: خَتَلْتُهُ. فَأَمَّا قَوْلُهُ: تَدَرَّيْتُ أَيْ تَعَلَّمْتُ لِدَرْيَتِهِ أَيْنَ هُوَ، وَالْقِيَاسُ وَاحِدٌ. يُقَالُ: دَرَيْتُ الشَّيْءَ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَدْرَانِيهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ}[يونس:16]، وَفُلَانٌ حَسَنُ الدِّرْيَةِ، كَقَوْلِكَ: حَسَنُ الْفِطْنَةِ »[1]. ويقول الأصفهاني:« الدراية: المعرفة المدركة بضرب من الحيل »[2].

ولئن صحّ قول الأصفهاني، فإنّ كل الآيات التي ذكر فيها لفظ "درى" إنما هي من قبيل الأمور التي يصعب معرفة حقيقتها، أو أوَانِها، كما في الآيات التي تذكر الغيب، أو قيام الساعة، أو ما يمكن أن يقع في الحياة ولا يستطيع العبد أن يتنبأ به بحال. ومن ثمّ، لا حيلة للمرء في درء الواقع إن كان شراً، ولا تطويعه إن كان خيراً.

غير أنّ القرآن الكريم لم يستخدم هذا الفعل إلا منفياً؛ سواء أكان ثلاثياً أم رباعياً، وذلك في كل الآيات التي بلغ عددها تسعاً وعشرين آية، جلّها من الخطاب المكي. ولم يُستُخدم هذا الفعل إلا في المضارع والماضي؛ من ذلك ثلاث آيات مدنية هي:﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ**﴾(النساء:11)، ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾(الأحزاب:63)، ﴿**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا**﴾(الطلاق:1). أما بقية الايات فمكية منها قوله سبحانه:﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾(القارعة:3)، ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ**﴾(القارعة:10)، ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ**﴾(الحاقة:25 - 26)، ﴿**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ**﴾(يونس:16)، ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**﴾(عبس:3)، ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**﴾(الشورى:17)، ﴿**وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ**﴾(الأنبياء:109).

وفي الشعر العربي، أُستُخدم الفعل "درى" الثلاثي في الماضي مسبوقاً باستفهام؛ ولم يستخدمه القرآن كذلك، إذ لا يقول: أدريتَ؟ أو ماذا دريتم؟ أو هل دريتم؟ أمّا الشاعر ابن سهل الأندلسي فيقول:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صبّ حلّه عن مكنس[3]

---

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص271 - 272.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص344.

[3] - ابن سهل، الديوان، تح: يسرى عبد الغني عبد الله ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2002، ص44.

وهناك ملاحظة أخرى في استخدام صيغتيْ "ما أدراك"، و"ما يدريك"، وفي ذلك يقول ابن عاشور: « وَاسْتِعْمَالُ مَا أَدْرَاكَ غَيْرُ اسْتِعْمَالِ مَا يُدْرِيكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً[الأَحْزَاب:63] وَقَوْلِهِ: وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ فِي سُورَةِ الشُّورَى[17]. رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ: مَا أَدْرَاكَ فَقَدْ أَدْرَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ قَوْلِهِ: وَما يُدْرِيكَ فَقَدْ طُوِيَ عَنْهُ »[1]. أي إذا قال الله تعالى في آية ما: ما أدراك، أوضح ذلك في الآية التالية لها، أما إذا قال: ما يدريك، جعل ذلك خافياً، فلم يوضحه في الآية التي تليها. أما الأصفهاني فيقول:« وكل موضع ذكر فيه:{وما يدريك} لم يعقبه بذلك، نحو:{وما يدريك لعله يزكى}[عبس/30]، {وما يدريك لعل الساعة قريب}[الشورى/17]، والدراية لا تستعمل في الله تعالى »[2]. أي لا تُتخذ اسماً من أسماء الله الحسنى؛ فلا يقال عنه تعالى: الداري، بمعنى العارف أو العالم. وهناك أسماء أخرى لا تستخدم في حق ذات الله تعالى، لما تحمله من دلالات تخص الإنسان أكثر، وتتعلق به، لما فيها من سلوك، وحركة لا يليقان بذات الله العليا. ومن ثَمّ لا تُسند إليه تعالى ألفاظ الفهم، والعقل، والمعرفة، واليقظة، أو غيرها من الألفاظ التي فيها بعض مميزات المخلوقين.

أما المفردات الأخرى التي تدخل ضمن الحقل الدلالي لمصطلح "علم" وفضائه المعرفي الثقافي، مثل: اليقين، الفقه، الظن، والعرفان (المعرفة)، فهي أقل دوراناً في التعبير القرآني، لأنها تابعة لمصطلح "العلم" الذي يكون شاملاً لكل هذه الأصناف من المعرفة. ولذلك قال العسكري في الفرق بين العلم واليقين:« إن العلم هُوَ اعْتِقَاد الشَّيْء على مَا هُوَ بِهِ على سبيل الثِّقَة، وَاليَقِين هُوَ سُكُون النَّفس وثلج الصَّدْر بِمَا علم وَلِهَذَا لَا يجوز أَن يُوصف الله تَعَالَى بِاليَقِينِ. وَيُقَال ثلج اليَقِين وَبرد اليَقِين وَلَا يُقَال ثلج العلم وَبرد العلم وَقيل الموقن الْعَالم بالشيء بعد حيرة الشَّك. وَالشَّاهِد أَنهم يجعلونه ضد الشك فَيَقُولُونَ شكّ ويقين، وقلما يُقَال شكّ وَعلم. فاليقين مَا يُزِيل الشَّك دون غَيره من أضداد الْعُلُوم »[3]. بمعنى أن اليقين فيه زيادة الشعور بالرضى بما يعلمه المرء، والتأكد من صحة المسائل والقضايا، والاطمئنان إلى صحتها، بما لا يحتاج إلى برهان، أو دليل آخر. فاليقين - بهذا المفهوم - نهاية التأكد من صحة الأمر، بحيث لا يمكن التراجع عما تقرر من حقائق.

إلاّ أنّ مصطلحَيْ "اليقين" و"الظن" يتشابهان في ورودهما بصيغة المصدر، وبصيغة الفعل، أما مصطلحا الفقه والمعرفة فلا يردان إلا أفعالاً، فالفقه لا يرد إلاّ في المضارع، المرفوع أو المنصوب، والمثبت أو المنفي مثل قوله تعالى: **﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾**(النساء:78)، **﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾**(الأنعام :25)، **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾** (الأعراف:179)، **﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾** (التوبة:81)، **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾** (التوبة:122)، **﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾**(هود:91)، **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** (الإسراء:44)، وغيرها من الآيات.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص114.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص344.

[3] - العسكري، الفروق اللغوية، ص81.

أما مصطلح "معرفة" فيرد بصيغة الفعل؛ ماضيا، ومضارعاً أكثر من غيرها كقوله تعالى:﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾(البقرة:89)، ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾ (المائدة:83)، ﴿**وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ**﴾(يوسف:58)، ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾(محمد:30)، ﴿**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**﴾(المطففين:24). وكأنّ الأهم في هذين اللفظين أن يردا فعلين، لأنّ الحدث والحركة أهمّ من السكون، ومن الوصف الثابت؛ فجاء التعبير القرآني بالأفعال لا بالمصادر. ومثل هذا الأمر كثير في مفردات أخرى من ألفاظ القرآن الكريم.

7 - منظومة أفعال ترك، وودع، ووذر:

ترد هذه الأفعال الثلاثة باطّراد خاص؛ فالفعل "وذر" لم يستعمل منه إلا المضارع والأمر. أما الماضي فقد أهمل وترك، كما استغني عن المصدر منه؛ "الوذر"، وعن اسم الفاعل "واذر"، وعن الفعل المبني للمجهول "يوذر"؛ وذلك على عادة العرب التي أماتت هذه الصيغ، ولم تستخدمها مطلقاً. وإنْ ألزم الأمر استخدام الماضي من هذا الفعل، استعيض عنه بفعل آخر يؤدي معناه وهو الفعل (ترك) الذي يستخدم منه المصدر "ترْك" واسم الفاعل "تارك" كذلك. يقول ابن عاشور:« وذَرْ فِعْلُ أَمْرٍ. قِيلَ: لَمْ يَرِدْ لَهُ مَاضٍ وَلَا مَصْدَرٌ وَلَا اسْمُ فَاعِلٍ وَلَا اسْمُ مَفْعُولٍ. فتصاريفه هَذِهِ مماتة فِي الِاسْتِعْمَالِ اسْتِغْنَاءً عَنْهَا بِأَمْثَالِهَا مِنْ مَادَّةِ تَرَكَ تَجَنُّبًا لِلثِّقَلِ وَاسْتَعْمَلُوا مُضَارِعَهُ وَالْأَمْرَ مِنْهُ »[1].

ومن هنا تأتي المعضلة في فهم هذا النوع من الكلمات التي تستبدل "بمرادفها" لا محالة، ما دام الفعل الأصلي قد أميت. والسؤال هو: أيسدّ الفعل "ترك" مسد الفعل "وذر" في الدلالة على مفهوم الترك؟ - والحال أنه ليس في وسعنا إلاّ القبول بذلك -، ومن ثمّ يصبح الفعلان مترادفين بالضرورة، ولكن عند استخدام الماضي فحسب. أما في المضارع والأمر فالوضع مختلف حتماً، والسبب في ذلك أنّ القرآن نفسه فرق بينهما في آيات كثيرة. وإذا سلّمنا بمبدإ أنّ لكل لفظة دلالتها الخاصة، يصبح لا مفر من رفض مسألة الترادف في هذه الحال.

وقد وردت مادة (ترك) ثلاثاً وأربعين 43 مرة بمشتقاتها، بدلاً من مرادفتها المماثلة، إلا في أربع آيات حيث يجوز الأمران معاً، غير أن التعبير القرآني فضل استخدام فعل (ترك) بدلاً من (وذر) أو (ودع)، مكثراً من استخدام الفعل الماضي على الخصوص، كما في قوله تعالى:﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا**﴾ (البقرة:264)، ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ**﴾(النساء:7)، ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا**﴾(يوسف:17)، ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ**﴾(النحل:61)، ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾(الكهف:99)، ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾(الدخان :25).، **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا**﴾(الجمعة:11). وغيرها كثير.

والملاحظ في هذا الفعل أنه إذا كان متعلقاً بفضاء المواريث، فإن القرآن لا يأتي بغيره من المتشابهات؛ أي الفعلين وذر، أو ودع، لكون الفعل مستخدماً عادة، وباطّراد في الماضي فقط، والماضي من الفعلين المذكورين مات كما أسلفنا، فلم يبق إلا توظيف الفعل "ترك". أما إذا كان متعلقاً بفضاء العِدّة والطلاق، فإنه يستخدم الفعل "وذر" في المضارع، ولا يستخدم الفعل "ترك".

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص295.

أما صيغتا المضارع والأمر فقليلتا الاستخدام؛ كما في الآيات التالية:﴿**وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ**﴾(الدخان:24)، ولم يقل: وذَرْ أو: ودَعْ البحر. وقوله:﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ**﴾(الشعراء:146)، ولم يقل: أتذرون، أو أتدَعُون.. وقوله عز من قائل:﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾(هود:78)، ولم يقل: أن نذر، أو أن ندع، وقوله:﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾(الأعراف:176). إذ لم يقل: تدعْه، أو تذرْه. أما في هذه الآيات الثلاث الأخرى، في قوله تعالى:﴿**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ**﴾(هود:12). ﴿**قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ**﴾(هود:53). ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**﴾(الصافات:36)، فإنه يستحيل استخدام اسم الفاعل من "وذر"، و"ودع"، لأنهما مميتان في الاستعمال اللغوي، ولهذا استعيض عنهما باسم الفعل من الفعل "ترك".

وفي مفهوم الترك يقول الأصفهاني:« ترك الشيء: رفضه قصدا واختيارا، أو قهرا واضطرارا؛ فمن الأول:{وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض}[الكهف/99]، وقوله:{واترك البحر رهوا}[الدخان/24]، ومن الثاني: {كم تركوا من جنات}[الدخان/25]، ومنه: تركة فلان لما يخلفه بعد موته، وقد يقال في كل فعل ينتهي به إلى حالة ما تركته كذا، أو يجري مجرى جعلته كذا، نحو: تركت فلانا وحيدا »[1]. غير أن التعبير القرآني خص هذا الفعل بفضاء الميراث المادي أو المعنوي، إذا استُخدم في صيغة الماضي المثبت، كما في الآيات التالية:﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى**﴾(البقرة:248)، ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ**﴾(النساء:7). أما في غير ذلك، فيرد في معنى العذاب، أو التهديد كما في قوله تعالى:﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ**﴾(النحل:61)، ﴿**وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ**﴾(الدخان:24)، ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾(القيامة:36).

أما عن "ودع" فيقول ابن منظور:« وَدَعَه يَدَعُه: تَرَكَهُ، وَهِيَ شَاذَّةٌ، وَكَلَامُ العَرَبِ: دَعْني وذَرْني ويَدَعُ ويَذَرُ، وَلَا يَقُولُونَ ودَعْتُكَ وَلَا وَذَرْتُكَ، اسْتَغْنَوْا عَنْهُمَا بتَرَكْتُكَ وَالمِصْدَرُ فِيهِمَا تَرْكًا، وَلَا يُقَالُ ودْعاً وَلَا وَذْراً »[2]. أما الأصفهاني فيقول:« ودعت كذا أدعه ودعا. نحو: تركته، وادعا وقال بعض العلماء: لا يستعمل ماضيه واسم فاعله وإنما يقال: يدع ودع »[3]. ويقول عن "وذر":« يقال: فلان يذر الشيء. أي: يقذفه لقلة اعتداده به]، ولم يستعمل ماضيه. قال تعالى:{قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا}[الأعراف/70]، {ويذرك وآلهتك}[الأعراف/127]، {فذرهم وما يفترون}[الأنعام/112]، {وذروا ما بقي من الربا}[البقرة/278] إلى أمثاله. وتخصيصه في قوله: {ويذرون أزواجا}[البقرة/234]، ولم يقل: يتركون ويخلفون »[4]. بل إنّ القرآن لم يستخدم الفعل "ودع" في أيّ صيغة؛ اسمية كانت أو فعلية، بل أماته تماماً، ما عدا صيغة الأمر منه في موضع واحد هو قوله سبحانه:﴿**وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ**﴾(الأحزاب:48). فاستغنى عنه بمادتي "ترك" و"وذر".

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص145.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص383.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص500.

[4] - المرجع نفسه، ج2، ص502.

والآيات التالية خير دليل على ذلك. قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(البقرة:234)، ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾(البقرة:240)، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(آل عمران:179). ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾(الأنعام:70)، ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾(الأنعام:120). ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾(الأعراف :70)، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾(الأعراف:127)[1].

إنّ دلالة مادة "وذر"- إذاً - هي عدم الاهتمام، وهي قلة الاكتراث بمن نتركه وشأنه، وندعه على حاله. قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾(الأنعام:70):« وَمَعْنَى: (ذَرِ اتْرُكْ، أَيْ لَا تُخَالِطْ. وَهُوَ هُنَا مَجَازٌ فِي عَدَمِ الِاهْتِمَامِ بِهِمْ وَقِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ بِاسْتِهْزَائِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً [المدثر:11] أَيْ لَا تُبَالِ بِهِمْ وَلَا تَهْتَمَّ بِضَلَالِهِمُ الْمُسْتَمِرِّ وَلَا تَشْغَلْ قَلْبَكَ بِهِمْ فَالتَّذْكِيرُ بِالْقُرْآنِ شَامِلٌ لَهُمْ، أَوْ لَا تَعْبَأْ بِهِمْ وَذَكِّرْهُمْ بِهِ، أَيْ لَا يَصُدَّكَ سُوءُ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ إِعَادَةِ تَذْكِيرِهِمْ »[2]. ولكنْ، لماذا وظّف التعبير القرآني فعل "ذَرْ" بدلاً من "أُترُكْ"، أو "دَعْ" سيما إذا عرفنا أن هذا التصريف ليس من الممات؟ لعل الأمر يعود إلى أن القرآن انتقى "ذرْ" على صنويْه "دعْ"، و"أُتركْ" حين يتعلق الأمر بمسألة تكذيب الكفار لرسلهم وأنبيائهم، وتعنت الآخرين إزاء الدين بصفة عامة، وبخاصة إذا أسند إلى ذات الله تعالى؛ فيقول: ذرني، بدلاً من دعني، أو اتركني.

إن التعبير القرآني لا يأتي بأكثر من لفظة من المتشابهات إلا لمعنى يقتضيه المقام؛ وذلك قمة البلاغة كما عبّر عنها القدامى، وزيادة على ذلك، يجعل لكل لفظة فضاء خاصاً بها، إذ يُعرف ذلك الفضاء من خلال تلك الألفاظ المطّردة الاستعمال في الخطاب المكي، أو في الخطاب المدني، أو في كليهما.

---

[1] - وبقية الآيات هي:(الأنعام:137)، (المؤمنون:54)، (يونس:11)، (مريم:72)، (الأنبياء:89)، (الزخرف:83)، (الطور:45)، (الذاريات:41 - 42)، (نوح:26 - 27)، (المدثر:11)، (المزمل:11)، (الإنسان:27).

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص295.

المبحث الخامس: فضاء مفردات تنوع الصيغ الصرفية للمادة الواحدة

نقصد بهذا العنوان الألفاظ التي وردت بصيغ صرفية مختلفة في مواضع ومقامات معيّنة من القرآن الكريم؛ مثل تلك التي لم ترد إلاّ مفرداً ، والتي لم ترد إلاّ جمعاً، والتي وردت للدلالة على معنى محدد ثابت، وتلك التي تحمل صيغتين صرفيتين إحدهما للدلالة على شيء، والأخرى للدلالة على معنى آخر، وتلك التي لا ترد إلاّ مذكراً وإن كانت تدل على مؤنث[1]. وهو مبحث واسع وشائك، وفيه تتنوع الصيغ من أفعال، وأسماء في المادة الواحدة، لينتج عن ذلك تنوع في الدلالة حسب كل صيغة. وهي ظاهرة كثيرة الورود في القرآن الكريم، وتطّرد بحسب نوع الفعل. فمن الأفعال ما يشتق منه أكثر من صيغة، ومنها ما يكتفي بواحدة أو اثنتين، ومنها ما تتغيّر فيه الدلالة، ومنها ما تبقى دلالته ثابتة... إلخ. إلاّ أنّ ضبط هذه الظاهرة تحت فضاء خاص أمر غير يسير، وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى.

قال الزركشي:« وفائدة التصريف حصول المعاني المختلفة المتشعبة عن معنى واحد؛ فالعلم به أهمّ من معرفة النحو في تعرّف اللغة؛ لأن التصريف نظر في ذات الكلمة، والنحو نظر في عوارضها... قال ابن فارس: لأنّا نقول "وجد" كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت، فقلنا في المال "وُجْداً"، وفي "الضالة": وجداناً، وفي الغضب "موجدة"، وفي الحزن "وَجدْنَا" وقال تعالى:﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾، وقال تعالى:﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾، فانظر كيف تحوّل المعنى بالتصريف من الجور إلى العدل »[2]. ومع ذلك، فلا بد من النظر إلى "قاسطون" و"مقسطون، من حيث صيغتاهما "، إذ إنّ الأولى مشتقة من فعل ثلاثي هو: قسط، والثانية مشتقة من فعل رباعي متعد بالهمزة، هو أقسط. ومعلوم أنّ في اللغة أفعالاً ثلاثية إذا عدّيت بالهمزة، أو بالتضعيف، تغيّر معناها، مثل: قبِل وأقبل، نشد وأنشد، ومرض ومرّض. ومعنى كلام الزركشي أنّ الكلمة المصرّفة في صيغة ما، عادة ما تحمل دلالة مطّردة في القرآن الكريم.

ويؤكد هذه الفكرة باحث معاصر، إذ يقول:« غفل بعض علماء العربية والتفسير، عن الفروق الدقيقة بين معاني كثير من الصيغ الصرفية؛ فقالوا "بالترادف الصرفي"، وخالفهم آخرون فقالوا "بالتباين الصرفي"... والحقيقة أنّ معظم الصيغ التي قيل بترادفها، يمكن التفريق بين معانيها، على أساس القول بالعموم الصرفي »[3]. ويقول في موضع آخر:« وإذا كانت من الكلمات الاشتقاقية الصرفية المركبة من عنصريْ المادة الاشتقاقية والصيغة الصرفية، فلا بد من تحليل الكلمة من هذين العنصرين؛ فيكون لكل عنصر منهما أثر في كون معنى الكلمة أعمّ من معنى كلمة أخرى، أو

---

[1] - ومثال ذلك: وزن فعيل، إذ لا يأتي منه مؤنث فعيلة، ولذلك يقول تعالى:﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾، ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾. واللغة تستخدم وزنيْ "فعول" و"فعيل" للمذكر والمؤنث معاً مثل: حِصان جموح، وفرس جموح. ريح عقيم، وفِكر عقيم

[2] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص297 - 298.

[3] - رضا هادي حسّون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، المركز التقني، بغداد، ط2، 2013، ص4.

في كونه أخصّ منه »[1]. ويردف في موضع آخر من كلامه قائلاً:« وكل صيغة في العبارة مقصودة قصداً أكيداً.. واختلاف الكلمتين في الصيغة دليل على اختلافهما في المعنى اختلافاً جزئياً يسيراً أم كلياً كبيراً. وهذا الاختلاف مقصودٌ قصداً أكيداً في التعبير القرآني. وعدم إدراك ذلك السر لا يدل على عدم وجوده »[2]. ولا شك في صحة العبارة الأخيرة من هذا الاقتباس، وهو الأمر الذي يؤرق كل باحث في معاني القرآن، وفي إعجازه على الخصوص.

غير أنّ هناك ظاهرة جديرة بالتنويه؛ هي انقلاب معنى لفظة معيّنة إذا تغيّرت صيغتها من الفعلية إلى الاسمية، أو العكس، وكانت مأخوذة من المادة المعجمية ذاتها؛ مثل تغيّر المعنى في مادة "ختم" إذا وردت فعلا، إلى معنى آخر مناقض إذا كانت اسماً؛ أي "خاتم"، أو "ختام"، أو"مختوم". وكذلك كلمة "الربا" التي تأخذ معنى مخالفاً للفعل الذي هو من نفس مادتها؛ أي "رَبا"، أو "يربو"، أو"يُرْبي". وسخر، وسِخريا، وسُخريا، وكذلك اختلاف المعنى بين "القاسطون" و"المقسطون". قال ابن منظور:« فِي أَسماء اللَّهِ تَعَالَى الْحُسْنَى المُقْسِطُ: هُوَ العادِلُ. يُقَالُ: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فَهُوَ مُقْسِطٌ إِذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فَهُوَ قاسِطٌ إِذا جارَ، فكأَن الْهَمْزَةَ فِي أَقْسَطَ للسَّلْب كَمَا يُقَالُ شَكا إِليه فأَشْكاه »[3]. فاستخدم نفس المادة "قسط"، لاشتقاق مدلولين متضادين، بدلاً من استخدام مادة أخرى؛ مثل: جار، ويشتق منها "جائرون"، فتكون لفظة "مقسطون" مقابل "جائرون".

ومثال ذلك أيضا الفعل "ظن": الذي يفيد اليقين في مجال العقيدة، أما في مجال التشريع فيفيد الرجاء والطمع وما يدور في فضائهما. فلهذا اللفظ فضاءان اثنان يطّرد فيهما معنيان مختلفان. إذ الملاحظ أنّه إذا وردت مادة "ظن" بصيغة الفعل، دلّت على اليقين - عادة - لا سيما إذا كانت في مجال العقيدة؛ كما في قوله جل وعلا:﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾(البقرة:46)، ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾(البقرة:249)، ﴿**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**﴾(يوسف:42)، ﴿**حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا**﴾(يوسف:110)، ﴿**وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا**﴾(الكهف:53)، ﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**﴾(الأنبياء:87)، ﴿**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ**﴾(الحج:15)، ﴿**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ**﴾(القصص:39).

أما إذا وردت بصيغة الاسم، فعادة ما تدل على الشك وعدم اليقين، بل والخطأ كذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾(الحجرات:12)، ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ**﴾(النجم:23)، ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**﴾(النساء:157)، ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾(الأنعام:116)، ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾(يونس:36)، ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾(يونس:66).

---

[1] - رضا هادي حسّون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، ص10.

[2] - المرجع نفسه، ص12.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج7، مادة: قسط، ص377.

إلاّ أنّ هذه الظاهرة الصرفية مطردة في أفعال كثيرة؛ فحين تكون ثلاثية مجردة تحمل دلالة خاصة، فإذا زيد فيها بعض الحروف تغيّرت دلالتها إلى الضد، أو اختلفت عن الفعل الأصلي؛ مثل: قبِل، أقبل، قبّل، تقبّل. ومرض، مرّض، وسعد، ساعد... إلخ. وكأن الفعل المزيد ليس مأخوذاً دائماً من أصل الفعل الثلاثي المجرد. قال تعالى:﴿**يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسكٌ**﴾(المطففين:25 - 26).﴿**ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ (الأحزاب:40). فالمفردتان هنا - مختوم وخاتم - تحملان دلالة الرضى، والنعيم، والثناء.

أما في قوله تعالى:﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾(البقرة:7)، ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ**﴾ (الأنعام:46)، ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(يس:65)، ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ**﴾(الشورى:24)، ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ**﴾(الجاثية :23)، فوردت هذه المفردة بصيغة الفعل، وتدل على العقاب.

وأما مادة "**ربا**" فتتراوح بين معنى الزيادة والنماء المشروعين، وبين معنى النماء الزائد عن الحاجة، والخارج عن الحق. فإذا كانت بصيغة الفعل، حُمّل المعنى الأول، وإذا كانت اسماً حُمّل المعنى الثاني. قال تعالى:﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾(البقرة:275)، ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾ (البقرة:276)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا**﴾(البقرة:278)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾(آل عمران:130)، ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ**﴾(النساء:160 - 161)، ﴿**وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ**﴾(الروم:39).

ولننظر إلى الآية الأخيرة، لنرى كيف وظّف القرآن الكريم لفظ "ربا"، ولفظ "ليربو" في معنيين مختلفين، وقد ورد كلاهما بنوع من المشاكلة. فكأنه يقول: إن هذا الربا الذي هو محرّم في الشرائع السماوية كلها، وبه أخبر كل الرسل والأنبياء أقوامهم، ونهاوهم عن تعاطيه، وهو أكل لأموال للناس ظلماً وعدواناً، والذي تطمعون من ورائه الزيادة والنماء، اللذين يحبّهما كل إنسان، فإنه لا يزيد عند الله، ولا ينمو. لقد حافظ الاستخدام القرآني على المادة اللغوية ذاتها، مع الإبقاء على الدلالة المشروعة والمقبولة في اللفظ، إذا وردت بصيغة الفعل، وألغى الدلالة الثانية غير المشروعة، إذ استخدمها بصيغة الاسم.

وجلّ آيات الربا من القرآن المدني، لأنها تخص التشريع، ما عدا آية سورة الروم. السالفة الذكر، مع العلم أنّ القرآن الكريم إنما ألمح في هذه الآية المكية، إلى خطيئة الربا، دون أن يعرض إلى حكمها الشرعي المحدد؛ وذلك ليبيّن خطورتها منذ البدايات الأولى لنزول القرآن، حتى لا يقال إنّ الحُكم في هذه المسألة كان تدريجياً، أو أنها كانت مباحة، ثم نسخت. وكان يذكر ذلك أيضاً على لسان الأنبياء والرسل السابقين، وهم يأمرون أقوامهم وينهونهم عن المفاسد، يقول ابن عاشور:« وَكَانَ الرِّبَا فَاشِيًّا فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ وَخَاصَّةً فِي ثَقِيفٍ وَقُرَيْشٍ. فَلَمَّا أَرْشَدَ

اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُوَاسَاةِ أَغْنِيَائِهِمْ فُقَرَاءَهُمْ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِتَهْيِئَةِ نُفُوسِهِمْ لِلْكَفِّ عَنِ الْمُعَامَلَةِ بِالرِّبَا لِلْمُقْتَرِضِينَ مِنْهُمْ، فَإِنَّ الْمُعَامَلَةَ بِالرِّبَا تُنَافِي الْمُوَاسَاةَ »[1]. فكان من بين ذلك النهي عن الربا، وعن الظلم في المعاملات الاقتصادية.

إنّ هذا التصرف في مفردات اللغة العربية، وهذا التوظيف الدقيق النادر لها، لم يجد له الباحثون تخريجاً غير قولهم إنه هندسة قرآنية بديعة. وما فعلوه من تأويل لهذا الاستخدام الفريد، لا يكاد يخرج عن توجيه نظر المتلقي إلى هذا التوزيع البارع المعجز؛ دون الوقوف على الحكمة من ذلك. والواقع أنّ البحث في هذا الاتجاه ليس بالأمر الهيّن مطلقاً، ويكفي الباحث أن ينبّه على هذا الجانب، وعلى هذا التصنيف في إيراد المفردة القرآنية، ليلمح القارئ - حقيقة - إعجاز القرآن، ولو لم يستطع فقه كنه هذا الاستخدام.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، أنّ هذا التنوع الصرفي في المادة الواحدة، يختلف إيراد مفرداته بين الخطابين؛ المكي والمدني، فبعضه لا يرد إلاّ في المكي، وبعضه ليس إلا في المدني، وبعضه الآخر يرد في الخطابين معاً، ونوع رابع فيه بعض الاستثناءات. وهذا الأمر جعل تصنيف مفرداته في فضاءات معينة في غاية الصعوبة، وهو ما حاولنا إبرازه في هذا الفصل الرابع، كما يلي:

1 - **فضاء المصادر**:

يستخدم القرآن الكريم مصادر بعض المفردات بثلاث صيغ؛ هي: المصدر الصريح، والمصدر الميمي، ومصدر المرّة. ولكل استخدام دلالة خاصة، مع العلم أنّ استخدامه للمصدر الميمي أقل من استخدامه المصدر الصريح، أو اسم المصدر في بعض الأحيان؛ جرياً على عادة العرب في كلامها، وسنن اللغة في أساليبها. ولكل توظيف لهذا المصدر أو ذاك معنى دقيق يتطلبه الموقف، وتدعو إليه الحال. وفيما يلي عرض لنماذج من هذين النوعين من المصادر للتدليل على صدق الفرضية من عدمه.

1 - 1 - **فضاء المصادر الصريحة**: هي كثير ومتنوعة بحسب المقصود، فقد يؤتى من مادة معجمية واحدة بأكثر من مصدر، للدلالة على أكثر من فضاء بالضرورة. يقول باحث:« لتعدد المصادر في العربية سببان رئيسيان، هما: اختلاف اللغات، واختلاف الدلالات. والترادف الصرفي بين المصادر إنما يكون في لغتين مختلفتين، أو أكثر من لغات العرب. أما في اللغة الواحدة فلا بد من التفريق الدلالي بين مصادر الفعل الواحد »[2]. والقرآن الكريم يختار مصادر على أخرى، ولعله ينتقي الأقل حروفاً إذا كان في ذلك دلالة قوية على المعنى المقصود، فقد وظّف - مثلاً - ثلاث صيغ من مادة "كفر" هي كُفْر، وكفران، وكُفور، لكنه لم يوظّف من مادة "هدى" إلا "هُدى"، وليس هداية[3].

كما وظف التعبير القرآني مصدر "غَلْي" وليس "غليان"، والناس يستخدمون الثاني منهما. وفي ذلك سر، وحكمة يقتضيهما المقام، ويستدعيهما المعنى المراد تبليغه للمتلقي، أو أنّ صيغة المصدر - في ذاتها - تحمل دلالة خاصة« فأنت تقول غليْت الماء غلْياً، وغلى الماء غلْياً إنْ أردت الفعل ولم ترد التقلب والحركة... فإن أردت الحركة

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج21، ص105.

[2] - رضا هادي حسّون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، ص155.

[3] - يراجع فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص19.

والاضطراب قلتَ: غلى الماء غلياناً »[1]. إلا أنّ مثل هذا التخريج يجب أن يدعمه شيء من كلام العرب، فالقرآن الكريم وظّف مصدر "غلْي" وليس "غليان" في قوله تعالى:﴿**كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**﴾(الدخان:45)؛ فهل يعني ذلك أنه لم يقصد الحركة والتقلب؟ قال ابن عاشور في شرح ذلك:« الحَمِيمِ: المَاءُ الشَّدِيدُ الحَرَارَةِ الَّذِي انْتَهَى غَلَيَانُهُ .. وَوَجْهُ الشَّبَهِ هُوَ هَيْئَةُ غَلَيَانِهِ »[2]. إنّ فكرة العموم الصرفي هي المناسبة في هذا المقام؛ بحيث يكون مصدر "غلْي" حاملاً لدلالة الفعل ودلالة الحركة في آن، لاسيما أنه لم يستخدم إلا مرة واحدة في القرآن الكريم كله.

وسنأخذ بعض المواد التي ورد منها المصدر الصريح فقط، ولو بصيغ مختلفة، وسنعرض أيضاً في مواد أخرى لعيّنات وردت منها مصادر صريحة ومصادر ميمية، ليتسنى لنا الكشف عن سر هذا الاستخدام للمصادر، والتعرّف على نوع الاختلاف فيها.

أ- مادة(**خسر**): وردت بأربع صيغ من المصدر الصريح فحسب هي: الخُسر والخُسران والخَسار والتخسير: وكان ذلك بنسبة قليلة[3]. يقول الأصفهاني:« الخسر والخسران: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: {تلك إذا كرة خاسرة}[النازعات/12]، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة، والعقل والإيمان، والثواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين... وكل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير، دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الدنيوية والتجارات البشرية »[4].

وقد استدركت عليه بنت الشاطئ بأنّ في القرآن مواضع ورد فيها "الخسر" بمعنى "الخسران" المادي في الوزن والكيل، مستشهدة ببعض الآيات مثل قوله تعالى:﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾(المطففين:1- 3)، ﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾(الرحمان:9). وآيات أخر فيها مشتقات مادة "خسر"، تقول الباحثة:« والخُسر لغة نقيض الربح، استعمل مادياً في التجارة الخاسرة أو الصفقة المغبونة، ومنه جاء بمعنى النقص والجور والضعف والخيانة والغدر، ثم نقل إلى المجال الديني بمعنى الضلال عن الحق وهو أفدح الخسر. ووردت المادة في القرآن الكريم في أربعة وستين موضعاً، منها ثلاثة في الخسر بمعناه المادي في التعامل التجاري مع الوزن والكيل »[5].

أما مصدر "**خُسْر**" فورد في قوله تعالى:﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا**﴾(الطلاق:8- 9)، ﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾(العصر:1- 2). وهو - فيما يبدو - يدل على مطلق ما يخسره الإنسان، من غير تحديد كمّي أو نوعي، ومن غير متعلقات لفظية، كما في مثيلاته الثلاثة الأخرى، وذلك لأنّ صيغة "خُسر" هي الأصل الأول، الذي لا زيادة في

---

[1] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص28.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص315.

[3] - وردت هذه الصيغ كما يلي: "خُسْر" مرتان، و"خسران" ثلاث مرات، و"تسخير" مرة واحدة، و"خسار" ثلاث مرات.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص297.

[5] - عائشة عبد الرحمان، التفسير البياني، ج2، ص83.

مادتها، وهي« الأدنى في معنى الخسارة... وترتيب هذه الصيغ في قوة المعنى، ترتيباً تنازلياً هكذا: خسران، خسار، خسر لأن خسران أكثر حروفاً من خسار، وخسار أكثر حروفاً من خسر، وكل زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى »[1]. إلاّ أن هناك من ينظر إلى المسألة من باب العموم والخصوص الصرفيين؛ وعليه يكون هناك عموم وخصوص دلاليان؛ فالخسر للدلالة على عموم المعنى لهذه المادة، سواء أكان ذلك كصيراً أم قليلاً، وغيرها من الصيغ الأخرى يتخصص المعنى بحسب حروف الزيادة.

ومن ثمّ، فالراغب الأصفهاني لم يكن مخطئاً فيما ذهب إليه، لأنه لم يقل: كل ما جاء من مادة "خسر"، يدل على خسار الدين، إنما بنت الشاطئ هي التي لم تدقق في الأمر جيداً، لأنّ مصطلح "الخسران" على وزن "فعلان" يطّرد في القرآن الكريم بمعنى خسارة الآخرة، أما "الخُسر"، و"الخسار"، و"التخسير"، فهي مصطلحات قد تحمل معنى الخسار المادي، أو المادي والديني معاً. وقد عرضت الكاتبة لدلالة "الخسر" من حيث الصيغ الفعلية أيضاً، وتلك مسألة أخرى، فقد يحمل الفعل دلالة مخالفة لما يحمله الاسم أو المشتق من المادة نفسها. والصيغ الصرفية تنقسم إلى قسمين هما« الصيغ الصرفية العامة، والصيغ الصرفية الخاصة. فالصيغ العامة تدل على معان أعم من المعاني التي تدل عليها الصيغ الخاصة، والصيغ الخاصة تدل على معان أخص من المعاني التي تدل عليها الصيغ العامة »[2].

إلاّ أننا نجد تخريجاً آخر لهذه المصادر الثلاثة عند فاضل السامرائي، إذ جعل مصدر "خُسْر" لمطلق الخسارة، ومصدر "خسار" للزيادة في الخُسْر، إذ يذكر معه دوماً الفعل "زاد"، أو"يزيد"، ويستخدم المصدر "خسران" لأعظم الخسار وأفدحه[3]، إذ يتبعه دوماً بوصف "مبين"، فيقول:﴿**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾(الحج: 11)، ﴿**إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾(الزمر:15).

غير أن السؤال المطروح هو: كيف نعرف الصيغ العامة من الصيغ الخاصة؟ يجيب أحدهم بأنّ الفعل المجرد، وما يشتق منه من صيغ تعتبر صيغاً عامة، وما يشتق من الفعل المزيد صيغه خاصة، على اعتبار أن المجرد هو الأكثر استعمالاً ودوراناً على الألسن، وهو الأصل في الاستخدام اللغوي العربي. ولكن، أين الصيغ العامة من الخاصة في مادة "خسر" ومشتقاتها؟ وجلّها مأخوذ من فعل مجرد، عدا "تخسير"، و"يُخسرون". جاء في لسان العرب:« خسر: خَسِرَ خَسَرَ خَسْراً. وخَسَراً وخُسْراناً وخَسَارَةً وخَسَاراً، فَهُوَ خاسِر وخَسِرٌ، كُلُّهُ: ضَلَّ. والخَسَار والخَسارة والخَيْسَرَى: الضَّلَالُ وَالْهَلَاكُ، وَالْيَاءُ فِيهِ زَائِدَةٌ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ »[4]. وواضح من هذا التعريف أنّ ابن منظور أتى بكل تصريفات الفعل "خسر"، على أنها مترادفة في الدلالة العامة، أما في الاستخدام القرآني، فالأمر مختلف بالضرورة؛ إذ ليس من البلاغة أن يذكر التعبير القرآني كل هذه التصريفات، لتدل على معنى واحد فحسب.

---

[1] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص251.

[2] - رضا هادي حسون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن، ص13.

[3] - فاضل صالح السامرائي، من أسرار البيان القرآني، ص12.

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص238.

ب - مادة (**جدل**): فيها صيغتان هما: جَدَل، وجدال، ووردت كل واحدة منهما في موضعين فقط. أما الأولى ففي قوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾(الكهف:54)، ﴿**وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾(الزخرف:58)، وأما الثانية ففي قوله تعالى:﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾(البقرة:197)، ﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**﴾(هود:32)، من غير استخدام مصدر مجادلة. ولم نجد تفريقاً واضحاً عند الراغب الأصفهاني بين الصيغتين، ولا في مخطوطة الجمل، ويرى بعضهم أن الفرق بين جدل وجدال، أنّ الأول يعني الانفرادية؛ أي من جانب واحد فقط، لا المشاركة بين طرفين، أما الثاني فيعني المشاركة في الجدل بين طرفين في الخصام، وكل منهما يريد التغلب على الآخر[1].

ج - مادة (**كفر**): ورد منها ثلاثة مصادر هي: كُفْر، وكُفور وكفران. أما صيغة "كُفْر" فترد مقترنة بلفظ "الإيمان"، وقد وردت أكثر بكثير من غيرها في آيات كثيرة؛ منها ما يلي:﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ (البقرة:108)، ﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾(آل عمران:52)، ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ**﴾(آل عمران:167)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ**﴾(آل عمران:177)، ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾(المائدة:41)، ﴿**وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ**﴾(المائدة:61)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ**﴾(التوبة:23)، ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾(النحل: 106). فإن لم ترد لفظة "الإيمان" في السياق، ورد فيه ما يدل عليها. أما صيغة "كُفور" فوردت ثلاث مرات، في سياق جحود النعمة، وعدم الاعتراف بأنها من الله تعالى، ومن ثمّ امتناع شكرها. والآيات هي قوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**﴾(الفرقان:50)، ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا**﴾(الإسراء:99)، ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**﴾(الإسراء:89). يقول باحث معاصر:« والكُفور.. لم تستعمل في سياق فيه كلمة الإيمان، وإنما استعملت.. وقد سبقها في سياقها كلمة (أبى).. ولم نجد أن (أبى) استعملت ولو مرة واحدة مع كلمة (الكُفر) »[2]. وقد وردت لفظة "كُفورا" منصوبة دائماً، وبعد أداة "إلاّ" في هذه المواضع كلّها، فأصبح سياقها اللغوي أسلوب حصر.

والملاحظ أنّ الخطاب القرآني المدني، لا يستخدم إلاّ صيغة "كُفر"، وكأنّ هذه الصيغة هي الأصل في التفريق بين سبيلين متناقضين؛ إيمان يقابله كُفر، ويكفي الإنسان أن يتصف بالكفر ليكون من أهل النار، وليس بالضرورة أن يكون كَفورا، أو كفّارا؛ إنما يكفي أن يكون كافراً فحسب. لذلك لم ينوّع التعبير القرآني في صيغ هذه المادة في الخطاب المدني، ففي المدينة دائرتان اثنتان لا غير؛ دائرة الكفر، ودائرة الإيمان. عكس الذي نجده في الخطاب المكي.

---

[1] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص209.

[2] - المرجع نفسه، ص312.

أما لفظ "كُفران" فورد مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ**﴾(الأنبياء:94). ويرد في السياق المتعلق« بالحقوق والنِعم التي تخص المؤمن، على توكيد للمعنى، جزاء لسعيه الصالح، ولكن هذا لا يمنع أنها تأتي في الاستعمال البشري للكفور بالله »[1]. ولذلك جاء في مخطوطة الجمل:« الكُفور: الكفر بمعنى عدم الإيمان، أو بمعنى الجحود وعدم الشكر »[2]. وجاء في التحرير والتنوير:« الكُفْرَانُ مَصْدَرٌ أَصْلُهُ عَدَمُ الِاعْتِرَافِ بِالإِحْسَانِ، ضِدُّ الشُّكْرَانِ. وَاسْتُعْمِلَ هُنَا فِي حِرْمَانِ الجَزَاءِ عَلَى العَمَلِ الصَّالِحِ عَلَى طَرِيقَةِ المجَازِ، لِأَنَّ الِاعْتِرَافَ بِالخَيْرِ يَسْتَلْزِمُ الجَزَاءَ عَلَيْهِ عُرْفًا »[3]. غير أن التعبير القرآني خصّ كل لفظ بمدلول واحد فقط. وقد ذكر غير واحد من العلماء أنّ "الكفران" يقابل "الشكران"، لكن القرآن ذكر الأول، وأعرض عن الثاني. بل إنه لم يستخدم من مصادر الفعل "شكَر" إلا مصدر "شُكْر"، وفي موضع واحد من القرآن كله؛ في قوله تعالى:﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾ (سبأ:13).

1- 2 - **فضاء مصادر المرة:** لقد أورد التعبير القرآني مجموعة من مصادر المرة في السور المكية على الخصوص؛ مثل: دكّة، جهرة، زجرة، صيحة، نفخة، وقعة، أخذة، بسطة، بطشة، قبضة، رهْبة، لعنة، موتة. وقد وردت بنسبة قليلة، ومنها ما ورد مرة واحدة، مثل قوله تعالى ﴿**وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**﴾(الحاقة:14)، ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾(الحاقة:13)، ﴿**إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ**﴾(الواقعة:1 - 2)، ﴿**قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ**﴾(طه:96)، ﴿**لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ**﴾(الحشر:13). إلا مصدر "موتة" فقد ورد ثلاث مرات؛ مرة واحدة أسندت إلى قول الله تعالى:﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى**﴾(الدخان: 56)، وأما في المرتين الأخريين فأسندت إلى البشر. والآيتان هما:﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ**﴾(الدخان:34 - 35)، ﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾(الصافات:58 - 59).

ولم يرد في القرآن الكريم مصدر المرّة من غير الثلاثي؛ لأنّه إذا كان مأخوذاً من فعل أكثر من ثلاثي وجب إضافة تاء في آخره للدلالة على هذا النوع من المصدر. قال سيبويه:« وأما فاعلت فإنك إن أردت الواحدة قلت: قاتلته مقاتلةً، ورميته مراماةً؛ تجيء بها على المصدر اللازم الأغلب. فالمقاتلة ونحوها بمنزلة الإقالة والاستغاثة؛ لأنك لو أردت الفعلة في هذا لم تجاوز لفظ المصدر، لأنك تريد فعلةً واحدةً فلا بد من علامة التأنيث »[4]. وكأنّ التعبير القرآني لا يريد توظيف إلا المصادر الثلاثية - وقد رأينا أنه يفضل مصدر "فِعال"، على مصدر "مفاعلة"- وبذلك فإن توظيف مصدر المرة من غير الثلاثي يتطلب زيادة تاء في آخره؛ مما يجعل المصدر أكثر طولاً من حيث عدد الحروف، فما لم يكن وراء ذلك معنى جديد، أو إضافي، فلا فائدة من إيراد مثل هذه المصادر.

وكأنّ التعبير القرآني - في اقتصاره على إيراد هذه المصادر مرة واحدة - يشير إلى أنّ هذه الأمور لا تقع إلا مرة واحدة في الحياة، أو أنها وقعت تاريخيا مرة واحدة في مكان واحد وزمان معيّن، فلم يجد ضرورة لتكرارها أكثر من

---

[1] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص311.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج4، ص72.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص144.

[4] - سيبويه، الكتاب، ج4، ص86.

مرة. أما "زجرة" التي وردت مرتين؛ فلأنها وردت في سياق تكرار القصة نفسها. وأما أكثرها وروداً فهي لفظة "صيحة"، فقد جاءت في ثلاثة عشر موضعاً. وكل هذه المصادر ترد بالمعنى ذاته دوماً، إلا لفظة "صيحة" فقد جاءت بمعنين مختلفين؛ معنى حقيقي، ومعنى مجازي، وهما الصرخة والعذاب[1]. فالمعنى المكرر لهذه اللفظة في القرآن هو العذاب« وَالصَّيْحَةُ: الصَّاعِقَةُ أَصَابَتْهُمْ »[2]. وفي سوريتْ يس والمنافقون وردت الصيحة بمعنى الصرخة؛ أي صوت قوي مفزع ومهلك.

أما النوع الثاني من المصادر فهو الذي ورد منه نوعان؛ صريح وميمي، ونذكر من ذلك العينات التالية:

أ - مادة (**أمن**)؛ أمْن، أمَنة، مأمن: ورد "الأمن" أكثر من غيره، قال تعالى:﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾(النساء:83)، ﴿**فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(الأنعام:81)، ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ**﴾(الأنعام:82)، ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا**﴾(البقرة:125). ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾(النور:55). أما "أمنة" فيتعلق دوماً بلفظ "نعاس"، قال تعالى:﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا**﴾(آل عمران:154)،﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً**﴾(الأنفال:11). قال الأصفهاني:« وقوله:{أمنة نعاسا}[آل عمران/154] أي: أمنا، وقيل: هي جمع كالكتبة »[3]. وكأن« الأمَنة حالة من المعنى أخف من حالة (الأمن)، وأقصر وقتاً، فهي تأتي في ظرف خوف وكأنها الشمس تشرق في يوم ماطر »[4]. وهذه الصيغة تشبه مصدر المرة في كونها تحدث مرة واحدة، أو أنها تحدث لفترة قصيرة، بسبب خاص، لأجل تحقيق أمر معيّن.

ب - مادة (**تاب**): تكرر منها مصدرها الصريح "توبة" سبع مرات، نكرة ومعرفة، ومضافاً في آية واحدة هي قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾(آل عمران:90). وفي موضع واحد وردت موصوفاً في قوله سبحانه:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**﴾(التحريم:8)، للدلالة على أنّ لفظ توبة وحده لا يفي بالغرض، بينما لفظ "متاباً" يحمل في بنيته وفي طياته دلالته المعبّرة بدقة عن المقصود منه. والمصدر الميمي « يصاغ من المصدر الأصلي للفعل الثلاثي وغير الثلاثي صيغة قياسية، تلازم الإفراد والتذكير، وتؤدي ما يؤديه هذا المصدر الأصلي من الدلالة على المعنى المجرد ومن العمل... لكنها تفوقه في قوة الدلالة وتأكيدها »[5]. غير أن القرآن الكريم يستخدم الشائع من كل هذه المصادر، وفي مواطن خاصة يستخدم الأكثر دلالة على المعنى المقصود. أما مصدر "التوب" فلم يرد إلاّ مرة واحدة هي قوله تعالى:﴿**غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ**﴾(غافر:3)؛ وذلك للدلالة على أنّ الله تعالى يقبل مجرد التوب، والتفكير فيه؛ أي الإنابة والاعتراف بالذنب، ثم طلب الغفران، أو المغفرة، فأتى التعبير القرآني بمصدر "توْب" الدال على مجرد الحدث من غير تحديد، وقد جاء في الحديث القدسي: من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً.

---

[1] - يراجع، حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص463.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص115.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص48.

[4] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص199.

[5] - عباس حسن، النحو الوافي، ج3، ص233.

ج - مادة (**رجع**): فيها مصدران صريحان: الأول "رُجعى"، ورد مرة واحدة في سورة العلق، والثاني "رَجْع" ورد مرتين بمعنيين مختلفين؛ هما: معنى البعث، في قوله تعالى:﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾(ق:3)، ومعنى المطر، في قوله تعالى:﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾(الطارق:11). أما صيغة "رجعى" فوردت مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾(العلق:8)، وجاءت معرّفة بأَلْ، « على وزن فُعلى- وهذا الوزن أصله لصيغة التفضيل - فإذا اتصلت به (أَلْ) كان لأعلى صيغ التفضيل، ومع أن أصل الصيغة أنها للتفضيل: أي تخص للصفات، غير أنها إذا صيغ عليها الاسم كالرُجعى، دلّ على الأهمية، أو التوكيد، فصيغة الرجعى فيها من التوكيد على الرجوع أكثر مما في صيغة مرجعهم»[1]، وإن لم يقل التعبير القرآني: رُجعاهم، ولا رُجعاكم. ويرى ابن عاشور أن صيغة "الرُجعى" بمعنيين« أَيْ مَرْجِعُ الطَّاغِي إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا مَوْعِظَةٌ وَتَهْدِيدٌ عَلَى سَبِيلِ التَّعْرِيضِ لِمَنْ يَسْمَعُهُ مِنَ الطُّغَاةِ... وَفِيهِ مَعْنًى آخَرَ وَهُوَ أَنَّ اسْتِغْنَاءَهُ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ لِأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ فِي أَهَمِّ أُمُورِهِ وَلَا يَدْرِي مَاذَا يُصَيِّرُهُ إِلَيْهِ رَبُّهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ فَلَا يَزِدْهُ بِغِنًى زَائِفٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَيَكُونُ:{الرجعى} مستعملاً في مجازه، وهو الاحتياج إلى المرجوع إليه، وتأكيد الخبر بـ (إن) مراعى فيه المعنى التعريضي لأن معظم الطغاة ينسون هذه الحقيقة بحيث يُنزَّلون منزلة من ينكرها »[2]. ولعل هذا الذي ذهب إليه ابن عاشور هو الأقرب إلى الصواب، أما الذي رأى أنّ في صيغة "رجعى" توكيداً ليس في صيغة "مرجع"[3]، فلا يبدو كلامه وجيهاً..

د – مادة (**رحم**): فيها مصدر رحمة الذي ورد ثمانين 80 مرة، منها مرتان ورد فيهما مضافاً إلى ياء المتكلم؛ قال تعالى:﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾(الأعراف:156)، ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي**﴾ (العنكبوت:23)، وإلى ضمير الغائب "هو" في تسعة وعشرين 29 موضعاً، وإلى ضمير التعظيم "نا" خمس 5 مرات. وورد مصدر "رُحْم" مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**﴾(الكهف:81). فالرحمة هي المصدر الذي وظّفه التعبير القرآني، وأجراه مجرى الاسم، لأنّ المصدر الصريح هو "رُحْم"،« وَالرُّحْمُ:- بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِ الْحَاءِ-: نَظِيرُ الكُثْرِ لِلكَثْرَةِ »[4]. فوظّف مصدر "رُحم" في آية الكهف، ليعبّر عن المطلوب من الغلام الذي أراد الله تعالى أن يبدل والديه بذلك المقتول، أن يكون أكثر صلاحاً ورحمة بأبويه. وقد وظّف مع هذا المصدر لفظ "أقرب"، ليتناسب مع المصدر "رُحم" الذي لا يدل وحده على شيء محدد، عدا الحدث، فحدده التعبير القرآني بلفظ "أقرب"، الذي لا يتناسب مع مصدر "مرحمة"، أو مصدر "رحمة".

و"الرحمة" تتصل بالله تعالى، فهو صاحبها، كما في قوله سبحانه:﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ**﴾(هود:9)، ﴿**الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ**﴾(الكهف:58). أما المرحمة فهي الرحمة التي يتعامل بها الناس فيما بينهم؛ أي القَدْر الذي يمكن للناس أن يتعاملوا به من هذه الرحمة، أو هي لدلالة المشاركة بين الناس؛ أي بمعنى التراحم، فهذا يرحم ذاك والعكس.

---

[1] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص266.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص446.

[3] - يراجع، عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص266.

[4] - المرجع نفسه، ج16، ص13.

أما توظيف "الرحمة" الواردة في قوله تعالى:﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾(الإسراء:24)، بدلاً من المرحمة، فلأنها وردت مسبوقة بحرف الجر "مِن" الذي دلّ على الجزئية؛ أي بشيء من الرحمة الكاملة، والمطلقة، التي عند الله تعالى وحده.

1 - 3 - **فضاء المصادر الميمية**: وهي قليلة قياساً بالمصادر الصريحة، وورودها في القرآن له دلالته الخاصة. والمصدر الميمي أقل دوراناً في كلام الناس. يقول السامرائي في ذلك:« إنّ المصدر الميمي في الغالب يحمل معه عنصر "الذات" بخلاف المصدر غير الميمي فإنه حدث مجرد من كل شيء »[1]. ويمكن تأكيد ذلك في القرآن الكريم بما يلي: الميمنة مقابل اليمين، والمشأمة مقابل الشِمال، والموعدة والميعاد مقابل الوعد، والمرحمة مقابل الرحمة، والممات مقابل الموت، والمتاب مقابل التوبة، والمحيا مقابل الحياة. والمشرب مقابل الشراب والشرب، ومغرم مقابل غُرم، ومغنم مقابل غُنْم، ومرجع مقابل رجوع، أو رَجْع. غير أنّ مصادر "مرجع" و"مغنم" و"مغفرة" قد خرجت عن القاعدة إذ تكررت بدلاً من مصادرها الأصلية؛ علماً بأن "رجوع" و"غُنْم" و"غَفْر" لم تذكر أصلاً في القرآن كله؛ ولعل ذلك هو الاستثناء الذي لا تخلو منه كل قاعدة تقريباً.

أ - **المحيا**: ورد مرتين هما قوله تعالى:﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(الأنعام:162)، ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ**﴾(الجاثية:21). وقد قرن التعبير القرآني مصدر"مَحْيا" بمصدر "ممات" لتوافقهما في الدلالة على خصوصية الحياة والموت لكل فرد بشري، وليس لأفراد الأجناس الأخرى. قال ابن منظور:« والمحْيا: مَفْعَلٌ مِنَ الحَياة. وَتَقُولُ: مَحْيَايَ ومَماتي، وَالجَمْعُ المحايِي »[2]. وقال ابن عاشور:« وَالمحْيَا وَالمَمَاتُ يُسْتَعْمَلَانِ مَصْدَرَيْنِ مِيمِيَّيْنِ، وَيُسْتَعْمَلَانِ اسْمَيْ زَمَانٍ، مِنْ حَيِيَ وَمَاتَ، وَالمَعْنَيَانِ مُحْتَمَلَانِ فَإِذَا كَانَ المُرَادُ مِنَ المحْيَا وَالممَاتِ المعْنَى المصْدَرِيَّ كَانَ المعْنَى عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ: أَعْمَالُ المَحْيَا وَأَعْمَالُ المَمَاتِ، أَيِ الأَعْمَالُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَتَلَبَّسَ بِهَا المَرْءُ مَعَ حَيَاتِهِ، وَمَعَ وَقت مماته. وَإِذا كَانَ المُرَادُ مِنْهُمَا المعْنَى الزَّمَنِيَّ كَانَ المعْنَى مَا يَعْتَرِيهِ فِي الحَيَاةِ وَبَعْدَ المَمَاتِ »[3]. وبذلك يكون المحيا والممات ما يخصّ كل واحد من الناس في طريقة عيشه ومدتها، وطريقة موته ووقته.

ب - **مأمن**: هو المصدر الثالث الذي استعمله التعبير القرآني، مع نظيريْه الصريحين السابقين. ولم يرد إلا في موضع واحد من الخطاب المدني هو قوله تعالى:﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾(التوبة:6). قال ابن عاشور:« و(المأمن) مَكَانُ الأَمْنِ، وَهُوَ المَكَانُ الَّذِي يَجِدُ فِيهِ الْمُسْتَجِيرُ أَمْنَهُ السَّابِقَ، وَذَلِكَ هُوَ دَارُ قَوْمِهِ حَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنَالَهُ بِسُوءٍ. وَقَدْ أُضِيفَ المَأْمَنُ إِلَى ضَمِيرِ المُشْرِكِ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ مَكَانُ الأَمْنِ الخَاصِّ بِهِ، فَيُعْلَمُ أَنَّهُ مَقَرُّهُ الأَصْلِيُّ، بِخِلَافِ دَارِ الْجِوَارِ فَإِنَّهَا مَأْمَنٌ عَارِضٌ لَا يُضَافُ إِلَى المُجَارِ »[4]. فيكون المعنى بذلك أن يبلغ هذا المشرك أمنه التام بنفسه، لا بما يراه غيره؛ وهذا يشبه قوله تعالى:﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ**

---

[1] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص31.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص212.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج8، ص220.

[4] - المرجع نفسه، ج10، ص119 - 120.

UNIVERSITE SETIF2

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:125)، فإنّ كلمة "أحسن" هنا لا تعني أنّه ليس الأحسن إلاّ ما يراه الداعي إنما تعني - أيضا - ما يراه المتلقي كذلك أحسن، ويراه أفضل، حتى تكون الموعظة أجدى وأنفع.

ب - **مرحمة**: وردت مرة واحدة، مقابل ثمانين 80 مرة للمصدر الصريح "رحمة". قال تعالى:﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾(البلد:17). وكأنّ المرحمة صنو التراحم، بحيث تكون من جانبين، أو تكون مشاركة من طرفين - بتعبير النحاة - ولذلك قال النبي (ص) تراحموا تزاحموا. يقول السامرائي عن هذا الوزن:« تجيء المفعلة لسبب الفعل كقوله عليه الصلاة والسلام:(الولد مبخلة مجبنة محزنة). ومنه قولهم:(ترك العشاء مهرمة) أي: مَدعاة إلى الهرم. وقيل: بل يأتي لسبب كثرة الفعل »[1]. وسواء أكان هذا الوزن يؤتى به لسبب حدوث الفعل، أم لكثرة حدوثه، فإنه الوزن الملائم في موضعه ذاك، لأنّ المؤمنين بحاجة إلى التراحم والمرحمة بكل أشكالها، وبكل الأسباب المؤدية إليها. أما الرحمة فهي من جانب واحد ترسل إلى الطرف الآخر من غير انتظار مقابل ما منه؛ كمن يرحم والديه، أو أبناءه.

ج - **متاب**: لقد وردت من مادة "تاب" ثلاث صيغ هي: توبة، توْب، متاب. والأولى هي الأكثر وروداً. أما "التوب" و"المتاب" فنادران، قال تعالى:﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾(الرعد:30)، ﴿**وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا**﴾(الفرقان:71). أما "توبة" فوردت ست مرات، جلّها في الخطاب المدني. وهي:﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾(النساء:17)، ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**﴾(النساء:18)، ﴿**فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ**﴾(النساء:92)، ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾(التوبة:104)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**﴾(التحريم:8). أما الآية المكية فهي قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾(الشورى:25).

يقول السامرائي معلّقاً على قول الراغب:« وقد أحس الراغب الأصفهاني بمغايرة المصدر الميمي للمصدر في بعض المصادر ففرّق بين التوبة والمتاب فذكر أن معنى المتاب يعني التوبة التامة "وهو الجمع بين ترك القبيح وتحرّي الجميل{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}(الرعد:30)" فكأنه أراد الغاية في التوبة أو منتهاها »[2]. وهي كذلك« التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل »[3]. وذلك أنّ معنى المتاب، هو التوبة النهائية، أو التوبة الخاصة التي لا درجة أخرى بعدها. أو أنها توبة حقيقية كاملة لا نقص فيها. أو« يعني المبالغة في التوب، أو يعني التوب الكامل البليغ التامّ الأمثل. فقد وُضع للدلالة على المبالغة في التوب تنصيصاً »[4]. ولذلك أوردها القرآن منفردة، ومثلها قوله تعالى:﴿**وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا**﴾(الفرقان:71). وقد أضاف باحث معاصر أنّ سبب ورود لفظ "متابا" هو توحيد الفاصلة، بحيث ورد مع فواصل مماثلة: سلاما، قياما، غراما، مقاما، مهانا،

---

[1] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص35.

[2] - المرجع نفسه، ص33.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص149.

[4] - رضا هادي حسّون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، ص157.

متابا[1]. غير أنّ هذا التعليل ليس هو الأصل في إيراد مفردات القرآن؛ لأنّ التعبير القرآني يخالف هذا المبدأ حين تتعارض مسألة الشكل مع المعنى.

د- فضاء صيغة (**مرجع**): هذا المصدر لا يرد إلا مضافاً إلى ضمير "كم"، أو ضمير "هم"، وورد مصدر "مرجعكم" إحدى عشرة 11 مرة، في سور مكية، ما عدا آيتين مدنيتين هما قوله تعالى:﴿**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**﴾(آل عمران:55)، ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**﴾(المائدة:48). وورد مصدر "مرجعهم" خمس 5 مرات،؛ وكل سُوَرِه مكية. وإن كانت المصادر التي تناولت مفردات القرآن الكريم بالبحث والدراسة، وبعض المعاجم لا تذكر الفرق بين "رَجْع" و"رجوع" و"مرجع"، إذ تورد هذه المصادر الثلاثة بمعنى واحد من غير أدنى فرق في الدلالة.

وأحسن ما عثرنا عليه في شرح معنى "مرجع" هو قول ابن عاشور:« وَالمَرْجِعُ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ مَعْنَاهُ الرُّجُوعُ. وَحَقِيقَةُ الرُّجُوعِ غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ هُنَا فَتَعَيَّنَ أَنَّهُ رُجُوعٌ مَجَازِيٌّ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِهِ البَعْثَ لِلْحِسَابِ بَعْدَ المَوْتِ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى هَذَا المَعْنَى كَثِيرٌ فِي القُرْآنِ بِلَفْظِهِ وَبِمُرَادِفِهِ نَحْوَ المَصِيرِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا بِهِ انْتِهَاءُ إِمْهَالِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ فِي أَجَلٍ أَرَادَهُ فَيَنْفُذُ فِيهِمْ مُرَادُهُ فِي الدُّنْيَا »[2]. غير أن التعبير القرآني لم يوظف مصدر "رجوع"، إنما وظّف بدلاً منه مصدر "مرجع"، للدلالة على العودة النهائية إلى الله تعالى. فهذه الصيغة تحمل دلالة المصدر، ودلالة اسم المكان والزمان معاً؛ فرجوع الناس، ومكان رجوعهم وزمانه كله إلى الله تعالى، فكانت صيغة "مرجع" هي الأنسب للدلالة على ذلك، فلم ترد في القرآن صيغة أخرى غيرها تفيد تلك الدلالة.

والسبب في هذا التوزيع أن هذا الأمر يتصل بالعقيدة، التي تعتبر الإيمان بالبعث والآخرة جزءاً أساسياً منها؛ وهو الأمر الذي ما فتئ الرسول الكريم يكرره على قومه في مكة ثلاث عشرة سنة. فالمرجع- بصيغة مفعل- يدل على العودة الأكيدة والنهائية لكل الناس يوم القيامة. أما مصدر "رُجعى" فلم يرد إلا مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾(العلق:8)،كما سبقت الإشارة إليه.

واضح - إذاً - أنّ توظيف المصادر الميمية في الخطاب القرآني قليل، مقارنة بالمصادر الصريحة. وليس السبب في هذا الاستخدام لكون المصادر الصريحة هي الأكثر دوراناً في الكلام، بل لأنّ السياق القرآني ينتقي دوما الأفضل من المفردات لأداء المعاني الدقيقة التي لا تؤديها المصادر الأخرى، كما رأينا في مصادر "مغنم"، و"مرجع"، و"مغفرة" التي تكررت بدلاً من مصادرها الصريحة؛ غُنْم، ورجوع، وغَفْر. وفي ذلك يقول باحث معاصر:« كل كلمة في التعبير القرآني مقصودة قصداً أكيداً، لا يمكن أن تؤدي مؤداها، أو أن تدل على معناها، أي كلمة أخرى مغايرة، حتى لو كانت المغايرة بينهما بحرف واحد، أو بحركة واحدة »[3]. وهذا كلام صحيح له من الشواهد القرآنية ما لا يحصى.

---

[1] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص205.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص260.

[3] - رضا هادي حسّون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، ص6.

2 - **فضاء المشتقات**: تطرد فيه صيغ مشتقات مختلفة للمادة نفسها؛ من اسم فاعل، وصيغة مبالغة، وصفة مشبهة. وتتنوع من حيث الصيغ الصرفية؛ من مفرد ومثنى وجمع بنوعيه، وفي ذلك توظيف دقيق لكل صيغة، بحسب ما يتطلبه المعنى المقصود إيصاله إلى المتلقي. وفيما يلي عيّنة من هذه المشتقات للدلالة على دقة الاستخدام القرآني لها.

2 - 1 - **مادة (شهد)**: فيها المشتقان التاليان: "شاهد"؛ وهو اسم فاعل، و"شهيد"؛ وهو صفة مشبهة. ويتمظهران بشكل مختلف كما يلي:

أ - **شاهد**: وهو اسم فاعل، يرد مفرداً، كما يرد جمعاً، والمفرد كله نكرة، وجاء في أربع آيات هي قوله تعالى:﴿**أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**﴾(هود:17)، ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا**﴾(يوسف:26)، ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ**﴾(الأحقاف:10)، ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**﴾(البروج:1 - 3). ويجمع هذا الاسم جمع سلامة، وجمع تكسير[1]، ويطّرد في فضاء واحد في كل الآيات التي يرد فيها. يقول أحدهم:« شاهد اسم فاعل، واسم الفاعل يأتي عادة في سياق عفوي لا يستدعي توكيداً، أما شهيد فهي صفة مشبهة.. وهي تستخدم في ألوان السياق التي تستدعي توكيداً. وعندما ننظر في ألوان السياق الذي وردت فيه كل من الصيغتين، نجدها جاءت على هدي القاعدة السابقة »[2]. غير أنّ هذا الملمح لا يحلّ المسألة في كل الحالات، إذ يجب النظر في هذه المفردة حين ترد بصيغة الجمع كذلك؛ وهي لا تخرج عن فضاء دلالة صيغة المفرد منها، أي صيغة "شاهدون"، وصيغة "شهداء". بحيث نجد أنّ الأولى تعني الشاهد الحاضر المعاين للمسألة الواحدة والواقعة الخاصة، سواء أقرّ بذلك أم لا، أما الثانية فتعني مسؤولية الشهادة المتعلقة بالإنسان العاقل، الذي يكون أهلاً لكي يشهد، ويؤخذ قوله وشهادته على محمل الجد، والمصداقية. وفي ما يلي مزيد من التوضيح بالأمثلة من كتاب الله تعالى.

– جمع السالم: هو جمع لمفرد "شاهد". وقد ورد ثماني مرات كما قوله تعالى:﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾(آل عمران:53)، ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾(المائدة:83)، ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ**﴾(التوبة:17)، ﴿**قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾(الأنبياء:56)، ﴿**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾(القصص:44). وورد مرة واحدة مرفوعاً في قوله تعالى:﴿**أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ**﴾(الصافات:150).

ب – **شهيد**: لقد رأى فيه بعضهم خمسة معان تدور كلها في فلك الأمور العظيمة؛ كأن يكون هذا الشهيد لسان القوم، يتكلم بلسانهم، فيقرّون ما يقول، أو يكون شاهدا لأمر عظيم على بيّنة منه، أو عَلِم شيئاً، وهو السند فيه، والشاهد عليه[3]، أو أن يكون الشهيد على أمور القصاص. وآيات القرآن كلها تدعم هذا الرأي؛ كما في هذه الآيات:﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾(البقرة:143)، ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ**

---

[1] - وهو جمع بصيغة "أشهاد". غير أنه لم يرد إلا في موضعين من القرآن المكي فقط؛ وهما: (هود:18)، و(غافر:51). ويبدو أن هذه الصيغة جاءت في التعبير القرآني لتدل على الشهادة العامة؛ أي مطلق الشهادة، من غير تحديد لنوعها، ولا لنوع الشاهد.

[2] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص158.

[3] - يراجع، عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، ص197 - 198.

UNIVERSITE SETIF2

﴿لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾(البقرة:282)، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾(آل عمران:99)، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾(النور:4)، ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾(الحج:78)[1]، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾(الزمر:69). وفي حياتنا الثقافية نفرّق بين "الشاهد" الذي يدلي بشهادته في المحافل المختلفة، وبين "الشهيد" الذي يكاد يقتصر على دلالة القتيل في المعركة، أو على المغتال.

يقول أحدهم عن الشهيد إنّه:« الذي يشهد ويحضُر. ويحمل على وجوه: من يشهد المشاهد العظيمة من القوم، ويتكلم عن القوم، فهو لسان القوم، فما قال كان ذلك قولَ القوم، فهو رئيسهم، وهم يذعنون لما قال... ومن شهد وعرف أمراً بنفسه، ثم أخبر أصحابه. فهو الواسط بين الأمر المشهود له وبين الذين يخبرهم... ومن شهد بأمر عظيم على بيّنة منه... ومن عَلِم شيئاً وهو السند فيه، وهو الشاهد »[2]. وقال آخر:« والشهادة في الآخرة، مع الرسول الكريم، ومع الموضوعات الأخرى، جاءت جميعها بصيغة (فعيل) الدالة على الصفة المشبهة. والصفة المشبهة تعني التوكيد والثبوت، لأن الثبوت يناسب الآخرة التي تقوم على الديمومة. ولأن التوكيد يناسب أداء الشهادة، لما فيه من ثقل »[3].

لقد استخدم القرآن الكريم صيغة "شاهد" في مقام المعاينة والحضور، غير المكرر، لأن اسم الفاعل يدل على صفة عارضة، غير ثابتة، أما صيغة "شهيد" فهي صفة مشبهة، تدل على وصف ثابت، متكرر، أكثر من الوصف الذي في اسم الفاعل. فالقرآن -كعادته في التعبير- ينتقي من الألفاظ ما يكون ذا دلالة كاملة تامة على المعنى المراد تبليغه، ويختار من الصيغ الصرفية ما لا تقوم فيه صيغة مقام الأخرى، حتى لو وظّف صيغة نادرة، ولو وُظّفتْ مرة واحدة، أو مرتين بحسب المقام والمقصود، وذلك ما لا يتأتى لغيره من أقوال العلماء والبلغاء، وكتابات الباحثين.

2 - 2 - مادة (**أثم**): فيها اسم فاعل "آثم"، وصيغة مبالغة "أثيم"؛ وقد تكررا كالتالي:

أ – **آثم**: قال تعالى:﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ﴾(البقرة:283)، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآَثِمِينَ﴾(المائدة:106)، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آَثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(الإنسان:24). وهذه الآيات كلها مدنية، غير أن سورة الإنسان تحمل سمات الخطاب المكي؛ موضوعاً وأسلوباً.

ب - **أثيم**: وردت هذه الصيغة في الخطابين معاً؛ وهي إمّا صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة حاملة معنى المبالغة. قال تعالى:﴿واللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾(البقرة:276)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾(النساء:107)، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾(الشعراء:221 - 222)، ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾(الدخان:43 - 44)، ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾(الجاثية:7)، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (القلم:10- 12)، ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾(المطففين:12).

---

[1] - وفي هذه الآية بالذات، وفي آيتيْ البقرة(143 و282) أيضاً دليل على أن جمع "شهداء" من مفرد "شهيد"، وليس من مفرد "شاهد"؛ فالرسول (ص) شهيد علينا، ونحن شهداء على الناس في أمر الدين ككل.

[2] - عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن (نظرات جديدة في تفسير ألفظ قرآنية)، ص198- 199

[3] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص160 - 161

وما نلاحظه أنّ كثيراً من المعاجم وكتب التفسر لا يكاد يفرق بين صيغتيْ "آثم" و"أثيم"؛ فالأصفهاني يجعلهما بمعنى واحد حين يقول:« أثم يأثم من باب علم وأثما وأثاما ومأثما: فعل ما نهي عنه فهو آثم وأثيم »[1]. وابن منظور يقول:« وأَثِم فُلَانٌ، بِالْكَسْرِ، يأْثَم إِثْماً ومَأْثَماً أَي وَقَعَ فِي الإِثْم، فَهُوَ آثِم وأَثِيمٌ وأَثُومٌ أَيضاً »[2]. غير أن ابن القوطية فرّق بينهما قائلاً:« وأثِم إثماً، أذنب؛ فهو آثم، فإذا أكثر: فهو الأثيم والأثوم »[3]. أما في مخطوطة الجمل فلم يعرض لذكرهما إطلاقاً. وقال ابن فارس:« (أَثَمَ) الْهَمْزَةُ وَالثَّاءُ وَالْمِيمُ تَدُلُّ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْبُطْءُ وَالتَّأَخُّرُ.. وَالإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ ذَا الإِثْمِ بَطِيءٌ عَنِ الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ »[4]. والسبب في عدم تفرقة الدارسين بين دلالة اللفظين، أنهم ينظرون إلى الدلالة العامة التي يُستقى منها معنى الآية، بحيث يكون ذلك كافياً لفهم المقصود منها.

وترد مع هذه الصيغة صيغ أخرى تدل على المبالغة أيضاً؛ وهي خوّان، وأفّاك، وحلاّف، وهمّاز، ومشّاء، ومنّاع، ومعتدٍ[5]. فكأنّه حريّ بمن« يتصف بهذه الصفات السيئة ألاّ يكون آثماً فحسب وإنما يكون مبالغاً في الإثم أي: أثيماً »[6]. وما دام هناك اختلاف في الصيغة، وجب أن يكون الاختلاف في الدلالة أيضاً.

2 – 3 – مادة (**صبر**): نجد لها صيغتين هما: صابر، وصبّار. فالأولى وردت بصيغة المفرد، وهي قليلة، ولم ترد إلاّ في الخطاب المكي، أما بصيغة الجمع (صابرون) فكثيرة في الخطابين معاً. وأما الصيغة الثانية (صبّار) فقليلة أيضاً، ولا يرد منها الجمع "صبّارون" مطلقاً.

قال الراغب الأصفهاني في معنى الصبر:« الصبر: الإمساك في ضيق، يقال: صبرت الدابة: حبستها بلا علف، وصبرت فلانا: خلفته خلفة لا خروج له منها، والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبرا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتمانا، ويضاده المذل، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرا »[7].

لقد اقتصر القرآن - إذاً - على مادة واحدة للتعبير عن معنى الحبْس والإمساك والكظم؛ وهي "صبر"، لكونها كافية لأداء كل تلك المعاني المختلفة، والمتحدة في الدلالة على معناها العام. غير أنّ الدلالة التي في "صابر" ليست هي التي في "صبّار"؛ وهذا أمر محسوم الآن، فتغيير الصيغة لاختلاف المعنى، كما هي العادة في كل صيغ المفردات التي يوردها الخطاب القرآني.

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص56.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص5.

[3] - ابن القوطية، كتاب الأفعال، ص 180.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص60.

[5] - صيغة "معتد" ليست من صيغ المبالغة، ولكنها تحمل دلالتها إذا قيست بصيغة "عادٍ"، فمعتدٍ مشتق من الفعل "اعتدى"، وعادٍ من الفعل "عدا". واعتدى أقوى من عدا.

[6] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص134.

[7] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص565.

إن صيغة "صابر" ذات دلالة عامة؛ أي قد تعني صبراً قليلاً، كما تعني صبراً كثيراً، فوصف أيوب عليه السلام بأنه صابر« كان عظيم الصبر، ومع ذلك وُصف بصيغة اسم الفاعل "صابر"؛ لأنها صيغة عامة تصلح للتعبير عن الذات المتصفة بالصبر عموماً، سواء أكان صبرها بمبالغة أم بلا مبالغة »[1]. ومثل هذا الكلام يقال في الصابرين في البأساء والضراء والقتال؛ فالصبر على الفقر والمرض، وفي القتال كبير ولا شك. أمّا صيغة "صبّار" فلا تعني إلاّ صبراً كثيراً تنصيصاً. ولذلك كثرت صيغة اسم الفاعل، وقلّت صيغة المبالغة. قال تعالى:﴿**قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا**﴾ (الكهف:69)، ﴿**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**﴾(الأنفال:65)، ﴿**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا**﴾(ص:44)، ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾(الزمر:10).

وحالة النصب أكثر من حالة الرفع، كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(البقرة:153)، ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾(البقرة:155)، ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾(البقرة:177)، ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾(آل عمران:142)، ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾(النحل:126).

أما صيغة المبالغة فلم يرد منها إلاّ أربع آيات؛ كلها متبوعة بصيغة مبالغة أخرى هي "شكور". وهي قوله جل وعلا:﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾(إبراهيم:5)، ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾(لقمان:31)، ﴿**فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾(سبأ:19)، ﴿**إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ (الشورى:33).

وواضح في هذه الآيات أنها تذكر أموراً عظيمة الشأن، تدل على قدرة الخالق جل وعلا؛ فالأولى تذكر نعم الله على بني إسرائيل، والثانية تخص آية البحر وما يجري فيه من سفن وفُلك وجوارٍ، والثالثة تقص ما حدث لقوم سبأ، والرابعة تشبه الثانية مضيفاً إليها ظاهرة الريح التي لولاها لباتت حركة السفن أمراً مستحيلاً.

3 - فضاء تنوع الأفعال من المادة الواحدة:

ورد في كتاب الإتقان في علوم القرآن عن الفرق بين "مَطَرَ" و"أمطر" ما يلي:« قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: إِذَا كَانَ فِي العَذَابِ فَهُوَ "أَمْطَرَتْ" وَإِذَا كَانَ فِي الرَّحْمَةِ فَهُوَ "مَطَرَتْ" »[2]. غير أنّ القرآن لم يستخدم الفعل الثلاثي "مَطَرَ"، لكي ندرك الفرق بين الفعلين؛ المجرد منهما والمزيد. وفي استخدام الفعل الرباعي من "مطر"؛ أي "أمطر" دلالة على أنّ الذي حدث لهؤلاء الأقوام من دمار بسبب الأمطار، ليس شيئاً طبيعياً من عادته أن يحدث، كما في الأعاصير التي تدمر، وتودي ببعض الضحايا، في أماكن من العالم، وفي أوقات معروفة كذلك. إنما المقصود بذلك أن الله تعالى هو الذي أمطر عليهم ذلك، بسبب معروف؛ هو عنادهم وكفرهم وارتكابهم كل السيئات؛ فهذا الإمطار خاص ومدبّر ومرسَل لقوم بعينهم.

أما الأفعال الواردة في القرآن الكريم فهي كثيرة، وسنقتصر على بعضها، وهي تلك التي يتشابه فيها فعلان من حيث المعنى العام، ويختلفان من زاوية الدلالة. للتدليل على طريقة توزيعها في الخطابين، كما في الأمثلة التالية:

---

[1] - رضا هادي حسون، العموم الصرفي في القرآن الكريم، ص193.

[2] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص164.

– **سقى، وأسقى**: هما فعلان متعديان كلاهما، غير أنّ الأول ثلاثي والثاني رباعي، ويتمظهران بشكل مميز إذا كان فاعلهما هو الله تعالى كما في قوله تعالى:﴿**وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا**﴾(المرسلات:27)، ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**﴾ (الإنسان:21)، ﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾(الجن:16)، ﴿**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**﴾ (الشعراء:79)، ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾(الفرقان:48 - 49)، ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا**﴾(المؤمنون:21)[1]. ﴿**فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ**﴾ (الحجر:22). فجعل الله تعالى "السقي" في الآخرة، و"الإسقاء" في الدنيا، ولكنه لم يسند الفعل "أسقى" إلى العباد مطلقاً، فكأنهم يَسقُون فقط ولا يُسقُون.

قال ابن منظور:« السَّقْيُ: مَعْرُوفٌ، وَالِاسْمُ السُّقْيا، بِالضَّمِّ، وسَقاهُ اللهُ الغيثَ وأَسْقاهُ.. وَيُقَالُ: سَقَيْته لشَفَتِه، وأَسْقَيْته لِماشيَتِهِ وأَرْضِهِ، والاسْمُ السِّقْيُ، بِالْكَسْرِ، والجمعُ الأَسْقِيَةُ »[2]. قال الأصفهاني في الفرق بين اللفظين:« السقي والسقيا: أن يعطيه ما يشرب، والإسقاء: أن يجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء، فالإسقاء أبلغ من السقي، لأن الإسقاء هو أن تجعل له ما يسقي منه ويشرب، تقول: أسقيته نهرا »[3].

– **أنجى، ونجّى**: وردت الصيغة الأولى عشرين 20 مرة؛ في الماضي والمضارع فقط، ووردت الثانية سبعاً وثلاثين 37 مرة، في الماضي والمضارع والأمر. وفي الفرق بينهما يقول بعضهم في تخريج دلالة هذين الفعلي من قوله تعالى:﴿**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾(الأنعام:55):«كانت (ينجّي) مؤكدة معنى التنحية من ظلمات البر والبحر، فقد جاءت بعدها كلمات تستدعي التوكيد:(ظلمات البر والبحر). وكانت (أنجى) دالة على قلة احتمال حدوث النجاة، فقد سبقها (لئن)، وأداة الشرط (إنْ) تأتي لتقليل حدوث فعل الشرط »[4]. ويبدو أنّ هذا التأويل غير مؤسس كما ينبغي، لأنّ الله تعالى يُنْجي ويُنَجّي، ولا دليل على أنّ في الصيغة الأولى معنى قلة الحدوث. أما السامرائي فيقول:« القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نجّى) للتلبّث والتمهّل في التنحية، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، فإنّ أنجى أسرع من نجّى في التخلص من الشدة والكرب »[5]. ثم ضرب مثالاً على ذلك وهو قوله تعالى:﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ**﴾(البقرة:49 - 50). ثم علّق بقوله:« فإنه لما كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتاً طويلاً ولا مكثاً استعمل أنجى، بخلاف البقاء مع آل فرعون فإنه استغرق وقتاً طويلاً فاستعمل له (نجّى) »[6].

---

[1] - وردت هذه الآية في سورة النحل كذلك؛ الآية 66، مع إبدال لفظ "بطونها" بلفظ "بطونه".

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص490.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص484.

[4] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص118.

[5] - فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص65.

[6] - المرجع نفسه، ص69.

ولكننا نلحظ أنّ التعبير القرآني وظّف صيغة "نجّى" في مقام السرعة حين قال عن فرعون بعد غرقه:﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**﴾(يونس:92). ثم إننا نجد الكلمة نفسها تُقرأ بصيغتين اثنتين؛ فلفظ "ننجي" في قوله تعالى:﴿**كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(يونس:103)، « يقرأ بالتخفيف والتشديد. والحجة لمن خفّف:أنه أخذه من: أنجينا نُنْجي. ودليله قوله تعالى: أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ. والحجة لمن شدّد: أنه أخذه من: نجيّنا نُنَجّي ودليله قوله تعالى: وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ »[1]. وقد تكون الصيغة مختلفة من آية لأخرى، والسياق واحد؛ كما في قصة لوط عليه السلام، قال تعالى:﴿**لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ**﴾ (العنكبوت:32)، وقال سبحانه:﴿**فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ**﴾(الأعراف:83). فكيف تكون السرعة والتمهّل في آن واحد؟ إن المعنى - والله أعلم - أنّ صيغة "أنجى" تدل على النجاة الفعلية من واقع ما، في حالة واحدة؛ أي ساعة نجاة بعينها، فصيغة "أفعل" تستخدم للتعدية، كما في قوله تعالى:﴿**يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ**﴾(المعارج:11 - 13)، إذ النجاة هنا في يوم القيامة، وفي لحظة الحساب والمعاينة. وأما صيغة "نجّى" فتدل على الاستمرار في النجاة بعد الحادثة، إذ فيها معنى المبالغة والتكثير، ولذلك قال الله عن فرعون إنه سيُنَجّيه؛ أي سيُبقي عليه بعد نجاة جسده من البقاء في البحر؛ أي إخراجه بعد الغرق. وأنجى الله بني إسرائيل من فرعون في حادثة شق البحر، ونجّاهم منه إلى يوم القيامة كذلك. فالأولى نجاة في حال معيّنة، وفي واقعة خاصة، والثانية نجاة دائمة مستمرة. ولذلك وظّف القرآن الصيغتين معاً في الحادثة الواحدة، كما في حادثة الطوفان، وفي قصة لوط عليه السلام للدلالة على هذين المعنيين معاً.

ونجد تأويلاً آخر لباحث معاصر يقول فيه:« والصواب أن الفعل "أنجى" يدل على حدوث الإنجاء عموماً، سواء أكان بمبالغة أو بلا مبالغة، فهو أعمّ من الفعل "نجّى" الذي يستعمل لدلالة الإنجاء بمبالغة تنصيصاً. فالثاني مقيّد بمعى المبالغة، لا يُستعمل في غيره، والأول مطلق من هذا القيد »[2]. ثم ضرب مثالاً لآية وردت بنصها في موضعين مختلفتين؛ ولكن مرة بلفظ "أنجى"، ومرة أخرى بلفظ "نجّى"، ثم علّق قائلاً:« ومن أسرار التعبير في هاتين الآيتين اجتماع العموم الاشتقاقي، والعموم الصرفي، في آية الأعراف، واجتماع الخصوص الاشتقاقي، والخصوص الصرفي في آية البقرة، فكما أن "أنجيناكم" أعمّ من "نجّيناكم"؛ فإنّ "يقتّلون" أعمّ من "يذبّحون"، فالتقتيل قد يكون بالتذبيح، أو بغيره »[3].

إن المؤلف في كتابه كله، وفي كل المواد التي عرضها، كان يركز على مسألة واحدة هي؛ دلالة العموم في صيغ صرفية معيّنة، ودلالة الخصوص في صيغ أخرى؛ بمعنى أن الصيغة العامة الواحدة تحتمل الدلالة العامة والدلالة الخاصة معاً، للصيغة نفسها، دون تحديد. أما الصيغة الصرفية الخاصة، فدلالتها محددة بسبب الصيغة نفسها. ومع ذلك فإنّ هذا التأويل لا يعطينا الدلالة الدقيقة لاختلاف الصيغ في التعبير القرآني، إذا اعتبرنا مفهوم العموم الصرفي وخصوصه وحده.

---

[1] - ابن خالويه، الحجة في القراءات، ص185.

[2] - رضا هادي حسون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن، ص108.

[3] - المرجع نفسه، ص108.

وبمعنى آخر؛ أين الفرق الدلالي بين صيغتيْ مادة "نجا" المزيدة بهمزة التعدية (أنجى)، والمزيدة بالتضعيف (نجّى)، في قصة نجاة بني إسرائيل من عدوّهم؟ أو نجاة غيرهم من الأنبياء ومن تبعهم؟ وإذا كانت صيغة "أنجى" تحتمل المبالغة، بينما صيغة "نجّى" فيها مبالغة تنصيصاً، فلماذا أوردهما التعبير القرآني معاً، وفي القصة نفسها؟ إن الجواب - والله أعلم - أن الله جلّ وعلا يريد أن يجعل من كلامه دليلاً وبيّنة على قدرته المطلقة في فعل ما يشاء، وبياناً على أسلوبه المتفرد الذي يدقق في المعاني إلى أقصى درجة، ويورد الدلالات المختلفة غير المتناقضة، التي تعبّر عن الواقع أصدق تعبير.

- **نبّأ، أنبأ:** لم يعرض المفسرون للفرق بينهما، بمن فيهم ابن عاشور المعروف بتخريجاته اللغوية. أما الأصفهاني فقال: « ونبأته أبلغ من أنبأته.. ويدل على ذلك قوله:{فلما نبّأها به قالت من أنبأك هذا قال نبّأني العليم الخبير}[التحريم/3] ولم يقل: أنبأني، بل عدل إلى (نبّأ) الذي هو أبلغ تنبيها على تحقيقه وكونه من قبل الله »[1]. وقال باحث معاصر:« نبّأ تعني الخبر اليقين، أما أنبأ فتعني غلبة الظن »[2]. وهذا الكلام لا دليل عليه واضح، في الفرق بين الصيغتين. أما إذا طبقنا قاعدة أنّ صيغة "أفعل" تدل على التعدية، وصيغة "فعّل" تدل على التكثير والمبالغة، أمكننا القول: إنّ "أنبأ" تدل على الإخبار العام؛ أو على ذكر الحدث في حد ذاته؛ أي إلقاء الخبر والنبأ، أما "نبّأ" فتدل على الدقة في الإخبار، وعلى الشمولية والتمام، وعلى الوضوح التام.

- **جزى، جازى:** ورد الفعل الأول في القرآن تسع عشرة 19 مرة، أما الثاني فورد مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ**﴾(سبأ:17). والفرق بينهما أنّ "نجزي" يستخدم للمكافأة، كما في قوله تعالى :﴿**وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾(آل عمران:145)، ﴿**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾(الأنعام:84)، ﴿**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الصافات: 80)، ويستخدم للمعاقبة، كما في هذه الآيات:﴿**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾(الأعراف:40)، ﴿**وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ**﴾(طه:127)، ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**﴾(فاطر:36). أما "نُجازي" فلا تعني إلا المعاقبة[3]. بل إذا كان الفعل مبنياً للمجهول فقد يأتي للأمرين معاً مثل قوله تعالى:﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**﴾(طه:15)، ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾(غافر:17)، ﴿**وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾(الجاثية:22).

والسؤال هو: لماذا لم ترد صيغة الرباعي "جازى" إلاّ في هذا الموضع ؟ يقول أحدهم:« أما نجازي فقد وردت مرة واحدة، وهي في مجال العقوبة في الدنيا... فإنها جاءت للمفاعلة.. لأن الله تعالى يكافئ المجرمين على أعمالهم ولا يزيد ولا يضاعف. من ناحية أخرى.. فإن صيغة المشاركة هذه لها ارتباط بصيغة الاستفهام في السياق لأنّ الاستفهام يتضمن حديثاً بين طرفين، وذلك يتضمن مشاركة. يدل ذلك أن جميع الآيات التي فيها صيغة (نجزي) جاءت خبرية ليس فيها استفهام واحد »[4]. وهذا ترجيح غير كاف، لأنّ الاستفهام هنا ليس حقيقياً، بل هو أسلوب حصر؛

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص403.

[2] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص117.

[3] - يراجع، المرجع نفسه، ص56..

[4] - نفسه، ص 54 - 55،

مفاده: لا نجازي إلا الكفور؛ أي له صلة بقوله تعالى:﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾. فيكون المعنى ألاّ مجازاة بالمثل إلا للذين كفروا، من غير زيادة أبداً، أما المؤمنون فلا يجازون بما فعلوا، إنما يزيدهم الله من فضله ما يشاء مصداقاً لقوله تعالى:﴿**والله يضاعف لمن يشاء**﴾(البقرة:261)، ولقوله سبحانه:﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾(الأنعام:160).

4 - **فضاء الجموع**: يورد التعبير القرآني صيغ الجموع بأنواعها وفق قاعدة مطّردة، فيوظّف جمع السالم حيناً، وجمع التكسير حيناً آخر، أو جمع القلة، أو جمع الكثرة، مع اختيار صيغة على أخرى،كما يظهر ذلك من النماذج التالية:

4 - 1- **مادة (عمي)**: نلاحظ فيها استخدام ثلاث صيغ هي: فُعْل، وفُعلان، وفَعُون؛ فصيغة "عُميٌ"، وردت ست 6 مرات، أما صيغة "عميان" فوردت مرة واحدة هي قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا**﴾(الفرقان:73). ووردت صيغة "عمون" في قوله تعالى:﴿**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ**﴾(النمل:66)، وكذلك "عمين" في قوله سبحانه:﴿**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ**﴾ (الأعراف:64).

يقول السامرائي عن دلالة صيغتيْ "عُمْي"، و"عُميان":« وقد استعمل القرآن هذا الجمع للقلة النسبية، قال تعالى في وصف عباد الرحمان:﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾(الفرقان:73)، فقد وردت لفظة (عميان) مرة واحدة وهي هذه، ووردت لفظة (عُمْي) في سبعة مواطن... وهي كما ترى كلها في وصف أهل الكفر والضلال وأرى أن سبب هذا التغيير... هو أن عباد الرحمان أقل من الكفرة دائماً كما يصرح القرآن الكريم في مواطن عديدة... فجاء بهذا اللفظ مع عباد الرحمان الذين هم قلة للدلالة على القلة النسبية »[1]. ولفكّ دلالة هذه التصريفات لا بد من الرجوع إلى معاني أبنيتها كما وردت في الاستخدام العربي الفصيح.

غير أنّ القرآن الكريم لم يفعل مع لفظ "صمّ" ما فعله مع لفظ "عُمْي"؛ أي لم يأت بجمع آخر للفظ "صمّ"، فلم يورد جمع "صُمّان"[2]، مع أن الدلالة المقصودة في الآيات التي يرد فيها هذان اللفظان، تكون بالمعنى نفسه الذي قُصِد من اللفظين حين تجاورهما. فإذا ورد لفظ "عُمْي" مجاوراً للفظ "صمّ"، فإنّه يستقي دلالة وزن "عُمْي"، وإذا جاء مجاوراً للفظ "عميان"، يأخذ دلالة وزن "عميان" كذلك. وبمعنى آخر؛ إنّ وزن "عُمْي" يأتي للدلالة على الصفة الثابتة في الكفار- وهو وزن الصفة المشبهة - فهم لا يرون الحقيقة ولا الصواب، إذ هم كمن هو أعمى البصر حقيقة. وهم "صمّ" كذلك عن سماع الحق؛ واللفظ صفة مشبهة كذلك. أما لفظ "عميان" فيدل على أنّ الكفار لا يريدون أن يروا الحق، ويتظاهرون بعدم رؤيته، ولا سماعه، فجاء اللفظ بصيغة أخرى هي "فُعلان"، غير أن لفظ "صُمّ" بقي هو هو في الحالين، مه وجود وزن آخر بصيغة "فُعلان"، هو "صُمّان" ولكنه أو غير مستعمل، فعزف التعبير القرآني عن استخدامه هو أيضاً.

وهذا دليل يؤكد ما سبقت الإشارة إليه، من أنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فإنه لم يجد داعياً لإنتاج كلمة جديدة، أو وزن آخر، أو أن يستخدم لفظة مهجورة، إنما فضّل استخدام الكلمة الأصلية، ثم أتى بها مجاورة لكلمة أخرى لتفهم دلالتها بعد ذلك من خلال هذا التجاور.

---

[1] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص138.

[2] - ليس لمفرد "أصمّ" إلا هذان الجمعان كما ورد في لسان العرب، ج12، ص343.

والمواطن السبعة التي وردت فيها هاتان اللفظتان هي قوله تعالى:﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**﴾(البقرة:18)، ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾(البقرة:171)، ﴿**وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا**﴾(الإسراء:97)، ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ**﴾(يونس:43)، ﴿**وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ**﴾(النمل:81)، ﴿**وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ**﴾(الروم:53)، ﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ**﴾(الزخرف:40).

أما لفظ "أعمى"، ولفظ "أصمّ" مفردين، فأتى بهما القرآن في مجال المقارنة، وأتى بالأول إذا كان معرفة في مجال التشريع أيضاً؛ كقوله تعالى:﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ**﴾(النور:61)، ﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(الفتح:17). أما إذا كان نكرة فيأتي في موضع تقريع الكفار وتسفيههم؛ كقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(الرعد:19)، ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا**﴾(الإسراء:72)، ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾(طه:124). مع ملاحظة أنّ لفظ "أعمى" يرد أكثر إذا ما قورن بلفظ "أصمّ" الذي لم يرد إلا مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا**﴾(هود:24).

وهناك ملاحظة خاصة بلفظ "أعمى"، حين يرد مفرداً، مفادها أنّ القرآن يورد هذا اللفظ معرفة ونكرة، ولم يورد ما يشبهه، أو يرادفه من الألفاظ الأخرى؛ مثل: ضرير، أو مكفوف، مع العلم أن الضرير هو الأعمى، وكذلك المكفوف:« وَرَجُلٌ ضَرِيرٌ بَيِّن الضَّرَارَة: ذَاهِبُ الْبَصَرِ، وَالْجَمْعُ أَضِرَّاءُ. يُقَالُ: رَجُلٌ ضَرِيرُ البصرِ »[1]،« وَالمَكْفُوفُ: الضَّرير، وَالجَمْعُ المَكَافِيفُ. وَقَدْ كُفَّ بصرُه وكَفَّ بصرُه كَفّاً: ذهَب. وَرَجُلٌ مَكْفُوف أَي أَعمى »[2]. وكأنّ القرآن قد عزف عن أن يتخم قاموسه اللغوي بمفردات من غير طائل وراءها؛ فاختار ما يتلاءم مع المعنى المقصود من غير فضول كلام، ولا اختصار مخلّ. أو أنه استخدم المفردة التي تستخدمها العرب، والشائعة عندهم، والدالة على المعنى من غير لبس، ولا إبهام.

أما صيغة "عمون" و"عمين" فيقول فيها ابن عاشور:« وعَمُونَ: جَمْعُ عَمٍ بِالتَّنْوِينِ وَهُوَ فَعِلٌ مِنَ العَمَى، صَاغُوا لَهُ مِثَالَ المُبَالَغَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شِدَّةِ الْعَمَى، وَهُوَ تَشْبِيهُ عَدَمِ العِلْمِ بِالعَمَى، وَعَادِمُ العِلْمِ بِالأَعْمَى »[3]. واستشهد ببيت زهير القائل: وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ.. وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ. وقال الراغب الأصفهاني:« العمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة، ويقال في الأول: أعمى، وفي الثاني: أعمى وعم »[4]. ولم ترد الصيغتان إلاّ بهذا الشكل، وتأتي الثانية منهما "عمون"، أو"عمين" في فواصل الآي لا غير[5].

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص483.

[2] - المرجع نفسه، ج9، ص303.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص23.

[4] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص126.

[5] - يراجع، المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص310 وما بعدها.

4 – 2 – **مادة (رسا)**: فيها صيغتان؛ إحداهما جمع سلامة، وأخراهما جمع تكسير، وهما: **رواسي، وراسيات**.

أ – **رواسي**: جاءت وصفاً للجبال فقط، وردت تسع 9 مرات في الآيات المكية، ووردت كلها نكرة قال تعالى: ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**﴾(الحجر:19)، ﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾(النحل:15)، ﴿**وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾(الأنبياء:31)، ﴿**أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ**﴾(النمل:61)، ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**﴾(لقمان:10)، ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا**﴾ (فصلت:10)، ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ**﴾(الحجر:19)، ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ** ﴾(ق:7)، ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ**﴾(المرسلات:27)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ**﴾(الرعد:3). يقول ابن فارس:« الرَّاءُ وَالسِّينُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ثَبَاتٍ. تَقُولُ رَسَا الشَّيْءُ يَرْسُو، إِذَا ثَبَتَ. وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَرْسَى الْجِبَالَ، أَيْ أَثْبَتَهَا. وَجَبَلٌ رَاسٍ: ثَابِتٌ »[1].

ب – **راسيات**: وردت مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ**﴾(سبأ:13). يقول فاضل السامرائي في الفرق بين الصيغتين:« فأنت ترى أنه لما أراد الاسمية جمعها جمع تكسير، ولما أراد الحدث جمعها جمعاً سالماً »[2]. ونقول إنّ هذا تخريج نحوي، فماذا عن التخريج الدلالي؟ وهل يكفي هذا التخريج لفهم الفرق في استخدام هذين الجمعين؟ أي ماذا لو كان الأمر عكس ذلك فجعل الرواسي للقدور، والراسيات للجبال؟ وما علاقة الاسمية أو الحدث بدلالة الصيغتين؟ إنّ المعنى أيضاً - والله أعلم - أنّ الجبال رواسٍ منذ خلقها الله تعالى، فهذه صفتها، فأجراها مجرى الصفة المشبهة التي يكون الوصف فيها ثابتاً، أما "راسيات" فهي صفة عارضة، فأجراها مجرى اسم الفاعل. وهذه القدور التي بنتها المردة والعفاريت لسليمان عليه السلام لم تعد موجودة على الأرض، يراها الناس، ويدرسها علماء الآثار، إلا أن تكون تحت الثرى، وفي جوف الأرض ولم يطّلع عليها العلماء بعد. أما الجبال فالعلماء يعرفون تاريخها، وتشكيلها، وتغيّراتها، وهي لا تزال ماثلة للعيان إلى يوم الناس هذا.

4 – 3 – **مادة (سجد)**: فيها الصيغ التالية: **سُجّد، سجود، ساجدون**. فالأولى على جمع فُعّل، والثانية جمع على وزن المصدر، مثل: حاضر وحضور، وقعود، وقيام. والثالثة جمع مذكر سالم. ومعنى« سجد يسجد سجودا: وضع جبهته على الأرض. وسجد: خضع وانقاد. واسم الفاعل ساجد وهم ساجدون وسجود »[3]. ولم تفرّق المعاجم المعتمدة في هذا البحث بين الصيغ الثلاث.

أ – **سُجّداً**: وردت هذه الصيغة إحدى عشرة 11 مرة، منها قوله سبحانه:﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**﴾(البقرة:58)، ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**﴾(يوسف:100)، ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا**﴾(طه:70)، ﴿**وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**﴾(الفرقان:64). وفيها دلالة المبالغة لأنها وصف حال أناس لهم بعض الخصوصية منهم؛ بنو إسرائيل، وأبناء يعقوب عليه السلام، والسحرة، والمؤمنون الصادقون.

---

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص394.

[2] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص128.

[3] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج2، ص288.

ب - سجود: ورد مرتين فقط بمعنى الجمع، ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾(البقرة:125). ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾(الحج:26). وفي غير ذلك ورد بصيغة المصدر؛ مثل:﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾(ق:40). قال ابن عاشور:« وَقَدْ جَمَعَ الطَّائِفَ وَالْعَاكِفَ جَمْعَ سَلَامَةٍ، وَجَمْعَ الرَّاكِعَ وَالسَّاجِدَ جَمْعَ تَكْسِيرٍ، تَفَنُّنًا فِي الْكَلَامِ وَبُعْدًا عَنْ تَكْرِيرِ الصِّيغَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ »[1]. ولكن التعبير القرآن لا يفعل هذا، فلا يضيره تكرار اللفظ إن دعا إليه داع من المعنى؛ إنما الأمر مقصود للدلالة على معنى لا تقوم به صيغة أخرى. لأنّ الطائف والعاكف - في واقع الأمر - ليس دائمين، بينما الركوع والسجود فدائمان، ويحصلان في كل مكان، فبالغ فيهما، ولم يبالغ في الطواف والاعتكاف.

ج - **ساجدون**: بالرفع ورد مرة واحدة ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ**﴾(التوبة:112). وبالنصب؛ أي ساجدين فورد 11 مرة. وواضح أنّ حالة النصب أكثر بكثير من حالة الرفع، وهذا يطّرد في جلّ الأسماء التي مثل هذا النوع، كالمشتقات والجموع المختلفة. ومن ذلك الآيات التالية:﴿**قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**﴾(الأعراف:11)، ﴿**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**﴾(الأعراف:120)، ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾(يوسف:4). ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾(الحجر:29)، ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾(الحجر:31)، ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**﴾(الحجر:98)، ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**﴾(الشعراء:46)، ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ (الشعراء: 219)، ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾(ص:72).

وهي كلها آيات مكية، وقد استحوذت سور الحجر على أربع 4 آيات فيها لفظ "ساجدين"؛ وهي السورة 54 نزولاً، والتي تقُصّ حال ثلاث أمم متشابهة في العتوّ والكفر؛ « قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر، وذلك لتشابه العذاب المسلط عليهم وهو عذاب الرجفة والصاعقة »[2]. وهو الوقت الذي أكثر فيه الله تعالى من ذكر السجود ليتعلّم كفار قريش ذلك، حين يعلمون ما حدث لهؤلاء الأقوام، وما حدث لإبليس الذي أبى السجود كذلك، لاسيما وقد ذكر لهم أيضاً أخبار السابقين والصالحين الذين كانوا يسجدون لله ولا يستكبرون. فما الذي يؤخر كفّار العرب عن ذلك؟ وقد طلب منهم مجرد السجود لا أكثر، أي باستخدام المصدر الأصلي من دون مبالغة، أو تكثير.

4 - 5 - مادة(**ذكر**): ورد فيها صيغتان على وزن "فُعول" و"فُعلان" هما: الذكور، الذكران: يراد بالأول الكثرة، وبالثاني القلة النسبية. والأول يعنى الذكورة بالمفهوم العام، أي عكس الأنوثة، أما الثاني فيعني الصفات الذكورية التي يتحلى بها الشاب أو الرجل في مرحلة الفتوة والقوة.

يقول السامرائي:« وقال تعالى:{أتأتون الذكران من العالمين}(الشعراء:165)، وقال:{وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا}(الأنعام:139) فاستعمل الذكران للقلة النسبية فإن الموصوفين بهذه الصفة لا يأتون جميع الذكور وإنما يأتون صنفاً خاصاً منهم. ألا ترى أنهم لا يأتون الأطفال والشيوخ وإنما يأتون مَنْ تستسيغه نفوسهم

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص72.

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص712.

المنكوسة من الذكران وهم أقل من مجموع الذكور بخلاف قوله {خالصة لذكورنا} فإنه يشمل جميع الذكور بلا استثناء والله أعلم »[1]. ولعل هذا جزء من المسألة، ويبقى جزء آخر دلالي أكثر منه صرفياً. وقد يتأكد لنا هذا المعنى من قول أحدهم:« الذكر عكس الأنثى، ومادة (ذكر) تقوم على معنى القوة والجودة والصلابة... والألف والنون في "ذكراناً" للمبالغة، حيث ذكرها في مقابل "**إناثاً**"، للتأكيد على ذكورية الذكور، في مقابل أنوثة المولودات الإناث»[2].

ولكن، هل صحيح أنّ الألف والنون في جمع التكسير الذي على وزن فعلان يدلان على المبالغة؟ إنّ القرآن الكريم قد جمع بين لفظ "الذكور" ولفظ "الإناث" في أكثر من موضع، ولكنه جمع في موضع واحد بين "ذكرانا" و"إناثاً"، بدلاً من "ذكور"، وذلك في حالة تزويجهم فحسب. قال تعالى:﴿**يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا**﴾(الشورى:49 - 50). إنّ الذين يُزوَّجون من الناس هم الذين بلغوا سن الزواج فعلاً، وليس الأطفال، ولا كبار السن الذين لم يعودوا قادرين على الزواج، أو أنهم غير راغبين فيه، إنما المقصود بهم بعض الذكور؛ وهم الذين في مرحلة الشباب والفتوة والقوة. وكذلك الأمر في حالة قوم لوط المنحرفين الذين كانوا يميلون إلى "**الذكران**" بدلاً من النساء. فلم يرد في القرآن الكريم أنهم يأتون الذكور من دون النساء، بل قال:﴿**أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ**﴾(الشعراء:165- 166)، وإن أتى - في ثلاثة مواضع - بلفظ "الرجال" بدلاً من الذكور والذكران، كما في قوله تعالى:﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**﴾(الأعراف:80 - 81)، ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾(النمل:54 - 55)، ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ**﴾(العنكبوت:28 - 29).

ودلّت هذه المواضع على أمر واحد هو بيان خروج هؤلاء القوم عن الفطرة السليمة، باشتهاء الجنس الذكري، بشكل عام، وتفضيله على الجنس الأنثوي، ولذلك أتى بلفظ "الرجال" بدلاً من "الذكور" أو "الذكران". وكأنه ينعى عليهم ويوبّخهم على ميلهم إلى "الرجال" الذين يمثّلون الرجولة والقوة والقوامة، ويعنّفهم على استبدال وظيفة هؤلاء الرجال الطبيعية، وجعلهم كالنساء، فأيّ منطق هذا الذي يستند إليه هؤلاء القوم؟ و« كيف يحوّلونهم إلى صفات الإناث من الليونة والرقة والتكسّر؟ وكيف يكسرون رجولتهم ؟ وكيف يقضون على ذكوريتهم ؟»[3]. وذاك هو الذي استنكرته الآية على هؤلاء القوم غير الأسوياء.

4 - 6 - **مادة (ضعف)**: لا ثلاث صيغ هي ضعاف، ضعفاء، مستضعفون.

– **ضعاف**: وقد وردت هذه الصيغة مرة واحدة في سورة مدنية حيث قال تعالى:﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾(النساء:9). أما صيغة ضعفاء، فوردت أربع مرات؛ مرتين في الخطاب المدني وهما قوله تعالى:﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ**

---

[1] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص139.

[2] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، الأردن، ط1، 2000، ص216 - 217.

[3] - المرجع نفسه، ص218 .

UNIVERSITE SETIF2

كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾(البقرة:266). ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾(التوبة:91). أما آيتا الخطاب المدني فهما قوله عز وجلّ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (إبراهيم:21). ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾(غافر:47).

يقول السامرائي:« فأنت ترى أن قوله: (ضعافاً) يعني فيه الضعف المادي، أي: محتاجين إلى المال فقراء. وأما الثانية فليس المقصود بها الضعف المادي بل الضعف المعنوي، أي: عدم القيام بالأمر بدليل أن أباهم له جنّة فيها من كل الثمرات وإنما هم ضعفاء إلى مَنْ يقوم بأمرهم، فثمة فرق بين الحالتين »[1]. وهذا أمر طبيعي أن يكون فرق بين الصيغتين في الدلالة، لأن التعبير القرآني لا يورد صيغة، أو أكثر للمادة الواحدة، وتأتي كلها بدلالة واحدة؛ فليس هذا الوضع من البلاغة والبيان المعهودين في الخطاب القرآني.

أما الصيغة الثالثة - مستضعفون - فوردت خمس 5 مرات كلها في الخطاب المدني؛ أربع منها في سورة النساء وحدها، قال تعالى:﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾(النساء:75)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾(النساء:97 - 98)، ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾(النساء :127). أما الخامسة فوردت في قوله تعالى:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾(الأنفال:26).

والمهم في هذا المقام، هو ضرورة النظر في الصيغتين، بالنسبة إلى من يتصدى لتفسير القرآن، حتى يستطيع أن يقول شيئاً قريباً من الدلالة التي يقصدها النص القرآني.« ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثّر في استنباط الحكم »[2]. فالضعفاء غير الضعاف، وغير المستضعفين. ومن ثمّ ، فإنّه لا سبيل على الضعاف، والضعفاء، أما المستضعفون فهم ملومون أحياناً، كما في آية النساء. ومن حيث اللغة فالضعف« قد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال، وقيل: الضعف والضعف لغتان، قال الخليل رحمه الله: الضُعف بالضم في البدن، والضَعف في العقل والرأي. وجمع الضعيف: ضعاف، وضعفاء. واستضعفته: وجدته ضعيفا »[3].

ويقول ابن عاشور في دلالة هذه المفردة،:« وَ(المُسْتَضْعَفُونَ) الَّذِينَ يَعُدُّهُمُ النَّاس ضعفاء، (فَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلحُسْبَانِ، وَأَرَادَ بِهِمْ مَنْ بَقِيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ مَنَعَهُمُ المُشْرِكُونَ مِنَ الهِجْرَةِ بِمُقْتَضَى الصُّلْحِ »[4].

---

[1] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص147.

[2] - الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، ج2، ص769.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص10.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص122.

كما يكمن أن يكون معناها أنْ أُريدَ لهم أن يكونوا ضعفاء، أو جُعِلوا كذلك لسبب أو لآخر، لأنّ من بين معاني حروف الزيادة (ا س ت) الوجدان، والطلب والتحوّل[1].

4 - 7 - مادة (**عبد**): وفيها جمعان هما: عباد وعبيد.

يستخدمهما القرآن بتوزيع مضبوط؛ فلفظ العباد يستخدم للمطيعين؛ ويذكرهم القرآن بإضافتهم إلى ذات الله أو إلى أسمائه الحسنى، أو وصفهم بصفات حسنة، ولفظ العبيد للعصاة. ونرى أنّ ابن منظور قد فطن لهذا الفرق حين قال معلّقا على قول الجوهري الذي شرح معنى جهنّم، مستخدماً لفظ عباد:« وَلَوْ قَالَ:يُعَذِّبُ بِهَا مَنِ اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ مِنْ عَبِيدِهِ كَانَ أَجْوَدَ »[2]. كقوله تعالى:﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**﴾(الفرقان:63)، ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾(الأنبياء:26)، ﴿**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾(الصافات:40)، ﴿**ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**﴾(الزمر:16)، ﴿**وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا**﴾(الزخرف:19)، ﴿**يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾(الزخرف:69)، ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾(الدخان:17 - 18)، ﴿**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا**﴾ (الإنسان:6).

وكذلك الأمر إذا وردت هذه اللفظة بصيغة المفرد؛ أي (عبد)، فهي تحمل دلالة الثناء والمدح كقوله تعالى:﴿**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾(البقرة:221)،﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾(مريم:30)، ﴿**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾(مريم:93)،﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**﴾(سبأ:9)، ﴿**وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾(ص:30)،﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**﴾(الجن:19)

وفي الحديث النبوي ما يدل على أنّ صفة (عبد) مرموقة فعلاً، وذات دلالة مدح وثناء ورفعة، فقد ورد عن النبي (ص) أنّ الوسيلة درجة رفيعة لا تكون إلا لبعد من عباد الله، وكان عليه الصلاة والسلام يظن أنه هو ذلك العبد[3]. يقول الشعراوي في الفرق بين "عباد" و"عبيد":« وكلنا نعرف الفرق بين «العباد» و«العبيد» ؛ فكل الكائنات عبيد لله، والإنسان من عبيد الله إن كان متكبراً على التكليف، وإن خرج على التكليف فهو مسير في أمور لا يقدر على الخروج منها، فلا يستطيع أحد بإرادته أن يتوقف عن التنفس.. ولا أحد يستطيع أن يتنفس عندما ينتهي أجله.. والعبد الذي يتنازل عن اختياره إلى مراد خالقه هو واحد من العباد الذين وصفهم الحق بأنهم عباد الرحمن »[4]. فالذي يفعل شيئاً لمرضاة الله، لأنّه اختار له ذلك، وهو العليم الحكيم، « لا بد أن ينال منزلة راقية؛ لأنه قد خرج من دائرة العبيد إلى دائرة العباد الذين قال عنهم الحق:{وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً »[5].

---

[1] - ينظر، سيبويه، الكتاب، ج4، ص71.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص112.

[3] - ينظر: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، ج10، ص59.

[4] - الشعراوي، تفسير القرآن، ج5، ص3221 - 3222.

[5] - المرجع نفسه، ج5، ص3222.

إنّ جمع "عبيد" في التوظيف القرآني مقتصر - إذاً - على العصاة، أو ما كان في حكمهم، فهل لوزن "فعيل" علاقة بمعنى العصيان، والشر؟ ومن ثَمّ، يكون لجمع "عباد" على وزن "فِعال" علاقة أيضاً بمعنى الخير والطاعة. لأنّ صيغة "عبيد" من الناحية الصوتية فيها كسر الباء، متبوعة بياء؛ والياء عادة تدل على النصب والخفض. أما "عباد" ففيها ألف مد حيث ينتفح مخرج الصوت، فيندفع الهواء بسهولة ويسر. والله أعلم.

المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية المتشابهة (المترادفة)

1 - فضاء الغيبيات:

1 - 1 - إبليس والشيطان:

يختلف إيراد لفظ إبليس عن لفظ الشيطان؛ فالأول لم يرد إلاّ في الخطاب المكي، وله متعلقات خاصة ذكرناها في الفصل الثاني، أما اللفظ الثاني فورد في الخطابين المكي والمدني معاً، وورد جمعاً كذلك أي؛ الشياطين، وبمعنى مخالف قُصِد به المنافقون أو الكفار أو اليهود، وورد هذا المصطلح ثلاثاً وستين 63 مرة. منها قوله تعالى: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾**(فاطر:6)، **﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**(البقرة:168)، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**(البقرة:208)، **﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**(الأنعام:142)، **﴿أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**(يس:60)، **﴿يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**(الزخرف:62). فكأنما يرشدهم إلى جوهر شخصية إبليس، وهو الطرد من الرحمة بسبب ما ارتكبه من عصيان، حتى صار اسم الشيطان هو المطّرد في الاستخدام العام عند الناس. ومن ثمّ فمن اتبع خطوات الشيطان كان مصيره كمصير الشيطان نفسه؛ أي الطرد من رحمة الله.

يقول الألوسي عن لفظ "شيطان":« والمفرد شيطان وهو فيعال عند البصريين، فَنُونُه أصلية من شطن أي بعُد لبُعده عن امتثال الأمر. واحتمال أخذه من الشيطان لا من أصله على أن المعنى فعل فعله خلاف الظاهر، وعند الكوفيين وزنه فعلان فنونه زائدة من شاط يشيط إذا هلك أو بطل أو احترق غضباً، والأنثى شيطانة. وروى عن ابن عباس أن الشيطان كل متمرد من الجن والإنس والدواب »[1]. وقيل:« لكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب هو شيطان. ويقول العرب لكل منفرد بقوته وجلده قويّ مستقل بنفسه منهمك في أمره شيطان »[2].

– المتعلقات اللفظية بهذا الاسم:

أ – التعريف بأل: يرد لفظ "الشيطان" معرّفاً بأل في جل المواطن التي ورد اسمه فيها. وعادة ما يكون مفرداً، أو جمعاً، كما في قوله تعالى:**﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾**(البقرة:36)، **﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾**(النساء:38)، **﴿يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾**(الأعراف:27)، **﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾**(المؤمنون:97). **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾**(مريم:83). وغير ذلك كثير في الخطابين معاً، لكون الشيطان، أو الشياطين ملازمين الإنسان ما دام على قيد الحياة.

أما إذا كان نكرة - مفرداً أو جمعاً - فيُقصد به الإنسان كذلك. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:**﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾**(التكوير:25)، **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾**(الحج:3)، **﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾**(الحجر:17)، **﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾**(النساء:117).

---

[1] - الألوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص159.

[2] - أبو حاتم الرازي، كتاب الزينة في الكلمات العربية الإسلامية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط1، 1994. ص362.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(الأنعام:112)، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة:14).

ب - عدم استخدام أسلوب النداء معه: فلم يقل القرآن: أيها الشيطان، أو يا شيطان أبداً. إنما استخدم في النداء اسم العَلَم له، فقال: يا إبليس. وفي هذا الاستخدام تلميح إلى التأدب في مخاطبة الآخرين، ولو لم يكونوا على ملتنا، ومعتقدنا. ولعله إيحاء للمسلمين في تعاملهم مع أهل الكتاب؛ من يهود ونصارى عند مجادلتهم في موضوع العقيدة وغيرها.

ج - إضافته إلى المخلوقين: سواء بإضافة اسم "الشيطان" إلى اسم ظاهر، أم إلى ضمير غائب. مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(الأنعام:112)، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة:14). ولم يرد مثل ذلك مع لفظ "إبليس" أبداً. وفي هذا دلالة على أنّ لفظ "شيطان" لقب يمكن أن يطلق على الإنسان كذلك، إذا أتى بأفعال تشبه ما يفعله الشيطان الحقيقي.

1 - 2 - **فضاء البعث**: فيه مصطلحان اثنان هما: القيامة واليوم الآخر؛ ويكثر ورودهما في الخطابين معاً، والأول منهما أكثر وروداً من الثاني، ونجد مصطلحات أخرى دالة على يوم البعث والقيامة مثل: يوم الفصل، يوم التنادي، يوم الحشر، أو مصطلحات عبارة عن صفات لهذ اليوم مثل: التغابن، يوم الجمع، الطامة، الحاقة، الآزفة، الواقعة، الصاخة، الغاشية.

أ - **القيامة**: وردت في الخطابين معاً؛ وذلك في سبعين 70 آية. قال ابن منظور:« ويومُ القِيامة: يومُ البَعْث؛ وَفِي التَّهْذِيبِ: القِيامة يَوْمُ الْبَعْثِ يَقُوم فِيهِ الخَلْق بَيْنَ يَدَيِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ. وَفِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ يَوْمِ القِيامة فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، قِيلَ: أَصله مَصْدَرُ قَامَ الخَلق مِنْ قُبورهم قِيَامَةً، وَقِيلَ: هُوَ تَعْرِيبُ قِيمْثَا، وَهُوَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ بِهَذَا الْمَعْنَى »[1]. ويستخدم هذا المصطلح للدلالة على ذلك اليوم الذي يحاسب فيه كل امرئ عمّا كسب في هذه الدنيا، ولذلك يطّرد في معنى الحساب، والجزاء، والقصاص، والحكم بين العباد، وكشف ما كان مستورا.

غير أنّ التعبير القرآني أعرض عن استخدام مصطلح "البعث" بصيغة المصدر، وإنْ استخدم الفعل منه مرات عديدة، مثل قوله تعالى:﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(ص:79)، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾(المجادلة:18)، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾(التغابن:7)، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (الجن:7)، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾(المطففين:4). وكأنه بذلك ينبّه على أنّ الأهم في هذا الشأن هو أن يبعث الناس حقيقة، فاستخدم الفعل الدال على الحركة والتحقق، أما مصدر "البعث" فهو شيء نظري، أو معنى سكوني. وقد لاحظنا أنّ القرآن الكريم لا يقول: يبعث الناس يوم البعث، أو يوم البعث يختصمون. إنما يقول تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(المؤمنون:16)، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(الزمر:31).

أما بقية أسماء يوم القيامة أو صفاتها، فلم ترد كثيرا، بل لم يرد بعضها إلاّ مرة أو مرتين، وقد جاءت في الخطاب المكي على وجه التحديد. قال تعالى:﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾(التغابن:9)، والتغابن

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص305.

« صفة من صفات يوم القيامة.كأن السعداء الفائزين بالجنة غبنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون لو كانوا سعداء وفيه تهكم لأن نزول الأشقياء في جهنم ليس في الحقيقة غبناً للسعداء »[1]. وقال سبحانه:﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**﴾(النازعات:31)، ﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ**﴾(عبس:33)، ﴿**إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ**﴾(الواقعة:1)، ﴿**الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**﴾(الحاقة:1 - 3)، ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾(الغاشية:1). أما إذا كانت "الغاشية" نكرة، فتعني عذاب الدنيا، كما في قوله تعالى:﴿**أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً**﴾(يوسف: 107). ومثل هذا التوظيف؛ أي اختلاف دلالة النكرة والمعرفة، يطّرد كذلك في جلّ ألفاظ القرآن، كما في لفظ "ساعة". فإذا ورد نكرة يعني ساعة من الوقت، أما إذا جاء معرفة فإنه يطّرد في دلالة يوم القيامة.

وقلة ورودها يعني أنها جاءت للتعريف بيوم القيامة، وزيادة التفصيل في طبيعة وقوعها، لزيادة التأثير في الكفار، وتهديدهم، ووعيدهم، بكونها أمراً غير هيّن. وبذلك لم يكرر إيرادها بعد ذلك في الخطاب المدني كلّه.

ب - **اليوم الآخر**: ورد في ست وعشرين 26 آية. ويقترن بالإيمان؛ أي يقول القرآن: آمنوا بالله واليوم الآخر، أو يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يقال: آمنوا بيوم القيامة، أو الذين يؤمنون بيوم القيامة. وكأنّ الإيمان بالله تعالى يوجب بالضرورة الإيمان باليوم الآخر، وربما لأنّ بعض الأمم كانت تؤمن بالله، لكن إيمانها باليوم الآخر كان فيه خلل ما.

2 - **فضاء الإتيان والمجيء:**

ويمثله فعلان يبدوان مترادفين تماماً، بل ويصعب التفريق بينهما على أساس دلالي، أو اجتماعي، أو نفسي، لأنّ الآيات التي وردا فيها يصعب تصنيفها في مجال دلالي، أو فضاء معرفي معيّن. وقد حاول بعض الباحثين أن يجد لذلك تعليلاً وتفسيراً، فأفرد لهما كتاباً كاملاً سمّاه "الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالاتهما في القرآن الكريم".

قال الراغب الأصفهاني في هذا المعنى:« الإتيان مجيء بسهولة.. والإتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبير، ويقال في الخير وفي الشر وفي الأعيان والأعراض »[2]. وزاد على ذلك بفائدة قائلاً:« وكل موضع ذكر في وصف الكتاب (آتينا فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه (وأتوا) ؛ لأن (أوتوا) قد يقال إذا أوتي من لم يكن منه قبول، وآتيناهم يقال فيمن كان منه قبول »[3].

أما عن دلالة الفعل "جاء" فيقول:« جاء يجيء ومجيئا، والمجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم؛ لأن الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارا بالحصول »[4].

لقد حافظ القرآن على ما حافظت عليه العرب من كلامها ولسانها، وابتعد عما ابتعدت عنه، مثلما نجد في الممات من الكلمات مثل: الماضي من فعل (ودع) ومصدره (الودع)، وفعل (وذر) ومصدره (الوذر)، فاحتفظ بالمضارع والأمر منهما فقط، وأمات الأمر من فعل (رأى)؛ أي (رَ)، ولم يحتفظ منه إلاّ بالماضي والمضارع.

---

[1] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص26.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص10.

[3] - المرجع نفسه، ج1، ص11.

[4] - نفسه، ج1، ص204.

ولذلك، أيضا، لم يستعمل التعبير القرآني المضارع ولا الأمر من الفعل "جاء" أبدا، عكس الفعل "أتى" الذي ورد بالتصريفات الثلاثة. وقد ذكر باحث أن هناك فرقاً بين الفعلين في الاستعمال القرآني، وردّ ذلك إلى فرق دلالي فحسب[1]. وقد اصطدم ببعض الآيات التي لم يجد لها مخرجا مقنعا، حين استند إلى الفرق الدلالي وحده. من ذلك قوله تعالى:﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**﴾(الفرقان:33)، ﴿**قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾(الأعراف:129)، ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾(البقرة:145)، ﴿**الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾(آل عمران:183)، ﴿**قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾(الأعراف:106).« ففي الآية تعليق الإتيان على المجيء، وهذا دليل واضح على اختلاف الفعلين في المعنى، لأنّ الشيء لا يعلق على نفسه »[2].

غير أنّ الأمر مختلف إذا نظرنا إلى الفعل "أتى" من زاوية نحوية، لأنّ القرآن الكريم لم يستخدم أبداً المضارع والأمر من الفعل "جاء"، على كسع الفعل "أتى"، ولذلك لا نستطيع الجزم بصحة ما ذهب إليه الباحث. ومثل ذلك قوله تعالى:﴿**قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾(الشعراء:30 - 31)، ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾(الأعراف:53)، ﴿**أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**﴾(التوبة:70)، ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ**﴾(العنكبوت:68)، إذ يمكن وضع "جاء" مكان "أتى" من غير أن تتغيّر الدلالة العامة لمعنى الآية، لكن التعبير القرآني فضّل في كل موضع استخدام الفعل المناسب له ، لغرض إعجازي وبلاغي.

3 - فضاء الإعطاء والإيتاء:

يطّرد استخدام كل فعل من هذين الفعلين في فضاء خاص؛ فقد حاول كثير من العلماء في القديم والحديث، أن يقدّموا تفسيراً يدل على بلاغة البيان القرآني وتفرّده. ومن ذلك ما أورده السيوطي قائلا:« لا يكاد اللغويون يفرقون بينهما فظهر لي بينهما فرق ينبيء عن بلاغة كتاب الله تعالى وهو أنّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله لأنّ الإعطاء له مطاوع تقول أعطاني فعطوتُ ولا يقال في الإيتاء آتاني فأتيت وإنما يقال فأخذتُ والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوع له. لأنك تقول قطعته فانقطع... ولهذا يصح قطعته فما انقطع ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك فلا يجوز ضربته فانضرب أو فما انضرب...»[3]. ثم يضرب أمثلة من القرآن لتأييد رأيه هذا كقوله تعالى:﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ**﴾(آل عمران:26)، ﴿**يُؤْتِي**

---

[1] - يراجع: محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص5 وما بعدها.

[2] - المرجع نفسه، ص6.

[3] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص197.

الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقرة:269)، ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾(الحجر:87) ويقول:« لأن الملك شيء عظيم لا يعطاه إلا من له قوة وكذا يؤتي الحكمة من يشاء وآتيناك سبعاً من المثاني لعظم القرآن وشأنه »[1].

ولكن، لا يبدو هذا التأويل لدلالة الفعلين "أعطى" و"آتى" دقيقاً، إذ اعتمد المؤلف الناحية النحوية فحسب، وإن كانت إشارته إلى أنّ الشيء المأتي يكون عظيماً صحيحة تؤيدها تلك الآيات المستشهد بها، وهناك آيات أخرى غيرها أيضاً تؤيد ذلك. ومن ثمّ نجده يتأول تأويلاً بعيداً عندما يصطدم بآيات تدل على عظم الأمر المعطى، ولكنها مع ذلك تستخدم لفظ "أعطى" بدلاً من لفظ "آتى" مثل قوله تعالى:﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ (الكوثر:1). يقول:« لأنه مورود في الموقف مرتحل عنه قريب إلى منازل العز في الجنة فعبّر فيه بالإعطاء لأنه يترك عن قرب وينتقل إلى ما هو أعظم منه »[2].

ولسنا ندري على وجه الدقة مقبولية هذا التحليل، ووجاهة هذا التأويل، إذ ليس هناك ما يدل - من السياق العام، أو من مجموع الآيات - على هذا المعنى الذي ذهب إليه المؤلف، لأن "الكوثر" كما ورد في التفاسير هو نهر في الجنة، وهو حوض النبي (ص) ترد عليه أمته. والكوثر الخير الكثير من النبوة والقرآن والشفاعة ونحوها[3]. وكل هذا من الأمور العظيمة، ومع ذلك فقد عبّر عنها القرآن بلفظ "أعطى" بدلاً من لفظ "آتى" المختص عادة بمثل هذه الأمور. وقد خرّج بعضهم هذه الآية تخريجاً آخر حيث قال:« هذا الذي أعطيه النبي قليل في حقه، وهو قليل كذلك إذا قيس إلى ما هو أعظم منه »[4]. غير أنّ هذا التخريج يبدو من باب ترجيح من غير مرجِّح، لأنّ مسألة الإعطاء ليست مرتبطة بالكثير أو بالقليل، ثم كيف نعرف أنّ ما أعطاه الله نبيّه (ص) قليل فعلاً؟

ولننظر إلى قوله تعالى:﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾(الكوثر:1)، ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ (طه:50)، ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾(الليل:75)، ﴿**حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾(التوبة:29).

إنّ كلمة "أعطى" - معجمياً ومن حيث الاستخدام الشائع - تدل على التمليك الفعلي« لأن فعل الإعطاء إذا أريد به إعطاء المال بدون عوض، يُنزَّل منزلَة اللازم لاشتهار استعماله في إعطاء المال (ولذلك يسمى المالُ الموهوب عَطاءَ)، والمقصود إعطاء الزكاة »[5]، بمعنى أنّ الذي يعطي شيئاً ما، يكون قد ملّك ذلك الشخص الشيء المعطى له،« والعطاء لا يمكن نزعه لأنه أصبح ملك المعطى إليه كما في قوله تعالى:﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ**

---

[1] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص196 - 197.

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص197.

[3] - يراجع: مكي بن أبي طالب القيسي، تفسير المشكّل من غريب القرآن، تح: علي حسن البواب، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، 1985، ص 308.

[4] - فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص182.

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص382.

بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»[1]. ومن ثمّ يحق له أن يتصرف فيه كيف يشاء. أمّا معنى الإتياء فلا يعنى التمليك الفعلي بالضرورة[2]. ومثل ذلك ورد في الحديث النبوي« إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »[3]. فالمُلك والحكمة والمال، وما شابه ذلك، يؤتيها الله من يشاء من عباده، لا كي يتصرفوا فيها على هواهم، بل يجب أن يسيروا بها على منهج المانح؛ أي في سبيل الله تعالى. ومثله قوله تعالى:﴿**حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾(التوبة:29)، فلم يقل: حتى يؤدّوا الجزية، لأن الجزية هي إخراج بعض المال إلى الآخرين، من غير عوض، إلا إذا فهمنا دلالة العوض، هنا، بأنها حماية نفوس الذميين وأملاكهم.

وقد لاحظ فاضل السامرائي أنّ فعل أعطى لا يتصل بلفظ الجلالة "الله"، أو بغيره من الأسماء الحسنى، بل بلفظ "الرب"[4] فقط. وسواء أكانت مادة "أعطى" فعلاً أم اسماً، فالأمر لا يختلف، كما في قوله تعالى:﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾(هو:108)، ﴿**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾(الإسراء:20)، ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾(طه:50). ﴿**جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا**﴾(النبأ:36)، ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾(الضحى:5).

ولننظر في الآيات التالية لنتبيّن الفرق بين آتى وأعطى، قال تعالى:﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾(الحجر:87)، ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ**﴾(القصص:76)، ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾(مريم:12)، ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾(الكهف:84). بحيث نجدها تقرّر أنّ فعل الإتياء مختص بالأمور ذات الشأن الحياتي الكبير، والذي يقتضي تصرفاً حكيماً عامّاً، لصالح العباد، لا تصرفاً خاصاً بالفرد ذاته، لأنّ ذلك الشيء المؤتى ليس ملكاً خاصاً يفعل به المرء ما يشاء.

وهناك تصريف آخر لفعل "آتى" وهو صيغة "أوتوا"، أو "أتيناهم"، - حين يتعلق الأمر بالكتاب - الذي يقول فيه السيوطي إن الأول يأتي للدلالة على عدم القبول، بينما الثاني يرد للدلالة على القبول:« وكل موضع ذكر في وصف الكتاب أتينا فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه أوتوا لأن أوتوا قد يقال إذا أوتي من لم يكن منه قبول وأتيناهم يقال فيمن كان منه قبول»[5]. ومعنى هذا الكلام أن المواضع التي ذكر فيها هذا الفعل مبنياً للمعلوم، تدلّ على قبول قبول الناس الشيء الذي قُدِّم لهم؛ وهم المؤمنون من أهل الكتاب على الخصوص، والشيء المأتي هو التوراة أو الخيرات. أما إذا كان الفعل مبنياً للمجهول فإنه يتعلق بأهل الكتاب الذين لم يرعوا كتابهم حق رعايته، وتتكرر في القرآن عبارة {الذين أوتوا الكتاب}، أو {الذين أوتوا نصيباً من الكتاب}. وما يتبع هاتين العبارتين في السياق القرآني

---

[1] - أحمد الكبيسي، الكلمة وأخواتها، منظومة أعطى، صفحة أنترنيت. على موقع أهل اللغة.

[2] - يراجع: فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص181.

[3] - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج 25، ص174.

[4] - فاضل السامرائي، من أسرار البيان القرآني، ص71.

[5] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص197

دليل كاف على ما ذهب إليه السيوطي، إذ يردف القرآن وصفاً بعدم رضا هؤلاء القوم بما أوتوا، أو عدم العمل بما جاء فيه من الأوامر والنواهي، أو كيدهم للمؤمنين من أهل القرآن. يقول الله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾(آل عمران:100)، ﴿**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا**﴾(آل عمران:186)، ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ (النساء:51)، ﴿**وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ (الحديد:16)، ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾(البيّنة:4).

وعلى العموم، فالتعبير القرآني لا يورد مصطلح "الكتاب" و"القرآن" مع الفعل "أعطى"، فلا يقول: أعطيناه الكتاب، أو أعطيناهم الكتاب والحكمة، إنما يستخدم دوماً الفعل "آتى". يقول ابن عاشور:« وَإِيتَاءُ القُرْآنِ: أَيْ إِعْطَاؤُهُ، وَهُوَ تَنْزِيلُهُ عَلَيْهِ وَالْوَحْيُ بِهِ إِلَيْهِ. وَأُوثِرَ فِعْلُ آتَيْنَاكَ دُونَ (أَوْحَيْنَا) أَوْ (أَنْزَلْنَا) لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ أَظْهَرُ فِي الْإِكْرَامِ وَالمِنَّةِ »[1]. ويبدو أنّ هناك صعوبة في تفسير اللغة باللغة، إذ كيف يُسوّغ أن يشرح المؤلّف آتى بأعطى، مدّعياً أنه أظهر في الإكرام؟ فما الذي هو أظهر؟ أعطى أم آتى؟ إنما كان الأولى أن تُشرح كلمة "آتى" بلفظ آخر غير مرادفها؛ الذي هو الفعل "أعطى"، أو أن تشرح بأكثر من لفظ، ليصل المرء إلى الدلالة القريبة من المقصود. لأن اللفظ المرادف لا يؤدي المعنى بدقة، ولولا ذلك لوظّفه القائل.

4 - **القلب والفؤاد:** وهما لفظان لا يكاد المرء يفرق بينهما، لتشابههما الشديد، غير أن التعبير القرآني أوردهما بتمظهر خاص، إذ نجد الأول يرد نكرة ومعرفة، ويرد في الخطابين معاً، أما الثاني فلم يرد إلا معرفة، أو مضافاً إلى اسم عَلَم، أو ضمير. وأكثر ما يرد هذا اللفظ بصيغة الجمع، باستثناء أربعة مواضع مكية كلها هي:﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾(الإسراء:36)، ﴿**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾(هود:120)، ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾(الفرقان :32)[2]. إلاّ أنّ هناك موضعاً واحداً استخدم فيه لفظ "فؤاد" و"قلب" في السياق نفسه، وللشخص نفسه؛ وهو قوله تعالى:﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(القصص: 10)، وفي هذه الآية يظهر الفرق واضحاً بين دلالة "قلب" ودلالة "فؤاد".

أما لفظ "الأفئدة" فورد ثماني 8 مرات، كلها مكية. قال الأصفهاني:« الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي: التوقد »[3]. والآيات هي قوله تعالى:﴿**وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ**﴾ (الأنعام:113)، ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾(إبراهيم:37)، ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(النحل:78)، ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾(المؤمنون:78)، ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا**

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص79.

[2] - يراجع: أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، ص3.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص207.

تَشْكُرُونَ﴾(السجدة:9)، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾(الأحقاف:26)، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾(الملك:23)، ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾(الهمزة:6 - 7).

جاء في مخطوطة الجمل:« قالوا: الفؤاد لحرارته وتوقدة، ويطلق علي قلب كل حي ذي قلب، إنسانا أو غيره، وجمعه أفئدة، وقيد الراغب ذلك الاستعمال بأنه يكون إذا اعتبر فيه معني التفؤد، أي التوقد، ولعل الاستعمال القرآني يؤيد ذلك، فإن في مواضع وروده ملحظا خاصا من فضل تأثر، أو قرنه بالسمع أو البصر أية الإبصار، أو استناد الرؤية إليه »[1]. أما ابن ابن عاشور فاكتفى بقوله:« وَالفُؤَادُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى العَقْلِ وَاللُّبِّ »[2].

وعن دلالة القلب قال الأصفهاني:« وقلب الإنسان قيل: سمي به لكثرة تقلبه، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك »[3]. وجاء في مخطوطة الجمل:« القلب: هو اللحمة الصنوبرية الشكل المستقرة في التجويف الأيسر من الصدر »[4]. وواضح هنا أن التعريف تعريف فزيولوجي.

وقد ورد لفظ "قلوب" بهذه الصيغة في خطاب المثنى، قال تعالى:﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (الأحزاب:04). وذلك تبعاً للقاعد: إذا أضيف الاسم المثنى إلى متضمَّنه فالأفصح أن يُجمَع؛ وذلك تماشياً مع عادة العرب في كلامها، أما بقية الآيات فورد فيها هذا بصيغة الجمع مثل قوله تعالى:﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾(البقرة:88)، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾(آل عمران:8)، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾(النساء:155).

5 - **الكيل والميزان:** يردان متتابعين تقريباً في كل الآيات التي يردان فيها، أي في خمسة عشر 15 موضعاً، ما عدا موضع سورة يوسف حيث ورد لفظ "الكيل" وحده، والذي ورد سبع 7 مرات معظمها بصيغة المصدر، ومرة واحدة جاء بصيغة الفعل. والغريب هنا أنّ كل السور التي ورد فيها هذان المصطلحان مكية؛ وليس فيها استثناء واحد، علماً بأنّ هذه المسألة تتعلق بالاقتصاد؛ أي بالتشريع أساساً، وكأنّ حقها أن ترد في السور المدنية، غير أن القرآن الركيم أوردها في السور المكية للدلالة على خطرها، وعلى أنها كانت قضية كبيرة في الأمم السابقة، وستبقى كذلك لاحقاً.

ومن خلال توزيع مفردة الكيل ومفردة الوزن في كل السياقات القرآنية، يتضح أنّ هناك فرقاً بين الكيل والوزن، سيما أنهما يأتيان معطوفين ومتتابعين، يسبق الكيل الميزان دائماً، وحتى في الصيغ الفعلية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾(المطففين:3)، وكأن الكيل أسبق، أو أسهل من الوزن من حيث المادة المستعملة فيهما، أو الطريقة المتخذة في ذلك. وقد لاحظ فاضل السامرائي أنّ القرآن استعمل مع الوزن لفظ (القسط)، وليس لفظ (العدل)[5].

---

[1] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص233.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص80.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص258.

[4] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج3، ص387.

[5] - فاضل السامرائي، من أسرار البيان القرآني، ص73.

أما في سورة يوسف، فلم يرد إلا مصطلح الكيل، لأن ذلك العصر ساد فيه القحط، وكان الموضوع خاصاً بتوزيع القمح. وهذا النوع من الطعام يحتاج إلى مكيال؛ أي آلة تُملأ ثم تفرغ في وعاء المشتري. وهي طريقة أسهل من الميزان الذي يتطلب كفتين؛ يوضع في إحداهما المثقال، وفي الأخرى الشيء الموزون، ثم ينتظر البائع حتى تستوي الكفتان. جاء في اللسان:« الوَزْنُ: رَوْزُ الثِّقَلِ والخِفَّةِ. اللَّيْثُ: الوَزْنُ ثَقْلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ مثلِه كأَوزان الدَّرَاهِمِ، وَمِثْلُهُ الزَّنْ، وَزَنَ الشيءَ وَزْناً وزِنَةً.. قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: ورأَيت الْعَرَبَ يُسَمُّونَ الأَوْزانَ الَّتِي يُوزَنُ بِهَا التَّمْرُ وَغَيْرُهُ المِسَوَّاةَ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ المَوَازِينَ، وَاحِدُهَا مِيزان، وَهِيَ المَثَاقِيلُ وَاحِدُهَا مِثْقال، وَيُقَالُ لِلْآلَةِ الَّتِي يُوزَنُ بِهَا الأَشياء مِيزانٌ أَيضاً»[1]. وقال الأصفهاني:« الوزن: معرفة قدر الشيء. يقال: وزنته وزنا وزنة، والمتعارف في الوزن عند العامة: ما يقدر بالقسط والقبان »[2].

والملاحظ كذلك أن مصطلح الكيل قد ورد بصيغة مفعال؛ أي مكيال مرة واحدة فقط، على لسان شعيب عليه السلام في قوله تعالى:﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾(هود:84 - 85). ويدل، هنا، مصطلح "مكيال" على آلة الكيل، فهو اسم آلة في عرف علماء الصرف؛ مثل: منشار، مسبار، مفتاح، ميزان، منظار... إلخ.

ويبدو من خلال بعض التفاسير أنّ قوم شعيب؛ أو أهل مدين كانوا أصحاب تجارة واسعة، وثروة كبيرة، ولذلك خصهم القرآن بذكر الوسائل المستخدمة في مِهَنهم تلك. قال ابن عاشور عن المكيال والميزان:« وَإِنَّمَا خَصَّ هَذَيْنِ التَّحَيُّلَيْنِ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ المذْكُورَيْنِ: لِأَنَّهُمَا كَانَا شَائِعَيْنِ عِنْدَ مَدْيَنَ، وَلِأَنَّ التَّحَيُّلَاتِ فِي المُعَامَلَةِ المَالِيَّةِ تَنْحَصِرُ فِيهِمَا إِذْ كَانَ التَّعَامُلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَوَادِي مُنْحَصِرًا فِي الْمُبَادَلَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَشْيَاءِ: عَرْضًا وَطَلَبًا »[3]. وقال الشعراويفي ذلك:« الكيل كما نعرف هو تعديل شيء بشيء، فإن كان في الخفة والثقل؛ فالأمر يحتاج إلى ميزان، وإن كان تعديل شيء بشيء في الكم، فهذا يحتاج إلى الكيل، وهذا هو الأمر المشهور في الكيل والميزان... فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم، والأمر المشهور هو الكيل والميزان، لكن بقية التقييمات موجودة؛ ليأخذ كل ذي حق حقه »[4].

ومع ذلك فإن الميزان والمكيال قديمان عند الأمم المتحضرة، وعند التجمعات البشرية الكبيرة، وذكرهما في القرآن الكريم منسوبين إلى قوم شعيب عليه السلام، فيه دلالة على ما بلغه هؤلاء القوم من ازدهار في التجارة والاقتصاد في زمانهم، فذكّرهم نبيّهم بنِعَم الله، وحذّرهم من مغبّة التطفيف في الكيل والوزن. لأنّ كثرة النعم، ووفرة الإنتاج قد يؤديان بأصحاب المال إلى بخس الناس حقوقهم.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص446.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2 ، ص512.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص244.

[4] - الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، ج11 ، ص6601.

المبحث الثالث: فضاء المنظومة اللفظية

ذكرنا في الفصلين الثاني والثالث بعضاً من عيّنات هذه المنظومة، باعتبار جزء من نماذجها ورد في الخطاب المكي، والجزء الآخر ورد في الخطاب المدني، وجزء ثالث ورد في الخطابين معاً، فلم نجد بداً من اتباع ذلك فذكرنا كُلاّ في مكانه، لنقترب أكثر من الاطرادات الدلالية المقصودة من الخطاب القرآني.

1 - **منظومة الأيمان:** يورد القرآن الكريم أربعة مصطلحات في هذه المسألة هي: القسم، والحلف، واليمين، والإيلاء. ويلاحظ أنّ لفظ "حلف" ولفظ "اليمين" يطردان في المدني، ولفظ "قسم " يطرد في المكي.

والسؤال المطروح هو: لماذا يطرد لفظ (القسم) في المكي، لاسيما في قَسَم الله تعالى، وهو ما نبّه عليه علماء القرآن قديماً. باستثناء آية المائدة 35، ويطرد لفظ (الحلف) في المدني؟ إن ذلك يعود إلى تغير الموضوع، ففي العهد المكي كان القرآن يرسخ العقيدة، ويرسخ فكرة الإيمان بالغيبيات، وهو أمر يتطلب تأكيداً كبيراً، لذا استخدم أسلوب القسم بلفظ (أقسم)، لأنه صدق وحق وواقع أكيد، وإن غاب عن النظر والحس. من ذلك قوله تعالى:﴿**وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ**﴾(إبراهيم:44).﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ**﴾(النحل:38). ﴿**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾(النمل:49).﴿**تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**﴾(الروم:55).

مع ملاحظة أن بعض هذه الآيات جاء متبوعاً بعبارة {جهد أيمانهم}، للدلالة على أن هؤلاء الذين أقسموا كانوا يعتقدون، ويظنون أنهم على صواب، وما كانوا يشكون في ذلك.

أما لفظ (الحلف) فيطرد في القرآن المدني في سورتي (المائدة والمجادلة) فحسب. والحلف الذي في سورة المائدة يختلف عن الحلف الذي في سورة المجادلة تماماً من حيث الموضوع، ومن حيث الأشخاص المخاطبون[1]؛ إذ يقصد به في آية المائدة كفارة اليمين. لذلك سماه حلفاً لا قسماً، لكونه لم يصدق، ولم يقع. تماماً كحلف الكفار والمنافقين الذي لا يصدق ولا يقع، مع الفارق في كون حلف المؤمن قد يكون لخطأ أو نسيان أو غيره، بينما حلف المنافق يكون عن وعي وإصرار وقصد.

ويتعلق لفظ (الحلِف) أساسًا بالمنافقين وبعض الكفار الذين يساعدونهم؛ من يهود - على الخصوص-، أو نصارى، وهؤلاء كانوا في المدينة وليس في مكة، وكانوا يوقظون الفتنة ويثيرونها بين المسلمين، يكثرون الأقاويل، ويبثون الشكوك، ومن ثَمّ كانوا يضطرون إلى الأيمان الكاذبة، وهم على علم بما يقولون، ويعرفون أنهم كاذبون، ليلبسوا على الناس. فعبّر عنهم القرآن بلفظ "حلف" للدلالة على كذبهم ونفاقهم.

---

[1] - ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعضهم يستدرك على عائشة عبد الرحمان في هذه المسألة. يراجع محمد إقبال العروي، اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني، ص 61 - 62.

ويعضد قولنا هذا بعض التعابير الواردة في شأن المنافقين؛ "كسورة المنافقون"؛ التي يدل عنوانها دلالة سيميائية على صفة هؤلاء الناس، والتي يؤكد فيها الله تعالى على أن المنافقين كاذبون، ولو شهدوا بما هو واقع. فقد شهدوا بألسنتهم أن محمداً (ص) رسول الله، ولكن الله تعالى شهد أيضاً عليهم بأنهم كاذبون في ادّعائهم هذا، لأنهم لا يعترفون بنبوة الرسول (ص) إلا قولاً، رياءً وتظاهراً من أجل مآرب أخرى. فما قيمة أيمانهم التي ما هي إلا حلف كاذب؟

والعرب تستخدم هذا اللفظ؛ أي (الحلف) في معنى محايد، يشبه مفهوم القسم، أو يرادفه، مثلما نجد في قول النابغة الذبياني يعتذر للنعمان بن المنذر:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب[1]

إذ نجده يوظّف فعل (حلفت)، بمعنى القسم أو اليمين، ولا يعقل أن يحلف النابغة كاذباً، وهو في معرض اعتذار للأمير واستعطافه. وهذا يدل على أن الفعل مستعمل في عصر الشاعر بمعنى القسم ذاته، وإلا لكان النعمان قد اعترض عليه، ورفض استعطافه بحجة أنه قسم كاذب. وواضح، هنا، زيادة على ذلك، أنّ الذي جعل الشاعر يستخدم لفظ "حلف" بدلاً من "أقسم" هو الوزن. أما القرآن الكريم فلا شيء يلجئه إلى شيء.

بل إننا نجد لفظ الحلف مستخدماً في الحديث النبوي في أكثر من موضع، كما في قوله (ص) لعبد الرحمان بن سمُرة:« وإذا حلفتَ على يمين فرأيتَ غيرها خيراً منها فكفّرْ عن يمينك وائْتِ الذي هو خير »[2].

غير أنه قد ورد في القرآن الكريم لفظ مختلف عن ألفاظ القسم واليمين والحلف، وورد بمعنى الحلف كما يرى ذلك بعض المفسرين، واللفظ هو "يؤلون" الوارد في قوله تعالى:﴿**لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ**﴾(البقرة: 226). وقوله أيضاً:﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ**﴾(النور:22). ويؤلون مأخوذ من الإيلاء، «والإيلاء: الحلف، وظاهر كلام أهل اللغة أنه الحلف مطلقاً »[3]. وجاء في تفسير الجلالين« {للذين يؤولون مِنْ نِسَائِهِمْ} أَيْ يَحْلِفُونَ أَنْ لَا يُجَامِعُوهُنَّ {تَرَبُّص} انْتِظَار {أَرْبَعَة أَشْهُر فَإِنْ فَاءُوا} رَجَعُوا فِيهَا أَوْ بَعْدهَا عَنْ الْيَمِين إلَى الْوَطْء {فإن الله غَفُور} لَهُمْ مَا أَتَوْهُ مِنْ ضَرَر الْمَرْأَة بِالْحَلِفِ {رَحِيم} بِهِمْ »[4]. فهل يجوز لنا - بعد هذا - أن نقول: إنّ مفدي زكريا قد أحسن حين استخدم لفظ "قَسَم" بدلاً من لفظ "حلف" في النشيد الوطني إذ قال:

قسَماً بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات ؟[5]

لأنه يعلم، كما يعلم الذين لبّوا نداء هذا القسم، وقاموا بجهاد الدخيل الفرنسي، ألاّ حِنْث لقسمهم ذاك حتى يخرج هذا الغريب المعتدي من أرض الوطن.

---

[1] - النابغة الذبياني، الديوان، سلسلة شعراء العرب، المركز الثقافي اللبناني، ط1، د ت، ص72.

[2] - البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2002، ص1642

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص382.

[4] - تفيير الجلالين، دار الحديث القاهرة، ط1، د. ت، ج1، ص48.

[5] - مفدي زكريا، اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1991، ص71

ومن حيث المعنى المعجمي للمادتين، فإن الحَلِف مرادف للقَسَم، كما في لسان العرب:« الحِلف والحَلِف: القَسَم، لغتان، حَلَف أي أقسم يَحْلِفُ حَلْفاً وحِلْفاً وحَلِفاً ومَحْلُوفاً... وفي الحديث: من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها؛ الحَلِفُ: الْيَمِينُ وأَصلُها العَقْدُ بالعَزْمِ وَالنِّيَّةِ »[1]. وفي مفهوم "القسَم" ورد ما يلي:« والقَسَمُ، بِالتَّحْرِيكِ: الْيَمِينُ، وَكَذَلِكَ المِقْسَمُ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ مِثْلَ المخْرَج، وَالْجَمْعُ أَقْسَام. وَقَدْ أَقْسَمَ بِاللَّهِ واسْتَقْسَمَه بِهِ وقَاسَمَه: حلَف لَهُ. وتَقَاسَمَ القومُ: تَحَالَفُوا. وَفِي التَّنْزِيلِ: قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ وأَقْسَمْت: حَلَفْتُ »[2]. نلاحظ، إذن، أن المعنى المعجمي لهذين اللفظين يكاد يكون واحداً، إذ لا نجد فرقاً بيّناً بينهما، فهما مترادفان تماماً، لأن ابن منظور يذكر أنهما لغتان. وما كان كذلك فهو ترادف حقيقي في الاستخدام العام ،كما يؤكد ذلك كثير من الدارسين.

يقول أبو هلال العسكري في الفرق بين القسَم والحلف:« القسَم أبلغ من الحلف، لأن معنى قولنا؛ أقسم بالله؛ والقسم النصيب، والمراد أن الذي أقسم من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله. والحلف: من قولك هذا سيف حليف ماض، فإذا قلت: حلف بالله فكأنك قلت: قطع المخاصمة بالله؛ فالأول أبلغ لأنه يتضمن معنى الآخر مع دفع الخصم؛ ففيه معنيان، وقولنا: حلف يفيد معنى واحداً، وهو قطع المخاصمة فقط، وذلك أن من أحرز الشيء باستحقاق في الظاهر فلا خصومة بينه وبين أحد فيه، وليس كل من دفع الخصومة في الشيء قد أحرزه، واليمين: اسم للقسم مستعار، وذلك أنهم كانوا إذا تقاسموا على شيء تصافقوا بأيمانهم ثم كثر ذلك حتى صار القسم يميناً »[3]. وهذا تخريج عن سبب تسمية القسَم باليمين، وهو غير مؤثر من حيث المعنى، إن كان الأصل في القسم أن يتصافق القوم بأيمانهم، أو يضعوا كلتا اليدين معاً في مقابل أيادي الآخرين، أو يرفعوها فقط كناية على التأكيد على عقد الاتفاق. فإنّ الأهم هو الدقة في استخدام أحد اللفظين على الآخر للدلالة على معنى وارد في أحدهما، وغير وارد في الآخر.

– لفظ "**اليمين**": يستخدم هذا اللفظ للتعبير عن القَسَم أو الحِلف الذي يأتيه المسلم. وقد ورد في العهد المدني أيضاً. وقد قصره التعبير القرآني على الدلالة التشريعية؛ فالذي يُقسم بالله كاذباً، أو حانثاً - لسبب أو لآخر - فعليه كفّار اليمين[4]، ولا يقال في عُرف الفقهاء: كفارة القسَم أو كفارة الحلف.

ولبنت الشاطئ رأي في هذا المجال في كتابها التفسير البياني للقرآن، حيث ترى أن لفظ "قَسَم"، ولفظ "حِلْف" يترادفان في الاستخدام العادي عند الناس. وضربت أمثلة من الشعر الجاهلي، للنابغة والأعشى وغيرهما، وكذلك فعلت مع دلالتهما اللغوية كما وردت في المعاجم. أما معناهما في القرآن فالأمر مختلف. تقول:« لكن استقراء الكلمتين في القرآن الكريم يمنع هذا الترادف: فلقد جاءت مادة "حلف" في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً، كلها بغير استثناء، في مقام الحنث باليمين... وجاء الفعل مرة واحدة مسنداً إلى الذين آمنوا، فلزمتهم كفارة الحنث

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج9، مادة حلف، ص963.

[2] - المرجع نفسه، ج12، مادة قسم، ص481.

[3] - العسكري، الفروق اللغوية، ص56.

[4] - من المعلوم أنّ الفقهاء قسّموا اليمين إلى ثلاثة أقسام هي: يمين اللغو، واليمين المنعقدة، واليمين الغموس.

باليمين﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾(المائدة:89)»[1]. فقد أورد القرآن لفظ "حلفتم" مع أنّ المخاطبين هم المؤمنون، ولكن لما حنثوا؛ جعل ذلك حلفاً، لا قَسَماً.

ومع أن الكاتبة تثبت الفرق بين اللفظين، إلا أنها لم تبيّن ذلك بوضح مقنع، واكتفت بقولها إنّ فقه العربية يؤيّد ذلك، وإنّ القرب الدلالي بين مادة "حلف" و"حنث" واضح، والبعد الدلالي بين مادة "أقسم" و"حلف" واضح كذلك. ومن ثَمّ، وجب العودة إلى المعاجم القديمة، وإلى بطون الكتب لمعرفة الاستعمال الأصلي لمثل هذه الألفاظ لتتضح الفروق الدلالية الدقيقة بينها.

إنّ لفظ (القسَم) ومشتقاته يتكرر في القرآن المكي، إلاّ ما ورد في سورة المائدة(الآية:53)، وسورة (الأنعام:109)، وسورة(النور:53). لكونها مختلفة في أسلوبها عن الآيات الأخر التي حملت مفهوم القسم. ونلحظ في هذه الآيات أنّ الذين أقسموا - ولو كانوا مخطئين في تصورهم - لم يكونوا يكذبون على علم، ولم يكونوا يعرفون أنهم على خطأ، فيتمادون في ذلك، ويراؤون الناس فقط. إنما كانوا يرون ذلك صحيحاً، ويعتقدون صوابه، وذاك مبلغهم من العلم، حتى تبيّن لهم الحق فيما بعد. ومن أجل ذلك سمّاه القرآن "قَسَماً" وليس "حلفاً".

وقد لاحظ أحدهم ذلك، واستطرد على الكاتبة قائلاً:« غير أنّ التدقيق في استعمالات القرآن يبرز كيف أنّ هذه الدلالة لا تطرد، فقد جاء القسم في كثير من الآيات دالاً على الأيمان الكاذبة »[2]. ثم ضرب مثالاً واحداً فقط هو قوله تعالى:﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾(الأنعام:109). وبعد العودة إلى المواطن التي ذكر فيها لفظ "القسم" بمعنى الأيمان الكاذبة، لم يتبيّن لنا ما ذهب إليه الباحث، بل وجدنا أنّ ما قالته بنت الشاطئ كان أولى وأحرى بالصواب. والمواطن التي جاء فيها لفظ "القسم" بمعنى اليمين الكاذبة هي كالتالي؛ قوله تعالى:﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾(القلم:17)، حيث استخدم لفظ "أقسموا" بدلاً من "حلفوا"؛ وذلك لأنّ أصحاب الجنة (البساتين) كانوا متأكدين من أنهم سيقطعون ثمر تلك البساتين قبل الصباح، حتى لا يعطوا للمحتاجين ما كان أبوهم يعطيهم في حياته؛ لأنه كان قد وقف هذه الجنة عليهم، غير أنّ أولاده من بعده أخلفوا ذلك فاجتمعوا ليلاً ودبروا أمرا على إهلاك الجنة حسدا وبخلاً؛« فَبَيَّتُوا ذَلِكَ وَأَقْسَمُوا أَيْمَانًا عَلَى ذَلِكَ، وَلَعَلَّهُمْ أَقْسَمُوا لِيُلْزِمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَنْفِيذِ مَا تَدَاعَوْا إِلَيْهِ »[3]. فهم - إذاً - لم يكونوا يشكون في أمر قَسَمهم؛ أي لم يقسموا نفاقاً، بل كانوا مُصرّين على فعل ما دبروا له. ولذلك استخدم القرآن لفظ "أقسموا" وليس "حلفوا"، لكي يطرد مع القاعدة التي وضعها لفضاء هذا المصطلح. وليس هناك آيات أخر استخدم فيها لفظ "أقسم" في مجال اليمين الكاذبة.

والموطن الثاني هو قوله تعالى:﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾(فاطر:42). فهؤلاء لم يقسموا حانثين، أو كاذبين - وهم يعلمون - إنما كان ذلك منهم لاعتقادهم بأنّ الله لن يرسل أحداً، فكان هذا نوعاً من التحدي لا غير. وكذلك أمر القسم الوارد في

---

[1] - عائشة عبد الرحمان، التفسير البياني للقرآن، ج1، ص167.

[2] - محمد إقبال العروي، اطّرادات أسلوبية في الخطاب القرآني - رصد واستدراك - دار الأمان الرباط، ط1، 1996، ص61 - 62.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص80.

سورة المائدة؛ وهي مدنية في قوله تعالى:﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ**﴾(المائدة:53)، فهو نقل لقول المؤمنين في معرض توبيخ للمنافقين وليس قول الله تعالى، وذلك يكون يوم القيامة، حين تُبلى السرائر، ويُكشف المستور، فيعرف الناس جميعاً أن هؤلاء الذين كانوا يقسمون بالله في دعواهم، كاذبون؛ أي أنهم كانوا يحلفون. ولم يكن الناس ليتفطنوا لذلك في الحياة الدنيا، لأنهم لا يعرفون سرائر الآخرين. ومن ثمّ، كانوا يعتقدونهم صادقين في قولهم، لأنهم أقسموا بذلك، والناس، مؤمنين كانوا أم غير مؤمنين، لا يعلمون الغيب. ولو كان الكلام كلام الله لفضحهم، كما فعل في غير موضع، ولاستخدم لفظ (حلفوا) بدلاً من (أقسموا). قال القرطبي في تفسير هذه الآية:« قال المؤمنون لليهود على جهة التوبيخ: أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنه يعينونكم على محمد. ويحتمل أن يكون من المؤمنين بعضهم لبعض؛ أي هؤلاء الذين كانوا يحلفون أنهم مؤمنون فقد هتك الله اليوم سترهم. "حبطت أعمالهم" بطلت بنفاقهم. "فأصبحوا خاسرين" أي خاسرين الثواب. وقيل: خسروا في موالاة اليهود فلم تحصل لهم ثمرة بعد قتل اليهود وإجلائهم »[1]. وفي هذا دليل أيضاً على الدقة البالغة في توظيف الخطاب القرآني لمفرداته، بحسب المقام، وطبيعة الناطقين بالأقوال، وغير ذلك.

ولذلك وجدنا أنّ القرآن الكريم يقول عن إغواء إبليس لآدم وحواء عليهما السلام:﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾(الأعراف:21). فقد استخدم لفظ "قاسمها" ولم يقل: فحلف لهما، أو "أقسم"،« وَقاسَمَهُما أَيْ حَلَفَ لَهُمَا بِمَا يُوهِمُ صِدْقَهُ، وَالْمُقَاسَمَةُ مُفَاعَلَةٌ مِنْ أَقْسَمَ إِذَا حَلَفَ، حُذِفَتْ مِنْهُ الْهَمْزَةُ عِنْدَ صَوْغِ المُفَاعَلَةِ، كَمَا حُذِفَتْ فِي المُكَارَمَةِ، وَالمُفَاعَلَةُ هُنَا لِلمُبَالَغَةِ فِي الفِعْلِ، وَلَيْسَتْ لِحُصُولِ الفِعْلِ مِنَ الجَانِبَيْنِ، وَنَظِيرُهَا: عَافَاهُ اللَّهُ »[2]. وقال الزمخشري:« فإن قلت: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلاناً حالفته، وتقاسما تحالفا. ومنه قوله تعالى تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ. قلت: كأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، وقالا له: أتقسم بالله إنك لمن الناصحين، فجعل ذلك مقاسمة بينهم. أو أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها »[3]، و«"قاسمهما" أي قَبِلا القسم ودخلا فيه »[4]. وواضح، هنا، أنّ إبليس كان كاذباً في قَسَمه، لأنه أراد الإغواء، لكنّ القرآن استخدم القسم بدلاً من الحلف، وذلك لأنه أول قسم في التاريخ حدث بين إبليس وبين آدم وحواء، فأجراه التعبير القرآني مجرى الأصل، ولأنه ورد في القرآن المكي الذي اعتاد أن يورد فيه مصطلح القسم باطّراد تام.

إنّ لفظ "القسم" يطّرد في معنى اليمين الصادقة، حتى ولو كان المُقسِم لا يعلم أنه على خطأ، أي أنه يُقسم لاعتقاده الصواب فيما يقول ويظن. ولذلك ذكر القرآن الكريم "القسم" في حق أولئك الذين أقسموا على أنهم على حق، بناء على ما توارثوه عن أجدادهم. وإذا كان هذا المصطلح يطرد في الخطاب المكي، إلاّ أنه قد ورد في المدني أيضاً ولكنه قليل، وذلك لأنَ القرآن الكريم يعتمد ويهتم بالمعنى قبل أي شيء آخر، فإذا كان المعنى يطلب استخدام لفظ "قسم" لم يتأخر عن ذلك، ولو كان فيه بعض الخروج عن القاعدة العامة المعتادة.

---

[1] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص219.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج8، ص60.

[3] - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص95.

[4] - الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، ج7، ص4087.

2 - منظومة المسالك:

نجد فيها ثلاث مفردات تستخدم كل واحدة بشكل خاص، وهي: الصراط (السراط)، والطريق، والسبيل. والفرق بين الصراط والطريق: أن يرد الصراط في القرآن المكي أكثر مما يرد في القرآن المدني؛ وقد تكرر خمساً وأربعين 45 مرة، مقترناً بصفة "مستقيم" في جل آياته، وورد في بعضها منفرداً. ودلالة لفظ "الصراط"، واحدة في كل القرآن، وهي الإسلام على ما يقرره المفسرون كقول القرطبي:« وَمَعْنَاهُ: أَدِمْ هِدَايَتَنَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُهْدَى إِلَى الطَّرِيقِ ثُمَّ يُقْطَعُ بِهِ. وَقِيلَ: هُوَ صِرَاطٌ آخَرُ، وَمَعْنَاهُ العلم بالله عز وجل والفهم عنه »[1]. وقال ابن خالويه:« والصراط: الطريق الواضح والمنهاج، وهو ههنا عبارة عن دين الإسلام »[2]. غير أنه يورد تفسيراً آخر لمعنى الصراط قائلاً:« سئل الحسن البصري عن الصراط المستقيم فقال: هو - والله - أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ الحجة بعد النبي (ص). وقال أبو العالية في قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} قال: أبو بكر وعمر »[3].

أما **الطريق**: فيرد مذكراً ومؤنثاً؛ أي بصيغة "طريقة"، ويرد جمعاً "طرائق"، ليدل بذلك على تعدد معانيه. بحيث يحمل دلالة الاستقامة، ودلالة الاعوجاج والانحراف عن الحق. كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾(النساء:168 - 169)، ﴿**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى**﴾(طه:63)، ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا**﴾(طه:104)، ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ**﴾(المؤمنون:17)، ﴿**قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾(الأحقاف:30).

ويأتي الصراط متبوعاً في أكثر الأحيان بلفظ "مستقيم"، ليدل على أن طريق الحق والصواب أحسن الطرق والسبل، وأقربها إلى النجاة وإلى الخير؛ فالطريق المستقيم يؤدي بوضوح ويسر إلى الغاية، أما الطريق غير المستقيم، فهو ملتوٍ أو معوجّ، فهو بهذا لا يؤدي بيسر إلى الغاية، وقد يتيه المرء أثناء السير، فلا يصل إلى القصد أبداً.

غير أنّ التعبير القرآني لم يورد مقابلاً للصراط المستقيم؛ أي لم يقل: الصراط المعوجّ، أو غير المستقيم، وكأنّ الصراط مستقيم في الأصل:« والسِّراطُ: السَّبِيلُ الْوَاضِحُ »[4]. و« السراط: الطريق المستسهل، أصله من سرطت الطعام وزردته: ابتلعته، فقيل: سراط، تصورا أنه يبتلعه سالكه، أو يبتلع سالكه »[5]. إنما أورد لفظاً آخر هو: "السُبل" في قوله سبحانه:﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾(الأنعام:153). غير أنّ إيراد هذه المفردة تختلف دلالتها بين الإفراد والجمع، فالمفرد منها يرد بأكثر من معنى؛ إذ فيه معنى الطريق المستقيم« السبيل: الطريق الذي فيه سهولة... لأن اسم الجنس إذا أطلق يختص بما هو الحق، وعلى ذلك:{ثم السبيل يسره}[عبس/20]»[6]. وفيه معنى المؤاخذة، كما في قوله تعالى:﴿**وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ**﴾

---

[1] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص148.

[2] - ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، تح: محمد إبراهيم سليم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د ط، د.ت، ص43

[3] - المرجع نفسه، ص45

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص313.

[5] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص471.

[6] - المرجع نفسه، ج1، ص456.

سَبِيلِ﴾ (الشورى:41)، ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ**﴾(الشورى:42). ويحمل معنى المسافر المنقطع عنه ماله، أو البعيد عن مسكنه، إذا سُبق بلفظ "ابن"« وابن السبيل: المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى السبيل لممارسته إياه»[1]، ومن ثمّ، يصير مستخَدماً في فضاء تشريعي، هو مجال صرف الصدقات، بحيث يكون ابن السبيل أحد الذين يحق لهم الأخذ من مال الصدقات.

ويظهر أنّ مفردة "السبيل" مادة غنيّة بمعانيها، وصيغها، تدل على المساحة الدلالية الواسعة في أداء المعاني المقصودة، من غير الجنوح إلى استعمال مفردات أخرى؛ قد يتخم بها المعجم القرآني من غير داعٍ موضوعي، ولا بلاغي. وهذا الذي يلاحظ في مفردات قرآنية أخرى، حيث شكّل منها التعبير القرآني صيغاً كثيرة، للدلالة على معانٍ مختلفة؛ شرعية واجتماعية وعسكرية، مثل مادة "ظهر"، حيث فيها معنى الإعلان، والإطّلاع، والغلبة، والظِهار، والتعاون، والرفض، والتواصل والتقارب، ووقت الظهيرة.. إلخ.

3 - **منظومة الفهم**: فيها ثلاث مفردات؛ **النهى، الألباب، العقل**: ولم يرد في القرآن الكريم مصدر "عقل" مطلقاً، ولكن ورد الفعل منه بكثرة، سيّما الفعل المضارع؛ مثبتاً ومنفياً بصيغة الجمع غالباً. أما "النُهى" و"الألباب" فلم تردا إلا اسمين مُعرّفيْن، وبصيغة الجمع فقط. قال تعالى:﴿**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**﴾(طه:54). ﴿**أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**﴾(طه:128).

ولم يرد هذا اللفظ في غير هذين الموضعين. أما اللب فهو« العقل، سمّي بذلك لأنه يمثّل جوهر الإنسان وحقيقته وجمعه ألباب »[2]. قال تعالى:﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾(البقرة:179)، ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾(يوسف:111). أما "النهى" فقال فيها الراغب الأصفهاني:« والنهية: العقل الناهي عن القبائح. جمعها: نهى»[3].

أما لفظ "الألباب" فيرد مسبوقاً دوماً بلفظ "أولي"؛ وقد ورد ست عشرة 16 مرة في كلا الخطابين في البقرة وآل عمران والمائدة والرعد والطلاق، وفي يوسف، وإبراهيم، وص، وغافر، والزمر. فمن الخطاب المدني﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾(الطلاق:10)، ومن الخطاب المكي، قال تعالى:﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(الزمر:9). وكأن هذا التقسيم هندسة إعجازية في إيراد هذه المفردة، إذ نجد خمس سور مكية فيها لفظ "الألباب" مقابل وروده في خمس سور مدنية أيضاً، وكأن الأمر مقصود للدلالة على أن العقل واجب لكل الناس إذا أرادوا الحياة الدنيا والحياة الآخرة، فالكافر يحتاج إلى عقل لكي نخاطبه وندعوه عن طريقه، والمؤمن يحتاج إلى عقل أيضاً ليفهم ما يلقى إليه من أحكام دينه.

وأما مادة "عقل" فقد وردت كثيراً؛ في تسع وأربعين 49 آية، بصيغة الفعل فحسب، وجلّ ذلك في المضارع مثل قوله تعالى:﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾(البقرة:44)، ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾(الملك:10)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص456.

[2] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج4، ص140.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص457.

(الحجرت:4)، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(الزخرف:3)، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(العنكبوت:43). والآية الوحيدة التي ورد فيها هذا الفعل في الزمن الماضي هي قوله جلّ وعلا:﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾(البقرة:75).

وفي تعريف العقل نورد ما يلي: قال الأصفهاني:« العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل »[1]. وقال ابن منظور:« العَقْلُ: التَّثَبُّت فِي الأُمور. والعَقْلُ: القَلْبُ، والقَلْبُ العَقْلُ، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلًا لأَنه يَعْقِل صاحبَه عَنِ التَّوَرُّط فِي المهالِك أَي يَحْبِسه، وَقِيلَ: العَقْلُ هُوَ التَّمْيِيزُ الَّذِي بِهِ يَتَمَيَّزُ الإِنسان مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَيُقَالُ: لِفُلان قَلْبٌ عَقُول، ولِسانٌ سَؤُول، وقَلْبٌ عَقُولٌ فَهِمٌ؛ وعَقَلَ الشيءَ يَعْقِلُه عَقْلًا: فَهِمه »[2]. وقال ابن فارس:« (عَقَلَ) العَيْنُ وَالقَافُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُنْقَاسٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عُظْمُهُ عَلَى حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ أَوْ مَا يُقَارِبُ الحُبْسَةَ. مِنْ ذَلِكَ العَقْلِ، وَهُوَ الحَابِسُ عَنْ ذَمِيمِ القَوْلِ وَالفِعْلِ »[3]. وقال ابن عاشور: « النُهى... جَمْعُ نُهْيَةٍ: اسْمُ الْعَقْلِ. وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ النُّهَى مُفْرَدًا بِمَعْنَى الْعَقْلِ »[4].

ولا نجد في كل هذه التعريفات، تصريحا واضحاً عن الفرق بين العقل والنهى واللب، ولا تلميحاً إلى سبب عدم ورود مصدر "عقل" في التعبير القرآني. غير أنّ الملاحظ هو ورود "النهى" مرتين فقط في سورة واحدة هي "طه"، وتأتي مقترنة بلفظ "آيات". أما "الألباب" فلا ترد إلاّ جمعاً، موزعة بالتساوي على الخطابين المكي والمدني، إلاّ أنه يأتي مقترناً في كثير من الأحيان بلفظ "ذكرى"، أو فعلها "يتذكر".

4 - **منظومة القرابة**: فيها أربع صيغ هي: آل، أولو، وأهل، وأصحاب.

قال ابن منظور:« وآل الرجل: أهله وعياله.. والآل: آل النبي صلى الله عليه وسلم.. من اتبعه قرابة كانت أو غير قرابة، وآله قرابته متّبِعاً أو غير متّبِع، وقالت طائفة: الآل والأهل واحد »[5]. و« الأهل: أهل الرجل، عشريته وذوو قرباه، والجمع: أهلون، وأهالٌ، وأهالٍ، وأهْلات، وأَهَلات.. والأهالي جمع الجمع.. وأهل البيت سكانه، وأهل الرجل: أخص الناس به، وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم: أزواجه وبناته وصهره، وقيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ورجاله الذين هم آله. وأهل الرجل، وأهلته: زوجه »[6]. وقال أيضاً:« صحب: صحِبه يصحَبه صُحبة، وصحابة، وصاحبه: عاشره. والصحْب جمع الصاحب، والأصحاب، جماعة الصحْب. والصاحب المعاشر.. والجمع أصحاب، وأصاحيب، وصحبان، وصِحاب، وصحابة »[7].

وقال العسكري:« الأَهْل يكون من جِهَة النّسَب والاختصاص فَمن جِهَة النّسَب قَوْلك أهل الرجل لِقَرَابَتِهِ الأدنين وَمن جِهَة الِاخْتِصَاص قَوْلك أهل الْبَصْرَة وَأهل الْعلم والآل خَاصَّة الرجل من جِهَة الْقَرَابَة أَو الصُّحْبَة تَقول

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص110.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج11، مادة عقل، ص458 - 459.

[3] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص69.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص335.

[5] - ابن منظور، لسان العرب، ج11، مادة: أول، ص32.

[6] - المرجع نفسه، ج11، مادة: أهل، ص28.

[7] - نفسه، ج1، مادة: صحب، ص519.

آل الرجل لأَهله وَأَصْحَابه وَلَا تَقول آل الْبَصْرَة وَآل الْعلم وَقَالُوا آل فِرْعَوْن أَتبَاع وَكَذَلِكَ آل لوط وَقَالَ الْمبرد إِذا صغرت الْعَرَب الآل قَالَت أهل فَيدل على أَن أصل الآل الْأَهْل »[1]. ولكن القرآن قال: أولو العلم، وليس أصحاب العلم، ولا أهل العلم، وقال: أولو النهى، وأولو الألباب، وذلك لقيمة العلم، والعقل في حياة الناس.

وقد ورد مصطلح "آل" مع بعض الأنبياء والرسل[2]، وورد مع فرعون كثيراً[3]. غير أنّ التعبير القرآني لم يقل ولو مرة واحدة: أهل فرعون، أو أصحاب فرعون؛ وكأنّ "آل" أقوى في الدلالة من "أهل"، و"أصحاب". جاء في مخطوطة الجمل:« آل الرجل: أهله وخص الآل بالإضافة إلي أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة كما غلبت إضافته إلي ما فيه الشرف فلا يقال آل الإسكاف »[4]. وهو أمر واضح في كل الآيات التي ذكر فيها هذا المصطلح، بحيث أسند إلى أناس هم بمكان رفيع من حيث موقعهم في أقوامهم. بل يكون الأمر أوضح إذا أضفنا بعض التعابير المعاصرة، التي توظف مصطلح "آل" للدلالة على العظمة والشرف والمكانة الرفيعة في المجتمع؛ مثل: آل البوربون(العائلة الملكية الفرنسية المشهورة في القرن السادس عشر)، وآل سعود، وآل كنيدي، وغيرها.

إذاً نستطيع القول، إن هذه المصطلحات مستخدمة في التعبير القرآني، بدلالة خاصة في كل منها، فما كان مضافاً إلى معنوي، أو كان صفة ثابتة في الشخص، عبّر عنه بلفظ "آل"، وما كان مضافاً إلى شيء مادي، أو كان بمثابة الصحبة له، عبّر عنه بلفظ "أصحاب"؛ مثل: أصحاب الجنة، وصاحب الحوت، وأصحاب الأيكة، وصاحب الجنّتين.. وهكذا.

غير أنّ لفظ "آل" - على الخصوص - إذا ورد مفرداً دل على شيء محدد لا يعدوه، وهو كما ذكرنا سابقاً، أما إذا ورد بصيغة الجمع؛ أي "أولو" اتسع فضاؤه أكثر ليشمل المعنويات، والتشريعيات، كما في قوله تعالى:﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(البقرة:269)، ﴿**وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ**﴾(النساء:8)، ﴿**وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ**﴾(الأنفال:75)، ﴿**وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ**﴾(التوبة:86)، ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ**﴾(النور:22)، ﴿**قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾(النمل:33)، ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾(الأحقاف:35).

والخلاصة هي أن التعبير القرآني كعادته في كل مرة، يوظف المفردات بميزان دقيق، وبنسب معلومة، وبدلالات محددة في فضاءات خاصة، وذلك للدلالة على أن هذا القرآن، نسيج وحده، ولا يمكن بحال أن يقلّد، إذ فيه من تخصيص الدلالات، وتحديد المجالات، وضبط المعاني، ما لا يستطيع الإنسان أن يفعل مثله، لأن الكُتّاب يوظفون كثيراً من ألفاظ اللغة، سيما المتشابهة بالمعنى نفسه، وبنوع من التعميم، كما رأينا ذلك في كثير من المتشابهات والمترادفات التي لم يستطع الدارسون - في بعض الأحيان - الوقوف على الفرق بينها.

---

[1] - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص281.

[2] - هم: موسى، هارون، إبراهيم، عمران، يعقوب، لوط، وداوود؛ عليهم السلام.

[3] - وردت عبارة "آل فرعون" أربع عشرة 14 مرة، جلّها في الخطاب المكي.

[4] - حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل، ج1، ص126.

وفي المبحث التالي والأخير، سنعرض لظواهر أخرى تخص مجال التنوع الصرفي، في ألفاظ القرآن الكريم، وسنرى كذلك الدقة الكبيرة في انتقاء صيغ المفردات الدالة على المعنى المقصود، واختيار صيغة بدلاً من أخرى، ولو كانت قليلة أو نادرة الاستعمال في كلام الناس عادة.

المبحث الرابع: فضاء مفردات التنوع الصرفي

لهذا الفضاء مفردات كثيرة، ذات تنوع صرفي متعدد، يتراوح بين التنوع في الأفعال، والأسماء، بما فيها الجوامد، والمشتقات. ولكل نوع دلالة مطّردة، في فضاء الزمن؛ أي المكي، وفي السياق الدلالي لمفهوم الآية. وأول ما نبدأ به في هذا المجال، مثال يبدو بسيطا في تشكيله، بل لا يبدو مختلفاً عند كثير من المتعلمين؛ وهو استخدام القرآن الكريم لمفردة "بلد"، بصيغة المفرد، وبصيغة الجمع "بلاد"، بحيث تطّرد كل واحدة في مجال خاص بها[1].

وقد لفت انتباهنا عرض أحد الباحثين استدراكات العلماء على بعض الأقوال في اطّرادات دلالة الألفاظ القرآنية، غير أنّ هذه الاستدراكات تحتاج بدورها إلى استدراك آخر؛ إما بتصحيح، أو بزيادة وتفصيل؛ من ذلك لفظ "الظن" الذي اعتبره الإمام مجاهد أنه يأتي في القرآن بمعنى اليقين، فاستدرك عليه ابن جرير بأنّ هذا اللفظ قد يجيء بمعنى الرجاء والطمع[2]. والناظر في قول ابن مجاهد - إن قصد ذلك - أنّ دلالة الظن في القرآن الكريم، ليس كل لفظ فيه مادة "ظنّ"، إنما الفعل منه فقط، أما المصدر فأمره مختلف. إنّ الآيات التي ورد فيها مصدر "الظنّ"؛ نكرة أو معرفة تطّرد فيها جميعاً دلالة الشك، أو الرجم بالغيب. والآيات هي عشر نذكر منها قوله تعالى:﴿**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**﴾(النساء:157)، ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ**﴾(الأنعام:116)، ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾(يونس:36)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾(الحجرات:12).

وإننا سنبدأ بمثال قد لا يثير اهتماماً لدى القارئ، لتقاربه في صيغتيْه وهما: (**البلد**) و(**البلاد**)؛ فالأولى يقصد بها مكة أو البلد الحرام، أما الثانية فيقصد بها مجرد بلد، أو قرية، أو مجتمع بشري ما. وقد ورد لفظ "بلاد" مقترناً بالفساد والهلاك، وبإفساد أهلها فيها، ومن ثَمّ اقترن بعذابهم بما اقترفوه من آثام، مثل قوله تعالى:﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ**﴾(آل عمران:196)، ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ**﴾ (غافر:04)، ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ**﴾(ق:36)، و﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾(الفجر:6 - 8)، ﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ**﴾(الفجر:10 - 11). أما "البلد" فيرد مقترناً بالصلاح والبركة والنماء، وكذلك الأمر في لفظة "بلدة" بحيث ترد في القرآن المكي، وتدل على الخير والنماء. والفرق بينهما - أيضاً - أنْ ترد الأولى في مجال الرحمة والخير والبركة، وترد الثانية في مجال العقاب والشر. ونجد ذلك في الآيات المكية والبلاد جمع بلد، ولم يرد في القرآن جمع بلدان مطلقاً.

أما اللفظة الثانية فوردت في القرآن المكي أيضاً، مثل قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾(الأعراف:57)، ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ**

---

[1] - عرضنا لهذين اللفظين منفردين عن بقية المفردات الأخرى المصنفة تحت عنوان شامل، لأنهما مختلفان من حيث الاشتقاق، فهما جامدان، ولذلك لم ندرجهما تحت أي تصنيف من التصنيفات الأخرى.

[2] - محمد إقبال العروي، اطّرادات أسلوبية في الخطاب القرآني، ص58 وما بعدها.

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾(الأعراف:58)، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾(إبراهيم:35)، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾(البلد:1 - 2)، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾(التين:03).

وقد ورد الاستثناء في سورة البقرة التي هي مدنية حيث قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾(البقرة:126)، وهي السورة المعروف عنها فرادتها في هذا المجال، إذ إنها مستثناة عند العلماء حين البحث عن خصائص المكي والمدني. وهذه الآية تروي قصة سيدنا إبراهيم، والقصص من خصائص العهد المكي، وُجد بعضه في البقرة التي هي من العهد المدني. وقد ورد هذا اللفظ هنا نكرة، على عكس كل الآيات السابقة.

تقول عائشة عبد الرحمان:« حيثما جاء "هذا البلد" في القرآن الكريم، مفرداً معرّفاً بـ: "اَلْ" مشاراً إليه بهذا، فإنّ الإشارة تعني أنّ اَلْ للعهد، وأنّ هذا البلد هو مكة »[1]. وقد وردت هذه العبارة في القرآن الكريم بشكل آخر هو: هذه البلدة. وفي كِلا التعبيرين دلالة واحدة على البيت العتيق.

وكذلك الأمر مع لفظة "بلدة"، إذ ترد في القرآن المكي، وترد في مفهوم الخير والنماء، والبركة. ووردت في خمسة مواضع من القرآن المكي، هي قوله تعالى:﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾(الفرقان:49)، ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾(النمل:91)، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(سبأ:15)، ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(الزخرف:11)، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾(ق:9 - 11).

وفي لسان العرب، ورد مفهوم هذه الألفاظ كما يلي:« البلدة والبلد: كل موضع أو قطعة مستحيزة، عامرة كانت أو غير عامرة.. والجمع بلاد وبلدان. قال بعضهم: البلد جنس المكان كالعراق والشام، والبلدة الجزء المخصص منه، كالبصرة ودمشق. والبلد، مكة تفخيماً لها. والبلد والبلدة: التراب. والبلد: ما لم يحفر في الأرض ولم يوقد فيه. والبلدة الأرض، والبلد المقبرة »[2].

يقول ابن عاشور في هذا الصدد:« البلد: جانب مِنْ متسعٍ مِنْ أرضٍ عامرة كانت كما هو الشائع أم غامرة... وأُطلِق هنا على جانب من الأرض مجعولة فيه بيوت من بناء وهو بلدة مكة. والقسَم بالبلدة مع أنها لا تدل على صفة من صفات الذات الإلهية ولا من صفات أفعاله كناية عن تعظيم الله تعالى إياه وتفضيله »[3]. و« البلد والبلدة: كل موضع من الأرض عامراً كان أو خلاء، والجمع بلاد وبلدان، ولم يرد في القرآن إلا الجمع بلاد. وجاء البلد والبلدة في مواضع من القرآن مراداً بهما مكة »[4]. ولفظ "بلاد" جمع وليس مفرداً، غير أن كثيراً من الشعراء والكُتّاب والسياسيين يستخدمونه مفرداً، مثلما فعل مفدي زكريا حين قال في إلياذة الجزائر:

---

[1] - عائشة عبد الرحمان، التفسير البياني، ص169.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج3، مادة بلد، ص94.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص346 - 347.

[4] - حسن أحمد الجمل، مخطوطة الجمل، مجلد1، ص212.

فيا أيها الناس... هذي بلادي ومعبد حبّي، وحلم فؤادي
بلادي، أحبّك، فوق الظنـــــــون، وأشدو بحبك في كل نادي[1]

وكرر ذلك في آخر مقطع منها، فقال:

بلادي، بلادي، الأمان الأمان أغنّي عـلاك، بأيّ لـــسان ؟
إليك صلاتي، وأزكى سلامي بلادي، بلادي، الأمان الأمان![2]

وقول حافظ إبراهيم:

لا تندبيني فإنّني أقضي وتحيا بلادي[3]

أما بقية المفردات الواردة في الخطابين المكي والمدني معاً، بصيغ مختلفة فأوردناها في التصنيف التالي:

1 – فضاء المصادر: سنعرض لعيّنات من المصادر الموظّفة في الخطابين معاً، مركزّين على الألفاظ الدالة على الحياة العقدية والتشريعية الأكثر بروزاً في هذا الخطاب؛ وذلك للتدليل على نوعية المفردات المميّزة له، وطريقة تمظهرها.

– مادة "أمن": فيها مصدر واحد لا غير؛ هو "إيمان". قال ابن فارس:« (أَمَنَ) الهَمْزَةُ وَالمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، وَالآخَرُ التَّصْدِيقُ »[4]. وقال الراغب:« والإيمان يستعمل تارة اسما للشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ذلك:{الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون} [المائدة/69]، ويوصف به كل من دخل في شريعته مقرا بالله وبنبوّته (ص)... وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق »[5]. وهو من الناحية الشرعية الاصطلاحية« التصديق اليقيني بوحدانية الله عز وجل وكماله وبالوحي والرسل والملائكة واليوم الآخر، بحيث يكون له السلطان على الإرادة والوجدان، فيترتب عليه العمل الصالح »[6].

غير أنه ورد بدلالة غير صريحة في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ**﴾(الحشر:9)؛ « وَالإِيمانَ غُمُوضٌ إِذْ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولا لفعل تبوّؤوا، فَتَأَوَّلَهُ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يُجْعَلَ الْكَلَامُ اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً بِتَشْبِيهِ الْإِيمَانِ بِالْمَنْزِلِ وَجَعْلِ إِثْبَاتِ التَّبَوُّءِ تَخْيِيلًا فَيكون الفعل تبوأوا مُسْتَعْمَلًا فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ. وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ جَعَلُوا المَعْطُوفَ عَامِلًا مُقَدَّرًا يَدُلُّ عَلَيْهِ الكَلَامُ، تَقْدِيره: وَأَخْلَصُوا الإِيمَانَ »[7]. ومع ذلك، فالدلالة المعجمية للفظ "إيمان" لا تتغيّر إلى مدلول آخر؛ أو إلى فضاء مخالف، إنما تبقى كما هي.

---

[1] - مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1987، ص37.

[2] - المرجع نفسه، ص118.

[3] - حافظ إبراهيم، الديوان، سلسلة شعراء العرب، المركز الثقافي اللبناني، د ط، د ت، ص75.

[4] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص133.

[5] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص49.

[6] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص15.

[7] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص90.

- مادة "**كفر**"؛ يستخدم التعبير القرآني من هذه المادة ثلاثة مصادر هي: **الكُفر، والكُفران، والكُفور**. وكل صيغة من هذه الصيغ تحتل مسافة معيّنة من الخطاب القرآني، لكون دلالة هذا اللفظ هي الجزء المقابل لمصطلح الإيمان، ولذلك كثر إيرادها في الخطابين معاً، ولكن بنسب متفاوتة، كما يظهر من العرض التالي:

إنّ أول ما نبدأ به، هو التعريف اللغوي، لندرك مفهوم "الكفر" في أصل الوضع عند أصحاب اللغة. يقول الأصفهاني:« وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى:{فلا كفران لسعيه}[الأنبياء/94]. وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعا قال:{فأبى الظالمون إلا كفورا}[الإسراء/99]، {فأبى أكثر الناس إلا كفورا}[الفرقان/50] »[1]. ثم يقول:« والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة أو الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كفر لمن أخل بالشريعة، وترك ما لزمه من شكر الله عليه »[2]. وهو بذلك« نقيض الإيمان، أي عدم التصديق بآيات الله وأحكامه، وبالتالي عدم العمل بها »[3]. فالكفر صار عنوانا إسلامياً خاصاً بجاحد وجود الله تعالى، وما جاء عنه.

وقد وردت صيغة "كُفْر" في الخطابين معاً خمساً وعشرين 25 مرة، بصيغ متعددة؛ أي نكرة ومعرفة، ومرفوعة ومنصوبة ومجرورة، وقد وردت في مقابل لفظ "الإيمان، "وفي ذلك دلالة على أهمية هذا الأمر وخطورته في حياة الناس. وجاء بمعنى الزيادة فيه؛ على كعس صيغتيْ "كفران"، و"كُفور". قال تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾(آل عمران:90). ومن الآيات التي وردت فيها صيغة "كُفْر" قوله تعالى:﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾(البقرة:108)، ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾(آل عمران:176)، ﴿**كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ**﴾(التوبة:17)، ﴿**مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ**﴾(النحل:106)، ﴿**إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾(الزمر:7). أما صيغة "كُفور" فوردت ثلاث مرات، في السور المكية فقط. وأما صيغة "كفران" فلم ترد إلا مرة واحدة هي قوله عز وجل:﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ**﴾(الأنبياء:94). فهذه الصيغة جاءت للدلالة على« الحقوق والنعم التي تخص المؤمن، على توكيد المعنى، جزاء لعمله الصالح »[4].

– مادة "**ضر**": ورد فيها خمسة مصادر مختلفة هي: ضَرّ، ضُرّ، ضَرر، ضِرار، ضَرّاء. وقبل أن نذكر شيئاً عن هذا، نقول ليس من العبث أن ترد كل هذه الصيغ إذا كان المعنى واحداً، إنما الأصوب أن يقال إن لكل صيغة مقاماً، وفضاء تدور فيه، فقد« تنبّه كثير من القدامى إلى ما في هذه المادة من إطلاق في المعنى، فهي أقرب إلى الوصف (لنوع البلاء أو أنواعه التي تقع) منها إلى الاسم الذي يدل دلالة مباشرة على شيء »[5]. ومادة "ضر" تحمل ثلاثة معان كما ذكر ذلك ابن فارس:« (ضَرَّ) الضَّادُ وَالرَّاءُ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: الْأَوَّلُ خِلَافَ النَّفْعِ، وَالثَّانِي: اجْتِمَاعُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ

---

[1] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص304.

[2] - المرجع نفسه، ج2، ص304.

[3] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص29.

[4] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، ص311.

[5] - المرجع نفسه، ص283.

الْقُوَّةُ »[1]. وقال ابن منظور:« الضَّرُّ والضُّرُّ لُغَتَانِ: ضِدُّ النَّفْعِ. والضَّرُّ الْمَصْدَرُ، والضُّرّ الِاسْمُ، وَقِيلَ: هُمَا لُغَتَانِ كالشَّهْد والشُّهْد، فإذا جَمَعْتَ بَيْنَ الضَّرّ وَالنَّفْعِ فَتَحْتَ الضَّادَ، وإذا أَفردت الضُّرّ ضَمَمْت الضَّادَ إذا لَمْ تَجْعَلْهُ مَصْدَرًا، كَقَوْلِكَ: ضَرَرْتُ ضَرّاً؛ هَكَذَا تَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ »[2]. وذلك ما سنوضحه فيما يلي:

- صيغة: **ضُرّ**: وردت تسع عشرة 19 مرة، كلها في الخطاب المكي. ومعنى:« الضُر: سوء الحال؛ إما في نفسه لقلة العلم والفضل والعفة؛ وإما في بدنه لعدم جارحة ونقص؛ وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه، فهو محتمل لثلاثتها»[3]. قال تعالى:﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ**﴾(الأنعام:17)، ﴿**وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا**﴾(يونس:12)، ﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ**﴾(يوسف:88)، ﴿**وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ**﴾(الروم:33). وغيرها. وترد هذه الصيغة منفردة، أو في مقابل لفظ "خير"، أو لفظ "رحمة". وتسبق بفعل "مسّ" للدلالة على معنى الألم والعسر اللذين يصيبان الإنسان في حياته.

– صيغة **ضَرّ**: وردت إحدى عشرة 11 مرة، في الخطابين معاً، وتأتي نكرة. قال الراغب:« والضراء يقابل بالسراء والنعماء، والضر بالنفع »[4]. ومن ذلك قوله تعالى:﴿**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**﴾ (المائدة:76)، ﴿**قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا**﴾(الفتح:11)، ﴿**فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**﴾(سبأ:42)، ﴿**قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا**﴾(الجن:21). ويلاحظ أن صيغة "ضَرّ" تأتي في مقابل لفظ "نفع" في جل المواطن، عدا آية الجن. مع ملاحظة تناوب مجيء اللفظين، فمرة يسبق "الضر"، ومرة أخرى يسبق "النفع".

- صيغة **ضرر**: وردت مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(النساء:95). وفي الواقع، فإن هذه الصيغة هي نفسها صيغة "ضَر"، مع فكّ الإدغام. فالضرر هنا« المَرَضُ وَالعَاهَةُ مِنْ عَمًى أَوْ عَرَجٍ أَوْ زَمَانَةٍ، لِأَنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ لِمَصَادِرِ الْأَدْوَاءِ وَنَحْوِهَا، وَأَشْهَرُ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْعَمَى، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلْأَعْمَى: ضَرِيرٌ، وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ لِلْأَعْرَجِ وَالزَّمِنِ »[5]. وقال ابن منظور:« وَالضَّرَر مَصْدَرُ ضَرِرَ- بِكَسْرِ الرَّاءِ- مِثْلَ مِثْلَ مَرِضَ، وَهَذِهِ الزِّنَةُ تَجِيءُ فِي الْعَاهَاتِ وَنَحْوِهَا، مِثْلَ عَمِيَ وَعَرِجَ وَحَصِرَ، وَمَصْدَرُهَا مَفْتُوحُ الْعَيْنِ مِثْلَ العَرَجِ، وَلِأَجْلِ خِفَّتِهِ - بِفَتْحِ الْعَيْنِ- امْتَنَعَ إِدْغَامُ الْمِثْلَيْنِ فِيهِ، فَقِيلَ: ضَرَرٌ بِالْفَكِّ، وَبِخِلَافِ الضُّرِّ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ ضَرَّهُ فَهُوَ وَاجِبُ الْإِدْغَامِ إِذْ لَا مُوجِبَ لِلْفَكِّ. وَلَا نَعْرِفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِطْلَاقَ الضَّرَرِ عَلَى غَيْرِ الْعَاهَاتِ الضَّارَّةِ »[6].

– صيغة **ضرّاء**: وردت تسع مرات. وهي في مقابل "بأساء"، و"سرّاء"، و"رحمة"، و"نعماء"، كما في قوله تعالى: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾(البقرة:177)، ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾(آل عمران:134)،

---

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص360.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص482.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص5.

[4] - المرجع نفسه، ج2، ص5.

[5] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص171.

[6] - المرجع نفسه، ج5، ص171.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾(يونس:21)، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾(هود:10). ونلاحظ هنا أن هذه المفردات مساوية للفظ "ضراء" في الوزن، ما عدا "رحمة"، ولكن معظمها يصب في فضاء واحد؛ هو فضاء اليسر، إلاّ "بأساء" فهي نظير "ضراء". وهذا دليل على أن التعبير القرآني لا يوظف المفردات بناء على شكلها، أو وزنها، إنما بناء على المعنى المراد تبليغه للمتلقي.

لقد أتى التعبير القرآني بمصدر "ضرّاء" للدلالة على« حال من الضرر الشديد الذي يقع على النفس أو الجسد أو المال أو الولد، أو عليها كلها جميعاً »[1]، من غير تحديد لنوع الضر، وما المفردات الأخرى المصاحبة لها في الآيات المذكورة، وفي غيرها، إلاّ دليل على ما ذهبنا إليه.

ولم يوظف التعبير القرآني من هذه المادة صيغة "مضرة"، ولا صيغة "إضرار"، فالأولى مصدر ميمي، والثانية مصدر صريح من الفعل الرباعي "أضرّ". والسبب - والله أعلم - أنّ صيغة "مضرّة" تدل على شيء محدد، أو على نوع الضرّ، وذلك غير مقصود من الخطاب القرآني، إنما المقصود هو وقوع الضر كيفما كان نوعه، أو شدته. أما صيغة "إضرار" فهي صيغة التعدية، ولا حاجة لاستخدامها ما دام صيغة "ضُرّ" على وزن "فُعْل" تقوم مقامها، وهي الأصل في المصادر الصريحة. فالتعبير القرآني وظّف المصدر الأشهر، والأدلّ على المقصود.

ويوظّف التعبير القرآني الصيغ المتنوعة للمادة الواحدة، بناء على ما يقتضيه المقام، بكل ما يحمله من دلالات؛ تارخية، أو نفسية، أو اجتماعية. ولكل صيغة مستخدمة في الخطاب القرآني فضاؤها الخاص، ودلالتها المحددة. فليس من باب التنوع الأسلوبي، والتفنن البلاغي المحض يورد القرآن هذه الصيغ كلها، وبصورة مطّردة، إنما لغرض دلالي، ومقصد دقيق في المعاني المراد تبليغها.

ولا يزال في النص القرآني شواهد لا تحصى من هذه الصيغ، والتي تدل دلالة واضحة على هذا النسيج، وهذا النهج الفريد الذي انتهجه التعبير القرآني في تبليغ آياته، والكشف عن دلالاته المختلفة باختلاف هذه الصيغ. وسنحاول في المبحث التالي استكمال عرضنا لمواد أخرى من الأسماء المشتقة، لندلل على أن المنهج هو نفسه في كل مفردات القرآن الكريم.

2 - **فضاء المشتقات**: لقد وظّف التعبير القرآني طائفة من المشتقات المتنوعة، تسير على النهج نفسه مع المفردات الأخرى التي سبق عرضها. وذلك لأن الأسلوب القرآني هو نفسه، سواء في الخطاب المكي أم في الخطاب المدني، رغم الاختلاف الواضح بين الخطابين. وسنختار بعض العيّنات من هذه المشتقات.

2 - 1 - مادة (**أمن**): يوظف منها على وجه الخصوص مصطلح "المؤمنون"، لأن المفرد المعرّف "المؤمن" اسم خاص بلفظ الجلالة، أي هو من أسماء الله الحسنى؛. والمؤمن« أصله من الأمان قال الله:{السلام المؤمن المهيمن}. وأصله من الأمان كأنه آمن عباده أن يظلمهم، أي أعطاهم الأمان على ذلك، لأنه العادل في حكمه »[2]. وقد ورد خمس عشرة مرة نكرة كلها، ويدل على الإنسان؛ منها قوله تعالى:﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾(لبقرة:221)، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾(النساء:92)، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾(التوبة:10)، ﴿وَمَنْ أَرَادَ

---

[1] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآ، ص284.

[2] - أبو حاتم الرازي، الزينة في الكلمات العربية الإسلامية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط1، 1994، ص238.

الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾(الإسراء:19)، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾(السجدة:18)، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾(التغابن:2).

أما صيغة الجمع فكثيرة الورود؛ نكرة ومعرفة، مرفوعة، ومنصوبة، ومجرورة، كما في قوله عز وجل:﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(المائدة:88)، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾(سبأ:41)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:278)، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:158)، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(الحجرات:10)، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المجادلة:10)، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:223)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾(البروج:10)، ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(النور:47)، ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾(البروج:7).

والملاحظ في هذه الآيات، أن التعبير القرآني لا يوظّف الصيغة الفعلية المعتادة، التي ترد صلة موصول؛ أي لا يقول: الذين آمنوا؛ التي تطّرد في فضاء مخالف لهذا. ففي فضاء الأمر والنهي والنصح وغيرها، يأتي الخطاب القرآني بعبارة: الذين آمنوا، وفي فضاء المدح وما شابهه، أو في فضاء القدح، والتوبيخ يأتي بالصيغة الاسمية.

2 - 2 - مادة "**كفر**"، ونذكر فيها ما ورد بصيغة اسم الفاعل المفرد. قال تعالى:﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾(البقرة:41)، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (الفرقان:55)، ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾(النبأ:40).

2 - 3 - مادة (**صدق**): وفيها اسم فاعل "صادق"، و"مُصدِّق"، وصيغة مبالغة "صِدّيق". وكثيراً ما ترد هذه المفردات بصيغ الجمع. فصيغة "مصدّق" أكثر وروداً من صيغة "صادق"، لكون الأولى تتصل بالعقيدة أصلاً، وقد ذكرت غير مرة في أهل الكتاب. أما صيغة "صِدّيق" فجاءت مدحاً لبعض الأشخاص ولبعض أولياء الله تعالى.

ومن هذه الآيات قوله تعالى:﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾(مريم:54)، ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾(يوسف:46)، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾(المائدة:75)، ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(الأنعام:146)، ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(يوسف:82)، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحشر:8)، ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾(المائدة:119)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة:119).

أما صيغة "مُصدّق" فترد مفرداً إلا في موضع واحد هوقوله سبحانه:﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾(الصافات:51 - 52)، وهي في فضاء الإيمان بالله واليوم الآخر. أما صيغة الجمع فتكاد تنحصر في التأكيد على تصديق القرآن للرسالات السابقة قبل أن تحرّف. وخير دليل على ذلك قوله تعالى :﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾(البقرة:101)، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾(آل عمران:81)، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى

إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾(الأحقاف:12)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ (النساء:47)، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(فاطر:31).

2 - 4 - مادة (**كذب**): وفيها اسماً فاعل "كاذب"، و"مُكذّب". وكثيراً ما يردان بصيغة الجمع. وترد صيغة "كاذبون" في الخطاب المدني، أما صيغة "مكذّبون" فترد في الخطاب المكي، وفي حالتيْ النصب والجر فحسب، لأنّه كان في مكة من كانوا يصرّحون بكفرهم، ويرفضون جهراً دعوة الرسول (ص)، ويكذّبونه فيما يقول. أما في المدينة فإن الذين كانوا فيها لم يعلنوا تذكيبهم صراحة، إنما نهجوا نهجاً آخر، فصاروا يكذِبون في دعواهم، ويخفون غير ما يعلنون، سواء كان ذلك من المنافقين، أم من أهل الكتاب. قال تعالى:﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(آل عمران:137)، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(الأنعام:11)، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(النحل:36)، ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(الزخرف:25)، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾(الطور:11)، ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾(الحاقة:49)، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾(المرسلات:15).

وقد وردت عبارة: فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين، وعبارة: ويل للمكذّبين، كثيراً في هذه السور[1]. أما صيغة "كاذبون"، و"كاذبين" فوردت في فضاء آخر؛ هو فضاء الأخلاق كما قوله جل وعلا:﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(الأنعام:28)، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(التوبة:42)، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(النحل:105)، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(الأعراف :66)، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾(التوبة:43).

3 - فضاء الجموع: يوظف فيه التعبير القرآني جموعاً متنوعة من المادة الواحدة، ونقصد جمع المذكر السالم، وجمع التكسير تحديداً؛ ويكون جمع السالم - عادة - جمعاً لاسم الفاعل، أما جمع التكسير فيكون للصفة المشبهة، أو لصيغة المبالغة كذلك.

3 - 1 - **فضاء مادة (خشع)**: فيه صيغتان هما: خاشعون، وخُشّع. وتتمظهران كما يلي:

- **خاشعون، خُشّع**: وردت سبع عشرة 17 مرة في القرآن الكريم؛ خمس عشرة منها 15 في الخطاب المكي، ومرتين في آية مدنية. وردت بصيغة اسم فاعل اثنتيْ عشرة 12 مرة؛ مفرداً وجمعاً، ومرة واحدة مصدراً، ومرتين فعلاً؛ ماضياً ومضارعاً، ومرة واحدة بصيغة جمع تكسير. والخشوع يصيب كل المخلوقات. ويتراوح بين المعنى اللغوي الأصلي؛ إذا ورد مفرداً، وبين المعنى الاصطلاحي؛ إذا ورد جمعاً. والمعنى اللغوي لهذه المادة أنّ« خَشَع يَخْشَعُ خُشوعاً واخْتَشَع وتَخَشَّعَ: رَمَى بِبَصَرِهِ نَحْوَ الأَرض وغَضَّه وخفَضَ صَوْتَهُ. وَقَوْمٌ خُشَّع: مُتَخَشِّعُون. وخشَع بصرُه: انْكَسَرَ... واخْتشعَ إِذا طأْطأَ صَدْرَه وَتَوَاضَعَ، وَقِيلَ: الخُشوع قَرِيبٌ مِنَ الخُضوع إِلا أَنّ الخُضوع فِي الْبَدَنِ..، والخُشوعَ فِي البدَن والصوْت وَالْبَصَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: خاشِعَةً أَبصارُهُمْ؛ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ؛ أَي سَكَنَتْ، وكلُّ ساكنٍ خاضعٍ خاشعٌ...

[1] - وردت عبارة {ويل للمكذّبين}، عشر مرات في سورة المرسلات وحدها.

UNIVERSITE SETIF2

والتخشُّع: نَحْوُ التضرُّعِ. والخشُوعُ: الخضُوعُ. وَالخَاشِعُ: الرَّاكِعُ فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ »[1]. وقريب من هذا قول ابن فارس:« (خَشَعَ) الْخَاءُ وَالشِّينُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى التَّطَامُنِ. يُقَالُ خَشَعَ، إِذَا تَطَامَنَ وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشُوعًا. وَهُوَ قَرِيبُ الْمَعْنَى مِنَ الْخُضُوعِ، إِلَّا أَنَّ الْخُضُوعَ فِي الْبَدَنِ.. وَالْخُشُوعَ فِي الصَّوْتِ وَالبَصَرِ »[2]. وقال الراغب:« الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح. والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب »[3]. والخشوع:« الخضوع لله عز وجل والشعور بخشيته وتقواه والوثوق بلقائه والرجع إليه عن يقين»[4]. والآيات الواردة فيها صيغة "خاشع" جمعاً سالماً هي قوله جل وعلا:﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾(البقرة:45)، ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ**﴾(آل عمران:199)، ﴿**وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾(الأنبياء:90)، ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾(المؤمنون:1- 2، ﴿**وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ**﴾(الأحزاب:35)، ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً**﴾(فصلت:39). ﴿**وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ**﴾(الشورى:45). أما المواضع التي وردت فيها مفردة فهي قوله تعالى:﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾(الحشر:21)، ﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**﴾(المعارج:44)، ﴿**أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ**﴾ (النازعات:9)، ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ**﴾(الغاشية:2).

ولم ترد صيغة جمع تكسير إلا مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾(القمر:7). وهذه الصيغة هي جمع خاشع أيضاً، وقد ورد فيها قراءتان[5]، وتوظيفها في هذا الموضع الوحيد، يدل على هول يوم القيامة. قال ابن عاشور:« فقد شبّه عدد الناس يوم القيامة بعدد الجراد كثرة، فكانت كثرة الجراد تتطلب في الصفة الدالة على حال الناس يوم القيامة، عن طريق الجمع. أما الصيغة المفردة فلم يرد معها ما يوحي بالتكثير »[6].

وبما أنّ هناك قراءتين لهذه الصيغة، فإن المعنى يكون على بُعديْن؛ بُعد عام، ويدل على شخوص الأبصار في ذلك اليوم، بما فيهم المؤمنون، وبُعد خاص، يدل على شدة شخوص أبصار الكفار على الخصوص. ثم إنّ هناك مظهراً آخر في سياق الآية هو، ورود ألفاظ أخرى بصيغ مشابهة لصيغة "خُشعاً" وهي: نُذُر، نُكّر، عَسِر، وتدل على الكثرة والمبالغة.

3 - 2 - **فضاء مادة (كفر)**: وفيه ثلاث صيغ هي: كافرون، وكُفّار، وكفرة. ومصطلح "الكفر" بصيغه هذه، إسلامي مستحدث بفعل الدين الجديد، لأنّ معناه في اللغة هو الستر والحجب، جاء في المقاييس:«(كَفَرَ) الْكَافُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُوَ السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ. يُقَالُ لِمَنْ غَطَّى دِرْعَهُ بِثَوْبٍ: قَدْ كَفَرَ دِرْعَهُ.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص71.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص182.

[3] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج1، ص299.

[4] - إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، ص19.

[5] - يراجع، ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص337.

[6] - عودة منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من اصل لغوي واحد في القرآن، ص 154.

وَالْمُكَفِّرُ: الرَّجُلُ الْمُتَغَطِّي بِسِلَاحِهِ »[1]. وجاء في المفردات:« الكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزارع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما كما قال بعض أهل اللغة »[2]. ثم صار "الكفر" مصطلحاً إسلامياً؛ بمعنى نقيض الإيمان بالله الواحد، وبالمعتقدات الدينية الأخرى المعروفة.

- وتتمظهر هذه الصيغ في الخطاب القرآني كما يلي: ورد صيغة "كافرون" في المعنى المضاد للإيمان ، فهي وصف ثابت لغير المؤمنين، ترد مرتبطة بمفهوم الحدث، لذلك وردت متعلقاً بحرف الجر في أكثر من موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى:﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ**﴾(الزخرف:30)، ﴿**وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾(الروم:8)،« ولم يقل بلقاء ربهم لكُفّار أو كفرة لأن في (كافرين) معنى الحدث فتعلق به الجار والمجرور أكثر من عشر مرات في القرآن لقرب هذا الجمع من الفعلية، ولم يتعلق مرة واحدة بالكُفّار أو الكفرة مع ترددهما في اثنين وعشرين موطناً في القرآن الكريم »[3].

أما الصيغة الثانية (كُفّار)، فوردت مرة واحدة، وهي في معنى كُفْر النعمة، وفي عدم التصديق بالحق. وكثيراص ما ترد مقترنة بعبارة دالة على الإصرار والبقاء على الكفر؛ كقوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾(البقرة:161)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا**﴾(آل عمران:91)، ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾(النساء:18)، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾(محمد:34). علماً بأنّ الكافرين لا يقولون عن أنفسهم: إنهم كُفّار، إنما يستخدمون صيغة "كافرين"، والتعبير القرآني هو وصفهم بأنهم كفّار بناء على ما صدر منهم، وعلى ما انطوت عليه سيررتهم التي لا يعلمها إلا الله.

وقد ذكر الله تعالى الوصفين معاً لغير المؤمنين؛ فهم كافرون بإرادتهم وبقولهم ذلك بألسنتهم، وبشهادتهم على أنفسهم، وهم كُفّار كذلك بطبيعتهم وفي واقعهم. ولم ترد صيغة "كفرة" إلا مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ**﴾(عبس:40 - 42). قال ابن عاشور من غير أن يشرح هذه الصيغة:« وَأُتْبِعَ وَصْفُ الْكَفَرَةُ بِوَصْفِ الْفَجَرَةُ مَعَ أَنَّ وَصْفَ الكُفْرِ أَعْظَمُ مِنْ وَصْفِ الفُجُورِ لِمَا فِي مَعْنَى الفُجُورِ مِنْ خَسَاسَةِ العَمَلِ فَذُكِرَ وصفاهم الدالان على مَجْمُوعِ فَسَادِ الِاعْتِقَادِ وَفَسَادِ العَمَلِ. وَذِكْرُ وَصْفِ الفَجَرَةُ بِدُونِ عَاطِفٍ يُفِيدُ أَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الكُفْرِ وَالفُجُورِ »[4].

والظاهر - والله أعلم - أن صيغة "فَعَلَة" جمع تكسير تفيد الوصف فحسب، من دون ذكر لِكَمّ أو نوع؛ فكل كافر بالله مهما كانت درجة تكذيبه؛ عن علم أو جهل، أو درجة فجوره، فهو محشور مع زمرة أهل النار.

3 - 3 - **فضاء مادة (مات)**: وترد فيه ثلاث صيغ للجمع هي: "موتى"، و"أموات"، و"ميّتون".

---

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص191.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص303.

[3] - فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص128.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص138.

الأولى تأتي للدلالة على من مات حقيقة، والثانية لمن مات حقيقة أو مجازاً؛ أي موتاً معنوياً. أما الثالثة فلمن لم يمت بعد[1]. والفرق بين صيغة "موتى"التي وردت سبع عشرة 17 مرة و"أموات" التي وردت ثلاث 3 مرات مقترنة بلفظ أحياء دائماً، هو أنّ الأولى تعني الناس الذين ماتوا حقاً منذ مدة، وما في ذلك من شك، قال تعالى:﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾(البقرة: 154)، ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾(النحل:20 - 21)، ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**﴾(فاطر:22). وأنّ "الأموات" جمع للصفة المشبهة "ميّت"، وهي صفة ثابتة في الشخص الذي مات خقيقة، أو مات مجازاً، لكونه لا يفقه شيئاً وصار أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان. أما "الميتون" فهو جمع سالم ليشبه بذلك الفعل الذي ينتهي بالواو والنون إذا أسند إلى ضميري أنتم وهم في المضارع. فكأنّه قال: يموتون، أو سيموتون.

3 - 4 - **فضاء مادة (ولد)**: فيه صيغتان هما: وِلدان، وأولاد. وأصلهما من الاسم العام "وَلَدٌ". جاء في مفردات القرآن« الولد: المولود. يقال للواحد والجمع والصغير والكبير »[2]. فإن كان حديث عهد بالولادة سُمي وليداً، وجمع على وِلدان. ويردف:« والوليد يقال لمن قرب عهده بالولادة وإن كان في الأصل يصح لمن قرب عهده أو بعد، كما يقال لمن قرب عهده بالاجتناء: جني، فإذا كبر الولد سقط عنه هذا الاسم، وجمعه: ولدان »[3]. وقد وردت الأولى ست مرات، وتأتي في مقام ذكر النعيم الذي في الجنة، وفي مقام ذكر عدم الاستطاعة والقدرة، لأنهم صغار. كما في قوله تعالى:﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**﴾(النساء:75)، ﴿**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**﴾(النساء:98)، ﴿**وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ**﴾ (النساء:127)، ﴿**يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ**﴾(الواقعة:17)، ﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا**﴾ (المزمل:17)، ﴿**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ**﴾(الإنسان:19).

ولاستخدام لفظ "وِلدان" في مقام النعيم دلالته المميزة« وَيُطْلَقُ الوَلِيدُ عَلَى الصَّبِيِّ مَجَازًا مَشْهُورًا بِعَلَاقَةِ مَا كَانَ، لِقَصْدِ تَقْرِيبِ عَهْدِهِ بِالْولادَةِ، وَأحسن من يُتَّخَذُ لِلخِدْمَةِ الوِلْدَانُ لِأَنَّهُمْ أَخَفُّ حَرَكَةً وَأَسْرَعُ مَشْيًا وَلِأَنَّ الخَدُومَ لَا يَتَحَرَّجُ إِذَا أَمَرَهُمْ أَوْ نَهَاهُمْ »[4]. وهذا اللفظ يشبه لفظ "غلمان" في دلالة القوة والحيوية. واستخدامه في مقام رفع الحرج عنهم إشارة إلى نضارتهم ورقة عودهم، بحيث لا يقدرون على صد هجوم، ولا الوقوف في وجه ظالم مهما كان.

أما الصيغة الثانية (أولاد) فكثر ورودها في الخطاب المدني، وتختص بأولاد الصلب، وتذكر حالهم في الحياة الاجتماعية، من وأد، وفتنة، وغير ذلك. وترد أيضاً في مجال التشريع والتنظيم؛ كالميراث، والرضاعة. والآيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾(الإسراء:64)، ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ**

---

[1] - يراجع: فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص116.

[2] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج2، ص534.

[3] - المرجع نفسه، ج2، ص534.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص397.

بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾(الحديد:20)، ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾(البقرة:233)، ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾(النساء:11)، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(الأنفال:28)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾(الإسراء:31)، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾(سبأ:37)، ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(الممتحنة:3)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(المنافقون:9)، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾(التوبة:55).

3 - 5 - **فضاء مادة (قعد)**: وفيه ثلاث صيغ هي: قاعدون، قعود، قواعد[1].

فلفظ "**قعود**" الذي ورد مرة واحدة في قوله تعالى:﴿**النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ**﴾(البروج:5 - 6). وهي سورة مكية، موظّف فيها بصيغة المصدر على وزن "فُعُول"، دالّ على الجمع، وفي ذلك توصيف خاص بهذه العملية التي جُعلت لتعذيب المؤمنين. فالقرآن الكريم لم يقل عنهم: عليها قاعدون، إنما قال: عليها قعود. قال ابن عاشور:« أَيْ قَاعِدُونَ عَلَى النَّارِ بِأَنْ كَانُوا يَحْرِقُونَهُمْ مَرْبُوطِينَ بِهَيْئَةِ الْقُعُودِ لِأَنَّ ذَلِكَ أَشَدُّ تَعْذِيبًا وَتَمْثِيلًا، أَيْ بَعْدَ أَنْ يُقْعِدُوهُمْ فِي الْأَخَادِيدِ يُوقِدُونَ النَّارَ فِيهَا وَذَلِكَ أَرْوَعُ وَأَطْوَلُ تَعْذِيبًا »[2]. وهو ما يسمى في عُرف القانون بسبق الإصرار والترصد؛ فالذين كلّفوا بتعذيب المؤمنين كانوا على أتمّ الاستعداد لفعل ذلك، وكانوا مصرّين على التنفيذ بكل جرأة وتعنّت.

أما صيغة "قاعدون"، فقد وُظّفت في مفهوم التخلف عن الجهاد والقتال. قال ابن منظور:« وَيُقَالُ: رَجُلٌ قَاعِدٌ عَنِ الْغَزْوِ، وَقَوْمٌ قُعَّادٌ وَقَاعِدُونَ »[3]. لذلك لم ترد إلاّ في السور المدنية، وهي قوله تعالى:﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾(المائدة:24)، ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾(التوبة:46)، ﴿**وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾(التوبة:86)، ﴿**وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾(النساء:95).

وأما صيغة "قواعد" فوردت خاصة بأحكام شؤون النساء؛ والمقصود بهن اللواتي بلغن سن اليأس. قال تعالى: ﴿**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ**﴾(النور:60).

وسؤالنا هنا هو: لماذا وظّف التعبير القرآني مصطلح "قاعدون" في فضاء الحرب، ومصطلح "قواعد" في فضاء الأحوال الشخصية؟ والجواب - والله أعلم - أنّ صيغة "قاعدون" اسم فاعل الذي يدل على التجدد والحركة، كما قد يدل على حدوث الفعل مرة واحد؛ أي أنّ هؤلاء المتخلفين عن القتال، قد لا يتخلفون دائماً، أو أنهم تخلفوا مرة واحدة[4]، أما مصطلح "القواعد"- وليس "القاعدات" - فمأخوذ من الصفة المشبهة "قاعد"، الخاصة بالمؤنث، وليس

---

[1] - نستثني هنا لفظة "القواعد" التي في سورة البقرة:127، والنحل:26، لأنّ المعنى مخالف لدلالة "قعد" التي تتفق فيها الآيات المذكورة.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج18، ص297

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج3، مادة: قعد، ص357.

[4] - ومثال ذلك، الثلاثة الذين تخلفوا في غزوة تبوك سنة تسع للهجرة، وهم: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. ينظر، مختصر زاد المعاد، ص172.

من اسم الفاعل "قاعدة". على أساس أن الصفة المشبهة إذا كانت على وزن "قاعل" تذكر مع المؤنث كذلك؛ مثل: حائض، طالق، بائن، ناشز...إلخ. كما أنّ الوصف في الصفة المشبهة ثابت ودائم، على عكس الوصف في اسم الفاعل فهو عارض. والوصف في الصفة المشبهة ليس حدثاً، كما في اسم الفاعل، فالقواعد من النساء لم يفلعن ذلك من تلقاء أنفسهن، إنما وقع عليهن الأمر. أما القاعدون عن الجهاد، فهو الذين جلسوا وتأخروا عن القتال بإرادتهم. قال ابن منظور:« امرأَة قاعِدٌ إِذا قَعَدَتْ عَنِ الْمَحِيضِ، فإِذا أَردت القُعود قُلْتَ: قَاعِدَةٌ »[1]. وقال ابن عاشور: « القَوَاعِدُ: جَمْعُ قَاعِدٍ بِدُونِ هَاءِ تَأْنِيثٍ مِثْلَ: حَامِلٍ وَحَائِضٍ لِأَنَّهُ وَصْفٌ نُقِلَ لِمَعْنًى خَاصٍّ بِالنِّسَاءِ وَهُوَ الْقُعُودُ عَنِ الوِلَادَةِ وَعَنِ الْمَحِيضِ... فَلَمْ تَلْحَقْهُ هَاءُ التَّأْنِيثِ لِانْتِفَاءِ الدَّاعِي إِلَى الهَاءِ مِنَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ »[2].

والسؤال الآخر هو: لماذا ذكر لفظ "قاعدون" أكثر من مرة، بينما لم يذكر لفظيْ "قعود"، و"قواعد" إلاّ مرة واحدة؟ والجواب: إن لفظ "قعود"، وُصِف به حال وقعت مرة واحدة، وهي حادثة أصحاب الأخدود التاريخية. و"قواعد" وُصف به حكم تشريعي خاص بالنساء، والأحكام عادة لا تكرر نصوصها، لأنها تُفهم من أول قراءة. أما تكرار لفظ "قاعدون" فلأنّ الناس الذين يتأخرون، ويتقاعسون عن القتال، إنما يفعلون ذلك بإرادتهم الحرة، وقد يكون أكثر من مرة، لأنّ الغزوات التي غزاها النبي(ص) متعددة، وفي كل مرة يقعد هؤلاء كلهم، أو بعضهم عن القتال، ويتحججون بحجج مختلفة.

هذه عيّنة من مفردات الخطاب القرآني الموظّفة في المكي والمدني على السواء. والواقع إن مفردات القرآن كثيرة، لا يستطيع المرء إحصاءها، وما قدّمناه منها، ما هو إلاّ نماذج مختارة قصداً، بناء على طبيعة تمظهرها في الخطابين؛ لندلّل على فضائية هذه المفردات، ولتقاس عليه غيرها من مفردات الخطاب القرآني، ونبيّن على أنها أتت بميزان، وبمقدار دقيقين، لا يقدر على ذلك إلاّ رب الناس.

وخلاصةً لهذا الفصل نقول: يبدو أنّ القرآن الكريم قد انتقى من المعجم اللغوي العربي عيّنات خاصة، بها تصلح المعاني، وتفهم الدلالات، وتؤدى الأغراض المختلفة؛ حيث اختار مفردة بعينها دون أخرى، واستخدم لفظاً في الخطاب المكي، ثم أتى بما يشبهه في الخطاب المدني، وانتقى من بين الصيغ الصرفية ما يفيد، ويُبين، فأكثر من بعضها وقللّ من بعضها الآخر. وفي ذلك كلّه - كما رأينا - سرّ، وحكمة، وإعجاز.

غير أنّ الأمر لا يتوقف عند هذا الحد فحسب، بل يتخطاه إلى بعد تداولي مهمّ، مفاده أنّ القرآن الكريم حين يعرض علينا شيئاً من الأشياء وحدثاً من الأحداث، وقصة من القصص، إنما يفعل ذلك للاعتبار، وللعمل وفق ما يرتضيه الدين، فهو يعلّمنا عن طريق التلميح في أحايين كثيرة، ما ينفعنا، ويصلح حالنا في الدارين. فلماذا لا يكون الأمر كذلك في تلقّينا لكلمات القرآن ومصطلحاته؛ فنستعمل ما استعمل، قدر المستطاع، ونهمل ما أهمل أيضاً؟

وها هو الباحث المغربي محمد الشاهد البوشيخي يناشدنا أن نهتم بمفردات القرآنالكريم، ويدعونا إلى ما أسماه بالتوبة المصطلحية. وقد سبقه ابن عاشور إلى مثل هذا التصور، ومثل هذا الفهم حيث قال في تفسير الفاتحة:« وَقَدْ رَسَمَ أُسْلُوبُ الفَاتِحَةِ لِلمُنْشِئِينَ ثَلَاثَ قَوَاعِدَ لِلمُقَدِّمَةِ: القَاعِدَةُ الأُوْلَى إِيجَازُ المُقَدِّمَةِ لِئَلَّا تَمَلَّ نُفُوسُ السَّامِعِينَ بِطُولِ

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج3، مادة: قعد، ص361.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج30، ص243

انْتِظَارِ المَقْصُودِ وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي الفَاتِحَةِ، وَلِيَكُونَ سُنَّةً لِلْخُطَبَاءِ فَلَا يُطِيلُوا المُقَدِّمَةَ كَيْ لَا يُنْسَبُوا إِلَى العَيِّ فَإِنَّهُ بِمِقْدَارِ مَا تُطَالُ المُقَدِّمَةُ يَقْصُرُ الغَرَضُ، وَمِنْ هَذَا يَظْهَرُ وَجْهُ وَضْعِهَا قَبْلَ السُّوَرِ الطِّوَالِ مَعَ أَنَّهَا سُورَةٌ قَصِيرَةٌ »[1]. وفي هذا تخريج طريف ومفيد يدل على حسن نظر في ترتيب سور القرآن، وتنسيق آياته. وهو ما كان يسمى في علوم القرآن- قديما - بالمناسبة بين الآيات والسور، أو بالاتساق والانسجام في لسانيات النص حديثاً.

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص153.

نتائج البحث:

من خلال هذا العرض المتواضع، الذي حاول أن يستنطق المفردة القرآنية، في سياقاتها المتنوعة، وأن يكشف عن تمظهراتها، ليخلص إلى الاطّرادات المتعلقة بها، والتي تعطيها نسبة كبيرة من المقبولية لتكون قاعدة واضحة المعالم للتعبير القرآني الفريد المميز؛ أمكننا الوصول إلى النتائج التالية:

– هناك هندسة لفظية قرآنية معجزة، بطريقة بديعة، وتوليف وتنضيد مميّزين، يقف العقل دون ذلك مبهوراً، ويبقى أفصحُ الناس وأبلغُهم، وأعلاهم شأواً في امتلاك ناصية اللغة والتعبير بألفاظها حائراً عاجزاً.

– التأكد من أنّ الترادف في ألفاظ القرآن الكريم غير وارد البتة، بناء على الفضاءات التي تستدعى فيها تلك الألفاظ، ولاسيما إذا اطّرد توظيف بعضها في الخطاب المكي، واطّرد "شبيهها" الآخر في الخطاب المدني.

– صعوبة التفرقة أحياناً بين دلالة المترادفات، التي يستخدمها الناس - في العادة - على عمومها، بينما يحدد التعبير القرآني فضاءها بدقة كبيرة، قد يستعصي الفصل في دلالتها المحددة. مثل: عام، وسنة، وحول. وأتى وجاء، وحضر...

– تغيّر دلالة الأفعال عند اختلاف المسند إليه؛ فإذا أسندت هذه الأفعال إلى العباد، دلّت على معانٍ خاصة ، وإذا أسندت إلى الله تعالى تغيّرت دلالتها، وتخصصت؛ مثل: قتل وقاتل... فليس قتل الله وقتاله كقتل الإنسان وقتاله.

– إتيان القرآن الكريم بمفردات، أو ألفاظ ذات تنوع اشتقاقي كثير، ليدل بكل صيغة صرفية على معنى خاص محدد؛ مثل: أعمى، عمي، عميان، عمون. ومثل: ظهر، ظهير، يظاهرون، ظاهرة، وقد يقتصر على صيغة واحدة في موضوع ما؛ مثل صيغة: صُمّ، فقد اكتفى بها. وفي كل ذلك دليل على دقة التصرف في ألفاظ اللغة، واختيار ما يتناسب مع المعاني المقصودة، من غير فضول ولا إجحاف في حق اللغة. وكأنه يعلّمنا كيف نوظّف اللغة توظيفاً حضارياً مبدعاً ومناسباً لمختلف القضايا المعالجة في حياة الناس.

– اقتصاره - أحيانا - على أصل واحد، ويدل به على أكثر من معنى، فهو كالاشتراك اللفظي، ويبقى للسياق دوره في ترجيح معنى على آخر، مثل مدلول لفظ "السائل"، و"ظن". وذلك لكي لا يتخم قاموس المفردات من غير داع حقيقي وجيه.

– توظيفه بعض الألفاظ باطّراد في القرآن المكي، واستعاضته عنها بمرادفها، أو مشابهها في القرآن المدني، وذلك للدلالة على أمور عقائدية، أو تشريعية، أو تاريخية، مثل: الرسول والنبي، فرعون والملك، الزوج والبعل، اليهود وبني إسرائيل، إبليس والشيطان... تنبيهاً على أنّ هناك فرقاً بين هذه المتشابهات، يجب أن تعرف دلالتها للاقتراب أكثر من مراد الخطاب القرآني.

– استعماله أكثر من مفردة للدلالة على فضاء واحد، مع الفروق الدقيقة بين المفردات المتشابهة، مثل: حزب، طائفة، فريق، فئة. ومطر، غيث، وابل، طلّ، ودق، صيّب. للدلالة على الفروق الدقيقة التي تعنيها هذه المصطلحات في واقع الحياة، وواقع الناس، فيأخذ الإنسان بعضها ويدع الآخر، بناء على فهم ووعي منه.

– ذكره مفردات في العهد المكي، ثم اختفاؤها كلياً في العهد المدني، ليدل بذلك على الكسب التاريخي لها، مثل: ساحر، مجنون، عربي، أو للدلالة على سبق تاريخي عقائدي معجز، مثل: "ذكر للعالمين".

– الغاية الأساس من إيراد مفردات القرآن الكريم بشكلها التي وردت عليه، هي ضمان المعنى والدلالة الدقيقة التي يتطلبها الموقف والسياق. فلا تقوم مفردة، ولا صيغة صرفية مقام أخرى، وإلا كان التعبير لغواً وفضولاً وحشواً، والقرآن

منزّه عن كل ذلك بالضرورة. وقد يوظف بعض الألفاظ الغريبة، والتصريفات النادرة لغرض معنوي خاص، ودلالة عميقة دقيقة، مثل: عمين، سؤل، أجاء، ضيزى، استحبّ، استنكح، يثرب، بكة...

– اجتناب التعبير القرآني بعض الألفاظ والتصريفات التي تبدو أكثر اختصاراً من غيرها، وأكثر شيوعاً، وتعويضها بغيرها، مثل: غير ذي عوج، بدلاً من معوجّ، ومثل: فتى، فتية، أو غلام، بدلاً من شاب أو شباب، ومسجد بدلاً من جامع. ليبيّن أن ما اختاره التعبير القرآن من ألفاظ اللغة هو الأصلح والأولى من غيره من الألفاظ الأخرى.

– احترام التعبير القرآني سنن العرب في كلامهم من حيث المبدأ العام، وخروجه في بعض أوجه التعبير عما عهدوه في ذلك، دون المساس بالأصل اللغوي في إيراد مختلف الدلالات والمعاني. من ذلك احترامه للمُمات، مثل عدم توظيفه للماضي من فعليْ: وذر، وودع، وأتى منهما بالمضارع والأمر فحسب، أما الفعل "درى" فلم يأت به إلا في المضارع.

– جعله بعض الألفاظ إسلامية خالصة، بعد إفراغها من محتواها الأول، مثل: التقوى، الشرع، الإيمان، الصلاة، الزكاة... فلا يُفهم عند إطلاقها إلاّ تلك المعاني الجديدة.

– جعل المفردة في فضاء خاص تدور فيه دلالتها بنوع من الاطّراد، إلا في القليل النادر، من ذلك ما ذكره ابن فارس تحت مسمى "أفراد ألفاظ القرآن". فكل صلاة - على سبيل المثال - في القرآن تعني العبادة المعروفة أو الدعاء، ما عدا آية سورة الحج، حيث تعني لفظة "صلوات" أماكن العبادة.

– تمييز الفضاء الخاص بكل مفردة، بل وبكل صيغة أحياناً، وتحديده بوجود متعلقات لفظية مساندة لهذه المفردات؛ ومتصلة بها في كل المواضع التي ترد فيها؛ مثل: تعلّق "السئيات" بفلظ "تكفير"، وتعلّق "القرآن" بلفظ عربي، وتعلّق "الرسول" بألفاظ الطاعة، والعصيان، والأسوة.. وغير ذلك من المفردات القرآن الكريم.

– إيراد بعض الألفاظ مقترنة بكلمات أخرى مشابهة لها، ولكنها تأتي سابقة لها دوماً، مثل الرحمان إذا اقترن باسم "الرحيم" فلا يأتي إلا سابقاً عليه. فلا يقال: الرحيم الرحمان أبداً. وكأن للفظ "الرحمان" أسبقية ما، في الوجود، أو في الدلالة؛ أو أنه يمثل قانوناً عاماً يسري في جميع القرآن الكريم، حتى وإن كنّا لا ندرك مغزاه على وجه التحديد.

– عدم إيراد بعض الأسماء إلا معرفة، مثل اسم "الرحمان"، وبعضها الآخر لا يرد إلا نكرة، مثل: عربي ورب. ولكل سر في ذلك، وحكمة يقتضيها المعنى، والمقام، والتاريخ، والاعتقاد وغيره ذلك.

– تخصيص بعض المفردات بمتعلقات خاصة تجعلها تدور في فضاء محدد، ومن ثمّ تدل على معانٍ دقيقة تصرفها عن أن تدل عليها كلمات أخرى مشابهة لها، مثل مصطلحيْ الرسول والنبي، والقرآن والكتاب، واليهود وبني إسرائيل، فلا يحلّ لفظ محلّ آخر على وجه التمام والتطابق من كل الوجوه.

– اختيار تصريفين من المادة ذاتها للدلالة على معنيين مختلفين، مثل: الأعين والعيون، العبيد والعباد، البنون والأبناء؛ وذلك بنوع من الاطّراد في القرآن الكريم كله، سواء أعرفنا سر ذلك أم جهلناه، إذ لا يخلو من إعجاز ما.

– الإكثار من استخدام بعض المفردات، مع تنويع مشتقاتها، دليل على كثرة ورودها في الواقع، وتنوعها أيضاً، مثل: سحر، ساحر، به جنة، مجنون، مسحور، وسائل، سأل، اسألوا، سائل، سائلين، يسألون... فما أكثر ما قاله الكفار في النبي (ص) من صفات القدح في شخصه! وما أكثر ما سأله أصحابه وغيرهم؛ للتعلّم أحياناً، وللتعجيز أحياناً أخرى! كما كان يفعل اليهود والمنافقون، والكفار عموماً.

– إمكانية ترجمة أقوال الآخرين؛ عرباً كانوا أم عجماً، ترجمة أمينة بارعة ودقيقة، وفي ذلك دليل على أنّ ترجمة المعاني من لغة إلى أخرى ليست خيانة كما قيل، إنما الأمر يتعلق بمقدرة المترجم، وبمدى معرفته باللغة وبأساليبها المؤدية إلى المعاني والدلالات.

– استخدام الألفاظ في معانيها الظاهرة التي تعرفها العرب، من حيث الوضع اللغوي الأول؛ فلا مجال لإخراجها إلى دلالات مجازية بعيدة أو قريبة إلا بشروط التجوز، ومثل ذلك تغير دلالة بعضها بسبب المعاني الإسلامية الجديدة؛ وذلك تصديقاً وتأكيداً لعربية القرآن الكريم.

– اختصاص بعض المفردات بالله تعالى وحده، وبعضها الآخر يشترك فيه العباد أيضاً؛ مثل الرحمان الذي هو وصف لله فقط، والرحيم لله والعباد، والغفران لله فقط، والعفو لله وللعباد، والعمل والفعل للعباد، والفعل لله فقط دون العمل.

– مساعدة معرفة الفضاء الدلالي الذي ترد فيه المفردة القرآنية المشتغلين بتفسير القرآن، والباحثين في علومه، حتى لا تذهب بهم الأهواء والتنظيرات في كل صوب، أو في اتجاه من التعسف في تأويل آي القرآن الكريم، على غير ما عُرِف عند جلّ العلماء والمفسرين على مرّ العصور، وعلى غير ما تعارف عليه الناس من الدلالة الأصلية الأولى للفظ.

– ورود بعض المفردات في القرآن المكي - الذي هو سابق زمنياً على القرآن المدني - دليل على التتبع الدقيق لمسار الدعوة الإسلامية؛ فعبارة "بشرهم بعذاب" التي تحمل دلالة التهكم، لم تكن لتظهر منذ الوهلة الأولى، حتى اشتدت عداوة قريش، وزاد استهزاؤها بالنبي(ص)، فقد ظهرت للمرة الأولى في سورة الانشقاق التي ترتيب نوزلها 83، ثم توالت مرتين اثنتين في سورة آل عمران، وسورة التوبة. وقد كانت ترد - في البداية - عبارة "أنذرهم".

– كون العيّنات اللفظية التي انتقاها القرآن الكريم من المعجم العربي، تعتبر أنقى وأصفى وأدق وأكثر دلالة على المعاني، لأنها قادرة على الخلود والصمود أمام التغيرات التي عادة ما تحدث لأي لغة في العالم. وهي دعوة ضمنية لتعلّم هذه المفردات وتوظيفها في مختلف ميادين الحياة، للدلالة على ارتباط هذه الأمة بتراثها الثقافي والديني العريق.

– اقتصار بعض الألفاظ على دلالة محددة، لم يستخدمها العرب كذلك، وجعل فضاء خاصاً لها لا تحيد عنه؛ مثل دلالة المطر على العذاب والأذى، ودلالة الغيث على الرحمة، ودلالة البلد على الرخاء والنماء، ودلالة البلاد على العقاب والطغيان، ودلالة العباد على الناس الصالحين، والعبيد على غيرهم...

– عدم ورود بعض المفردات، والأدوات منسوبة إلى لفظ الجلالة مطلقاً؛ مثل ياء النداء، وبعض الأفعال مثل: يعرف، يعمل، يصفح، فلا يقال: يا الله، أو يا إلهي، ولا يقال، الله يعرف، أو يعمل، أو يصفح. وكأنّ ما يصلح للعباد لا يحق في ذات الله تعالى، وفي ذلك بعض من إعجاز القرآن الكريم.

– كون كثير من مفردات القرآن الكريم كلمات شاهدة على التاريخ، ولها شهودها الحضاري كذلك، هذا الشهود الذي يبقى إلى يوم القيامة؛ فلفظ "القتال" ولفظ "الجهاد" بمفهومهما الشرعي لم يردا إلا في القرآن المدني، وفي ذلك دلالة على أنّ هذا الدين ليس ديناً هجومياً ولا قتالياً، ابتداء، إنما هو دين يسر ودعوة وتبشير قبل كل شيء.

– ورود بعض الألفاظ المتشابهة في الدلالة باطّراد؛ إحداها في القرآن المكي، والأخرى في القرآن المدني؛ مثل مصطلحيْ الرسول والنبي، وذلك للدلالة على أنّ مقام الرسالة يختلف في بعض الأمور التطبيقية، والجزئية عن مقام النبوة، وأنّ الرسالة أوسع من النبوة، وأشمل.

UNIVERSITE SETIF2

– قَسَم الله تعالى بألفاظ كل مخلوقاته، وبنفسه كذلك، ولكنه لا يقسم بعبارة "والله"، إنما بعبارة "تالله". أما العباد فلا يقسمون إلا بالله أو رب الكعبة. وذلك لاختلاف الخالق عن المخلوق في كل شيء، حتى في أساليب الكلام.

– عدم استخدام التعبير القرآني في نداء المؤمنين أو الكافرين اسم الجمع، بل جملة فعلية؛ وعادة ما تكون بصلة الموصول، فيقول: يا أيها الذين آمنوا، وليس يا أيها المؤمنون، إلا آية واحدة هي ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:31]. ويقول: يا أيها الذين كفروا، وليس يا أيها الكافرون. ويطرد ذلك كله في سياق الأمر والنهي والتهديد والإنذار. أما في غير ذلك فيأتي باسم الجمع؛ أي المؤمنون أو الكافرون؛ وفي ذلك بناء قصدي وهندسة أسلوبية خارقة لعادة الناس في كلامهم.

– استخدام بعض الكلمات النادرة، أو غير المستعملة في الكلام العربي؛ شعره ونثره، مثل: حرد، حصحص، ضيزى، دسر، أبّ، يبتّك، عضين، عزين، غسلين، وغيرها دليل على عجز الناس عن إيجاد موضع مناسب لاستخدامها في خطاباتهم المختلفة، وإذا استخدمت في خطاب ما، إنما تأتي من باب التناص، وغيره.

– ورود بعض المفردات بكثرة؛ مثل: التقوى، الصالحات، الخير، الإيمان، الإحسان، العمل، وقلة ورود أخرى؛ مثل: رؤيا، أحلام، للدلالة على أنّ هذا الإسلام دين مبني على العمل والواقع، لا على الأوهام والأحلام والرؤى، وإن صدقت.

– توظيف الصيغ الأشهر من الصيغ الصرفية، وعد العدل عن ذلك إلا لضرورة استدعاها المعنى. للدلالة على أن هذا القرآن جاء بلسان عربي مبين، كما كرر القرآن نفسه ذلك في أكثر من موضع.

– توظيف صيغ مختلفة من المادة الواحدة، إذ يُكثر من بعض المواد، ويُقلّ من بعضها الآخر، ويُعرض عن صيغ مشهورة، ويأتي بصيغ نادرة، وذلك لكي تنسجم هذه الصيغ مع المعاني والدلالات المراد تبليغها. حتى وإن كان في الصيغة الواحدة أكثر من قراءة، وذلك إعجاز آخر للتعبير القرآني، لأنه يريد أن يعبّر عن معنيين أو أكثر فيورد الصيغتين معاً؛ إحداهما في قراءة، والأخرى في قراءة ثانية، أو ثالثة.

– إذا استعصى علينا إيضاح سر توظيف بعض الألفاظ في فضاءات خاصة، أو سر انتقاء صيغة على أخرى، فإننا قد نبّهنا على أنّ التعبير القرآني قد أوردها ضمن مجال محدد؛ عقائدي، أو تشريعي، أو تاريخي قصصي..إلخ، مما يدل على خصوصيتها الدلالية.

– وأخيرا نقول: إنّ التعبير القرآني يستخدم مفرداته، وينتقيها بدقة بالغة، ويوظّفها بشكل فريد مميز، يدل دلالة صريحة على أنّ هذا القرآن ليس كلام بشر، ولا يمكن أن يكون كذلك. وإنّ منهج الإحصاء قد يُخرج مكنونات أخرى لهذه المفردات، وهو ما يسمى بالإعجاز العددي في القرآن الكريم الذي لم نعوّل عليه في هذا البحث، لأنه يحتاج إلى تحكم كبير في بعض العلوم الدقيقة التي ليست مجالنا. ثم إن هذه المسألة ليست مضبوطة المعالم والنتائج، كما صرح بذلك غير واحد من العلماء؛ إذ أحيانا يُتعسّف في تأويل تلك الأرقام، وإن كانت تثير الانتباه في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

قائـمة المراجع:

القرآن الكريم (برواية حفص)

1- إبراهيم السامرائي، في المصطلح الإسلامي، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1990.

2- ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ، د ت.

3-ابن الجزري، النشر في القراءات العشر،تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.ط3، 1988.

4- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم، كتاب الأفعال، تح، علي فودة، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1993.

5- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية: 1416هـ/1995م.

6-ابن جماعة، بدر الدين، كشف المعاني فى المتشابه من المثانى، تح، عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1990.

7- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، تح: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د ط، د ت.

8- ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، تح: محمد إبراهيم سليم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د ط، د.ت.

9- / ، الحجة في القراءات السبع، تح، عبد العال سالم مكرم، دار الشروق - بيروت، ط4، 1401هـ.

10- ابن سهل الأندلسي، الديوان، تح، يسرى عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2003.

11- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح، عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروتط1، 1422هـ

12- ابن فارس، أبو الحسين أحمدبن زكرياء القزويني الرازي، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، د. ط، 1979.

13- / ، أفراد كلمات القرآن العزيز، تح: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ط1، 2002.

14-ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة،ط1، 2009.

15-ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، د. ط، د. ت.

16- ابن هشام، السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1955.

17- أبو الحسن علي الحسني الندوي، وأذّن في الناس بالحج، مطبوعات المجمع الإسلامي العلمي، لكنهؤ- الهند. ط3، 1980.

18- المباركفورى، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت. د. ط، د. ت.

19- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تح: إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، ط3، 2008.
20- أبو زيد، سعيد بن أوس، كتاب المطر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1905.
21- أبو عاصم الشحات شعبان محمود عبد القادر البركاتي، الولاء والبراء في الإسلام، دار الدعوة الإسلاميةط1، 2012.
22- أبو عبد الله مصطفى بن العدوى شلباية المصري، الصحيح المسند من الأحاديث القدسية، دار الصحابة للتراث، د. ت، د ط.
23- أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، تح: عبيد ابن علي العبيد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. العدد 112- السنة 33 - 1991.
24- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تح: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة، د. ط،1981.
25- أبو فيصل البدراني، الولاء والبراء والعداء في الإسلام، د. ط، د. ت.
26- أحمدأحمدعبد الله البيلي البدوي، من بلاغة القرآن، نهضه مصر - القاهرة، 2005، د ط.
27- أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م.
28- أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، تر: محمد مختار، مكتبة ديدات، د. ت. د. ط.
29- أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، ط1، 2002.
30- أسماء عبد المنعم أحمد هريدي، مفهوم النبوة في القرآن الكريم، جامعة عين شمس، د. ط، 2001.
31 - أف. آر. بالمر، علم الدلالة، ترجمة، مجيد الماشطة، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1985.
32- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د ط، د ت.
33- الآمدي، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم، الإحكام في أصول الأحكام، تح، عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، لبنان. د. ط، د. ت.
34- الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تح: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط5.
35- الثعالبي أبو منصور بن عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، فقه اللغة وأسرار العربية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، د. ط، د. ت.
36- الحكيم الترمذي، أبو عبد الله بن علي، بيان الفرق بين الصدروالقلب والفؤاد واللب، تح: أحمد عبد الرحيم السايح، مركز الكتاب لنشر، القاهرة، د. ط، د. ت
37- الرازي أبو حاتم أحمد بن أحمد، كتاب الزينة في الكلمات العربية الإسلامية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط1، 1994.
38- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم دمشق، د. ط، د. ت.
39- / ، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: مركز التحقيق والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، د ت، د ط.

40- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، تح: فتح الله علي صالح المصري، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط1، 1987.

41- الزركشي، بدر الدين بن محمد عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية بيروت، لبنان. ط1،1957م.

42- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط3، 1407 هـ.

43- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987.

44- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1998م.

45- / ، الإتقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، سوريا، دمشق، 2008.

46- / ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1998.

47- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1997م.

48- الشاهد بن محمد البوشيخي، نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية المعرّفة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ط1، 2003.

49- الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط1، 1983.

50- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسين، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم، بيروت، ط1، 2005.

51- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط1، 1995.

52- / ، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م

53- الكتاب المقدس، العهد القديم. د ط، د ت.

54- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، د. ط، 1983.

55- المعتمد بن عباد، الديوان، تح: حامد عبد المجيد/ أحمد حمدي بدوي، دار الكتب المصرية، ط3، 2002.

56- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان. د ت، د ط.

57- النابغة الذبياني، الديوان، شرح وتقديم عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1996.

58- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، أسباب النزول، دار الميمان للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2005.

59- أمين الخولي، فن القول، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ط، 1996.

60- تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتاب، ط1، القاهرة 2007.

61- / ، الأصول، دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة 2000.

62- / ، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط1، 1993.
63- / ، مناهج البحث في اللغة،ط الأنجلو المصرية 1974.
64- جهاد الترباني، مائة من عظماء أمة الإسلام غيّروا مجرى التاريخ، دار التقوى، القاهرة، ط1، 2010.
65- جورجم اطوري، منهج المعجمية، ترجمة: عبد العلي الودغيري، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1993.
66- حافظ إبراهيم، الديوان، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1987.
67- حسان بن ثابت، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994.
68- حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة، مكتبة مدبولي، القاهرة 1988، د ط.
69- حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، مخطوطة الجمل - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 2003 - 2008م.
70- حسن نجمي، شعرية الفضاء السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000.
71- حمزة محمد قاسم، منار القاري بشرح مختصر صحيح البخاري، مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية، 1990.
72- خالد توفيق مزعل الحسناوي، الأنساق المهيمنة على السورة القرآنية، دراسة تطبيقية على السور المكية، رسالة دكتوراه من قسم اللغة العربية، جامعة الكوفة، 2012.
73- خالد فائق صديق العبيدي، ومضات إعجازيّة من القرآن والسّنة النّبويّة، دار الكتب العلمية - بيروت ط1، 2004م.
74- دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، مركز الدراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008.
75- رضا هادي حسون العقيدي، العموم الصرفي في القرآن الكريم، المركز التقني، بغداد، ط2، 2013.
76- سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 1992.
77- سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ -1988م.
78- سيد طنطازي، بنو إسرائيل في الكتاب والسنة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2002.
80- / ، التفسير الوسيط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997-1998.
81- سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط17-1412هـ.
82- صبري المتولي، منهج أهل السنة في تفسير القرآن الكريم، (دراسة موضوعية لجهود ابن القيم التفسيرية)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط2، 2002.
83- صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، الأردن، ط1، 2000.
84- عائشة عبد الرحمان، مقال في الإنسان، دراسة قرآنية، دار المعارف مصر، ط2، 1969.
85- عباس أمير، الإعجاز القرآني، التبيان- التكوّن - القراءة. مدخل لنظرية معرفية في نشوء الكون ونظام الكائنات، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، د ط، د ت.
86- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط15، د ت.

87- عباس فضل، إعجاز القرآن الكريم، جامعة القدس المفتوحة، د. ت، د. ط.
88- عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن (نظرات جديدة في تفسير ألفظ قرآنية)، تح: محمد أجمل أيوب الإصلاحي دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002.
89- عبد الرحمان الغريبي، الحمد في القرآن والسنة، دار البر، دبي، ط1، 2011.
90- عبد الرحمان بن صالح بن سليمان الدهش، الأقوال الشاذة في التفسير، نشأتها، أسبابها، وآثارها، سلسلة إصدرات الحكمة، بريطانيا، مانشيستر، ط1، 2004.
91- عبد الرحمان حسن حنبكة الميداني، روائع من أقوال الرسول (ص)، دراسات أدبية ولغوية وفكرية، دار الخلدونية الجزائر، ط1، 2007.
92- عبد السلام المسدي، ما وراء اللغة، بحث في الخلفيات المعرفية. مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، د. ط، د. ت.
93 - عبد العزيز بن محمد عبد الله السحيباني، جوامع الكلم وشواهد الإعجاز، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 2008.
94- عبد العال سالم مكرم، الكلمات الإسلامية في الحقل القرآني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997.
95- عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، المجاز عند ابن تيمية وتلاميذه، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1995
96- / ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1992.
97- / ، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1996.
98- عبد الفتاح لاشين، صفاء المفردة القرآنية، دار المريخ للنشر، الرياض، د ط، 1983.
99- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1981.
100- عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعي، نظرية وتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 2006.
101- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، مجاز القرآن، تح: مصطفى محمد حسين الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، د.ط، 1999.
102- عصام الدين عبد السلام محمد إبراهيم أبو زلال، التعبير عن المحظور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم، دراسة دلالية، القاهرة 2001.
103- علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، جامعة الملك سعود، ط2، 1991.
104- علي مهدي زيتون، الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011.
105- علي نجيب إبراهيم، جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، دار كنعان للدراسات والنشر والتوزيع دمشق، ط1، 2002.
106- عماد الدين محمد الرشيد، أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، دار الشهاب، دمشق 1999.
107- عودة الله منيع القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ الصرفية المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، دار البشير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996.

108- عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغتيْ الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، دراسة دلالية مقارنة، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن، ط1، 1985.

109- فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ط ت، د ط.

110- / ، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، الشارقة، ط1، 2008.

111- / ، على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، د ط، 2002.

112- / ، معاني الأبنية في العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأدرن. ط2، 2007.

113- / ، من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2009.

114- فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم. د ط، د ت، د. دار نشر.

115- فهد بن عبد الرحمان بن سليمان الرومي، تحريف المصطلحات القرآنية وأثره في انحراف التفسير في القرن الرابع عشر، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2003.

116-كريم زكي حسام الدين، التحليل الدلالي، إجراءاته ومناهجه، ج1، www.kotobarabia.com.

117- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر - دمشق سورية، الطبعة: الرابعة، 1420هـ- 2000م.

118- محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، د ت، د ط.

119- محمد أركون، من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، دار الطليعة بيروت، ط2، 2005

120- محمد إقبال العروي، اطّرادات أسلوبية في الخطاب القرآني (رصد واستدراك)، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 1996.

121- محمد الجوادي، كلمات القرآن التي لا نستعملها، دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية، دار الشروق القاهرة، ط2، 1997.

122- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.

123- محمد الشاهد البوشيخي، القرآن طبيعته ووظيفته، مطبعة أنفو- برانت، الليدو- فاس، المغرب. د ت، د ط.

124- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس 1984.

125- محمد الغزالي، الحق المرّ، دار الشروق، د.ط، د.ت.

126- / ، كيف نتعامل مع القرآن، دار الانتفاضة للنشر، الجزائر، د ط، د ت.

127- محمد المبارك، فقه اللغة دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية، مطبعة جامعة دمشق، د.ط، د.ت.

128- محمد بن إبراهيم التويجري، كتاب التوحيد، أسماء الله الحسنى في ضوء القرآن والسنة، مكتبة فهد الوطنية، السعودية، ط2، 2012.

129- محمد حسين الذهبي، تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط2.

130- محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، توزيع دار ابن حزم. د.ط، د.ت.

131- محمد شحرور، الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة،شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت . لبنان. ط2، 1992.

132- محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط1، 2008.

133- / ، مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2 بيروت 2006.

134- محمد عادل القلقيلي، نظرات جديدة في القرآن المعجز، دار الجيل، بيروت، ط1، 1997.

135- محمد كريم الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، جمعية الدعوة الإسلامية، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط1، 1426هـ ،2006م.

136- محمد متولي الشعراوي، تفسير القرآن، الخواطر، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، د. ت، د. ط.

137- / ، الجهاد في الإسلام، مكتبة التراث الإسلامي، ط1، 1998.

138- محمدمحمد داود، جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية، (دراسة دلالية ومعجم)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

139- محمود الخالدي، التفكير بداية الطريق إلى نهضة الأمة الإسلامية،شركة الشهاب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1989.

140- محمود محمد الطناحي، أسرار اللغة في الكتاب والسنة- معجم لغوي ثقافي، المكتبة المكية، دار الفتح للدراسات والنشر، السعودية، ط1، 2008.

141- محمود مصطفى، القرآن كائن حي، دار المعارف، القاهرة، د ط، 1993.

142- محمود موسى حمدان،الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم. مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1998.

143- مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، التفسير اللغوي للقرآن، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1432هـ.

144- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة رحاب، الجزائر، د.ط، د.ت.

145- مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط6، 2009.

146- مصطفى ناصف، النقد العربي، نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة، المجلس الوطني الثقافة والفنون والآداب، الكويت

147- مفدي زكريا، اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1991.

148- ناصر بن عبد الرحمان بن ناصر الخنين، النظم القرآني في آيات الجهاد، مكتبة التوبة، الرياض، ط1، 1996.

149- نزار قباني، الأعمال الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت، ط2، 1998.

ب -المجلات:

1- أبحاث في اللسانيات العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك، الدار البيضاء، المغرب، د. ط، د. ت.

2- مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، جدّة، العربية السعودية، ع6، 1426هـ.

3- مجلة علامات في النقد، الفلاح للنشر والتوزيع، منظمة الجامعة العربية، بيروت، لبنان، ع49، سبتمبر 2003.

ج -المعاجم:

1- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، أستانبول- تركيا. د ط. د ت.

2 -Petit Larousse illustré, Paris 1991,

فهرست الموضوعات

شكر وامتنان

إهداء

مقدمة:.....ص أ

الفصل الأول: المفردة في الدرس اللغوي.....ص4

المبحث الأول: المفردة اللغوية، حدّها وقيمتها.....ص5

- مفهوم المفردة اللغوية.....ص5
- المفردة ومعدّل استخدامها.....ص11
- تمظهراتها واعتباراتها في الدرس اللغوي.....ص14

أ - فصاحة المفردة وبلاغتها.....ص17

ب - المفردة والترادف:.....ص21

ج - المفردة واعتبار السياق:.....ص25

د - المفردة والمجال الدلالي:.....ص26

ه - المفردة باعتبار الحقيقة والمجاز:.....ص27

و - المفردة والمتلقي:.....ص29

المبحث الثاني: المفردة القرآنية واعتباراتها.....ص32

- المفردة القرآنية في الدارسات اللغوية والبيانية.....ص32
- الثابت والمتغير في دلالة ألفاظ القرآن الكريم: ص38
- الثنائيات اللفظية:.....ص40
- المفردة القرآنية والصيغ الصرفية:.....ص42
- المفردة القرآنية وهيمنتها الدلالية:.....ص43
- الألفاظ المترادفة في القرآن وحقيقتها:.....ص44
- المفردة القرآنية بين الحقيقة والمجاز.....ص50
- الاشتراك اللفظي أو تعدد المعاني:.....ص55
- المفردة القرآنية ومسألة الإعجاز.....ص60

- القرآن والمعجم اللغوي:.....ص64
- المفردة القرآنية وشهودها الحضاري:.....ص67

- الكلمة القرآنية كلمة صافية:.....ص68
- اللفظة القرآنية وجِهاتها؛ أو اللفظة ورفيقاتها.....ص70

الفصل الثاني: فضاءات المفردة القرآنية في الخطاب المكي.....ص74
المبحث الأول: المبحث الأول: المفردة القرآنية والفضاء العقدي.....ص75
- فضاء الألوهية والربوبية:.....ص76
- فضاء مفردات النعيم والعذاب:.....ص97
المبحث الثاني: المفردة القرآنية والفضاء المعتقداتي:.....ص107
- فضاء السحر:.....ص108
- فضاء الأسطورة:.....ص111
- فضاء "الجنون":.....ص113
- فضاء "الشعر":.....ص114
- فضاء الكهانة:..... ص114
المبحث الثالث: المبحث الثالث: فضاء الألفاظ الثنائية "المترادفة".....ص115
- الرسول والنبي:.....ص115
- الكتاب والقرآن:.....ص122
- إبليس والشيطان:.....ص125
- بنو إسرائيل واليهود:.....ص127
- الحمد والشكر:.....ص128
- القديم والعتيق:.....ص133
- البحر واليم:.....ص134
- الحُلم والرؤية:.....ص137
المبحث الرابع: فضاء المنظومة اللفظية:.....ص139
- منظومة الحساب والتقويم:.....ص139
- منظومة الإنسان:.....ص141
- منظومة الاستهزاء والسخرية والضحك:.....ص145
- منظومة المطر والغيث والصيّب والودق والماء:.....ص146
- منظومة الانتظار والتربص والترقّب والمكوث:.....ص150
- منظومة التنقل في البحر:.....ص153
- منظومة الخوف والخشية والوجل:.....ص153
- منظومة البنون والأبناء والأولاد:.....ص154
- منظومة زوج، امرأة، صاحبة:.....ص156

الفصل الثالث: فضاءات المفردة القرآنية في الخطاب المدني.....ص158
المبحث الأول: مفردات الفضاء التشريعي.....ص160
– فضاء التعبّد:.....ص160
– فضاء الجهاد والقتال:.....ص169
– فضاء الولاء والبراء:.....ص181
– فضاء الحدود:.....ص183
- فضاء الأخلاق:.....ص189
المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية المتشابهة (المترادفة).....ص195
– فضاء الرسالة والنبوة:.....ص195
– مصطلح "اليهود" و"بني إسرائيل":.....ص201
المبحث الثالث: فضاء المنظومة اللفظية.....ص208
– منظومة (حرج) و(جناح)، و(إثم):.....ص208
– منظومة زوج، سيد، بعل:.....ص211
– منظومة التقويم والحساب:.....ص214
المبحث الرابع: فضاء التنوع الصرفي للمفردات.....ص219
– فضاء المصادر:.....ص219
– فضاء المشتقات:.....ص221
– فضاء تنوع الأفعال:.....ص225
– فضاء الجموع:.....ص227
الفصل الرابع: فضاءات المفردة القرآنية في الخطابين المكي والمدني معاً؛.....ص234
– المبحث الأول: فضاء المجال الاجتماعي:.....ص236
– فضاء مفردات السلوك:.....ص236
– فضاء مفردات المعاصي:.....ص243
– فضاء الحياة الاجتماعية.....:.....ص257
– المبحث الثاني: فضاء الثنائيات اللفظية (المترادفة):.....ص262
– الإسلام والدين:.....ص262
– إخوة وإخوان:.....ص264
– القرية والمدينة:.....ص266
– المجادلة والحِجاج:.....ص269
– التوبة والاعتذار:.....ص271
– اللهو واللعب:.....ص273
– الفعل والعمل:.....ص275

- الإحسان والإنعام:.....ص276
- المرأة والزوج:.....ص277
- المبحث الثالث: فضاء الثنائيات الضدية.....ص279
- السماء والأرض:.....ص279
- الظلمات والنور:.....ص280
- الحسنة والسيئة:.....ص281
- الدنيا والآخرة:.....ص282
- الحياة والموت:.....ص283
- الخير والشر:.....ص284
- المعروف والمنكر:.....ص284
- الطيّب والخبيث:.....ص285
- الحق والباطل:.....ص286
- الصدق والكذب:.....ص287
- المبحث الرابع: فضاء المنظومة اللفظية:.....ص289
- منظومة القراءة:.....ص289
- منظومة الإنسان البالغ:.....ص291
- منظومة "الرقبة":.....ص292
- منظومة الموالاة:.....ص293
- منظومة الأجر والثواب والجزاء:.....ص296
- منطومة القلب واللب والفؤاد والصدر:.....ص297
- منظومة الدراية:.....ص298
- منظومة أفعال ترك، وودع، ووذر:.....ص302
- المبحث الخامس: فضاء تنوع الصيغ الصرفية للمادة اللغوية الواحدة.....ص305
- فضاء المصادر:.....ص308
- فضاء المصادر الصريحة:.....ص308
- فضاء مصادر المرة:.....ص312
- فضاء المصادر الميمية:.....ص315
- فضاء المشتقات:.....ص318
- فضاء تنوع الأفعال من المادة الواحدة:.....ص321
- فضاء الجموع:.....ص325
- المبحث الثاني:فضاء الثنائيات اللفظية المتشابهة (المترادفة).....ص332
- فضاء الغيبيات:.....ص332

- فضاء الإتيان والمجيء:.....ص335
- فضاء الإعطاء والإيتاء:.....ص336
- فضاء القلب والفؤاد:.....ص339
- فضاء الكيل والميزان:.....ص340
- المبحث الثالث: فضاء المنظومة اللفظية:.....ص342
- منظومة الأيمان:.....ص342
- منظومة المسالك:.....ص347
- منظومة الفهم:.....ص348
- منظومة القرابة:.....ص349
- المبحث الرابع:مفردات التنوع الصرفي.....ص352
- فضاء المصادر:.....ص354
- فضاء المشتقات:.....ص357
- فضاء الجموع:.....ص359
نتائج البحث:.....ص366
مراجع البحث:.....ص370
فهرست الموضوعات:.....ص377